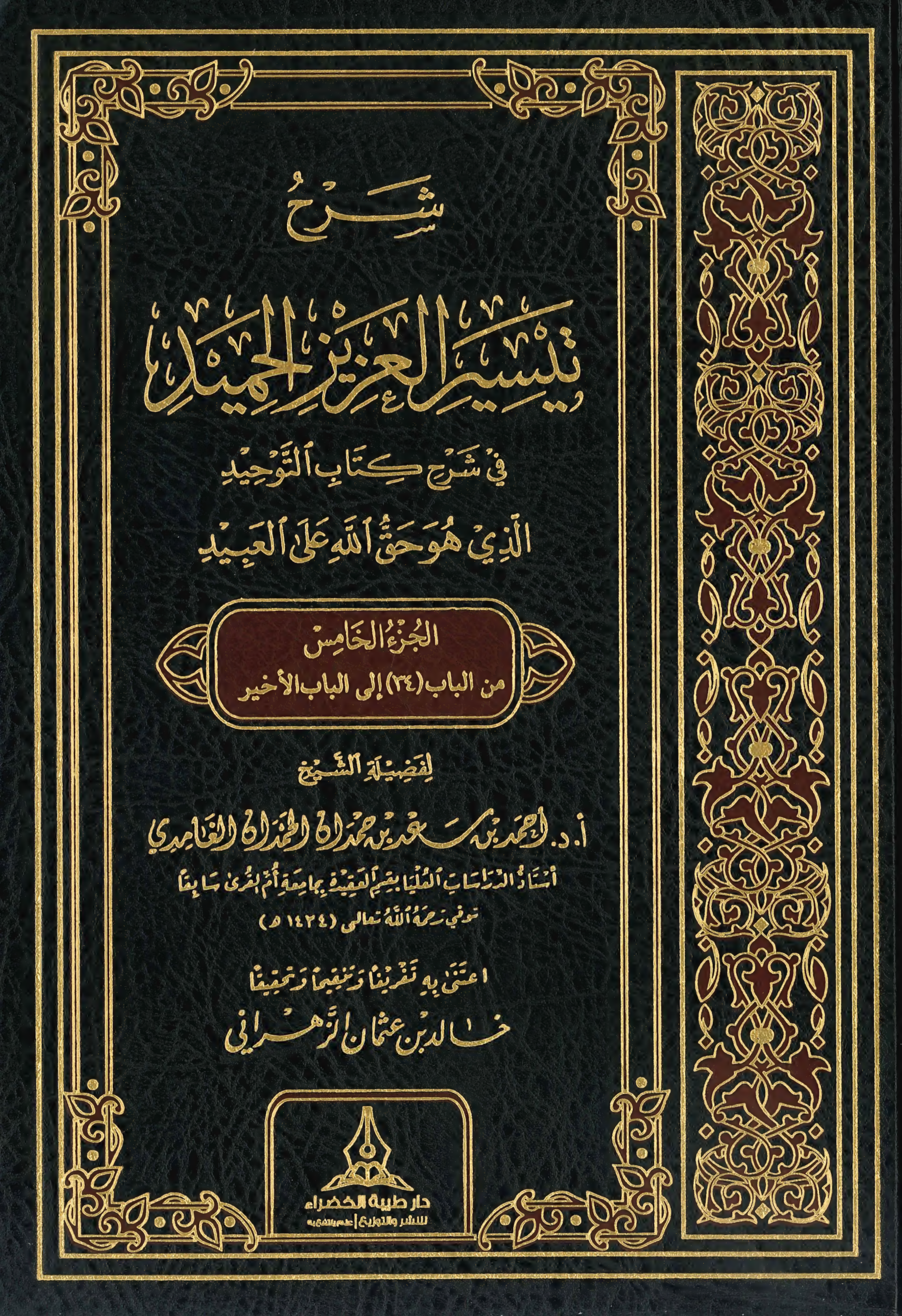
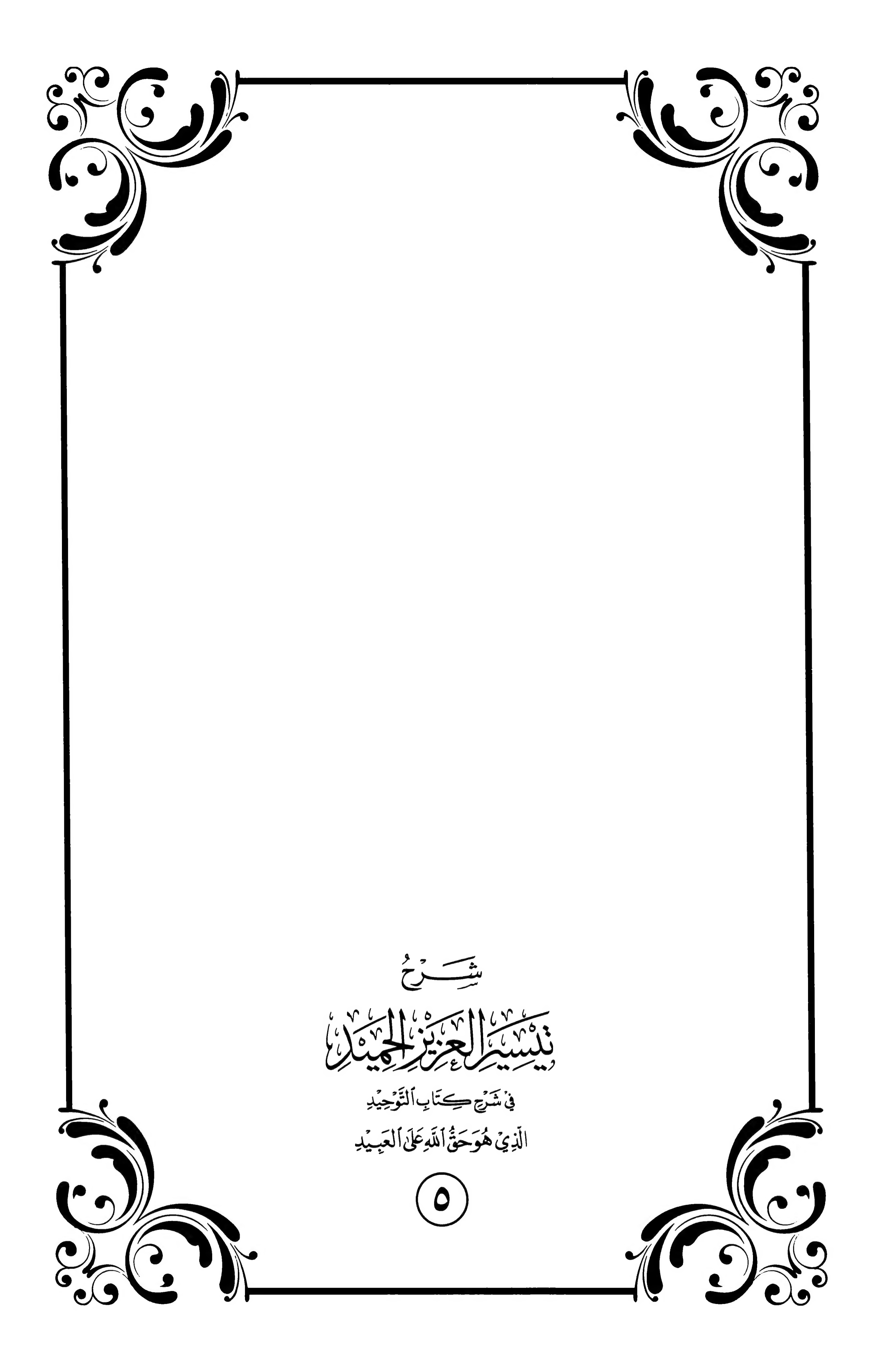

شرح
تيسير العزيز الحميد
في شرح كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد
الجزء الخامس
من الباب (٣٤) إلى الباب الأخير
لفضيلة الشيخ
أ. د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي
أستاذ الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى سابقاً
توفي رحمه الله تعالى (١٤٣٤ هـ)
اعتنى به تخريجاً وتنقيحاً وتحقيقاً
خالد بن عثمان الزهراني
دار طيبة الخضراء



شرح

تيسير العزيز الحميد

في شرح كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد

٥



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغامدي، أحمد بن سعد بن حمدان.

شرح تيسير العزيز الحميد

في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد

أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي

مكة المكرمة، ١٤٣٩هـ

٣٧٩١ ص؛ ١٧×٢٤ سم (١؛ ١)

ردمك: ٢-١٢-٨٢٥٩-٦٠٣-٩٧٨

١- التوحيد ٢- العقيدة الإسلامية أ. العنوان ب. السلسلة

ديوي ٢٤٠ ٢١٨٢/ ١٤٤٠

رقم الإيداع: ٢١٨٢/ ١٤٤٠

ردمـك: ٢-١٢-٨٢٥٩-٦٠٣-٩٧٨



الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

dar.taibagreen123 dar.taiba @dar_tg dar_tg

مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه

yyy.01@hotmail.com | ٠١٢٥٥٦٢٩٨٦ | ٠٥٠٣٥٦٨٧٧١ | ٠٥٥٠٤٢٨٩٩٢



شرح

تيسير العزيز الحميد

في شرح كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد

الجزء الخامس

من الباب (٣٤) إلى الباب الأخير

لفضيلة الشيخ

أ. د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي

أستاذ الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى سابقاً

توفي رحمه الله تعالى (١٤٢٤ هـ)

اعتنى به تفريغاً وتنقيحاً وتحقيقاً

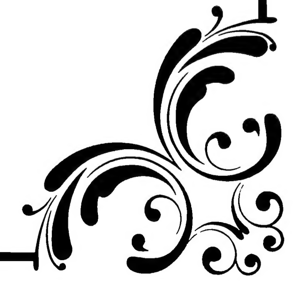
خالد بن عثمان الزهراني

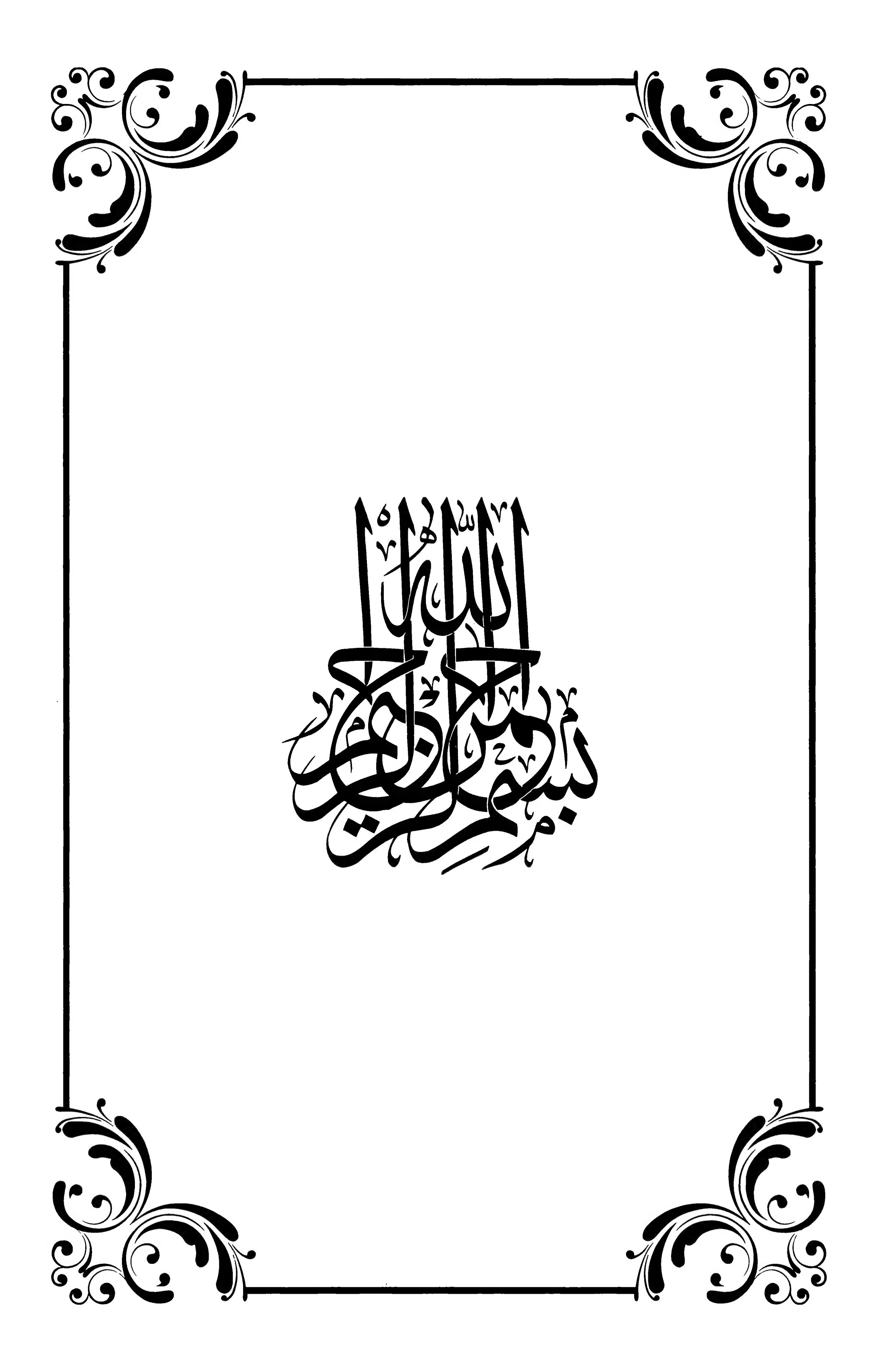


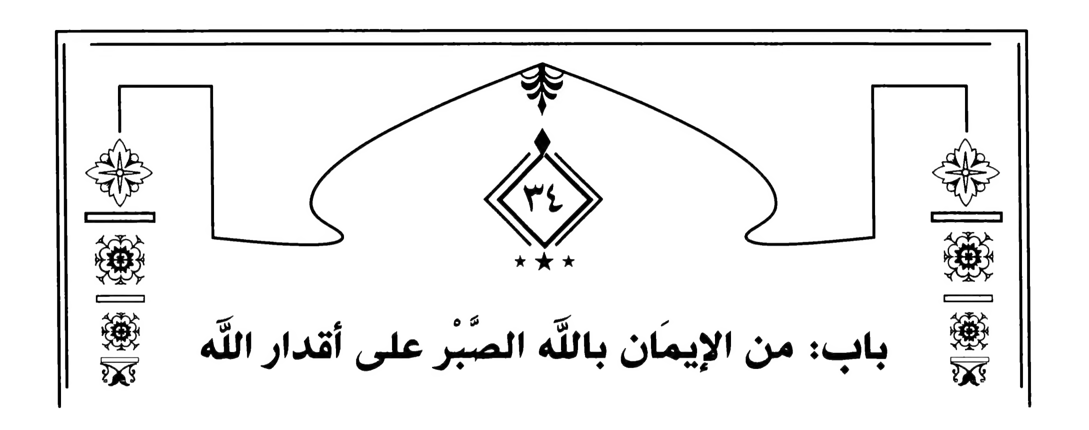


دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع | علم ينتفع به




بسم الله الرحمن الرحيم



باب: من الإيمَان باللّه الصَّبْر على أقدار اللّه

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما كان ببديع حكمته ولطيف رحمته قضىٰ أَنَّ يبتلي النَّوْعُ الإنْسَاني بالأوامر والنواهي والمصائب التي قدرها عليهم أمرهم بالصبر علىٰ ذلك، وافترضه عليهم تسلية لهم، وتقوية علىٰ ذلك، ووعدهم عليه الثواب بغير حساب، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر:١٠]، فعلىٰ هذا يكون الصَّبْر ثلاثة أنواع: صَبْر علىٰ المأمور، وصبر عن المحظور، وصبر علىٰ المقدور.

ويشملها قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ [النحل:٤٢]، ولما كان الصَّبْر لا يحصل إلا بالله كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، ارشد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلىٰ الجمع بينهما، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]. قال الإمام أحمد: ذكر الله الصَّبْر في تسعين موضعـاً.

الشَّرح

هذا الباب يتناسب مع الذي سبق، وهو يتعلق بالصبر، فالإنسان في الدُّنْيَا يُبتلىٰ، وابتلاءُ الإنْسَان في الدُّنْيَا نوعان: ابتلاءٌ بالشرعِ، وابتلاء بالقَدرِ، فأنت مُبتلىً؛ لَأنَّ الله خلقَ الحَيَاة للابتلاءِ، كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، فالله خلق المَوْت والحياةَ ابتلاءً، هذا الابتلاءُ منه ما يتعلقُ بالشَّرع، والشرعُ أوامرٌ ونواهٍ، أنت مُبتلىً بأن أمرك الله أَنَّ تصلي وتصومَ وتَحُجَّ وتُزكِّي، هذه كلُّها أوامرُ، وابتلاكَ بالنَّواهي، حرَّم عليك الكذبَ والخيانةَ والزِّنا والخمورَ، كلُّ هذه ابتلاءٌ.

فالصبرُ ضروريٌ للتغلُّب علىٰ شَهَوَاتِ النَّفْسِ، صَبْرٌ علىٰ المأمورِ؛ لَأنَّ الإنْسَان لا يستطيع أَنَّ يداوم علىٰ أَنَّ يفعل ما أمرَه الله به إلا إذا صَبَر، لكن إن لم يصبر وتعجَّل أو تزجُر خسر، وكذلك النَّواهي، النَّفْسُ تشتاقُ وتهوىٰ وتشتهي، والذي يضبِطُها هو الصَّبْرُ، وعندما تكون المعصيةُ ميسَّرةً تكون الحاجةُ إلىٰ الصَّبْرِ أشدَّ، لكن عندما يكون الإنْسَان في مُجْتَمَع ليست فيه معصيةٌ فإنه محتاجٍ إلىٰ صَبْرٍ أقلَّ، وفي العصر الحاضر نحن في حاجةٍ إلىٰ صَبْرٍ أشدَّ؛ لَأنَّ أبوابَ المَعَاصِي قد فُتحت بأنواع متعددةٍ، وأشكالٍ متنوعةٍ، والإنسان لا يعصمُه إلا أن يصبرَ؛ لَأنَّه إن لم يفعل كان العقابُ، وَإن فعل ما نُهي عنه كان العقابُ لكن بعد المَوْتِ، ولا ندري متىٰ المَوْتُ، قد نموتَ اللَّيلة، وقد نموت غداً، ليس بيننا وبين أَنَّ نرىٰ العقابَ أو الثوابَ إلا أَنَّ نموتَ، هذا يتعلَّقُ بالجانبِ الشَّرْعِي.

أمَّا الجانبُ القَدَرِيُّ الذي لا اختيار للإنسان فيه فقد يُبتلىٰ في جسمهِ بأنواع الأمراضِ، أو في مالِه بالنَّقص، أو في أسرته، أو فيمن يحبُّ، وقد ذكر القُرآن

الكَرِيم نماذج من الابتلاءِ، والابتلاءُ كان علىٰ صفوةِ البَشَر عليهم السَّلَامُ، ابتُلي النَّبيّ في جسمِه وهو أيوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وابتُلي النَّبِيّ بَابيه وهو إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وابتُلي النَّبِيّ بَابنه وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وابتُلي النَّبِيّ بزوجته وهو لوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كل أنواع البَلَاء ابتُلي بها الأنبِيَاءُ، وذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ ليُبين لنا أَنَّ الابتلاءَ ليس عِقابـًا، أو ليس إهانةً، بل الابتلاءُ حصلَ علىٰ أشرفِ النَّاس، فالإنسانُ يواجهُ الابتلاءَ بالصَّبرِ.

والصَّبرُ كما قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **(باب من الإيمَان بالله الصَّبْر علىٰ أقدار الله)** هكذا أراد الله عَزَّ وَجَلَّ، خلَق الدُّنْيَا وجعلها دارَ ابتلاءٍ، ليست دارَ ثوابٍ، فإذا رأيتَ طائعـًا لا يُثابُ في الدُّنْيَا فلا تستغرب، فإن هذه سنَّةُ الله، الثوابُ ليس في الدُّنْيَا، وإذا رأيت عاصيـًا لا يُعاقبُ لا تستغرب؛ لَأنَّ هذه سُّنةُ الله، فإنَّ الله جَعَلَ الثواب والعقابَ في الآخِرَة، قد يثيبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إنسانـًا أو يعاقبه في الدُّنْيَا علىٰ ما عملَ لحكمةٍ، ولكن ليس هذا القصدُ؛ لَأنَّ الله جَعَلَ الدُّنْيَا دار ابتلاءٍ ودارَ عملٍ، كما جاء عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: **(الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حسابٍ ولا عمل)**[1].

والله ذكرَ في القُرآن الكَرِيمِ كثيراً مما قد يُفاجَأ به الإِنْسَانُ في حياته، ذكرَ أَنَّ هناك أشخاصـًا كفروا، وأشخاصـًا سَخِروا بالمسلمين، وأشخاصـًا استهزءوا بالدِّين، وأشخاصـًا تكلَّموا علىٰ ربِّ العالمين، وذكر أَنَّ هناك فواحشَ، وَأَنَّ

---

(١) أخرجه البُخَارِي معلقـًا، كتاب الرقاق، بَاب في الأمل وطوله، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمَان مرفوعـًا إلىٰ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَاب في الزهد وقصر العَمَل، برقم: (١٠٦١٦)، (٧/ ٣٧٠)، وابن الجوزي في العلل المتناهية، برقم: (١٣٦١)، (٢/ ٨١٣)، وقال: هذا حديث لا يصح عن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هناك زنا، وَأَنَّ هناك سرقةً، وَأَنَّ هناك خموراً، فالحياةُ توجدُ فيها هذه الأشياء، فالذي يأتي إلىٰ الشبكة العنكبوتية - مثلاً - ويقول: أريد أَنَّ أطَّلِع عليها يَطَّلعُ علىٰ فواحشَ، وليس هذا غريباً، الله ذكر أَنَّ الحَيَاة فيها فَواحشُ، وتوجدُ مُجْتَمَعاتٌ تقوم علىٰ الفاحشةِ؛ لأَنَّهم ليس عندَهم دينُّ الحقِّ.

و هؤلاء الجَاهلون يجب أن ندعوهم وإلا ذنبهم هو في رقابنا نحن المُسْلِمينَ، لم نعمل بالإسلام كما أراد الله - إلا من رحم الله - ولم نُبلِّغ النَّاس الدَّين كما أراد الله، فإذا نظر النَّاس إلينا ورأَوا أخلاقنا ومعاملاتِنا ومجتمعاتِنا ليست في المستوىٰ اللائقِ، ثُمَّ قلنا: نحن مُسْلِمُون. فيقولون: أنتم مسلمون وهذا وضعُكم، وتدعوننا أَن نكون مثلَكم، فلا نريد ذلك، وهذا صحيحٌ، فكم يقع في المُسْلِمينَ من جرائمَ، ومن ظلمٍ، ومن كذبٍ، ومن خيانةٍ، ومعاملاتٍ لا يرضاها الله ﷻ؟

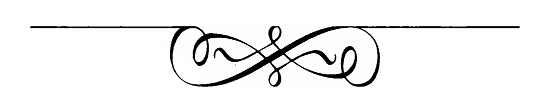
والناسُ لا يُصدِّقون الأقوالَ، ومن رحمة الله بمن يسلِم أَنَّ يعرفَ الإِسْلَام قبل أَن يعرفَ المُسْلِمينَ، نعم في العصر الحاضر - ولله الحمد - هناك عودةٌ إلىٰ الله، واستقامةٌ ووعيٌ ديني، ومعرفةُ الله بدأت تنتشر، وهذا شيء طيبٌ، لكن ينقص هذه العودةُ إلىٰ الله كثيرٍ من معرفةِ العلم الشَرْعِي، ينقُصُها تطبيقُ الأحكامِ، ومعرفةُ ما ينبغي أَن يكون أصلاً، وما ينبغي أَنَّ يكونَ فرعاً، ومعرفةُ كيف يعامِل بعضُنا بعضاً، الآن المُسْلِمونَ بل ربما يكون في الصَّالِحين وفي الدُّعاة إلىٰ الله ممن يستبيحُ بعضَهم دماءَ بعض، ويستبيحُ بعضُهم أموالَ بعضٍ، أو أعراضَ بعضٍ، لخلافٍ في قضيةٍ فيها مجالٌ للاجتهادِ.

المسلمون في خارج العالم الإِسْلَامي يشكِّلون جماعاتٍ بشكلٍ عجيب، كل عشرةٍ أو عشرين شخصاً يُشكِّلون جماعةً حتىٰ إنك تدخل في دولةٍ واحدةٍ وتجدُ في كلِّ مدينةٍ عشراتِ الجماعاتِ والمراكزِ، وكلُّ مركزٍ يُعادي الآخرَ،

وليس هذا هو الدِّين الذي أنزله الله ليجمع المُسْلِمينَ، ضَخَّمُوا بعض القضايا وجعلوها سَبَبًا للعداءِ وللشحناء، وللخصام، وهذا جهلٌ بدين الله ﷻ، وفي بعض الأيام كنت أسمعُ إذاعةَ هولندا تقول: أَنَّ المُسْلِمينَ المتحضرين في بلدنا ـ هذا تهكُّم ـ ابتدعُوا صلاةً سمُّوها صلاةَ العِصِي. ما هي صلاةُ العصي؟ هذا مَسْجِد يُصلِّون فيه، وفيه إمام ترضاه جماعةٌ معينةٌ، وجماعةٌ لا ترضاه، وبعد الصَّلَاةِ يتحرَّشُ بعضُهم ببعض، وكلُّ إنسانٍ تحت ملابسه عصاه، فإذا وقع الخصام ضرب بعضهم بعضًا وسطَ المسجد، ويأتي التليفزيون الهولندي يُصوِّر هذا المنظرَ الجميل، ثُمَّ يقول: انظروا إلىٰ المَتحضِّرين المُسْلِمينَ!، هؤلاء الذين يصلُّون، ليسوا الذين في الخمارات و أماكن الفساد، بل المصلون. فوضعُنا يَصُدُّ النَّاسَ.

وكمالُ المُسْلِمِ في ثلاثة: كمالُ الدِّين، وكمالُ العلمِ، وكمالُ العَقْل. عندنا دين وعلمٌ لكن في العَقْل ضعفٌ، نستعملُ الأشياءَ في غير مواطِنها، نُضخمُ الصغيراتِ، ونُصغِّرُ الكبيرةَ، فنحن في حاجة إلىٰ العلمِ الشَّرْعِي الذي يصون الأُمَّةَ ويجمعُها، وكم أُمرنا في كتاب الله للاتحادِ والاجتماعِ، وَأَنَّ لا نتفرَّق، فالذي لا يعرف ربما قد يغلب السُّنَّة علىٰ الواجبِ، فقد تكون هناك سنةٌ مهجورةٌ، لكن إحياؤها يُؤدِي إلىٰ تركِ واجب، فلا نحيي هذه السُّنَّة محافظةً علىٰ الواجبِ؛ لَأنَّ هذا يترتبُ عليه مُنكرٌ أشدُّ، لكن هذا لا يعني تركُ السُّنَّة، لكن لا نُحييها بصورةٍ تؤدي إلىٰ تركِ الواجبِ، مثلاً: قيامُ رمضانَ سنةٍ، وجماعةُ المُسْلِمينَ واجبةٌ، فإذا انقسموا في المسجدِ، أناس يقولون: نَصُلي عشرين ركعةٍ، وأُناسٌ يقولون: نَصُلي عشر ركعات ثُمَّ نوترُ بركعة، فإن صلينا وقعت المشاجرةُ، وإنَّ لم نَصُل ما قمنا ليالي رمضان المباركة، سُئل أحد العُلَمَاء عن هذا؛ فقال: إنَّ كان هذا الوضعُ فيجب أَن يُقفلَ المسجدُ بعد انتهاء صلاة العشاءِ وتُصلِّون في بيوتكم. قالوا: يا شيخ قيامُ رمضان!.

قـال: قيـام رمضـان سُـنَّةٌ، لكـن يترتـب عليـه تفـريطٌ في الواجـبِ الـذي هـو جماعةُ المُسْلِمينَ، فإنهم سيتعادون كما فعل إخوانُنا في هولندا، وقد يتضاربُون بالعصي، فالحل أَنَّ لا نَصُلي إلا في البيوت. قد نستثقلُ هـذا، لكـن لـيس هنـاك حلٌ إلا هذا؛ لَأَنَّه إن لم يكن هناك سـلطانٌ ينفـذُ الأوامرَ الشَـرْعِية في المُجْتَمَع وما بقي إلا الاختيار فلنختر أَن نحافظَ علىٰ الواجب، ولو وقع تفريط في السُّنَّة، لعل الله أَنَّ يجمعهم في المستقبل علىٰ السُّنَّة أيضـًا. فإعطاء كـلِّ جزءٍ في الـدِّين مكانَتـه كمـا أراد الله لا يُعـرفُ إلا عـن طريـق العلـم الشَـرْعِي، أمَّـا عـن طريـق الاجتهاد الشَّخْصي أو الرغبةِ الشَّخْصية فـلا؛ لأنَّ كـلَّ إنسـانٍ لـه هـوىٰ، والـذي يضبطُ الميولَ والهوىٰ هو القواعدُ الشَرْعِيةُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال النَّبِيّ ﷺ: (والصبر ضياء) رواه أحمد ومسلم، وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصَّبْر) رواه البُخَارِي ومسلم.

وفي حديث آخر: (الصبر نَصْف الإِيمَان) رواه أبو نعيم والبيهقي في الشعب.

وقال عمر: (وجدنا خير عيشنا بالصبر) رواه البُخَارِي.

وقال علي بن أبي طالب: (ألا إنَّ الصَّبْر من الإِيمَان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسد) ثُمَّ رفع صوته فقال: (ألا لا إيمان لمن لا صَبْر له)، والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة.

واشتقاقه من صَبْر إذا حبس ومنع، فالصبر: حبس النَّفْسُ عن الجزع، واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب، ونحوهما، ذكره ابن القَيِّم.

الشَّرح

قوله: (وقال النَّبِيّ ﷺ: والصبر...)(١) الصَّبْرُ خُلقٌ قد يُفطر ويُجبَل عليه الإنْسَان، وهذه نعمةٌ، الإنْسَان عندما يُستفَزُ أو يُواجَه بموقفٍ فيه استفزاز، فمن رحمة الله عليه أَن يكون صبوراً، لكن قد لا يكون ممن جُبِلَ علىٰ الصَّبْرِ، فماذا يفعل؟ يتَصَبَّرُ، يعوِّد نفسه علىٰ الصَّبْرِ ولا يستعجل، فإن الشَّخْص قد يستعجلُ في موقف يندم عليه، ولهذا مُدح من أُعطي هذه النِّعْمَة، ما أعطي إنسان شيئاً أفضل من الصَّبْرِ، فالصبرُ نعمةٌ، فالإنسان إذا واجه موقفاً من المواقف فيه استفزازٌ أو فيه إثارةٌ أو فيه إساءةٌ فليصبرْ فإن الصَّبْرَ - بإذن الله - لا يندمُ صاحبُه،

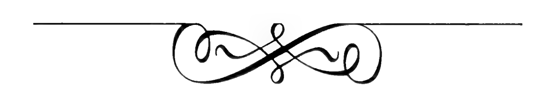
(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، بَاب فضل الوضوء، برقم: (٢٢٣)، (١/ ٢٠٣).

الذي يندمُ صاحبُ الاستعجالِ.

قولُه: (وفي حديث آخر: **الصَّبْر نَصْف...**)(١) هذا الحَدِيث من حيث السَّند لا يصح.

قولـه: (**وقـال عمـر: وجـدنا خيـر...**)(٢) هـذا رواه البُخَـارِي مُعَّلقـا؛ لَأنَّ البُخَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ يـروي الأحَادِيث بالسند غالبـا، ويـأتي أحيانـا بآثار معلَّقةٍ، أي ليس لها أسانيدُ، فكان ينبغي أَنَّ يُقالَ: رواه مُعلَّقـا أي بـدونِ سـندٍ، لكـن وردَ في كتاب آخرَ بسندٍ صحَّحَه الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قولـه: (**وقـال علـي بـن أبـي طالـب...**)(٣) هـذا هـو الصَّبْر، الصَّبْرُ: حـبسُ النَّفْسُ عن الجزعِ، واللسـانِ عـن التشـكي والسـخط؛ لَأنَّ الصَّبْر إِمَّا أَنَّ يتعلق بالداخِل، وإمَّا أَنَّ يتعلقَ بالخارج، فالصبرُ الخارجي: ضبطُ الجوارحِ واللسـانِ، فـلا تمـدُّ يـدَك، ولا تـتكلَّم بلسـانك فيمـا يُسـخطُ الله عَزَّ وَجَلَّ، وفي الـداخلِ يكـون عندك الرضا بقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمَان، بَاب في الصَّبْر على المصائب وعما تنزع إليه النَّفْسُ من لذة وشهوة، برقم: (٩٧١٦)، (٧/ ١٢٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤)، والقضاعي في مسند الشهاب، برقم: (١٥٨)، (١/ ١٢٦)، قال البيهقي والمحفوظ عن ابن عبَّاسٍ غير مرفوع.

(٢) أخرجه البُخَارِي معلقـا، كتاب الرقاق، بَاب الصَّبْر عن محارم الله.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمَان، بَاب في الصَّبْر على المصائب وعما تنزع إليه النَّفْسُ من لذة وشهوة، برقم: (٩٧١٨)، (٧/ ١٢٤)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الجامع، بَاب بر الوالدين، برقم: (٢١٠٣١)، (١١/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ١٥٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١].

أول الآية ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١] أخبر تعالىٰ أَنَّ ما أصاب من مصيبة في الأرض، ولا في الأنفس إلا بإذن الله، أي: بقدره وأمره، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، قال ابن عبَّاسٍ في قوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التغابن:١١] إلا بأمر الله،أي: من قدره ومشيئته، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن:١١] أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أَنَّهُا بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، جازاه الله تعالىٰ بهداية قلبه التي هي أصل كل سعادة وخير في الدُّنْيَا والآخرة، وقد يُخلف عليه أيضـاً في الدُّنْيَا ما أخذه منه أو خيراً منه، كما قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧]، قال ابن عبَّاسٍ: يهد قلبه اليقين، فيعلم أَنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

الشَّرح

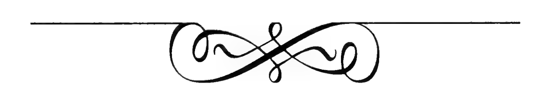
إنَّ صاحبَ الكتاب ذكر آيةً واحدة، وأثراً واحداً، وأربعةَ أحاديثَ، فهذه الآيَة هي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، وأولها ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن:١١]، وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التغابن:١١] أبلغُ وأدقُّ من

قوله: بأمر الله، هناك فرقٌ بين الإذنِ والأمرِ، الإذنُ أوسعُ، الله خلق الأشياء وجعل لها طبائع، فأذن لهذه الطبائعِ أَن تتحركَ ويحدثُ منها الأشياء، لكن لا يقع إلا بإذنه ﷻ، فإذا عرف المُؤمِن تيقَّن وصدَّق وآمن أَنَّ هذا بقدر من الله رضَيَ به.

فصاحب الملك هو الذي أذن، فما يتسخط ولا يجزعُ، ولا يتضجرُ بل يصبرُ، لكن لا يعني الصَّبْرُ علىٰ البَلَاء ألا تبحثَ عن رفع البَلَاء، بل تصبر علىٰ البَلَاءِ وتبحث عن رفعه، لكن تعلم أَنَّ هذا البَلَاءَ بإذن من الله، وأنه إن صَبَرتَ فلك فيه أجرٌ، وَإن لم تصبر فاتك الأجرُ وربما يُكتب عليك الإثمُ.

فالكونُ لا يقعُ فيه شيءٌ إلا بإذن الخالِق ﷻ، هذا يقينُ المُسْلِم، ولو وقع شيء ثُمَّ قُدر لهذا الزمن أَن يرجعَ إلىٰ الوراء ليعود مرة أخرىٰ ما وقع إلا ما وقع ولا يتغير، مثلاً لو أَنَّ إنساناً خرج من بَاب بيته السَّاعَة الثامنة صباحاً فسقطَ عند الباب، هذا حدثٌ مُقدرٌ، لو رجع الزمنُ إلىٰ اللَّيل ورجع الإنْسَان إلىٰ بيته، ثُمَّ خرج مرة أخرىٰ، أو خرجَ في نفس اليوم وفي نفس الزمنِ الذي وقع فيه فلابُدَّ أَنَّ يقع ما قدَّره الله، فلا تقل: لو أنني فعلت كذا لكان كذا. وينبغي لك أَنَّ تحتاطَ قبل وقوع الشيء، لكن إن وقعَ فلا تعتقد أنك كنت تستطيعُ أَن تردَّ هذا الذي وقع، هذا هو المُقَدَّرُ، هذا الذي أذن الله بوقوعه.

الذي يصبر يكون ثوابُه عند الله أَنَّ الله يهدي قلبَه أي: يُثبِّتَه ويُوجِّهُه إلىٰ الخيرِ، فهداية القَلْبِ أكبرُ النِّعم، إذا هدىٰ الله قلبَك وُفِقتَ إلىٰ كلِّ خير، وهو أعظمُ دعاءٍ في كتاب الله: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ [الفاتحة:٦]، الهدايةُ نعمةٌ، بل أعظمُ نعمةٍ، فالله جَعَلَ ثوابَ الصَّبْر هدايةُ القَلْب، فإذا اهتدىٰ القَلْبُ إلىٰ الخير فإنَّ هذه أكبرُ النِّعم التي يُسبغُها الله علىٰ عبدِه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الحَدِيث الصَّحِيح: (عجبًا للمؤمن لا يَقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، أَنَّ أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وَأَنَّ أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تنبيه على أَنَّ ذلك صادر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصَّبْر والرضى.

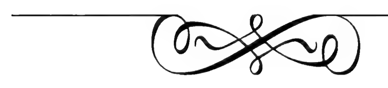


قوله: (وفي الحَدِيث الصَّحِيح...)[1] هذا الحَدِيث يُبين أَنَّ المُؤمِن على كل أحوالِه في خير، فإن أصابته سراءُ فشكرَ كان خيراً، لكن إن بطرَ ليس خيراً له، وَإن أصابته ضراءُ فصبر كان خيراً له، أَمَّا إن جزع فليس خيراً له، إنَّما الخيرُ فيما يحدث منه، فإن فعلَ الذي أمره الله به كان خيراً له، وَإن لم يفعل كان شراً عليه، فالمؤمنُ يتقلَّب في سرائه وضرائه في الخير، وليس هذا إلا للمؤمن، أَمَّا غيرُ المُؤمِن فإنه لا يستفيدُ لا من الصَّبْرِ ولا من الشكر؛ لأَنَّه لابد أَن تسبقه قاعدةٌ يُبنى عليها العَمَل، والعملُ لا يقوم إلا على الاعتقادِ الصَّحِيح، على الإِيمَان بالله عَزَّ وَجَلَّ، فالذي ليس مؤمناً لا يستفيدُ - سواء صَبْر أم لم يصبر -.

قوله: (وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ...﴾) دائمًا الآيات الكَرِيمة تأتي في نهايتها تعقيباتٌ تتعلَّقُ بأول الآيَة، فالله عَزَّ وَجَلَّ ذكر أَنَّهُ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾، ثُمَّ عقبها بعلمه عَزَّ وَجَلَّ بالمصائب وبمن يؤمنُ ويصبر:

(١) سبق تخريجه.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فإن صَبْرت يعلم، وَإن لم تصبر يعلمُ. فهذا العلمُ محيطٌ بالإنسان في كلِّ مكان، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فعندما تعرف أَنَّ الله يعلم إن صَبْرتَ وَإن لم تصبر، فإن ذلك يدفعُك إلىٰ أَن تصبر؛ لَأنَّه لا يخفىٰ علىٰ الله شيء في الأرض ولا في السماء.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (قال عَلْقَمَةُ: هو الرجلُ تُصِيبُهُ المصيبةُ فيعلمُ أَنَّهُا مِن عندِ اللهِ فيَرْضَىٰ وَيُسْلِمُ).

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن علقمة وهو صحيح، وعلقمة هو ابن قيس بن عبدالله النخعي الكوفي، ولد في حَيَاة النَّبِيّ ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم، وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم، مات بعد الستين.

قوله: (هو الرجل تصيبه المصيبة) إلىٰ آخره هذا تَفسِير للإيمان المذكور في الآيَة، لكنه تَفسِير باللازم، وهو صحيح؛ لَأنَّ هذا لازم للإيمان الراسخ في القَلْب، وقريب منه تَفسِير سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: يسترجع يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي الآيَة أَنَّ الصَّبْر سَبَب لهداية القَلْب، وَأَنَّ من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وَأَنَّ الأعمال من الإِيمَان وفيها إثبات القدر.

الشَّـرْح

قوله: (قوله: قال علقمة...) هذا الأثر ذكره البُخَارِي معلقـًا في الصَّحِيح، لكنه ورد موصولاً في تَفسِير الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم وفي غيرهما.

قوله: (قوله: هو الرجل تصيبه...) هنا يذكر رحمه الله قولين في تَفسِير الآيَة، قول علقمةَ رحمه الله: (هو الرجل تصيبه المصيبةُ فيعلم أَنَّهَا من عند الله فيرضى ويسلم)[1]، وقول ابن جبير رحمه الله: أَنَّ معنى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: من قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولهذا يقول العُلَمَاءُ: تَفسِيرُ السَلَف قد يختلف، فترى قولاً لعالمٍ، وترى قولاً آخرَ لغيره، قالوا: هذا الاختلافُ ليس اختلافَ تضادٍ، ليس بعضُها ضدَّ بعضٍ، إنَّما هو اختلاف تنوع،أي: كلُّ إنسان نظر إلى الآيَة من زاويةٍ، أو انقدحَ في ذهنه معنىً غيرَ المَعْنَى الذي قالَه الآخر، ولكن كلا المعنيين يندرجُ تحت الآيَة، فالذي يؤمن بالله، ويعلم أَنَّ الاسترجاع مما شرعه الله فإنه لابد أَن يسترجعَ، فالمسلمُ إذا أصيب بمصيبةٍ يقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، فكلا المعنيين تشملُه الآيَة.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجنائز، بَاب الرغبة في أَنَّ يتعزى بما أمر الله تعالى به من الصَّبْر والاسترجاع، برقم: (٧١٣٣)، (٤/ ١١٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: (وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قال: اثنتَانِ في النَّاس همَا بِهم كفرٌ: الطعنُ في النَّسَب، والنِّيَاحَةُ علىٰ الميتِ).

قوله: (هما) أي: الاثنتان. قوله: (بهم كفر) أي: هما بالناس، أي: فيهم كفر، قال شيخ الإِسْلَام: أي هاتان الخصلتان هما كفر قائم في النَّاس، فنفس الخصلتين كفر حيث كانتا في أعمال الكُفَّار، وهما قائمتان بالناس، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكُفْر يصير كافراً الكُفْر المطلق حتىٰ تقوم به حقيقة الكُفْر، كما أَنَّهُ ليس من قام به شعبة من شعب الإِيمَان يصير مؤمنًا حتىٰ يقوم به أصل الإِيمَان.

الشَّرح

الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ يُبيِّنُ المرادَ بإطلاق الكُفْر علىٰ المَعَاصِي، فإن الطعنَ في النَّسَب، والنياحةُ علىٰ الميت معصيتان يرتكبهما المُسْلِم، والنبيُّ ﷺ سماهما كفراً، والكفرُ في الشَّرع ضد الإِيمَان، فهل أراد الرَّسُول ﷺ أَنَّ من ارتكبَ هذا الفعل يكون كافراً خارجاً من المِلَّة؟ يقول الشَّارِحُ: لا، فهناك فرقٌ بين الكُفْرِ المُعرَّفُ بالألف واللام وبين الكُفْرِ المُنكَّر، فقال: (هما بهم كفر)[1] أي من خصال الكُفْر، وليس كل من قامت به خَصْلَة من خصالِ الكُفْر يكونُ كافراً، كما أَنَّهُ ليس كل من قامت به خَصْلَة من خصالِ الإِيمَان يكون مُؤمناً، وعندما

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإِيمَان، بَاب إطلاق اسم الكُفْر علىٰ الطعن في النَّسَب والنياحة، برقم (٦٧) (١/ ٨٢).

قال النَّبِيّ ﷺ لأبي ذر عندما عَيَّرَ بـلالاً رضي الله عنهما: (إنك امرؤٌ فيك جاهلية)[1]، لا يعني أَنَّهُ كافرٌ، إنَّما هذه خَصْلَةٌ من خصالِ الجَاهِلِيَّةِ الكافرةِ، لكن من ارتكبها لا يكون كافراً، لكن هذا تهديدٌ شديدٌ ليحذرَ المُسْلِمُ من الوقوع فيها، فالطعن في النَّسَب والنيَاحة علىٰ المَيِّتِ من خصال الكافرين، قد يرتكبها المُسْلِم، لكن لا يكون كافراً، وإنما يلحقه الوعيدُ الشديد.

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، برقم: (٣٠)، ومسلم في صحيحه، برقم: (١٦٦١)، وقد سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفرق بين الكُفْر المعرف باللام كما في قوله ﷺ: (ليس بين العبد وبين الكُفْر أو الشِّرك إلا ترك الصَّلَاة) وبين كفر منكر في الإثبات.

قوله: (الطعن في النَّسَب) أي: عيبه، ويدخل فيه أَن يُقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه في ظاهر الشَّرع، ذكره بعضهم.



الشَّرح

قوله: (وفرق بين الكُفْر المعرف...) فهناك فرقٌ بين اللفظين، واللفظُ مقصودٌ في القُرآنِ والسُّنةِ، لا ينبغي للإنسان أَن يتجاهلَ اللفظَ عند دراسته، الكُفْرُ ضدُّ الإِيمَان، لكن إذا جاء " كُفر " مُنكَّراً فإن له معنىٰ غير المَعْنَىٰ الذي يَردُ في "الكُفْر" المُعَرَّف بالألف واللام.

قوله: (قوله: الطعن في النَّسَب...) الطعن في النَّسَب غيرُ إنكار النَّسَب، والحديثُ لم يأت في إنكار النَّسَب، لكن قد يدخل فيه ضمناً، أَمَّا الحَدِيثُ فقد أراد الذي يُحِّقر أنسابَ النَّاس، ويضعُ من أنسابِهم ليَرفع نسبه، فيقول: نسبك دنِيءٌ أنت من قبيلة كذا، كما كان يفعله أهلُ الجَاهِلِيَّة، حتىٰ أَنَّ الشعراءَ كانوا يتبارون في ذمِّ القبائل وفي مدحهم، كما يُذكر أَنَّ قبيلةَ بني أنفِ النَّاقة كان الشَّخْص يستحيي أَن ينتسبُ إلىٰ هذه القبيلة، فقال الشاعر بيتاً جَعَلَهم يفتخرون، وإذا سُئل الشَّخْص منهم قال: من بني أنفِ الناقة، وقال الشاعر:

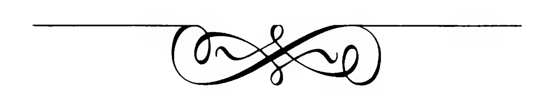
قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ... ومَنْ يُسوِّي بأنفِ الناقةِ الذَّنَبَا

فانبسطت القبيلة، ورأوا أَنَّ هذا مدح يرفعهم. وقال شاعر آخر في ذم قبيلة أخرىٰ:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباَ

فكان الشَّخْص يستحيي أَنَّ يقول من قبيلة نُمَير؛ لَأَنَّ الشعرَ كان آنذاك سلاحُهم الذين كانوا يتبارون فيه فيرفعون به أنسابَهم، أو يخفضون أنسابَ بعضهم.

فالطعنُ في النَّسَبِ خُلُقٌ جَاهِلي، فإن الأنسابَ لا ترفعُ صاحبَها ولا تضعُه، وإنما الذي يرفع الإنْسَان أو يخفضُه هو التقوىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، الذين لا ينضبطون بالشرع عندهم هذا الخلقُ: الطعنُ في أنسابِ النَّاس.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (والنياحة على الميت) أي: رفع الصوت بالندب بتعديد شمائله لما في ذلك من التسخط على القدر، والجزع المنافي للصبر، وذلك كقول النائحة: واعضداه واناصراه واكاسياه. ونحو ذلك، وفيه دليل على أَنَّ الصَّبْر واجب؛ لأَنَّ النِّيَاحَة منافية له، فإذا حرمت دل على وجوبه، وفيه أَنَّ من الكُفْر ما لا ينقل عن المِلَّة.

قالَ: (ولهما عن ابن مسعودٍ مرفوعاً: ليسَ مِنَّا مَنْ ضَربَ الخدودَ، وشَقَّ الجيوبَ، ودَعَا بِدَعْوَىٰ الجَاهِلِيَّة).

ش: قوله: (ليس منا) هذا من نَصُوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهة تأويلها ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر. وقيل: أي ليس من أهل سنتنا وطريقتنا؛ لأَنَّ الفاعل لذلك ارتكب محرما وترك واجبا، وليس المراد إخراجه من الإِسْلَام، بل المراد المبالغة في الردع عن الوقوع في ذلك، كما يقول الرجل لولده عند معاقبته: لست مني ولست منك. فالمراد أَنَّ فاعل ذلك ليس من المُؤمِنينَ الذين قاموا بواجبات الإِيمَان.



قوله: (قوله: والنياحة على الميت) يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نوعـًا من أنواع النِّيَاحَة، وهي: رفع الصوتُ عند المصائبِ، ويختصُّ كثيراً بالنساء، فإن عندهن جَزعًا، فإذا مات قريبهُن يَجزَعن ويَرفَعن الصوتَ ويندبن الميَّتَ يقلنَ: واعضدَاه واكاسياه وامُطعماه.أي: هو الذي كان يكسوهن ويُطعمُهن، فينسَين اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وهذا من أشدِّ أنواع المُحرَمات.

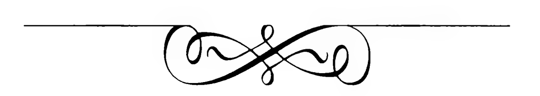
قال الشَّـارِحُ رَحِمَهُ اللهُ: وفي الحَـدِيث دليـلٌ علىٰ وجوب الصَّبْر، فلما كانت النِّيَاحَةُ التي هي ضدُّ الصَّبْر مُحرَّمةٌ، دلَّ علىٰ أَنَّ الصَّبْرَ واجبٌ، ثُـمَّ ذكـر أَنَّ في الحَدِيث دليلاً أيضـاً علىٰ أَنَّ بعض أنـواع الكُفْر لا يُخرِجُ من المِلَّة، وقـد يقـع الإنْسَان فيه، لكنه لا يُخرج من المِلَّةِ، لكنه قد ارتكب أمراً عظيماً عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (قال: **ولهما عن ابن مسعود...**)[1] هـذا مـن الأحَادِيث المُشكلةِ في تَفسِيرها؛ لأنَّ النَّفي في العربية يقتضي عـدمَ اتصالَ الشـيء بالمنفي عنه، فهنا قـال: (من فعل هـذا لـيس منـا) أي: مـن المُسْلِمينَ، فهـل مـن فعَـل هـذا لـيس مُسلِمـاً؟ بعض العُلَمَاءِ كالإمام أحمد وسفيان الثوري وغيرهما رَحِمَهُمَا اللهُ كما ذكـره أبـو عبيـد في كتـاب الإِيمَـان ـ يقولـون: (إنها لا تُفسـر؛ لَأنَّ ها إذا فُسِّـرت ربمـا يؤدي إلىٰ الاستهانة بها، بل تبقىٰ كما هي) ومـنهم مـن عـزَىٰ إلـىٰ الإمـام أحمـد رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قال: أَنَّ هذا من بَاب المُبالغَة، أي أَنَّهُا ليست حقيقةً، إنَّما هذا من بَاب المُبالغَة، ولا يُقال في كـلامِ الله وكـلامِ رسـولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّـهُ للمبالغـةِ، بـل للحقيقـةِ، لكن ما هـي الحقيقـةُ في هـذا المَعْنَىٰ؟ العـربُ تستخدمُ هـذا الأسـلوبَ حقيقـةً وتنفي الشيءَ، ولا تريدُ النَّفي المحضَ، بل تريد الزجرَ، كما يقـول الأب لابنـه: لست مِنِّي، عندما يحدث بينهما خلاف، ولا يعني هذا أَنَّهُ ينكر أَنَّ يكون ابنه، وأنَّه ابنُ زِنـا، إنمـا هـو إعـلانٌ لغضـبه عليـه، وكـره مـا فعـل مـن الأعمـال. فهـذا الحَدِيث يُنزَّلُ عليه.

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتـاب الجنـائز، بَـاب لـيس منـا مـن ضـرب الخدود، بـرقم: (١٢٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتـاب الجنـائز، بَـاب تحـريم ضـرب الخـدود وشـق الجيـوب والدعاء بدعوىٰ الجَاهِلِيَّة، برقم: (١٠٣)، (١/ ٩٩).

وقد يكون -والله أعلم- أنَّهُ أراد أَنَّ من استمرَ علىٰ هذا الفعلِ طُوال حياته، مع سماعه للتحريم من الله ومن رسوله ﷺ ربما يُؤدِّي به هذا الفعل إلىٰ الخروجِ عن الإِسْلَام؛ لَأنَّ هذا الفعلَ لا يحدثُ إلا من أهل الجَاهِلِيَّة، فكلا المعنيين مُحتَمل.

ومن العُلَمَاء من قال: أَنَّهُ ليس من أهلِ طريقتِنا،أي: أَنَّ طريقَتَنا نحن المُسْلِمينَ أَن نَصبرَ، وَأَن لا ندعو بدعوَىٰ الجَاهِلِيَّة، فهذه طريقتنا، فقد يكون أراد: أَنَّهُ خرج عن طريقتنا في هذا العَمَل، لا في كلِّ الدِّين، هذا قد يكون له وجه في التفسير والله أعلم.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (من ضرب الخدود) قال الحافظ: خص الخد بذلك لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله.

قلت: بل ولو ضرب غير الوجه كالصدر فكما لو ضرب الخد، فيدخل في معنىٰ ضرب الخد، إذ الكل جزع مناف للصبر فيحرم.

قوله: (وشق الجيوب) جمع جيب، وهو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب وكانوا يشقونه حزنًا علىٰ الميت، قال الحافظ: والمراد إكمال فتحه إلىٰ آخره.

قلت: الظاهر أَنَّ فتح بعضه كفتحه كله.



الشَّرح

قوله: (**قوله: (من ضرب الخدود...)** أي: لو أَنَّ شخصًا ما ضربَ خدَّه عند المصيبةِ، بل ضرب صدرَه، أو ضربَ فخذَيه، هل الحكم واحدٌ؟ نعم؛ لَأنَّ الحَدِيث إنما ذكرَ الغالبَ؛ لَأنَّ غالبَ النساءِ تضربُ وجههَا أشرفَ ما فيها عند المُصيبة، كما يفعله الروافض في مصيبتهم التي يزعمون أَنَّهُا مصيبة، وتتكرر في كل عامٍ، فيضربون وجوهَهم، هل ضربُ الوجه يُغير من الحقيقةِ شيئًا؟!، ما يُغيِّر، ضربت وجهكَ، أو لم تضرب وجهَك، سخطت أو لم تسخَط، لا يُغيِّرُ شيئًا، ولهذا المُسْلِم أعقلُ النَّاس، يتعامل مع القضايا بالعقل، وهذا العَقْل تربيةُ الإِسْلَام، فأمام المصائبِ ما هناك إلا الصَّبْر، كلُّ فعلٍ غيرُ الصَّبْر فإنه دناءةٌ للإنسان. فإذاً ضرب الوجوه، أو ضرب الخدود، أو ضرب الأفخاذَ أو ضرب أي مكان فهذا نقص في العَقْل والدين.

قوله: (**قوله: (وشق الجيوب...)** بعض النَّاس إذا أصيب بمصيبة أخذ يشق جيبه ويشق الثوب، فماذا حدث؟ خسرتَ الثوبَ، وخسرت الميتَ، فكلاهما خسارةٌ، فهذا من الجهل.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (ودعا بدعوىٰ الجَاهِلِيَّة)، قال شيخ الإِسْلَام: هو ندب الميت. وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور. وقال الحافظ: أي من النِّيَاحَة ونحوها وكذا الندب به، كقولهم: واجبلاه. وكذا الدعاء بالويل والثبور.

وقال ابن القَيِّم: الدعاء بدعوىٰ الجَاهِلِيَّة كالدعاء إلىٰ القبائل والعصبية للإنسان، ومثله التعصب للمذاهب والطوائف والمشايخ وتفضيل بعض علىٰ بعض في الهوىٰ والعصبية، وكونه منتسبًا إليه يدعو إلىٰ ذلك، ويوالي عليه، ويعادي، ويزن النَّاس به، فكل هذا من دعوىٰ الجَاهِلِيَّة.



الشَّرْح

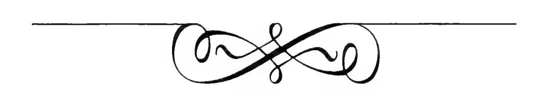
آخر الحَدِيث من الأشياء التي تعارض الهَديَ النَّبَوي والقضايا التي تتكرر في كل زمان (ودعا بدعوىٰ الجَاهِلِيَّة) وهو التعصبُ للقبيلةِ، أو التَّعصبُ للوطن، أو التعصبُ للمذهبِ، أو التعصب للجماعة، أو التعصب للحزبِ، أو التعصب للشيخِ، أو التعصب للطائفةِ، كل هذه دعوىٰ جاهليةٍ، فقد يكون ميل إنسان مع جماعة من الجماعات، فيتعصب لها ويُصحح كلَّ أعمالِها، ويبطلُ كلَّ أعمالِ غيرها، وهذا عصبيةٌ، بل ربما يعتقدُ بعضُهم أَنَّ الدِّينَ خاصٌ بهذه الجماعة، أو بهذا المذهبِ، وهذا جهلٌ، فإن الجميع عندهم بعضَ الإِسْلَام، وليست هناك طائفةٌ عندها كلُّ الإِسْلَام، من زعم أَنَّ هناك طائفةً عندها كلُّ الإِسْلَام يكون مُخطئًا، ما من طائفةٍ إلا وعندها جوانبُ نقصٍ وجوانبُ كمال، لكن كلما كانت الطائفةُ أقربَ إلىٰ الكِتَاب والسُّنَّة كانت أعمالُها أقربَ إلىٰ الحقِّ، أمَّا أَن نُزكِّيَ طائفةً بأنَّ كلَّ ما تفعله هو الحقُّ فإننا نزكي الأفرادَ والأشخاص؛ لَأنَّ الطائفة أفراد وأشخاص، والإنسان مُعرضٌ للخطأ في

تَصورِه، وفي فهمِه، وفي عملِه، ليس هناك إنسانٌ معصومٌ، قد يدَّعِي الإنْسَانُ، لكن هو نفسُه لا يكون علىٰ مستوىٰ الدَّعوىٰ.

فكل الجماعات فيها جوانبُ كمالٍ وجوانبُ نقصٍ، لكن كلما كانت الجماعة تقومُ علىٰ العلم الشَرْعِي الصَّحِيح كانت أقربَ إلىٰ الحقِّ، لكن ليس كلُّ أعمالِها حقًا، فمن يدَّعي هذا فكأنه يدَّعي أنَّهُ من المَلَائِكَة أو الأنبِيَاء، فمن يدَّعيه مُخطئٌ، لكن قد يكون المنهجُ صحيحًا، ويكون أتباعُه يعملون الصَّحِيح في الجملةِ، لكنهم لا يَسلَمُون من الخطأ، فالتعصبُ لجماعةٍ في كلِّ أعمالِها عصبيةٌ، والتعصب لشيخٍ في كلِّ ما يقول عصبيةٌ، ولهذا قال ابنُ تَيْمِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ في تفضيل قول عالمٍ علىٰ عالمٍ أنَّك لو فضَّلتَ قولَ عالمٍ علىٰ قول عالمٍ آخرَ عصبيةً لهذا العالِم، وكان هذا العالمُ قولُه حقًا لكنت آثمًا؛ لَأنَّي لم أفضله لَأنَّه حقٌّ، إنما لَأنَّه قولُ فلان، فاتباعك للقول ليس لَأنَّه عليه الدليلُ، ولكن لَأنَّك تحبُّ فلانًا، وهذا خطأٌ، كما قال بعضُ علماءِ الأصول في بعضِ المَسائل: أَنَّ هذه المسألةُ الصوابُ فيها هو مع من خالفَنا، ولكن متابعةُ الأصحابِ أولىٰ!! هذه هي العصبيةُ، أَن تعرِف أَنَّ الحقَّ في خلاف هذا القولِ، لكن لا تستطيع أَن تُفارقَ أصحابَك!!

فالمسلمُ مرادُه الحقُّ، وهدفُه الحقُّ، ليس اتباعَ مَنْهَج معينٍ، أو جماعةٍ معينةٍ، أو طائفةٍ معينةٍ، أو شيخٍ معينٍ، أو مذهبٍ معينٍ، بل يجب أَن يكون هدفَه أَن يعملَ بما عليه الدليلُ الصَّحِيحُ، وَإِن خالفَ ما هو عليه، أو خالفَ ما عليه جماعتُه أو مذهبه؛ لَأنّ الله تَعبَّدَنا بالحقِّ، لا بأقوال العُلَمَاء أو بآرائهم، الرأيُ قد يكون صوابًا وقد يكونُ خطأً، فاتباعي للرأي ليس لتعظيم الشَّخْص أو لتفضيلِه، إنَّما لاعتقادي بأنَّه هو الحقُّ.

فالعصبيةُ تشمل -كما قال ابن القَيِّم ﵀-: تفضيلُ الطائفةِ، أو تفضيلُ المذهبِ، أو تفضيلُ القبيلةِ، أو تفضيلُ أيِّ جماعةٍ من الجماعات، أو اتجاهٍ من الاتجاهات، لا لَأنَّه علىٰ حقٍ، وإنَّما عصبيةً، حتىٰ أَنَّ بعضَهم ـ كما قلنا ـ قد يقول بالقول مع يقينِه بأنَّه ليس هو الصواب، وإنما لَأنَّه يصعب عليه أَنَّ يخالفَ ما عليه أصحابُه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: الصَّحِيح أَنَّ دعوىٰ الجَاهِلِيَّة يعم ذلك كله، وقد جاء لعن من فعل ما في هذا الحَدِيث عن ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي إِمَّامة: (أن رَسُول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور)، وهذا يدل علىٰ أَنَّ هذه الأمور من الكَبَائِر؛ لأَنَّ ها مشتملة علىٰ التسخط علىٰ الرب، وعدم الصَّبْر الواجب، والإضرار بالنفس من لطم الوجه، وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه، والدعاء بالويل والثبور والتظلم من الله تعالىٰ، وبدون هذا يثبت التحريم الشديد، فأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقًا لا حرجًا علىٰ وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصَّبْر الواجب.



الشَّرح

نوجز هنا ما في الباب من مسائل.

هذا الباب ذكر فيه الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة مسائل:

أولاً: ذكر أَنَّ البُكاءَ والندبَ اليسير لا حرج فيه، كما سيأتي من حديثِ فاطمةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عندما ندبت أباها نبينا ﷺ، فقالت: واأبتاه. فقال العُلَمَاءُ: أَنَّ النَّدبَ اليسير الذي ليس فيه ما يرافقُه من شقِّ الجيوب ولطمِ الخُدودِ ونحوه لا بأس فيه.

ثانياً: ثُمَّ ذَكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ الكمال وسطٌ بين الإفراطِ والتفريط، بعض النَّاس إذا أُصيبَ بمصيبةٍ يحاول أَنَّ يتغلَّب علىٰ الطبيعة البَشَرِيَّة، ويظن أَنَّ هذا هو الكمالُ، وليس بصحيح، الكمال هو سنَّةُ نبينا ﷺ، فكان يتأثر بما يحدث من مصائبَ وكانت تظهر عليه آثار التأثرِ؛ لأَنَّه ﷺ بشر، فعندما مات ابنه إبراهيم

بكىٰ، وعندما حُمل إليه ابن ابنتِه ونفسُه تقَعقَعُ كأنها شنٌ بَكىٰ، لكنه لم يخرجُ عن هذا الإطار. كذلك في سماعِ القُرآن وقراءِته كان ﷺ يخشعُ وكان يَبكي، عندما أمر عبدَ الله بن مسعود أَنَّ يقرأَ عليه فقرأ عليه سورةَ النِّساءِ، فعندما بلغ إلىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١]، قال: (حسبك) قال ابن مسعود: فنظرت إليه وإذا بعينيه تدمعان[(١)].

فالبكاء ليس مُحرَّماً، بل هذه هي الطبيعةُ البَشَريَّة، لكنه ﷺ ما كان يخرج عن طبيعته ولا يغيبُ عن وعيه إلىٰ أَنَّهُ ينسىٰ نفسَه كما تفعلُ الصُّوفيةُ، وهم الآن يتدربون علىٰ هذا الحال أَنَّ الشَّخْصَ إذا سمع القُرآنَ يحاول أَنَّ يخرج عن وعيه، وكأَنَّه يعيشُ في عالم آخر، وبعضهم يُصعَقُ، قال العُلَمَاءُ: هذه ليست من السُّنَّة، وليست هذه الصفةُ المُتوسطةِ، والصفة المتوسطة أَنَّ لا يكون إفراطٌ ولا تفريطٌ، لا جزعٌ شديدٌ، ولا تَنكُّرٌ للطبيعة البَشَريَّة، الطبيعةُ البَشَريَّة تتأثرُ بالمُصيبةِ، لكنها مطالبةٌ بالصبرِ والرضا. فالكمالُ وسط بين الإفراط والتفريط، فلا جزع ولا جمود.

ثالثاً: أَنَّ البَلَاءَ يُكَفِّرُ الله ﷻ به من الذُّنُوبِ، فنزول البَلَاءِ بالإنسان المُؤمِن نعمةٌ، وليس نقمةٌ، ولهذا نرىٰ القُرآنَ الكَرِيمَ يذكرُ نماذجَ من أنواع البَلَاء بالأنبياءِ، نبي يُبتلىٰ في نفسِه في جسمِه، ونبي يُبتلىٰ بَابيه، ونبي يُبتلىٰ بَابنه، ونبي يُبتلىٰ بزوجته، وهكذا أنواعٌ من البَلَاء، الابتلاءُ نِعمةٌ إذا رافقَه صَبرٌ، أَمَّا إذا رافقه جزعٌ وتَسخُّط فإنه يُحرمُ الأجرُ بل قد يُكتب عليه الوزرُ. فالبلاء يُكفِّر الله ﷻ به من الذُّنُوبِ.

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب التفسير، بَاب قوله تعالىٰ: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك علىٰ هؤلاء شهيداً)، برقم: (٤٥٨٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، بَاب فضل استماع القُرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع، برقم: (٨٠٠)، (١/ ٥٥١).

رابعاً: أكثرُ الأحَادِيث التي ذكرها الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ لا تصحُّ، وهذا من عيوبِ كثير من العُلَمَاء، بل هذا مذهبٌ درجُوا عليه، لكنهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَرون أَنَّ المسألةَ إذا صحت بأدلة صحيحة جاز أَنَّ يذكروا بعد ذلك ما وردَ فيها من أحاديثَ ضَعِيفةٍ، لكن ينبغي - إن شاء الله - أَن نحرص دائماً علىٰ أَن يكون الاستشهاد بما صح عن نبينا ﷺ فقط؛ لأنَّ فيما صحَّ غُنيَةً، وما صحَّ يكفي، أمَّا ما لم يصح فلا تجوز نسبتُه إلىٰ رَسُول الله ﷺ، ولا يجوز أَنَّ نُحمل النَّاس أحكاماً أو أوامر لم تصح عن نبينا ﷺ؛ لأنَّ هذا دين، فكما أنَّهُ لا يجوز ردَّ الحَدِيثَ الصَّحِيح كذلك لا يجوزُ فرض الحَدِيثَ الضعيفَ علىٰ النَّاس.

خامساً: أَنَّ الرّضا دَرَجَة عاليةٌ، لكنه ليس واجباً لتعذُّر تحقيقِه عند كثيرٍ من النَّاس، ما هو الرضا؟ إذا نزل بالإنسان بلاءٌ يحب ألا يتغير بهذا البَلَاء، وهذه دَرَجَة عاليةٌ جداً ما فرضها الله، لو فرضها الله لعجز النَّاس عنها، لكن من رحمة الله أنَّهُ ما أمر بالرِّضا، بل أمرَ بالصَّبرِ، ولكن حثَّ علىٰ الرضا، بأن ترضَىٰ بما نزل بك، والرِّضَا دَرَجَة أعلىٰ من الصَّبْرِ، وابن تَيْميَة رَحِمَهُ اللَّهُ يرىٰ أَنَّ هناك دَرَجَة أعلىٰ من الرضا، وهي الشكر، أَنَّ يقع في قلبك أَنَّ هذا الابتلاء نعمة عليك من الله، وهذه دَرَجَةٌ أعلىٰ لا يستطيعها كل النَّاس، لكن من تعاملَ مع المصائبِ بالرِّضا طابت حياتُه، واطمأنت نفسُه، وعاش في سعادةٍ عاجلةٍ؛ لأنَّ الذي أنزل المصيبةَ هو الله، أنزلها الله ليكسب العبدُ أجراً، فلابد أَنَّ يرضىٰ، لكن الذي يكون إيمانه ضعيفٌ لا يرضَىٰ، لكنَّه ليس آثماً، لكن الصَّبْرُ لا يُنافي السَّعي إلىٰ إزالةِ المُصيبةِ، بل معنىٰ الصَّبْرُ أَن لا تشكو اللهَ إلىٰ النَّاس، ولا تتسخط علىٰ قدرِ الله، ولكنك تبحثُ عن رفعِ هذا البَلَاءِ بما أُمرتَ به من اتخاذِ الأسْبَاب، فإننا قد أُمرنا باتخاذ الأسْبَاب كما جاء في الحَدِيث: (تداووا

عباد الله، فإن الله ما أنزل داء إلا وأنزل له دواء)[١]، فهذا حثٌ علىٰ رفعِ المُصيبةِ أو رفع ما نزل من البَلَاءُ بأسبابِها.

سادساً: أَنَّ هناك فرقًا بين الرِّضا والصَّبر، الرَّاضِي لا يرضَىٰ بغيرِ الحال الذي هو فيه، وأمَّا الصابر فهو يحبُّ أَنَّ يُغيرَ الله ما به من هذا البَلَاء فيُنزِلَ به ما يقابُله من النِّعْمَة، فهذا ليس فيه حرجٌإن شاءَ الله.

سابعاً: لا تَنافي بين الرِّضا والصبر والإحساسِ بالألم، فقد يحسُّ بالألم ويتأوه أي: يصدرُ منه أنينٌ أو تَأوهٌ؛ لَأَنَّه يُحسُّ بالألم، وهذا لا ينافي الصَّبْرَ، ولا ينافي الرِّضا، بل هذا من الطبيعةِ البَشَرِيَّة التي لا يُحاسبُ الإنْسَانُ عليها.

ثامناً: الشُّكرُ -كما قال ابنُ تَيْميَة ﷺ- أعلَىٰ من الرِّضا، وهذه دَرَجَةٌ عاليةٌ لا يصلُها إلا أفرادٌ من النَّاس، لكن مع الممارسةِ والانطراحِ بين يدي الله ﷻ، والنظر إلىٰ أصل البَلَاء وما ينتج عنه من نعمةٍ بسب البلاء ربما يكتسب الإنْسَانُ هذا الموقفَ أي الشكر عند تعرضِه للابتلاء.

هذا الحَدِيث الذي قال فيه: (عن ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبيِ أمامة: **أَنَّ رَسُول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور**)[٢]، أورده ابن حبان في صحيحه، وقال المحقق: أَنَّهُ حديث حسن. وقال الشيخ الألباني - ﷺ ورفعَ درجاتِه في جنَّات النِّعيم -: هذا حديثٌ حسنٌ

---

(١) سبق تخريجه.

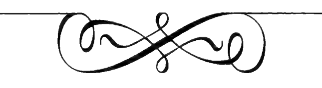
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، بَاب ما جاء في النهي عن ضرب الخدود وشق الجيوب، برقم: (١٥٨٥)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الجنائز، فصل في النِّيَاحَة ونحوها، برقم: (٣١٥٦)، (٧/ ٤٢٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ١٧٥)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٢٤٥).

رجالُه ثقاتٌ، رجالُ مُسلمٍ غير القاسم وهو ابن عبد الرحمن الدمشقي صاحبِ أبي أمامة، وهو حسَّن الحَدِيث، وقد قُرِن به مكحول وهو ثقةٌ، فكان ينبغي أَنَّ نَصُّحِحَ الحَدِيثَ لولا أَنَّهُ مُدلِّس وقد عنعنه.

قال: "إنَّ رجالَه رجالُ مُسلمٍ". هذا صحيحٌ في الظاهر، ولكنه غير صحيحٍ في الحقيقة؛ لَأنَّ هناك في علم الحَدِيث فناًّ يُسمىٰ عِلل الحَدِيث، يبحث فيه عن عللِ الحَدِيثِ الذي ظاهره السَّلَامُة منها، كما في هذا الحَدِيث الذي رواه ابن ماجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي أسامة عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، وأبو أسامةُ اسمه حماد بن أسامة من العُلَمَاءِ الثِّقاتِ، لكنَّه وهمٌ في هذا الحَدِيثِ، وهم في الشَّخْص الذي رَوىٰ عنه، نبَّه علىٰ ذلك البُخَارِي، ويعقوبُ بن سفيان الفسوي -من علماء الجرح والتعدِيل- وابنُ حبَّان، وابن أبي حاتم، وأبو داود، وابن أبي داود، قالوا: أَنَّ أبا أسامة وَهِمَ، هناك عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، هذا من رجال الصَّحِيح، وعبد الرحمن بن يزيد بن تميم، وهذا مُنكَرُ الحَدِيث، والصحيح أَنَّ الحَدِيث عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، وليس من رجالِ مُسلم كما قال الشيخُ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل روىٰ له ابن ماجه فقط، فالحديث ضَعِيفٌ معلولٌ؛ لَأنَّ في سنده هذا الرجل الذي ليس من رجال الصَّحِيحين ولا من أحدهما، وليس ثقة، بل منكر الحَدِيث، العُلَمَاء كلهم مُجمعون علىٰ أَنَّهُ متروك أو منكر الحَدِيث، لكن ظاهر سياق ابن ماجه أَنَّهُ عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وابن أبي شيبة قال: عن عبد الرحمن بن يزيد. ما ذكر جده، وهذا يحتمل الاثنين، وابن حبان قال: عن ابن جابر. فلهذا العُلَمَاء البُخَارِي وأبو داود ويعقوب قالوا: أَنَّ أبا أسامة وَهِمَ في هذا الراوي، فإنه لم يروِ أبو أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ولم يَلقَه، ومن خلال تَتَبُّعِ الأسانيدِ والرواةِ يظهرُ هذا المَعْنَىٰ.

فينبغي لطالب العلم أَنَّ يحرص دائمًا علىٰ أَن تكون له دراسةٌ؛ لَأَنَّ علمَ الحَدِيث ضروري لكل عالمٍ، نسمع الآن المحاضرات والندوات وخطبَ الجُمعَ، فنسمع أحاديثَ ضَعِيفَةً أو موضوعةً، وهذا لا يليقُ بالعالم، ولا يليقُ بالداعية، ولا يليق بالُمحاضر، لكن لَأَنَّهم إِمَّا أَنَّهُم يركنون إلىٰ ما يقرءونه في الكتب، أو أَنَّهُم لا يبحثون، وهذا خطأٌ، فنحن في حاجة إلىٰ التمحيص؛ لَأَنَّ هذا دينٌ، وأنت عندما تقول للناس حديثًا فإِنَّك تحملهم أَنَّ يعملوا به، وهو لم يصحْ، فينبغي أَن نحتاط.

الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تساهل في التصحيح، مع أَنَّهُ من علماء الأُمَّة - رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر الله له-، والفضل يعود إلىٰ الله ثُمَّ إليه في العصر الحاضر في تنبيه النَّاس إلىٰ هذا العلمِ، لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تساهل في التصحيحِ، هذا نُمُوذجٌ، وهذا الحَدِيث فيه رجلٌ ليس من رجال مُسلمٍ، والحديثُ ليس حسنًا بل ضَعِيفٌ، وَإِن كان المَعْنَىٰ جاء في أحاديث أخرىٰ، ولعل هذا - والله أعلم - أَنَّ العُلَمَاء إذا رأوا أَنَّ المَعْنَىٰ صح من حديث آخر تسامحوا في بقية الطرق، لكن لا يُحكم له، بل يُبين، هذا نُموذجٌ من النماذج للتنبيه علىٰ أَنَّ طالب العلم ينبغي له أَنَّ يحرص دائمًا علىٰ أَنَّ يحقق، ولله الحمد في العصر الحاضر وسائل التحقيقِ مُتوفرة، فالكتب قد طُبعت، بل الآن قد جُهِّزت في الحاسب الآلي بشكل يسمح للإنسان علىٰ أَنَّ يطَّلع علىٰ أكثرَ من طريق، فينبغي أَن نحرص دائمًا علىٰ أَن يكون لنا تحقيقات في هذا الجانب، وَأَن نحرص علىٰ أَن لا نقول: قال رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا ونحن واثقون من أَنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله، وذلك من خلال دراسةِ الأسانيدِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نص عليه أحمد لما رواه في مسنده عن أنس: (أن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دخل على النَّبِيّ ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه، وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه).



الشَّرح

هذا الحَدِيث رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ واستشهد به الشَّارِحُ، وهذا معارض لحديث في الصَّحِيح، أَنَّ أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما دخل إلى النَّبِيّ ﷺ فكشف الغطاء عن وجهه وقبله، ثُمَّ قال: **(بأبي أنت وأمي يا رَسُول الله، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أَمَّا المَوْتة التي قد كُتبت عليك فقد متَّها)**(١) ولم يقل: واخليلاه واصفياه. والحديث ضَعِيفٌ فيه شخصٌ مجهولٌ يسمى يزيد بن بَابنوس كما قال المحقق، لكن المَعْنَى سيأتي من حديث فاطمةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. فأحيانـًا بعض العُلَمَاء يرى أَنَّ الحَدِيثَ إذا صحَّ معناه من متنٍ آخرَ يتسامحُ في الحكمِ أو الاستشهادِ بهذا الحَدِيث، فالحديثُ هذا ضَعِيفٌ.

عرفنا هذا الكَلَام من كتبِ الرجالِ، علماءُ الحَدِيثِ ترجموا لكل الرُّواة، فإن وجدوا فيه كلامـًا عن العُلَمَاءِ الأقدمين يُعرفُ به ذكروه، وَإن لم يجدوا من يُعرِّفه ولا يَعرِفه هو، ولكن اسمُه في السند، ذكروه وسكتوا أو قالوا: مجهولٌ.

---

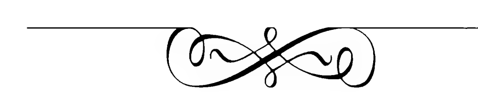
(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الجنائز، بَاب الدخول على الميت بعد المَوْت إذا أدرج في أكفانه، برقم: (١٢٤١).

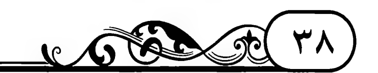
إِمَّا مجهولُ العين، إذا لم يروِ عنه إلا شخصٌ واحد فهو مجهول العين أي غيرُ معروف؛ لَأنَّه لابد في معرفة عينِه أَن يرويَ عنه شخصان، كأنهما شاهدان علىٰ أَنَّ هذا من طلاَّب العلم، وَإن لم يذكروا في ترجمته أَنَّهُ ثقةٌ ولا ضَعِيفٌ، بل سكتوا عنه، هذا يُسمىٰ مجهولُ الحال،أي: لا يُعرَف، وهذا لا يُستشهَد به.

فهذا الحَدِيث فيه علّتان:

الأولى: أَنَّهُ مُعارضٌ بما صح، فإن أبا بكر رضي الله عنه لم يقل هذا الكَلَام في الحَدِيث الصَّحِيح.

والثاني: أَنَّ سندَه ضَعِيفٌ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك صح عن فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُا ندبت أباها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: (يا ابتاه أجاب ربًا دعاه) الحَدِيث.

واعلم أَنَّ الحَدِيث المشروح لا يدل علىٰ النهي عن البكاء أصلاً، وإنما يدل علىٰ النهي عما ذُكر فيه فقط، وكذلك يدل علىٰ النهي عما في معناه كالبكاء برنة وحلق الشعر وخمش الوجوه ونحو ذلك، أَمَّا البكاء علىٰ وجه الرحمة والرقة ونحو ذلك فيجوز، بل قال شيخ الإِسْلَام: البكاء علىٰ الميت علىٰ وجه الرحمة حسن مستحب، ولا ينافي الرضىٰ بقضاء الله بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه.



الشَّرح

قوله: (وكذلك صح عن فاطمة...) هذا جزء من حديثٍ في الصَّحِيح، وهذا الذي جَعَلَ العُلَمَاء يقولون: أَنَّ الندبَ اليسير الذي ليس معه سخطٌ أو جزعٌ يجوز. إِنَّما المحظورُ النِّيَاحَةُ ورفعُ الصوتِ بالندب، أَمَّا الصوتُ المنخفض بذكر بعض محاسن الميت التي لا تدل علىٰ أنك قد فقدت حظَّك منه، وما زعمت أَنَّ موته سيؤثرُ علىٰ رزقِك، وسيؤثرُ علىٰ شيء في حياتِك فيجوز، فإذا ذكرتَ بعضَ فضائله بهذا الأسلوبِ الذي ليس فيه جزعٌ، ولا رفعُ صوتٍ فإن هذا ليس فيه حرجٌ إن شاء الله.

قوله: (واعلم أَنَّ الحَدِيث المشروح...) أي: بحسبِ نيةِ الباكي، فلا يجوز بكاؤه ورفعُ الصوت من أجل أَنَّهُ قد فات حظُّك منه، أَمَّا رقةٌ به ورحمةٌ به فهذا أمرٌ مُختلِفٌ، وفي الحقيقةِ ليس هناك دليل من السُّنَّة علىٰ هذا التفريق، إنما أخذه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ظاهرِ الآثارِ والأحاديثِ، فعندما بكت فاطمة وسمعها النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ولم يزجُرها دلَّ علىٰ أَنَّ مثل هذا جائزٌ؛ لأَنَّه ليس فيه ذكرٌ لحظِّها منه ﷺ، إنما قالت: (يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، إلىٰ جبريلِ ننعاه)[1] أي: كلامٌ ليس فيه تسخُّط، وإنَّما فيه إحساسٌ بالمصيبةِ وبالألمِ؛ لأَنَّ ها بشرٌ، والإنسان ليس مطلوبًا منه أَنَّ يخرجَ عن بَشريته، لكن لا يخرجُ عن المأذون به في الشَّرعِ.

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب المغازي، بَاب مرض النَّبِيّ ﷺ ووفاته، برقم: (٤٤٦٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: ويدل لذلك قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ لما مات ابنه إبراهيم: (تدمع العين ويحزن القَلْب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون) وهو في الصَّحِيح.

وفي الصَّحِيحين: (عن أسامة بن زيد أَنَّ رَسُول الله ﷺ انطلق إلىٰ أحد بناته، ولها صبي في المَوْت فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها شن ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رَسُول الله؟ قال: هذه رحمة جَعَلَها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء).

الشَّرْح

قوله: (قلت: ويدل لذلك قوله...) هذا في الصَّحِيحين، فهذا القول من النَّبِيّ ﷺ؛ لَأنَّه ﷺ ما كان يتنكرُ لبشريته، ابنه يموت فتأخذه العاطفة والرحمة فتفيض عيناه وليس كما يفعل بعضُ النَّاس، يموت ابنه ويجلسُ في الحلقةِ وكأنَّ شيئًا لم يكن، هذا يخالفُ الهديَ النَّبوي؛ لَأنَّ النَّبِيّ ﷺ عندما مات ابنه تأثَّر وحزنَ، لكنه انضبطَ بالشَّرع، انضبط بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقال: (لا نقول إلا ما يرضي ربنا عَزَّ وَجَلَّ)[1] وَإن كنا نحزن، وهذا المَوْتُ كان مصيبةً عليه ﷺ، لكنه ينضبطُ بشرعِ الله عَزَّ وَجَلَّ، هذا هو الاعتدالُ، لا تَنكُّرَ للبشريةِ، ولا خروجَ إلىٰ دعوىٰ الجَاهِلِيَّةِ، و الحَدِيث: (ليس منا من شق الجيوب، ولطم الخدود، ودعا

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الجنائز، بَاب قول النَّبِيّ ﷺ (إنا بك لمحزونون)، برقم: (١٣٠٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، بَاب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، برقم: (٢٣١٥)، (٤/ ١٨٠٧).

بدعوىٰ الجَاهِلِيَّة)[١] هذا هو المحظورُ، أَمَّا البكاءُ والحزنُ والتألُّم فإنَّ هـذه من صفات البَشَر التي لم يأت الشَّرعُ بإلغائها.

قوله: (إلىٰ أحد بناته) لغةً لا تجوزُ، إنَّما ينبغي أَنَّ يقول: إلىٰ إحدَىٰ؛ لَأنَّ " أَحَدَ " مُذَكَّرٌ.

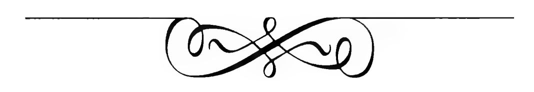
قوله: (وفي الصَّحِيحين: عن أسامة بن زيد...) القَلْبُ المُؤمِن قلب رحيمٌ يتألَّم بالمصاب، أَمَّا القَلْبُ الذي ليس فيه إيمانٌ فهو قلبٌ قاسٍ، وهناك مثال لرحمة القَلْبِ أَنَّهُ عندما جاء الأقرعُ بن حابس ورأىٰ النَّبِيّ ﷺ يُقبِّلُ أحدَ أبناء بناته، فقال: يا رَسُول الله، أتُقبِّلُون أولادَكم؟ قال: نعم قال: والله إني لي عشرة من الولد ما قبَّلت واحداً منهم، قال: (ماذا أفعل بك إذا كان الله قد نـزعَ الرحمةَ من قلبك، إنَّما يرحمُ الله من عباده الرحماء)[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

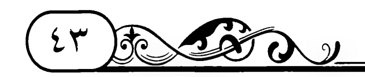
(٢) هذا الحَدِيث بهذا السياق لم أجده في دواوين السُّنَّة، والصواب أَنَّهُ ثلاثة أحاديث، الأول: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قبل الحسن ابن علي وعنده الأقرع بن حابس جالساً، فقال الأقرع: أَنَّ لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رَسُول الله ﷺ ثُمَّ قال: "من لا يَرحم لا يُرحم"، أخرجه الشيخان، صحيح البُخَارِي، كتاب الأدب، بَاب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم: (٥٩٩٧)، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، بَاب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، برقم: (٢٣١٨)، (٤/ ١٨٠٨). الثاني: جاء أعرابي إلىٰ النَّبِيّ ﷺ فقال: تقبلون الصبيان، فما نقبلهم، فقال النَّبِيّ ﷺ: أو أملك لك أَنَّ نزع الله من قلبك الرحمة"، أخرجه البُخَارِي في صحيحه، نفس الموضع، برقم: (٥٩٩٨). الثالث: عن أسامة ﷺ قال كنا عند النَّبِيّ ﷺ إذا جاءه رَسُول إحدىٰ بناته يدعوه إلىٰ ابنها في المَوْت، فقال النَّبِيّ ﷺ ارجع إليها فأخبرها أَنَّ لله ما أخذ وله ما أعطىٰ وكل شيء عنده بأجل مسمىٰ، فمرها فلتصبر ولتحتسب، فأعادت الرَّسُول أَنَّهُا قد أقسمت لتأتينها، فقام النَّبِيّ ﷺ وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ ابن جبل فدفع الصبي إليه ونفسه تقعقع كأنها في شن، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رَسُول الله، ما هذا، قال: هذه رحمة جَعَلَ ها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله =

فأحيانـًا التربيـة علـىٰ الخشـونةِ والجلافـةِ تجعـل الإنْسَـان غليظـًا في المعاملةِ، غليظًا مع أهلِه، غليظـًا مع أولادِه، غليظـًا مع جيرانه، غليظـًا مع النَّاس، أمَّا الإِيمَانُ فيرقق القَلْب، الإِيمَان يجعل الإنْسَانَ بشراً رحيمـًا يرحم الإنْسَانَ، بل يرحم الحيوان كما جاء في الحَدِيثِ لما قالوا له: (**إن لنا في البهائم لأجرا؟ فقال ﷺ: في كل كبد رطبة أجر**)[1]، فالرحمةُ من صفات المُؤمِن سواء كان يرحمُ من ماتَ، أو يرحم الأحياءَ، لكنَّه ينضبطُ بضابط الشَّرعِ، ولا يخرجُ عن الحدِّ المشروعِ.



= من عباده الرحماء"، أخرجه الشيخان، صحيح البُخَارِي، كتاب التَّوْحِيد، بَاب قول الله تعالىٰ: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)، برقم: (٧٣٧٧)، صحيح مسلم، كتاب الجنائز، بَاب البكاء علىٰ الميت، برقم: (٩٢٣)، (٢/ ٦٣٥).

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، برقم: (٢٣٦٣)، ومسلم في صحيحه، برقم (٢٢٤٤)، وقد سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: (وعن أنس أَنَّ رَسُول الله ﷺ قال: إذا أرادَ الله بعبدِه الخيرَ عَجَّلَ لهُ العقوبةَ في الدُّنْيَا وإذا أَرَادَ الله بِعَبدِه الشَّرَّ أمسَكَ عنه بِذَنبِهِ حتىٰ يوافي به يَومَ القِيَامَةِ).

هذا الأثر رواه التِّرمِذِي والحاكم وحسنه التِّرمِذِي، وفي إسناده سعد بن سنان، قال الذهبي في موضع: سعد ليس حجة. وفي آخر: كأنه غير صحيح. وأخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن مغفل، وأخرجه ابن عدي عن أبي هريرة، والطبراني عن عمار ابن ياسر، وحسنه السيوطي.

قوله: (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدُّنْيَا)، قال شارح الجامع الصغير: أي بصب البَلَاء والمصائب عليه جزاء لما فرط منالذُّنُوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافىٰ به يَومَ القِيَامَةِ، كما يُعلم من مقابله الآتي، ومن فعل ذلك به فقد أعظم اللطف به؛ لَأنَّ من حوسب بعمله عاجلاً في الدُّنْيَا خف جزاؤه عليه حتىٰ يكفر بالشوكة يشاكها، حتىٰ بالقلم يسقط من الكاتب فيُكفر عن المُؤمِن بكل ما يلحقه في دنياه حتىٰ يموت علىٰ طهارة من دنسه.

الشَّرح

قوله: (قال: وعن أنس أَنَّ رَسُول الله...)[1] وهذا الحَدِيثُ ضَعِيفٌ، وفي سندِه كما قال المحقق: سعد بن سنان. قال الإمام أحمد رحمه الله: لم أكتبُ حديثه؛ لأَنَّهم اضطربوا فيه، وفي حديثه. وقال النسائي رحمه الله: منكرُ الحَدِيث. وقال الجوزجاني رحمه الله: أحاديثُه واهية. وقال الدارقطني رحمه الله: ضَعِيفٌ. ونُقلت روايةٌ أُخرىٰ عن الإمام أحمد رحمه الله أَنَّهُ قال: ثِقةٌ. فهناك روايتان للإمام أحمد رحمه الله. وهذا الحَدِيثُ له أكثرُ من طريقٍ، فقد ورد عن أبي هريرة، وعن عمار بن ياسر، وعبد الله بن مغفل، وعن ابن عبَّاسٍ -رضي الله عنهم أجمعين- رواه الطبراني، لكن فيها ضعفاءُ، فهذا الذي - والله أعلم - جَعَلَ التِّرمِذِي يُحسِّنُ به الحَدِيثَ.

قوله: (قوله: إذا أراد الله بعبده الخير...) وسيأتي أَنَّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل الدُّنْيَا لا دارَ جزاءٍ، ولا دارَ ثَوابٍ، إنَّما جَعَلَها دارَ عملٍ، بل الجزاءُ: الثوابُ والعقابُ في الآخِرَة، فليس من شرط الشَّخْصِ إذا لم يصبْه بلاءٌ في الدُّنْيَا أَن يُعاقَب في الآخِرَة؛ لأَنَّ الله عز وجل كريمٌ، قد يكرمُه في الدُّنْيَا، ويكرمُه في الآخِرَة، لكن إذا أراد سبحانه وتعالى بعبدٍ خيراً فأصابه بالبلاء فذلك لأَنَّه عز وجل يعلمُ أَنَّ هذا الإنْسَانَ لا يدفعُه لعملِ الخيرِ إلا البَلَاءُ، كم من إنسان إذا كان مُعافَىً يكون جاحداً كنوداً: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق:٦، ٧].

---

(١) أخرجه التِّرمِذِي في سننه، كتاب الزهد، بَاب في الصَّبْر علىٰ البَلَاء، برقم: (٢٣٩٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب الأهوال، برقم: (٨٨٦٠)، (٥/ ٧٤)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٤٢٥٤)، (٧/ ٢٤٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، برقم: (٢٩٢)، (٥/ ١٣١)، قال الألباني في تعليقه علىٰ التِّرمِذِي: حسن صحيح.

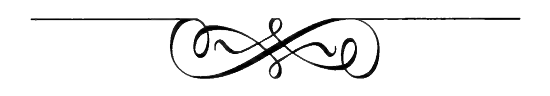
الإنْسَان أحيانـًا إذا كانت له نعمـةٌ في المـال، أو نعمـةٌ في الجـاهِ، أو نعمـةٌ في العافيةِ يطغىٰ، فمن رحمة الله بالإنسان أَن لا يعطيـه المـالَ، بـل يبتليـه بـالفقرِ أو بالمرضِ رحمـةً بـه، وإلا فلـو أعطـاه الله عافيـةً لبحـث عـن المَعَاصِـي، لكـن إذا أمرضَه الله يستكينُ، فالله ﷻ يصيبه بالمرضُ، وهناك حوادث وقصصٌ وقعت لأشخاص، فقبل عشرين عامـًا أو أكثر كـان هنـاك إنسـان يحـافظ علىٰ صـلاة الجماعةِ في الحرمِ، وكان يحملُ الماء علىٰ الدَّابَّة، فكلما جـاءت الصَّـلَاة دخـلَ الحرمَ، وهذا جاء مقابلُ بيته مشروعٌ، فجاءته مبالغُ ضـخمةٍ جـداً، فنسـي الدَّابَّـة ونسي المـاءَ، وتغيَّر تغيُّراً كاملاً، وترك الصَّلَاةَ، وترك الدِّينَ بكاملِـه، حتىٰ قـال له بعضهم: صَلِّ. قال: ما رأينا من الصَّلَاة خيـراً. فبقـاؤه علىٰ الفقـرِ أصـلحُ لـه، لكن الله لا يحبُّه؛ لَأنَّه يعلـمُ أَنَّ قلَبـه فيـه دخـنٌ، لـيس فيـه خيـرٌ، فمـن رحمـة الله بالعبد أَن يُصيبَه بـالمرضِ أو بـالفقرِ، وربمـا يكـون بعـضُ النَّـاس لا يُصـلِحُه إلا الغنىٰ، فلو افتقرَ ربُّما يسرقُ، ويكون مُجرِمـًا، فمن رحمة الله به أَن يُعطيَه مالاً.

فالله هو الذي يُدَبِّر أمرَ المُؤمِن، فينبغي للإنسان أَن يسأَلَ الله ما فيـه الخيـرُ؛ لَأنَّ الإنْسَانَ لا يعلمُ، قـد يكـون الخيـرُ في العافيـة وقـد يكـون في المـرضِ، وقـد يكون في المالِ وقد يكون في الفقرِ، وقد يكون في الجاهِ وقـد يكـون في الضـعفِ، فيسأل اللهُ أَنَّ يختارَ له ما فيه الخيرُ؛ لَأنَّ النَّفْسَ البَشَرِيَّةَ لا يعلم أسـرارها إلا الله ﷻ، ربما يظنُّ الإنْسَانُ أنَّهُ لو جاءه المـال يُقـومُ بحـقِّ الله عليـه في مالِـه، ولكـن عندما يأتيه ربما يكون شخصـًا آخر، ويقـول ابـن القَـيِّم ﵀ في بعـض كتُبِـه: إذا كان لك صديق فابتُلي بجاهٍ لا تطلـب منه أَن يبقَـىٰ علىٰ نفس الخُلُـقِ السابق، قال: النَّفْسُ تَتغيرُ، هـذا كـان متواضِـعـًا، ويـتكلَّم معـك بكـلامٍ عـادي، ويتبسَّـط معك، ولكنه الآن شخصٌ آخرَ، فَغَيِّر المعاملةَ معه، فإن طلبتَ منه أَن يبقَىٰ كمـا كان سابقـًا تكونُ مُخطِئـًا؛ لَأنَّك ما جرَّبت، لو جرَّبت لتغيرت.

فهكذا النَّفْسُ البَشَرِيَّة ينبغي أَنَّ تُساسَ، فإذا رأيت إنساناً صديقاً لك، وإذا به أصبحَ وزيراً، أو رئيساً لإدارةٍ كبيرةٍ، وأنت كنت تداعبه بكلام أو بفعل، فلما أصبح في مركزٍ كبيرٍ صَعُبَ أَن تفعل معه ما كنت تفعلُ. فلابدَّ أَن تراعيَ الوضعَ الجديدَ، النَّفْسُ البَشَرِيَّة عجيبةٌ جداً، فلا ينبغي لك أَنَّ تطالبه أَن يبقىٰ كما كان، نادراً ما يبقىٰ الإنْسَان علىٰ حالِه الأول، هذا أفذاذ من الرجال، وليس كلُّ النَّاسِ كذلك.

فالنفسُ لها صفاتٌ عجيبةٌ حتىٰ قال بعض الكُتَّابِ غيرِ المُسْلِمينَ، نشير لهذا الكاتب الفرنسي الكسس كارل، يقول في كتابه (الإنسان ذلك المجهول): الغربُ يجهلون حقيقةَ تركيبةِ النَّفْسِ البَشَرِيَّة، ويظنون أَنَّهُم يعرفونها، وبسبب هذا الجهلُ أساءوا إلىٰ الإنْسَان وحطَّمُوه، وتسبَّبَت هذه المعاملةُ السيئةُ للإنسان إلىٰ الأمراضِ النَّفْسُية، والأمراضِ العَقْليةِ بسبب جهلِهم بالإنسان، ثُمَّ يقول: إذا أردتم أَنَّ تُشرِّعوا للإنسان فاخلقوا الإنْسَانَ. ما تستطيعون أَن تُشرِّعُوا لهذا الإنْسَانِ؛ لأَنَّه ليس خلقكم. فالتشريع ما يكون منكم، يأتي من الذي خلقَ الإنْسَانَ؛ لأَنَّ طبيعةَ النَّفْسِ البَشَرِيَّة لا يعرفُها إلا الله ﷻ، ولهذا لم يجعلِ التشريعَ للبشر، الله الذي أنزلَ نظامَ المادة، وكذلك هو الذي أنزلَ نظامَ الإنْسَانِ، فإذا أرادَ الإنْسَانُ أَن يجعلَ لنفسه تشريعاً فإنَّه يُفسدُ، وهو لا يدري أَنَّهُ يُفسدُ؛ لأَنَّه لا يعرف معنىٰ الفساد، ولا معنىٰ الصلاح.

قوله: (شارح الجامع الصغير) المناوي هو شارحُ: (الجامع الصغير)، وكتاب (الجامع الصغير)، وكتاب: (الجامع الكبير)كلاهما للسيوطي رحمهما الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: وفي الصَّحِيح: (لا يزال البَلَاء بالعبد حتىٰ يمشي علىٰ الأرض وليس عليه خطيئة)، وفي المسند وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعًا: (لا يزال البَلَاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله وفي ولده حتىٰ يلقىٰ الله وما عليه خطيئة).

قال شيخ الإِسْلَام: المصائب نعمة؛ لأنَّها مكفرات للذنوب، ولأنها تدعو إلىٰ الصَّبْر فيُثاب عليها، ولأنها تقتضي الإنابة إلىٰ الله، و الذُّل له، والإعراض عن الخلق إلىٰ غير ذلك من المصالح العظيمة، فنفس البَلَاء يُكفر الله به الخطايا، ومعلوم أَنَّ هذا من أعظم النعم، ولو كان رجل من أفجر النَّاس فإنه لا بُدَّ أَنَّ يخفف الله عنه عذابه بمصائبه.


الشَّرح

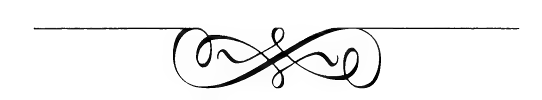
قوله: (قلت: وفي الصَّحِيح...)[1] المحقق قال: هذا اللفظ ليس في الصَّحِيح،أي: إذا أُطلق كلمة الصَّحِيح يُراد بها أحدُ الصَّحِيحين البُخَارِي ومُسلم، أو كلاهما، إلا إذا أرادَ صاحبَ المَتن أَنَّ هذا فيما صحَّ من الأحَادِيث فيكون له وجهٌ.

(١) أخرجه التِّرمِذِي في سننه، كتاب الزهد، بَاب في الصَّبْر علىٰ البَلَاء، برقم: (٢٣٩٨)، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، بَاب الصَّبْر علىٰ البَلَاء، برقم: (٤٠٢٣)، والنسائي في الكبرىٰ، كتاب الطب، بَاب أي النَّاس أشد بلاء، برقم: (٧٤٣٩)، (٧/ ٤٦)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٨٤١)، (٣/ ٧٨)، والبيهقي في شعب الإِيمَان، فصل في أي النَّاس أشد بلاء، برقم: (٩٧٧٥)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٨٣٠)، (٢/ ١٤٣)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الجنائز، بَاب ما جاء في الصَّبْر وثواب الأمراض، برقم: (٢٩٠٠)، (٧/ ١٦٠)، وأخرجه أيضًا ابن أبي شيبة في المصنف، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، والضياء المقدسي في المختارة والطيالسي في مسنده وغيرهم، قال التِّرمِذِي: هذا حديث صحيح.

قوله: (قال شيخ الإِسْلَام: المصائب...) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّ المصائبَ تدعو إلىٰ الصَّبْر ويُثاب عليها صاحبُها، وتدعو إلىٰ الإنابة و الذُّلّ، لكن ليس كلّ إنسانٍ كذلك، بعض النَّاس يصيبُه المرضُ فيجزعَ، بل ربَّما يبحثُ عن علاجِه فيما يُؤثِّر علىٰ دينه، يذهب إلىٰ الكُّهان؛ لَأنَّ الإنْسَانَ وقت المرضِ ووقت الشدةِ والبلاءِ يضعفُ تفكيرُه، يضعف مهما كان، وتشهد له قصةُ فرعونَ الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات:٢٤]، عندما حدثَ ذلَّه أمامَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فضعُف، ورأىٰ أَنَّهُ قد خرجت من يدِه السلطةُ، وأنه قد انكشف أَنَّهُ ليس ربـًا ولا إلهـًا، وَأَنَّ مُوسَىٰ قد تحدَّاه فَقَدَ صوابَه وضَعُفَ، وأخذَ يترفَّقُ بحاشيتِه، يقول: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٢٦]، نقول: من منعَه من قتلِ مُوسَىٰ حتىٰ يقول اتركوني؟، لكن هكذا في وقتِ الضعفِ ووقتِ الشَّدةِ الإنْسَان يضعفُ الإنسَانُ حتىٰ المُؤمِنُ، لو قيل له: أَنَّ علاجك عند الكاهنِ الفلاني لذهب إليه - إلا من رحمَ ربي - وذلك من حرص الإنْسَانِ علىٰ العافية، لكن لو عرف المُسْلِمُ أَنَّ البَلَاءَ من الله، والعافيةَ من الله، وَأَنَّ العافيةَ ليست أفضلَ من الدَّينِ، لحافظَ علىٰ دينِه أكثرَ من عافيته؛ لَأنَّ العافيةَ نفعُها قليلٌ، ثُمَّ إذا مات انتهت، لكن الدَّين نفعه مستمرٌ، فيحافظُ علىٰ دينه ولو فقدَ عافيتَه، فيبحث عن العافيةِ في مظانِّها فيما أباحَه الشَّرعُ.

لكن الإنْسَانُ يَضعفُ أحيانـًا، وتأتيه التأويلاتُ ويتـأوَّل يقـول: هـذا يمكـنُ أَنَّهُ يجوزُ، ربَّما هذا فيه خيرٌ، وهكذا، فربمـا يـذهب إلـىٰ مـن مُنع مـن الـذِّهاب إليـه؛ لَأنَّـه يبحـثُ عـن العافيـةِ، ولا يُقـارنُ بـين مـا سيكسبه ومـا سيخسـره، قـد يكسـبُ العافيـة، مـع أنَّهـا أمـرٌ لـيس مضـمونـًا، فـإن الكُهَّـانَ والسـحرةَ دجـالون

كذابون يستغلون ضعفَ الإنْسَان، وربما يشفىٰ أيامـًا، ويعاودُه عليه المرض؛ لَأنَّ هؤلاء تجارٌ ولا إيمانَ لهم، ولا أخلاقَ، فينبغي للمسلم أَنَّ يحرصَ دائمـًا علىٰ أَنَّهُ إذا أصابَه البَلَاءُ أَن يصبرَ، ويسأل الله أَنَّ يرفعَه، ويبحث عن الأَسْبَاب المشروعةِ، ويجتنبَ الأَسْبَاب الُمحرَّمَة، حتىٰ لا يخسرَ دينَه الذي هو أعظمُ شيءٍ في حياته.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

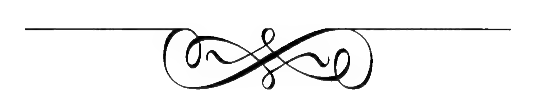
فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أَنَّ يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من النَّاس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والسخط والنفاق ومرض القَلْب أو الكُفْر الظاهر أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه بحسب ذلك.

فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة المصيبة، كما أَنَّ من أوجبت له المصيبة صَبْراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عَزَّ وَجَلَّ رحمة للخلق، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محمود عليها، فإن اقترن بها طاعة كان ذلك نعمة ثانية علىٰ صاحبها، وَإن اقترن بها للمؤمن معصية فهذا مما تتنوع فيه أحوال النَّاس، كما تتنوع أحوالهم في العافية، فمن أُبتلىٰ فرُزق الصَّبْر كان الصَّبْر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه علىٰ ربه صلاة ربه عليه حيث قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]، فحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات، وهذا من أعظم النعم، فالصبر واجب علىٰ كل مصاب، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك انتهىٰ ملخصاً.

الشَّرْح

قوله: (فالمصائب رحمة ونعمة في حق...)أي: أَنَّ النَّاس أنواع، أناسٌ المرضُ يزيدُهم قرباً إلىٰ الله، وأناسٌ يزيدهم المرضُ بُعداً عن الله، وأناسٌ يزيدُهم المالُ قرباً إلىٰ الله، وبعضُهم يزيدُه بُعداً عن الله، وهكذا النَّاس علىٰ درجاتٍ، البَلَاءُ نعمةٌ في حقِّ من يُقرِّبُه من الله، أمَّا في حقِّ من يتسخَط فهو عقابٌ أو بلاءٌ ثمرتُه مخالفةٌ لما يكون عليه المُسْلِم.

قوله: (فهذا كانت العافية خيراً له من...) فهذا عرضٌ لأحوال النَّاس ومواقفهم من الابتلاءِ، فالناسُ أنواع، فالذي يزيده البَلَاءُ قُرباً من الله وتضرُّعاً واستكانةً وخشوعاً ودعاءً واستغفاراً فإن البَلَاءَ يكون في حقه نعمةٌ، أمَّا الذي يزيدُه البَلَاءُ تَسخُّطاً ونُفوراً وجزعاً ونفاقاً وخروجاً من الدِّين فهذا البَلَاءُ في حقِّه نِقمةٌ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه) أي: أخر عنه العقوبة بذنبه.

قوله: (حتىٰ يُوافِي به يَومَ القِيَامَةِ) هو بضم الياء وكسر الفاء منصوبًا بحتىٰ مبنياً للفاعل، قال العزيزي: أي لا يجازيه بذنبه في الدُّنْيَا حتىٰ يجيء في الآخِرَة مستوفر الذُّنُوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب.

قلت: وهذا مما يزهد العبد في الصحة الدائمة خوفًا أَنَّ تكون طيباته عجلت له في الحَيَاة الدُّنْيَا، والله تعالىٰ لم يرض الدُّنْيَا لعقوبة أعدائه، كما لم يرضها لإثابة أوليائه، بل جَعَلَ ثوابهم أَنَّ أسكنهم في جواره ورضي عنهم، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

الشَّرح

قوله: (قوله: وإذا أراد بعبده...) هذا تفصيلٌ ذكره الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ للحديث الأخير، وهو أَنَّهُ أَنَّ أراد به خيراً ابتلاه في الدُّنْيَا ليمَحِّصَه ويُكفِّر عنه ذنوبَه، وَإن أرادَ به شراً فإنه يُمسكُ عنه حتىٰ يأتي يَومَ القِيَامَةِ وذنُوبه كما هي.

قوله: (قلت: وهذا مما يزهد العبد...) هذا يُحدِّد للإنسان هدفَه في الحَيَاة، الهدفُ الأسمىٰ لك في الحَيَاة أَن تحصلَ علىٰ عملٍ يُدخِلك الجَنَّةَ، فذهنُك مرتبطٌ بالآخرةِ، متجهٌ إليها، والذي ذهنُه في الآخِرَةً فإَن مقياسَ الدُّنْيَا عنده يختلف عن مقياسِ الشَّخْص الذي همُّه الدُّنْيَا وشهواتُها ومتعُها والتنعمُ فيها، فإن هذا يجزعُ إذا أُصيب في بدنِه أو في ماله، كما يُذكَر في بعض القصص: كان هناك إنسانٌ يشارك إنسانًا آخر في أراضي، إنَّما كانت بينهما شراكة، وكان هو الذي باسمه كلُّ هذه الأراضي، تُوفي الشريك، فذهب ورثته إلىٰ القاضي

يطلبُون حقَّهم، فأعطاهم بعضَ الأراضيَ البعيدة، أمَّا الأراضي التي في أمَاكن غاليةٍ فقال: هذه لي ليست لكم. قالوا: نحن نعلم أَنَّ هذه بينك وبين أبينا. قال: لا. فيقولون: أنَّهُ كان يسافرُ من مدينةٍ في المملكة إلىٰ مدينة أخرىٰ، وحدث اضطراب في الطائرة، أعلنَ السائقُ أَنَّ الطائرة قد خرجَت من يده، فعليكم جميعـًا أَن تتشهدوا، فهذا الشَّخْصُ التفت إلىٰ من بجانبه، وقال: يا فلان إنَّ فلانـًا هو شريكي في كلِّ الأراضي التي أمتلِكُها ـ يُخادعُ الله المسكين ـ، جاء المَوْت وتيقن أَنَّهُ لن يستفيدَ، لكن قدَّر اللهُ ونجَت الطائرةُ، فنزل من الطائرة مع زميله ومسك بيده وقال: أنا كنت أمزح معك!!،أي: الذي قلته ليس بصحيح، الإنْسَانُ عجيبٌ!!، فهكذا الشَّيطَان يستطيع أَنَّ يخدع الإنْسَان إذا كان همُّه الدُّنْيَا، لو كان همُّه الآخِرَةُ لكان شيئـًا آخر كان حَمدَ الله علىٰ أَن أنجاه من هذا المَوْت، وكان دفعَه هذا إلىٰ أَن يعطي النَّاسَ حقَّهم، لكن هكذا النَّاسُ.

فالمواقفُ تختلف بحسب هدف الإنْسَان، فالذي هدفه الدُّنْيَا ومتعها يجزع إذا فاته شيء من الدُّنْيَا، ويفرحُ إذا جاء شيءٌ من الدُّنْيَا، ولا ينظرُ الىٰ الآخِرَة، ولا يعلمُ المسكينُ أَنَّ الدُّنْيَا كلَّها فانيةً، كم كان قبلنا من أجيال، ووكم كان هناك من مُلوكٍ وقادةٍ ووزراءَ وزعماءَ وتجارٍ، أين هم؟ بعضُهم يملك الأموالَ الضخمةَ جداً تُوفي ولم يترك إلا ابنة واحدة، ولا أولاداً، هذا المال الذي جمعه لمن؟ سيحاسب عليه. فالمسلمُ هدفُه الآخِرَة، لايعني هذا أَنَّ يترك الدُّنْيَا، فالدنيا له والآخرةُ له، لكن الآخِرَة أعظمُ، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف:٣٢]، هي لك لست منهيـًا عنها، لكن احذر أَن تكون الآخِرَةُ أكبر همك، فإن الدُّنْيَا تنتهي، لكن الآخِرَةُ لا تنتهي، لا ينقطع نُعيمُها ولا عذابُها، وأنت عليك أَن تختارَ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

لهذا لما ذكر النَّبِيّ ﷺ الأسقام قال رجل: يا رَسُول الله وما الأسقام والله ما مرضت قط؟ قال: (قم عنا فلست منا) رواه أبو داود.

وهذه الجملة هي آخر الحَدِيث، فأما قوله: (وقال النَّبِيّ ﷺ: إنَّ عظم الجزاء..) إلىٰ آخره فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما التِّرمِذِي بإسناد واحد عن صحابي واحد جَعَلَ هما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه من الفوائد أَنَّ البَلَاء للمؤمن من علاماتِ الخير، خلافًا لما يَظُنُّه كثير من النَّاس، وفيه الخَوْفُ من الصحة الدائمةِ أَن تكونَ علامةَ شرٍ. وفيه تنبيه علىٰ رجاءِ الله وحسنِ الظنِّ به فيما يقضيه لك مما تكرهُ.

الشَّرح

قوله: (لهذا لما ذكر النَّبِيّ ﷺ الأسقام...)[(١)] هذا الحَدِيث لا يصحُّ، كما قال هنا: في إسناده مجهولٌ، أي لا يُعرف، إمَّا لا يُعرف عينه أو لا يُعرف حاله، فليس كلُ إنسانٍ لا يمرضُ يكون كافراً أو منافقـًا، هذا ما هو بشرطٍ، ولو صح الحَدِيث لكان صحيحـًا، ولكن ما صح الحَدِيث، وليس من خُلقِ سيدِ البَشَر ﷺ أَنَّ يقول لرجلٍ في وجهه: (قم عنا) سبحان الله، ما ذنبُه؟ وليس المرض بيدِه، فهذا الحَدِيث لا يصح لا لفظـًا ولا إسناداً.

قوله: (وهذه الجملة هي آخر الحَدِيث...) الابتلاءُ قد يكون عقابـًا، ليس كل ابتلاء نعمة، قد يكون عقابـًا يعاقب به الله العبدَ علىٰ فعله لينبهه، والإنسانُ

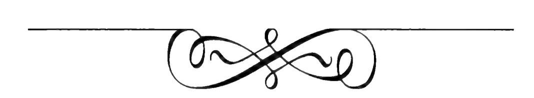
---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، بَاب الأمراض المكفرة للذنوب، برقم: (٣٠٨٩)، والبيهقي في شعب الإيمَان، بَاب في معالجة كل ذنب بالتوبة، برقم: (٧١٣٠)، (٥/ ٤٢١).

قد يعملُ العَمَل ويُعاقَب عليه في الدُّنْيَا عاجلاً، ولهذا جاء في بعض الآثار أَنَّ البَغي يُعجِّلُ العُقوبةَ لصاحبه، وَأَنَّ العقوق يُعجِّلُ العقوبةَ لصاحبه، لكن ليس هذا أصلاً، فقد يُعجِّلُ العقابَ إِمَّا تنبيهاً وإِمَّا تذكيراً وإِمَّا عقاباً حقيقياً مع ما أعده الله له في الآخِرَة، كما عاقبَ اللهُ قوماً بالخسف، وقوماً بالمسخ، والإنسان في الدُّنْيَا قد يُصابُ بأمراض أو بأشياء عقاباً له، لكن ليس هو العقاب الأخير.

قوله: (وفيه تنبيه علىٰ رجاء الله...) هذا أهمُّ شيءٍ في هذا الباب أَن تعتقدَ أَنَّ الحالَ الذي أنت عليه هو الذي يُصلحُك، فتحمدَ اللهَ عليه، إلا إذا رأيت الحالَ يدفعُك إلىٰ معصيةٍ، فعندئذٍ تسأل الله أَنْ يُغيرَ ما بك من الحال الذي تخشىٰ منه الضررُ، أَمَّا المُسْلِمُ فإنه دائماً يجعل أمرَه إلىٰ الله، ويسأل اللهُ الخير له، هكذا في ألفاظِ الاستخارة: (اللهم إن كنت تعلم أَنَّ هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي فيسره لي، وبارك لي فيه ورضني به، وَإِن كنت تعلم أَنَّ هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان).

فجعل أمره بيد الله، فهو الذي يختارُ له، وهذا قمَّةُ الإِيمَان أَن يعتقد وَأَن يرضىٰ أَنَّ الله يختار له في أمره، وفي حياته.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيه معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢١٦] الآية.

قال المصنف: (وقال النَّبِيّ ﷺ: إنَّ عِظَمَ الجزَاءِ معَ عِظَمِ البَلَاء، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أحبَّ قوماً ابتَلاهُم فَمَنْ رَضِيَ فلهُ الرّضا، ومَنْ سَخِطَ فلَهُ السَّخَط) حسنه التِّرمِذِي.

ش: هذا الحَدِيث رواه التِّرمِذِي ولفظه: (حدثنا قتيبة ثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس قال: قال رَسُول الله ﷺ إذا أراد الله بعبده الخير..) الحَدِيث الذي قبل هذا ثُمَّ قال: (وبهذا الإسناد عن النَّبِيّ ﷺ قال: إنَّ عظم الجزاء..) الحَدِيث، ثُمَّ قال: (هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه) ورواه ابن ماجه وصححه السيوطي.

الشَّرح

قوله - تعالى -: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، هذه قاعدة أساسية، الغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ. فالميزانُ ليس في رغبتك، أو شهوتِك، أو محبتك للشيء، الميزانُ غيبيٌ، فقد تحبُّ شيئاً يكون فيه الضرر، وتكره شيئاً يكون فيه الخيرُ، فلتسأل اللهَ ﷻ أَن يختارَ لك ما فيه الخيرُ في دنياك وآخرتك.

قوله: (قال المصنف: وقال النَّبِيّ ﷺ...) قلنا: إنَّ الرضىٰ ليس مما أُمِرنا به، وهذا الحَدِيث يقول: (من رضي فله الرضىٰ، ومن سخط فله السخط)[1]، السُّخطُ لا يجوز علىٰ أقدار الله ﷻ، وهذا الحَدِيث والذي قبله سنده واحد، فيه سعد بن سنان، وهو الذي أنكرَ العُلَمَاءُ حديثَه، وضعَّفُوه، فهو من حيث السندِ ضَعِيفٌ، لكن من حيث المَعْنَىٰ في السخط صحيحٌ، أمَّا في الرضىٰ فلا؛ لَأنَّنا ما أُمرنا بالرضىٰ، وإنما جاء الحثُّ علىٰ الرِّضا، لكن أُمرنا بالصبر، فالرضىٰ أَن لا تَطلبَ تغييرَ الحال، وهذا لا يقدرُ عليه كلُّ إنسانٍ، كما كان أيوبَ عليه السلام بقي ثمانيةَ عشرَ عامـًا، وهو لا يبحثُ عن علاج، راضٍ بحاله، وهذه منزلةٌ عاليةٌ جداً لا يبلُغها إلا أفراد من النَّاس، فأنت تصبرُ علىٰ البَلَاء وتبحثُ عن رفعِه بأسبابٍ مشروعةٍ، أمَّا الرضىٰ فهي دَرَجَةٌ أعلَىٰ.

---

(١) أخرجه التِّرمِذِي في سننه، كتاب الزهد، بَاب ما جاء في الصَّبْر علىٰ البَلَاء، برقم: (٢٣٩٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، بَاب الصَّبْر علىٰ البَلَاء، برقم: (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمَان، فصل في أي النَّاس أشد بلاء، برقم: (٩٧٨٢)، (٧/ ١٤٤)، والقضاعي في مسند الشهاب، برقم: (١١٢١)، (٢/ ١٧٠)، وحسنه التِّرمِذِي.

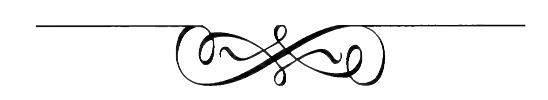
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروى الإمـام أحمـد عـن محمـود بـن لبيـد مرفوعـًا: (إذا أحـب الله قومـًا ابتلاهم، فمن صَبْر فله الصَّبْر ومن جزع فله الجزع) قال المنذري: رواته ثقات.



الشَّرح

ألفاظ العُلَمَاءِ تختلفُ في إطلاقِ الحكمِ، فإمَّا أَنَّ يقـول: سـندُه صـحيحٌ، أو إسـناده ضَـعِيفٌ، أو رجالـه ثقـات أو نحـو ذلـك. وقـولُهم: رجالـه ثقـاتٌ لـيس تصحيحـًا للحديث؛ لَأَنَّه قد تكون فيه عِلةٌ، قـد يكـون فيـه انقطـاعٌ، وقـد يكـون مُرسَلاً، وقـد يكـون فيـه تَـدلِيسٌ، فقولـه: " ثِقـاتٌ " يعنـي يـذلك: ابحـث عـن الحكم أنت بنفسك، وهذا يفعله دائمـًا الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (مجمع الزوائد)، فهو دائمـًا يقول:" رجاله ثقات ". لكن لا يحكمُ لـه بالضعفِ أو بالصحةِ؛ لَأَنَّ الضعفَ والصحةَ والحسنَ درجاتٌ تحتاجُ إلىٰ تدقيقٍ أعلىٰ كما مـرَّ في حـديث: (**لعن الخامشة وجهها**)[1]، رجالُه ثقاتٌ في الظاهر لكن فيه علَّةٌ، وهـي أَنَّ هنـاك شخصـًا ليس هو المقصودُ في الحَدِيث، بل المقصـودُ راوٍ آخرَ ضَـعِيفٌ اشـترك معـه في اسـمِه واسـمِ أبيـه فـاختلط الأمـرُ علـىٰ بعـضِ أهـل العلـمِ فصـحَّحُوا الحَدِيثَ.



---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (إن عظم الجزاء مع عظم البَلَاء) بكسر المهملة وفتح الظاء فيهما ويجوز ضمها مع سكون الظاء، أي: من كان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم فعظمة الأجر وكثرة الثواب مع عظم البَلَاء كيفية وكمية، جزاء وفاقًا.

قلت: ولما كان الأنبِيَاء عليهم السَّلَامُ أعظم النَّاس جزاء كانوا أشد النَّاس بلاء، كما في حديث سعد: (سُئل النَّبِيّ ﷺ أي النَّاس أشد بلاء؟ قال: الأنبِيَاء، ثُمَّ الأمثل فالأمثل، يُبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وَإن كان في دينه رقة أُبتلي علىٰ قدر دينه، فما يبرح البَلَاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض وما عليه خطيئة) رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه.

وقد يُحتج بقوله: (إن عظم الجزاء مع عظم البَلَاء) من يقول: أَنَّ المصائب والأسقام يثاب عليها غير تكفير الخطايا، ورجح ابن القَيِّم وغيره أَنَّ ثوابها تكفير الخطايا فقط إلا إَن كانت سَبَبًا لعمل صالح كالتوبة والاستغفار والصبر والرضىٰ، فإنه حينئذ يُثاب علىٰ ما تولد منها كما في حديث: (إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها) أو قال: (لم ينلها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ولده أو في ماله ثُمَّ صَبْره حتىٰ يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله ﷻ) رواه أبو داود في رواية ابن داسة والبخاري في تاريخه، وأبو يعلىٰ في مسنده وحسنه بعضهم، وعلىٰ هذا فيُجاب عن الأول (إن عظم الجزاء مع عظم البَلَاء) أي: إذا صَبْر واحتسب.

قوله: (وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم) صريح في حصول الابتلاء لمن أحبه الله، ولما كان الأنبِيَاء عليهم السَّلَامُ أفضل الأحباب كانوا أشد النَّاس بلاء، وأصابهم من البَلَاء في الله ما لم يصب أحداً، لينالوا بذلك الثواب العظيم، والرضوان الأكبر وليأتسي بهم من بعدهم، ويعلموا أَنَّهُم بشر تصيبهم المحن

والبلايا، فلا يعبدونهم.

فإن قلت: كيف يبتلي الله أحبابه؟ قيل: لما كان أحد لا يخلو من ذنب كان الابتلاء تطهيراً لهم كما صحت بذلك الأحَادِيث، وفي أثر إلهي: (أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب)، ولأنه زيادة في درجاتهم لما يحصل مع المصيبة للمؤمن من الأعمال الصَّالِحة، كما تقدم في حديث: (إذا سبقت للعبد من الله منزلة..) الحَدِيث، ولأن ذلك يدعو إلىٰ التوبة، فإن الله تعالىٰ يبتلي العباد بعذاب الدُّنْيَا ليتوبوا من الذُّنُوب كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١]، فمن رزقه الله التوبة بسبب المصيبة كان ذلك من أعظم نعم الله عليه، ولأن ذلك يحصل به دعاء الله والتضرع إليه، ولهذا ذم الله من لا يستكين لربه ولا يتضرع عند حصول البأساء، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون:٧٦]، ودعاء الله والتضرع إليه من أعظم النعم، فهذه النِّعْمَة والتي قبلها من أعظم صلاح الدِّين، فإن صلاح الدِّين في أَنَّ يعبد الله وحده ويتوكل عليه وَأَنَّ لا تدعو مع الله إلهـًا آخر، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، فإذا حصلت لك التوبة التي مضمونها أَنَّ تعبد الله وحده وتطيع رسله بفعل المأمور وترك المحظور كنت ممن يعبد الله، وإذا حصل لك الدعاء الذي هو سؤال الله حاجاتك فتسأله ما تنتفع به وتستعيذ به مما تستضر به كان هذا من أعظم نعم الله عليك، وهذا كثيرًا ما يحصل بالمصائب، وإذا كانت هذه النعم في المصائب فأولىٰ النَّاس بها أحبابه، فعليهم حينئذ أَنَّ يشكروا الله، لخصت ذلك من كلام شيخ الإِسْلَام رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (فمن رضي فله الرضىٰ) أي: من رضي بما قضاه الله وقدره عليه من الابتلاء فله الرضىٰ من الله جزاءً وفاقـًا، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة:٨]، وهذا دليل علىٰ فضيلة الرضىٰ، وهو أَن لا يعترض علىٰ الحكم

ولا يتسخطه ولا يكرهه، وقد وصىٰ النَّبِيّ ﷺ رجلاً فقال: (لا تتهم الله في شيء قضاه لك)، فإذا نظر المُؤمِن بالقضاء والقدر في حكمة الله ورحمته، وأنه غير متهم في قضائه دعاه ذلك إلىٰ الرضىٰ، قال ابن مسعود: (إن الله بقسطه وعلمه جَعَلَ الروح والفرح في اليقين والرضىٰ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط). وقال ابن عون: (ارض بقضاء الله من عسر ويسر، فإن ذلك أقل لهمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أَنَّ العبد لن يصيب حقيقة الرضىٰ حتىٰ يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنىٰ والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك ثُمَّ تسخط أَنَّ رأيت قضاءه مخالفًا لهواك!! ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلاكك، وترضىٰ قضاءه إذا وافق هواك وذلك لقلة علمك بالغيب، إذا كنت كذلك ما أنصفت من نفسك ولا أصبت بَاب الرضىٰ). ذكره ابن رجب قال: وهذا كلام حسن.

قوله: (ومن سخط) هو بكسر الخاء، قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضىٰ به، أي من سخط أقدار الله فله السخط أي من الله، وكفىٰ بذلك عقوبة، قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ [محمد:٢٨].

وفيه دليل أَنَّ السخط من أكبر الكَبَائِر، وقد يستدل به علىٰ إيجاب الرضىٰ كما هو اختيار ابن عقيل، واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإِسْلَام وابن القَيِّم، قال شيخ الإِسْلَام: ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء علىٰ أصحابه ومدحهم. قال: وإمَّا ما جاء من الأثر (من لم يصبر علىٰ بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ رباً سواي) فهذا إِسْرَائِيلي ليس يصح عن النَّبِيّ ﷺ.

قلت: قد روىٰ الطبراني في الأوسط معناه عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: (من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلهًا غير الله). قال الهيثمي:

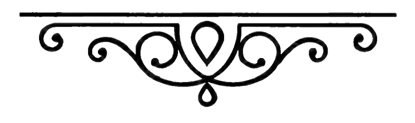
فيه حزم بن أبي حزم، وثقه ابن معين وضعفه جمع، وبقية رجاله ثقات. فإن ثبت هذا دل على وجوبه.

قال شيخ الإِسْلَام: وأعلى من ذلك ـ أي من الرضى ـ أَنَّ يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله تعالى عليه بها. انتهى.

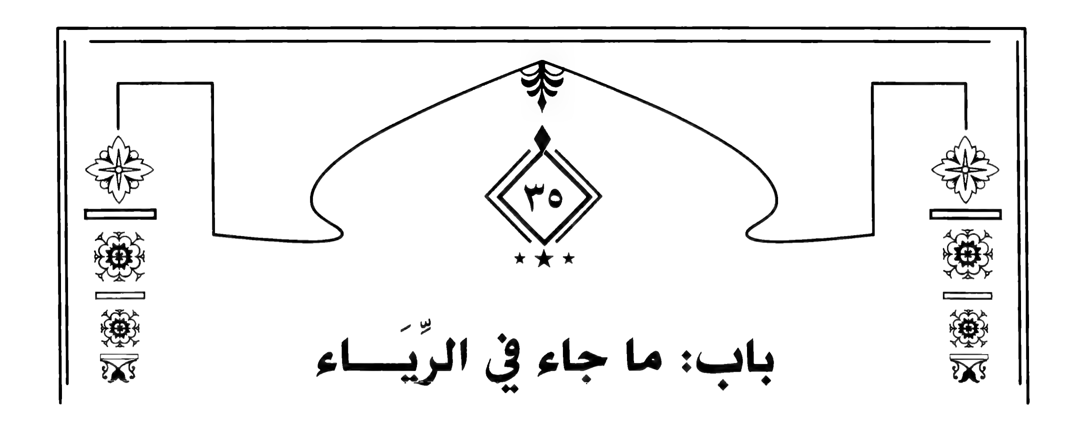
واعلم أَنَّهُ لا تنافي بين الرضى وبين الإحساس بالألم، فكثير ممن له أنين من وجع وشدة مرض قلبه مشحون من الرضى والتسليم لأمر الله، فإن قيل: ما الفرق بين الرضى والصبر؟ فالجواب: قال طائفة من السَلَف منهم عمر بن عبد العزيز والفضيل وأبو سليمان وابن المبارك وغيرهم: أَنَّ الراضي لا يتمنى غير حاله التي هو عليها بخلاف الصابر. وقال الخواص: الصَّبْر دون الرضى، الرضى أَنَّ يكون الرجل قبل نزول المصيبة راض بأي ذاك كان، والصبر أَنَّ يكون بعد نزول المصيبة يصبر.

قلت: كلام الخواص هذا عزم على الرضى ليس هو الرضى، فإنه إنما يكون بعد القضاء كما في الحَدِيث: (وأسألك الرضى بعد القضاء)؛ لأَنَّ العبد قد يعزم على الرضى بالقضاء قبل وقوعه، فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة، فمن رضي بعد وقوع القضاء فهو الراضي حقيقة. قاله ابن رجب.





(١) قام فضيلة الشيخ بشرح هذا الجزء من المتن في بداية الباب.



باب: ما جاء في الرِّيَـــاء

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: من الوعيد، ولما كان خلوص العَمَل من الشِّرك والرياء شرطًا في قبوله لمنافاة الشِّرك والرياء للتوحيد نبه المصنف علىٰ ذلك تحقيقًا للتوحيد.

والرياء: مصدر راءىٰ يرائي مراءاة ورياء، وهو أن يُري النَّاس أنَّهُ يعمل عملاً علىٰ صفة وهو يضمر في قلبه صفة أخرىٰ، فلا اعتداد ولا ثواب إلا بما خلصت فيه النِّيَّة لله تعالىٰ. ذكره القاضي أبو بكر بمعناه.

وقال الحافظ: هو مشتق من الرؤية، والمراد به إظهار العِبَادَة لقصد رؤية النَّاس لها فيحمد صاحبها. انتهىٰ.



هذا بَاب الرِّيَاءِ، وهو حالٌ يلحق كثيراً من النَّاس إلا من رحم الله، وقد أوردَه المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبين أَنَّ هذا الفعل يُنقص التَّوْحِيد إن لم ينقضُه، فإن النقضَ غير النَّقصِ، النقضُ: هو الإبطالُ بالكُلِّية، إبطالُ التَّوْحِيدِ، والرياءُ لا يُبطل التَّوْحِيدَ إلا إذا كَثُرَ، أَمَّا يسيرُه فإنَّه من الكَبَائِر.

أورد فيه المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ آيةً واحدةً، وحديثين أحدهما صحيحٌ والآخرُ ضَعِيفٌ، أمَّا الآيَةُ فهي قولُه - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، والحديثُ الأول حديثُ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول عَزَّ وَجَلَّ: (أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)[١] وهذا في مُسلمٍ، والحديث الثاني في المُسندِ وغيره: (عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قال: قال النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من الدجال؟ قالوا: بلىٰ. قال: الشِّرك الخفي، يقوم الرجل في صلاته فيُزينها لما يرىٰ من نظر رجل)[٢] هذا الحَدِيث ضَعِيفٌ كما سيأتي إن شاء الله، هذا مُجمل ما في الباب.

الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللهُ أورد في الباب عشرَ مسائلَ وناقشها، ملخصها:

أولاً: تعريف الرِّيَاءِ، الرِّيَاءُ: مشتقٌ من الرُّؤية؛ لأنَّه عملٌ يتعلَّق بالبصرِ، والتسميعُ يتعلَّق بالسمعِ: (من راءىٰ راءىٰ الله به، ومن سمَّع سمَّع الله به)[٣] كلاهما عملٌ ظاهرٌ، وهو إظهارُ خلافِ ما يُبطن، أَن يعمل عملاً في الظاهرِ صورتُه لله، وفي باطنِه لغيرِ الله، وهذا تعريفُ الرِّيَاءِ، وستأتي أحكام الرِّيَاءِ إن شاء الله - تعالى -.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، بَاب من أشرك في عمله غير الله، برقم: (٢٩٨٥)، (٤/ ٢٢٨٩)، وقد سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (١١٢٥٢)، (١٧/ ٣٥٥)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، بَاب الرِّيَاء والسمعة، برقم: (٤٢٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمَان، بَاب الإخلاص في العَمَل لله تعالىٰ وترك الرِّيَاء، برقم: (٦٨٣٢)، (٥/ ٣٣٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥/ ٢)، وحسن إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ٣٢٣).

(٣) أخرجه الشيخان باختلاف يسير في اللفظ، صحيح البُخَارِي، كتاب الرقاق، بَاب الرِّيَاء والسمعة، برقم: (٦٤٩٩)، صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، بَاب من أشرك في عمله غير الله، برقم: (٢٩٨٦)، (٤/ ٢٢٨٩).

ثم فسر الآيَة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذه الآيَة تذكر عدة قَضَايَا:

أولها: بشريةُ نبينَا ﷺ، وهذه قضيةٌ واضحةٌ في دين الله، انحرفَ عنها أهل التَّصُّوفِ، فزعموا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ ليس بشراً بل أَنَّهُ نورٌ، وغالوا في رَسُول الله ﷺ، حتىٰ أخرجوه عن بشريتِه، وهذا تكذيبٌ للقرآن، القُرآن يقول: قل لهم يا مُحَمَّد. وهذا زيادةٌ في تحقيقِ بشريتِه، وإلا فكان بالإمكان أَنَّ يقول الله: إِنَّما مُحَمَّدٌ بشرٌ، لكن قال: أنت أخبرهم بنفسك: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فهو وُلِد كما نُولدُ حملت به أُمُّه كما يُحمل بأي إنسانٍ آخر، ويموتُ كما نموت، ويجوعُ كما نجوع، ويمرضُ كما نمرضُ، ولكنَّ الله كرَّمه واصطفاه، فهو يشتركُ في البَشَريَّة.

هذا المَعْنَىٰ ركَّزَ عليه القُرآنُ الكَرِيم كثيراً؛ لَأَنَّ النَّاسَ عندما يرون في البَشَر صفاتِ كمالٍ ربما ينخدعون فيعتقدون أَنَّهُ إلهٌ، كما انخدعت النَّصارَىٰ عندما رأوا عيسىٰ عليه السلام ليس له أبٌ، ورأوا أَنَّهُ يحيي المَوْتىٰ، ويبرئُ الأكمَه، ويخبرُهم بالغيب، قالوا: هذه صفاتُ الخالِقِ، فهذا الله، أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثة. ولهذا قال النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام عندما مدحَه الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم وأطرُوه: **(لا تطروني كما أطرت النَّصارَىٰ عيسىٰ بن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله)**[١].

هذه القضية في الحقيقة فسدت في أذهان كثير من المُسْلِمينَ حتىٰ اعتقدوا في رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ ليس بشراً، وأنه موجودٌ قبل خلقِ البَشَر، وأنه من نورٍ، وهذا ضلالٌ، بل غالوا في رَسُول الله حتىٰ صرفوا حقَّ الله له فدعَوه من دون

---

(١) سبق تخريجه أكثر من مرة.

الله، واستغاثوا به من دون الله، وزعموا أَنَّهُ يعلمُ الغيبَ، وهذه كلُّها خروجٌ عن دين الله ﷻ، فالله يقول: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ الفرقُ أَنَّهُ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾،أنا زدتُّ عنك بِوحيِ الله، فالله أكرمه بالوحي فرفعه ﷻ، فهو أشرفُ البَشَر، وأفضل البَشَر، وأزكىٰ البَشَر، في قمة البَشَريَّةِ، ماذا يوحىٰ إليه؟ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أي: ليس لكم إله غيرُه ﷻ، ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، الذي يعتقد ويترقَّب أَن يلقىٰ الله، فيجبُ عليه أَن يَعْمَلَ عَمَلا صَالِحًا، العَمَل الصَّالِح له شرطان وهما: الإخلاصُ لله، وَأَنَّ يكون صوابـًا علىٰ سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾، إذا جاءت النَّكِرة بعد النَّفي تَعمُّ كُلَّ أحدٍ، لا يُشرك أحداً سواءٌ كان مَلِكـًا أو رسولاً أو جبلاً أو شجرةً أو بقرة، كلُّ مخلوقات الله لا تُعبدُ.

هذه الآيَة في الشِّركِ الأكبرِ أو في التَّوْحيدِ الخالصِ، لكنَّ السَلَف يُنزلون ويُلحِقونَ الشِّركَ الأصغرَ بالشِّركَ الأكبرِ في الأدلَّة، فكل شِرْكٌ وَإِنَّ كان شِرْكًا أصغر كالرياءِ تشملهُ هذه الآيَة، فشرح المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ هذه الآيَةَ علىٰ هذا المَعْنَىٰ.

ثالثاً: ذكرَ أنواعَ الرِّيَاءِ، الرِّياءُ: إِمَّا أَنَّ العَمَل لا يكون ابتداءً لله أصلاً وهذا لا يقعُ من إنسانٍ مُسلمٍ، لا يقع إلا من مُنافقين، كما قَالَ - **تَعَالَى** - في المُنافِقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢]، هو لا يقوم لله أصلاً، إنما يقوم من أجل النَّاس، لكن المُسْلِم فكما قال الشَّارِحُ ونقله عن ابن رجب رَحِمَهُمَا اللهُ من كتاب (العلوم والحكم): (إنَّ الرِّيَاء علىٰ أنواع: أَن يكون الرِّيَاء في بداية العَمَل، وقال: لا يَحدُثُ من الإنْسَان المُسْلِم أَن يبدأ

الفرائضَ، أو الواجباتِ بالرياء)، هذا قول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ وأكثرُ المادةِ العلميةِ في هذا الباب من هذا الكتاب، فلو كان الشَّخْصُ يأتي من بيتهِ إلىٰ المسجدِ للصلاة ليُرائي النَّاسَ فقط لا يكون مُسلماً، هذا منافقٌ، لكن قد يُحسِن الصَّلَاةَ ليُرائي أحداً، وَإِنَّ كان هذا في الحقيقةِ جَهلاً، لَأنَّك تُرائي هذا الفقيرَ، وتترك الغَنيَّ جَلَّ وَعَلَا، هذا ضعفٌ في الإِيمَان، وجهلٌ في العَقْل، فقد يحدث الرِّيَاءُ في صفةِ العَمَل، فإما أَنَّ يبدأ الإِنْسَانُ العَمَل رياءً فهذا شِرْكٌ أكبر.

قال العُلَمَاء: الأعمال نوعان:

النَّوْعُ الأول: عمـلٌ متصـلٌ أولُـه بـآخرِه، فلـو جـاءَ الرِّيَـاء أثنـاءه فهـل يبطـلُ العَمَل بكامله؟ قولان للعلماء: منهم من قال: العَمَل يَبطُلُ بكاملِه، ومـنهم مـن قال: لا يبطلُ بكاملِه، بل ما تقدَّم من هذا العَمَل يُكتب لـه أجرُه، ومـا لحـقَ منـه من الباطل ليس له فيه أجر.

النَّوْعُ الثاني: أَن يكون العَمَل ليس أوله مُرتبِطاً بآخره، مثلاً الصَّلَاة مرتبطٌ أولُها بآخرِها، عبادةٌ واحـدة، فقـد يـدخل الرِّيَـاء في آخرهـا، بخـلاف الإنفـاقِ في سبيل الله، شخص أنفق ريالاً لله، فرأىٰ إنسانـاً له عنده مصلحة فـأخرجَ ريـالين، النفقةُ الأولـىٰ أجرُهـا عنـد الله ثابتـةٌ بالإجمـاع، الخـلافُ في الريـالين الآخـرين، هذه الصورة الثانية من صورِ الرِّيَاءِ.

وهناك صورةٌ ثالثةٌ للرِّياءِ: أَنَّ تعمـلَ العَمَـل لا يـراك أحـدٌ وتقصـد بـه وجـهَ الله، وبعد أَن تنتهي من العَمَل تخبرُ النَّـاس، أنـا صـمت اليـوم أو الأيـام الست، والحمـد لله، وتهـدف مـن هـذا حتىٰ يُقـال: والله فـلان صـام السـت. فأنـت الآن أبطلتَ عملَك.

فالرياءُ على أنواع وعلى درجاتٍ، وسيأتي معنا ذكر بعضها إن شاء الله.

رابعـاً: هنـاك فـرقٌ بـين أَنَّ تعمـلَ ريـاءً، وبـين أَن يكـون العَمَـل لحصـولِ مصـلحةٍ دُنيويـةٍ، مـثلاً: إنسـان في بيتـه وأراد أَنَّ يخـرجَ إلـىٰ المسـجدِ للصـلاة، ونوىٰ في نفسِه أَن يشتري معه ـ وهو راجعٌ ـ خبزاً أو فُولاً أو أيَّ شـيء لأغـراض بيتـه، ولكـن هـذا لـيس بقـربِ البيـت، ولا بقـربِ المسـجدِ القريـب، فلابـد أَنَّ يذهبَ إلىٰ مَسْجِد بعيدٍ، فهـو ذهـب إلـىٰ المسـجد ليصـلي ويأخذَ معه الخبزُ، فليس هـذا ريـاءٌ يبطـلُ العَمَـل، لكـن لـو خـرج اثنـان أحدُهما لـيس في ذهنـه إلا الصَّلَاة، والثاني في ذهنه الصَّلَاة وغـرض آخـر فالـذي لـيس في ذهنـه إلا الصَّـلَاة أكثر أجراً، مثلاً إنسان أراد أَنَّ يّحـجَّ، وقـال: سـأحجُّ وأكسـب تجـارةً، هـل هـذا يجوزُ؟ يجوز.

فنيةُ العَمَل للحصول علىٰ منفعةٍ دُنيوية بجانب العِبَادَة ليس في ذلك حرجٌ، الحرج أَن تعمل العِبَادَةَ من أجل الدُّنْيَا، مثلاً: نوىٰ شـخص قـال: أنـا سـأتصـدق حتىٰ يحفظ الله أولادي. هذا شِـرْكٌ أرادَ بـه الـدُّنْيَا، أنـا سـأتصـدّق حتـىٰ يعـافيني ربي. هـذا عمـل شِـرْكٌ أراد بـه الـدُّنْيَا، بـل ينبغـي أَن تتصـدَّقَ لله، والله غنـيٌ عـن صـدقتِك، اطلـب مـن الله مـن غيـر أَن تتصـدَّق، مثـلُ النَّـذر، النَّـذرُ أَنَّ يقـول: إنَّ شُفي مريضي فـإنني أذبـح بقـرةً، كأنـك تقـول: يـا رب أعطنـي وأعطيـك. وهـذا مفهـوم خـاطئٌ، ولهـذا جـاء في الحَـدِيث: (**إن النـذر إنمـا يُخـرج الله بـه مـن البخيل**)[1] والنذرُ مكروه، لكن لو نذرت وجبَ عليك أَنَّ تُكمل النذرَ.

هذه الصور في حَيَاة الإنْسَانِ ربما لا يتفطَّن لها، وربما يكون بعضُـها يفسـدُ عليه دينه، أو ينقص عملَه وهو لا يشعر، وسيأتي بَاب مستقل وهـو مـن أراد بـه ثناءَ النَّاس ومدحَ النَّاس ومكانةً عند النَّاس، أعاذنا الله من هذا.

---

(١) أخرجه الشيخان باختلاف في اللفظ، صحيح البُخَارِي، كتاب القدر، بَاب إلقاء النذر العبد إلىٰ القدر، برقم: (٦٦٠٨)، صحيح مسلم، كتاب النذر، بَاب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا، برقم: (١٦٣٩)، (٣/ ١٢٦٠).

خامساً: ثُمَّ ذكَر رَحِمَهُ اللهُ الفرقَ بين الخاطرةِ والاسترسالِ، قد يقع في نفس إنسانٍ خاطرةٌ وهو يُصلي ويُحسنُ الصَّلَاة، فرأىٰ إنساناً مُعظَّماً فوقع في نفسه أَنَّهُ سيراني وأنا أصلي صلاةً طويلةً، ولكنه دفعَها واستعاذ بالله من الشَّيطَان، وقال: ما الذي ينفعني؟ هذا فقيرٌ محتاجٌ مثلي، فهو يدافعها، فإن دافعها فليس عليه إثم إن شاء الله، أيُّ عَملٍ من أعمالِ القُلُوبِ من المُحرمات أو من الشِّرك قلبُك يدافعُه ليس عليك فيه إثم، الإثم أَنَّ ترضىٰ به وتسترسل معه، وتقبُله وترضىٰ به، هذا هو المحظور. مثلاً كان يعطي الفقراءَ فرآه بعض النَّاس فوقع في قلبه أَنَّهُ سيمدحُني أو سيثني عليَّ -الشَّيطَان يستغل هذه النقاط- فدفعه، قال: أنا لا أحتاج إلىٰ ذكرِه ولا إلىٰ مدحِه، بل أحتاج إلىٰ ربنا عَزَّ وَجَلَّ، مدحُ النَّاس لا ينفعني، وذمُّهم لا يضرني. ويدافعُ الشَّيطَانَ؛ لأنَّ الشَّيطَان حريصٌ علىٰ أَن يستغلَّ هذه المواطنَ، فهذه مخاطرةٌ لا تضرُّ، الذي يضرُّ هو الاسترسالُ مع الخاطرةِ.

سادساً: ذكرَ رَحِمَهُ اللهُ الاختلاف بين العُلَمَاءِ في إحباطِ العَمَل، فكما قلنا: أَنَّهُم اختلفوا في العَمَل الذي يدخلُ فيه الرِّيَاء، فاتفقوا علىٰ أَنَّ العَمَل المُنقطع الذي ليس مُرتبِطاً بعضُه ببعض لا يُبطلُ العَمَل القديم بما حدث بعد ذلك، أمَّا الخلافُ فهو في العَمَل الواحدِ، فالحجُّ عملٌ واحدٌ، الصومُ من الصباح إلىٰ المغرب عملٌ واحدٌ، وكذلك الصَّلَاةُ، أمَّا الصدقات التي هي كل مبلغٍ مُستقلٌ، فكل مبلغٍ كان لله لك أجره، وكل مبلغ كان لغير الله إِمَّا أَن تأثمَ فيه، وإمَّا أَنَّهُ ليس لك فيه أجرٌ.

سابعاً: ذكر رَحِمَهُ اللهُ الاختلافَ بين فرح الإنْسَان بثناء النَّاسِ، وبين أَن يقصد ذلك في عملِه، مثلاً: إنسان صامَ فسمع النَّاس يُثنون عليه: فلان فيه خيرٌ يصوم الست، يقوم اللَّيل، هو لم يعمل لهذا، ففرح في قلبِه، ليس فيه حرج إن شاء الله؛

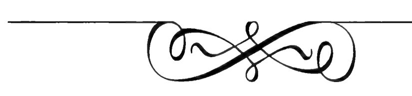
لَأَنَّ هذه عاجلُ البَشَرىٰ للمؤمن، لكنه ما تعمَّد أَن يعمل العَمَل حتىٰ يُمدح، ولكن الله ﷻ ألقىٰ المدحَ علىٰ الألسُن، فهذا ليس فيه حرج إن شاء الله.

ثامناً: جمهور العُلَمَاء علىٰ أَنَّ الرِّيَاءَ شِرْكٌ أصغر مثلُ الكَبَائِر قد يغفره الله، وقد يُعذِّبُ صاحبَه، ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يُفرِّق في الشرك، يقول: اليسير كبيرةٌ لكن إذا كثر يكون شِرْكًا أكبر، إذا أكثرت من هذا العَمَل تدخلُ في الشِّركِ الأكبر، وبهذا تكون مُعَرَّضاً للعقاب، أَمَّا ابنُ تَيْمِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه يرىٰ أَنَّ الشِّركَ الأصغر لابد أَنَّ يُعاقب صاحبُه في النَّار، لكن الفرقُ بينه وبين الشِّرك الأكبر أَنَّ صاحبه لا يُخلَّد، لكن لابد من العقابِ؛ لَأَنَّ الله قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨]، فقال: أي شِرْكٌ يقعُ في قلب الإنْسَان لابد فيه من عقابٍ، هذا من مات ولم يتب، أَمَّا لو تاب حتىٰ من الشِّرك الأكبرِ فإن الله يغفره ﷻ.

تاسعاً: ذكَر رَحِمَهُ اللَّهُ خطورةَ هذا الشِّرك وأنه يكثر في الصَّالِحين أكثر من غيرهم؛ لَأَنَّ الفاسق لا يرائي بالأعمال الصَّالِحة، فهذا مرض الصَّالِحين؛ لَأَنَّ الصَّالِحين المُؤمِنينَ لهم أمراض خاصة غير أمراض الفاسقين، هذا من أمراض العاملين.

عاشراً: ذكر أَنَّ الرِّيَاءَ من أمراض الصَّالِحين.

هذا مجملُ ما في الباب من المسائل التي عرضها الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والفرق بينه وبين السمعة: أَنَّ الرِّيَاء: هو العَمَل لرؤية النَّاس، والسمعة العَمَل لأجل سماعهم، فالرياء يتعلق بحاسة البصر، والسمعة بحاسة السمع، ويدخل فيه أن يخفي عمله لله ثُمَّ يحدث به النَّاس.

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] الآيَة.

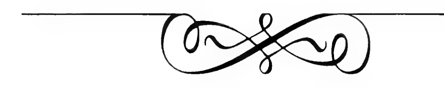
يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾يا مُحَمَّد للناس: ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي في البَشَرِيَّة، ولكن الله منّ عليَّ وفضلني بالرسالة، وليس لي من الرُّبُوبِيَّة ولا من الإلهية شيء، بل ذلك لله وحده لا شريك له كما قال: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: معبودكم الذي أدعوكم إلىٰ عبادته إله واحد لا شريك له، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: من كان يخاف لقاء الله يَومَ القِيَامَةِ.

قال شيخ الإِسْلَام: أَمَّا اللقاء فقد فسره طائفة من السَلَف والخلف بما يتضمن المعاينة والمشاهدة بعد السلوك والسير، وقالوا: أَنَّ لقاء الله يتضمن رؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وأطال في ذلك واحتج له، وقال سعيد بن جبير: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ قال: من كان يخشىٰ البعث في الآخِرَة. رواه ابن أبي حاتم.

الشَّـرح

قوله: (والفرق بينه وبين السمعة...) هذا نوعٌ من أنواع الرِّيَاءِ، أَنَّ الإِنْسَان يُخفي عملَه الصَّالِحَ ثُمَّ بعد العَمَل يوسوس له الشَّيطَانُ ليُحدِّثَ النَّاسَ بما عمِلَ، وهذا لا ينبغي، كذلك العاصي يقعُ في معصيةٍ ويستره الله ثُمَّ يُحدِّث النَّاس بها، فهذا أيضًا مُتوعَدٌ بالعقابِ.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، اللقاءُ بمعنىٰ الالتقاءِ والرؤيةِ، فلا تلقَ إنسانـًا إلا إذا رأيته، هذا المَعْنَىٰ قد تَتضمنُّه الآيَةُ، وقد لا تتضمنُه؛ لَأنَّ في الآخِرَة ليس كلُّ النَّاس يرىٰ الله، إنَّما الذي يرىٰ الله ﷻ هم المُؤمِنون، وإلا فإنَّ الكُفَّار لا يرون الله يَومَ القِيَامَةِ، فاللقاءُ هنا في حقِّ المُؤمِنينَ يتضمن الرؤيةَ، لكن في حقِّ الكَافرين لا يتضمنُّها، إنَّما اللقاءُ هنا بمعنىٰ الالتقاءُ للمحاسبَة أي: البعثُ والنُّشور يَومَ القِيَامَةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ أي: كائنًا ما كان. قال ابن القَيِّم: أي كما أَنَّهُ إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أَنَّ تكون العِبَادَة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أَنَّ يفرد بالعبودية، فالعمل الصَّالِح هو الخالص من الرِّيَاء المقيد بالسنة. انتهىٰ.

الشَّـرح

القرآنُ الكَرِيم مملوءٌ بذكرِ العَمَلِ الصَّالِح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وفي بعضِها: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧]، فنحن لم نُؤمر بالعمل مطلقًا، بل بعملٍ صالحٍ، أو عملٍ حسنس،أي: العَمَل له صفةٌ ليس عملاً مطلقًا، فالعمل الصَّالِحُ أَن تبتغي بهٍ وجهَ الله، وَأَنّ يكون علىٰ سنة رَسُول الله ﷺ، أمَّا لو توفَّر فيه شرطٌ واحدٌ أَن يكون لله، لكن ليس علىٰ السُّنَّة؟ فإنَّه مردودٌ: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**(١)، ومن عمل عملاً علىٰ السُّنَّةِ لا يبتغي به وجهَ الله فهذا أيضًا مردودٌ؛ لأَنَّه قَالَ - تَعَالَى -: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠]، وفي الحَدِيث كما سيأتي: **(أنا أغنىٰ الشركاء عن الشِّرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)**(٢).

فلو نقص من العَمَل أحدَ هذين الركنين لكان العَمَلُ لاغيًا لا أجرَ فيه، إن لم يكن فيه عقابٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذان ركنا العَمَل المُتقبل: لابد أَن يكون صوابًا خالصًا، فالصواب أَن يكون على السُّنَّة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، والخالص أَن يخلص من الشِّرك الجلي والخفي، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

روى عبد الرزاق وابن أبي الدُّنْيَا في كتاب الإخلاص وابن أبي حاتم والحاكم عن طاوس قال: قال رجل يا نبي الله، إني أقف المواقف أبتغي وجه الله وأحب أَنَّ يُرى موطني. فلم يرد عليه شيئًا حتى نزلت هذه الآيَة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ رواه الحاكم وصححه موصولاً عن طاوس عن ابن عبَّاسٍ.

وفي الآيَة دليل على الشهادتين، وَأَنَّ الله تعالى فرض على نبينا ﷺ أن يخبرنا بتوحيد الإلهية، وإلا فتوحيد الرُّبُوبِيَّة لم ينكره الكُفَّار الذين كذبوه وقاتلوه، ذكره المصنف.



الشَّرح

قوله: (قال رجل يا نبي الله إني أقف المواقف...)[١] هذا الحَدِيثُ رواه الحاكمُ في المستدرك من طريقين: طريقٌ مُرسلٌ عن طاووس، وطاووس تابِعي وليس صَحَابيًا، هذا يُسمَّى مُرسلاً، والمُرسَل ضَعِيفٌ مهما كان الذي أرسلَه،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، برقم: (٨٠٢٠)، (٤/ ٤٧٥)، والبيهقي في شعب الإيمَان، بَاب في إخلاص العَمَل لله تعالى وترك الرِّيَاء، برقم: (٦٨٥٤)، (٥/ ٣٤١).

قد يقولون: فلان من العُلَمَاءِ ثقةٌ لا يُرسِل إلا عن ثِقةٍ. نقول: قد يكون ثقةٌ عنده، ولكن عند غيره يكون ضَعِيفًا، ونرىٰ أحدَ العُلَمَاءِ يُوثِّقُ رجلاً، وآخر يُضعِّفُه، وقال العُلَمَاءُ: أَنَّ الجرحَ مُقدَّمٌ علىٰ التوثيِقِ. فالمُرسل ضَعِيفٌ، فلا يُقبل حتىٰ يُعرف الذي رواه عنه طاووسَ، وأمَّا الطريقُ المتصلُ ففي إسنادِه رجل فيه لِينٌ، أي: لا يُوثَقُ براويته إلا إذا عَضَّدَته روايةٌ أخرىٰ من طريق آخر. فالحديث ليس صحيحاً وَإِن كان المَعْنَىٰ صحيحاً، قلنا أَنَّهُ ليس معنىٰ عدم صحةِ الحَدِيث أَنَّ المَعْنَىٰ ليس صحيحاً، فقد يكون المَعْنَىٰ صحيحاً من حديثٍ آخر لكن السندَ لم يصح.

قوله: (وفي الآيَة دليل علىٰ الشهادتين...) جميع الآيات أُنزلت، وجميع الرُسُل إنما جاءوا يدعون النَّاس إلىٰ توحيدِ العِبَادَة، لا إلىٰ توحيدِ الرُّبُوبِيَّة، توحيدُ الرُّبُوبِيَّة فطري في القُلُوبِ، لا يُعرف أَنَّ مُجْتَمَعاً من المُجْتَمَعات البَشَرِيَّة أنكر توحيدَ الرُّبُوبِيَّة أبداً، وكذلك اليوم لا يُوَجَدُ مُجْتَمَع بكامله ينكرُ هذا التَّوْحِيدَ، نعم يُوَجَدُ أفراد، ونحن علىٰ يقين أَنَّ في قلوبهم خلافُ ذلك؛ لأَنَّ الإنْسَان له عقلٌ، في أي جزئية من هذا الكون يُفكِّرُ يرىٰ أَنَّهُ لابد أَنَّ يكون هناك خالقٌ، ليس هناك شيء في الوجود لا يدلُّ علىٰ أَنَّ هناك خالقاً، كل شيءٍ يحتاجُ إلىٰ أَن يكون وراءه من يرعاه، النبتةُ الصغيرة التي تنبتُ بنظام دقيقٍ، وتأخذ بذرتها وتغرسُها فتنبت مرةً أخرىٰ، وتأخذ بذرتَها وتنبت مرةً أخرىٰ، بنفس المواصفات، فهذا تنظيمٌ، إذا كانت هذه النبتة اليسيرة كذلك فما بك بالخلق بكامله؟ هذا الإنْسَان أصله ذكرٌ أو أنثىٰ، كيف جاء ذكرٌ وأنثىٰ؟ وكذلك الحيوانات بكاملها، الطيور نوع يحمل حملاً، ونوع يبيض بيضاً، وقد اختلفت طريقة الإخراج، وطريقة التوالدِ، ولكل نوع من المَخْلُوقات نظامٌ خاصٌ يحكُمه منذ أَن خلقه الله إلىٰ قيام السَّاعَة، القطُّ هو القطُّ لا يتغير، ما يأتي يوم من الأيام وإذا به ذئبٌ.

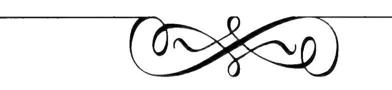
فمما يدل علىٰ أَنَّ لهذا الكون خالقاً هذا الخلقُ العجيب الدقيقُ، هذا الإِنْسَانُ المحكَمُ الخلقِ المنظمُ التنظيمَ العجيبَ، كلُّ شيء في الإِنْسَان عجيبٌ، فمثلاً صوتُ الإِنْسَان كيف يأتي؟ هناك في الداخل ما يُسمىٰ بالأوتار وهي الأحبال الصوتية، الإِنْسَان أحياناً يُصاب بمرض في حلقه فصوته يختفي، ولا ندرىٰ كيف يخرجُ الصوت، كلُّ إنسان له صوتٌ مختلفٌ عن غيره، فلا يُوَجَدُ عقلٌ يقول أَنَّهُ ليس له إله أبداً، ليس له ربٌّ، لكن الذي يحدثُ أَنَّ العَقْلَ يتيه، فيعتقد أَنَّ هذا المَخْلُوقَ له عند الخالقِ قداسةٌ، لماذا يقع في قلبه هذا الكلام؟ يقيس علىٰ حَيَاة البَشَر، يرىٰ الملوكَ عندهم وزراء، والوزراء مقرَّبُون من الملك، وعند الوزراء نوابٌ ومساعدون صغارٌ مقرَّبون إلىٰ الوزراء، فالإنسان ما يستطيع أَن يصل إلىٰ الملكِ مباشرةً، فيأتي إلىٰ مديرِ مكتبِه يتشفعُ عنده حتىٰ يوصلَّه إلىٰ الوزير مباشرةً، والمديرُ يرسلُه إلىٰ الوزير، والوزيرُ يرسله إلىٰ المَلكِ، هذا في حَيَاة النَّاسِ، ينقدح في ذهن النَّاس أَنَّ الخالقَ مثلَ الملوك البَشَرِ، وهذا قياسٌ خاطئٌ، الله ليس مثلَ الخلقِ، الله ﷻ لا يخفىٰ عليه من حالنا خفاءٌ، أنت تتوسط عند الملكِ؛ لَأنَّه لا يعرفُك، ولا يعرفَ حالك؛ لَأنَّه مثلُك إنسانٌ علمُه قاصرٌ ومحكومٌ بالجهل من كل مكان، فيحتاج إلىٰ من يُعلِمُه، لكن الخالِق كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ١٦﴾ [ق:١٦]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦].

فقياس المُشْرِكِينَ للخالق علىٰ حال المَخْلُوقين هو السَّبَب في الشرك، يقدِّسون المَخْلُوقاتِ، منهم من يرىٰ هذه الشمسَ العظيمةَ المُشرقةَ، فيعتقد أَنَّ هذه الشمسَ هي الربَّ، كما كان في حَيَاة الفَلَاسِفَة، الفَلَاسِفَة قبل الإِسْلَام كانوا يعبدون الكواكبَ، ولهذا إبراهيم عليه السلام ناظرَهم عندما رأىٰ الكوكب:

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦]، ورأى القمر: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٧]، ورأى الشمس: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام:٧٨]، أخيراً قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:٧٩]، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ ناظرهم بالتدرج.

فالإنسان قد يقع في ذهنه أَنَّ هذا المَخْلُوقَ هو الخالقُ، أو له عند الخالِق مكانةً، فيتقرَّب به عند الله لِما يرى في حَيَاة البَشَر، ولكن لا يُقاسُ الخالِق بالمخلوقِ.

يقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الأنبِيَاء جاءت تعلم النَّاسَ أَن يعبدوا اللَّه، لا تعلمُهم أَنَّ لهم خالقاً؛ لأَنَّه ما هناك أحدٌ يجهلُ أَنَّ له خالقاً، قلنا أكثر من مرة: أَنَّهُ حتى الهندوس عُبَّاد البقرِ يعتقدون أَنَّ في السماء رباً كبيراً، وهم يعبدون البقرة، قالوا: البقرةُ فيها بركةٌ، فنحن نُقدِّسُها لبركتها، وإلا فهم لا يعتقدون أَنَّ البقرة تخلُق،فلا يُوجَدُ مُجْتَمَعٌ لا يعرف توحيدَ الرُّبُوبِيَّة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيها تسمية الرِّيَاء شِرْكًا، وفيها أَنَّ من شروط الإِيمَان بالله واليوم الآخر أَن لا يشرك بعبادة ربه أحداً.

ففيه التصريح بأن الشِّرك الواقع من المُشْرِكِينَ إنما هو في العِبَادَة لا في الرُّبُوبِيَّة.

وفيها الرد على من قال: أولئك يتشفعون بالأصنام ونحن نتشفع بصالح؛ لأنَّه –تعالى– قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ فليس بعد هذا بيان.

الشَّرح

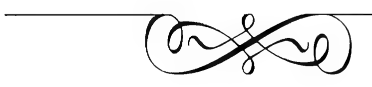
قوله: (وفيها تسمية الرِّيَاء شِرْكًا...) يذكرُ الفوائدَ في الآيَةِ، فالإنسان الذي يؤمن بلقاء اللهِ، وأنه سيُبعث يَومَ القِيَامَةِ وأنَّه سيحاسبُه وسيعاقبُه إن أخطأ أو يثيبُه إن أحسن لا يُشركُ بالله أحداً، لكن إن خفيَ هذا الاعتقادُ في قلبه وقعَ في الشَّرك.

قولُه: (ففيه التصريح بأن الشِّرك الواقع...) لا يعني أَنَّ المُشْرِكِينَ كان عندهم توحيدُ الرُّبُوبِيَّةِ خافياً، إنما المقصود أَنَّ أصلَ التَّوْحِيد عندهم موجودٌ، ولكن عندهم لبسٌ، فبعضهم يعتقد أَنَّ الكواكبَ لها تأثيرٌ في حَيَاة النَّاس وصحتِهم ومرضِهم، كما جاء في حديث زيد بن خالد عندما قال النَّبِيّ ﷺ في غزوة الحديبية: (يقول الله: أصبح من عبادي مؤمن بي ومشرك بي، فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فهو مشرك بي مؤمن بالنجوم والكواكب)[1]. فيوجد شِرْكٌ

(١) أخرجه الشيخان، وقد سبق تخريجه.

في توحيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، لكن هذا لا يعني أَنَّ الأصلَ معدومٌ، الأصلُ موجودٌ في القُلُوبِ، أمَّا توحيدُ الألوهيةِ فقط فهذا فيه الشِّركُ أكثر من ذلك.

قوله: (وفيها الرد على من قال: أولئك...) بعض المُسْلِمينَ المعاصرين يقولون: نحن ما نتشفع بالأصنام عند الله، نحن نتشفَّعُ بالصَّالحين، فقال: الآيَة تردُّ عليهم، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]، لا صنماً ولا رجلاً. فأيُّ شِرْكٍ في حقِّ الله باطلٌ، والآية تشمل ذلك كلَّه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

افتتح الآيَة بذكر براءة النَّبِيّ ﷺ الذي هو أقرب الخلق إلىٰ الله وسيلة، أي براءته من الإلهية، وختمها بقوله: ﴿أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]. واعلم رحمك الله أَنَّ هذه الآيَة المعرفة التي تنفعه إلا من ميز بين توحيد الرُّبُوبِيَّة وبين توحيد الإلهية تمييزاً تاماً، وعرف ما عليه غالب النَّاس، إِمَّا طواغيت ينازعون الله في توحيد الرُّبُوبِيَّة الذي لم يصل إليه شِرْكُ المُشْرِكِينَ، وإِمَّا مصدق لهم تابع لهم، وإِمَّا شاك لا يدري ما أنزل الله علىٰ رسوله، ولا يميز بين دين الرَّسُول ﷺ وبين دين النَّصارَىٰ، ذكره المصنف.

الشَّـرح

قوله: (واعلم رحمك الله...) هنا خطأٌ مطبعِي، والصحيح: (واعلم - رحمك الله -أَنَّ هذه الآيَة لا ينتفعُ بها إلا من ميَّز بين توحيدِ الرُّبُوبِيَّة وبين توحيد الأُلُوهيَّةِ). كلمةُ: (المعرفةُ التي تنفعُه) زائدةٌ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّهُ لابد من وجودِ تصفيةِ الذِّهن، وهي أَن تُفرِّق بين جانبين للتوحيدِ: توحيدٍ يتعلَّق بأفعال الخالِق، وتوحيدٍ يتعلَّق بأفعالِ العبد، اللهُ له أفعالٌ: يخلق ويرزُق ويحيي ويميتُ، ويحفظُ الكون، هذه من توحيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، تتعلَّق بالربِّ، أَمَّا توحيدُ العِبَادَةِ فتتعلَّق بفعلك، مثلُ:الصَّلَاةُ والصيامُ والدعاءُ والاستغاثةُ والخوفُ والحبُّ والخشيةُ و الذُّلُّ والطاعةُ، هذا توحيدُ العِبَادَة أو توحيدُ الإلهية أو الأُلوهية كلُّها بمعنىٰ واحد.

المتكلمُون لا يُفَرِّقون بين التَّوْحِيدين، بل يُنكرون هذا التقسيم، ولا يُفرِّقون بين معنىٰ الربِّ ومعنىٰ الإله، بل يعتقدون أَنَّ معنىٰ (لا إله إلا الله)

لا خالقَ إلا الله، وهذا من أكبر الجهل، لا ينطبقُ عليه المَعْنَىٰ اللّغوي، ولا المَعْنَىٰ الشَّرْعِي، ولا يُقرُّه العَقْلَ؛ لَأنَّ كلمةَ: (لا خالقَ إلا الله) تقولُها لمن يعتقدُ أَنَّ هناك خالقـًا غير الله، لكن قريش: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، فكيف تقولون: لا خالقَ إلا الله، وهم يعترفون بأنَّه لا خالقَ إلا اللهَ عقلاً، ثُمَّ في الَّلغَة كلمة ربٍّ غير كلمةِ إلهٍ، ولهذا لو جاء كافرٌ وقال: لا ربَّ إلا الله لا يدخلُ الإِسْلَام حتىٰ يقول: لا إله إلا الله؛ لَأنَّه: " لا رَبَّ " ليس فيها خلافٌ، عندما خرج المُسْلِمون يدعون المُشْرِكِينَ إلىٰ الإِسْلَام هل قالوا لهم: لا خالقَ إلا الله؟ أبداً، دعوا النَّاس إلىٰ عبادةِ الله، دعَوا الفرس، ودعوا الرومَ، ودعَوا الهندوس في الهند، كلُّ مُجْتَمَعٍ دعَوه إلىٰ: "لا إله إلا الله "، ما هناك مُجْتَمَع قال: من هو الله؟ فلو كان هناكَ مُجْتَمَعٌ لا يعرفُ الخالِقَ لقال: كيف تقول لي: اعبدُ من لا أعرفه؟ أولاً عرفِّني بهذا المعبودِ، ولكن ما قال مُجْتَمَعٌ من المُجْتَمَعات التي غزاها المُسْلِمون: من هو الله، فهذا التَّوْحِيدُ موجودٌ، والخلاف في فعلِ البَشَر، ألَّا نعملَ إلا وفقَ أمر الله، فنعبدُ الله، ونطيعُه ونُحبُّه ونتذللُ إليه وحده، ونستغيثُ به، وندعُوه وحدَه، ونستعينُ به وحدَه، هذه كُلُّها من أعمال العباداتِ.

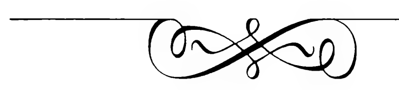
يقـول رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وعـرف مـا عليـه غالـب النَّـاس إِمَّـا طواغيـت ينـازعون الله في توحيد الرُّبُوبِيَّة)** بعض الأشخاص يعتقد أنَّـهُ ربُّ النَّاس، ربُّ المُجْتَمَع، هـو الذي يحلِّلُ ويحرمُ، لابدَّ أَنَّ يُعطىٰ من الحقوقِ ما لا يُعطاه النَّاس، قوله لا يُـرد، رأيه كلُّه صوابٌ، يُذكر في الكتب القديمة أَنَّ ملكَ الصين قبل آلاف السنين فكَّر أَنَّ يؤسسَ مَجلسـًا استشاريـًا، فعمل مجلسـًا استشـاريـًا من قرابة أربعين شخصـًا من العُقَلاء، فإذا جاءت قضيةٌ طرحَ القضية وقال: رأيي فيها كـذا. قالوا: جميلٌ، ما أحسن هذا الرأي. وفي المرة الثانية جاءت قضيةٌ ورأيي فيها

كذا، قالوا: هذا أحسن رأي. وفي المرة الثالثة:قالو: هذا أحسنُ رأيٍ. واستمروا في مدة معينة كلما جاء برأي قالوا: ما هناك أحسنُ من هذا الرأي. فحلَّ هذا المجلسَ، فسألوه: لِمَ يا ملكُ، ما عارضناك في شيءٍ؟ قال: نعم، ما دام أَنَّ رأيي صحيحٌ فما الحاجةُ إليكم؟ عقلي كاملٌ ما احتاج إليكم، توقَّعتُ أَنَّ عقلي فيه نقصٌ فجئت بكم حتىٰ تساعدوني في رؤية الأشياء. هذا الملك كان عاقلاً، لكن بعض المسئولين لا يحب أَنَّ أحداً يعارضه، بل يحب أن يقولوا: رأيُك صحيح، لكن ذاك أعقلُ من هؤلاء؛ لَأنَّه ما يمكن لإنسان أن تكون كلُّ آرائه صحيحةٍ، إلا الرُسُل الذين يُؤيدُهم الوَحْي، أمَّا الإنْسَان العادي فلابدَّ أَنَّ يكون في بعضِ آرائه خطأ، وإذا كان كلُّ ما يقولُه صحيحاً فهو نفسه نازعَ الخالقَ في الرُّبُوبِيَّة، كأنه ربٌّ لا يخطئ؛ لَأنَّ الذي لا يخطئُ هو الله.

فهؤلاء طواغيتٌ نازعوا الله في توحيدِ الرُّبُوبيَّةِ، كما قال فرعونُ: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات:٢٤]، فادَّعىٰ الرُّبُوبِيَّةَ، ولهذا لا يسمح لأحدٍ أَن يعارضَه، أو يُخطِّئَه، كيف يُخطِّئُ الربَّ؟ كما يقول أحدُ من أسلم من الهندوس: أَنَّ الهندوس يعتقدون أَنَّ هناك ثلاثةَ أرباب، ربٌّ في الأرض، وربٌّ في الجو، وربٌّ في السماء، الربُّ الذي في السماء أكبر الأربابِ، والربُّ الذي في الجوِّ هو الذي يُنزل المطر، فيقول: كنت أسمع أمي وأنا صغيرٌ إذا جاء مطرٌ كثيرٌ، تقول: أخطأ الربُّ. فأقول في نفسي كيف يكون رباً ويُخطئُ؟ ما استوعبتُ هذا الكلام، فهذا ليس رباً، فبقي في نفسي هذا المَعْنَىٰ، حتىٰ قرأت عن الإِسْلَام، وإذا به يقول: الله واحدٌ وليس ثلاثةً، والله لا يُخطئُ، وفيه صفات الكمالِ، فوقع في قلبي الإِسْلَام. فأسلَمت.

فالذي لا يُخطئُ هو الله، لكن البَشَر يُخطئُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، هذه صفةُ المُؤمِنينَ ما هناك إنسانٌ عقلُه كاملٌ.

يقول رحمه الله: (وإما مصدق لهم تابع لهم) هذا صنف ثان يُصدِّقُهم، كلَّما قالوا قولاً، قالوا: نعم، هذا الرأي صحيحٌ، هذا الصنف الثاني، وصنف شاكٌّ لا يدري هل هذا صحيحٌ أو خطأٌ، هل هؤلاء أربابٌ أو بشرٌ؟ فهو ضائعٌ بين الأمرين، هؤلاء كلهم ضالُّون، والصوابُ أَنَّ المَخْلُوقَ بشرٌ وليس ربـاً، ولا مُشاركاً لله، ولا مُستشاراً عند الله، ولا مُعيناً لله، بل هو بشرٌ ممن خلق يُخطئُ ويُصيبُ، ويَمرضُ وَيَصحُّ، ويَجوعُ ويَشبعُ، ويَحزنُ ويَفرحُ، ويحيا ويموت. هذه صفاتُ البَشَر، وهذه القضيةُ واضحةٌ ـ ولله الحمد ـ في أذهان المُسْلِمينَ الذين يقرءون القُرآن قراءة صحيحة، لكننا نرىٰ في كثير من بلادِ المُسْلِمينَ هذه الصورة ليست واضحةً عندهم؛ لَأنَّ هم لا يقرءون القُرآن قراءةً للفائدة، وإنما يقرءون القُرآنَّ للتَّبرُّكِ فقط.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيها أَنَّ أصل دين النَّبيّ ﷺ الذي بعث به هو الإخلاص كما في هذه الآيَة، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ [هود:١-٢]، وذلك هو دعوة الرُسُل من أولهم إلىٰ آخرهم كما قَالَ -تَعالَىٰ-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، وذلك هو الحنيفية الإبراهيمية جَعَلَ نا الله من أهلها بمنه وكرمه.

قال: (عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: قال الله تعالىٰ: أنا أَغْنَىٰ الشُّرَكاءِ عن الشِّرك مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فيه غَيرِي تَرَكْتُهُ وشركَه) رواه مسلم.

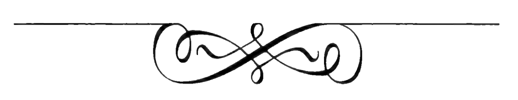
قوله: (أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك) لما كان المرائي قاصداً بعمله الله تعالىٰ وغيره كان قد جَعَلَ الله تعالىٰ شريكًا، فإذا كان كذلك فالله تعالىٰ هو الغني علىٰ الإطلاق، والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار، فلا يليق بكرمه وغناه التام أَنَّ يقبل العَمَل الذي جَعَلَ له فيه شريك، فإن كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه يوجب أن لا يقبل ذلك، ولا يلزم من اسم التفضيل إثبات غنىٰ للشركاء.

الشَّرح

قوله: (وفيها أَنَّ أصل دين النَّبيّ ﷺ الذي...) كلُّ القُرآنِ يُؤكِّد هذا المَعْنَىٰ، أَنَّهُ ما بعثَ رسولاً إلا ويدعو النَّاس إلىٰ هذه القضية، إلىٰ عبادةِ الله، الطَّاعَة كلُّها لله، الحبُّ كلُّه لله، الذُّل كلُّه لله، الخَوْفُ كلُّه من الله، الاستغاثة كلُّها لله، الدعاءُ كلُّه لله، هذا هو مضمنون دعوات الرُسُل من نوح عليه السلام إلىٰ نبينا ﷺ.

قوله: (قوله: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشِّرك...)[١] مثال ذلك: لو جاءَ إنسانٌ إلىٰ ملكٍ من الملوك وأعطاه عشرَ صفائحَ من العسل، وقال: هذه لك وللطَّباخ الذي عندك. أو لك وللسائق. هل تظن أَنَّ الملك سيقول للسائق: خذ نَصْفها، أبداً، يقول: أعطها للطبَّاخ. أليس كذلك؟ هو بشرٌ، لو جاء إنسان بصفيحة من أغلىٰ أنواع العسل، فأخذ ملعقةً من القَذَرِ فوضعها علىٰ الصفيحة من العسلِ، هل أحدٌ منا يرضىٰ بأن يشرب من هذا العسل؟ لا، كذلك التَّوْحِيدُ. لو عملت عملاً ثُمَّ جَعَلَته بين الله وبين المَخْلُوق فالله ﷻ لا يقبله، قال: الله كريمٌ ما يقتسم مع عبدِه عملَه، يقول: أنا لا أحتاج هذا العَمَل، الله ﷻ لا يحتاجُ، يقول: هذا العَمَل لا أريدُه؛ لَأَنَّك قد أشركت معي عبدي. وكذلك العَمَل يكونُ طاهراً نظيفاً بالإخلاص، فإذا وضعت فيه شِرْكًا وسَّختَه، فلا يصلُح لله ﷻ، فهكذا العَمَلُ الذي يقعُ فيه الشِّركُ يبطلُه، والله لا يقبلُه.

فقوله: (أنا أغنىٰ) هذا في العربية يُسمَّىٰ صيغةَ تفضيل،أي: الاشتراكُ بين الطَّرفين في المَعْنَىٰ، لكن يزيد أحدُهما، مثلَ أن تقولَ: فلان أسمَنُ أهلِ بيتِه.أي: كلُّهم سِمَان، لكن هذا أسمنُهم، أو فلان أكرم أهل بيته.أي: كلهم كرماء وهذا كرمُه زائد عنهم، هل هذا المَعْنَىٰ مرادٌ في الحَدِيث،أي: أَنَّ البَشَر أغنياء، وَأَنَّ الله أغنىٰ منهم؟ قال: لا، صيغةُ التفضيل هنا ليست علىٰ بَابِها، وسيضرب لهذا أمثلة تدلُّ علىٰ ذلك.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

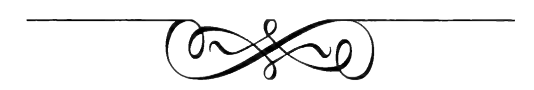
فقد تقع المفاضلة بين الشيئين وَإن كان أحدهما لا فضل فيه كقوله تعالىٰ: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾ [النمل:٥٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان:٢٤].



الشَّرح

قوله: (فقد تقع المفاضلة بين الشيئين..) كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، هنا (خَيْرٌ) صيغة تفضيل،أي: أولئك خيرٌ والله أكثر خيراً منهم؟ ليس هذا المَعْنَىٰ موجوداً، بل المَعْنَىٰ أنَّهُ لا خيرَ إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله تعالىٰ: (﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ﴾ [الفرقان:٢٤]) أهلُ النَّارِ في النَّار، وأهلُ الجَنَّة في الجَنَّة، الله يقول عن أهلِ الجَنَّة أَنَّهُم: ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان:٢٤]، هل أهل النَّار مقيلُهم حسنٌ، وَأَنَّ أهلَ الجَنَّة أحسنُ منهم؟ لا، فقد يأتي اسم التفضيل ولا يُراد به المفاضَلة، إنَّما يُراد بها إثباتُ المَعْنَىٰ لأحدِ الطرفين فقط دون مشاركةِ الآخر، فليس في الحَدِيثِ أَنَّ العبدَ الفقيرَ الذي أشركته مع الله غنيٌ، وَأَنَّ اللهَ أغنىٰ منه، إنَّما يقول الله: أنا غنيٌ، ولا أقبل العَمَلَ الذي تشركُ فيه معي غيري.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري) أي من قصد بذلك العَمَل الذي يعمله لوجهي غيري من المَخْلُوقين تركته وشركه، وفي رواية عند ابن ماجه وغيره: (فأنا منه بريء وهو للذي أشرك)، قال الطيبي: الضمير المنصوب في (تركته) يجوز أَنَّ يرجع إلىٰ العَمَل، والمراد من الشِّرك الشريك.

قال ابن رجب: واعلم أَنَّ العَمَل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضـًا، فلا يراد به سوىٰ مراءاة المَخْلُوقين لغرض دنيوي كحال المُنافِقين في صلاتهم كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢]، وكذلك وصف الله الكُفَّار بالرياء في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال:٤٧]، وهذا الرِّيَاء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصَّلَاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدىٰ نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العَمَل لا يشك مسلم أَنَّهُ حابط، وَأَنَّ صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة، وتارة يكون العَمَل لله ويشاركه الرِّيَاء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصَّحِيحة تدل علىٰ بطلانه، ثُمَّ ذكر أحاديث تدل علىٰ ذلك منها الحَدِيث الذي ذكره المصنف.



الشَّرح

هنـا استمرارٌ لكـلامِ ابـن رجـب رَحِمَهُ اللَّهُ فإنـه قـد أطـالَ في كتـاب (العلـوم والحكـم) في شرح هـذا الحَدِيث، وكـذلك ابـنُ حجرٍ الهيثمي ـ هـذا غير ابـن حجر العسقلاني ـ في كتاب (الزواجر) أطال، فله كتاب اسمه (الزواجر عن اقتراف الكَبَائِر) ذكر فيه كثيراً من الكَبَائِر، وأطال في الرِّيَاء وأقسامَه وأنواعَه، وكذلك فعلَ غيرهُما من العُلَمَاءِ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحديث شداد بن أوس مرفوعًا: (من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، وَأَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، فمن أشرك بي شيئًا فإن جدة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني) رواه أحمد.

وحديث الضحاك بن قيس مرفوعًا: (إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول أنا خير شريك، فمن أشرك معي شريكًا فهو لشريكي، يا أيها النَّاس أخلصوا أعمالكم لله عَزَّ وَجَلَّ، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولا تقولوا هذا لله والرحم، فإنها للرحم وليس لله منه شيء، ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم، فإنه لوجوهكم وليس لله منه شيء) رواه البزار وابن مردويه والبهيقي بسند، قال المنذري: لا بأس به.



قوله: (وحديث شداد بن أوس مرفوعًا...)[١] هذا الحَدِيث رواه أحمد والحاكم مختصراً وهو ضَعِيفٌ؛ لَأنَّ فيه شهر بن حوشب الذي ضعَّفه جمهورُ العُلَمَاءِ، وهنا لفظة لم أستطع أَن أعرفَ رسمها، وهي قوله: (فإنَّ جدة عمله)، وفي المسند (حشد عمله)، وفي بعض الروايات: (جسد عمله) ولم يظهر لي وجه، ولكن - كما قلنا - الحَدِيث ضَعِيفٌ، ولهذا البحث في ألفاظه ليست فيه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (١٧١٤٠)، (٢٨/ ٣٦٥)، وأخرج الجملة الأولى منه فقط الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٧١٣٩)، (٧/ ٢٨١)، والبيهقي في شعب الإيمَان، بان في إخلاص العَمَل لله تعالى وترك الرِّيَاء، برقم: (٦٨٤٤)، (٥/ ٣٣٧)،والبزار في مسنده، برقم: (٣٤٨٢)، (٢/ ١٦).

فائدة تذكر. قوله: (وحديث الضحاك بن قيس مرفوعًا...)[١] الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ أورد اثني عشر حديثًا منها خمسةٌ صحيحةٌ، وأربعة ضَعِيفةٌ، واثنان حسنان، وواحد موضوع، لكن كثرة الأحَادِيث التي في الرِّيَاء تدل علىٰ أَنَّ الحَدِيث له أصل.

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب الطهارة، بَاب النِّيَّة، برقم: (١٣٣)، (١/ ٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمَان، بَاب إخلاص العَمَل لله تعالىٰ وترك الرِّيَاء، برقم: (٦٨٣٦)، (٥/ ٣٣٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٢٢١)، قال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٣): "رواه البزار بإسناد لا بأس به".

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحديث أبي إِمامة الباهلي: (أن رجلاً جاء إلىٰ رَسُول الله ﷺ فقال: يا رَسُول الله أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رَسُول الله ﷺ: لا شيء له. فأعادها عليه ثلاث مرات، يقول له رَسُول الله ﷺ: لا شيء له. ثُمَّ قال: أَنَّ الله لا يقبل من العَمَل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه) رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد، ثُمَّ قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرِّيَاء مثل أخذ أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة، أو التجارة نقص بذلك أجر جهادهم، ولم يبطل بالكلية.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو: (عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّ الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجلوا ثلثي أجرهم، فإن لم يغنموا شيئًا تم لهم أجرهم). قلت: هذا لا يدل علىٰ أَنَّهُم غزوا لأجلها، فلا يدل علىٰ ثبوت الأجر لمن غزا يلتمس عرضًا.

قال: وقد ذكرنا فيما مضىٰ أحاديث تدل علىٰ أَنَّ من أراد بجهاده عرضًا من الدُّنْيَا أَنَّهُ لا أجر له، وهي محمولة علىٰ أَنَّهُ لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدُّنْيَا.

قلت: ظاهر حديث أبي هريرة أَنَّ رجلاً قال: يا رَسُول الله رجل يريد الجهاد وهو يبتغي عرضًا من عرض الدُّنْيَا؟ فقال رَسُول الله ﷺ: (لا أجر له) فأعاد عليه ثلاثًا، والنبي ﷺ يقول: (لا أجر له) رواه أبو داود، يدل علىٰ أَنَّ نية الجهاد إذا خالطها نية أجرة الخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة، أو التجارة لم يكن له أجر، ويحتمل أَنَّ يكون معنىٰ يريد الجهاد أي يريد سفر الجهاد ولم ينو الجهاد إنما نوىٰ عرض الدُّنْيَا.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد: التاجر والمستأجر والمكاري أجرهم علىٰ قدر ما يخلص من نيتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره. وقال أيضاً فيمن يأخذ جَعَلَ اً علىٰ الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس، كأنه خرج لدينه، فإن أُعطي شيئًا أخذه. وكذا روي عن عبد الله بن عمرو قال: إذا أجمع أحدكم علىٰ الغزو فعوضه الله رزقًا فلا بأس بذلك، وإمَّا أَنَّ أحدكم أَنَّ أعطي درهمًا غزا وَأَنَّ لم يعط درهمًا لم يغز فلا خير في ذلك.

قلت: هذا يدل علىٰ الفرق بين ما كانت نية الدُّنْيَا مخالطة له من أول مرة بحيث تكون هي الباعث له علىٰ العَمَل، أو من جملة ما يبعث عليه كالذي يلتمس الأجر والذكر، فهذا الأجر له، وبين ما كانت النِّيَّة خالصة لله من أول مرة، ثُمَّ عرض له أمر من الدُّنْيَا لا يبالي به سواء حصل له أو لم يحصل، كالذي أجمع علىٰ الغزو سواء أعطي أو لم يعط فهذا لا يضره، ونحوه التجارة في الحج كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة:١٩٨]، وعلىٰ هذا ينزل ما روي عن مجاهد أَنَّهُ قال: في حج الجمال وحج الأجير وحج التاجر هو تام لا ينقص من أجورهم شيء. أي: لأَنَّ قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب. قال: وإمَّا أَنَّ كان أصل العَمَل لله ثُمَّ طرأ عليه نية الرِّيَاء فإن كان خاطراً ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وَأَن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويجازىٰ علىٰ أصل نيته، في ذلك اختلاف بين العُلَمَاء من السَلَف، حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحا أَنَّ عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازىٰ بنيته الأولىٰ، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره، ويُستدل لهذا القول بما أخرجه أبو داود في مراسيله عن عطاء الخراساني أَنَّ رجلاً

قال: يا رَسُول الله أَنَّ بني سلمة كلهم يقاتل فمنهم من يقاتل للدنيا ومنهم من يقاتل نجدة ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله؟ قال: (كلهم، إذا كان أصل أمره أَن تكون كلمة الله هي العليا)، وذكر ابن جرير أَنَّ هذا الاختلاف إنما هو عمل مرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم فإنه ينقطع بنية الرِّيَاء الطارئة عليه، ويحتاج إلىٰ تجديد نية، فأما إذا عمل العَمَل لله خالصـًا ثُمَّ ألقىٰ الله له الثناء الحسن في قلوب المُؤْمِنينَ ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره، وفي هذا المَعْنَىٰ جاء في حديث أبي ذر: (عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ سُئل عن الرجل يعمل العَمَل من الخير يحمده النَّاس عليه، فقال: تلك عاجل بشرىٰ المُؤْمِن) رواه مسلم انتهىٰ ملخصـًا.

إذا تبين هذا فقد دل الكِتَاب والسُّنَّة علىٰ حبوط العَمَل بالرياء، وجاء الوعيد بالعذاب عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود:١٥] والآية بعدها.

وروىٰ مسلم في صحيحه حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النَّار (المقاتل ليُقال جريء، والمتعلم ليُقال عالم، والمتصدق ليُقال جواد) فأما ما رواه البزار وابن مندة والبيهقي عن معاذ بن جبل مرفوعـًا: (من عمل رياء لا يكتب لا له ولا عليه) ذكره السيوطي في الدر، ولم أقف علىٰ إسناده فما أظنه يثبت، والكتاب والسنة يدلان علىٰ خلافه، بل هو موضوع.

قال: وعن أبي سعيد مرفوعـًا: (ألا أُخبِرُكم بما هو أخوفُ عليكم عندِي من المسيح الدَّجَّال؟ قالُوا: بلَىٰ. قالَ: الشِّرك الخفِيُّ يَقُوم الرجلُ فيُصلِّي فيُزَيِّنُ صلاتَه لما يرىٰ من نظر رجل) رواه أحمد.

هذا الحَدِيث رواه أحمد كما قال المصنف، ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم والبيهقي وفيه قصة، ولفظ ابن ماجه والبيهقي: (خرج علينا رَسُول الله ﷺ، ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: ألا أخبركم..) الحَدِيث، وفي سنده ضعف ومعناه صحيح، وروىٰ ابن خزيمة في صحيحه معناه عن محمود بن لبيدة قال: (خرج النَّبِيّ ﷺ فقال: يا أيها النَّاس إياكم وشرك السرائر؟ قالوا: يا رَسُول الله وما شِرْكُ السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرىٰ من نظر الرجل إليه، فذلك شِرْكُ السرائر).

قوله: (عن أبي سعيد هو الخدري) تقدمت ترجمته.

قوله: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال) إنما كان الرِّيَاء كذلك لخفائه، وقوة الداعي إليه، وعسر التخلص منه لما يزينه الشَّيطَان والنفس الأمارة في قلب صاحبه.

قوله: (قالوا: بلىٰ) فيه الحرص علىٰ العلم، وَأَنَّ من عرض عليك أَنَّ يخبرك بما فيك فلا ينبغي لك رده بل قابله بالقبول والتعلم.

قوله: (قال: الشِّرك الخفي) سمي الرِّيَاء شِرْكًا خفياً؛ لأَنَّ صاحبه يظهر أَنَّ عمله لله ويخفي في قبله أَنَّهُ لغيره، وإنما تزين بإظهاره أَنَّهُ لله بخلاف الشِّرك الجلي، وفي حديث محمود بن لبيد الذي تقدم في بَاب الخَوْف من الشِّرك تسميته ب الشِّرك الأصغر، وعن شداد بن أوس قال: (كنا نعد الرِّيَاء علىٰ عهد رَسُول الله ﷺ الشِّرك الأصغر) رواه ابن أبي الدُّنْيَا في كتاب الإخلاص وابن جرير في التهذيب والطبراني والحاكم وصححه، فظاهره أَنَّهُ من الأصغر مطلقًا وهو ظاهر قول الجمهور، وقال ابن القَيِّم: وإمَّا الشِّرك الأصغر فكيسير الرِّيَاء والتصنع للخلق والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت،

وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شِرْكًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده. انتهى.

ففسر الشِّرك الأصغر باليسير من الرِّيَاء فدل على أَنَّ كثيره أكبر، وضد الشِّرك الأكبر والأصغر التَّوْحِيد والإخلاص، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة باطنًا وظاهراً، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر:١١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾ [الزمر:١٤]، وقيل: الإخلاص استواء أحوال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أَنَّ يكون ظاهره خيراً من باطنه، أي لملاحظة الخلق والصدق في الإخلاص أَنَّ يكون باطنه أعمر من ظاهره.

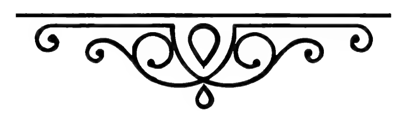
قوله: (فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل)، فسر الشِّرك الخفي بهذا أَنَّ يعمل الرجل العَمَل لله لكن يزيد فيه صفة كتحسينه وتطويله ونحو ذلك لما يرى من نظر رجل، فهذا هو الشِّرك الخفي وهو الرِّيَاء، والحامل له على ذلك هو حب الرياسة والجاه عند النَّاس.

قال الطيبي: وهو من أضر غوائل النَّفْسُ وبواطن مكائدها يبتلى به العُلَمَاء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخِرَة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات عجزت نفوسهم عن الطمع في المَعَاصِي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير وإظهار العلم والعمل فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ولم يقتنع باطلاع الخالق ﷻ، وفرحت بحمد النَّاس ولم

تقنع بحمد الله وحده، فأحبت مدحهم وتبركهم بمشاهدته وخدمته وإكرامه وتقديمه في المحافل، فأصابت النَّفْسُ في ذلك أعظم اللذات وأعظم الشهوات، وهو يظن أَنَّ حياته بالله تعالىٰ وبعباداته، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التي تعمىٰ عن إدراكها العقول النافدة، قد أثبت اسمه عند الله من المُنافِقين، وهو يظن أَنَّهُ عند الله من عباده المقربين، وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة. انتهىٰ كلامه.

وفي الحَدِيث من الفوائد شفقته ﷺ علىٰ أمته ونصحه لهم، وَأَنَّ الرِّيَاء أخوف علىٰ الصَّالِحين من فتنة الدجال، والحذر من الرِّيَاء ومن الشِّرك الأكبر، إذ كان ﷺ يخاف الرِّيَاء علىٰ أصحابه مع علمهم وفضلهم، فغيرهم أولىٰ بالخوف.


الشَّرح (١)



(١)قام فضيلة الشيخ بشرح هذا الجزء من المتن في بداية الباب.





باب: من الشِّركِ إرادةُ الإنْسَان بعملِه الدُّنْيَا

الشَّرح

هذا الباب جاء مرادفًا للباب السابقِ الذي ورد بعنوان: " بَاب ما جاء في الرِّيَاءِ "، وهذا البابُ: "بابُ من الشِّرك إرادةُ الإنْسَانِ بعملِه الدُّنْيَا "، ظاهرُ البابين أنَّهما واحدٌ، لكنَّ المُصَنِّفَ رَحِمَهُ اللهُ فصَّل بينهما؛ لأنَّ هذا البابَ الأخيرَ يقع فيه كثير من الصَّالِحين من حيثُ لا يعلمون، وهو أَنَّ الإنْسَان يعملُ لله لكن لا يريدُ الآخِرَة، بل يريدُ الدُّنْيَا، وهذا من أخطر ما يقع فيه الإنْسَان من حيث لا يشعر، فالإنسانُ يعمل العَمَلَ الصَّالِحَ، ويقصدُ به الله، لكن يريدُ ثوابَه في الدُّنْيَا عاجلاً، مثل الإنْسَان الذي يتَنفَّلُ ويتصدَّقُ ليُشفىٰ مريضُه، أو لينجح ابنه، أو ليربح في تجارته، هذا هو مرادُ الباب، وكثير من النَّاس يقع في هذا المَعْنَىٰ وهو لا يشعر فلا يظُنُّ أَنَّ هذا شِرْكٌ. وليس كالذي في بَاب الرِّيَاء، فهو يعملُ لغيرِ الله، ويبتغي الثناءَ من غيرِ الله.

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ جزمَ بأنَّ هذا شِرْكٌ، وذكر فيه آية وحديثًا، الآيَةُ قولُه -تعالى-: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود: ١٥-١٦]، فهؤلاء أرادوا بعملهم الدُّنْيَا. والحديث ما رواه البُخَارِي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعـاً: **(تعسَ عبد الدِّينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبدُ الخميصة، تعس عبد الخميلة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أُعطي رضي، وَإن لم يعطَ سخط، طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وَإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وَإن شفع لا يُشفع)**(١) هذا الحَدِيث العظيم يذكر أحوال الإنْسَان:

الحال الأولىٰ: حالُ إنسانٍ ليس في ذهنه إلا الدُّنْيَا، فيعملُ الأعمالَ التي هي عبادات يبتغي بها الدُّنْيَا، رضاؤه مرتبطٌ بالدنيا، غضبُه مرتبطٌ بالدُّنيا، فدعا عليه النَّبيّ ﷺ وسماه عبداً، وهذا يقع فيه كثيرٍ من النَّاس، إن جاءه من النَّاس دنيا أحبَّهم وأثنىٰ عليهم ومدحهم، وربما يغضُّ الطرفَ عن معاصيهم، وَإن لم يعطوه غضب.

ويذكر المُؤَلِّفُون قصةً قديمة في هذا الباب ربما تكون صحيحة أو لا تكون كذلك، لكنها تُصوِّر المَعْنَىٰ، أَنَّ رجلاً كانت في قريتِه شجرةٌ تُعبدُ من دون الله، فخرج وأخذَ الفأسَ وذهب ليقطع الشجرةَ، فقابلَه في الطريق الشَّيطَانُ تصوَّر في صورة إنسانٍ، وسأله: إلىٰ أين يا فلان؟ قال: إلىٰ الشجرة التي تُعبد من دون الله لِأقطعَها. فأراد أَن يمنعه، لكن ما استطاع، وضرب الشَّيطَان بيده وأبعدَه عن الطريق، وذهب إليها ليقطعها، ثُمَّ حاول معه ليقنعَه بعدم قطعها، واتفق معه علىٰ أَنَّ يعطيه مبلغاً من المال، يرفع فراشه كل يوم فيجدُ تحته كذا من الدنانير، فرجع اتفاقاً، في اليوم الأول رفع الفراش فإذا تحته دنانير، وفي اليوم

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، بَاب الحراسة في الغزو في سبيل الله، برقم: (٢٨٨٧).

الثاني هكذا، أسبوعـاً كاملاً، بعد أسبوع لم يجد الـدنانير، فأخـذ الفـأس وذهـب ليقطعَ الشجرةَ، في الطريق قابلَه الشَّيطَان، إلىٰ أين؟ قال: لأقطع الشـجرة. قـال: أمَّـا الآن مـا تستطيع ـ والله ـ قَطْعَهـا، وأمَّـا في الماضـي فـلا يستطيع أحـدٌ ـ والله ـ ردَّك عن قطعِها؛ لَأنَّك خرجت ومعك مـن نـورِ الإِيمَـان يهزُّ الجبـالَ، أمَّـا الآن خرجـت لغيـرِ الله. فأخـذَه الشَّـيطَانُ ورمَـىٰ بـه كمـا يُرمـىٰ بـالحَجَر، مـع أنَّـهُ في الماضي ضربَه هذا الشَّخْص بيدِه وأبعدَه عن الطريقِ.

فالعملُ لله يكـون بـإذن الله قويـاً مباركـاً، والعمـلُ لغيـر الله يكـون ضَـعِيفَـاً مشئومـاً.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ أورد في الباب آيةً وحديثـاً، و الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللهُ أول مـا بـدأ ذكـر الفرق بين البابين السابق وهذا الباب ليُبين أَنَّ المُؤَلِّف لـم يُخطـئ؛ لَأنَّ بعـض النَّاس يظن أَنَّ المُؤَلِّف قد غَفل في الفصل بينهما، قال: لـم يُخطـئ المُؤَلِّفُ بـل أصاب في تقسيمه، ففي البـاب الأول الشَّـخْص أرادَ غير الله، وأراد النتيجـةَ مـن غير الله، أمَّا هذا فإن الشَّخْص قـد يريـدث وجـه الله، لكنـه يريـد الـدُّنْيَا، يريـد أَنَّ يعطيـه الله مـن الـدُّنْيَا، فيـتعلَّم ليحصـل علـىٰ العَمَـلِ، قـد يـأتي الإمـام مـثلاً في المسجد ويصلي في المسجد لوجهِ الله، لكن لو قُطعت عنه المكافـأة مـا صـلىٰ، قد يأتي المؤذن ويؤذن ولو قُطعت المكافأةُ ما أذَّن، قد يأتي القاضي فيقضي بـين النَّاس، لـو قُطـع المرتـبُ مـا فعـل، قـد يـأتي الأسـتاذُ المـدرس هكـذا، فـإن كـان العَمَل الذي يقوم به قد نوىٰ أَن يستمر فيه حتىٰ ولـو لـم يكـن هنـاك مقابـلٌ فإنـه يكون لله، لكن إن كانت نيته مُعلَّقـة بهـذا العَمَـل فيكـون عملُـه وَإن كـان أراد الله لكنـه أراد أَن يعطيـه في الـدُّنْيَا، فهـذه إرادةُ الإنْسَـان بعملِـه الـدُّنْيَا، يعمـلُ العَمَـلَ الذي هو عبادةٌ يبتغي به الدُّنْيَا.

ثـم فسر الأَيَة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود:١٥]، هـذه الأَيَة مقيدةٌ بآية أخرىٰ؛ لَأنَّ الأَيَة وعدت أَنَّ

كل من أراد الدُّنْيَا أعطاه الله منها، الآيَة الثانية قَيَّدت، وهي قوله -تعالىٰ-: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]، فهنا مُقيدٌ، فالله يعطي ما شاء ولمن أراد، ليس لكل من أراد الدُّنْيَا، قد يعطيه الله وقد لا يعطيه، والسلف يسمون التقييد أو التخصيصَ نسخاً، والحقيقة أَنَّ هذا ليس نسخاً؛ لَأنَّ النسخَ رَفعُ الحكمِ، والنسخُ لا يكون في الأخبار إِنَّما يكون في الأحكام، أمَّا الأخبارُ لا تُنسخ؛ لَأنَّ الأخبارَ صدقٌ وحقٌّ، فالله ﷻ جعَلَ الآيَة الثانيةَ مُقيِّدةٌ للآية الأولىٰ.

هل الآيَة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود:١٥] إلىٰ آخرها التي ذكرت أَنَّ من أرادَ الدُّنْيَا عاقبه الله بالنار واردةٌ في المُؤمِنينَ أو في الكافرين أو في كليهما؟ هناك آيات وأحاديث تدل علىٰ أَنَّ المُؤمِن الذي يرتكب الكبيرة يخرج من النَّار. فالآية تكونُ خاصَّةٌ بالكافرين أو الذين أشركوا من المُؤمِنينَ؛ لَأنَّ من أشرك خرج عن دائرةُ الإيمَان.

ثم ذكر الشَّارِحُ رحمه الله أنواع العاملين فذكر خمسة أنواع:

النَّوْعُ الأول: نوع يعمل لله يبتغي ما عند الله ﷻ.

الثاني: نوعٌ يعمل لله ويبتغي الدُّنْيَا، وكثير من النَّاس يقع في هذا العَمَل، يتصدَّق من أجل أَن يُشفىٰ مريضُه، من أجل أَن ينجحَ ولدُه، من أجل أَن يعود غائبه، من أجل أَن تُحفظَ صحتُه، وهذا عملٌ لله، لكن لم يبتغِ الآخِرَة، فهذا عملُه باطل، وقد يكون شِرْكًا.

الثالث: وهو الذي تقدَّم في الباب السابق، أَنَّ يعمل رياءً ليُثنىٰ عليه، فهو عمِل لغير الله يبتغي ما عند الخلقِ،أي:: عملَ للمخلوق ليبتغيَ ما عند المَخْلُوق، فهذا أول العَمَل وآخرُه لغير الله ﷻ.

الرابع: الذي يعمل لكسب المالِ، وليس لله، ولا للثناء، إنما يعمل لأجل المال، وهو الذي في أول الحَدِيث (تعس عبد الدرهم)أي: ليس في ذهنه لا الله، ولا ثناء النَّاس، وإنما يريد المال، أو يريد الدُّنْيَا خاصة.

النَّوْعُ الخَامس: نوع يعمل لله، لكن علىٰ جهل، وهو يرتكبُ أموراً مُكفِّرة، مثل اليهودُ والنَّصارىٰ، قد يعمل الشَّخْص منهم يُخلص فيه لله، لكنَّه وقع في أمر مُكفرٍ منع قُبولَ العَمَل، وَإن كان الشَّخْص في ذهنه مخلصاً لله، ما يبتغي أحداً من النَّاس، بعض النَّصارَىٰ واليهود ينفقون الأموال الضخمة ويبتغي وجه الله، لكنه ليس علىٰ إيمان، إيمانه قد خالطه كفرٌ فحرمَه قبولَ العَمَل.

وكذلك يقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللهُ: من المُسْلِمينَ من قد يقع في أمرٍ مُكفِّر يحول بينه وبين قبولِ عملِه، وهو لا يشعر، فيعمل لله ولكنه وقع في أمر حرَمه قبولَ العَمَل. هذا ملخص ما في تقسيم النَّاس.

ثم شرح الحَدِيث وبين كيف يكون الإنْسَان عبداً للدنيا، ففرَّقَ بن عبدِ الدرهمِ وبين جامعِ الدرهم، فالإنسان قد يكون جامعاً للدرهم ولا يكون عبداً له، وقد يكون جامعاً للمال ولا يكون عبداً له، أمَّا عبدُ الدرهم فهذا الذي ليس في ذهنِه ربُّ العالمين، ولا الدَّار الآخِرَة، ولا جناتُ النَّعيم، إنَّما هدفُه الحصولُ علىٰ المال في الدُّنْيَا، وبحسب ما يأتيه من المال يرضىٰ، وبحسب ما ينقصُ من المال يغضبُ، كما مرت قصة الشَّخْص الذي خرج ليقطع الشجرة، وربما أَنَّ العُلَمَاء ذكروا هذه القصة لتقريب المَعْنَىٰ، فإن الإنْسَان قد يغضب ُلنقص المال، وقد يسكت للمال، فقد يأتي إنسان مثلاً لعالمٍ، فإن لم يُعطَ وظيفةً أو منصباً أو مكانة، أخذ يُشدِّد في الفتوىٰ، وينتقِد الأوضاعَ، فإن أُعطي وظيفَة ومنصباً، وأُعطي مالاً سكت، فهذا ليس لله.

وتُذكر قصة وقعت هنا قبل أكثر من أربعين عاماً، شخص اسمه عبد الله القصيمي درس في الأزهر وتخرج وأخذَ الشهادة وطمع أَن يكون مُفتياً،

ولم يحصل عليها، فارتدَّ عن الدِّين ـ نعوذ بالله ـ، وكان قد كتب كتاباً سماه: (الصراع بين الوثنية والإسلام)،مقدمةُ الكتابِ بعنوان: (الشعاع الهابط)أي: الوَحْي النازل، في أسلوب أدبي في قمةِ البلاغة، وردَّ في هذا الكتاب علىٰ الفرقِ المُنحرفة، ولكن لم يحصل له مرادُه،ويُذكر بعض طلاب الشيخ حافظ الحكمي أَنَّ الشيخ الحكمي رَحِمَهُ الله عندما قرأ الكتاب الذي في ظاهرِه نَصْر للإسلام قال - إن صدقت الرُّواية ـ قوله: إنني أشمُّ رائحةَ الإلحاد من هذا الكتاب. مع أنَّهُ دفاعٌ عن الإِسْلَام، لكن تلكم فراسة المُؤمِنينَ الصَّالِحين، فارتد عن دينِه كلِّه، وكتب كتاباً سماه (الأغلالَ) سمَّىٰ الدِّين الأغلال، ومات طريداً هارباً شارداً، غيرَ مأسوفٍ عليه، وهذا نموذج لمن يكون غضبه للدنيا، ورضاه للدُّنيا، وعملُه للدُّنيا.

فالمسلم ينبغي أَنَّ يُصفِّي نيَّته، وَأَن يراقبَ خواطره، وَأَن يدفع عن نفسه ما قد يوسوس إليه به الشَّيطَان، فالإنسان ليس معصوماً، قد تأتي الخاطرةُ والوسواس، وأنت إنما تُعاقَب علىٰ الخاطرةِ إذا أصبحت همَّاً وعزماً، وفكرةً ثابتة في ذهنك، أمَّا إذا كانت خاطرةً فادفعها ودافِعها، فإن دافعتها لا تضرُّك إن شاء الله؛ لَأنَّ الذهنَ ليس له بَاب، هناك بَابان السمعُ والبصرُ، ولكن العَقْل ميدانه واسعٌ جداً، خيالُ الإِنْسَان واسعٌ، والشيطانُ يأتيه، وليس له بَاب يُقفَل، والله الذي خلقَك يعلمُ ذلك منك عندما أنزل عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أُصيبوا بالحزن، فذهبوا إلىٰ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: يا رَسُولَ الله أُمرنا بما نستطيعُ بالصلاة والصيام والجهاد والنفقة في سبيل الله ـ أو كما قالوا ـ ثُمَّ جاءت هذه الآيَةُ فإنا لا نستطيعها. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(أتريدون أَن تقولوا كما قالت بنو إِسْرَائِيل: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك**

المصير)(١)، فأنزل الله ﷻ هذه الآية، ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] إلىٰ آخر الآيَة، فغفر اللهُ ورفعَ الحرجَ.

فالله يعلم أَنَّ فينا ضعفًا، ولكنه أمرنا بأن نُدافع: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فالذي ينسىٰ أو يُخطئُ لا يُحمِّلُه الله، ولا يعاقبه الله، وقد جاء في الحَدِيث أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد عفا لهذه الأُمَّة عما تُوسُّوس به الخواطر ما لم تتكلم به أو تعمل به، قال ﷺ: (**إن الله ﷻ تجاوز عن أمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به**)(٢)، لكن إذا جاءت الخاطرةُ وأحببتها ورضيتَ بها، وأصبحت هي التي تدفعُك وتقودُك فهذه المشكلة، أَمَّا إن جاءت فادفعها وتعوذ بالله منها، واسأل الله أَن يحميك منها فعندئذٍ إَن شاء الله لا تضرُّك هذه الخواطر، فالإنسان بشرٌ يضعفُ إذا جاءه المال، ويضعف إذا ذهبَ عنه المال، أو يأتيه التكريمُ بوظيفة، أو تكريمٌ بعملٍ، فإذا تعامل معه بمعاملةِ المُدافَعة نرجو الله أَن يرفَعه، وَأَن لا يعاقبه علىٰ ماً يقع من خطأ في نفسه أو في عمله.

ثم ذكر في آخر الحَدِيثِ التواضعَ، وما ينبغي للمسلم من الحرصِ علىٰ عدم الشُّهرةِ، كما في الحَدِيث: (**طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**)(٣)، فإذا توقَّف الجهادُ الحسي اليوم، فهناك الجِهاد المعنوي، وهناك الدَّعوة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإِيمَان، بَاب بيان أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يكلف إلا بما يطاق، برقم: (١٢٥) (١/ ١١٥).

(٢) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الطلاق، بَاب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، برقم: (٥٢٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإِيمَان، بَاب تجاوز الله عن حديث النَّفْسُ والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، برقم: (١٢٧)، (١/ ١١٦).

(٣) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، بَاب الحراسة في الغزو في سبيل الله، برقم: (٢٨٨٧).

والعملُ لها، والتي يسبقها العلمُ، والصبرُ على العلمِ، والحرصُ على العلمِ؛ لَأنَّ الدَّعوةَ لا تقوم إلا على العلمِ الشَّرْعِي، والأُمَّة عندما يكثر فيها الجهل أو لا يكون فيها نورُ الشريعةِ يكثر فيها البدَع والفسادُ والانحرافات والتبريرُ للأعمال الشركية، لكن العلمُ الشَّرْعِي هو الذي يحمي الأُمَّةَ، فنحن في حاجةٍ أولاً قبل العَمَل إلى العلمِ، وكما قلنا أَنَّ العلمَ يسبقُ النِّيَّة، ويتلُوها العَمَل، فإن الشَّخْص الذي لا يعرفُ حكمَ العَمَل أهو حلالٌ أم حرامٌ كيف ينوي أَن يتقرَّب به إلى الله، لابدَّ أَن يعلمَ أولاً أَن هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، ثُمَّ ينوي أَن يتقرَّب به إلى الله ثُمَّ يعملُه إَن كان حلالاً، أو كان مما أمر به الشَّارِع.

وهناك أعمالٌ خيريةٌ كثيرةٌ، وقد جاء في الحَدِيث: (أن الساعي على الأرملة والمسكين كالساعي في سبيل الله)[1] فالإنسان لا يقول: أنَّهُ ليس هناك جهادٌ، فالعملُ مفتوحٌ، والدَّعوة أبوابُها كثيرةٌ، إن لم تستطع أَن تدعو إلى الله بالعلم الشَّرْعِي قم بأعمال الخير، وحِث النَّاس على الصدقات بالبحث عن المحتاجين وتَتَبَّعْ أصحابَ الحاجات سواءٌ كانت حاجاتٍ معنويةٍ أم حسيةٍ. فأبواب العَمَل الذي يرضى الله عنه كثيرة.

فقال: (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه) لا يحرصُ على أَن يكون في صورةٍ من صور التألُّق، ثُمَّ قال: (إن كان في الحراسة كان في الحراسة) بعض النَّاس يظن أَنَّ الذي في الحراسة ليس له أجرٌ، يريد أَن يكون في المقدّمة، لا، كما أَنَّ العاملين في ميدان الدَّعوة كل منهم على ثغرٍ من ثغورِ الإِسْلَام، من يُوزِّع الكتابَ له أجرٌ، ومن يكتُب الكتابَ له أجرٌ، ومن يطبعُ الكتابَ له أجر، كذلك المجاهدُ من كان في المقدِّمةِ له أجرٌ، ومن

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب النفقات، بَاب فضل النفقة على الأهل وقول الله تعالى: (ويسألونك ماذا ينفقون)، برقم: (٥٣٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، بَاب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، برقم: (٢٩٨٢)، (٤/ ٢٢٨٦).

كان في المُؤخِّرة له أجر، وَإِن كان النَّصر يأتي أحياناً باسم المُقدِّمة، لكن لولا المُؤخِّرة لما نجحت المُقدِّمة، وهذا نراه في أصحاب الكُرة، المُهاجِم والمدافِع والحارسُ، كلُّهم يؤدون عملاً مشتركًا، لكن الذي يسجلُ الأهداف في المُقدِّمةِ، وَإن كان الحارس الأخيرُ يحمي الباب من عدم التهديف، فالجميع مشتركونَ في الفوز، أو في الحصولِ علىٰ ما يُريدون.

هكذا الجهاد في سبيل الله، (من كان في الحراسة كان في الحراسة) لا يحرص أَن يكون في الأمام، إنما حريص علىٰ أَن يعمل عملاً مخفياً (وإن كان في الساقة كان في الساقة)، ثُمَّ قال: (وَإِن استأذن لم يؤذن له)أي:: لو أراد أَن يذهب لعمل خاص ما يؤذن له؛ لَأَنَّهم لا يرون فيه شخصاً له اعتبار كبقيةِ القادة،أي: هو حريصٌ علىٰ الخُمول، (وإن شفع) في إنسان محتاج لتُقضىٰ حاجته (لا يُشفع)[1]؛ لَأنَّه ليس معروفاً عند القائدِ،فهذا مدحُ النَّبِيّ ﷺ لهذا النَّوْعُ من النَّاس الذين يعملون في الخفاء. وقد جاء في الحَدِيث أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كان في أصحابه فمرَّ إِمَّامهم شخص، فقال: (ما تقولون في هذا؟) قالوا: هذا إنسان حري به إن تكلم أَن يُسمع، وَإن شفع أَن يُشفع، وَإن خطب أَن يُنكح. ثُمَّ سكت، ثُمَّ بعد قليل شخص آخر، قال: (ما تقولون في هذا؟) قالوا: هذا الأحرىٰ به إَن تكلم أَن لا يُسمع له، وَإن شفع ألاَّ يُشفع، وَإن خطب ألا يُنكح؛ لَأنَّه مغمورٌ في المُجْتَمَع، قال ﷺ: (والله إنَّ هذا خير من ذلكم ـ أو من ملء الأرض من ذلكم)[2] ربما يكون ذلك منافقاً؛ لَأنَّ النَّبِيّ ﷺ ما ذكر ما في قلبه، لكن النَّاس حكموا علىٰ ظاهره، أَنَّ له مكانة اجتماعية وأنه لو تكلم سُمع كلامه،

---

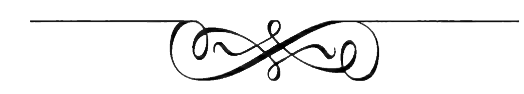
(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، بَاب الحراسة في الغزو في سبيل الله، برقم: (٢٨٨٧).

(٢) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب النكاح، بَاب الأكفاء في الدِّين وقوله: (وهو الذي جَعَلَ من الماء بشراً)، برقم: (٥٠٩١).

ولو تشفع في إنسان محتاج قُبلت شفاعته، ولو خطب امرأة ما يرده لَأنَّ له مكانة. فالحديث يحث علىٰ التواضع وعدم الحرص علىٰ الشهرة إلا إذا جاءت الشهرة بدون اختيار، ليست من مقاصدِ العَمَل، فإن هذا عاجل البَشرىٰ للمؤمن، بل يكون هدفك أَن تخدم هذا الدِّين، لا تظن أَنَّ خدمةَ الدِّين لا تتم إلا بأن تُقدمَ العَمَل الذي يكون في المقدمة، قد تعمل أعمالاً من أعمال الخير لا تُعرف، لكنها عند الله معروفة.

فالإنسانُ لا يظن أَنَّهُ لا يستطيع أَنَّ يخدم الدِّين إلا إذا كان مَلكاً أو رئيساً أو وزيراً أو مُطاعاً، هذا الدِّين يُخدَم من كلِّ جانب، والله يحاسبُك علىٰ قدر ما أعطاك، إذا أعطاك مالاً كثيراً يسألُك عن هذا المال، لا تظنَّ أَنَّ الذي يتصدَّق بالمالِ الكثيرِ أحسن من الشَّخْص الذي ما عنده مال، فالذي لم يعطه الله مالاً لا يحاسبه الله عليه، لكن يحاسبُه بحبِّه، إن أحبَّ المُنفِقَ وتمنَّىٰ أَن يكون له مثلُ مالِه وَأَن يعملَ مثلَ عملِه حصل علىٰ نَصفِ أجرِه، أمَّا أَنَّ تمنىٰ أَنَّ يكون له مثل مال الإنْسَان الفاسق، وأنه لو كان له مال عمِل مثل عمله لحصل له قدر ما يعمل ذلك الفاسق؛ لَأنَّه ما حال بينه وبين المعصيةِ إلا العجز، فالإصرار علىٰ المعصية يجعلُها معصية، والإصرارُ علىٰ عمل الخير مع العجز عنه يجعله من أعمال الخير.

فينبغي للإنسان أَنَّ لا يظن أَنَّ نَصر هذا الدِّين لا يتم إلا في الظهورِ، قد يعمل النَّاس أعمالاً في السر تكون عند الله ﷻ أفضل من أعمال كثير ممن يكون عمله مشهوراً.



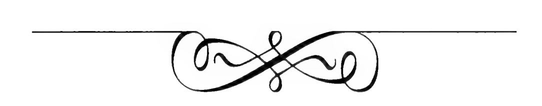
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قد ظن بعض النَّاس أَنَّ هذا الباب داخل في الرِّيَاء، وَأَنَّ هذا مجرد تكرير، فأخطأ، بل المراد بهذا أَنَّ يعمل الإنْسَان عملاً صالحًا يريد به الدُّنْيَا، كالذي يجاهد للقطيفة والخميلة ونحو ذلك، ولهذا سماه النَّبِيّ ﷺ عبداً لذلك، بخلاف المرائي فإنه إنما يعمل ليراه النَّاس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المرائي؛ لأَنَّ ذلك عمل لدنيا يصيبها، والمرائي عمل لأجل المدح والجلالة في أعين النَّاس، وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه.



الشَّرح

هنا يقارن بين الذي يعمل رياءً وبين الذي يعمل من أجل الدرهمِ، كلاهما خاسرٌ، لكن أيهما أكثر شراً؟ الذي يطلب الدُّنْيَا بعملِ الآخِرَة هذا أكثر شرَّاً من المُرائي.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود:١٥] الآية.

قال ابن عبَّاسٍ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [هود:١٥] أي: ثوابها، أي: مآلها ﴿وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ [هود:١٥] نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في الأهل والمال والولد، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود:١٥] لا ينقصون، ثُمَّ نسختها ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨] الآية، رواه النحاس في ناسخه.

وقوله: (ثم نسختها) أي قيدتها أو خصصتها، فإن السَلَف كانوا يسمون التقيد والتخصيص نسخًا وإلا فالآية محكمة.

وقال الضحاك: من عمل صالحًا من أهل الإِيمَان من غير تقوىٰ عُجل له ثواب عمله في الدُّنْيَا. واختاره الفراء.

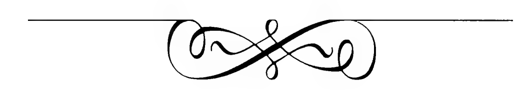


الشَّرح

قوله: (وقوله: (ثم نسختها) أي قيدتها...) هنا كَتَبَ (التَّقَيُّدَ) بياءٍ واحدةٍ فقط، بل هي ياءان (التقييد) أي: النَّص يأتي عامـًا فيُقَيَّد بنصٍ آخر، أو يُخصَّص بنصٍ آخر، والسلف يُسمَّون هذا أحيانًا نسخًا، والذي أُلِفَ أن يُفهَم من كلمةِ النَّسخِ أنَّهُ إزالةُ الحُكمِ، قال: ليس هذا المراد، بل المرادُ التخصيصُ، فالحكم لم يُزل. لكنَّ الآيَةَ خصَّصَت المَعْنَىٰ المُطلَقَ.

والنَّحاس من علماءِ اللُّغَة العربيةِ عاش في القرنِ الرابع، وفي القرن الثالث، وله كتابٌ في التفسير، وكتاب في النسخِ في القُرآنِ الكَرِيم، وهو يُبَيِّن الآياتِ التي نُسخت، لكن معنىٰ النسخُ هنا التقييدُ والتخصيصُ، وليس بمعنىٰ رفعِ أو إزالةِ الحُكمِ؛ لَأنَّ هذا ليس حكماً، هذا خَبرٌ.

قوله: (واختاره الفراء) والفراء توفي عام ٣٠٧ هـ، كلاهما من علماء اللُّغَة، ولكل منهما كتابلإ في تَفسِير القُرآن الكَرِيم.



قال المؤلف رحمه الله:

قال ابن القَيِّم: وهذا القول أرجح، ومعنى الآيَة على هذا من كان يريد بعمله الحَياة الدُّنْيا وزينتها.

وقالت طائفة: هذه الآيَة في حق الكُفَّار بدليل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ [هود:١٦] أي أَنَّهُ م لم يعملوا إلا للحياة الدُّنْيا وزينتها، ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ [هود:١٦]. قال بعض المفسرين: أي وحبط في الآخِرَة ما صنعوه أو صنيعهم،أي:: لم يكن لهم ثواب؛ لأَنَّ هم لم يريدوا به الآخِرَة، إنما أرادوا به الدُّنْيا، وقد وفى إليهم ما أرادوا، ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود:١٦] أي: كان عمله في نفسه باطلاً؛ لأَنَّ ه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له. انتهى.



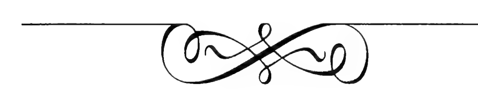
الشَّرح

أورد قولَين للعلماءِ في تَفسِير الآيَة:

القول الأول: أَنَّ الآيَةَ في المُؤمِنينَ، وهذا الذي ذكره الضحاك، ورجحه الفراء، وأكده ابن القَيِّم رحمهم الله.

والقولُ الثاني: أَنَّهَا في الكُفَّار. وهذا هو الراجحُ؛ لأَنَّ الآيَة ذكرت أَنَّ هؤلاء من أهل النَّار، وليس لهم في الآخِرَة إلا النَّار، وليس من عقيدةِ أهل السُّنَّة والجماعة أَنَّ أصحابَ الكَبَائِر من المُؤمِنينَ يُخلَّدون في النَّار؛ لأَنَّ المُؤمِن إذا أخطأ، أو ارتكب محظوراً ولا زالَ على إيمانه ولو كان إيمانُه ضَعِيفًا لا يُخلد في النَّار.

فالصحيح - والله أعلم - أنَّهُا علىٰ خلافِ ما قال ابنُ القَّيِّم رحمه الله، وأنها ليست في المُؤمِنينَ، بل في الكُفَّار؛ لَأنَّ الآَيَة لا تنطبق علىٰ المُؤمِنينَ الذين وقعوا في الكَبَائِر ودخلوا النَّار وليس معهم عملٌ صالحٌ إلا التصديقَ أو الإِيمَان، فإن هؤلاء مصيرُهم الخروجُ من النَّار.



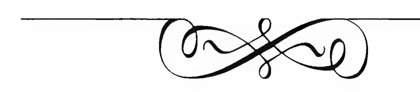
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قيل: الآيَة على القول الأول تقتضي تخليد المُؤمِن من المريد بعمله الدُّنْيَا في النَّار، قيل: أَنَّ الله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحَيَاة الدُّنْيَا وزينتها وهو النَّار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الحَيَاة الدُّنْيَا وزينتها، بل أراد به الله والدار الآخِرَة لم يدخل هذا الإِيمَان في العَمَل الذي حبط وبطل، ونجاه هذا الإِيمَان من الخلود في النَّار وَأَنَّ دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة، فالإيمان إيمانان: إيمان يمنع دخول النَّار، وهو الإِيمَان الباعث على أَنَّ تكون الأعمال لله وحده، يبتغى بها وجهه وثوابه. وإيمان يمنع الخلود في النَّار، فإن كان مع المرائي شيء منه، وإلا كان من أهل الخلود. فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد. ذكره ابن القَيِّم.

الشَّرح

هنا ذكرَ رَحِمَهُ اللَّهُ التفصيلَ: إذا جَعَلْنا الآَيَة في المُؤمِنينَ فكيف نُخرِّج الآَيَة؟ قال: نخرِّجها على أَنَّ المُؤمِن الذي عمِل العَمَل إن كان كل عملُه ابتغَى به غيرَ الله، فهذا ليس له في الآخِرَة ما يُنجيه، لكن كيف نسميه مُؤمنًا أصلًا؟ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إن لم يكن له عمل ابتغى به وجه الله بل ابتغى بعمله كُلِّه الدُّنْيَا، هذا ليس له في الآخِرَة ما يُنجيه من النَّار. ثُمَّ يقول: إذا كان عنده إيمانٌ أراد به الآخِرَة، وإيمان آخرَ أراد به الدُّنْيَا، فإنه يُعاقب في النَّار، ويُخرج من النَّار بإيمانه الثاني الذي أرادَ به الآخِرَةَ.

ونقول: الآية لا تشملُ هذا النَّوْعُ من النَّاس؛ لَأنَّ الآَيَة ذكرَت أَنَّهُ ليس له في الآخِرَة إلا النَّار،أي: ليس له شيءٌ آخرَ غيرَها. فالصحيحُ - والله أعلم - أَنَّ المرادَ بهذه الآَيَة هم الذين أرادوا بعملِهم كلَّه الدُّنْيَا، ولم يريدوا الآخِرَة، وهذا لا يُسمىٰ مؤمناً إلا اسماً فقط، أمَّا من حيث الحقيقة فلا يُسمَّىٰ مؤمناً وَإن كان في أرض المُسْلِمينَ، فالذي كل عملُه أراد به الدُّنْيَا غيرُ مؤمنٍ أصلاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد سُئل شيخ الإِسْلَام المصنف عن معنىٰ هذه الآيَة فأجاب بما ملخصه: ذكر عن السَلَف من أهل العلم فيها أنواع مما يفعله النَّاس اليوم، ولا يعرفون معناه:

فمن ذلك العَمَل الصَّالِح الذي يفعله كثير من النَّاس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وإحسان إلىٰ النَّاس وترك ظلم ونحو ذلك مما يفعله الإِنْسَان أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخِرَة، إنما يريد أَن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته أو حفظه أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همة له في طلب الجَنَّة والهرب من النَّار، فهذا يُعطي ثواب عمله في الدُّنْيَا، وليس له في الآخِرَة نَصِّيب، وهذا النَّوْعُ ذكره ابن عبَّاسٍ.

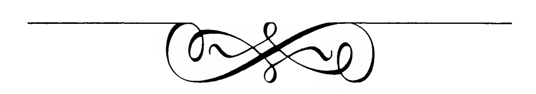


الشَّرح

قوله: (وقد سُئل شيخ الإِسْلَام المصنف) الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يُسمىٰ شيخ الإِسْلَام، فالشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول أَنَّهُ سُئل فأجاب عن هذه الآيَة بذكر أنواع العاملين في الدُّنْيَا.

قوله: (فمن ذلك العَمَل الصَّالِح الذي يفعله...) هذا النَّوْعُ الأولُ، شخصٌ أرادَ اللهَ بعملِه، لكن يريدُ من الله أَن يجعلَ ثوابَ العَمَلِ في الدُّنْيَا بأن يحفظَ له ولدَه، أو يصح له في جسمه، أو ينجح أبناؤه، أو تدومُ عليه النعمُ،أي: في عملِه يتضرَّع إلىٰ الله، ويدعو الله، ويسأله ويستغيث به، فيقول: اللهم اشف مريضي،

اللهم عافِ ولدي، فيصلي لأجل طلب العافيةِ، وما يفكِّر في الآخِرَة، ليس معنىٰ هذا أَنَّ الإنْسَان المُسْلِم لو طلب أمرَ الدُّنْيا أنَّهُ حرام،نحن نطلب الدُّنْيا من الله، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١]، هذا قول المُؤمِنينَ، وقد أُمرنا في الحَدِيث أَن نقول هذه الدعوات في آخر الصَّلَاة، نطلب من الله حسنة الدُّنْيا، لكن لا ننسىٰ الآخِرَة، نطلب هذه وهذه، ف النَّوْعُ الأول لا يَطلُب إلا الدُّنْيا، إن تصدَّق فمن أجل أَن يُعافىٰ ولدُه، أو يُعافىٰ في جسمه، فهدفهُ من عملِه الدُّنْيا.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

النَّوْعُ الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكر مجاهد في الآيَة أَنَّهُا نزلت فيه، وهو أَن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء النَّاس، لا طلب ثواب الآخِرَة.

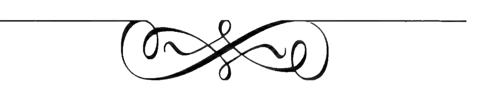
النَّوْعُ الثالث: أَن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً، مثل أَن يحج لمال يأخذه، لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل الغنم، فقد ذكر أيضاً هذا النَّوْعُ في تَفسِير هذه الآيَة، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله، أو مكتبهم، أو رياستهم، أو يتعلم القُرآن، ويواظب علىٰ الصَّلَاة لأجل وظيفة المسجد كما هو واقع كثيراً، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم؛ لَأنَّ هم عملوا لمصلحة يحصلونها، والذين قبلهم عملوا من أجل المدح والجلالة في أعين النَّاس، ولا يحصل لهم طائل، و النَّوْعُ الأول أعقل من هؤلاء؛ لَأنَّهم عملوا لله وحده لا شريك له لكن لم يطلبوا منه الخير الكثير الدائم وهو الجَنَّة، ولم يهربوا من الشر العظيم وهو النَّار.



الشَّرح

النَّوْعُ الأول ذكره ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآيَة، والثاني ذكره مجاهد وهو من تلاميذ ابن عبَّاسٍ، قال: الشَّخْصُ يعمل رياءً، لكن لا نسمي عملَه صالحاً، إلا من حيث الشكلِ الظاهري؛ لَأنَّ الصَّلَاة من الأعمالِ الصَّالِحة، والزكاةُ من الأعمال الصَّالِحة، والصومُ من الأعمالِ الصَّالِحة، لكن في الحقيقة إنَّ عملَه غيرُ صالحٍ، وإنما هذا العَمَل صالحٌ لو أخلص فيه واتبَع فيه السُّنَّةَ، لكنه لم يُخلص، ولم يتبع السُّنَّة، فهو عمل ليُثنىٰ عليه، الأول أراد العَمَل لله، عمله ربما يكون مردوداً في الدُّنْيَا، والثاني عمل للنِاس ليُثنوا عليه بالصلاح والزهدِ والتقوىٰ، ويُذكر بخيرٍ في الدُّنْيَا.

قوله: (وكما يتعلم الرجل...)، هذه نماذج، الشَّخْص يتعلمُ أو يواظبُ علىٰ الصَّلَاة في المسجدِ حتىٰ يكون إماماً، فهو يقومُ من بيته، ومن عملِه لهذا الغرض، ليس في ذهنه الله أو الآخِرَة، إنما في ذهنه أَن يكون إِمامَ مَسْجِد أو مُؤذنَ مَسْجِد، أو يحصل علىٰ عمل دنيوي، وليس معناه أَنَّ الشَّخْص لا يجوز له أَن يكون إِمام مَسْجِد، أو أَنَّهُ لا يطلب أَن يكون إِمام مَسْجِد، بل ينبغي أَنَ يكون في ذهنه أَن يكون إِمام مَسْجِد ليسدَّ هذا الثغر، أو يقوم بهذا الفرض أو هذا الواجب علىٰ المُسْلِمينَ، ولو حصل له مال فليس في هذا حرجٌ، لكن لا يكون هدفُه المال مقابل الصَّلَاة، إنَّما المالُ مقابل ارتباطِه وتفرُّغِه عن أشغاله الأخرىٰ، وبقائه في هذا الزمن في هذا المكان، وكان بإمكانه أَن يُصلِّي في مَسْجِد آخر فإنه ارتبط بهذا المسجد، فمُنع من كثيرٍ من مصالِحه مع حاجته لهذا المال، نرجو الله أَن لا يكون في هذا حرجٌ، ولا شك أَنَّ الذي يُصلي إِماماً بدون أجرٍ أفضل، وَأَنَّ الذي يُعلِّم بدون أجرٍ أفضل، وَأَنَّ الذي يقضي بدون أجرٍ أفضل، لكن في العصر الحاضر ما يمكن أَن يكون الإنْسَان قاضياً، ولا معلماً، ولا مدرساً، خاصة في المدارس النظامية إلا بالشهادات، فلابد أَنَّ يحصل علىٰ شهادةٍ، لكن يحاول أَنَّ يصحِّح النِّيَّة، فإن الشَّيطَان حريص علىٰ إفسادِ النِّيَّة، فأنت حاول أَنَّ تدافعَ هذا الوسواس، وتدافعه عن حقٍّ، لا أَن تحاول أَن تغطي شيئاً، وأنت تحرص عليه، فالشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر هذا النَّوْعَ من أنواع الشِّركِ الذي يقع فيه بعض النَّاس.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

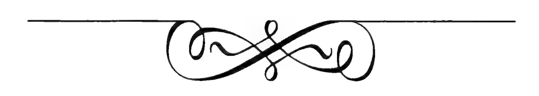
النَّوْعُ الرابع: أَن يعمل بطاعة الله مخلصـًا في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه علىٰ عمل يكفره كفراً يخرجه عن الإِسْلَام مثل: اليهود والنصارىٰ إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخِرَة، ومثل كثير من هذه الأُمَّة الذين فيهم كفر أو شِرْكٌ أكبر يخرجهم من الإِسْلَام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله بالدار الآخِرَة، لكنهم علىٰ أعمال تخرجهم من الإِسْلَام وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النَّوْعُ أيضـًا قد ذُكر في هذه الآيَة عن أنس بن مالك وغيره، وكان السَلَف يخافون منها، قال بعضهم: لو أعلم أَنَّ الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت المَوْت؛ لأَنَّ الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧].

ثم قال: بقي أَن يُقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس، والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله طالبـًا ثواب الآخِرَة، ثُمَّ بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدُّنْيَا مثل أَن يحج فرضه لله ثُمَّ يحج بعده لأجل الدُّنْيَا، كما هو واقع فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القُرآن كثيراً ما يذكر أهل الجَنَّة الخلص وأهل النَّار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله، انتهىٰ.



الشَّرح

هذه الأقسام الأربعة، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ هناك أناسـًا خلطوا العَمَلين، عملاً جَعَلوه لله، وعملاً لغير الله، قال: فإن كثُر التَّوْحِيدُ والعملُ الصَّالِح في أعمالِه ونياتِه دخل الجَنَّة، وَإِن كثرُ العَمَلُ المقابلُ له دخل النَّار ـ والعياذ بالله ـ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد أجاد وأفاد رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي الآيَة من الفوائد:

أن الشِّرك محبط للأعمال.

وأن إرادة الدُّنْيَا وزينتها بالعمل كذلك.

وأن الله يجازي الكافر بحسناته، وكذلك طالب الدُّنْيَا ثُمَّ يفضي إلىٰ الآخِرَة، وليس له حسنة.

الخامسة: شدة الوعيد علىٰ ذلك.

السادسة: الفرق بين الحبوط والبطلان.

قال: في الصَّحِيح عن أبي هريرة قال: (قالَ رَسُول الله ﷺ: تَعِسَ عبدُ الدِّينار، وتَعِسَ عبدُ الدرهم، وتَعِسَ عبدُ الخميصة، تَعِسَ عبدُ الخميلة، أَنَّ أُعطِي رَضِيَ، وَأَنَّ لم يُعطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانتكسَ، وإذا شِيكَ فلا انتَقَش، طوبَىٰ لعبدٍ آخذٍ بعنانِ فَرسِه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كانَ في الحِرَاسةِ كانَ في الحِراسَة، وَإن كان في السَّاقةِ كان في السَّاقَة، إن استأذنَ لَمْ يؤذَنْ له وَإن شَفَعَ لم يُشْفَعْ).

الشَّرح

قوله: (السادسة: الفرق بين الحبوط والبطلان) الحُبوطُ والبُطلان كلاهما بمعنىٰ واحدٍ، حبطَ أو بطلَ؛ لأنَّ الحُبوطَ مأخوذٌ من مرضٍ يُصيب الدَّابَّة فيجعلها ينتفخُ بطنها، وظاهر شكل الدَّابَّة يكون حسناً، لكن في داخلها مرض، وكذلك الذي يكون عملُه في الظاهر صالحاً، ولكن في الحقيقة ما أراد وجه الله، فالحبوطُ بهذا يُفسر.

البطلان: هو كذلك عدمُ الاستفادةِ مما قدَّم من عمل.

قوله: (قال في الصَّحِيح عن أبي هريرة...) هذا الحَدِيث هو الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في الكتاب.



قوله: (فِي الصَّحِيح) أي: صحيح البُخَارِي.

قوله: (تعس عبد الدِّينار) هو بكسر العين ويجوز الفتح، أي سقط، والمراد هنا هلك، قاله الحافظ، وقال في موضع آخر: وهو ضد سعد أي شقي. وقيل: معنى التعس الكبة على الوجه.

قال أبو السعادات: يُقال تعس يتعس إذا عثر وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك.

قوله: (تعس عبد الخميصة) قال أبو السعادات: هو ثوب خز، أو صوف معلم. وقيل: لا تسمى خميصة إلا أَنَّ تكون سوداء معلمة، وكانت من لباس النَّاس قديمًا وجمعها الخمائص، والخميلة بفتح الخاء المعجمة، قال أبو السعادات: الخميل والخميلة القطيفة، وهي ثوب له خمل من أي شيء كان، وقيل الخميل الأسود من الثياب.



قوله: (قال أبو السعادات: يُقال تعس يتعس...) يقول الحافظ ابن حجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّ هناك فرقًا في معنى هذا اللفظ إذا تغيَّرت حركةُ الكلمة، فإذا قال: تَعَسَ فبمعنى سقط، وإذا قال: تَعِس بكسرِ العين فبمعنى هلَك، والمعنيان متقاربان، فإن السقوط هو الهلاك، لكن الساقطَ قد لا يكون هالكًا، وهذا دعاءٌ على الشَّخْص الذي يكون هذا شأنه.

قوله: (قوله: تعس عبد الخميصة...) هذه أنواع من الثياب التي كانت في صدر الإِسْلَام، وكذلك قبل الإِسْلَام، الخميصةُ والخميلةُ والقطيفةُ، وليست مقصودةً بأعيانِها، فكل من عبدَ شيئًا من أمور الدُّنْيَا له يرضى وله يغضبُ فإن هذا يلحقُه الذمُّ، فهذا مثال وإلا فالحديث يُراد به كلُّ شيءٍ من أمور الدُّنْيَا كان سَبَبًا جَعَلَك تغضب لأجله، أو ترضى لأجله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (تعس وانتكس) قال الحافظ: هو بالمهملة أي عاوده المرض. وقال أبو السعادات: أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة، أَنَّ من انتكس في أمره فقد خاب وخسر. وقال الطيبي: وفيه الترقي بالدعاء عليه؛ لأَنَّه إذا تعس انكب على وجهه، فإذا انتكس انقلب على رأسه بعد أَنَّ سقط.

قوله: (وإذا شيك) أي أصابته شوكة (فلا انتقش)، قال أبو السعادات: أي إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها، وهو إخراجها بالمنقاش. وقال الحافظ: أي إذا دخلت فيه شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش.

قال: وفي الدعاء عليه بذلك إشارة إلى عكس مقصوده؛ لأَنَّ من عثر فدخلت في رجله الشوكة فلم يجد من يخرجها يصير عاجزاً عن السعي والحركة في تحصيل مصالح الدُّنْيَا. وقال الطيبي: المَعْنَىٰ أَنَّهُ إذا وقع في البَلَاء لا يُترحم عليه، فإن من وقع في البَلَاء إذا ترحم له النَّاس ربما هان الخطب عليه، ويتسلى بعض التسلي، وهؤلاء بخلافه بل يزيد غيظهم بفرح الأعداء أو شماتتهم.

الشَّرح

قوله: (قوله: (تعس وانتكس...) تَعِس أو تَعَس أي: سقطَ، على الوجه، أو على الرأس، فالسقوط على الرأس أشدُّ وهو هلاكٌ مُؤَكَّدٌ - نعوذ بالله - فهذا كلُّه دعاء للتحذير من أَنَّ يقع المُسْلِم في مثل هذا العَمَل.

قوله: (قوله: وإذا شيك...) معنى (إذا شيك فلا انتقش) قالوا: هو دعاءٌ عليه بأَنَّه إذا أُصيب لا يجدُ من يُعينه على رفع مصيبته، أو أراد أَنَّهُ إذا وقع في مُصيبةٍ أو إذا أصيب بشوكةٍ لا يخرجها فيعجز عن السير، بخلاف مُراده، فإن مُراده كان الإكثار من الحركة أو السرعة فيها للحصول على المال، فإذا مُنع من الحركة فاته مقصودُه من الدُّنْيَا، فكأنه يدعو عليه بأن يُمنع من الحركة التي يُحرم بسببها من مراده الدنيوي، فهذا كله دعاء من النَّبِيِّ ﷺ على من فعل مثل هذا الفعل.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قيل: لم سماه النَّبِيّ ﷺ عبد الدِّينار والدرهم؟ قيل: لما كان هو مقصوده ومطلوبه الذي عمل له وسعىٰ في تحصيله بكل ممكن حتىٰ صارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضىٰ له صار عبداً له.

قال شيخ الإِسْلَام: فسماه النَّبِيّ ﷺ عبد الدِّينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء وخبر، وهو قوله: (تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش) وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه إن أعطي رضي وَإن منع سخط، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة:٥٨]، فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقـاً برئاسة أو بصورة أو نحو ذلك من أهواء نفسه أَنَّ حصل له رضي وَأَنَّ لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القَلْب وعبوديته، فما استرق القَلْب واستعبده فهو عبده. إلىٰ أَنَّ قال: وهكذا أيضـاً طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان:

فمنها ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلىٰ طعامه وشربه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه وبساطه الذي يجلس عليه من غير أَنَّ يستعبدوه فيكون هلوعـاً.

ومنها ما لا يحتاج إليه العبد، فهذه ينبغي أَن لا يعلَّق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار مستعبداً معتمداً علىٰ غير الله فيها، فلا يبقىٰ معه حقيقةُ العبودية لله ولا حقيقةُ التَّوَكُّلِ عليه، بل فيه شعبة من العِبَادَةِ لغيرِ الله وشعبةٌ من التَّوَكُّلِ علىٰ غير الله، وهذا من أحقِّ النَّاس بقوله ﷺ: (تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدِّينار، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة) وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وَإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداءَ الله، فهذا الذي استكملَ الإِيمَان. انتهىٰ ملخصًا.

قوله: (طوبىٰ لعبد) قال أبو السعادات: طوبىٰ اسم الجَنَّة. وقيل: هي شجرةٌ فيها. قلت: قد روىٰ ابن وهب عن عمرو بن الحارث أَنَّ دراجًا حدثه أَنَّ أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد في حديث فقال رجل: يا رَسُول الله وما طوبىٰ؟ قال: (شجرة في الجَنَّة مسيرة مائةَ سنة ثياب أهل الجَنَّة تخرج من أكمامها) رواه حرملة عنه، ورواه أحمد في مسنده من حديث عتبة بن عبد السلمي: (جاء أعرابي إلىٰ النَّبِيّ ﷺ فسأله عن الحوض، وذكر الجَنَّة، ثُمَّ قال الأعرابي: وفيها فاكهة؟ قال: نعم، وفيها شجرة تُدعىٰ طوبىٰ..) الحَدِيث.

قال الزجاج في قوله: (طوبىٰ لهم) ومعناه العيشُ الطَّيِّبُ. وقال ابن الأنباري: الحال المستطابة لهم؛ لأَنَّه فُعلَىٰ من الطيبِ.

وقيل: معناه هنيئًا بطيب العيش لهم. وهذه الأقوال ترجع إلىٰ قول واحد.

قوله: (أخذ بعنان فرسه في سبيل الله) أي: في طريق الجهاد.

قولـه: (أشـعثَ رأسـه) هـو بنصـب أشـعثَ صـفة لعبـدٍ؛ لأنَّـه غيـر مِصْـرَوف للصفة ووزن الفعل، ورأسُه مرفـوع علىٰ الفاعليـة لأشـعث، وهـو مُغبَّـر الـرأس، وفيه فضل إصابة الغبار في سبيل الله.

قوله: (مغبرة قدماه) هو كأشعثَ في الإعراب، والمـراد بـه كثـرةُ الغبـارِ لـه في سبيل الله لكثرة جهادِهِ ومصابرته.

قوله: (إن كان في الحراسة) قال بعضهم: هو بكسر الحاء أي حماية الجـيش ومحافظتهم عن أَن يهجم عليهم عدوهم.

قوله: (كان في الحراسة) أي امتثل غير مقصر فيها بالنوم والغفلة ونحوهما.

قوله: (وإن كان في السـاقة كـان في السـاقة) أي: إن جَعَـلَ في مـؤخرة الجـيش صار فيها ولزمها، وقال ابن الجوزي: المَعْنَىٰ أَنَّـهُ خامـلُ الـذكر لا يقصـد السـموَّ فأيُّ موضعٍ اتفق له كان فيه. وقال الخلخـالي: المَعْنَـىٰ ائتمـاره لمـا أمـرَ، وإقامتـه حيث أقيمَ لا يُفقدُ من مكانه، وإنما ذكر الحراسة والسـاقة؛ لأنَّ همـا أشـدُّ مشـقةً، وأكثرُ آفةَ.

قلت: وفيه فضيلةُ الحرسِ في سبيل الله.

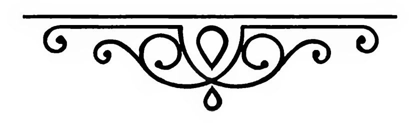
قوله: (إن استأذن لـم يؤذن لـه) أي إن استأذن علىٰ الأمراء ونحوهم لم يـأذنوا له؛ لأَنَّه ليس بذي جاه ولا يقصد بعمله الدُّنْيَا فيطلبها منهم ويتردَّد إليهم لأجلهـا، بل هو مخلصٌ لله.

قوله: (وإن شفع) بفتح أوله وثانيه مبني للفاعل، ويشفع بتشـديد الفـاء مبنـي للمفعـول، والمـراد والله أعلـم أَنَّـهُ لا يشـفع عنـد الملـوك ونحـوهم لعـدم جاهـه

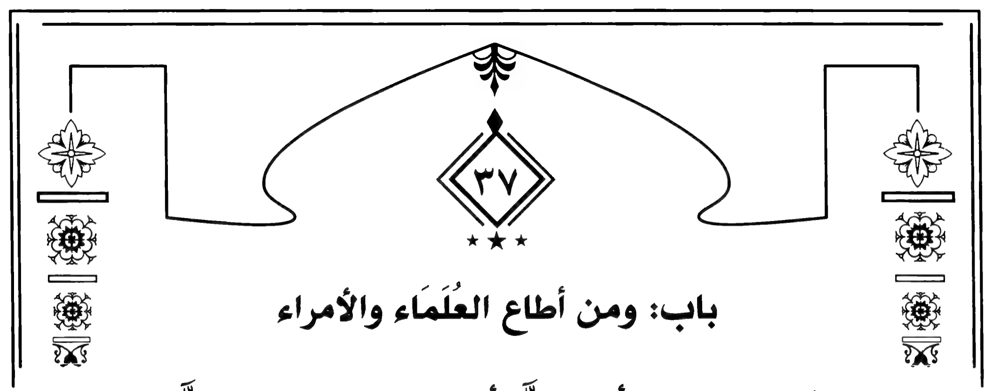
عندهم، وعلىٰ تقدير شفاعته أَنَّ شفع لم يشفع بل يردون شفاعته، قال بعضهم: قيل: أَنَّ هذا إشارة إلىٰ عدم التفاته إلىٰ الدُّنْيَا وأربابها بحيث لا يبتغي مالاً ولا جاهًا عند النَّاس، بل يكون عند الله وجيهًا، ولم يقبل النَّاس شفاعته ويكون عند الله شفيعًا مشفعًا كما في الحَدِيث الذي رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: (رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم علىٰ الله لأبره)، وقال الحافظ: فيه ترك حب الرئاسة والشهرة وفضل الخمول والتواضع.

قلت: وفيه أَنَّ هذه الأمور ونحوها لا تكون لهوان المُؤمِن علىٰ الله بل لكرامته، وفيه الثناء علىٰ المجاهد الموصوف بتلك الصِّفَات. قاله المصنف.





(١) قام فضيلة الشيخ ـ حفظه الله ـ بالتعليق علىٰ هذا الجزء من المتن ضمن الشَّرْحُ السابق.



باب: ومن أطاع العُلَمَاء والأمراء في تحـريم ما أحل اللّه أو تحليـــل ما حرمه اللّه فقد اتخذهم أرباباً من دون اللّه



هذا الباب عقده المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبين أَنَّ العِبَادَة هي الطَّاعَة، فإن أطعت الله فقد عبدته، وَإن أطعت المَخْلُوق في معصية الله فقد عبدته، وأورد فيه أثرين وحديثًا واحداً.

الأثر الأول: عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهو قوله: **(يوشك أَن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رَسُول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر)**[1].

---

(١) لم أجده في دواوين السُّنَّة، ونبه بعض العُلَمَاء أَنَّهُ لم يرو هذا الأثر بهذا اللفظ، ولكن روي أثر قريب من هذا: وهو عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما قال: تمتع النَّبِيّ ﷺ، فقال عروة بن الزبير: نهىٰ أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عبَّاسٍ: ما يقول عرية، قال: يقول: نهىٰ أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عبَّاسٍ: أراهم سيهلكون، أقول: قال النَّبِيّ ﷺ، ويقول: نهىٰ أبو بكر وعمر. أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٣١٢١)، (٥/ ٢٢٨)، والضياء المقدسي في المختارة، برقم: (٣٥٧)، (٤/ ٢٠٤).

والأثر الثاني: قول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: (**عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ثُمَّ يذهبون إلىٰ رأي سفيان، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك**)(١).

ثم أورد حديث عدي بن حاتم الذي قال فيه: (**أنه سمع النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام يقرأ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، فقال: إنا لسنا نعبدهم. قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: بلىٰ. قال: فتلك عبادتهم لهم**)(٢).

هذا هو كل ما في الباب، و الشَّارِحُ رحمه الله أورد في الباب عدة مسائل، لكن من أهمها:

أولاً: ذكرَ مكانةَ الطَّاعَة، وَأَنَّ الطَّاعَة هي العِبَادَة، ولهذا المُؤمِن يطيع اللهُ، وإذا أطاع الله فيما أمرَه وفيما نهاه عنه فقد عبدَه والطاعةُ هي العِبَادَةُ، فلهذا أمرُها خطيرٌ.

ثم أورد مسألةَ أخرى وهي أَنَّ من أطاعَ غيرَ الله في معصيةِ الله فأحلَّ ما حرَّم اللهَ، أو حرَّم ما أحلَّ الله فقد أشرك، من أطاع مخلوقـًا في معصيةٍ فقد أشركَ.

---

(١) ما وجدت كلام الإمام أحمد في الدواوين، ولكن أورده علماء الحنابلة، مثلاً: الصارم المسلول لشيخ الإسْلَام (١/ ٥٩)، الفروع لابن مفلح (٦/ ٣٧٥).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب آداب القاضي، بَاب إثم من أفتىٰ أو قضىٰ بالجهل، برقم: (٣٠٣٥٠).

ثمَّ المسألةُ الثالثةُ: بيّن فيها المرادَ بقول الله –تعالىٰ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩]، من هم أولو الأمرُ؟ وردَ للعلماءِ فيهم قولان:

منهم من قال: أَنَّ أولي الأمر هم العُلَمَاءُ؛ لَأنَّ العُلَمَاءَ هم الذين يُبلِّغوننا دينَ الله ﷻ، وهم الذين يستنبطون الأحكامَ الشَّرْعِيةَ، فطاعتهم واجبةٌ.

ومنهم من قال: أَنَّ أولي الأمر هم الحُكَّامُ والأمراءُ؛ لَأنَّ اللهَ أمرَ بطاعةِ أولي الأمر، أي له الأمرُ أي: السُلطةُ، وله الأمرُ والنَّهي.

وقال بعض العُلَمَاء: أَنَّ الآيَة تشملُهما العُلَمَاءُ والحكامُ المُسْلِمينَ، فأولوا الأمرِ، فطاعة العُلَمَاء مطلوبة من الحكام، ومن الأُمَّة؛ لَأنَّ العالمَ يُبلِّغُ أمرَ الله، وطاعةُ الحاكمِ مطلوبةٌ من العُلَمَاء ومن الأُمَّة لتنفيذِ تنفيذ شرع الله.

فكلتا الطائفتين مطلوبٌ منهم الطَّاعَةُ لغيرهم فيما يخصُّهم، فالطاعةُ فيما سبيله العلم والاجتهادُ للعلماء، ولكن الطَّاعَة في جمع الشملِ ووحدةِ الأُمَّة ونحو ذلك مما هو من شأنِ الحُكَّام، لاشك أَنَّها للأمراء؛ لَأنَّ توزيع الطَّاعَة يؤدي إلىٰ الصراعِ في المُجْتَمَع، لكن لا يعني هذا أَنَّ الأمراء لهم طاعةٌ مُستقلةٌ، هناك أشخاص أمرَ اللهُ بطاعتهم، كطاعةِ الولد لأبيه، وطاعةِ الزوجة لزوجها، وطاعةِ الشعوبِ لحُكَّامِها، هذا أمرٌ من الله، لكن لو أمر الزوجُ أو الأبُ، أو أمرَ الحاكم بمعصية الله، فلا نطيعه، سيأتي الحَدِيث: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، فإن النَّبِيّ ﷺ قد أرسلَ سريةً وأمَّرَ عليهم رجلاً من الأنصار، وفي بعض الطريقِ أغضبوه بأمرٍ، فقال: ألم يأمرْكم رَسُولُ الله ﷺ أَن تُطيعوني؟ قالوا: بلىٰ. قال: اجمعوا لي حطباً. فجمعوا له حطباً، ثُمَّ قال: أوقدوا النَّار. فأوقدوا النَّارَ، قال: آمركم أَنَّ تدخلوها. فانقسموا قسمين:

قسم أرادوا أَن يدخلُوها تنفيذاً لأمرِ الرَّسُولِ ﷺ بطاعةِ الأمير. وقسمٌ قالوا: ما أسلمنا إلا فراراً من النَّار، ما هربنا من الكُفْر وتركنا شَهَوَاتنا إلا خوفاً من النَّار، فكيف ندخُلها؟ فبقوا ولم يدخلْها أحدٌ حتىٰ خمدَت، وحتىٰ سكنَ غضبُه، وعندما رجعوا إلىٰ النَّبِيّ ﷺ أخبروه، قال ﷺ: (لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطَّاعَة في المعروف)(١)، وفي رواية: (لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق)(٢).

فالطاعةُ قسمان:

طاعةٌ مطلقةٌ دون حُدودٍ وهي لله ورسولِه؛ لأنَّ الله قال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٥٩] فعلٌ مستقلٌ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] فعلٌ مُستقِلٌ، لكن عندما جاء إلىٰ أولي الأمر ما كرَّرَ الأمرَ، بل قال: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]؛ لأنَّ طاعتهم تبعٌ لطاعة اللهِ ورسوله، فإن أَمرُوا بما أمرَ الله به، أو نهوا مما نهىٰ الله عنه أطعناهم، وَإِن أمروا بمعصية الله لا نطيعهم؛ لأَنَّهم ليس لهم حُق مستقلٌ، ليس للمخلوق حقٌ أَن يأمَر بأمرٍ يخالف أمر الله، نحن ما أطعناه إلا لأنَّ الله قال: أطيعوه، فإذا عصىٰ الله كيف نطيعُه؟.

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب المغازي، بَاب سرية عبد الله بن حذافة السهمي، برقم: (٤٣٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، بَاب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، برقم: (١٨٤٠)، (٣/ ١٤٦٩).

(٢) لم أجد علىٰ هذه الرواية في القصة المذكورة، وقد جاء هذا النَّص في أحاديث أخر، أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٤٣٢٢)، (٤/ ٣٢١)، والقضاعي في مسند الشهاب، برقم: (٨٧٣)، (٢/ ٥٥)، وأخرجه الإمام أحمد بلفظ: (لا طاعة لمخلوق في مصعية الله)، المسند، برقم: (١٠٩٥)، (٢/ ٣٣٣).

عقد المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب، وقدم العُلَمَاءَ علىٰ الحُكَّامِ؛ لأَنَّ جميعَ المُسْلِمينَ يتعبَّدُون الله بفقهِ وعلمِ العُلَمَاء، والعلماءُ بشرٌ يُخطئون ويُصيبون، وقد يكون رأي العالمِ يُخالف النَّص، وكثيرٌ من النَّاس لا ينظرُ إلىٰ النَّص، إنما ينظر إلىٰ العالمِ، كما ذكر في المسألةِ الثالثة، حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: (إن المُقلِّدِين للعلماءِ يقولون: إذا جاء النَّص يخالفُ ما قال العالِمُ، قالوا: إنَّ الاجتهادَ قد انقطع، ولم يعد لنا نظر في الكِتَاب والسُّنَّة، نحن نأخذ بأقوال العُلَمَاء) هذا عُذرٌ.

والعُذر الثاني: قالوا: (إنَّ العالم أعلم منَّا بالقرآن والسنَّةِ، فلا يمكن أَن يكون العالِم ما عرفَ هذا الحَدِيثَ)، وكأنَّهم جَعَلَوا العُلَمَاءَ مثلَ الأنبِيَاءِ يُحيطونَ بالدينِ كلِّه، وهذا يستحيلُ، لابدَّ أَنَّ العالمَ تقع منه أخطاء، ويغفلُ عن بعضِ الأشياءِ، فإذا جاءَ الحَدِيثُ يخالفُ رأي العالمِ أخذنا بالحديثِ، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور:٥٤]، فإذا أطعتَ الرَّسُولَ تهتدي، أمَّا إذا عصيتَ الرَّسُولَ فلا تهتدي.

والعُذر الثالث: ليس لنا آلاتُ الاجتهادِ. وقال المُصنِّفُ وغيرُه من العُلَمَاءِ: وضعَ العُلَمَاءُ شروطًا للاجتهاد لعلَّها لا تتوفر في أبي بكر وعمر. شروطًا عظيمةً وكبيرة، أَن يحُيط باللغة، وَأَن يُحيط بالسنَّة، وَأَن يحيطَ بأقوال العُلَمَاء، وَأَن يعرف النَّاسخ والمنسوخَ، والمطلقَ والمُقَيدَ، والمُخصصَ... إلىٰ آخر ما هناك من الشروط التي ربما لا تتوفر مُجْتَمَعة في كِبارِ الصَّحَابَة، فقال: كأنَّ مُرادَهم أَن يَحرِموا النَّاس بركةَ القُرآنِ والسَّنَّة. إذا جاء المُسْلِمُ النَّص الصريحُ الصَّحِيحُ، ما بقي له عذرٌ، فعليه أَن يأخذَ الحَدِيث ويعمل به، ولو لم يكن مُجتهِداً.

المسألة الخامسة: أورد جملةً من أقوال أئمة المذاهب: أبي حنيفةَ ومالكٍ والشَّافعي، وهذا قول أحمد رحمهم الله، كلُّهم ينهَون عن التقليد، أبو حنيفة قيل له: لو جاء القُرآن يخالفُ رأيك؟ قال: خذوا بالقرآن. قالوا: لو جاءت السُّنَّة تخالفُ رأيَك؟ قال: خذوا بالسُّنَّةِ. قال: لو جاء قولُ الصَّحَابِي يخالف قولَك؟ قال: خذوا بقول الصَّحَابِي. قالوا: لو جاء قول التابعي يخالف قولُك؟ قال: التابعون رجالٌ ونحن رجالٌ.

فأبو حنيفة رحمه الله لا يقول: خذوا بقولي واتركوا القُرآن، أو أنا أعرفَ منكم بالقرآن، أو أعرف منكم بالسُّنِة، أبو حنيفة بشرٌ، ويعلم أنَّهُ بشرٌ، وأنه قد تخفىٰ عليه بعضُ الأحَادِيث، وبعض النَّصوْصِ، وبعضُ فتاوىٰ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، فهو رحمه الله لم يأمر أتباعَه بالاتباعِ المُطلقِ.

ثم أورد قول الإمام مالك رحمه الله: كلُّ أحدٍ يُؤخذُ من قولِه ويُردُّ إلا صاحبَ هذه الحجرةِ صلى الله عليه وسلم. والشافعي رحمه الله ثبت عنه أنَّهُ قال: إذا صحَّ الحَدِيثُ فهو مَذهبي أي إذا صحَّ الحَدِيثُ فأنا أقول به؛ لأنَّ الشافعي ما يُشرعُ، ليس هناك أحدٌ من العُلَمَاء يُشَّرع، العُلَمَاء يجتهدون للوصول إلىٰ الحق، وقد يخطئون.

أحمد بن حنبل رحمه الله قال هذا القول: أنَّ الإنْسَان إذا عرف الحَدِيثَ وأنه صحيحٌ فلا يجوز له أَن يأخذَ غيره. هذا سفيانُ الثُّوري من أَجِلَّةِ العُلَمَاءِ من أتباع التابِعين رحمه الله، توفي سنة ١٦١هـ، وقد كان له أتباعٌ، مثل ما كان للأئمة الأربعة، لكن الأئمة الذين جاءوا بعدَه انحصرت فيهم المُتَابعةُ، فنُسي كثيرٌ من الفِقْه القديم،والأوزاعي كان له فقهٌ مُستقلٌ، الثوري له فقهٌ مستقل، ابن وهب في مِصْرَ له فقهٌ مستقلٌ، لكن انحصرت المذاهبُ كلُّها أو الاتباعُ والاجتهادُ في أئمةِ المذاهبِ الأربعة، والأئمةُ الأربعةُ كلُّهم مُجمعُون علىٰ أنَّهُ لا يجوزُ أَن يؤخذَ قولُهم إذا خالفَ القُرآن أو السُّنَّة أو قولَ الصَّحَابِي.

وأقوالُ الصَّحَابَةِ نوعان:

- قولٌ لا يُعرَفُ له مُخالفٌ من الصَّحَابَة، هذا نأخذُ به.

- وقول اختلفَ الصَّحَابَةُ فيه، منهم من قال بهذا، ومنهم من قال بهذا، واختلف العُلَمَاءُ في ذلك، فمنهم من قال: نأخذُ بالقول الذي فيه أبو بكر رضي الله عنه. ومنهم من قال: نأخذ بالقول الذي فيه الخلفاءُ الراشدون. ومنهم من قال: بل نجتهدُ بحسب ما نستطيع. لكن لو جاء قولُ الخلفاءِ الراشدين أو بعضُهم يخالِف السُّنَّة أخذنا بالسُّنةِ، لكن هل يحصل ذلك منهم؟ يمكن؛ لأنَّ الخلفاءَ الراشدين ليسوا أنبياء، وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما يأمرُ بمتعةِ الحجِّ، ويرىٰ أنَّهُ لا يجوزُ إلا نوعان من أنواع النُّسُكِ فقط: التَّمتعُ والقُرآن، أمَّا الإفرادُ فلا يجوز عنده رضي الله عنه، أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ـ وهم الخلفاءُ الراشدون ـ يجيزون الأنساك الثلاثة، فكان ابنُ عبَّاسٍ يقول: الإفرادُ لا يجوز. ولهذا يقول: من طافَ وسعىٰ فقد حلَّ شاء أم أبَىٰ. والصَّحابةُ رضي الله عنهم يُجيزون الأنساكِ الثلاثة، فعندما كانَ يأمرُهم بالتمتّع كانوا يقولون: قال أبو بكر وعمر، فيقول: (يوشك أَنَّ تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم: قال رَسُول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون: قال أبو بكر وعمر)[1]. فلم يرضْ أَن يُعارض قولَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم بفعلِ الخليفتين الراشدين، كيف جازَ للخليفتين أَن يخالفا السُّنَّة؟ لم يخالفا السُّنَّة، إنَّما اجتهدا رضي الله عنهما، والحقُّ معهما، ولهذا لم يقل بقول ابن عبَّاسٍ إلا أفرادٌ من المُجْتَمَع المُسْلِم، ابن عبَّاسٍ وتابعَه ابن حزم وابن القَيِّم وتابعهم الشيخ الألباني رحمهم الله، فهم أفرادٌ، ومن هنا فقط قال النووي رحمه الله: أجمعت الأُمَّة علىٰ جواز الأنساكِ الثلاثةِ. لكن الشاهدُ في هذا الباب أَن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قد أنكر علىٰ من عارض

---

(١) سبق تخريجه بما فيه من التفصيل.

قولَ رَسُولِ الله ﷺ بفعل الخلفاءِ الراشدين، فهـذا يـدُلُّنا علىٰ أَنَّـهُ لا يجـوزُ أَنَّ يعارَضَ النَّص بقول عالم من العُلَمَاء .انتهىٰ.

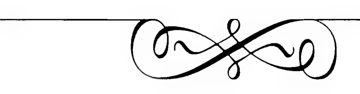
المسألة السادسة: ابنُ تَيْمِيَة رَحِمَهُ الله له تفريعاتٌ جميلةٌ، فقد ذكـر تقسيمات في هذه المسألةِ، يقـول: إذا قـالَ العـالمُ قـولاً يحـلُّ حرامـاً أو يحـرِّم حـلالاً فاتَّبَعَـه الإنْسَانُ أي مُعتقداً حـلَّ مـا حـرَّم، أو تحـريمَ مـا أحـلَّ، فيقـول: هـذا يـؤدي إلـىٰ الشرك؛ لَأنَّك اعتقدت أَنَّ العالمَ هو الذي يحـرَّم ويحلِّـل، إِمَّـا إذا اتبعـت العـالم في خطئه وتعلم أَنَّهُ مُخطئٌ، فأنت مذنبٌ مرتكبٌ لمعصـية، ثُـمَّ يـذكر تفريعـات أخرىٰ في أنـواع المُتَّبِعين، يقـول رَحِمَهُ الله: مُجتهـدٌ قصدُه الاتبـاع، شـخصٌ اجتهـد قصدُه أَن يَتبِع، لكنـه أخطـأ، قـال: هـذا معـذورٌ ومـأجورٌ عنـد الله ﷻ، وقسـمٌ عـرف أَنَّ هـذا خطـأٌ فاتبعـه علىٰ خطئِـه، قـال: هـذا مـأزورٌ، وقسـم تـابعَ العـالمَ عصـبيةً، ولـيس عـن قناعـةٍ بـأنَّ قولَـه صـحيحٌ، وإنَّمـا عصـبيةً لـه، إِمَّـا لأنَّـه مـن جماعته، أو لَأنَّه له به علاقة، فكل ما يقولُه يتبعه عَصبيةً، قال: هذا ـ نعـوذ بـالله ـ مُعرضٌ للوعيد؛ لَأنَّ العالمَ حتىٰ لـو أصـاب، وأنـت اتبعتـه عصـبية فأنـت آثـمٌ، يجب أَن لا تتبعَ العالمض إلا إذا اعتقدت أَنَّ قولَه صحيحٌ، فتتبِعـه لصـحةِ قولـه لا لشخصه.

فينبغي للإنسان أَن يتفطَّن، لا نقول بقول العالم حبـاً له أو عصـبيةً لـه، إنمـا لاعتقادنا أَنَّهُ أصاب، ولو وقع في نفوسـنا أَنَّـهُ أخطـأ لا يجـوزُ لنـا أَنَّ نتبعـه؛ لأَنَّ هذا دينٌ، وأنت إنما تعملَ لتحصلَ علىٰ الأجر، فإذا كان اتِّبَاعُك لـه يـؤدي بـك إلىٰ الإثمِ فينبغي أَن تكونَ أبعدَ النَّاس عنه.

ثـم ذكـر رَحِمَهُ الله انحراف بعض الطوائف الذين يعتقدون أَنَّ الهُدىٰ في أقوالِ العُلَمَاءِ، وليس في دينِ الله، ولهذا أصحاب الطوائف ـ خاصة في العقيدة ـ قد جَعَلَوا الهدىٰ في أقوال العُلَمَاء، حتىٰ قالوا: لا تأخذوا عقيدتكم من القُرآن

والسنَّة، إنما أخذوه من كلام علمائنا؛ لَأنَّ علماءنا أعلمُ. فحرمُوا النَّاس بركةَ القُرآنِ والسنةِ، الآن المُتكَلِّمُونَ يقولون: القُرآن ظاهُره شِرْكٌ، والتوحيدُ في كلامنا!. القُرآن ظاهره شِرْكٌ؟ كلامُ ربِّ العالمينِ، أفصحُ الكَلَام وأبلغُه، وأشرفُ الكلام، ظاهرُه شِرْكٌ؟ فهذا اتهامٌ لربِّ العالمين بأنه لم يُبِين البيانَ الكاملَ، واتهامٌ لرسولِ الله ﷺ بأنَّه ما أبان البيان الكامل،فكيف نعمل؟ يقولون:ارجعوا إلىٰ كلام علمائِنا حتىٰ نفهمَ القُرآن والسُّنَّةَ، لا تأخذوا بظاهر القُرآن الكَرِيم، فعندما يقول ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٥]، لا تصدقه حتىٰ تعرف كلام المتكلمين.

وهذا فيه خطورةٌ علىٰ المقلِّدين، فهذا الباب عقدَه المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا المَعْنَىٰ، وهذا لبُّ ما في البابِ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما كانت الطَّاعَة من أنواع العِبَادَة، بل هي العِبَادَة، فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على السُّنَّة رسله عليهم السَّلَامُ، نبه المصنف -رحمه الله تعالى- بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها، وأنه لا يُطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله، وإلا فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً، والمقصود هنا الطَّاعَة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرَّسُول ﷺ - فإنه لا ينطق عن الهوى - فهو مشرك، كما بينه الله تعالى في قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾ [التوبة:٣١] أي: علماءهم، ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]، وفسرها النَّبِيّ ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال، وتحليل الحرام، كما سيأتي في حديث عدي.

فإن قيل قد قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾ [النساء:٥٩]، قيل: هم العُلَمَاء. وقيل: هم الأمراء. وهما روايتان عن أحمد. قال ابن القَيِّم: والتحقيق بأن الآيَة تعم الطائفتين.

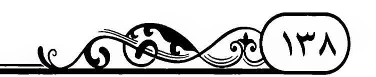


الشَّرح

قوله: (لما كانت الطَّاعَة من أنواع العِبَادَة...) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّ الطَّاعَة من اختصاص الخالق، فلا يجوز لك أَنَّ تطيع أحداً إلا إذا أذن لك الله أو أمرَ بها؛ لأَنَّها حقُّ الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن أمرك بأن تطيع أحداً من خلقِه تطيعه، لكن تطعه إلا فيما فيه طاعة لله، فلا يجوز أَنَّ تطيعه في معصية الله.

قوله: (فإن قيل قد قال الله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٥٩]) الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ له في تَفسِير الآيَة قولان: القول الأول: أَنَّ أولي الأمر هم العُلَمَاء، والثاني: هم الحُكَّامُ.

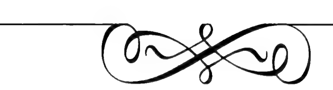
ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: الآيَة تشمل الصنفين؛ لَأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد جَعَلَ لولي الأمر حقوقًا، وجعل للأتباع أو الأُمَّة حقوقًا، فجعل لهم حقوقًا، وعليهم واجبات، الحقوق كما قَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] أي: الحقوق ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، هذا حقُّ الشعوبِ علىٰ الحُكَّام، والأماناتُ: ما في أيديهم من الأموال والوظائف، فهي ليست لهم، بل هم قد ائتمنوا عليها، فيجب أَن يتقوا الله فيها، وإذا حكَمُوا بين النَّاس أَن يَحكُموا بالعدلِ لا يظلِموا أحداً، هذا حقُّنا عليهم، وجاء بعد ذلك حقُّهم علينا، أورد الله الآيَة الأولىٰ في حقِّنا علىٰ الأمراء والحكّامِ، ثُمَّ أورد بعد ذلك حقَّهم علينا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [النساء:٥٩] هذا نداءٌ للمؤمنين: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، من المُؤمِنينَ، لكن إذا كان أولو الأمر ليس مؤمناً فلا طاعةَ له؛ لَأنَّ الله خَصَّصَ: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، لا كما قال القادياني في الهند، فالإنجليز استعمروا الهند فترة من الزمن، ورأوا المجاهدين المُسْلِمينَ أزعجوهم بعد أَن أعلنوا الجهادَ ضدَّهم، وقاوموهم مقاومةً مسلحة، فعملوا دراسة، وقالوا: لا نستطيعُ أَنّ نقاومَهم إلا إذا استطعنا أَن نوجدَ واحداً منهم يُقنعُهم بطاعتنا، فاختاروا القادياني وعملوا له دراسةً خاصةً حتىٰ جَعَلَوه يدَّعي النُّبُوةَ، فأمرَ بأمرين:



الأول: أمرَ بطاعةِ الإنجليزِ، وقال: الله أمرَنا بطاعةِ أولي الأمر.

والثاني: جهادُ السيفِ انتهىٰ، وما بقيَ إلا جهادُ الكلمةِ، الآن نجاهدُهم بالكَلَام فقط، ما عنده شيء غيرهما!! كلُّ دعوتِه ونبُوته تدعو النَّاس إلىٰ طاعةِ الإنجليز، وهذا باطلٌ؛ لَأنَّ الله قال: أطيعوا أولىٰ الأمرِ إذا كانوا مؤمنين، أمَّا الكافرُ فما يُطاع. فالشاهد أنَّ الآيَة قيَّدَت فخاطَبت المُؤمِنينَ: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]. فليست الطَّاعَة مُطلَقةً، بل مُقيَّدةٌ بالحاكم المُؤمِن، أمَّا لو جاء حاكم إنجليزي أو أمريكي أو فرنسي واستعمر المُسْلِمينَ، فالآيةُ لا تنصُّ علىٰ طاعته، بل تنص علىٰ محاربتِه؛ لَأنَّه لا يجوز أَن يكون والي المُسْلِمينَ كافراً.

فالشاهد أَنَّ الإمام أحمد رَحِمَهُ الله فسَّر الآيَةَ علىٰ أحدِ الأمرين، وابنُ القَيِّم عمَّمَهما، يُطاع كلُّ صنفٍ في اختصاصه، فالعلماءُ يُطاعون فيما يتعلَّق بالعلمِ، والحُكَّامُ يُطاعون فيما يتعلَّق بالناحيةِ الأمنيةِ والجهادِ في سبيل الله وأمثال ذلك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قيل: إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فكان العُلَمَاء مبلغين لأمر الله وأمر رسوله، والأمراء منفذين له، فحينئذ تجب طاعتهم تبعًا لطاعة الله ورسوله، كما قال ﷺ: (لا طاعة في معصية إنما الطَّاعَة في المعروف)، وقال: (على المرء المُسْلِم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)، حديثان صحيحان، فليس في هذه الآيَة ما يخالف آية براءة.

قال: وقال ابن عبَّاسٍ: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رَسُول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر).

قوله: (يوشك) بضم أوله وكسر الشين المعجمة. قال أبو السعادات: أي يقرب ويدنو ويسرع، وهذا الكَلَام قاله ابن عبَّاسٍ لمن ناظره في متعة الحج، وكان ابن عبَّاسٍ يأمر بها، فاحتج عليه المناظر بنهي أبي بكر وعمر عنها، أي: هما أعلم منك وأحق بالإتباع، فقال هذا الكَلَام الصادر عن محض الإيمَان، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ، وَأَنَّ خالفه من خالفه كائنًا من كان، كما قال الشافعي: أجمع العُلَمَاء على أَنَّ من استبانت له سنة رَسُول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد.



الشَّرح

قوله: (قيل: إنما تجب طاعتهم إذا...) الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ما دامت طاعتُهم في طاعةِ الله ورسولِه وجبت، لكن لو أَمَرُوا بمعصيةٍ فلا نطيعُهم فيها.

قوله: (كما قال ﷺ: (لا طاعةَ في معصية...) آية براءة هي السابقة التي فيها ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، فقال: ليس بينهما معارضة؛ لأَنَّهم لا يَتَّبِعُونهم فيما حرَّمَ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (**قال: وقال ابن عبَّاسٍ: يوشك...**) هذا إجماعٌ من العُلَمَاءِ، علىٰ أَنَّ من استبانت له سنةُ رَسُولِ الله ﷺ لا يجوزُ له أَن يدَعها ويأخذَ بقولِ من خالفَها، لكن لابد أَن يتوثَّق، أولاً: تكونُ صحيحةً؛ لَأنَّ ليس كل ما يُكتب في الكتبِ ويُعزىٰ إلىٰ رَسُولِ الله ﷺ يكون صحيحاً، بل عُزِي إلىٰ رَسُولِ الله ﷺ أحاديثُ ضَعِيفةٌ، وأحاديث مكذوبةٌ. فليس معنىٰ المُتابَعةِ أَنَّ تأتي إلىٰ أي حديثٍ وتقول: هذا يخالفُ ما عليه العالمُ الفلاني.

وأن لا يكون الحَدِيثُ مَنسوخَاً، وَأَن لا يكونَ مُقيَّداً أو مُخصَّصاً، وهذه لابد من معرفتها لطالب العلمِ؛ لَأنَّ العالِمَ قد يقول بالقول الذي يخالفُ الحَدِيثِ في ظنِّك وفهمِك، ويكون الحَدِيثُ منسوخاً، كما جاء في الحَدِيث: (نهىٰ عن زيارة القبور) ثُمَّ قال: (ألا فزوروها)، فقد يبلُغُك النَّهيُ عن الزيارة وتظنُّ أَنَّ من قال بجوازِ الزيارةِ فقد خالفَ الحَدِيث، ولم يبلُغْك النَّسخُ، وهكذا.

فليس المَعْنَىٰ أَنَّ الإنْسَانَ يعمدُ إلىٰ أيِّ كتابٍ ويأخذ ما فيه، بل يكون طالباً للعلم، يعرفُ الأحكامَ المتعلِّقةَ بالأحاديثِ، فلا يعمدُ إلىٰ حديثٍ ضَعِيفٌ، أو إلىٰ حديثٍ مكذوب أو منسوخٍ، ثُمَّ يقول: إنَّ هذا الحَدِيث يخالفُ قولَ الإمام الفلاني. قد يقول قائل: كيف نُخالفُ الأئمةَ أو الخلفاءَ الراشدين، كيف لا نأخذُ بقولهم، وقد جاء في الحَدِيث: (**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**)[1]، فقد أمرنا الرَّسُول ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السُّنَّة، بَاب في لزوم السُّنَّة، برقم: (٤٦٠٧)، والترمذي في سننه، كتاب العلم، بَاب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، برقم: (٢٦٧٦)، وابن ماجه في سننه، المقدمة، بَاب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، برقم: (٤٢)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٧١١٤)، (٢٨/ ٣٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب آداب القاضي

بالأخذ بِسنَّتِهم؟ نقول: بلىٰ، لكنَّ الرَّسُولَ ﷺ أمرَ أَنَّ نأخذ بسنتهم إذا لم تخالف سنتَه أو القُرآنَ؛ لَأنَّهم بشرٌ، فإذا شرَّعوا لنا تشريعًا لا يتعارضُ مع القُرآن والسُّنَّةِ وجبَ أَن نأخذ به.

فقول الخلفاءِ الراشدين نأخذُه إذا لم يكن هناك معارضٌ له، أمَّا إذا عارضَ اجتهادُهم القُرآنَ أو السُّنَّةَ، فلا نأخذُ به. هل يمكن أَنَّ يقعوا في هذا؟ يمكن؛ لَأنَّهم بشرٌ وليسوا أنبياء، وَإِنَّ كانوا هم أفضلُ البَشَرِ بعد الأنبِيَاء، وكما قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ تَفسِيرَهم واجتهادَهم أصوبُ من اجتهادِ غيرِهم، لكنهم يبقون في حدودِ البَشَريَّة، فنحن نتعامل معهم علىٰ أَنَّهُم بشرٌ ليسوا ملائكةً، وليسوا أنبياءَ.

فقد يخفىٰ علىٰ الصَّحَابِي بعضُ الأحَادِيث، والذي يطَّلِع علىٰ سيرِ الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يرىٰ أمثلةً لذلك، منها: أَنَّ عمرَ بنَ الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما جاء رجلٌ، فسلَّم عليه ثلاثًا، فلم يأذن له عمرث، فذهب، فعمرُ سمِع صوتَه ثُمَّ دعاه، وقال: ما الذي حملَك؟ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: (الاستئذانُ ثلاثٌ، فإن أُذن لك وإلا فارجع)[1]، عمرُ ما كان يعرف هذا الحَدِيثَ، قال: لتأتيَنِّي بمن يشهدُ لك -أو كما قال- أو لأعاقبنَّك. فذهبَ إلىٰ الصَّحَابَةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مُنزعِجًا، فقالوا: لا يقومُ معك إلا أصغرُنا سنًا، قم يا أبا سعيد الخدري، فقام أبو سعيد وشهد أَنَّ هذا قولُه ﷺ.

= بَاب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي فإنه غير جائز له أَنَّ يقلد أحداً، برقم: (٢٠٣٣٨)، (١٠/ ١٩٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب العلم، برقم: (٣٢٩)، (١/ ١٦٤)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٥٠٢٢)، (١٣/ ١٦٣)، وابن حبان في صحيحه، المقدمة، بَاب الاعتصام بالسنة، برقم: (٥)، (١/ ١٧٨)، وصححه التِّرمِذِي.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، بَاب الاستئذان، برقم: (٢١٥٤)، (٣/ ١٦٩٦).

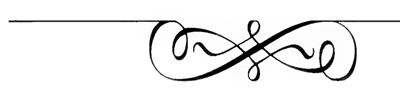
فالشاهدُ أَنَّ الصَّحَابِي قد يخفىٰ عليه بعضُ الأحَادِيثِ، وقد يقول بخلافِ بعضِ الأحَادِيثِ، وهذا ليس طعناً في مكانتِه أبداً، لكن لنعرفَ أَنَّ الدِّين عظيمٌ، وَأَنَّ الدِّين مُقدَّمٌ علىٰ كلِّ إنسانٍ.

ولهذا ابنُ الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ صاحبُ كتاب: (العواصم)، كان زيدي المذهبِ، وظهر له أَنَّ الحق في مذهبِ أهلِ السُّنَّة، فكتبَ كتاب(العواصم)، وذكر في هذا الكتاب مَنْهَج أهل السُّنَّة، وقال: إنَّ مَنْهَجَ أهل السُّنَّة في تصحيح وتمحيصِ الأحَادِيثِ مَنْهَجٌ في غايةِ الدِّقةِ والصحةِ والاتقانِ، فإن أهل السُّنَّة يُعظِّمُون أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو ذكر الراوي الضعيف حديثاً يُعظِّم أبا بكرٍ يَردُّون الحَدِيث، وهم يُحبُّون أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنَّ حبَّهم للدِّين والحقِّ أعظمُ، لكنَّ الشِّيعةَ لو جاء عندهم حديثٌ مكذوبٌ يمدحُ علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخذوه وَإِن كان مكذوباً، وقالوا:" إنَّ الذي رواه من أصحابنا ". ولاشك أَنَّ قولَهم " من أصحابِنا "ليست بتَزكيةٍ!

فقال: نحن نرىٰ مَنْهَجاً حقاً عند أهلِ السُّنَّة، ونرىٰ مَنْهَجاً باطلاً عند الشيعةِ، فإن كلَّ حديثٍ يتفق مع الهوىٰ أخذوه، وَإن كان الراوي ضَعِيفاً، كتاب الكُليني أو الكَليني الذي في الأحَادِيث اسمُه الكافي من بدايته السند ضَعِيفٌ، وهو عندهم مثل البُخَارِي عندنا، ولكنهم يأخذون بها؛ لأَنَّها تتفق مع أهوائهم.

فعندنا مَنْهَج نُقدِّمُه حتىٰ علىٰ من نحبُّ، إذا كان المنهج صحيحاً تكون حجتُك قويةً، فمثلاً: إذا جئت إلىٰ مُبتدِعٍ يعملُ البدعةَ وقلت له: هذه بدعةٌ؛ لَأنَّها تخالفُ القُرآنَ والسُّنَّةَ، وما عليها دليلٌ، ثُمَّ جئتُ أنا وعملتُ بدعةً ما عليها دليلٌ، فقال المُبتدعُ لي: كيف تردَّ بدعتي وتعمل بدعةً؟ قلت: لَأنَّ ذلك قاله الإمامُ أحمد. قال: سبحان الله الإمام أبو حنيفة ما هو مثل الإمام أحمد؟، فحجتي تكون ضَعِيفَةً.

لكن لو قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولاً يخالفُ المنهجَ وأَرُدُّه يكونُ المنهجُ قويـًا، إِمَّا إذا كان المنهجُ فيه ثغراتٌ، فصاحب البدعةِ بشرٌ مثلك له أهواء ويحبُّ، مثلاً: أنت تُعظِّمُ الإمامَ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لَأَنَّك عشت علىٰ مذهبِه وعرفتَ سيرته وسنَّته، وتجهلُ أبا حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو بالمقابل يعرف مذهبَ أبا حنيفة وسيرتَه وأخلاقَه وتقواه وورعه، ولا يعرف الإمام أحمد إلا قليلاً، فعنده أبو حنيفة مُعظمٌ جداً، فإذا جاءت مسألةٌ ورددتها لَأنَّ الحَدِيثَ يخالفُها، وجاءت مسألةٌ من المذهبِ ليس لها دليلٌ وقبِلتَها؛ لَأَنَّها قال بها الإمام أحمد يكون المنهجُ منخرماً، وتكون الحجةُ ضَعِيفةٌ، لكن إذا كان المنهجُ صحيحاً يُقاسُ عليه كلُّ إنسانٍ من الصَّحَابَة إلىٰ اليوم، بل من الصَّحَابَة أنفسِهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كما قال ابن عبَّاسٍ، فمنهجُه القُرآنُ والسنَّةُ، ولو خالفَه أبو بكرٍ وعمرَ. فإذا كان هذا المنهجُ يُتبع بهذه الصورة لكان مَنْهَجاً قوياً، لكن المنهجُ فيه ثغراتٍ أحياناً، ولهذا نضعفُ في مواجهةِ أصحابِ البدعِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا كان هذا كلام ابن عبَّاسٍ لمن عارضه بَابي بكر وعمر، وهما هما، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرَّسُول ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذي ينتسب إليه ويجعل قوله عياراً علىٰ الكِتَاب والسُّنَّة فما وافقه قبله وما خالفه رده أو تأوله؟ فالله المستعان.

وما أحسن ما قال بعض المتأخرين:

فإن جاءهم فيه الدليل موافقا	لما كان للآباء إليه ذهاب
رضوه وإلا قيل هذا مؤول	ويركب للتأويل فيه صعاب

ولا ريب أَنَّ هذا داخل في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] الآية.

قال المصنف: وقال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلىٰ رأي سفيان، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [النور:٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أَنَّ يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.



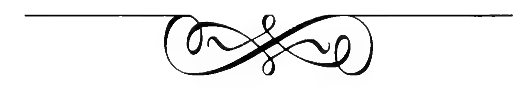
قوله: (فإذا كان هذا كلام ابن عبَّاسٍ لمن عارضه...) يقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا كان ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما يردُّ القولَ الذي قال به الخليفتان العظيمان؛ لأَنَّه خالفَ السُّنَّة في اجتهادِه، فكيف لو سمع أقوالَ الأتباع اليوم؟ لو قلت له: قال الرَّسُولُ ﷺ. يقول: إمَّامي قال بخلافه. والحديثُ؟ قال: الحَدِيثُ له تأويلٌ

أنت لا تعرفُه، إِمَّامي يعرفُه.أي: جَعَلَ الإمامَ مثلَ النَّبِيّ، وهذا فيه خطورةٌ عظيمةٌ.

قوله: (قال المصنف: وقال أحمد بن حنبل: **عجبت لقوم...**) يبدو ـ والله أعلم ـ أَنَّ سفيان رَحِمَهُ اللهُ قد قال قولاً اجتهاداً منه فخالفَ الحَدِيثَ، وأتباعه والمحبون له أخذوا بقوله مع علمِهم بأنَّ قولَه يخالفُ الحَدِيثَ، فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ قال هذا القول، أعجبُ من إنسانٍ مُحدِّثٍ يعرفُ الحَدِيثَ ويعرفُ صحةَ الحَدِيث، ومع ذلك يأخذُ بقول العالمِ وَإِن كان قولُه يخالفُ الحَدِيث، ثُمَّ قرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] أي: أمرُ النَّبِيّ ﷺ.

فإذا جاء الحَدِيثُ قلنا به، ولو خالفه من خالفَه، فيكون هذا هو المنهجُ، لكن فقط إِن صحَّ الحَدِيثَ؛ لَأنَّ هناك أحاديثَ كثيرةً في الفِقْه الإِسْلَامي لم تصح، فالمُتتبعُ للفقه الإِسْلَامي يرىٰ عشرات ومئاتِ الأَحَادِيثِ لم تصح، وقد بُنيت عليها أحكام، فهذه تُرد، ولا نُحملُ الأُمَّةُ أحكاماً لم تصح فيها الأدلة، هذا المنهجُ الصَّحِيحُ، إنَّما نتعبَّدُ اللهَ بالقرآن والسنَّةِ الصَّحِيحةِ، لكن ليس كلُّنا في مستوىٰ الاجتهاد، لكن أنت طالبُ علمٍ ولو كنت صغيراً في جزئية معينةٍ قد تُدرك أَنَّ هذه الجزئيةَ دليلُها صحيحٌ، ليس شرطاً أَن تكونَ مُجتهداً في كلِّ الأَحَادِيث، قد يبلُغك حديثٌ فتبحث عنه فتجده ليس منسوخاً ولا مُخصَّصاً، وقد صحَّ الحَدِيثُ وليس فيه مَطعَنٌ، وقولُ الإمامِ الذي أَتَّبعُه يخالفُ الحَدِيثَ فآخذُ بالحديثِ. من كان هذا مَنْهَجُه يشعرُ بلذةِ الإِيمَان؛ لَأنَّه يُعظِّم الحَدِيثَ، ولكن الذي يردُّ الحَدِيثَ يكون قلبُه قاسياً، يكون فيه جفاءٌ.

فليكن هذا مَنْهَجُنا، إنَّ صحَّ الحَدِيثُ قلنا به، ولو خالفَ المذهبَ؛ لأنَّ صاحبَ المذهبِ بشرٌ، وفي القبرِ ما يقال له: من إِمَامُك؟، يقول: من ربُّك؟ وما دينُّك؟ ومن نبيُّك؟ فأنت لست مطالبـًا بمذهبٍ إلا إذا كنت عاجزاً عن البحثِ عن الدليل، فلا بأس، أمَّا القادرُ علىٰ معرفةِ الدليلِ فهو مطالبٌ بأن يحرص علىٰ أَن يكون رائدَه الدليلُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا الكَلَام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب، قال الفضل عن أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرَّسُول في ثلاثة وثلاثين موضعـًا، ثُمَّ جَعَلَ يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] الآيَة وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة إلا الشرك، لعله إذا أراد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه وجعل يتلو هذه الآيَة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥].

وقال أبو طالب عن أحمد: وقيل له: أَنَّ قومـًا يدعون الحَدِيث ويذهبون إلىٰ رأي سفيان. فقال: أعجبت لقوم سمعوا الحَدِيث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلىٰ رأي سفيان وغيره، قال الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣] وتدري ما الفتنة؟ الكُفْر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧]، فيدعون الحَدِيث عن رَسُول الله ﷺ، وتغلبهم أهواؤهم إلىٰ الرأي، ذكر ذلك شيخ الإِسْلَام.

قلت: وكلام أحمد في ذمه التقليد وإنكار تأليف كتب الرأي كثير مشهور.

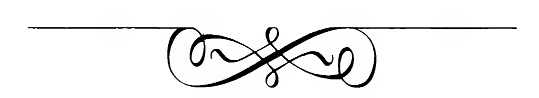


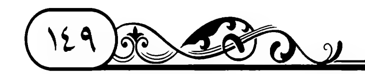
الشَّرْح

قوله: (لعله إذا أراد) هنا كلمة (أراد) خطأٌ، صوابُها (إذا ردَّ بعضَ قولِه).

قوله: (فقال: أعجبت) هنا كلمة (أعجبت) كذلك فيها الألف خطأٌ، وصحتها (عجبتُ لقومٍ).

قوله: (هذا الكَلَام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد...) كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ يكره التأليف إلا في الحَدِيث؛ لَأنَّ يقول: لو فُتح الباب للآراء لأثقل النَّاسَ بكثرةِ الكُتب. وقد رأينا في العصر الحاضر لما انفتح التأليف كيف أصبحت المكتبة الإِسْلَامية فيها مئات الآلاف من الكُتبِ، حتىٰ أصبح الإِنْسَان لا يدري ماذا يقرأ، والتأليف أصبحت فيه خطورةٌ؛ لَأنَّه يُضعفُ من علاقة الإِنْسَان ومن صلتِه بالقرآنِ والسُّنَّةِ، الآن كم نرىٰ في المكتبات الإِسْلَامية من كتب؟ مئات الآلف، ليست ألفًا ولا ألفين، كيف تقرؤها كلَّها؟ وكيف تستطيع أَن تجمعَ بينها وبين قراءة القُرآن والسُّنَّة؟ ما تستطيع.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

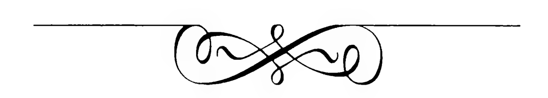
قوله: (عرفوا الإسناد) أي: إسناد الحَدِيث (وصحته) أي صحة الإسناد، وصحته دليل علىٰ صحة الحَدِيث.

قوله: (يذهبون إلىٰ رأي سفيان) أي: الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب ومذهب مشهور فانقطع.



الشَّرْح

العلماءُ القدماءُ من أتباع التابعين كان فيهم فقهاء، وكان لهم أتباع، لكن اندثرت هذه المذاهب.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومراد أحمد الإنكار علىٰ من يعرف إسناد الحَدِيث وصحته ثُمَّ بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة، إِمَّا بأن الأخذ بالحديث اجتهاد، والاجتهاد انقطع منذ زمان، أَمَّا بأن هذا الإمام الذي قلدته أعلم مني، فهو لا يقول إلا بعلم ولا يترك هذا الحَدِيث مثلاً إلا عن علم، وإِمَّا بأن ذلك اجتهاد، ويُشترط في المجتهد أَنَّ يكون عالمـًا بكتاب الله، عالمـًا بسنة رَسُول الله ﷺ، وناسخ ذلك ومنسوخه، وصحيح السُّنَّة وسقيمها، عالمـًا بوجوه الدلالات، عالمـًا بالعربية، والنحو والأصول، ونحو ذلك من الشروط التي لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، كما قاله المصنف.

فيُقال له: هذا أَنَّ صح فمرادهم بذلك المجتهد المطلق، إِمَّا أَنَّ يكون ذلك شرطـًا في جواز العَمَل بالكتاب والسنة فكذب علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ أئمة العُلَمَاء، بل الفرض والحتم علىٰ المُؤمِن إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلم معنىٰ ذلك في أي شيء كان أَنَّ يعمل به، ولو خالفه من خالفه، فبذلك أمرنا ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ونبينا ﷺ وأجمع علىٰ ذلك العُلَمَاء قاطبة، إلا جهال المقلدين وجفاتهم، ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم، كما حكىٰ الإجماع علىٰ أَنَّهُ م ليسوا من أهل العلم، منهم: أبو عمر بن عبدالبر وغيره، قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٥٤]، فشهد تعالىٰ لمن أطاع الرَّسُول ﷺ بالهداية، وعند جفاة المقلدين أَنَّ من أطاعه ﷺ ليس بمهتدٍ، إنما المهتدي من عصاه، وعدل عن أقواله ورغب عن سنته إلىٰ مذهب أو شيخ ونحو ذلك.

وقد وقع في هذا التقليد المحرم خلق كثير ممن يدعي العلم والمعرفة بالعلوم، ويصنف التصانيف في الحَدِيث والسنن، ثُمَّ بعد ذلك تجده جامداً علىٰ أحد هذه المذاهب، يرىٰ الخروج عنها من العظائم، وفي كلام أحمد إشارة إلىٰ أَنَّ التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، إنما المذموم المنكر الحرام الإقامة علىٰ ذلك بعد بلوغ الحجة، نعم وينكر الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإقبال علىٰ تعلم الكتب المصنفة في الفِقْه استغناء بها عن الكِتَاب والسُّنَّة، بل أَنَّ قرؤوا شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإنما يقرؤون تبركًا لا تعلّمًا وتفقّهًا، أو لكون بعض الموقفين وقف علىٰ من قرأ البُخَارِي مثلاً، فيقرؤونه لتحصيل الوظيفة، لا لتحصيل الشريعة، فهؤلاء من أحق النَّاس بدخولهم في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه: ٩٩-١٠١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤]، إلىٰ قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٧].

فإن قلت: فماذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة في المذاهب؟

قيل: يجوز من ذلك قراءتها علىٰ سبيل الاستعانة بها علىٰ فهم الكِتَاب والسُّنَّة، وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية، أَمَّا أن تكون هي المقدمة علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الحاكمة بين النَّاس فيما اختلفوا فيه، المدعو إلىٰ التَّحَاكُم إليها دون التَّحَاكُم إلىٰ الله والرسول ﷺ، فلا ريب أَنَّ ذلك مناف للإيمان مضاد له، كما قَالَ - تَعَالَىٰ-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥]، فإذا كان التَّحَاكُم عند المشاجرة إليها دون الله ورسوله، ثُمَّ إذا قضىٰ الله ورسوله أمراً وجدت الحرج في نفسك، وَأَنَّ قضىٰ أهل الكتاب بأمر لم

تجد حرجًا، ثُمَّ إذا قضىٰ الرَّسُول ﷺ بأمر لم تسلم له، وإذا قضوا بأمر سلمت له، فقد أقسم الله تعالىٰ سبحانه وهو أصدق القائلين بأجل مقسم به، وهو نفسه ﷻ، أنك لست بمؤمن والحالة هذه، وبعد ذلك فقد قال الله تعالىٰ: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة: ١٤-١٥].

علىٰ أَنَّ الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السُّنَّة، فكلام أحمد الذي ذكره المصنف كاف عن تكثير النقل عنه. وقال أبو حنيفة: إذا جاء الحَدِيث عن رَسُول الله ﷺ فعلىٰ الرأس والعين، وإذا جاء عن الصَّحَابَة فعلىٰ الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال. وفي روضة العُلَمَاء سُئل أبو حنيفة: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لكتاب الله. قيل: إذا كان قول الرَّسُول يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرَّسُول ﷺ. قيل: إذا كان قول الصَّحَابَة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصَّحَابَة. فلم يقل هذا الإمام ما يدعيه جفاة المقلدين له، أَنَّهُ لا يقول قولاً يخالف كتاب الله حتىٰ أنزلوه بمنزلة المعصوم الذي لا ينطق عن الهوىٰ.

وروىٰ البيهقي في السنن عن الشافعي أَنَّهُ قال: إذا قلت قولاً وكان عن النَّبِيّ ﷺ خلاف قولي فما يصح من حديث رَسُول الله ﷺ أولىٰ فلا تقلدوني. وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رَسُول الله ﷺ فقولوا بسنة رَسُول الله ﷺ، ودعوا ما قلت. وتواتر عنه أَنَّهُ قال: إذا صح الحَدِيث ـ أي بخلاف قولي ـ فاضربوا بقولي الحائط. وقال مالك: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رَسُول الله ﷺ.

وكلام الأئمة مثل هذا كثير فخالف المقلدون ذلك، وجمدوا علىٰ ما وجدوه في الكتب المذهبية، سواء كان صوابًا أم خطأ، مع أَنَّ كثيراً من هذه الأقوال المنسوبة إلىٰ الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوصًا عليها، وإنما هي

تفريعات ووجوه واحتمالات وقياس علىٰ أقوالهم، ولسنا نقول أَنَّ الأئمة علىٰ خطأ، بل هم أَنَّ شاء الله علىٰ هدىٰ من ربهم، وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإِيمَان بالرسول ﷺ ومتابعته، ولكن العصمة منتفية عن غير الرَّسُول، فهو الذي ما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ، فما العذر في إتباعهم وترك إتباع الذي لا ينطق عن الهوىٰ؟.

قوله: (لعله) أي لعل الإنْسَان الذي تصح عنده سنة رَسُول الله ﷺ.

قوله: (إذا رد بعض قوله) أي قول النَّبِيّ ﷺ.

قوله: (أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) هذا تنبيه علىٰ أَنَّ رد قول الرَّسُول ﷺ سَبَب لزيغ القَلْب الذي هو سَبَب الهلاك في الدُّنْيَا والآخرة، فإذا كانت إساءة الأدب معه في الخطاب سَبَبًا لحبوط الأعمال، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات:٢]، فما ظنك برد أحكامه وسنته لقول أحد من النَّاس كائنًا من كان.

قال شيخ الإِسْلَام: فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكُفْر و الشِّرك أو من العذاب الأليم، دل علىٰ أَنَّهُ قد يكون مفضيًا إلىٰ الكُفْر والعذاب الأليم، ومعلوم أَنَّ إفضاءه إلىٰ العذاب هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلىٰ الكُفْر إنما هو لما يقترن به من استخفاف بحق الآمر كما فعل إبليس لعنه الله، فإذا علمت أَنَّ المخالفة عن أمره ﷺ سَبَب للفتنة التي هي الشرك، والعذاب الأليم في الدُّنْيَا والآخرة، علمت أَنَّ من رد قوله وخالف أمره لقول أبي حنيفة أو مالك أو غيرهما لهم النَّصيب الكامل والحظ الوافر من هذه الآيَة، وهذا الوعيد علىٰ مخالفة أمره ﷺ. وقد استدل بهذه الآيَة كثير من العُلَمَاء علىٰ أَنَّ أصل الأمر للوجوب حتىٰ يقوم دليل علىٰ استحبابه.

قال: (عن عدي بن حاتم أَنَّهُ سمع النَّبِيّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] الآية، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلىٰ. قال: فتلك عبادتهم) رواه أحمد والترمذي وحسنه. هذا الحَدِيث قد روي من طرق فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في السنن، وفيه قصة اختصرها المصنف.

قوله: (عن عدي بن حاتم) أي الطائي المشهور، وهو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج بفتح المهملة وسكون المعجمة وآخره جيم، مات مشركًا، وعدي يُكنىٰ أبا طريف بفتح المهملة صحابي شهير حسن الإِسْلَام، مات سنة ثمان وستين وله مائة وعشرون سنة.

قوله: (فقلت: إنا لسنا نعبدهم) ظن عدي أَنَّ العِبَادَة المراد بها التقرب إليهم بأنواع العِبَادَة من السجود والذبح والنذر ونحو ذلك، فقال: (إنا لسنا نعبدهم).

قوله: (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه..) إلىٰ آخره، صرح ﷺ في هذا الحَدِيث بأن عبادة الأحبار والرهبان هي طاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، وهو طاعتهم في خلاف حكم الله ورسوله.

قال شيخ الإِسْلَام: وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وعكسه يكونون علىٰ وجهين: أحدهما: أَنَّهُ م يعلمون أَنَّهُم بدلوا دين الله فيتبعونهم علىٰ التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أَنَّهُ م خالفوا دين الرُسُل، فهذا كفر، وقد جَعَلَه الله ورسوله شِرْكًا وَإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون. الثاني: أَن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتًا لكنهم

أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المُسْلِم ما يفعله من المَعَاصِي التي يعتقد أنَّها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذُّنُوب، كما ثبت في الصَّحِيحين عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قال: (إنما الطَّاعَة في المعروف) ثُمَّ نقول: اتباع هذا المحلل للحرام، والمحرم للحلال إن كان مجتهداً قصده اتباع الرَّسُول ﷺ لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقىٰ الله ما ستطاع فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه علىٰ اجتهاده الذي أطاع به ربه، ولكن من علم أَنَّ هذا الخطأ فيما جاء به رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ اتبعه علىٰ خطئه وعدل عن قول الرَّسُول ﷺ فله نَصِيب من الشِّرك الذي ذمه الله، لاسيما أَنَّ اتبعه في ذلك لهواه، ونصره باللسان واليد، مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ، فهذا شِرْكٌ يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العُلَمَاء علىٰ أَنَّهُ إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه، وإمَّا أَنَّ كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق علىٰ التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ أَنَّ أخطأ كما في القبلة، وإمَّا إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ونصره بيده ولسانه من غير علم أَنَّ الحق معه فهذا من أهل الجَاهِلِيَّة، فإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وَإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً، كمن قال في القُرآن برأيه فإن أصاب فقد أخطأ، وَأَنَّ أخطأ فليتبوأ مقعده من النَّار. انتهىٰ ملخصاً.

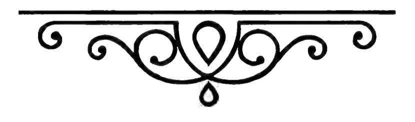
قال المصنف: وفيه تغير الأحوال إلىٰ هذه الغاية صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ولاسيما الولاية، وعبادة الأحبار: هي العلم والفقه، ثُمَّ تغيرت الحال إلىٰ أَنَّ عُبد من ليس من الصَّالِحين، وعُبد بالمعنىٰ الثاني من هو من الجاهلين.

قوله: (صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال) يشير إلىٰ ما يعتقده كثير من النَّاس فيمن ينتسب إلىٰ الولاية من الضر والنفع والعطاء والمنع، ويسمون ذلك الولاية والسر ونحو ذلك، وهو الشرك.

قولـه: (عبـادة الأحبـار هـي العلـم والفقـه)أي:هي التـي تسمىٰ اليـوم العلـم والفقه المُؤَلَّفُ علىٰ مذاهب الأئمة ونحوهم،فيطيعونهم في كل ما يطيعونك سواء وافق حكم الله أم خالفه، بل لا يعبؤون بما خالف ذلك من كتاب وسنة، بل يردون كلام الله وكلام رسوله لأقوال من قلدوه، ويصرحون بأنـه لا يحـل العَمَل بكتاب ولا سنة، وأنه لا يجوز تلقي العلم والهدىٰ منهما، وإنما العلم والفقه والهدىٰ عندهم هو ما وجدوه في هذه الكتب، بل أعظم من ذلك وأطم رمي كثير منهم كلام الله وكلام رسوله بأنه لا يفيد العلم ولا اليقين في بَاب معرفة أسماء الله وصفاته وتوحيده ويسمونها ظواهر لفظية، ويسمون ما وضعه الفَلَاسِفَة المُشْرِكُونَ القواطع العَقْلية، ثُمَّ يقدمونها في بَاب الأسماء والصفات والتوحيد علىٰ ما جاء من عند الله ثُمَّ يرمون من خرج عن عبادة الأحبار والرهبان إلىٰ طاعة رب العالمين وطاعة رسوله وتحكيم ما أنزل الله في موارد النزاع بالبدعة أو الكُفْر. وقوله: (ثم تغيرت الأحوال إلىٰ أَنَّ عُبد من ليس من الصَّالِحين) وذلك كاعتقادهم في كثير ممن ينتسب إلىٰ الولاية من الفساق والمجاذيب.

وقوله: (وعُبد بالمعنىٰ الثاني من هو من الجاهلين) وذلك كاعتقادهم العلم في أناس من جهلة المقلدين، فيحسنون لهم البدَع والشرك، فيطيعونهم ويظنون أَنَّهُم علماء مصلحون، ألا أَنَّهُم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.





(١)قام فضيلة الشيخ بشرح هذا الجزء من المتن في الكَلَام السابق.



باب: قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٦٠] الآيات

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما كان التَّوْحِيد الذي هو معنىٰ شهادة أَنَّ لا إله إلا الله مشتملاً علىٰ الإِيمَان بالرسول ﷺ مستلزمًا له، وذلك هو الشهادتان، ولهذا جَعَلهما النَّبِيّ ﷺ ركنًا واحداً في قوله: (بُني الإِسْلَام علىٰ خمس شهادة أَنَّ لا إله إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُول الله، وإقام الصَّلَاة، وإيتاء الزَّكَاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً) نبه في هذا الباب علىٰ ما تضمنه التَّوْحِيد واستلزمه من تحكيم الرَّسُول ﷺ في موارد النزاع، إذ هذا هو مقتضىٰ شهادة أَنَّ لا إله إلا الله، ولازمها الذي لا بُدَّ منه لكل مؤمن، فإن من عرف أَنَّ لا إله إلا الله فلابُدَّ من الانقياد لحكم الله، والتسليم لأمره الذي جاء من عنده علىٰ يد رسوله مُحَمَّد ﷺ، فمن شهد أَنَّ لا إله إلا الله، ثُمَّ عدل إلىٰ تحكيم غير الرَّسُول ﷺ في موارد النزاع فقد كذب في شهادته.

الشَّرح

هذا البابُ يأتي بعد بَاب من أطاع العُلَمَاء والأمراء في تحليل ما حرَّم الله، أو تحريم ما أحلَّ الله، وهذا الباب عنون له بقوله -تَعَالَىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء:٦٠]، المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أورد في هذا الباب أربعَ آياتٍ وحديثاً واحداً، وقولين في بيان سَبَب نزول هذه الآيَة التي هي أول الآيات، وهي عنوان الباب.

والآية الثانية: قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة:١١].

والآية الثالثة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

والآية الرابعة: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

والحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: (**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه لما جئت به**)[١]، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: حديثٌ صحيحٌ رُوِّيناه في كتابِ: (الحُجة)، فقوله: رُوِّيناه بمعنىٰ أنَّهُ مذكور في كتاب: (الحجة)، وهذا كتاب المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ في القرن الخامس - قبل النووي بمائتي سنة - بإسنادٍ صحيحٍ. هذا كلامه، وهذا مُتعقَّبٌ، فالحديثُ لم يصح.

وأمَّا الآثارُ: فالأثرُ الأولُ عن الشعبي، وهو تابعي قال: (اختصم رجلان في عهد رَسُولِ الله ﷺ أو وقعت خصومةٌ بين رجلٍ من اليهودِ، ورجلٍ من

(١) أورده البغوي في شرح السُّنَّة (١/ ٢١٣)، والنووي في الأربعين، الحَدِيث الحادي والأربعين (١/ ١٠٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

المُنافِقين، فقال اليهودي:" نتحاكم إلىٰ مُحَمّدٍ "؛ لَأنَّه عرف أنَّهُ لا يأخذُ الرِّشوَة،وقال المُنافِقُ: "نتحاكمُ إلىٰ اليهودِ"؛ لَأنَّه علم أنَّهُم يأخذون الرِّشوةَ، ثم اتفقا علىٰ أن يتحاكما إلىٰ كاهنٍ من جهينة فنزلت هذه الآيَةُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:٦٠]، إلىٰ آخره[١].

وقيل: إنَّ رجلين اختصما فقال أحدهما: نتحاكمُ إلىٰ رَسُول الله ﷺ. وقال الآخرُ: نتحاكم إلىٰ كعب بن الأشرف. ثُمَّ تحاكما إلىٰ عمرَ فأخبراه بما قالا، ثُمَّ إنَّ عمرَ غضبَ علىٰ الذي قال: نتحاكمُ إلىٰ كعبِ بن الأشرف، فقال: انتظرا. فدخل البيت، وأتىٰ بالسيف فقتل ذلك الرجل[٢]. وهذه قصة موضوعةٌ لا تصح، وحديث الشعبي مُرسَلٌ ضَعِيفٌ.

والآية معناها واضحٌ، إذا جاءت الآثار لتدعم آية أو حديثاً صحيحاً وهي ضَعِيفَةٌ فلا نحتاجُ إليها؛ لَأنَّ الآيَة واضحةُ الدَّلالةِ.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [النساء:٦٠]، يُعجِّبُ رَسُول الله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:٦٠] يزعمون وليسوا مؤمنين، وإلا فإن الإنْسَان لو آمن برسولِ الله ﷺ لعرفَ أَنَّ الحكمَ الذي يحكمُ به الرَّسُولُ هو الحقُّ، وأنه لا يجوز له أَنَّ يتحاكَم إلىٰ غيره في حياته، فإنَّ الله قد أنزل كتاباً فيه الحلالُ والحرامُ، نتحاكم إلىٰ هذا الكتابِ، ورسولِ الله عليه الصلاة والسلام المُبَيِّنِ لهذا الكتاب، فالمؤمنُ لا يتحاكمُ إلىٰ غير اللهِ ورسولِه، من تحَاكَم إلىٰ غيرِ الله ورسولِه فليس مُؤمناً، والآية تنصُّ علىٰ هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم في تَفسِيره بتغير يسير، برقم: (٥٥٩٢)، (٤/ ٢٢٩)، والطبري في تَفسِيره، برقم: (٩٨٩١)، (٨/ ٥٠٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تَفسِيره، برقم: (٥٥٩٧)، (٤/ ٢٣٣)، والطبري في تَفسِيره بدون ذكر قتل المُنافِق، برقم: (٩٩٠٠)، (٨/ ٥١٢).

﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء:٦٠] آمنوا أي: صدَّقوا وقبِلوا وانقادوا وأقروا ﴿يُرِيدُونَ﴾ [النساء:٦٠] قال العُلَمَاء: هنا اللفظ دقيقُ الدَّلالةِ، الذي يريد وَإن لم يتحاكم ليس مُسلماً أصلاً؛ لأنَّ من يقع في قلبه أَن يتجه إلىٰ غير الإِسْلَام ليحكمَ فيه فهو مُنافقٌ، فما بالك بالذي يتحاكمُ؟

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٦٠] والحكمُ في الدُّنْيَا حكمان: حكم الله ورسوله، أو حكمُ الطَّاغُوت، ليس هناك حكمٌ ثالث، إِمَّا أَن يحكمَ الإِسْلَامُ، وإمَّا أَن يحكمَ الطَّاغُوتُ، كما قَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فهناك دائرتان اثنتان في حَيَاة النَّاس، دائرة الطَّاغُوتِ، ودائرةُ الإِيمَانِ، والله ﷻ قد أنزل إلينا تشريعاً كاملاً في جميع جوانبِ حياتنا، في عقيدتِنا وفي عبادتِنا، وفي اجتماعِنا وفي اقتصادِنا، وفي سياستِنا، لا نحتاجُ معه إلىٰ تشريعٍ آخر، وهنا الله ﷻ يفضحُ المُنافِقين، علامةُ النفاق إرادةُ التَّحَاكُم إلىٰ غيرِ الله ورسولِه ﷺ، والذي يتحاكَم يكون مُنافِقاً كامِلاً، بل كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤].

هذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء:٦٠] جاءت بعد آيتين: الأولىٰ: تتحدث عن واجبِ الإمامِ المُسْلِم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، هذه وظيفة الحاكم.

ثم بعدها جاءت وظيفةُ المحكُومِين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] أَنَّ وقع نزاع ماذا نعمل؟ ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [النساء:٥٩]، فهاتان الآيتان تُحدِّثنا عن الحاكِم والمحكومِ، كلاهما يجبُ عليه أَن يرجعَ إلىٰ دين الله.

ثم قَالَ - تَعَالَى -: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [النساء:٦٠] وقال - تَعَالَى - بعد هذه الآيَة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء:٦١]. فمن دُعي إلىٰ أَن يتحاكم إلىٰ ما أنزل ربُّنا وخالقُنا ﷻ من تشريعِهِ الذي لا يلحقُه النقصُ، ثُمَّ يُعرِضُ ويَصُدُّ عنه فإنه ليس مُؤمنًا مهما تأولنا له من التأويلاتِ، المُؤمِنُ يحبُّ تشريعَ الله ويرضَىٰ به.

ثم جاء التعقيبُ في آخرِ الآيات: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ [النساء:٦٥]، اللهُ يُقسِمُ بذاتِه الكَريمةِ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥]، ليس في قلوبهم ضيقٌ ولا حرجٌ من حكمك، ليس فقط التسليمُ الظاهري، بل لابد أَن يرضىٰ القَلْبُ؛ لَأنَّ القَلْبَ المُؤمِنَ يُحبُّ الله ورسولَه، ويثقُ في الله ورسولِه، ويرضىٰ بحكمِ الله ورسوله، فهذا الباب يُبينُ حقَّ نبيِّنا ﷺ، فالبابُ الماضي كان لبيانِ حقوقِ الله، وهذا الباب بيانٌ لحقِّ رَسُولِ الله ﷺ، فينبغي أَن نتحاكَم إلىٰ سُنَّتِهِ.

والمُصَنِّف - رَحِمَهُ اللهُ - أراد عقدَ هذا البابِ ليُبينَ لفئتين من النَّاسِ:

الفئةُ الأولىٰ: التي تتحاكم في دنياها إلىٰ غيرِ الله ورسوله.

والفئةُ الثانية: التي تتحاكم في دينها إلىٰ غير الله ورسولِه.

والمسلمُ لا يتحاكمُ ولا يبحثُ عن الأحكام إلا في شريعة الله، الذي خلقَه وأوجدَه وخلق الكونَ وخلقَ السماوات وهو أعلمُ بالنفسِ البَشَريَّةِ، هو الذي يُشرِّعُ، فإذا شَرَّع المَخْلُوقُ فإنه يُشَرِّعُ لحساب نفسِه، إنَّ شَرَّعَ الأغنياءُ شَرَّعُوا لَأنفسهم، وَإن شرَّعَ الفقراء شَرَّعُوا لَأنفسهم، وَإن شرَّع الرجالُ شرعوا لَأنفسهم، وَإن شرَّعت النِّساءُ شرعنَ لَأنفسِهنَّ لكن إذا جاء التشريع من خالقِ الرجال والنِّساء ﷻ، فالتشريع يكون عادلاً، وفي البلدانِ الغربية المُشرِّعُون هم الأغنياء أصحابُ رؤوسِ الأموال، فشرَّعوا حتىٰ جعَلوا التشريع يقسِّم

النَّاس إلىٰ طبقتين: طبقةٍ فقيرةٍ طول الحَيَاةِ، وطبقةٍ غنيةٍ طُول الحَيَاةِ؛ لَأنَّ التشريع يجعلُونه في جانبِ الأغنياءِ الأثرياء، وجعلوا الرِّبا أساسًا في حياتهم، والرِّبَا يجعلُ النَّاس طائفتين طول الحَيَاة: طائفةٍ ثريةٍ وطائفةٍ فقيرةٍ. جاء المعسكرُ الشِّيوعِي وشرَّع تشريعًا، فجعلوا النَّاس كلَّهم فقراءُ، ما فيه إلا طبقةٌ واحدةٌ ما عدا الحزبُ الحاكمُ.

أما تشريع الله فلا، فليس للرجال وليس للنساءِ، وليس للفقراءِ وليس للأغنياء، بل هو تشريع عادلٌ، وهذا تشريع الله ﷻ. فهذا الباب عقده المصنف رحمه الله ليُبين أنَّهُ لا يستقيمُ إيمانُ الإنْسَان وتَحَاكُمُه إلىٰ غيرِ اللهِ ورسولِه.

ثم الآيَةُ الثانيةُ وهي قوله - تَعَالىٰ -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة:١١] أي: للمنافقين ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة:١١]، عجبًا!، إنسان لا يعرفُ الصلاحَ في نفسه، فكيف يكون مُصلِحًا؟ ما قالوا: نحن صالِحون، بل نحن مُصلِحون، ليس فقط أناسٌ صالِحون، وهذه دعوةٌ غريبةٌ، إنسانٌ مُنافقٌ لا يلتزم بالدِّين، لا يحبُّ الله ورسولَه، ولا يُؤمنُ بدين الله ﷻ، ثُمَّ يزعم أنَّهُ مصلح، هذا يُوجَدُ في كلِّ عصرٍ، والله يذكر هذه النماذجَ حتىٰ لا نُفاجأ بوجودِ هذه النَّمَاذجِ في المُجْتَمَع الإِسْلَامي.

والآيةُ الثالثةُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، إنَّ الله قد أصلحَ الأرض بإنزال الشريعة الإِسْلَامية، هذا هو الصلاحُ، فالذي يخالفها يكون قد أحدث الفساد، إمَّا في نفسِه، وإمَّا في غيره.

ثم قَالَ - تَعَالَى -: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآيَة: أَنَّ الذي يتحاكم إلىٰ غير القُرآن والسُّنَّةِ كافرٌ، وسيأتي نَصُّه، وضرب مثالاً لما كان في عهدِ التَّتَرَ، فإنَّ جنكيز خان

عمِل نظامـًا سمَّاه (الياسِقَ) هذا النظامُ خليطٌ من الإِسْلَامِ والوثنيةِ والنَّصرانيةِ واليهودية وكلِّ الديانات، وهولاكو من أولاد جنكيز خان أو من أحفادِه، وأسلمَ الذين كانوا بعدَ هولاكو، التترُ بعدما دخلوا بلادَ المُسْلِمينَ بخمسين عامـًا أصبحوا كلُّهم مُسلمين، وقد كانوا أمةً همجيةً وثنية لا تعرفُ الإِسْلَام، فدخلت إلىٰ بلاد المُسْلِمينَ فرأت الإِسْلَام وعرفوا أَنَّ هذا الحقُّ، لكنَّ إسلامَهم كان صوريـًا، أو بقوا علىٰ ظلمِهم وعلىٰ أخذ أموالِ النَّاس، وعلىٰ هتكِ أعراض النَّاس، لكنهم في الظاهر مُسْلِمُون دخلوا في الإِسْلَام، وبقي بعضُهم يحكمُ بهذا الياسقِ، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من حكم بهذا الياسقِ أو رضيَ بحكمِه أو تحاكمَ إليه فإنه كافرٌ.

فالأمةُ الإِسْلَاميةُ عندها نظامُها، كتابُ ربِّها عَزَّ وَجَلَّ وسُنَّةُ رسولِها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا نحتاج إلىٰ تشريعٍ من خارج الإِسْلَام، الإِسْلَامُ عقيدةٌ وشريعةٌ، فهذا هو اعتقادُ المُسْلِمِ يعتقد أَنَّ دينَه فيه عقيدةٌ لا تحتاج إلىٰ عقائدَ أخرىٰ، وفيه تشريعٌ لا يحتاج إلىٰ تشريعٍ آخر، هذا هو اعتقاد المُسْلِم، ديننا عقيدةٌ وشريعةٌ لا نحتاج معه إلىٰ أَن نستوردض عقائدَ أو شرائعَ من خارجِ المُجْتَمَعِ المُسْلِم.

أَمَّا الأثران: فالأثرُ الأول عن الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سَبَب نزول الآيَة، فإن الحَدِيث منقطع عن الشَّعبي؛ لَأنَّ الشعبي من التابِعين كما قلنا.

والأثر الثاني الذي فيه سَبَب نزول آخر الآيَة، قال العُلَمَاء: أَنَّهُ إِمَّا موضوع وإمَّا ضَعِيفٌ جداً.

فكلا السَّبَبين في بيان نزول الآيَة لا يصحُّ، والآيةُ واضحةُ الدَّلالة لا تحتاج إلىٰ أَن نبحث عن آثار لا تصحُّ لبيان سَبَب نزولها؛ لَأنَّ العبرةَ بعمومِ اللفظ لا بخصوص السَّبَب، والأحكامُ الشَّرْعِيةُ مبنيةٌ علىٰ عموم اللفظ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

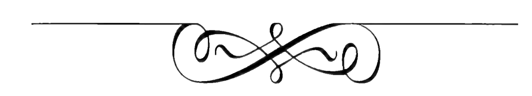
وإن شئت قلت: لما كان التَّوْحِيد مبنياً على الشهادتين، إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى لتلازمهما، وكان ما تقدم من هذا الكتاب في معنى شهادة أَنَّ لا إله إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده، نبه في هذا الباب على معنى شهادة أَنَّ مُحَمَّداً رَسُول الله، التي تتضمن حق الرَّسُول ﷺ، فإنها تتضمن أَنَّهُ عبد لا يُعبد، ورسول صادق لا يُكذب، بل يُطاع ويتبع؛ لأَنَّه المبلغ عن الله تعالى، فله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منصب الرسالة والتبليغ عن الله والحكم بين النَّاس فيما اختلفوا فيه، إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله، ومحبته على النَّفْسُ والأهل والمال والوطن، وليس له من الإلهية شيء، بل هو عبد الله ورسوله، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن:١٩].

الشَّرح

يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى حق رَسُول الله ﷺ على الأُمَّة، والرسولُ ﷺ قد بَلغَ أعلى درجاتِ الكمالِ، والله قد فضلَه تفضيلاً عظيماً، وقد فوَّض إليه التشريعُ، ولهذا قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر:٧]، وهذه دَرَجَةٌ عاليةٌ لا يصل إليها إلا أفرادُ من البَشَر، وهم المُصطفَون الأخيارُ، الله يُفوِّض إليه لكمالِه، ولأنه قد بلغ دَرَجَةً عاليةً في الترفُّع عن أهوائِه وشهواتِه، لم يكن له هوى، ولا شهوةٌ، ولا رغبةٌ إلا في دين الله، فإنَّه لا ينطقُ عن الهوى، وهذه دَرَجَةٌ عاليةٌ جداً، تُسمى في الماضي في نظام النَّاس: وزارةُ التفويض، أي: الحاكمُ يُفوِّضُ إلى شخصٍ يَثقُ فيه إدارةَ الدولةِ، وهذا تفويضٌ لا يعطيه كلَّ

إنسان، ولله المثل الأعلىٰ، وهذا التشريفُ والتكريم من ربنا ﷻ لرسوله ﷺ في أكثر من آية: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ [النساء:٦٥]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر:٧].

ولهذا المُتصُوِّفِة عندما رأوا هذه الآياتِ والتكريمِ اعتقدوا فيه أَنَّ لـه مكانـةً أعلىٰ من مكانةِ البَشَر، وهذا خطأٌ، فهو لا زال في دائرةِ البَشَريَّة، وهو عبدُ الله ورسولُه، وَإن كان الله ﷻ قد فَوَّض إليه، لكنَّ التفويضَ ليس في إدارةِ الكونِ، بل هو تفويضٌ في التشريع، لكن الذين ظنُّوا أَنَّ اللهَ فوَّضَ إليه إدارةَ الكونِ وأنَّه يُستغاث به ويُدعَىٰ من دون الله، ويُعبَد من دون الله، هؤلاء قد انحرفوا عن جادَّةِ الحقِّ، فالله فوضَ إليه التشريعَ، ما فَوَّض إليه التصريفَ، تصريفُ الكونِ بيدِ الله، أمَّا التشريعُ فقد فوَّضَه الله إليه؛ لَأنَّ الله هو الذي يُوحِي إليه، ويوفِقُه ويدُلُّه علىٰ مواطنِ الحقِّ ويصحِّحُه إذا أخطأ ولا يُقرُّه علىٰ الخطأ. فهذا التفويضُ تفويضٌ خاصٌّ، ليس تفويضاً في كلِّ ما يتعلق بالكون.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ﷺ: (إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله)، ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التَّحَاكُم إلىٰ غيره كالمنافقين الذي يدّعون الإيمَان به، ويتحاكمون إلىٰ غيره، وبهذا يتحقق العبد بكمال التَّوْحِيد وكمال المتابعة، وذلك هو كمال سعادته، وهو معنىٰ الشهادتين.

إذا تبين هذا فمعنىٰ الآيَة المترجم لها أَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنكر علىٰ من يدعي الإيمَان بما أنزل الله علىٰ رسوله وعلىٰ الأنبِيَاء قبله، وهو مع ذلك يريد أَنَّ يتحاكم في فصل الخصومات إلىٰ غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر المصنف في سَبَب نزولها. قال ابن القَيِّم: والطاغوت كل من تعدىٰ به حده من الطغيان وهو مجاوزة الحد.



الشَّرح

قوله: (وقال ﷺ: إنما أنا عبد، فقولوا...) هنا يقول: كمالُ الإخلاصِ والمتابعة أَن تحُقِّقَ شهادةَ أَنَّ لا إله إلا الله، أي: تبتغي بعملِك وجهَ الله، هذا هو الإخلاصُ، وَأَن تُحققَ المُتابعةَ، أي: تَتَّبعُ طريقَ الرَّسُولِ ﷺ، وهذا هو توحيدُ المُتابِعةِ، بعضُ المصنفين جَعَلَ التَّوْحِيدَ أربعةَ أقسام:

(١) توحيد الرُّبُوبِيَّة.

(٢) وتوحيد الإلُوهية.

(٣) وتوحيد الأسماء والصفات. هذه حق الله.

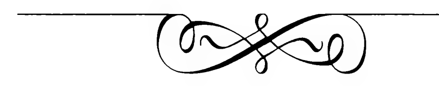
(٤) وتوحيدُ المُتابعةِ لنبينا ﷺ.

ولا نحتاج إلىٰ هذا التقسيم؛ لَأنَّ الدِّين أصلاً يقوم علىٰ الشهادتين، شهادةِ أَنَّ لا إله إلا الله، أي لا تعبدُ إلا الله، وشهادةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ﷺ أي: لا تعبدُ اللهَ إلا علىٰ طريقةِ مُحَمَّد ﷺ. هذا معنىٰ الشهادتين، فمن شهد بهما شهادةً حقيقيةً فإنَّه لا يجوزُ له أَن يتحاكمَ إلىٰ غيره ﷺ.

قوله: (إذا تبين هذا فمعنىٰ الآيَة المترجم...) ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ له تَفسِيرات للطاغوتِ في أكثرَ من موطنٍ، فمن أجمل ومن أشملِ ما قال في تَفسِير الطَّاغُوتِ: هو كلُّ ما تجاوز به العبدُ حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاع. فالذي يتجاوزُ حدَّه البَشَري فيعتدي علىٰ حقِّ الخالقِ طاغوتٌ، بأن يتعدىٰ فيدَّعي أَنَّهُ يُشاركُ الله في الخلقِ، أو يشاركُ الله في الضرِّ والنفعِ، أو يشارك الله في التحليلِ والتحريمِ، كما قَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ:٢١]، فالذي يُشرِّع فإنه قد شارك الله في خصائصه، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ﴾ [يوسف:٦٧]، الحكمُ والتشريعُ خاصٌ بالخالِق، فالذي ينازع الله في التشريع والحكمِ قد جَعَلَ نفسه إلهـاً، ويكون بهذه المنازعةِ كافِراً، ويخرج من ملة الإِسْلَام؛ لَأنَّ التشريعَ خاصٌ بالله ﷻ، الحلالُ ما أحلَّه الله، والحرامُ ما حرَّمه الله، والناسُ موقفهم تنفيذُ شرعِ الله.

ليس في الأُمَّة الإِسْلَامية طبقتان: طبقة تُشرِّعُ، وطبقةٌ تُنفِّذُ، في الدول الغربية مجالسُ تشريعيةٍ، مجالسُ تُشرِّعث، وهذا في دينهم جائزٌ؛ لَأنَّهم ليسوا مُسلمين، أمَّا نحن المُسْلِمينَ فليس عندنا مجالسُ تشريعيةٍ، كلنا مَجالسُ تنفيذيةٍ، قد يقول قائل: والأنظمةُ التي يحتاجُها النَّاس مثل نظامُ المرور ونظامُ البلدياتِ مثلاً؟ نقول: هذه ليست تشريعات، هذه تُسمىٰ في الشَّرع إجراءات،

إجراءات التنفيذِ أو إجراءاتُ تحقيقِ العدالة، أي: شيءٌ إجرائيٌ، لكـن لا يُوَجَـدُ نظامٌ يُعطِي للإنسان حقـًا ليس في دين الله، أو يمنعه حقـًا في ديـن الله، هـذا فقـط الإجراء في تنظيمِ حَيَاة النَّاس، في طريقةِ التنفيذ،أي: وضعُ لوائحَ للتنفيذِ ولـيس في ذلك إشكالٌ، فالعدلُ مثلاً كلمةٌ عامةٌ، والعدلُ موكـولٌ إلىٰ النَّـاس، فيتحقـق بأن يعملوا في كل عصرٍ بحسب ما يحتاجون إليه، ومـا يتحقـقُ بـه العـدلُ الـذي شرعه الله – تعالىٰ، والظلم حرام، فأيُّ تنظيمٍ يؤدي إلىٰ ظلمِ النَّاس حرامٌ، وأيُّ نظامٍ يـؤدي إلـىٰ إقامـة العـدلِ حـلالٌ، ولهـذا قـال ابـن القَّيِّم رَحِمَهُ الله: حيثمـا كـان العدلُ فَثَمَّ شرعُ الله.

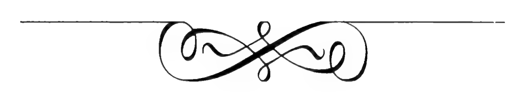


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو طاغوت،إذ قد تعدىٰ به حده،ومن هذا كل من عبد شيئًا دون الله فإنما عبد الطَّاغُوت وجاوز بمعبوده حده، فأعطاه العِبَادَة التي لا تنبغي له، كما أَنَّ من دعا إلىٰ تحكيم غير الله تعالىٰ ورسوله ﷺ فقد دعا إلىٰ تحكيم الطَّاغُوت.



يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّ من دعا إلىٰ تحكيم غير الله فقد دعا إلىٰ تحكيم الطَّاغُوت، وقلنا: أَنَّ الحلال والحرام من خصائصِ الخالق ليس من خصائص المَخْلُوق، لا يجوز للمخلوق أَن يقول: هذا حرامٌ، وهذا حلالٌ، أَمَّا المَخْلُوقُ فإن بحث في الشَّرع فاستنبطَ هذا الحكمَ فلا بأس، إذا كان مصدرُه شرعُ الله، أَمَّا إذا كان مصدرُه هواه وشهواته فهذا قد جَعَلَ من نفسه مشرعًا، والمسلمون لا يُشرِّعُ لهم إلا دينُهم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتأمل تصديره سبحانه الآيَة منكراً لهذا التحكيم علىٰ من زعم أَنَّهُ قد آمن بما أنزله الله علىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ من قبله، ثُمَّ هو مع ذلك يدعو إلىٰ تحكيم غير الله ورسوله ﷺ، ويتحاكم إليه عند النزاع، ومن ضمن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ ﴾ [النساء:٦٠] نفي لما زعموه من الإِيمَان، ولهذا لم يقل: ألم تر إلىٰ الذين آمنوا، فإنهم لو كانوا من أهل الإِيمَان حقيقة لم يريدوا أَنَّ يتحاكموا إلىٰ غير الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، ولم يقل فيهم: (يَزْعُمُونَ)، فإن هذا إنما يُقال غالبًا لمن ادعىٰ دعوىٰ هو فيها كاذب، أو مُنزل منزلة الكاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها. قال ابن كثير: والآية ذامة لمن عدل عن الكِتَاب والسُّنَّة وتحاكم إلىٰ ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هاهنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء:٦٠] أي: بالطاغوت، وهو دليل علىٰ أَنَّ التَّحَاكُم إلىٰ الطَّاغُوت منافٍ للإيمان، مضاد له، فلا يصح الإِيمَان إلا بالكفر به وترك التَّحَاكُم إليه، فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [النساء:٦٠].

أي: لأَنَّ إرادة التَّحَاكُم إلىٰ غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من طاعة الشَّيطَان، وهو إنما يدعو أحزابه ليكونوا من أصحاب السعير، وفي الآيَة دليل علىٰ أَنَّ ترك التَّحَاكُم إلىٰ الطَّاغُوت الذي هو ما سوىٰ الكِتَاب والسُّنَّة من الفرائض، وَأَنَّ المتحاكم إليه غير مؤمن، بل ولا مسلم.

الشَّرح

الآية ذكرت فعل المُنافِقين، وعقبت عليه بأن هذا من الشَّيطَان، فهذا تحذير للإنسان من الشياطين؛ لَأنَّ الإنْسَان ربما يظن أَنَّهُ يفعلُ من نفسه، والشَّيطانُ يشاركُ الإنْسَان في وساوسِه وخواطرِه؛ لَأنَّ الله ما قال: يريدون، إنَّما قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ [النساء:٦٠]، فهذا من الشَّيطَان، وسوسَ لهم أَنَّ مصلحتهم ليس في حكمِ الله ورسولِه، بل مصلحتُهم في الحكمِ بالطاغوتِ.

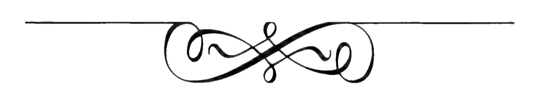
بعض النَّاس يظن أَنَّهُ إذا تحاكم إلىٰ القاضي أو إلىٰ الشَّرع أَنَّهُ سيُظلمُ، وهذا من وساوس الشَّيطَان، وقد يسأل إنسان: هل القاضي مثلاً في الشريعة الإِسْلَامية لا يُخطِئُ؟ نقول: يُخطِئ، لكن هو يجتهدُ في تحقيقِ وتطبيقِ شرعِ الله، ليس بهواه، بل بالاجتهادِ الشَرْعِي، وقد يَظلمُ وقد يُجحِفُ وقد يُخطئُ، لكنه يبحثُ عن تطبيقِ الشَّرع، فإن المُسْلِم ينبغي له أَنَّ يتحاكَم إلىٰ الشَّرع.

ومن نافلة القول أَنَّ هناك فَرقـًا بين البَشَر المُطبِّقِ للشرعِ، وبين الشَّرعِ نفسه، ولايعني هذا أَنَّ كل القضاة أمناءُ في تطبيقِ الشَّرع، القضاةُ بشرٌ، وفيهم من يظلمُ، وفيهم من يأخذُ الرِّشوة، وفيهم من له مصالحُ، ولا يخلو عصْر من ذكر قَضَايَا وحوادث من هذا القبيل، وهذا وزرُه علىٰ القاضي، لكن غالبَ القُضاةِ في المُسْلِمينَ -ولله الحمد- علىٰ الحقِّ إن شاء الله تعالىٰ، وغالبهم مستقيمون، فالظلم قد يحدث من البشر حتىٰ في القوانين الوضعيةِ، القاضي قد يُخطئ.

ونرىٰ في الغرب أَنَّ القاضيَ معظمٌ تعظيمـًا عجيبـًا، أكثر من تعظيمِ رئيسِ الدَّولة، حتىٰ أَنَّهم يقولون: أَنَّ القاضي لا يُعطىٰ مرتبـًا معينـًا، يُعطىٰ شيكـًا مفتوحـًا، حتىٰ لا يمدُّ يدَه، لكنه لا يأخذ شيئـًا زائدًا؛ لَأنَّ المُجْتَمَع يراقبه،

فلو أخذ شيئاً زائداً عن طريق أي بنكٍ أو غيره زائدٍ عن حاجته يُشنَّع عليه، فهناك الرقابةُ، كلُّ إنسان من أفراد المُجْتَمَع مُراقبٌ، ما يستطيع أَنَّ يخرج عن النظام، والقضاةُ لهم مكانتهم يحكمُون حتىٰ علىٰ رؤساء الدولِ، يستدعونَهم لمحاكمتهم، وهذا في بلادِ الكُفَّار؛ لَأنَّ القضاء إن لم يكن نزيهاً محترماً مقدراً فإنه قد لا يُعطي الحقوق، ففي الشَّرع - ولله الحمد - القاضي إنسانٌ مُنزهٌ مُؤتمنٌ، فينبغي له أَنَّ يتقي الله، وَأَن يكون علىٰ مستوىٰ الأمانةِ؛ لَأنه كما قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه العظيم الذي سماه (إعلامُ الموقعين عن رب العالمين): القاضي والمُفتي يوقعُ عن الله، يقول هذا حكمُ الله، وهذا توقيعِي عن الله، فقال:" اتق اللَه في توقيعِك، لا تقل هذا حلالٌ أو حرامٌ إلا وعندك الدليلُ، ولا تقضِ بين النَّاس فتعطي هذا وتمنعُ هذا إلا وعندك الدليلُ؛ لَأنَّك أنت الآن تنوب عن الله في الحكم بين النَّاس ". فقال: "إعلامُ المُوقِّعِينَ عن ربِّ العَالمِينَ: يُعلِمَهم واجباتِهم عن طُرق بيانِ الحقِ، والحكم بين النَّاس "، فالقاضي إنسانٌ مؤتمنٌ علىٰ تطبيقِ شرعِ الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (أي: لَأنَّ إرادة التَّحَاكُم إلىٰ غير كتاب الله...)أي: أَنَّ الشَّخْص الذي يُنصِّبُ نفسه حاكماً بغير الكِتَاب والسُّنَّة هذا ليس مؤمناً، ولا مسلماً؛ لَأنَّه جَعَلَ من نفسه مشرعاً، والذي يدعَّي حق التشريع ليس مسلماً، هذا مراده رَحِمَهُ اللَّهُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

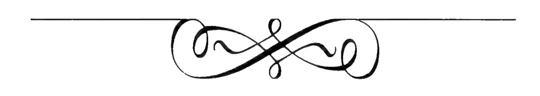
وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء:٦١]. أي: إذا دُعوا إلىٰ التَّحَاكُم إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرَّسُول أعرضوا إعراضًا مستكبرين، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النور:٤٨]. قال ابن القَيِّم: هذا دليل علىٰ أَنَّ من دُعي إلىٰ تحكيم الكِتَاب والسُّنَّة فلم يقبل وأبىٰ ذلك أَنَّهُ من المُنافِقين.

و(يَصُدُّونَ) هنا لازم لا متعد، هو بمعنىٰ يعرضون، لا بمعنىٰ يمنعون غيرهم، ولهذا أتىٰ مصدره علىٰ صدود، ومصدر التعدي صداً.



الشَّرح

قوله: (وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ ﴾ [النساء:٦١]) يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ كلمة (صَدَّ) تأتي في اللُّغَة بمعنيين: صَدَّ:أعرضَ، وصدَّ: منعَ، وصَدَّ فعلٌ لازمٌ أي أعرضَ، وصَّد بمعنىٰ منعَ غيره؛ ولهذا قال: كيف يُعرف المراد بالكلمةِ أو بالفعل؟ تعادُ إلىٰ مصدرها، فصد صدوداً أي: أعرض، وصدَّ صداً أي: منعَ غيره من أَن يأتي إلىٰ النَّبِيّ ﷺ، الآيَة بمعنىٰ الصدودِ الذي هو الإعراض، ليس بمعنىٰ أَنَّهُم صدوا غيرَهم عن الإِيمَان،هم إذا دُعوا صدوا أي أعرضوا عن قبول الدعوةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا كان المعرض عن ذلك قد حكم الله سبحانه بنفاقهم، فكيف بمن ازداد إلىٰ إعراضه منع النَّاس من تحكيم الكِتَاب والسُّنَّة والتحاكم إليهما، بقوله وعمله وتصانيفه، ثُمَّ يزعم مع ذلك أَنَّهُ إنما أراد الإحسان والتوفيق. الإحسان في فعله ذلك والتوفيق بين الطَّاغُوت الذي حكمه وبين الكِتَاب والسُّنَّة.

قلت: وهذا حال كثير ممن يدعي العلم والإيمان في هذه الأزمان، إذا قيل لهم تعالوا نتحاكم إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرَّسُول رأيتهم يصدون وهم مستكبرون ويعتذرون أَنَّهُم لا يعرفون ذلك، ولا يعقلون، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون.

الشَّـرْح

قوله: (فإذا كان المعرض عن ذلك قد حكم الله...) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصُدودُ الإعراض عن التَّحَاكُم إلىٰ الله ورسولِه، هذا نفاق، والذي يُعرِضُ هو نفسُه ويمنعُ غيرَه من التَّحَاكُم إلىٰ الله ورسوله فلا شك أَنَّ هذا أشدُّ نفاقًا وأعظمُ جرمًا من سابقه. ففرقٌ بين إنسان يعرِض هو بنفِسه، وبين إنسان يُعرِضُ ويمنعُ غيرَه من تطبيقِ شرعِ الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: (قلت: وهذا حال كثير ممن يدعي العلم...) يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ قضية التَّحَاكُم في مسائل الدِّين؛ لَأنَّ النَّاس ورثوا مَنَاهِج خارجةً عن دين الإِسْلَام، دخل في الأُمَّة مَنَاهِجُ دخيلةٌ تقوم علىٰ مَنَاهِج الكُفَّارِ في الفَلْسَفَة والمنطقِ، تكون من هذين المنهجين الوثنين مَنْهَج علمِ الكلامِ، فأصبح أهل الكَلَام يقولون: "لا تأخذوا عقيدتكم من الكِتَاب والسُّنَّة؛ لَأنَّ ظاهرهما التشبيه،

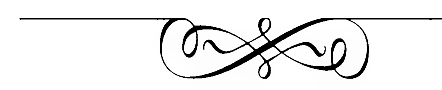
ونحن وضعنا الضوابط، إذا قرأت آية فإنك لا تفهمُ معناها حتىٰ ترجع إلىٰ ما وضعناه من الضوابط". حتىٰ قال بعضهم: "ظاهر القُرآن شِرْكٌ، والتوحيد في كلامنا ". سبحان الله! أفصح الكَلَام وأبلغه، كلام رب العالمين لا تؤخذ منه العقيدة وتؤخذ من كلام البَشَر؟ فما الفائدة من نزول القُرآن؟ إذا كان القُرآن الكَرِيم لا يكفينا ولا يُعطينا العقيدةَ فلماذا أنزله الله ﷻ ؟ وهذا كلامٌ في غاية الخطورة، والمؤلفُ و الشَّارِحُ رحمهما الله كلاهما أرادا أَن يُبينا خطورةَ هذا المنهج، فإن علماءَ الكَلَام وضعوا قاعدةً، وأول من وضعها الرازي، وتكلم بها قبلَه الغزالي، لكن المقعد لها الرازي لما قال:" إذا تعارض العَقْلُ والنقلُ قدَّمنا العَقْلَ".

هذه القاعدة أوردها ابنُ تَيْمِيَة رحمه الله في كتابه (درء التعارض) وشرحها وبيَّن بطلانَها في عشر مجلدات، بيَّن أَنَّ هذه القاعدةَ خطيرةٌ جداً، وأنها تهدِم الدِّين؛ لَأَنَّنا أيَّ عقلٍ نُقدِّمُ، عقلُ مَن؟ لو كان العَقْل عند جميع النَّاس واحداً فلم اختلفَ المُتكَلِّمُونَ؟ المُعْتَزِلَة يكفِّر بعضُهم بعضـاً، أين عقولهم؟ فعقلُ من نُقدِّمُ؟ عقل الجبائي، أو عقلَ العلَّاف، أو عقل النَّظَّام، أو عقل الجاحظِ، وهم بعضُهم يُكَفِّر بعضـاً، بل قد يُكفر الابن أباه عند المُعْتَزِلَة.

فلا عاصم لنا إلا الوَحْي؛ لَأَنَّ الوَحْي واحد:، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، لابد من التَّحَاكُم إلىٰ الله ورسوله في قَضَايَا الاعتقاد، وفي قَضَايَا التشريع، وفي جميع حياتنا؛ لَأَنَّ الله أنزل هذا القُرآن هاديـاً وكافيـاً لنا، فكل ما ليس في كتابِ الله ولا في سنةِ رسولِه ﷺ باطل، منهما نأخذ العقيدةَ، ومنهما نأخذ التشريعَ، ولا نحتاج إلىٰ غيرهما.

وقلنا: أَنَّ الغزالي قال في مقدمة كتابه (المستصفىٰ) الذي ألَّفه في الأصول: كل من لا يعرفُ المَنطِق لا يُوثَقُ بعلمِه.أي: منطقُ أرسطو الذي كان قبل الإِسْلَام بثمانمائة سنة، فهذا المَنطِق هو القاعدة التي نحاكمُ إليها كلامَ الله ﷻ !. هذا ـ نعوذ بالله ـ أخطر ما وقع فيه المُتَكَلِّمُونَ.

فيقول ﵀: هذا الباب والباب الذي قبله عُقدا في الأساس من أجل هذه المسألة، النَّاس ورثوا عقائد من آبائهم وعلمائهم، فإذا دعوتهم لتصحيح هذه العقائد وبينت له أَنَّ هذه العقيدةَ باطلةٌ، قالوا: لا، هذه قالها علماؤنا، وما قاله علماؤنا لا يكون مُخطِئًا، قولهم لا يخالفُ الكِتَاب والسُّنَّة، هم أعلم بالكتاب والسنة منك، فيقول: أَنَّهُ لابد من أَنَّ نتحاكم إلىٰ القُرآن والسنة في كل قضيةٍ من قَضَايَا ديننا أو دنيانا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [النساء:٦٢]. قال ابن كثير: أي فكيف بهم إذا أصابتهم المقادير إليك في المصائب بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك. وقال ابن القَيِّم: قيل: المصيبة فضيحتهم إذا أنزل القُرآن بحالهم، ولا ريب أَنَّ هذا أعظم المصيبة والإضرار، فالمصائب التي تصيبهم بما قدمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعظمها مصائب القَلْب والدين، فيرىٰ المعروف منكراً والهدىٰ ضلالاً، والرشاد غياً والحق باطلاً والصلاح فساداً، وهذا من المصيبة التي أصيب بها في قبله، وهو الطبع الذي أوجبه مخالفة الرَّسُول ﷺ، وتحكيم غيره. قال سفيان الثوري في قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] قال: هي أَن يطبع علىٰ قلوبهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء:٦٢]. قال ابن كثير: أي يعتذرون ويحلفون أَنَّ أردنا بذهابنا إلىٰ غيرك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة. وقال غيره: (إِلاَّ إِحْسَانًا) أي: لا إساءة (﴿وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء:٦٢]) أي: بين الخصمين، ولم نرد مخالفة لك، ولا تسخطاً لحكمك.

قلت: فإذا كان هذا حال المُنافِقين يعتذرون عن أمرهم، ويلبسونه لئلا يُظن أَنَّهُم قصدوا المخالفة لحكم النَّبِيّ ﷺ أو التسخط، فكيف بمن يصرح بما كان المُنافِقون يضمرونه حتىٰ يزعم أَنَّهُ من حكم الكِتَاب والسُّنَّة في موارد النزاع فهو إِمَّا كافر، وإِمَّا مبتدع ضال، وفعل المُنافِقين الذي ذكره الله عنهم في هذه الآيَة هو بعينه الذي يفعله المحرفون للكلم عن مواضعه، الذين يقولون: إنما قصدنا

التوفيق بين القواطع العَقْلية بزعمهم، التي هي الفَلْسَفَة والكلام، وبين الأدلة النقلية، ثُمَّ يجعلون الفَلْسَفَة التي هي سفاهة وضلالة الأصل ويردون بها ما أنزل الله علىٰ رسوله من الكتاب والحكمة، زعموا أَنَّ ذلك يخالف الفَلْسَفَة التي يسمونها القواطع، فتطلبوا له وجوه التأويلات البعيدة، وحملوه علىٰ شواذ اللُّغَة التي لا تكاد تعرف.



يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: المُتَكَلِّمُونَ أرادوا أَن يجمعوا بين الشريعةِ والفلسفة، فيقول: لماذا نجمع بينهما؟ الشريعةُ دينُ الله، والفلسفةُ مَنَاهِجُ البَشَر، إن كانت الشريعةُ كافيةً كاملةً، لماذا نجمع بينها وبين الفَلْسَفَة؟ وَإن كانت الشريعةُ باطلةً فلا حاجة إليها، فنأخذ الفَلْسَفَة ابتداءً، والمتكلمون أرادوا أَن يجمعوا بين المَنطِق والفلسفة وبين الشريعة، ولهذا ظهر في الإِسْلَام ما يُسمون فلاسفة الإِسْلَام مثل: الفارابي وابن سينا والكندي، وهؤلاء جاءوا إلىٰ المعاني الفلسفية عند الفَلَاسِفَة قبل الإِسْلَام وألبسوها ملابسَ إسلاميةً،أي: استخدموا الألفاظ الإِسْلَامية علىٰ المعاني الفلسفية، فالفلاسفةُ يتكلَّمون عن أصلِّ هذا الكون إِمَّا بتسميته بالعلَّة، أو تسميته بالعقل، وجاء المُسْلِمون وسموا هذه العِلَّة أو العَقْل اللهَ، والحالُ أَنَّ العلةَّ والعقلَ عند الفَلَاسِفَة غيرُ الله، هم خاضوا في قَضَايَا الغيبِ بعقولهم، ولهذا ضلوا ضلالاً كبيراً، فالذين يسمُّون الفَلَاسِفَة الإِسْلَاميين قد أخطئوا. ليس في الدِّين فلسفةٌ، ولا يجوز أَن نقول: الفَلْسَفَةُ الإِسْلَاميةُ، هل يجوز أَنَّ نقول: الاشتراكية الإِسْلَامية، أو الشيوعية الإِسْلَامية، أو الديمقراطية الإِسْلَامية، أو الرأسمالية الإِسْلَامية؟ لا يجوز؛ لَأنَّ هذه مذاهب البَشَرِ، والدِّين دينُ ربِّ العالمينَ، فلا يجوز أَنَّ نقول: فلسفةٌ إسلاميةٌ؛

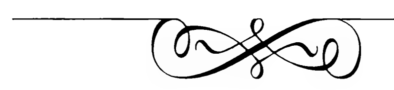
لَأَنَّ الفَلْسَفَة مَنهَج وديانةٌ وعقيدةٌ، كيف نجمعها ونخلطها بدين رَبِّ العالِمين؟ هذا أخطرُ ما دخل في البلاد الإِسْلَامية.

ولهذا ابنُ تَيْمِيَة رَحِمَهُ اللهُ عندما جاء في القرن السابع ورأىٰ هذا الخلطَ العجيب الذي انخدع به حتىٰ علماءُ المُسْلِمينَ الكبارُ وأصبح جزءاً من عقيدتهم شمَّر عن ساعد الجدِّ وعاش حياته الطويلة كلها كدحٌ وجدٌّ، لتصفية الإِسْلَام مما دخل فيه، ولم يتفرغ حتىٰ للزواجِ، كلُّ حياتِه كفاحٌ ودفاع عن الحقِّ، جاء وإذا بالناس يقرءون الإِسْلَامَ من خلال قواعدِ الفَلَاسِفَة، فخلطوا دين الله ومزجوه بكلام البَشَر، فقام رَحِمَهُ اللهُ قومةً عظيمةً، وهو جدير بأن يُسمَّىٰ أُمَّةً، ليس فرداً؛ لَأَنَّه قام في كل ميدان، ردَّ علىٰ المُتكلِّمين بكتبٍ كثيرة من أشهرها كتاب (الدرء)، وردَّ علىٰ الفَلَاسِفَة بكتاب (الصفدية)، وردَّ علىٰ النَّصارَىٰ في كتاب (الجواب الصَّحِيح)، وردَّ علىٰ الصوفية، ورد علىٰ كل من انحرف في عهده بكلامٍ متينٍ يقوم علىٰ صفاءِ العقيدةِ، وصفاء الاستدلال بالكتاب والسنة، فهو رَحِمَهُ اللهُ انزعج وساءته رؤيةُ هذا الوضع، فشمر عن ساعد الجد ليغير هذا الواقعَ السيئَ للأُمَّة بتوفيق الله تعالىٰ، فقد نقد رَحِمَهُ اللهُ القاعدة المذكورة عند المتكلمين من أَنَّهُ إذا اختلف العَقْل والنقل نُقدِّمُ العَقْل، وقال: هذا خطأٌ، عندنا تقسيم آخر، وهو تقسيم رباعي:

- إما أَنَّ يكونَ الدليل النقلي يقينياً والعقلي ظنياً.
- وإمَّا أَنَّ يكون الدليلُ النقلي ظنياً في ثبوتِه أو دلالته، والعقلي يقينياً.
- وإمَّا أَنَّ يكون الدليلان ظنيين.
- وإما أَنَّ يُري أنَّهما يقينيان.

فقال: نقَدِّمُ اليقينيَ، ما تيقنا أَنَّهُ صحَّ نقدمُه؛ لَأنَّ الدِّين لا يختلف مع العَقْل أبداً، لكن العَقْلَ عندما ينحرفُ ويضلُ هو الذي يفسد.

وضرب مثالاً: قال: لو جاء شخص ودخل مدينةً، وقال: أريد أَنَّ استفتي من العالِم، أين العالمُ. فجاء شخص إلىٰ هذا الشَّخْص المُستفتِي، وقال: هذا العالمُ. فعندما جاء إلىٰ العالم أفتاه، فقال الدليلُ: لا تُصدِّقُه، أنا أخبرك. قال: لا، قد انتهىٰ دورُك، أنت كان عملك أَنَّ تدُلَّني علىٰ المفتي فقط، فما دمت أخبرتني وشهدت بأنَّ هذا هو المفتي فقد انتهىٰ عملك؛ هكذا العَقْل، انتهىٰ عمله عندما أثبت أَنَّ هذا الدِّين حقٌ، ما بقي إلا أَنَّ يتبِع الحق الذي جاء من الله ﷻ. فالذين خلطوا الدِّين بالفلسفة أفسدوه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [النساء:٦٣].

قال ابن كثير: أي هذا الضرب من النَّاس هم المُنافِقون، والله أعلم بما في قلوبهم وسيجزيهم علىٰ ذلك، فإنه لا تخفىٰ عليه خافية، فاكتف به يا مُحَمَّد فيهم، فإنه عالم ببواطنهم وظواهرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء:٦٣]. قال ابن القَيِّم: أمر الله رسوله ﷺ فيهم بثلاثة أشياء: أحدها: الإعراض عنهم إهانة لهم وتحقيراً لشأنهم وتصغيراً لأمرهم لا إعراض متاركة وإهمال، وبهذا يعلم أَنَّهُ ا غير منسوخة. الثاني: قوله: (وَعِظْهُمْ) وهو تخويفهم عقوبة الله وبأسه ونقمته أَنَّ أصروا علىٰ التَّحَاكُم إلىٰ غير رسوله ﷺ وما أنزل عليه. الثالث: قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء:٦٣] أي: يبلغ تأثيره إلىٰ قلوبهم ليس قولاً ليناً لا يتأثر به المقول له، وهذه المادة تدل علىٰ بلوغ المراد بالقول، فهو قول يبلغ به مراد قائله من الزجر والتخويف ويبلغ تأثيره إلىٰ نفس المقول له ليس هو كالقول الذي يمر علىٰ الأذن صفحاً.

وهذا القول البليغ يتضمن ثلاثة أمور: أحدها: عظم معناه وتأثير النفوس به. الثاني: فخامة ألفاظه وجزالتها. الثالث: كيفية القائل في إلقائه إلىٰ المخاطب، فإن القول كالسهم والقلب كالقوس الذي يدفعه، وكالسيف والقلب كالساعد الذي يضرب به.

وفي متعلق قوله: (فِي أَنفُسِهِمْ) قولان، أحدهما: بقوله: (بَلِيغًا) أي: قولا بليغاً في أنفسهم، وهذا حسن من جهة المَعْنَىٰ ضَعِيفٌ من جهة الإعراب؛ لأَنَّ صفة الموصوف لا تعمل فيما قبلها.

والقول الثاني: أَنَّهُ متعلق بقل، وفي المَعْنَىٰ علىٰ هذا قولان:

أحدهما: قل لهم في أنفسهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم بل مسراً لهم النَّصيحة.

والثاني: أَنَّ معناه قل لهم في معنىٰ أنفسهم، كما يُقال: قل لفلان في كيت وكيت، أي: في ذلك المَعْنَىٰ، قلت: وهذا القول أحسن، ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء:٦٤]، قال ابن كثير: أي إنما فرضت طاعته علىٰ من أرسلته إليهم. وقال ابن القَيِّم: هذا تنبيه علىٰ جلالة منصب الرسالة وعظم شأنها وأنه سبحانه لم يرسل رسله -عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَام- إلا ليطاعوا بإذنه، فتكون الطَّاعَة لهم، لا لغيرهم؛ لأَنَّ طاعتهم طاعة مرسلهم، وفي ضمنه أَنَّ من كذب رسوله مُحَمَّداً ﷺ فقد كذب الرُسُل، والمعنىٰ أنك واحد منهم تجب طاعتك، وتتعين عليهم كما وجبت طاعة من قبلك من المرسلين، فإن كانوا قد أطاعوهم كما زعموا وآمنوا بهم فما لهم لا يطيعونك ويؤمنون بك، والإذن ههنا هو الإذن الأمري لا الكوني، إذ لو كان إذنا كونياً قدرياً لما تخلفت طاعتهم، وفي ذكره نكتة، وهي: أَنَّهُ بنفس إرساله تتعين طاعته، وإرساله نفسه إذن في طاعته، فلا تتوقف علىٰ نَصٍّ آخر سوىٰ الإرسال بأمر فيه بالطاعة، بل متىٰ تحققت رسالته وجبت طاعته، فرسالته نفسها متضمنة للإذن في الطَّاعَة، ويصح أَنَّ يكون الإذن ههنا إذنًا كونياً قدرياً، ويكون المَعْنَىٰ ليطاع بتوفيق الله وهدايته، فتضمن الآيَة الأمرين: الشَّرع والقدر، ويكون فيها دليل علىٰ أَنَّ أحداً لا يطيع رسله إلا بتوفيقه وإرشاده وهدايته، وهذا حسن جداً، والمقصود أَنَّ الغاية من الرُسُل هي طاعتهم ومتابعتهم، فإذا كانت الطَّاعَة المتابعة لغيرهم لم تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء:٦٤]، قال ابن القَيِّم: لما علم سبحانه أَنَّ المرسل إليهم لا بُدَّ لهم من ظلم لأنفسهم واتباع لأهوائهم أرشدهم إلىٰ ما يدفع عنهم شر ذلك الظلم وموجبه، وهو شيئان: أحدهما: منهم وهو استغفارهم ربهم ﷻ. والثاني: من غيرهم وهو استغفار الرَّسُول ﷺ لهم إذا جاؤوه وانقادوا له واعترفوا بظلمهم، فمتىٰ فعلوا ذلك وجدوا الله توابًا رحيمًا يتوب عليهم، فيمحو أثر سيئاتهم ويقيهم شرها ويزيدهم مع ذلك رحمته وبره وإحسانه.

فإن قلت: فما حظ من ظلم نفسه بعد موت النَّبِيّ ﷺ من هذه الآيَة، وهل كلام بعض النَّاس في دعوىٰ المجيء إلىٰ قبره ﷺ والاستغفار عنده والاستشفاع به، والاستدلال بهذه الآيَة علىٰ ذلك صحيح أم لا؟ قيل: إِمَّا حظ من ظلم نفسه بعد موت النَّبِيّ ﷺ من هذه الآيَة فالاستغفار، وَأَنَّ يتوب إلىٰ الله توبة نَصُوحًا في كل زمان ومكان، ولا يشترط في صحة التوبة المجيء إلىٰ قبره والاستغفار عنده بالإجماع، وإِمَّا المجيء إلىٰ قبره والاستغفار عنده والاستشفاع به والاستدلال بالآيَة علىٰ ذلك فهو استدلال علىٰ ما لا تدل الآيَة عليه بوجه من وجوه الدلالات؛ لَأَنَّه ليس في الآيَة إلا المجيء إليه ﷺ لا المجيء إلىٰ قبره واستغفاره لهم لاستشفاعهم به بعد موته، فعلم أَنَّ ذلك باطل، يوضح ذلك أَنَّ الصَّحَابَة الذين هم أعلم النَّاس بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ما فهموا هذا من الآيَة، فعلم أَنَّ ذلك بدعة، وأكثر ما استدل به من أجاز ذلك رواية العتبي عن أعرابي مجهول علىٰ أَنَّ القصة لا نعلم لها إسناداً، ومثل هذا لو كان حديثًا أو أثراً عن صحابي لم يجز الاحتجاج به، ولم يلزمنا حكمه لعدم صحته، فكيف يجوز الاحتجاج في هذا بقصة لا تصح عن بدوي لا يعرف.

ثم قَالَ - تَعَالَى -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥]. قال ابن القَيِّم: أقسم سبحانه بأجلّ مقسم به وهو نفسه - عَزَّ وَجَلَّ - علىٰ أَنَّهُ لا يثبت لهم الإِيمَان، ولا يكونون من أهله حتىٰ يحكم لرسوله ﷺ في جميع موارد النزاع، وفي جميع أبواب الدِّين، فإن لفظة ما من صيغ العموم ولم يقتصر علىٰ هذا حتىٰ ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجًا، وهو الضيق والحصر من حكمه، بل يقبلون حكمه بالانشراح، ويقابلونه بالقبول لا يأخذونه علىٰ إغماض ويشربونه علىٰ قذىٰ، فإن هذا مناف للإيمان، بل لابد أَنَّ يكون أخذه بقبول ورضىٰ وانشراح صدر، ومتىٰ أراد العبد شاهداً فلينظر في حاله ويطالع قلبه عند ورود حكمه علىٰ خلاف هواه وغرضه، أو علىٰ خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها، ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٤-١٥]، فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من النُّصوْص، وبودهم أَنَّ لو لم ترد، وكم من حرارة في أكبادهم منها، وكم من شجىٰ في حلوقهم من موردها، ثُمَّ لم يقتصر سبحانه علىٰ ذلك حتىٰ ضم إليه قوله: {وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، فذكر الفعل مؤكداً له بالمصدر القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع والانقياد لما حكم به طوعًا ورضىٰ وتسليمًا لا قهراً أو مصابرة كما يسلم المقهور لمن قهره كرهًا، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه يعلم أَنَّ سعادته وفلاحه في تسليماته. انتهىٰ.

وقد ورد في الصَّحِيح أَنَّ سَبَب نزولها قصة الزبير لما اختصم هو والأنصاري في شراج الحرة، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبَب، فإذا كان سَبَب نزولها مخاصمة في مسيل ماء قضىٰ فيه رَسُول الله ﷺ بقضاء فلم يرضه الأنصاري، فنفىٰ تعالىٰ عنه الإِيمَان بذلك، فما ظنك بمن لم يرض

بقضائه ﷺ وأحكامه في أصول الدِّين وفروعه، بل إذا دعوا إلىٰ ذلك تولوا وهم معرضون، ولم يكفهم ذلك حتىٰ صدوا النَّاس عنه، ولم يكفهم ذلك حتىٰ كفروا أو بدعوا من اتبعه ﷺ، وحكمه في أصول الدِّين وفروعه ورضي بحكمه في ذلك، ولم يبغ عنه حولاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦]. المَعْنَىٰ - والله أعلم - أي لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا علىٰ بني إسْرَائِيل من قتلهم أنفسهم أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل ما فعلوه إلا قليل منهم، وهذا توبيخ لمن لم يحكم الرَّسُول ﷺ في موارد الشجار أي نحن لم نكتب عليهم ذلك بل إنما أوجبنا عليهم ما في وسعهم، فما لهم لا يحكمونك ولا يرضون بحكمك.

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨]. قال ابن القَيِّم: أخبر تعالىٰ أَنَّهُم لو فعلوا ما يعظهم به وهو أمره ونهيه المقرون بوعده ووعيده لكان فعل أمره وترك نهيه خيراً لهم في دينهم ودنياهم، وأشد تثبيتًا لهم علىٰ الحق وتحقيقًا لإيمانهم وقوة لعزائمهم وإراداتهم وثباتًا لقلوبهم عند جيوش الباطل وعند واردات الشبهات المضلة والشهوات المردية، فطاعة الله تعالىٰ ورسوله ﷺ هي سَبَب ثبات القَلْب وقوته وقوة عزائمه وثبات القَلْب عليها، ومخالفته تثمر زيغ القَلْب واضطرابه وعدم ثباته، ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٧-٦٨]، فهذه أربعة أنواع من الجزاء المرتب علىٰ طاعة الرَّسُول ﷺ:

أحدها: حصول الخير المطلق بها.

الثاني: التثبت والقوة المتضمن للنصر والغلبة.

والثالث: حصول الأجر العظيم لهم في الآخِرَة.

والرابع: هدايتهم الصراط المستقيم، وهذه الهداية هي هداية ثانية أوجبتها طاعة الرَّسُول ﷺ، فطاعته ﷺ ثمرة الهداية السابقة عليها، فهي محفوفة بهدايتين هداية قبلها وهي سَبَب الطَّاعَة وهداية بعدها هي ثمرة لها، وهذا يدل علىٰ انتفاء هذه الأمور الأربعة عند انتفاء طاعة الرَّسُول ﷺ.

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، قال ابن القَيِّم: فأخبر سبحانه أَنَّ طاعته وطاعة رسوله ﷺ توجب مرافقة المنعم عليهم، وهم أهل السعادة الكاملة، وهم أربعة أصناف: النَّبِيّون وهم أفضلهم، ثُمَّ الصديقون وهم بعدهم في الدرجة، ثُمَّ الشهداء، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، فهؤلاء المنعم عليهم النِّعْمَة التامة وهم السعداء الفائزون ولا فلاح لأحد إلا بمرافقتهم والكون معهم، ولا سبيل إلىٰ مرافقتهم إلا بطاعة الرَّسُول ﷺ، ولا سبيل إليها إلا بمعرفة سنته وما جاء به، فدل علىٰ أَنَّ من عدم العلم بسنته وما جاء به فليس له إلىٰ مرافقة هؤلاء سبيل، بل هو ممن يعض علىٰ يديه يَومَ القِيَامَةِ ويقول: ياليتني اتخذت مع الرَّسُول سبيلاً.

قلت: ما لمن لم يحكم الرَّسُول ﷺ في موارد النزاع إلىٰ مرافقة هؤلاء المنعم عليهم سبيل، وكيف يكون له سبيل إلىٰ ذلك وعنده أَنَّ من حكم الرَّسُول ﷺ في موارد النزاع فهو إِمَّا زنديق أو مبتدع! وأنىٰ له بطاعة الله ورسوله، وهذا أصل اعتقاده الذي بنىٰ عليه دينه، ومع ذلك يحسبون أَنَّهُم مهتدون إذا حكموا غير الرَّسُول ﷺ ونبذوا حكمه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

قال المصنف: وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

قال أبو بكر بن عياش في الآيَة: أَنَّ الله بعث مُحَمَّداً ﷺ إلىٰ أهل الأرض وهم في فساد، فأصلحهم الله ب مُحَمَّد ﷺ، فمن دعا إلىٰ خلاف ما جاء به مُحَمَّد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض. وقال ابن القَيِّم: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلىٰ غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرُسُل وبيان الشريعة والدعاء إلىٰ طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلىٰ غيره والشِّرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشِّرك به ومخالفة أمره، فالشِّرك والدعوة إلىٰ غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رَسُول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أَنَّ يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره والطاعة والإتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرَّسُول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلىٰ غير الله ورسوله انتهىٰ.

وبهذا يتبين وجه مطابقة الآيَة للترجمة؛ لأَنَّ من يدعو إلىٰ التَّحَاكُم إلىٰ غير ما أنزل الله وإلىٰ الرَّسُول فقد أتىٰ بأعظم الفساد.

قال: (وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة:١١].

قال أبو العالية في الآيَة:أي: لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأَنَّ من عصىٰ الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض؛ لأَنَّ

صلاح الأرض والسماء بالطاعة. قلت: ومطابقة الآيَة للترجمة ظاهر؛ لأَنَّ من دعا إلىٰ التَّحَاكُم إلىٰ غير ما أنزل الله فقد أتىٰ بأعظم الفساد. وفي الآيَة دليل علىٰ وجوب اطراح الرأي مع السُّنَّة وَأَنَّ ادعىٰ صاحبه أَنَّهُ مصلح، وَأَنَّ دعوىٰ الإصلاح ليس بعذر في ترك ما أنزل الله، والحذر من العجب بالرأي.

قال: (وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾ [المائدة:٥٠] الآيَة.

قال ابن كثير: ينكر تعالىٰ علىٰ من خرج عن حكم الله تعالىٰ المشتمل علىٰ كل خير وعدل، الناهي عن كل شر إلىٰ ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجَاهِلِيَّة يحكمون به من الضلالات والجهالات، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيزخان الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام اقتبسها من شرائع شتىٰ من المِلَّة الإِسْلَامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره، فصار في بنيه شرعًا يقدمونه علىٰ الحكم بالكتاب والسنة، ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتىٰ يرجع إلىٰ حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾ أي: يريدون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٥٠]، أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن وعلم أَنَّهُ تعالىٰ أحكم الحاكمين وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، فإنه تعالىٰ العالم بكل شيء، القادر علىٰ كل شيء، العادل في كل شيء.

قلت: وفي الآيَة إشارة إلىٰ أَنَّ من ابتغىٰ غير حكم الله ورسوله فقد ابتغىٰ حكم الجَاهِلِيَّة كائنًا ما كان.

قال: عن عبد الله بن عمرو: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قال: (لا يؤمنُ أحدُكُم حتىٰ يكونَ هوَاه تَبَعًا لما جِئْتُ بهِ). قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

هذا الحَدِيث رواه الشيخ أبو الفتح نَصْر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب الحجة على تارك المحجة بإسناد صحيح كما قال المصنف عن النووي، وهو كتاب يتضمن ذكر أصول الدِّين على قواعد أهل الحَدِيث والسنة، ورواه الطبراني أبو بكر بن عاصم والحافظ وأبو نعيم في الأربعين التي شرط في أولها أَنَّ تكون من صحاح الأخبار. وقال ابن رجب: تصحيح هذا الحَدِيث بعيد جداً من وجوه ذكرها، وتعقبه بعضهم.

قلت: ومعناه صحيح قطعًا وَأَنَّ لم يصح إسناده، وأصله في القُرآن كثير كقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥]، الآيَة، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [القصص:٥٠]، وغير ذلك من الآيات، فلا يضر عدم صحة إسناده.

قوله: (لا يؤمن أحدكم) أي: لا يحصل له الإِيمَان الواجب ولا يكون من أهله.

قوله: (حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به) قال بعضهم: هواه بالقصر أي ما يهواه أي تحبه نفسه وتميل إليه، ثُمَّ المعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق أَنَّهُ الميل إلى خلاف الحق، ومنه ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وقد يطلق على الميل والمحبة ليشمل الميل للحق وغيره، وربما استعمل في مَحَبَّة الحق خاصة والانقياد إليه كما في حديث صفوان بن عسال: (أنه سُئل هل سمعت النَّبِيّ ﷺ يذكر الهوى..) الحَدِيث.

قال ابن رجب: إِمَّا معنى الحَدِيث فهو أَنَّ الإِنْسَان لا يكون مؤمنًا كامل الإِيمَان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرَّسُول ﷺ من الأوامر

والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به ويكره ما نهىٰ عنه، وقد ورد القُرآن بمثل هذا في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله تعالىٰ أو أحب ما كره الله كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد:٩]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد:٢٨]، فالواجب علىٰ كل مؤمن أَنَّ يحب ما أحبه الله مَحَبَّة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتىٰ أتىٰ بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً، وَأَنَّ يكره ما كرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتىٰ أوجبت الكف عما كرهه تنزيها كان ذلك فضلاً، فمن أحب الله ورسوله مَحَبَّة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أَنَّ يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضي بما يرضي به الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وَأَنَّ يعمل بجوارحه بمقتضىٰ هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه دل ذلك علىٰ نقص محبته الواجبة، فعليه أَنَّ يتوب من ذلك ويرجع إلىٰ تكميل المحبة الواجبة، فجميع المَعَاصِي تنشأ من تقديم هوىٰ النَّفْسُ علىٰ مَحَبَّة الله ورسوله، وقد وصف الله المُشْرِكِينَ بإتباع الهوىٰ في مواضع من كتابه، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠] الآيَة، وكذلك البدَع إنما تنشأ من تقديم الهوىٰ علىٰ الشَّرع، ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء، وكذلك المَعَاصِي إنما تقع من تقديم الهوىٰ علىٰ مَحَبَّة الله ومحبة ما يحبه الله، وكذلك حب الأشخاص الواجب فيه أَنَّ يكون تبعـًا لما جاء به الرَّسُول ﷺ، فيجب علىٰ المُؤمِن مَحَبَّة ما يحبه الله من المَلَائِكَة والرسل والصديقين والأنبياء والشهداء والصالحين عمومـًا، ولهذا كان علامة وجود حلاوة الإِيمَان أَن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عمومـًا، وبهذا يكون الدِّين

كله لله، ومن أحب لله وأبغض لله وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمَان، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوىٰ نفسه كان ذلك نقصـًا في إيمانه الواجب، فتجب عليه التوبة من ذلك والرجوع إلىٰ إتباع ما جاء به الرَّسُول ﷺ من تقديم مَحَبَّة الله ورسوله وما فيه رضىٰ الله ورسوله علىٰ هوىٰ النَّفْسُ ومرادها انتهىٰ ملخصًا.

ومطابقة الحَدِيث للباب ظاهرة من جهة أَنَّ الرجل لا يؤمن حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جاء به الرَّسُول ﷺ في كل شيء حتىٰ في الحكم وغيره، فإذا حكم بحكم أو قضىٰ بقضاء فهو الحق الذي لا محيد للمؤمن عنه ولا اختيار له بعده.

قال المصنف: (وقال الشعبي كان بين رجل من المُنافِقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلىٰ مُحَمَّد، عرف أَنَّهُ لا يأخذ الرشوة. وقال المُنافِق: نتحاكم إلىٰ اليهود لعلمه أَنَّهُم يأخذون الرشوة، فاتفقا علىٰ أَنَّ يأتيا كاهنًا في جهينة فيتحاكما إليه فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ قَبْلِكَ ..﴾ الآيَة.

ش: هذا الأثر رواه ابن جرير وابن المنذر بنحوه.

قوله: (كان بين رجل من المُنافِقين ورجل من اليهود خصومة) لم أقف علىٰ تسمية هذين الرجلين، وقد روىٰ ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم قال: كان بين الجلاس بن الصامت قبل توبته ومعتب بن قشير ورافع بن زيد وبشير، كانوا يدعون الإِسْلَام فدعاهم رجال من قومهم من المُسْلِمينَ في خصومة كانت بينهم إلىٰ رَسُول الله ﷺ، فدعوهم إلىٰ الكهان حكام الجَاهِلِيَّة، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ قَبْلِكَ ..﴾ الآيَة، فيحتمل أَنَّ يكون المُنافِق المذكور في قصة الشعبي أحد هؤلاء، بل روىٰ الثعلبي عن ابن عبَّاسٍ أَنَّ المُنافِق اسمه بشر.

قوله: (عرف أَنَّهُ لا يأخذ الرشوة) هي بتثليث الراء. قال أبو السعادات: وهو الوصلة إلىٰ الحاجة بالمصانعة، وأصله من الرشاء الذي يتوصل به إلىٰ الماء، والراشي من يعطي الذي يعينه علىٰ الباطل، والمرتشي الآخذ. قلت فعلىٰ هذا رشوه الحاكم هي ما يعطاه ليحكم بالباطل سواء طلبها أم لا، وفيه دليل علىٰ شهادة أَنَّ مُحَمَّداً رَسُول الله؛ لأَنَّ أعداءه يعلمون عدله في الأحكام ونزاهته عن قذر الرشوة ﷺ بخلاف حكام الباطل.

قوله: (فاتفقا علىٰ أَنَّ يأتيا كاهنًا في جهينة) لم أقف علىٰ تسمية هذا الكاهن. وفي قصة رواها ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في سَبَب نزول الآيَة قال: فتفاخرت النضير وقريظة، فقالت النضير: نحن أكرم من قريظة، وقالت قريظة: نحن أكرم منكم، فدخلوا المدينة إلي أبي برزة الكاهن الأسلمي، وفي بعض النسخ أبي بردة الأسلمي وذكر القصة، وأبو برزة هذا غير أبي برزة الصَّحَابِي.

قال المصنف: (وقيل نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهما: نترافع إلىٰ النَّبِيّ ﷺ، وقال الآخر: إلىٰ كعب بن الأشرف ثُمَّ ترافعا إلىٰ عمر، فذكر له أحدهما القصة فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ أكذلك؟ قال: نعم. فضربه بالسيف فقتله).

ش: هذه القصة قد رويت من طرق متعددة، من أقربها لسياق المصنف ما رواه الثعلبي وذكره البغوي عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ الآيَة قال: نزلت في رجل من المُنافِقين يُقال له: بشر خاصم يهودياً فدعاه اليهودي إلىٰ رَسُول الله ﷺ ودعاه المُنافِق إلىٰ كعب بن الأشرف، ثُمَّ أَنَّهُ ما احتكما للنبي ﷺ فقضىٰ لليهودي، فلم يرض المُنافِق وقال: تعال نتحاكم إلىٰ عمر بن الخطاب، فقال اليهودي لعمر: قضىٰ لنا رَسُول الله ﷺ فلم يرض بقضائه، فقال للمنافق: أكذلك؟ قال نعم. فقال عمر: مكانكما حتىٰ أخرج

إليكما، فدخل عمر فاشتمل علىٰ سيفه، ثُمَّ خرج فضرب عنق المُنافِق حتىٰ برد، ثُمَّ قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت.

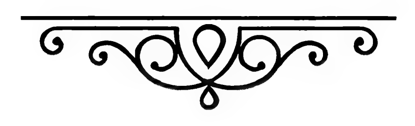
وروىٰ الحكيم التِّرمِذِي في نوادر الأصول هذه القصة عن مكحول، وقال في آخرها: فأتىٰ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُول الله ﷺ فقال: أَنَّ عمر قد قتل الرجل، وفرق الله بين الحق والباطل علىٰ لسان عمر، فسمي الفاروق. ورواه أبو إسحاق بن دحيم في تَفسِيره علىٰ ما ذكره شيخ الإِسْلَام وابن كثير ورواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود وذكر القصة، وفيه: فقال رَسُول الله ﷺ: (ما كنت أظن أَنَّ يجترئ عمر علىٰ قتل مؤمن) فأنزل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ ..﴾ الآيَة، فهدر دم ذلك الرجل وبرئ عمر من قتله، فكره الله أَنَّ يسن ذلك بعد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾، وبالجملة فهذه القصة مشهورة متداولة بين السَلَف والخلف تداولاً يغني عن الإسناد، ولها طرق كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها.

وكعب بن الاشرف المذكور هنا هو طاغوت من رؤساء اليهود وعلمائهم، ذكر ابن إسحاق وغيره أَنَّهُ كان موادعـًا للنبي ﷺ في جملة ممن وادعه من يهود المدينة، وكان عربياً من بني طي وكانت أمه من بني النضير، قالوا: فلما قتل أهل بدر شق ذلك عليه وذهب إلىٰ مكة ورثاهم لقريش وفضل دين الجَاهِلِيَّة علىٰ دين الإِسْلَام حتىٰ أنزل الله فيه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء:٥١]، ثُمَّ لما رجع إلىٰ المدينة أخذ ينشد الأشعار يهجو بها رَسُول الله ﷺ وشبب بنساء المُسْلِمينَ حتىٰ آذاهم حتىٰ قال النَّبِيّ ﷺ: (من لكعب بن الأشرف فانه قد آذىٰ الله ورسوله) وذكر قصة قتله، وقتله مُحَمَّد بن مسلمة وأبو نائلة وأبو عبس بن جبر وعباد بن بشر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وفي القصة من الفوائد: أَنَّ الدعاء إلىٰ تحكيم غير الله ورسوله من صفات المُنافِقين ولو كان الدعاء إلىٰ تحكيم إِمَّام فاضل، ومعرفة أعداء رَسُول الله ﷺ بما كان عليه من العلم والعدل في الأحكام، وفيها: الغضب لله تعالىٰ والشدة في أمر الله كما فعل عمر رضي الله عنه، وفيها: أَنَّ من طعن في أحكام النَّبِيّ ﷺ أو في شيء من دينه قتل كهذا المُنافِق بل أولىٰ، وفيها: جواز تغيير المنكر باليد وَأَنَّ لم يأذن فيه الإمام، وكذلك تعزير من فعل شيئًا من المنكرات التي يستحق عليها التعزير لكن إذا كان الإمام لا يرضىٰ بذلك، وربما أدىٰ إلىٰ وقوع فرقة أو فتنة، فيشترط إذنه في التعزير فقط. وفيها: أَنَّ معرفة الحق لا تكفي عن العَمَل والانقياد، فإن اليهود يعلمون أَنَّ مُحَمَّداً رَسُول الله ويتحاكمون إليه في كثير من الأمور.



الشَّرح (١)



(١) قام فضيلة الشيخ بشرح هذا الجزء من المتن في الكَلَام السابق.



باب: من جَحَدَ شيئاً من الأسماءِ والصِّفَاتِ



الشَّرح

هذا الباب عقده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ وأورد فيه آية واحدة، وهي قوله- تَعَالَى -: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠]، ثُمَّ أورد أثراً عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رواه البُخَارِي: (حدثوا النَّاس بما يعرفون أتحبون أَنَّ يُكذب الله ورسوله)[١] وذكر روايةً من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عبَّاسٍ أَنَّهُ رأىٰ رجلاً انتفضَ لما سمع حديثاً في الصِّفَات، استنكاراً لذلك، فقال ابن عبَّاسٍ: (ما فَرَقَ) أو (ما فرقوا) أو (ما فَرّق) كلها وردت: (**ما فرقوا هؤلاء يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه، ولما سمعت قريش رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر الرحمن أنكروا ذلك، فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠]**)[٢].

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب العلم، بَاب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا، برقم: (١٢٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، كتاب الجامع، بَاب صفة أهل النَّار، برقم: (٢٠٨٩٥)، (١١/ ٤٢٣)، وابن أبي شيبة في المصنف، بَاب ما ذكر في الخوارج، برقم: (٣٩٠٥٧)، (٢١/ ٤٣٧).

أورد الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب عدة مسائل:

المسألة الأولى: تَفسِيرُ الآيَة، فإن قريشـًا لـم تكـن تعرف أَنَّ مـن أسـماء الله عَزَّوَجَلَّ الرحمن، ولهذا في صلح الحديبية عندما جاء سهيل بن عمرو واتفق معه رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الصلح والهُدنـة لمدة عشر سنوات، وأرادوا أَنَّ يكتبوا بذلك كتابًا، فقال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل بن عمرو: أمَّا الرحمنُ فلا نعرفه،أي: ما سمعنا بهذا في أسماء الله، ولكن أكتب: باسمك اللهم. فمحاها النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكتبَ باسمك اللهم[1]، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ توبيخًا لهم وبيانًا لجهلهم؛ لَأَنَّهم يجحدون اسم الله عَزَّوَجَلَّ؛ **لأَنَّ** هم زعموا أَنَّ هناك كاهنًا في اليمامة يُسمىٰ باسم رحمنِ اليمامةِ، فقالوا: لا نعرف إلا رحمنَ اليمامَة.

ثم ذَكر أثرَ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (حدثوا النَّاس بما يعرفون، أتريدون أَنَّ يُكذَّب اللهَ ورسوله)، لا يعرفُ النَّاسُ كلَّ الدِّين، فنحدث النَّاسَ بما تستوعبُه عقولُهم؛ لَأنَّ قَضَايَا الغيبِ بالذات لا تستوعبُها كلُّ العقولِ، فلا ينبغي أَن نُحدثَ النَّاس بما لا تستوعبُه عقولُهم، ندربهم ونربيهم ونرقيهم في المعرفة بحسب استطاعتهم وتحملِّهم وتقبُلِّهم، لا نأتي نناقش قَضَايَا دقيقةً في مسائل الغيبِ عند عوامِّ النَّاس، وَإن كانت حقـًا، صيانةً لعقولِهم، ثُمَّ إنَّ بعضَ المسائلِ ليس كلُّ النَّاس مطالبٌ بأن يعرفها، إنما نحن مطالبون بأن نعرفُ ما جاء في الكِتَاب والسُّنَّةِ من حيثُ العموم، أمَّا التدقيقُ فهذا خاصٌ بالعلماء، ولهذا سيذكر

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الشروط، بَاب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، برقم: (٢٧٣٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، بَاب صلح الحديبية في الحديبية، برقم: (١٧٨٤)، (٣/ ١٤١١).

الشَّارِحُ كلامَ ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّ العُلَمَاء ورد عنهم نهيٌ عن التحديثِ ببعض الأحَادِيث التي قد يفهم النَّاس منها فهماً خاطئاً. لهذا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما بلغه في الحجِ قولَ أناسٍ في بيعةِ أبي بكرٍ أَنَّهُا كانت خلسةً، فغضب، وكاد أَنَّ يخطب فيهم، فنصحه بعضُ الصَّحَابَة وقالوا: يا أمير المُؤمِنينَ إنَّ الحجَّ يجمع النَّاس جميعاً، ولعلك تقول كلمةً لا يفهمُ النَّاسُ معناها، لكن انتظر حتىٰ تعود إلىٰ المدينة فإن فيها أصحابُ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ تتكلَّم فيهم. وفعلاً لم يتكلَّم حتىٰ رجع إلىٰ المدينة؛ لأَنَّ عوامَّ النَّاسِ لا يفهمون كثيراً من القضايا.

فالعوامُّ لا يُخاطَبون بالمسائل الدقيقة، لهذا ورد عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ لا يُحدِّثُ النَّاس بالأحاديث التي يُفهم منها الخروجَ علىٰ السلطان. قال: لأَنَّ هذه الأحَادِيث لها معنىٰ ولها ضوابطُ لا يُدركها عامةُ النَّاس، فلا يُحدِّث عامَّةُ النَّاس بهذه الأحَادِيث. كذلك ورد عن مالك بن أنس أَنَّهُ نهىٰ عن التحديث بحديث الصورة الذي فيه: (**إن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق آدم علىٰ صورته**)[1]، وكان مالكُ يحملُ الحَدِيث علىٰ أَنَّهُ ليس من أحاديثِ الصِّفَات، وكذلك رجَّح ابنُ خزيمةَ وبعده الذهبي رَحِمَهُمَا اللهُ أَنَّهُ ليس من أحاديث الصِّفَات، وكذلك الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ، قالوا: أَنَّ هذا الحَدِيث لم يَردُ إثباتَاً لصفةٍ لله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما الضمير فيه يعود إلىٰ آدمَ، ولا يعودُ إلىٰ الله، وحديث: (**إن الله خلق آدم علىٰ صورة الرحمن**)[2] حديث معلولٌ ضعَّفه ابنُ خزيمة رَحِمَهُ اللهُ، فذكر ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الإمام مالكاً نهىٰ عن التحديث بأحاديثِ الصِّفَات، وهذا الكَلَامُ فيه إجمال،

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الاستئذان،باب بدء السَّلَامُ، برقم: (٦٢٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، بَاب النهي عن ضرب الوجه، برقم: (٢٦١٢)، (٤/ ٢٠١٦).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٣٤٠٤)، (١١/ ٦٠).

وقد استنكر الشَّارِحُ هذا الكلامَ، وكلامُه صحيح، لكن مالكاً نهىٰ عن التحديث بمثل هذا الحَدِيث وما كان علىٰ شاكلته مما قد يُفهمُ خطأً.

وكذلك أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ نهىٰ عن التحديثِ بأحاديثِ الغرائب التي معناها غير واضح في أذهان عامَّة النَّاس. وكذلك بعض التابِعين أنكر علىٰ بعض الصَّحَابَة تحديثَه للحجاجِ بقصةِ العرنيين الذين قتلَهم رَسُولُ الله ﷺ، أو صلبَهم وقطَّع أيديَهم وأرجلَهم من خلاف عندما قاموا بعمل الحِرابة؛ لَأنَّ الحجاجَ كان سفَّاكاً للدماء، فإذا سمع بمثل هذه الأحَادِيث فإنها تُقوِّي عزمَه علىٰ سفكِ الدماء.

كذلك أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (**حفظت من رَسُول الله ﷺ جرابين، أمَّا أحدهما فبثثته، وأمَّا الآخر فلو حدثت به لقُطع هذا البلعوم**)[1]، وأشار بيده إلىٰ حلقه، وهذا في البُخَارِي، قال العُلَمَاء: الجِرابُ الذي حدَّث به يتعلق بالحلال والحرام؛ لَأنَّه لا يجوزُ إخفاءُ شيء منهما، لكن الجراب الثاني يتعلق بالفِتنِ، وما سيحدث من أمور في الأُمَّة الإِسْلَامية، ولعل فيها تسميةً لبعض الأشخاص ممن أصبحوا ولاة، ولهم إمرةٌ بعد رَسُول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فخشي إَن حدَّث بذلك أَنَّ هؤلاء يؤدي بهم هذا الأمرُ إلىٰ أَن يقتلوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس التحديثُ بها مما يجب أَن نعرفَه، إنما هي أخبار عن الغيبيات التي إن عرفناها فبها ونعِمَت، وَإن لم نعرفها لا ينقصُ شيئًا من ديننا، لكنَّ الرَّسُولَ ﷺ قد أخبر بها، وهذا مما يدخل تحت رحمته وحرصِه علىٰ أَن يعرفَ النَّاس كثيراً من أمور الغيب التي ستقع في عصره أو بعد عصره؛ ولهذا أبو هريرة لم يُحدِّث بها؛ لَأنَّه لا يتعلَّق بها إيمانٌ أو عدمُه، فلا يزيدُ إيمانُ من عرفَها، ولا ينقص إيمانُ من جهلَها، أرأيتم كثيراً

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب العلم، بَاب حفظ العلم، برقم: (١٢٠).

من أخبار السَّاعَة لو لم نعرفْه ما يترتب علىٰ ذلك نقصٌ في عقيدتنا، لكن إن سمعناه وجب أَن نَصْدق به، لكن من عرفه فإنه أفضل ممن لا يعرفه.

ثم ذكر أثر ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وهذا رجالُه ثقات ـ: أَنَّ رجلاً سمع حديثاً في الصِّفَات، فانتفض، فقال: (ما بال هؤلاء يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه)[١]، كأنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنكر علىٰ هذا الشَّخْص الذي اقشعرَّ جسمُه أو انتفض جلدُه عند سماع بعضِ الأحَادِيثِ التي لم يستوعبها قلبُه، أو عقلُه.

وكذلك أورد الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللهُ آية آل عمران التي فيها المتشابهات والمحكمات، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٧]، العُلَمَاء لهم في موضع الوقف قولان:

الأول: أَنَّ تمام الوقف علىٰ قوله ـتعالىٰ ـ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾.

والثاني: أَنَّهُ علىٰ قوله ـتعالى ـ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

وكلاهما ورد عن السَلَف، هذه الآيَة تحدثت عن ثلاث قَضَايَا: عن الآيات المُتشَابِهات، والآياتِ المُحكَمات، وعن التأويلِ.

فالذي وقف عند قوله ـتعالى ـ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ أراد بأنَّه لا يعلمُ حقيقةَ الغيب إلا الله، لم يرد به نفياً؛ لأَنَّ التأويلَ وردَ في العربية علىٰ معنيين: تَفسِير الشيءِ، وحقيقةُ الشيء، أمَّا المَعْنَىٰ الثالث الذي ورد في مصطلح المتأخرين ـ وهو صرف اللفظ عن المَعْنَىٰ الظاهرِ إلىٰ معنىٰ خفيٍ بقرينةٍ ـ فهذا

---

(١) سبق تخريجه.

لم يُعرف إلا عند المُتأخِّرين، وليس من معاني العربية،أي: ليس من معانى كلمةِ التأويلِ في لغة العربِ المَعْنَىٰ المُحدَث، فالذي يُفسر القُرآن علىٰ مصطلحات حادثةٍ يكون مُخطِئـًا.

وقوله تعالىٰ: (مُتَشَابِهَاتٌ) قال المفسرون: النَّص المتَشابِه هو الذي لا يُؤخذُ الحكمُ منه، إنَّما يؤخذ الحكمُ من المُحكَم. أي أَنَّ المُتشَابه يحَتاج إلىٰ المُحكَم، مثال ذلك: قوله -تعالىٰ -: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ [الحجر:٩]، (إنا) في لغة العرب تُطلقُ علىٰ الجماعة، والله ﷻ فرد واحدٌ ليس جماعةً، لكن العرب تُطلق لفظ الجماعةِ علىٰ الواحدِ الُمعظَّم، المُعظَّمُ عندهم يُشار إليه بلفظ الجماعةِ، هذا من لغة العرب، ونحن نسمع اليوم في مراسيم الكبارِ أو الرؤساء، يقولون: نحن فلانُ بن فلان، (نحن) هذا أسلوبُ العرب، المُعظَّم يقول: نحن، فلو جاء شخص يقول: أَنَّ الله جماعةٌ ثلاثةٌ كما يقوله النَّصارَىٰ: الله ثالث ثلاثة؛ لَأنَّ أقلَّ الجمع ثلاثةٌ أو اثنان، فالقرآن يدل علىٰ أَنَّ الله ثلاثةٌ، فنقول: لا، هناك آياتٌ أخرىٰ مُصرِّحةٌ بالتوحيد مثل قوله -تعالىٰ -: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة:١٦٣]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص:١]، هذه محكماتٌ تُفسر ما ورد في المتشبهات، والله ﷻ قد ذكر نفسَه الكَريمةَ بلفظ الجمعِ؛ لَأنَّ هذا للتعظيم، لكن إذا جاء أصحابُ المتشابهات الذي في قلوِبهم مرضٌ نردُّ عليهم بالمُحكَم، أمَّا المحكمُ فلا يحتاج في معرفةِ معناه إلىٰ غيرِه.

فالمُتشَابه هو الذي يحتاج في معرفةِ معناه إلىٰ نَصٍ آخرَ، فإذا قلنا: القُرآنُ كلُّه مُتشَابِه، وكلُّه مُحكمٌ، وبعضُه متشابه، وبعضُه محكمٌ، فهو كلام صحيحٌ، ولكلِّ منها وجهٌ، فمعنىٰ كلُّه مُتشابهٌ أي بعضُه يُؤكِّد بعضـًا، ومتشابه في أَنَّهُ مُتقنٌ ليس فيه ركاكةٌ، وليس فيه ضعفٌ في أسلوبه، وليس فيه نقصٌ، ولا ينقضُ بعضَه بعضـًا، ومعنىٰ كله مُحكمٌ بمعنىٰ مُتقنٌ، أمَّا بعضُه مُتشابِهٌ وبعضُه مُحكمٌ؛

فلأن المتشَابه هو النَّص الذي يحتاج في معرفةِ معناه إلىٰ نَصٍ آخر، وليس النَّاس كلهم علىٰ مستوىً واحدٍ في معرفة المُحكَم والمُتشَابِه، بل النَّاس علىٰ درجاتٍ، ولهذا يقول العُلَمَاء: التشابه نسبيٌ،أي: قد يكون مُتشابهـًا عند عالمٍ وغير متشابه عند عالمٍ آخر، مثلاً: أوائل السور (الم) كثير من المفسرين يقول: الله أعلم بمراده. نحن نقول: أَنَّ الله ما أنزل القُرآن إلا ليُتدبر وأمرَ بتدَبره وتفهُّم معناه، فلابد أَنَّ يكون لها معنىٰ، لكن العرب لم ينطقوا الحروف علىٰ المعاني إلا حروفَ الوصل مثل: علىٰ، وإلىٰ، ومن. أمَّا (الم) فالعرب ما تسمي الأشياء بهذه الكيفية، لكنها لها معنىٰ، قال العُلَمَاء: غالب السور عندما تُستفتح بالحروف المقطعة يأتي بعدها ذكرُ الكتاب،﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:١، ٢]، فكأن الله ﷻ يقول: هذا الكتابُ المُتحدَّىٰ به من حروفٍ هي حروفكم (الم)، (عسق) من نفس الحروف، ما جاء بحروف جديدة، وهذه الحروف أنتم تعرفونها، وركَّب منها هذا القُرآن ويتحدَّاكم أَن تُركِّبُوا كلاماً مثل القُرآنِ من هذه الحروف.

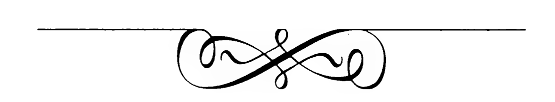
فالمعنىٰ ليس فيه إشكالٌ، وهذا أحدُ الأقوال التي ذكرها الطبري رحمه الله في تَفسِير هذه الحروف، وهو معنىٰ قريبٌ جداً، ولا تنكره الأذواقُ أو الفُهومُ بل تقبلُه؛ لأَنَّ تركيبَ الحروف ومواضعها في بداية السور كأنه يشير إلىٰ أَنَّ كل هذه السورةِ وهذا القُرآن مُركبٌ من هذه الحروف، وهذه الحروف عندكم، فإن استطعتم أَنَّ تأتوا بقرآن مثله من هذه الحروفِ فافعلوا. فالتشابه نِسبي، قد يكون هذا اللفظ مُتشابهـًا عند عالم، ولا يكون مُتشابهـًا عند عالمٍ آخر.

أما من وقف عند قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، فإن هذا القول الحقيقة ضَعِيفٌ؛ لأَنَّ بعدَه رابط، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ﴾ [آل عمران:٧]، أمَّا لو جاء بعده: (ويقولون) لكان الوقف هنا صحيحـًا،

لكن الصَّحِيح أَنَّ الوقف علىٰ قوله- تعالى -: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فيكون المنفِي عن النَّاس هو حقيقةُ الشيء، وليس معناه؛ لَأنَّه لو وقفنا عند الراسخون لكان المراد أَنَّ المَعْنَىٰ يعلمه الله ﷻ ويعلمُه الراسخون، وليست يعلمونها، بل المَعْنَىٰ فقط، أمَّا لو وقفنا عند لفظ الجلالة، فيكون المراد أَنَّ حقيقةِ الغيبيات أو حقائقَ الأخبارش لا يعلمُها إلا الله.

وكلاهما ورد عن السَلَف، لكن الراجح هو الوقف عند قوله –تعالىٰ –: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

هذه المسائل التي أوردها الشَّارِحُ رحمه الله في هذا الباب.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: من أسماء الله وصفاته، والمراد ما حكمه هل هو ناج أو هالك، ولما كان تحقيق التَّوْحِيد بل التَّوْحِيد لا يحصل إلا بالإيمان بالله والإيمان بأسمائه وصفاته نبه المصنف علىٰ وجوب الإِيمَان بذلك، وأيضًا فالتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الرُّبُوبِيَّة، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد العِبَادَة.

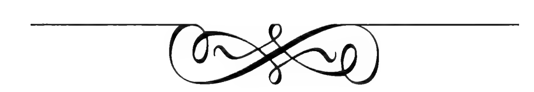
والأولان وسيلة إلىٰ الثالث، فهو الغاية والحكمة المقصودة بالخلق والأمر، وكلها متلازمة، فناسب التنبيه علىٰ الإِيمَان بتوحيد الصِّفَات.



الشَّرح

يقول: أَنَّ هذا الكتاب ألفَّه المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان توحيد العِبَادَة، توحيد الأسماء والصفات، ثُمَّ أشار إلىٰ العلاقة بين هذين النَّوْعين من التَّوْحِيد، فقال: أَنَّ عبادة الرب من فعل العبد، والأسماء والصفات متعلقة بالرب، قلنا: أَنَّ ابنُ تَيْميَة وابن القَيِّم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ كثيراً ما يشيران إلىٰ تقسيم التَّوْحِيد، أحيانًا يقسمانه إلىٰ ثلاثة أقسام، وأحيانًا إلىٰ قسمين، ما الفرق بينهما؟ قلنا: تقسيم التَّوْحِيد إلىٰ ثلاثة أقسام باعتبار نسبته إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، أو باعتبار تعلقه بالخالق، فإذا قلنا: توحيد الرُّبُوبِيَّة فإنه مشتق من كلمة الرب، وإذا قلنا توحيد الإلوهية فهو مشتق من كلمة إله، وتوحيد الأسماء والصفات، أسماء الله وصفاته، هذه الأنواع الثلاثة، وإذا قسمناها بالنسبة لتعلقها بالعبد تكون توحيدين: توحيد المعرفة والإثبات،أي: معرفة العبد للخالق، وتوحيد القصد والطلب توحيد العَمَل.

فالتوحيد بالنسبة للمخلوق ينقسم إلىٰ قسـمين: توحيد معرفـة، أي يجب علىٰ العبد أَنَّ يعرف الله ﷻ معرفةٌ صحيحةٌ، وتوحيدُ العِبَادَة؛ لَأنَّه يجب عليه أَن يخلـصَ العِبَـادَة لله، يُوحِّـد الله في عملِـه، هـذا هـو سَـبَب التقسـيمِ الثلاثـي والثنائي.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠] الآيَة، أي: يجحدون هذا الاسم لا أنَّهُم يجحدون الله فإنهم يقرون به، كما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، والمراد بهذا كفار قريش أو طائفة منهم فإنهم جحدوا هذا الاسم عناداً أو جهلاً، ولهذا لما قال النَّبِيّ ﷺ لعلي يوم الحديبية: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. يعنون مسيلمة الكذاب، فإنه قبحه الله كان قد تسمىٰ بهذا الاسم، وإمَّا كثير من أهل الجَاهِلِيَّة فيقرون بهذا الاسم كما قال بعضهم: وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق.

قال ابن كثير: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي: لا يقرون به؛ لأنَّ هم يأبون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ومطابقة الآيَة للترجمة ظاهرة؛ لأنَّ الله تعالىٰ سمىٰ جحود اسم من أسمائه كفراً، فدل علىٰ أنَّ جحود شيء من أسماء الله وصفاته كفر، فمن جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته من الفَلَاسِفَة والجهمية والمعتزلة ونحوهم فله نَصِّيب من الكُفْر بقدر ما جحد من الاسم أو الصفة.



الشَّرح

قوله: (قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ ...﴾) أشار رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أَنَّ السَّبَب في نزول هذه الآيَة هو قضيةُ صلح الحديبية التي كتب فيها" بسم الله الرحمن الرحيم "، فلم يقبلوا أَنَّ يبدأ الكتابُ بهذا الاسم الذي لم يعرفوه، فأنزل الله ﷻ قولَه -تعالى-: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، ما كفروا به بأن جحدوا بالخالق؛ لأنَّ القُرآنَ أثبت أنَّهُم يعترفون بأن اللهَ هو الخالقُ، لكن جحدهم هنا لاسم الرحمن فقط.

قوله: (قال ابن كثير: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ ...﴾) هنا ذكر طوائفَ جحدَوا أسماء الله ﷻ، فذكر منهم الفَلَاسِفَة الذين كانوا قبل الإِسْلَام، كثيرٌ منهم ليس من أهل الإِيمَان أصلاً، بل وثنيون يعبدون الكواكبَ، فأصلاً لا يعرفون الله ﷻ، وهم قد أسسوا عقيدَتهم علىٰ الخيال، تصوروا من عند أنفسهم كيف يكون الخالقُ، فجاءوا بغرائب، سموا الله بالعلةِ الأولىٰ، أو بالعقلِ الأول، وزعموا أَنَّ العَقْلَ الأول لا يخلُق كلَّ الخلق، إنَّما يخلق عقلاً ثانياً، والعَقلُ الثاني يخلق النَّفْسَ، والنفسُ تخلقُ المادة؛ لَأنَّه ليس هناك اتصالٌ بين العَقْل الأولِ وبين المادة فلابد من واسطةٍ، وهذا كلامٌ غريبٌ، كلامُ جهلةٍ، فهم أولىٰ بأن يتَلمذُوا علىٰ أطفالِ المُسْلِمينَ وليس علىٰ شيوخِ المُسْلِمينَ؛ لَأنَّ هذه المعلومات يعرفُها أطفالُ المُسْلِمينَ. لكن لما جهل بعضُ النَّاس أمورَ دينهم، ورأوا علوم اليونان، وفيها شيء من الصعوبة والتعقيد، ظنوا أَنَّ هذا هو العلمُ الذي ينبغي أَن نسير عليه، فأدخلوه في الإِسْلَام، ومزجوا الإِسْلَامَ بالفلسفةِ، حتىٰ أصبح الإِسْلَامُ مزيجاً من مَنَاهِج الوثنين، فعقّدوا الدِّينَ، وعقّدوا الاعتقادَ والإيمانَ، والذي يقرأ فقهَ المُتكلمين يرىٰ جفاء، وكلاماً غريباً عن الإِسْلَام، كلُّه كلامٌ ليس فيه ذكرُ الله، وليس فيه إلا خيالات.

هذا عبد الجبار الهمذاني زعيمُ المُعْتَزِلَة، كان يُسمىٰ قاضي القضاةِ، عاش في أوائل القرن الخامس، كتب كتاباً سماه (المغني في الاعتقاد) يبلغ عشرين مجلداً، ولو طُبع طباعةً عاديةً لبلغ ستين مجلداً، كلُّه كلامُ شُبَهٍ، وبعضُ كبار العُلَمَاء اتبعوا بعض أفكارِ الاعتزال مثل الرازي والجويني والغزالي، هؤلاء كانوا من الأشاعرةِ ولكنَّهم تأثروا بأفكار المُعْتَزِلَة فيما يتعلَّق بتوحيدِ الرُّبُوبِيَّة، ولكن في آخر حياتهم ندمُوا وتابوا إلىٰ الله، وحذَّروا من علمِ الكلام؛ لَأنَّه كلامٌ يبعث علىٰ الشُبَهِ، ولهذا قالوا: أَنَّ الرازي رحمه الله يسوق الشُبهةَ في كتابه التفسير نقداً ويردُّ عليها نسيئةً، يقول: قد تقدَّم الجواب عنها، كأنه يعطيك الشبهةَ حارةً

جاهزةً، ويقول: ابحث عن الجواب. وقد يضعفُ الشَّخْص عن البحث، ثُمَّ هو يسوقُ الشُبَهَ قويةً، بل ربما يتبرع أحياناً بإيراد أدلةٍ عليها علىٰ لسانِ أصحابها وهم لم يذكروا هذه الأدلةَ، ثُمَّ يردُّ عليها رداً ضَعِيفاً، حتىٰ قال بعضهم: أنَّهُ يضطجع علىٰ فراشه بعد صلاةِ العشاء، ويبقىٰ إلىٰ الفجر يسوقُ أدلةَ الطرفين ولا يستطيع أَن يُرجح أيهما أقوىٰ، هل هي أدلة المثبتين أم هي أدلةُ النَّافين؟ لَأنَّها شُبَهٌ.

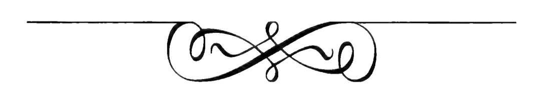
لكن الذي يقرأ القُرآنَ والسنةَ يرىٰ فيهما نوراً، يرىٰ فيهما تربيةً، يرىٰ فيهما إيماناً، ولهذا كتبُ السَلَف ﷺ كلها مملوءة بالأدلة القُرآنية، والأحاديثِ النَّبوية تنتقل من آيةٍ إلىٰ آية، ومن حديثٍ إلىٰ حديث، ما ترىٰ فيه هذا الكَلَام المُعقَّد.

فالفلاسفة في الحقيقة قومٌ دخلاءُ علىٰ الإِسْلَام، ولا يجوز أَنَّ نسميَهم فلاسفةَ الإِسْلَام؛ لَأنَّه ليس في الإِسْلَام فلسفةٌ، الفَلْسَفَة دينٌ مثلُ اليهودية، فكما لا يجوز أَنَّ نقول: يهوديةُ الإِسْلَام، أو يهودُ المُسْلِمينَ فكذلك الفَلْسَفَة دينُ عقيدةٍ لها أتباعها، ولها مَنَاهِجها، ولها زعماؤها، وهكذا ما جدَّ في حَيَاة النَّاس اليوم، فلا يُقال ـ مثلاً ـ: ديمقراطية الإِسْلَام، ولا اشتراكية الإِسْلَام، ولا رأسمالية الإِسْلَام، كل هذا إقحام للدين في أمر لا علاقةَ له به، بل عدوٌ له، بينهما تضاد، الإِسْلَام وحدَه دينُ الله، كفىٰ به شرفاً وفخراً أَن يقال: الإِسْلَام، أمَّا هذه المصطلحات الدخيلة فإنها كلها مردودةٌ، فترىٰ في كتبهم ـ ككتاب من سموهم بالمعلم الأول مثل الفارابي، أو الرئيس مثل ابن سينا ـ فترىٰ فيها كلاماً عجيباً، معاني الوثنيين ملبسة بألفاظ إسلامية، المَعْنَىٰ وثني جاهلي، واللفظ إسلامي، فأخذوا يسمون العَقْل الأول وقالوا: أنَّهُ هو الله، أو أنَّهُ هو القلم، وكل هذا كذب، الفَلَاسِفَة ما أطلقوها علىٰ معانٍ شَرْعِية، كلها معانٍ خيالية، ثورات ذهنية، والغيب لا يُعرف عن طريق التخمين، لو أَنَّ شخصاً

الآن طرق الباب لما جاز لشخص أَنَّ يقول: خلفه شخصٌ صفتُه كذا وكذا. هذا غيبٌ، لكن إذا جاء شخصٌ من عنده وقال: عند الباب شخصٌ وصفه كذا وكذا صدقناه؛ لَأنَّ هذا الشَّخْص المُخبر الذي عاينَ الحقيقةَ أو أُخبرَ بها عن طريق شخصٍ آخر، فالغيبُ لا يُعرَف إلا عن طريقِ الأنبيَاءِ،أمَّا الذي يقول فيه بعقلِه يأتي بكلامٍ سخيفٍ منحطٍ، فنحن أولىٰ بأن نُعلمَ هؤلاء من أَن نأخذَ منهم. المُعْتَزِلَة ثمرةُ الفَلْسَفَةِ، والأشاعرةُ ثمرةُ المُعْتَزِلَة.

فهذه الطوائف التي أنكرت أسماء الله ﷻ أو صفاته أو بعضها يلحقهم شيءٌ من الذمِّ، وَإِنَ كانوا هم لم يرُدُّوها كما ردَّها الكُفَّار، بل تأولوا، وسبب التأويلِ أنَّهُم وضعوا قواعدَ من أنفسهم، وحاكموا إليها النَّصوْص الشَرْعِية، فما وافقها قبلُوه، كما ذكر ابنُ تَيْميَة رحمه الله عن الرازي أنَّهُ وضع قانونـًا عقليـًا حيث قال: " إذا اختلف العَقْلُ والنقلُ قدمنا العَقْلَ علىٰ النقلِ "، كلُّ إنسانٍ له عقلٌ فلو أنا حكَّمنا عقولَنا كيف نَخرجُ بنتيجة؟ لا نَخرجُ إلا بنتيجةٍ مضطربةٍ، لكنَّ الوَحْي واحدٌ، فنتحاكمُ إلىٰ الواحدِ أفضلَ وأصحَّ من أَن نتحاكمَ إلىٰ آلاف وملايين العقولِ.

فالرازي وضع هذا الميزانَ فما قبِلَهُ العَقْلُ من شرع الله قَبِلَه، وما ردَّه العَقْلُ - عقلُه هو - ردَّه، ولهذا نرىٰ المُعْتَزِلَة مُتناقِضين، وبعضُهم يُكفِّر بعضـًا، ولو كان العَقْلُ أهلاً لَأنَّ يُحَكَّمَ لما اختلفوا، بل الأبُّ يكَفِّر ابنَه، والابنُ يكفِّر أباه، لكن نأتي إلىٰ مَنْهَج السَلَف نجدهم كلَّهم مُتفقُون، قد يقع منهم خلافٌ في أشياء بسيطةٍ لا يضرُّ الخلافُ فيها، ولا يُوَجَدُ بينهم خلافٌ في الأصولِ، فَنُفَاةُ الصِّفَاتِ هم الفَلَاسِفَة والجَهمية والمُعتزلةُ، والجهميةُ هم أساسُ الاعتزال، لكن الجهمية كفرقةٍ اندثَرت، وعقائدها تبناها المُعْتَزِلَةُ والأشاعرةُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن الجهمية والمعتزلة ونحوهم وَإِن كانوا يقرون بجنس الأسماء والصفات فعند التحقيق لا يقرون بشيء؛ لأنَّ الأسماء عندهم أعلام محضة لا تدل علىٰ صفات قائمة بالرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا نَصُّ كفر الذين جحدوا اسم الرحمن.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد:٣٠].

ش: أي: قل يا مُحَمَّد راداً عليهم في كفرهم بالرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، (هُوَ) أي: الرحمن عَزَّ وَجَلَّ (رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) أي: لا معبود سواه، (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) أي: إليه مرجعي وأوبتي، وهو مصدر من قول القائل: تبت متاباً وتوبة. قاله ابن جرير.

وفي الآيَة دليل علىٰ أَنَّ التَّوَكُّل عبادة وعلىٰ أَنَّ التوبة عبادة، وإذا كان كذلك فالتوبة إلىٰ غيره شِرْكٌ، ولما قال سارق وقد قُطعت يده للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلىٰ مُحَمَّد قال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (عرف الحق لأهله) رواه أحمد.

قال: (وفي صحيح البُخَارِي قال علي: حدثوا النَّاس بما يعرفون أتريدون أَنَّ يُكذب الله ورسوله).

ش: هذا الأثر رواه البُخَارِي مسنداً لا معلقًا، لكنه في بعض الروايات علقه أولاً ثُمَّ ذكر إسناده، وفي بعضها ساق إسناده أولاً فرواه عن عبيد الله بن مُوسَىٰ عن معروف بن خربوذ عن أبي الطفيل عن علي به ولفظه: (أتحبون أَن يُكذب الله ورسوله).

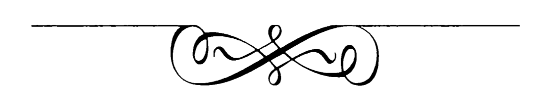
قوله: (بما يعرفون) أي: بما يفهمون، قال الحافظ: وزاد آدم بن أبي إياس في كتاب العلم له عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره: (ودعوا ما ينكرون) أي ما يشتبه عليهم فهمه، قال: وفيه دليل على أَن المتشابه لا ينبغي أَن يُذكر عند العامة.



الشَّرح

قوله: (قال النَّبِيّ ﷺ: **عرف الحق...**)[1] هذا الحَدِيث لا يصحُّ، سندُه فيه ضعفٌ، وفيه الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو مُدلِّس، والمُدلِّسُ إذا عَنعَنَ،أي: قال: عن، فإن احتمالَ التدليسِ واردٌ.

قوله: (**قال الحافظ: وزاد آدم بن أبي...**) هذا كلام الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (١٥٥٨٧)، (٣٤/ ٣٥٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة، برقم: (٧٧٣٥)، (٤/ ٣٨٧)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٨٣٨)، (١/ ٣٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمَان، بَاب في تعديد نعم الله - عَزَّ وَجَلَّ - وما يجب من شكرها، برقم: (٤٤٢٥)، (٤/ ١٠٣)، وصححه الحاكم ولكن ضعفه الذهبي في التلخيص، والهيثمي في مجمع الزوائد (١١/ ٧٧)، وليس فيه قصة قطع اليد، بل فيه أنَّهُ ﷺ أتي بأسير، فقال هذا الكلام.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومثله قول ابن مسعود: (ما أنت محدثًا قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) رواه مسلم.

قال: ومن رأىٰ التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحَادِيث التي ظاهرها الخروج علىٰ السلطان، ومالك في أحاديث الصِّفَات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين، وَأَنَّ المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أَنَّهُ أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين؛ لَأَنَّ ه اتخذها وسيلة إلىٰ ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك أَنَّ يكون ظاهر الحَدِيث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يُخشىٰ عليه الأخذ بظاهره مطلوب. انتهىٰ.



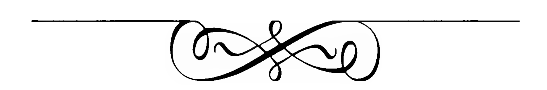
الشَّرْح

قوله: (ومثله قول ابن مسعود: (ما أنت محدثًا...)[1] الحَدِيث الأول: حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه البُخَارِي ولم يروه مُسلم، وحديث ابن مسعود رواه مسلمٌ ولم يروِه البُخَارِي، وكلاهما بمعنىً واحدٍ.

قوله: (قال: ومن رأىٰ التحديث ببعض دون...) انتهىٰ النقل من (فتح الباري)، هنا قعَّدَ رَحِمَهُ اللَّهُ قاعدةً: إذا كان إنسانٌ يميلُ إلىٰ جانبٍ من الدِّينِ أكثر من الجانبِ الثاني لا نحدثُه بما يقوي ميلَه، بل بما يعيدُه للتوازن، فنأتي للخوارج نُحدِّثُهم بأحاديثِ الرَّجَاءِ، ونأتي إلىٰ المُرجِئةِ فنُحدثُهم بأحاديثِ الوعيدِ؛ لَأَنَّ الشَّخْصَ إذا كان مائلاً أكثرَ إلىٰ اتجاه يحتاجُ إلىٰ أَن يرجعَ إلىٰ

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، برقم: (١٤)، (١/ ١٠).

الوسطِ، فالحَجَّاج كان يميـل إلـىٰ سفك الـدماءِ، ويقـول: كـلُّ مـن بـايع الإمـامَ ونكسَ البيعةَ وجبَ قتلُه، ولهذا استحل دمـاءَ كثيرٍ مـن التَّابعين، فعنـدما سـمع حديث العرنيين جَعَلَ هذا الحَدِيث من أدلَّته علىٰ سفكِه الـدماء، فـلا يُحـدثُّ الحجاجُ بمثل هذا الحَدِيث، وَإن كان الحَدِيثُ صحيحـًا؛ لَأنَّـه هو نفسه متجـهٌ إلىٰ العقابِ فيحتاجُ إلـىٰ أَن يُراجـعَ إلـىٰ الاعتـدالِ بالأحاديـثِ التـي تُعظِّـم قتـلَ المُسْلِمِ؛ لَأنَّ هناك أحاديثَ بعضَها يُفسِّر بعضـًا، ولهذا يقول العُلَمَاء: نرد علىٰ المُرجِئةِ بأحاديثِ الخوارج، وعلـىٰ الخـوارج بأحاديـث المرجئـة، فـإن الـدِّينَ وسطٌ بين الطرفين. هذا النقـل مـن ابـن حجَـرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ و الشَّـارِحُ عقَّـب عليـه فيمـا يلي.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

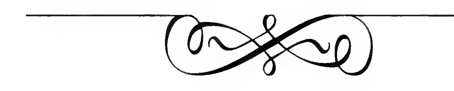
وما ذكره عن مالك في أحاديث الصِّفَات ما أظنه يثبت عن مالك، وهل في أحاديث الصِّفَات أكثر من آيات الصِّفَات التي في القُرآن، فهل يقول مالك أو غيره من علماء الإِسْلَام أَنَّ آيات الصِّفَات لا تتلىٰ علىٰ العوام، وما زال العُلَمَاء قديمًا وحديثًا من أصحاب النَّبِيّ ﷺ ومن بعدهم يقرؤون آيات الصِّفَات وأحاديثها بحضرة عوام المُؤمِنينَ وخواصهم، بل شرط الإِيمَان هو الإِيمَان بالله وصفات كماله التي وصف بها نفسه في كتابه، أو علىٰ لسان رسوله ﷺ، فكيف يكتم ذلك عن عوام المُؤمِنينَ؟ بل نقول: من لم يؤمن بذلك فليس من المُؤمِنينَ، ومن وجد في قلبه حرجًا من ذلك فهو من المُنافِقين، ولكن هذا من بدع الجهمية وأتباعهم الذين ينفون صفات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فلما رأوا أحاديث الصِّفَات مبطلة لمذاهبهم قامعة لبدعهم تواصوا بكتمانها عن عوام المُؤمِنينَ لئلا يعلموا ضلالهم وفساد اعتقادهم، فاعلم ذلك.



الشَّرح

هنا عقب الشَّارِحُ علىٰ رواية ابن حجر عن مالك رَحِمَهُمَا اللَّهُ بأنه كان يكره التحديث بأحاديث الصِّفَات، ولعل ابن حَجرٍ فهم ذلك من بعض كلامِ مالكٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وإلا فإن الإمامَ مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ لم يَكره التحديثَ بأحاديثِ الصِّفَاتِ، إنَّما كرِه الحَدِيثَ بأحاديثٍ مُعينةٍ. قال ابن القاسم وابن وهب وكلاهما من تلاميذِ مَالكٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: كرهَ مالكٌ أَن يُحدِّثَ بها عوامَّ النَّاس أي: حديثُ الصورةِ وما أشبهه وما كان مثلُه؛ لأنهم لا يعرفون وجهَه، ولا تبلغُه عقولُهم، فينكروه أو يضعوه في غير موضعِه، جاء هذا في ترتيبِ المداركِ للقاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكثير من المالكيةِ من المُئَوِّلَةِ، وهم قد مالوا إلىٰ مذهبِ الأشاعرةِ في التأويل، وهم يميلون إلىٰ عدم ذكرِ أحاديثِ الصِّفَاتِ، فربما أَنَّهُم توسَّعوا في الرِّواية، لكن مالكـًا ﷺ كما قال عنه هذان التلميذان إنَّما كره حديثًا واحداً، وما كان مثله مما لا يعتبره من أحاديثِ الصِّفَاتِ، إنَّما قد يفهم منه بعضُ النَّاسِ خطأً أَنَّهُ من أحاديثِ الصِّفَاتِ، فهذا مذهبه ﷺ لا أَنَّهُ ينهىٰ عن التَّحديثِ بأحاديثِ الصِّفَات مع أَنَّهُ كان من رُواتِها.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الأثر دليل علىٰ أَنَّهُ إذا خشي ضرر من تحديث النَّاس ببعض ما يعرفون فلا ينبغي تحديثهم به، وليس ذلك علىٰ إطلاق، وَأَنَّ كثيراً من الدِّين والسنن يجهله النَّاس، فإذا حدثوا به كذبوا بذلك وأعظموه، فلا يترك العالم تحديثهم، بل يعلمهم برفق ويدعوهم بالتي هي أحسن.



الشَّرح

قَضَايا الدِّين نوعان:

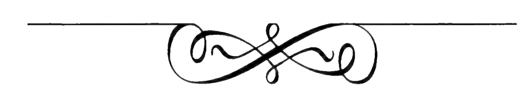
النَّوْعُ الأول: قَضَايَا نحتاج فيها إلىٰ أَنَّ نعرف مفرداتها وأجزاءها.

النَّوْعُ الثاني: قَضَايَا لا نحتاج فيها إلا إلىٰ الإِيمَان العام.

فإذا كان الإِيمَان العام يكفي وكان التفصيلُ ربما يؤدي إلىٰ فتنةٍ، فلا داعيَ للتفصيل؛ لأَنَّ أكثر التفاصيلِ إنما أظهرَها وأثارَها وأخرجَها كثرةُ الخلافِ بين العُلَمَاء، أَمَّا الإِسْلَامُ فقد جاءَ بالأشياء مُجمَلةٍ. فروايةُ ما وردَ في الكِتَابِ والسُّنَّة علىٰ الإجمالِ ليس فيها حرجٌ، بل لابد منه، لكنَّ المسائلَ الدقيقةَ التي يقع فها الخلافُ بين العُلَمَاءِ ولا يحتملها أذهانُ كل النَّاس فلا يُحدَّث النَّاس بها، فلا يُحدَّث بقضايا الخلافِ العَقدي الدقيقِ في كلِّ مجلسٍ وفي كل اجتماعٍ، إنما يحدثون بالآيات والأحاديثِ التي فيها الأشياء الأساسية والقواعدِ العامَّةِ، أَمَّا التدقيقات فلا يُحدَّث النَّاسُ بها إلا إذا كانت تستوعِبُها عقولُهم، وليس هناك ما يؤدي إلىٰ فتنةٍ؛ لأَنَّ اللهَ لو أراد أَن يُفصِّل لفصلَّ، فإذا ما فصلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما نُفصِّلُ، فكثيرٌ من قَضَايَا الاعتقادِ أو من مسائلِ الفِقْه الإِسْلَامي ذكرَ العُلَمَاءُ فيها من الجزئيات التي لا يترتب عليها فائدةٌ تُذكر، والذي يقرأ في الفِقْه الإِسْلَامي ما ينقضُ الوضوءَ أو ما يُوجبُ الغُسلَ تدقيقات بعضها يستحيِ من

ذِكرِه، والقُرآن والسنة ليس فيهما هذا الكلام، يقرأ هـذه خـواص الطلبـة فقـط، أمَّا عامةُ النَّاس في الاجتماعـات العامَّـةِ والمسـاجدِ واللقـاءاتِ العامَّـةِ فمـا يُقـرأ عندهم هذا الكلامُ، إنَّما تُقرأُ الَجليات والأشياء العامَّة، فعلىٰ سبيل المثال: يقول بعضُ الفِقْهاء لـو وقـف إنسانٌ في الصَّلَاةِ، وعلىٰ ظهرِه قِربـةُ فُسَاءٍ، كـذا قالوا، لكن كيف تُجمعُ قِربةُ الفُساءِ؟. فكيف تذكره عند عامةِ النَّاس أَنَّ إنسـانًـا وقف في الصَّلَاة وعلىٰ ظهرِه قِربة فُساءٍ، أو في جيبه بالونةٌ صغيرةٌ مملوءةٌ فُساءً، هـل هـذا يـنقضُ الصَّـلَاة؟، فمثـل هـذا الكَـلَام كثيـر في الفِقْـه وخاصـةً عنـد المتأخرين من الفِقْهاءِ، الذين تصوروا وتخيلوا خيالاتٍ غريبةٍ جداً!.

فهذا الكَلَامُ لا يُذكر إلا إذا كانت هناك قَضَايَا يحتاجُها الفقيه، أمَّا مِثلُ هـذا الكَـلَام فـلا يُحـدَّثُ بـه عامَّـةُ النَّـاسِ؛ لَأنَّـه يصـبح مـن التَّنـدُّرِ والسُّـخريةِ والاستهزاءِ، وربما يُعرضُهم للاستهزاء بدينِ الله، ونكونَ السَّبَب في ذلـك. فـإنَّ هنـاك قَضَـايَا حادثـةً عنـد الفِقْهـاء والعلمـاءِ لا يُحـدَّثُ بهـا إلا خـواصُّ النَّـاس، والـذي يقـرأ كُتـبَ الشـروحاتِ الطويلـة في الفِقْـه الإِسْـلَامي يـرىٰ عجبـًا، فقـد ذكـروا أشـياء لا ينبغـي أَنَّ تُـذكرَ، ولا أدري كيـف جـاءت هـذه الخيـالات؟ فالمسـائل التـي لا يحتاجَهـا النَّـاس وإنمـا تحـدثُ للنَّـاس نـادراً، وذكرهـا ربمـا يُشوشُ الأذهانَ لا داعي لذكرها في المُجْتَمَعات العامَّةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: (وروىٰ عبد الرزاق عن معمر عن طاوس عن أبيه عن ابن عبَّاسٍ أَنَّهُ رأىٰ رجلاً انتقض لما سمع حديثًا عن النَّبِيِّ ﷺ في الصِّفَات استنكاراً لذلك، فقال: ما فرق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه) انتهىٰ.

قوله: (روىٰ عبد الرزاق) هو ابن همام الصنعاني الإمام الحافظ صاحب التصانيف كالمُصَنَف وغيره، روىٰ عنه أحمد بن حنبل، ويحيىٰ بن معين، وخلق لا يحصون، مات سنة إحدىٰ عشرة ومائتين، ومَعْمَر هو ابن راشد الأزدي أبو عروة البصري نزل اليمن، ثقة ثبت، مات سنة أربع وخمسين ومائة وله ثمان وخمسون سنة.

وابن طاوس هو عبد الله بن طاووس اليماني ثقة فاضل عابد، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وأبو طاووس بن كيسان اليماني ثقة فقيه فاضل من جلة أصحاب ابن عبَّاسٍ وعلمائهم، مات سنة ست ومائة.



الشَّرح

قوله: (قال: وروىٰ عبد الرزاق عن معمر...) معمر بن راشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو شيخ عبد الرزاق الصنعاني، ولهذا أكثرُ أسانيدِه عن هذا الشيخ الجليل.

قوله: (وابن طاوس هو عبد الله...) رجالُ السَّندِ: عبد الرزاق يمني، وشيخُه معمر بصري لكنه نزل اليمن، وشيخ معمر عبد الله بن طاووس يمني، وطاووس يمني، وابن عبَّاسٍ مكي، فكيف التقَوا؟ طاووس كان يعيشُ في مكةَ في آخرِ حياتِه، وابنه تلقىٰ العلمُ منه، ثُمَّ رحل إلىٰ اليمن، أو رحلَ إليه معمر، وهو مارٌّ من البصرة، ثُمَّ انتقل الحَدِيثُ إلىٰ عبد الرزاق في كتابه، له كتابٌ اسمُه

(المُصَنَّف)، فيه قُرابةُ ثمانية وعشرين ألف حديث وأثر، وهو قبلُ مُسندٍ ابن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جمعَ فيه الأحَادِيثَ المرفوعةَ وفتاوىٰ الصَّحَابَةِ وأقوالَ التَّابعين، مزَجها مزجًا، كذلك مُصنفٌ آخر لعالمٍ آخر وهو أبو بكر بن أبي شيبة، كلاهما ألفا كتابًا سماه (المصنف)، ثُمَّ جاء العُلَمَاء بعدهما وألفوا الكتب باسم آخر، المسانيد، أو الصحاح، أو السنن أو المعاجم، وكل منها له ترتيب، المصنف علىٰ حسب الموضوعات، وكذلك السنن علىٰ حسب الموضوعات، أمَّا المسانيدُ فبحسبِ الشيوخِ، شيوخِ المُؤَلِّفِ، أو بحسب الصَّحَابَةِ، فشيوخُ المُؤَلِّفِ يذكرُ أحاديثَه كلها في مكان واحدٍ، أو أحاديث الصَّحَابِي الواحدِ في مكانٍ واحدٍ، فالمسندُ للإمام أحمد رَتَّبَ فيه الأحَادِيثَ علىٰ حسبِ الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، لكن فرَّق بين رواية الشاميين ورواية الحِجازيين، جَعَلَ رواية الشامين علىٰ حدة، ورواية الحجازيين علىٰ حدة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (إنه رأىٰ رجلاً) لم يسم هذا الرجل.

قوله: (انتفض) أي ارتعد لما سمع حديثًا عن النَّبِيّ ﷺ فاستنكره إِمَّا لأَنَّ عقله لا يحتمله، أو لكونه اعتقد عدم صحته فأنكره.

قوله: (فقال) أي ابن عبَّاسٍ، وهو عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (ما فرق هؤلاء) يحتمل وجهين:

أحدهما: أَن تكون (ما) استفهامية إنكارية، و(فَرَق) بفتح الفاء والراء وهو الخَوْف والفزع، أي ما فزع هذا وأضرىٰ به من أحاديث الصِّفَات واستنكارهم لها.

والمراد الإنكار عليهم فإن الواجب علىٰ العبد التسليم والإذعان والإيمان بما صح عن الله وعن رسوله ﷺ، وَأَنَّ لم يحط به علمـًا، ولهذا قال الشافعي: آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله وما جاء عن رَسُول الله علىٰ مراد رَسُول الله.



الشَّرح

قوله: (قوله: ما فرق هؤلاء...) أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَن يقول في قولِه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (ما فَرَق هؤلاء) أو (ما فَرَّق هؤلاء) هل هنا (ما) استفهاميةٌ أو نافيةٌ للنَّفي؟ فقال: كلاهما مُحتملٌ:

فإذا كانت استفهاميةً فتكون من بَاب الإنكار،أي: هو استفهامُ إنكاري.

وإذا كانت للنفي فيُرادُ به أَنَّ هؤلاء ما فرّقوا بين الحقِّ والباطل، بتشديدِ الراء، ويجوزُ تَخفيفُها.

فإذاً (ما فَرَق) ما فزِعَ، في الأول، وفي الثانيةِ (ما فَرَّق) بالتشديد، (فما فَرَّق هؤلاء)أي: ما فرَّقُوا بين الحقِّ والباطلِ في النافية، وإذا كان للاستنكارِ ما فَرَقُوا أي: ما الذي يُفزِعُهم؟ فيكون المَعْنَىٰ بحسبِ احتمالِ اللفظ.

قوله: (**والمراد الإنكار عليهم فإن الواجب...**)أي: المُسْلِم إذا جاءه الحَدِيثُ أو النَّص سواء فهمَه أو لم يفهمْه، سواءَ أدركَه عقلُه أو لم يدركه فإنَّه يقبُله، والعَقْلُ البَشَري محدودٌ، قد ينكر العَقْل البَشَري شيئاً إنكاراً شديداً، وعندما تظهرُ له الحكمةُ ينقلبُ إنكارُه إلىٰ إقرارٍ، مثالُ ذلك: ما وقعَ بين مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ والخَضِرِ، الخَضِرُ يقتلُ طفلاً صغيراً وهذا ذنبٌ في الظاهر، فأنكر عليه مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما تَحمَّلَ، السفينةَ وخرقها، ما تحمل مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن بعد أَنَّ أخبره بالحكمةِ سلَّم.

فالعقلُ البَشَريُ قدرتُه وعملُه محدودان، فلا ينبغي أَن يكون حكماً علىٰ قَضَايَا الدِّين؛ لَأنَّ الدِّين من ربِّ العالمين، من تشريعِ الله وإنزالِه، وعلمُ الله واسعٌ، والعقلُ معرفتُه قليلةٌ، فلا ينبغي أَن تجعلَ المعرفةَ القليلةَ ميزاناً تَزِن به كلَّ شيءٍ، فلتُسلِّم إن عرفَ عقلُك أو لم يعرف؛ لَأنَّ القدرةَ العَقْلية ما تحيط بكل شيء، كما قلنا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر واستغرب ظاهرَ فعلِ الخَضِرِ، لكن عندما عرفَ الحكمةَ سلّم، وعرف أَنَّ هذا له وجهٌ.

وهكذا الإنْسَان قد ينكر بعض الأَحَادِيثِ أو قد لا يقبَلُها عقلُه؛ لَأنَّ عِلمَه محدودٌ، لكن المُسْلِم مطالبٌ بالتسليم لِما أخبرَ به اللهُ -تَعالَىٰ- أو رسولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أولُ صفاتِ المُؤمِنينَ الإِيمَانُ بالغيبِ أي: التصديقُ والتسليمُ، وهذا من رحمة اللهِ، ما كلفَك أَن تبحثَ، سَلِّم، واشتغل بشيءٍ آخرَ، وإلا فلو كلَّفنا اللهُ بأن نخوض في الغيب لهلكنا؛ لأَنَّ الله ما أعطانا من الوسائلِ التي تؤهلنا للبحث في قَضَايَا الغيب.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والثاني: أَنَّ يكون بفتح الفاء وتشديد الراء ويجوز تخفيفها، و(ما) نافية أي: ما فرق هذا وأضرابه بين الحق والباطل، ولا عرفوا ذلك، فلهذا قال: (يجدون رقة) وهي ضد القسوة أي لينًا وقبولاً للمحكم، (ويهلكون عند متشابهه) أي ما يشتبه عليهم فهمه؛ لأَنَّ آيات الصِّفَات هي المتشابه كما تقوله الجهمية ونحوهم؛ ولأن في القُرآن متشابهًا لا يعرف معناه كالألفاظ الأعجمية، فإن لفظ التشابه والمتشابه يدل علىٰ بطلان ذلك، وإنما المراد بالمتشابه أي: ما يشتبه فهمه علىٰ بعض النَّاس دون بعض، فالمتشابه أمر نسبي إضافي، فقد يكون مشتبهًا بالنسبة إلىٰ قوم بينًا جلياً بالنسبة إلىٰ آخرين، ولهذا قال النَّبِيّ ﷺ لما خرج علىٰ قوم يتراجعون في القُرآن فغضب وقال: (بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم علىٰ أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض، وَأَنَّ القُرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضًا، ولكن نزل لأن يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه عليكم فآمنوا به) رواه ابن سعد وابن الضريس وابن مردويه.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧]، قال ابن كثير: يخبر تعالىٰ أَنَّ في القُرآن (آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ) أي: بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها علىٰ أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة علىٰ كثير من النَّاس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلىٰ الواضح منه، وحكم محكمه علىٰ متشابهه عنده فقد اهتدىٰ، ومن عكس انعكس، ولهذا قال: (هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه

(وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل أشياء أخرىٰ من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، ولهذا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ضلال وخروج عن الحق إلىٰ الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أَنَّ يحرفوه إلىٰ مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نَصِّيب لهم فيه؛ لَأَنَّه دافع لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم إيهامًا لهم أَنَّهُم يحتجون علىٰ بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم انتهىٰ.

وقال ابن عبَّاسٍ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران:٧] أي:: أهل الشك فيحملون المحكم علىٰ المتشابه والمتشابه علىٰ المحكم ويلبسون فلبس الله عليهم، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] قال: تأويله يَومَ القِيَامَةِ لا يعلمه إلا الله. رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] تقدم كلام ابن عبَّاسٍ، وقال مقاتل والسدي: يبتغون أَنَّ يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القُرآن.

قلت: فهذا التأويل الذي انفرد الله بعلمه هو العلم بحقائق الأشياء وما تؤول إليه وعواقبها كالإخبار بما يكون، وما في الجَنَّة من النعيم، وما في النَّار من العذاب، فإن هذه الأمور وإَن علمناها لكن العلم بحقائقها مما لا يعلمه إلا الله، ولهذا قال ابن عبَّاسٍ: (ليس في الدُّنْيَا مما في الجَنَّة إلا الأسماء)، فعلىٰ هذا يكون الوقف علىٰ الجلالة كما روي عن جماعة من السَلَف، وقيل الوقف علىٰ قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] أي: ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم،

فأما أهل الزيغ فلا يعلمون تأويله، وعلىٰ هذا فالمراد بتأويله هو تَفسِيره وفهم معناه، وهذا هو المروي عن ابنْ عبَّاسٍ وجماعة من السَلَف. قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عبَّاسٍ: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعرفون تأويله ويقولون آمنا به. وكذا قال الربيع بن أنس وغيره، فقد تبين ـ ولله الحمد ـ أَنَّهُ ليس في الآَيَة حجة للمبطلين في جَعَلَ هم ما أخبر الله به من صفات كماله هو المتشابه، ويحتجون علىٰ باطلهم بهذه الآَيَة، فيُقال: وأين في الآَيَة ما يدل علىٰ مطلوبكم؟ وهل جاء نَصٌ عن الله أو عن رسوله ﷺ أَنَّهُ جَعَلَ ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله متشابهـًا؟ ولكن أصل ذلك أَنَّهُم ظنوا أَنَّ التأويل المراد في الآَيَة هو صرف اللفظ عن ظاهره إلىٰ ما يحتمله اللفظ لدليل يقترن بذلك، وهذا هو اصطلاح كثير من المتأخرين، وهو اصطلاح حادث فأرادوا حمل كلام الله علىٰ هذا الاصطلاح فضلوا ضلالاً بعيداً، وظنوا أَنَّ لنصوص الصِّفَات تأويلاً يخالف ما دلت عليه لا يعلمه إلا لله كما يقوله أهل التجهيل، أو يعلمه المتأولون كما يقوله أهل التأويل. وفي الأثر المشروح دليل علىٰ ذكر آيات الصِّفَات وأحاديثها بحضرة عوام المُؤمِنينَ وخواصهم، وَأَنَّ من رد شيئـًا منها أو استنكره بعد صحته فهو ممن لم يفرق بين الحق والباطل بل هو من الهالكين، وأنه ينكر عليه استنكاره.

قال: ولما سمعت قريش رَسُول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠].

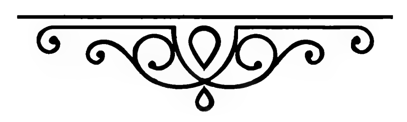
هكذا ذكر المصنف هذا الأثر بالمعنىٰ، وقد روىٰ ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في الآَيَة قال: هذا لما كاتب رَسُول الله ﷺ قريشـًا في الحديبية كتب

بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: لا نكتب الرحمن ولا ندري ما الرحمن ولا نكتب إلا باسمك اللهم، فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠] الآيَة.

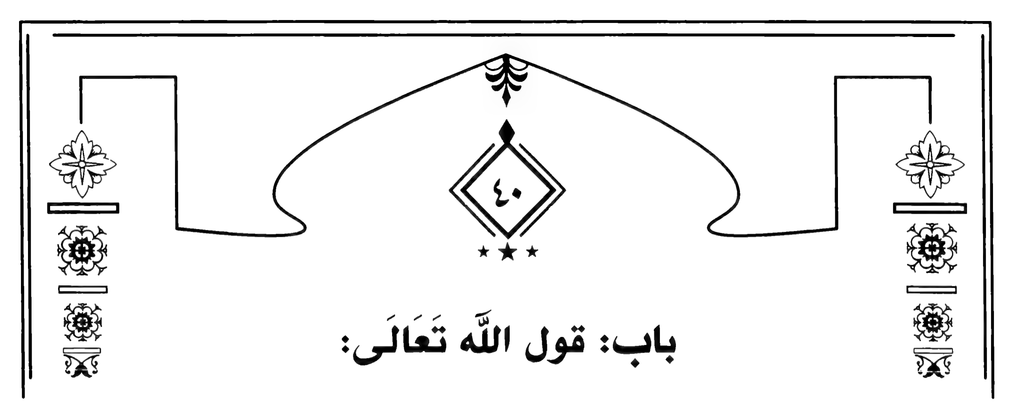
وفيه دليل علىٰ أَنَّ من أنكر شيئًا من الصِّفَات فهو من الهالكين؛ لَأَنَّ الواجب علىٰ العبد الإِيمَان بذلك سواء فهمه أم لم يفهمه، وسواء قبله عقله أو أنكره، فهذا هو الواجب علىٰ العبد في كل ما صح عن الله ورسوله ﷺ، وهو الذي ذكر الله تعالىٰ عن الراسخين في العلم أَنَّهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].



الشَّرْح (١)



(١) قام فضيلة الشيخ بشرح هذا الجزء من المتن في الكَلَام السابق.



باب: قول الله تعالى:

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل:٨٣] الآية

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المراد بهذه الترجمة التأدب مع جناب الربوبية عن الألفاظ الشِّرْكية الخفية كنسبة النِّعَم إلىٰ غير الله، فإن ذلك باب من أبواب الشِّرْك الخفي، وضده باب من أبواب الشكر، كما في الحَدِيث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن جابر مرفوعًا: (من أولي معروفًا فلم يجد له جزاء إلا الثناء فقد شكره ومن كتمه فقد كفره)، وفي رواية جيدة لأبي داود: (من أبلي بلاءً فذكره فقد شكره وإن كتمه فقد كفره)، قال المنذري: (من أبلي) أي من أنعم عليه، الإبلاء الإنعام، فإذا كان ذكر المعروف الذي يقدره الله علىٰ يدي إنسان من شكره فذكر معروف رب العَالَمِينَ وآلائه وإحسانه ونسبة ذلك إليه أولىٰ بأن يكون شكراً.



هذا البابُ عقدَه المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبينَ أنَّ من أنواعِ التَّوْحِيد أن تشكرَ الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن شكرِه أن تعتقدَ أن النِّعَمَ كلَّها منه عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ الإنْسَانَ وإن كان سبباً لكنَّ المُسَبِّبَ هو اللهُ، وسيأتي - إن شاء الله - بيانٌ أكثر لذلك، فهذا البابُ بيانٌ

للأدبِ مع الله، وينبغي أن يكون الأدبُ نابعـًا من الداخلِ، من قلبِ الإنْسَان المُسْلِم، إذا حدثت له نعمةٌ أَوَّلُ ما يخطر بباله أنها من الله، ثم يلَهجُ لسانُه بشكرِ الله، هذا هو موقفُ العبدِ المُسْلِم مع الله. النِّعَمُ كلُّها من الله: وجودُك نعمةٌ، فالذي أوجدَك هو الله، والذي رعاك في أعماقِ الرَّحِمِ والذي سخَّر الكونَ كلَّه لك هو الله، نعم، قد تحدث للإنسان نعمةٌ علىٰ يدِ إنسانٍ، لكنه ينبغي أن يقعَ في قلبِه أنَّ هذه النِّعَمةَ من الله، وأنَّ هذا الإنْسَانَ سببٌ، لكن هذا لا أي: ألا نشكرَ النَّاس، بل المُسْلِم ينبغي أن يكون موقفَه موقفًا صحيحًا، يشكر السببَ، لكن يعتقدَ أنَّ المُسَبِّبَ هو اللهُ ﷻ، فصاحبُ الكتابِ أوردَ آيةً عنوانًا بها للباب، ثم ذكرَ آثاراً كلَّها تُبيِّنُ معنىٰ الآيةِ، وهو أن قَوْلهُ - **تَعَالَى** -: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل:٨٣] نسبةُ الفعلِ إلىٰ غيرِ الله، فلو حدثت للإنسانِ نعمةٌ فقال: هذه من فلانٍ، لولا هو لما حدثت، أو كما يقول ركابُ السَّفينةِ: كان الملاح حاذِقًا، أو كما يقول صاحبُ المنزلِ لولَا كلابُنا لسرقَنا السُّرَّاق، فنسبة الفعل إلىٰ غير اللهِ بالقلب شركٌ أكبرُ، وباللسان شركٌ أصغر أو شركٌ خفيٌ، فالمُؤَلِّفُ رحمه الله عقدَ هذا البابَ ليُبينَ أنَّ من كمال التَّوْحِيدِ أن تعتقدَ أن النِّعَمَ كلَّها من الله ﷻ.

ذكرَ المُصَنِّفُ رحمه الله حديثين، وكلَا الحَدِيثين ضعيفٌ، أمَّا الحَدِيث الأوَّلُ فقد ورد له ثلاثُ طُرقٍ كلُّها ضعيفةٌ:

الطريـقُ الأولى: رواهـا أبـو داود، والبُخَـارِيُ في: (الأدب المفـرد)، وفي سندها شرحبيل بن سعد الأنصاري، والعُلَمَاءُ مُتفقُون علىٰ أنه ضعيفٌ.

والطريقُ الثانيـةُ: فيهـا فُليح بـن سليمان، قـال العُلَمَـاءُ: إنـه صـدوقٌ كثيرُ الخطأِ.

والطريقُ الثالثة: فيها أيوبُ بن سويد، ضعَفَّه أحمدُ وابنُ معين وابنُ المُبارك والبُخَارِيُ.

لكن لا أي: ضعفُ الرِّوَايَةِ عدمُ صحةِ المعنىٰ، فالمعنىٰ صحيحٌ، فإن المُسْلِم ينبغي له أن يقدِّر للنَّاس قدرَهم.

الحَدِيثُ الثاني: من طريق الأعمش، والأعمشُ حُجَّةٌ وثقةٌ لكن إذا قال: "حدَّثَنا"، أمَّا إذا قال: "عن"، فليس بِحُجَّةٍ؛ لأنَّه مُدَلِّس، ومعنىٰ المُدَلِّسِ أنه قد يروي الحَدِيثَ عن ضعيفٍ، فيُخفِي اسمَه، وينقلُ الرِّوَايَةَ إلىٰ الثقةِ الذي بعدَه، لكن لا يقول: "حدَّثَنا"؛ لأنَّه لم يسمع بأذنه، وإنما يقول: عن، وهذا يجعل الحَدِيثَ ضعيفًا، فكل حديثٍ وردَ علىٰ هذا النحو يكون ضعيفًا، مع أنَّ هذه الرِّوَايَةَ قال فيها البزار ﵀: إنَّ الأعمش إنَّما روىٰ هذا الحَدِيثَ من صحيفةٍ عن أبي سفيانَ. و"صحيفةٌ" أي: لم يسمعها، إنَّما أخذها من أبنائه، أو من الورَّاقين، ثم حدَّث بها، وهذا عند العُلَمَاءِ مما يُضعِّفُ الرِّوَايَةَ.

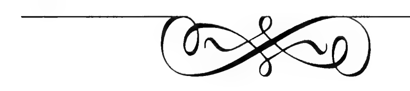
هناك حديثٌ مشهورٌ: (**من لا يشكر النَّاس لا يشكر الله**)[1]، صحَّحَه الشيخ الألباني - ﵀ وأجزلَ له المثوبةَ -.

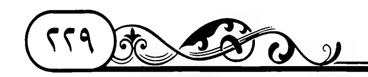
لكن في الحقيقةِ الحَدِيثُ ضعيفٌ؛ لأنَّ فيه الربيع بن مُسْلِم، لم يسمع من أبي هريرةَ، وفيه ثلاثةُ ضُعفاءِ: سفيانُ بن وكيع، ومُحَمَّد بن أبي ليلىٰ،

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي في سننه، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، برقم: (١٩٥٤)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١١٧٠٣)، (١٨/ ٢٣٣)، والبُخَارِيُ في الأدب المفرد، باب من لم يشكر النَّاس، برقم: (٢١٨)، وأخرجه بلفظ: "لا يشكر الله من لا يشكر النَّاس" أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، برقم: (٤٨١١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الهبات، باب شكر المعروف، برقم: (١٢٠٣٢)، (٦/ ٣٠٢)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٥١٩)، (١/ ١٩٥)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، برقم: (١٤٢١)، (٢/ ١٩٢).

وعطيةُ بن سعد العوفي، وكلُّ هؤلاء ضعفاءُ، لكنَّ الشيخَ لعلَّه - والله أعلمُ - نظر إلىٰ المعنىٰ، أمَّا السندُ فإنه ضعيفٌ، وليس له إسنادٌ آخرُ غير هذا. فينبغي نحن أن نُنبِّه علىٰ أنَّ المُسْلِم ينبغي أن يحذَرَ أن يقول: قال رَسُوْل الله ﷺ إلا إذا وثق أنَّه حديثٌ صحيحٌ؛ لأنَّ هذا دِينٌ، والمُسْلِم ينبغي له أن يتورعَّ عن نسبةِ الحَدِيثِ إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ إن لم يعلم أنَّه كذلك، فهذه الأحاديثُ هذه أسانيدُها، ربَّما بمجموعِها يتكون منه معنىً عام أن المُسْلِم ينبغي أن يشكرَ النَّاسَ إذا أسدَوا إليه مَعروفًا.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال المُصَنِّفُ: (قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل هذا مالي ورثته عن آبائي).

ش: هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، لفظه كما في الدر قال: (المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد، يعرفه كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم)، قال ابنُ القَيِّمِ ما معناه: لما أضافوا النِّعَمة إلىٰ غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلىٰ غيره، فإن الذي يقول هذا جاحد لنعمة الله عليه، غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع الذين ذكرهما الملك بنعم الله عليهما فأنكراها وقالا: إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر. وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم؛ إذ أنعم بها علىٰ آبائهم ثم ورثهم إياها، فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه.



الشَّرح

حديثُ الأقرعِ والأبرصِ والأعمىٰ سيأتي إن شاء الله بعدَ عدَّةِ أبوابٍ، ومُلخصهُ أنَّ الله ابتلىٰ ثلاثةَ أشخاصٍ مَرضىٰ، فشفاهم وأعطاهم من أنواع الأنعامِ، وبعد فترةٍ ابتلاهم بملَكٍ جاء في صورةِ سائلٍ يُذَكِّرهم بما كانوا عليه من المرضِ، فأمَّا اثنان وهما الأبرصُ والأقرعُ أنكرا أنهما كانا مريضين، وأنكرا أنَّ المال حَلَّ لهم جديداً؛ لأنَّ المالَ عندما يكون جديداً فهذا أي: أن النِّعَمةَ جديدةً، ولم يعرف النِّعَمةَ إلا حديثاً، وهو يريد أن يقول: إنَّ النِّعَمةَ كانت عندي من آبائي، فنسب النِّعَمةَ إلىٰ آبائه، فدعا عليهما الْمَلَكُ فعادَا كما كانا مريضين وفقيرين، أمَّا الأعمىٰ فقد اعترف بنعمِ الله عليه من حيث الصحةِ ومن حيث المالِ، فدعا الملَكُ له بالبركة، وسيأتي هذا الحَدِيثُ بكامله إن شاء الله



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

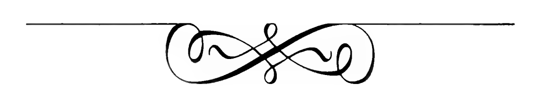
قال: (وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا).

ش: هذا الأثر رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، ولفظه كما في الدر: (لولا فلان أصابني كذا وكذا ولولا فلان لم أصب كذا وكذا)، وعون هذا هو ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبو عبد الله الكوفي ثقة عابد مات قبل سنة عشرين ومائة.



الشَّرْح

هذا كلامُ العُلَمَاءِ في معنىٰ الآيةِ، كلُّ عالمٍ فسَّرها بنوعٍ من أنواعِ الشِّرْك الخفي، فهو يُثبتُ النِّعَمةَ إلىٰ من أجراها اللهُ علىٰ يديه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (لولا فلان) إلىٰ آخره، قال ابنُ القَيِّمِ ما معناه: هذا يتضمن قطع إضافة النِّعَمة عمن لولاه لم تكن، وإضافتها إلىٰ من لم يملك لنفسه ضراً ولا نفعـًا، فضلاً عن غيره، وغايته أن يكون جزءاً من أجزاء السبب، أجرىٰ الله نعمته علىٰ يده، والسبب لا يستقل بالإيجاد، وجعله سببًا هو من نعم الله عليه، فهو المنعم بتلك النِّعَمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمُسَبَّب من إنعامه، وهو تعالىٰ كما أنه قد ينعم بذلك السبب فقد ينعم بدونه، ولا يكون له أثر، وقد يسلبه سببيته، وقد يجعل لها معارضـًا يقاومها، وقد يرتب علىٰ السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم علىٰ الحقيقة.



الشَّرح

يقول ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا جزءٌ من السببِ، وحتىٰ نعرف معنىٰ كلامِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ نضربُ مثالاً: إنسانٌ أخذَ صاعـًا من الأرز فأعطاه إنسانـًا، لا شك أنَّ هذا نعمةٌ، فإن توقف هذا الإنْسَانُ عند هذا العطاءِ، وظنَّ أنَّ هذا السببَ هو الذي أعطاه، وليس هناك تسببٌ من الله، فنقول له: ندرُس مراحلَ هذا الأرزِ، كيف مرَّت، كم هناك من أسبابٍ حتىٰ وصلَ إليك، وبذلك نعرفُ من الذي يستحقُّ الشكرَ.

أوَّلُها: هذا الأُرزُ أصلُه بِذرةٌ، قد حُرِثت، وقد بُذرَت، وقد تكاثرت علىٰ أيدي الأجيالِ السابقةِ لو ما زرعوها لما بقيت، فالأجيالُ الماضيةُ سببٌ في المحافظة علىٰ بقاء هذه الحبةِ، التي كان من سببِها صاعُ الأرزِ.

ثانياً: الأرضُ التي زُرِع فيها، لو لم تكن هناك أرضٌ يُزرَعُ فيها الأرزُ ما وصل إلينا.



ثالثاً: الماءُ الذي سقَىٰ الزرعَ، لو لم يكن هناك ماءٌ لسَقيِ الزرعِ ما وصل إلينا هذا الأرزُ.

رابعاً: الهواءُ الذي نقل إلينا هذا الماءَ، فقد نقلَ الماءَ من البحارِ إلىٰ مكان الأُرز.

خامساً: السَّحابُ الذي تتَجمَّع فيه قطرات الماءُ، ثم نزلت بعد ذلك.

سادساً: المِحراثُ، لو لم يكن محراثٌ شقَّ الأرضَ وقلَّبها ما نبتَ الأُرزُ.

سابعاً: النَّجارُ الذي صنع المحراثَ، لو لم يكن نجارٌ صنعَ المحراثَ ما كان هناك مِحراثٌ.

ثامناً: البقرُ الذي قادَ المِحراثَ، لو لم يكن بقرٌ يقودُ المِحراثَ كيف يستطيع الإنْسَانُ أن يزرع هذه المحاصيلَ الزراعيةَ؟.

تاسعاً: المُزَارِعُ الذي زرعَ.

عاشراً: الذي حَصدَ.

حادي عشر: الباخرةُ التي حملت الأرزَ من مكانِه إلىٰ هذه البلاد.

ثاني عشر: النجارون الذين نجروها وصنعوا الباخرةَ، لو لم يكن صُنَّاعٌ للباخرةِ كيف يُحمَلُ الأُرزُ؟.

ثالثُ عشر: الوقودُ الذي سارت به الباخرةُ.

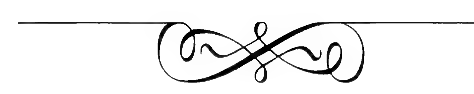
رابع عشر: الأشخاصُ الذين أنزلوا هذا الأرزَ.

خامسُ عشر: الأشخاصُ الذين نقلوا الأُرزَ إلىٰ بلدةِ المُعْطِي.

سادسُ عشر: الشخصُ الذي أعطىٰ. وهناك أشياءٌ تركناها، الشمسُ التي بخرَّت، والأشخاصُ الذين استخرجُوا وقودَ الباخرةِ..إلىٰ آخره.

فهذه حَبَّةُ الأُرزِ كم فيها من أسبابٍ؟ ولهذا قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨]، الرزقُ هذا ما جاء إلا بقوةٍ، لو تذكَّرت سلسلةَ الأسبابِ التي نبتت، والتي انتهت بهذه الحبةِ إلىٰ هذا المستوىٰ لرأيتَ عجبًا، النَّاس لو وُكِلوا إلىٰ أنفسِهم ما استطاعوا، ثم المزارعُ الذي قذفَ بهذه الحبةِّ إلىٰ الأرضِ ليس له أثرٌ في شقِّها وإخراجِ نبتَتِها، فهناك مئاتُ الأسباب، فلتَشكر المُسَبِّبَ الواحدَ؛ فسلسلةُ الإجراءات كلِّها لها أثرٌ في هذا الصاعِ من الأرز، وإلا فلو انخرمت إحدىٰ حلقاتِ هذه الأسبابِ ما وصل إليك هذا الأرز.

فإذا أرادَ الإنْسَانُ أن يشكرَ فيلشكر المُنعمَ الذي هو الله ﷻ، وهكذا بقيةُ النِّعَم، اللهُ المُنعمُ، والنَّاسُ أتباعٌ، والكونُ سببٌ، فعلِّق قلبَك بالمُسَبِّب ﷻ، لكن لا أي: أنَّك تتجاهل الأسبابِ، بل تعطيها قدرها مع اعتقادٍ أنها لا تتحقَّق إلا بإرادةِ الله ﷻ، وهذا معنىٰ كلامِ ابنِ القَيِّمِ رحمه الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: (وقال ابن قتيبة: يقولون هذا بشفاعة آلهتنا).

ش: ابن قتيبة هو عبد الله بن مُسْلِم بن قتيبة الدينوري الحافظ صاحب التفسير والمعارف وغيرها، وثَّقه الخطيبُ وغيره، ومات سنة سبع وستين ومائتين أو قبلها.

الشَّرح

ابن قتيبة يُسمَّىٰ أديبُ أهلِ السُّنَّةِ، فله كتبٌ نفيسةٌ في بابها، منها: (مُشكلُ القُرْآن)، و: (المعاد)، (وغريب الحَدِيث)، وكتبٌ عِدَّةٌ، ومن أجملها رسالةٌ صغيرة اسمُها: (اختلافُ اللفظ) دافعَ فيها عن البُخَارِيُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: بأنَّ أفعال العبادِ مَخلوقةٌ. فإنه وقعت فتنةٌ في عهد البُخَارِيُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسبب هذه القضيةِ، وهي أنَّ الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابتُلي في عصرِه بالجهمية الذين يزعمون أنَّ القُرْآن مخلوقٌ، وكانوا يُصوِّرون البدعةَ بعدَّةِ صورٍ، وكان أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُدرِكُ مغزىٰ كلامِهم، فكان يردُّ جميعَ تلك الصور، فسُئل الإمام: رجلٌ يقول: لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ. فقال: هذه بدعةٌ. قال: شخص يقول: هذا لفظي. قال: هذا جهميٌ. قال: شخص معاكسٌ يقول: لفظي بالقُرْآن غيرُ مخلوقٍ، قال: هذا بدعةٌ، والقضيةُ لابدَّ فيها من أحدِ الأمرين، لكن أرادَ الإمامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يسدَّ البابَ.

وفي عصر البُخَارِيُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوشكت هذه البدعةُ أن تؤدي بالنَّاس إلىٰ الجبرِ، وأن يعتقدوا أنَّ كلَّ أقوالِنا وأفعالِنا نحن مُجبَرون عليها من الله عَزَّ وَجَلَّ، وليس لنا لفظٌ ولا قولٌ، بل كلُّها من الله، فالبُخَارِيُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فرَّق، وقال: ينبغي أن نُفرِّق بين

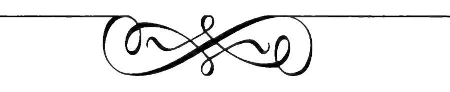
القراءةِ والمَقروء، المقروءُ كلامُ الله، ليس مخلوقاً، والقراءةُ لفظي أنا، فقراءتي مخلوقةٌ.

في كل عصر يورد أحياناً حسدٌ أو جهلٌ من تلاميذ المشايخ بعضهُم في بعض، فبعض الطلبةِ الذين يتعقَّبون الإمامَ أحمدَ ويظنون أن هذا تَنَقُّصٌ له أرادوا أن يُحارِبوا البُخَارِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ ويتَّهموه بالبدعةِ، فقالوا: البُخَارِيُ مُبتدِعٌ؛ لأنه يقول: لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ. وحاشاه أن يقول هذا الكلام، ولم يقله، لكنه فرَّق تفرِقةً لُغوية دقيقةً، لهذا يقول في كتابه هذا: نحن نقول: قراءةُ فلانٍ حسنةٌ، وقراءةُ فلانٍ سيئةٌ، فلو كان قولنا: قراءة فلانٍ سيئةٌ مُوجَّهاً إلىٰ القُرْآن لكان هذا كُفراً، فلابد أن نُفرِّق، ولم يلحظ بعضُ الطلبةِ التفريقَ الدقيق، فعندما كان الإمامُ في بعض المدن في بعض بيوتِ أهل العلم سأله بعضُ الطلبة ـ وأحياناً بعضُ الأسئلة يكون مغزاها غير سليم ـ: يا شيخُ، هل ألفاظنا بالقُرْآن مخلوقةٌ؟ لم يَرد عليه، فكرر السؤال ثانية، ثم ثالثةً، فردَّ عليه وقال: ألفاظُنا من أفعالنا، وأفعالُنا مخلوقةٌ؛ لأنَّه كتب كتاباً: (خلقُ أفعال العبادِ) فانقسم التلاميذ إلىٰ قسمين: قسم يقولون: قال لفظي بالقُرْآن مخلوقٌ، وقسمٌ يقول: لم يقل، واشتبكوا بالأيدي في مجلسِه رَحِمَهُ اللَّهُ، فغضب صاحب المجلسِ وأخرج الجميع من بيته، وبدأت الفجوةُ والفتنةُ.

هذا الإمامُ العَلَمُ إمامُ السُّنَّةِ الذي ما يدخل بلدةٍ إلا ويستقبِله آلافٌ من أهلها هُجِر في آخر حياتِه، وخرج من بلدته وحيداً ليس معه إلا طالبٌ، ثم قال أحدُ طلبته: سمعته في بعض الليالي يشكو إلىٰ الله، ويسأل الله أن يختارَه لجواره. فلم تمرُّ عليه فترةٌ حتىٰ توفي رَحِمَهُ اللَّهُ، ولم يحضر جنازته إلا شخصان، وهذا اليومُ كلُّ الأُمَّة تعرفُ البُخَارِيَ، وتدينُ له بالفضل، ولا يكادُ يمرُّ جيلٌ إلا وتلهج الألسنُ بالدعاء له، ما الذي جعل ذلك الجيلَ يتهمُه بالبدعةِ؟ الجهلُ والهوىٰ، قاتلَ الله الهوىٰ.

لهذا ينبغي للمُسْلِم أن يتقي الله فيما يقول، فتِّش في قلبِك عن مرادِك من كلِّ كلمةٍ، كم يأثم هذا الذي اتَّهم هذا الإمامَ العَلَمَ؟ فجاء ابن قُتَيبةَ فدافع عن البُخَارِيِ رحمهما الله في هذا الكتاب، ثم جاء العُلَمَاء من بعدِه، وأيَّدوا قولَ البُخَارِيُ، حتىٰ قال ابنُ القَيِّم رحمه الله: إن كلامَ البُخَارِيُ أمتن من كلامِ أبي عبد الله أحمدُ بن حنبلَ. وأمتنُ أي: أوضحُ وأجزلُ، ليس هذا تفضيلاً علىٰ كلامِ الإمام أحمد، لكنَّ الإمامَ أحمدَ بشرٌ، وإن كان عظيماً، لا ينبغي لنا أن نعتقد أن هناك إنساناً لا يُخطئُ، فالإمامُ أحمدُ عظيمٌ، إمامُ السُّنَّةِ، لكن قد يجتهِد فلا يصيبُ، ويكون كلامُ غيرِه من أئمةِ السُّنَّةِ مُقدَّماً علىٰ كلامِه، وهذا ليس فيه تنقيصٌ أبداً، نحن قلنا: إنَّ الكمال البشري في قلّة الخطأ، لا في عدمِ الخطأ. لكن أحياناً التعصبُ يجعل الإنْسَانَ يقدِّس الأفراد حتىٰ يعتقد أنهم لا يُخطئون كأنهم أنبياءُ ـ والعياذُ بالله ـ. يقول ابنُ تَيْمِيَةَ رحمه الله: إذا اعتقدنا في عصمةِ إنسانٍ من العُلَمَاءِ فقد رفعناه إلىٰ مصافِّ الأنْبِيَاءِ.

فينبغي ألا يدفَعنا وألا يحملَنا حبُّنا له علىٰ أن نعتقدَ أنه لا يُخطِئ أبداً، لا. بل نقول: أخطأَ؛ لأنَّه رحمه الله نظر بمنظارٍ صحيحٍ سليمٍ ومطلوبٍ لسدِّ البابِ في عصره، يقول ابن قُتيبةَ في أولِ الكتاب: إنَّ البِدعةَ إذا سكت عنها اللسانُ لم يسكت القلبُ فلابدَّ من رَدِّها، فإن النَّاس قد فَهموا كلامَ الإمامَ أحمد رحمه الله خطأً، حتىٰ اعتقدوا أنَّ قراءتنا بالقُرْآن قديمةٌ، ليست مخلوقةً، والبُخَارِيُ رأىٰ غيرَ ما رأىٰ الإمامُ أحمدُ رحمهما الله، فأرادَ أن يُصحِّح المعلومةَ؛ لأنَّ هذا دينُ ربِّ العَالَمِينَ، لا يجوزُ أن يُقَرَّ فيه الخطأُ، فكان هذا سبباً في اتهامه رحمه الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (يقولون هذا بشفاعة آلهتنا) قال ابنُ القَيِّمِ: هذا يتضمن الشِّرْك مع إضافة النِّعَمة إلىٰ غير وليها، فالآلهة التي تُعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلىٰ الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بإذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له، إذ ليس كل أحد أهلاً أن يُشفع له، فمن المنعم علىٰ الحقيقة سواه؟، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، فالعبد لا خروج له عن نعمة الله وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدُّنْيَا ولا في الآخِرَةِ، ولهذا ذم سبحانه من آتاه شيئًا من نعمه فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨].

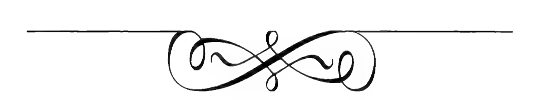
الشَّرْح

سيأتي إن شاء الله الاستدلالُ بالآية، وهي قول قارون أنه قال: إنَّما أوتيت هذا المالَ بخبرتي الاقتصاديةِ، وخبرتي في جمعِ المال. والمالُ من الله، والمُنعِم والمُعطي هو اللهُ، اللهُ قد يعطي المالَ ابتلاءً، وقد يُعطيه عِقابًا، وقد يُعطيه نعمةً، ويُعرفُ هذا بحسبِ طريقةِ الاستعمال، فمن أعطاه الله مالاً فطغَىٰ، فهذا خذلانٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنَّ الله لا يحبُّه، فإنَّ الله يحمي عبدَه المؤمنَ عمَّا يضرُّه، فقد يكون من مصلحةِ المؤمن الفقرُ، ولو أعطاه مالاً لطغىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق: ٦-٧] هذا أصلٌ في الإنْسَانِ، فمن رحمةِ الله به أن لا يعطيَه مالاً، وقد يكون من نعمةِ الله به أن يعطيَه مالاً، لو لم يعطه مالاً لكفرَ.

فالله هو المُعطِي، وليست الخبرةُ، ونحن نعرفُ كثيراً من أصحابِ الأموالِ ليست عندهم الصفةُ العقليةُ التي نعتقد أنها سببٌ في هذا المالِ، بل ربَّما يكون تفكيرُهم ساذجاً، ولا ترىٰ فيهم الحنكةَ أبداً، فالذي يُعطيهم المالَ هو الله، ولهذا الأذكياءُ أكثر النَّاسِ فقراً؛ لأنَّ الذكيَ ما يتحرَّك إلا بعد أن يحسبَ عملَه مائةَ مرةٍ، من كلِّ جانبٍ، يدرسُ القضيةَ من كلِّ جانبٍ، وهو ما يدري أنَّ الرزقَ بيدِ الله، ما هو بيدِ أحدٍ غيره، فنقرأ في التاريخ أنَّ أكثر العُلَمَاءِ في العصور الماضيةِ فُقراءُ، وهم أصحابُ عقولٍ كبيرةٍ؛ ولهذا يقول ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ العُلَمَاءَ لا ينجحون في التجارةِ، ولا في السياسة، قال: لأنَّ هذه تحتاجُ إلىٰ مُساومةٍ، وهم ما يعرفونها، هم يعرفون الصلاحَ، فلو أنَّ إنساناً مثلاً فتحَ مكتباً عقارياً، وكان صادقاً، فجاءه رجل فقال له: كم يطلبُ صاحبَ هذه الدارُ فيها؟ فقال: خمسةَ آلاف - مثلاً - فيقول له: إذا أجِّرني إياها بالمبلغ نفسِه، ويمكن أن يَرضىٰ بأن يعطيه خمسمائةً أو ألفاً زيادةً عمولةً، لكنه إذا جاء إلىٰ مكتب ثانٍ، قال: بكم هذا؟ قال: بعشرة آلاف، لكن أنا أضغطُ عليه حتىٰ أُنزلَه إلىٰ خمسةِ آلافٍ كم تعطيني؟ فيبدأ بهذه المساوماتُ.

فلهذا أصحابُ الدِّينِ والعقل الذين عندهم عقلٌ راجحٌ يراقبون الله في الحياةِ في أمور الدُّنْيَا والآخِرَةِ أكثرُهم فقراء، وهذا يجعلنا نعتقدُ أن المالَ ليس بالحنكة السياسيةِ، ولا بالقدرة الاقتصاديةِ أبداً، نعم لها أثرٌ، ولكنَّ اللهَ هو المُعطي الحقيقي، كما يُقال: إنَّ فلاناً من النَّاسِ لو اشترىٰ حجارةً لَربحَ فيها. اشتري أرضاً بمبلغ اليوم، وغداً تتضاعف قيمتها. والذي ضاعفَه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وليس هذا تكريماً له؛ لأنَّه قد يكون ابتلاءً، وقد يكون امتحاناً، ولله فيه حكمةٌ، فهذا الذي يقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨] جاهلٌ مسكينٌ، خرج من بطن أُمِّه فقيراً، من أين جاءه هذا العلمُ؟ من أين جاءه هذا المالُ؟

فالإنْسَانُ المُسْلِم يعتقدُ أنَّ النِّعَمةَ من الله، ويسأَلُ اللهَ أن يعطيه المالَ إن كان خيراً له، وإن كان فيه شرٌّ أن يصرَفه عنه، أي: يكل أمره إلىٰ خالقِه، فهذا هو معنىٰ الباب الذي عقده المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال المُصَنِّفُ: وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه أن الله - تَعَالَى - قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر..) الحَدِيث، وقد تقدم، وهذا كثير في الكتاب والسُّنَّةِ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلىٰ غيره ويشرك به، قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جار علىٰ السنةِ كثير.



الشَّرح

هذا كلامُ ابنِ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الحَدِيث الذي مرَّ في الاستسقاء، وهو حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو في الصَّحِيحَين، أنه قال: (صلىٰ لنا) وفي بعض الروايات (بنا) ولنا المعنىٰ بنا (صلىٰ بنا رَسُوْل الله ﷺ صلاة الصبح يوم الحديبية علىٰ إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف قال: هل تدرون ماذا قال ربنا؟ قالوا: الله ورَسُوْله اعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر بي مؤمن بالكوكب)[1]، فنسبةُ نزول المطرِ إلىٰ الكوكبِ اعتقادُ الوثنيين القُدماءِ، والفلاسفةِ الجاهليين، يعتقدون أنَّ الكواكبَ تُؤَثِّرُ في حياةِ النَّاسِ، فهذا الحَدِيث نسبَ النَّاسُ فيه النِّعمةَ إلىٰ غيرِ الله، وهذا شِركٌ، إن اعتقده بقلبِه يكون شركًا كبيراً، وإن لم يعتقده بقلبِه يكون شركًا أصغرَ.

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وقال أبو العباس) هو شيخ الإسْلَام ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (قال بعض السلف) لم أقف علىٰ تسمية هذا البعض.

قوله: (كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا) الملاح: هو سائس السفينة، والمعنىٰ: أن السفن إذا جرين بريح طيبة بأمر الله جريًا حسنًا نسبوا ذلك إلىٰ طيب الريح وحذق الملاح في سياسة السفينة، ونسوا ربهم الذي أجرىٰ لهم الفلك في البحر رحمة بهم كما قال تعالىٰ: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ [الإسراء:٦٦]، فيكون نسبة ذلك إلىٰ طيب الريح وحذق الملاح من جنس نسبة المطر إلىٰ الأنواء، وإن كان المتكلم بذلك لم يقصد أن الريح والملاح هو الفاعل لذلك من دون خلق الله وأمره وإنما أراد أنه سبب، لكن لا ينبغي أن يضيف ذلك إلا إلىٰ الله وحده؛ لأن غاية الأمر في ذلك أن يكون الريح والملاح سببًا، أو جزء سبب، ولو شاء الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لسلبه سببيته، فلم يكن سببًا أصلاً، فلا يليق بالمنعم عليه المطلوب منه الشكر أن ينسىٰ من بيده الخير كله، وهو علىٰ كل شيء قدير، ويضيف النِّعَم إلىٰ غيره، بل يذكرها مضافة منسوبة إلىٰ مولاها والمنعم بها، وهو المنعم علىٰ الإطلاق كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النحل:٥٣]، فهو المنعم بجميع النِّعَم في الدُّنْيَا والآخِرَةِ وحده لا شريك له، فإن ذلك من شكرها وضده من إنكارها، ولا ينافي ذلك الدعاء والإحسان إلىٰ من كان سببًا، أو جزء سبب في بعض ما يصل إليك من النِّعَم من الخلق.

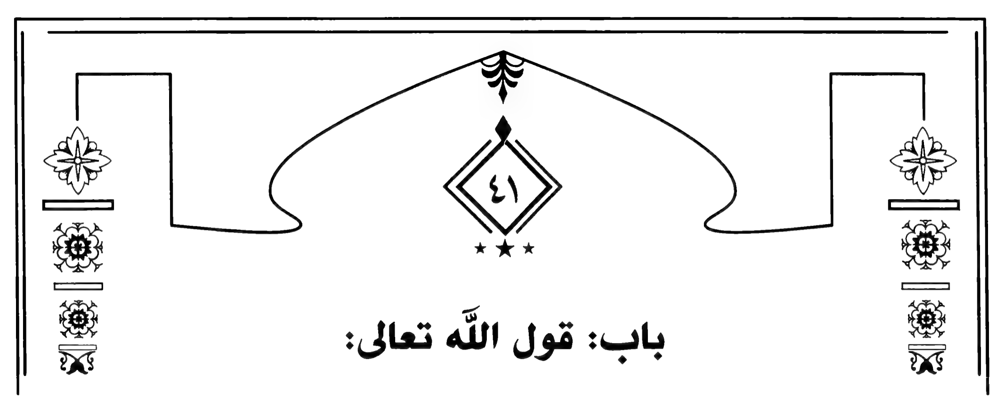
قال المُصَنِّفُ: (وفيه اجتماع الضدين في القلب).



الشَّرْح

هذا معنىٰ بقيةِ البابِ وهو متعلِّقٌ بالبابِ الذي بعدَه، فهما بابان خطيران في هذا الموضوعِ، وهو نسبةُ النِّعَم إلىٰ غيرِ الله ﷻ، فإنَّه وإن كان الإنْسَانُ يعتقدُ أنَّ اللهَ هو المُنعمُ، لكنَّ النسبةَ القولية فيها شركٌ خفيٌ، فلهذا ينبغي أن نحرصَ علىٰ أن ننسبَ النِّعَمةَ إلىٰ اللهِ، لكنَّ العُلَمَاءَ قالوا: لو قال هذا بفضلِ اللهِ ثم بفضلِ فلانٍ، ثم بمساعدةِ فلانٍ، فليس في ذلك حرجٌ، إن شاء الله.





باب: قول الله تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

اعلم أن من تحقيق التَّوْحِيد الاحتراز من الشِّرْك بالله في الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنىٰ لا يجوز، بل ربما تجري علىٰ لسانه من غير قصد، كمن يجري علىٰ لسانه ألفاظ من أنواع الشِّرْك الأصغر لا يقصدها.



قلنا: هذا البابُ تكملةٌ للبابِ السابقِ، وهو أن يحرصَ المُسْلِم علىٰ أن يُعلِقُ قَلبَه بالله، وإن حدثت له نعمةٌ فأولُ ما يخطر ببالِه أنها من الله، لكن لا أي: ذلك أن نتنكَّر لمن أسدىٰ إلينا معروفًا، بل نعتقد أنَّ الله هو الذي يَسَّرَ هذا، وهو الذي دفعَه، وإلا فإنَّ الله لو أرادَ أن لا يصلَ عن طريقِ هذا الشخصِ خيرٌ لما وصل، فليس معناها أن نَتنكَّرَ للمُحسِنين وأن لا نشكرَهم، بل المرادُ أن يتعلَّق قَلبُك بالله، وأن تعتقدَ أن النِّعَمَ كلَّها من الله؛ لأنَّ اللهَ هو الذي قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

هذا خبرٌ صادقٌ، الله الذي جعل الخيرَ والنِّعَمَ أسباباً، مثلاً وجودُ الإنْسَانِ كان السببُ فيه أبواه، وهذا أعظمُ نعمةٍ في الوجود، فليس معنىٰ هذا أن لا تشكرَ أبَويك، تشكرهما وتحبُّهما وتقدِّرهما وتَبرُّهما، وهذا من شكرِ النِّعَمة، ولهذا قد جعل اللهُ ﷻ حقَّ الأبوين مع حقِّه ﷻ ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان:١٤] فالشكرُ الذي تشكرُ به الأبوين ليس معناه أن تعتقدَ أنهما هما اللذان أوجدَاك، بل إنهما كانا سببَين، لكن المُسَبِّب هو اللهُ ﷻ.

هذا البابُ اشتمل على عدةِ مسائل، نأخذ مجموعَ ما فيه:

أَوَّلُها: ذكر الشَّارِحُ رحمه الله أنَّ السلفَ يحتَجُّون بالنصوصِ التي نزلت في الشِّرْك الأكبر علىٰ الشِّرْكِ الأصغرِ؛ لأنَّ الجميعَ يشملُها جنسٌ واحدٌ، وهو الشِّرْكُ، فهم يَحتجُّون بالآيات التي فيها ذِكرُ الشِّرْكِ الأكبرِ علىٰ ما يقع من النَّاسِ من الشِّرْك الأصغرِ.

ثانياً: أنَّ هذا الشِّرْكَ الذي ذكرَه المُصَنِّفُ رحمه الله خفي جداً، وهو قد يخفىٰ علىٰ كثيرٍ من النَّاس، وربما بعضُ النَّاس لو ذكَّرتَه بهذا لنسبَك إلىٰ التَّنطُّعِ، وقال: أنت مُتَنَطِّع، مع أنَّ النصوص تدلُّ علىٰ هذا المعنىٰ، وهو أن تحرص علىٰ أن تنسبَ الفضل إلىٰ الله، لكن لا أي: هذا ـ كما قد يقع من بعض النَّاس ـ أن تجفو ولا تعترف لأصحابِ الفضل بفضلِهم، بل تعطي كلَّ صاحبِ حقٍّ حقَّه.

ثالثاً: أن الحلفَ بغير الله شركٌ، وقد انعقدَ الإجماعُ علىٰ عدمِ جوازِه، وهناك اختلافٌ لم يذكرْه الشَّارِحُ في القَسَمِ بنَبِينا ﷺ، يُنسَب إلىٰ الإمامِ أحمدَ رحمه الله أنَّه أجازَ القسمَ برَسُوْل الله، هذا حتىٰ ولو ثبت عنه رحمه الله فإن النصوصَ تردُّه، وقد جاءت النصوص تمنعُ القسمَ بغير الله ﷻ، في الصَّحِيحَين عن عمر رضي الله عنه

أنه قال: سمعنا النَّبِيّ ﷺ نحلفُ بآبائنا، فلحِقَنا وقال: (ألا لا تحلفوا بآبائكم، فإني أنهاكم عن ذلك)[١]، وجاء في السنن: (من حلفِ بغيرِ الله فقد كفرَ أو أشركَ)[٢]، فالحلفُ بغير الله شركٌ لفظيٌ، ليس شِركًا أكبرَ، بل شركٌ لفظيٌ، ينبغي اجتنابُه.

رابعاً: أنَّ الخالِقِ ﷻ له أن يُقسمَ بما شاء من خلقِه ﷻ، فإنَّ الله هو الذي خلقَ المخلوقاتِ، وهو يُقسِم بما شاء، يُقسِمُ بالليلِ، يُقسمُ بالنَّهار، يُقسمُ بالضُّحىٰ، فيقسمُ بما شاء ﷻ.

خامسًا: بحثُ مسألةِ حلفِ رَسُوْل الله ﷺ بأبيه، وردَ في بعضِ الأحاديثِ الرَسُوْل ﷺ حَلفَ بِأبيه، وفي بعضِها أنَّه حلفَ بغير ذلك، كقولِه: (دخلَ الجنةَ وأبيه إن صدقَ)[٣]، أو (أفلح إن صدق) هذه الرِّوَايَةُ في البُخَارِيُ، قال العُلَمَاءُ: إنَّ البُخَارِي لم يذكر "وأبيه"، إنَّما ذكر في هذه الرِّوَايَة: (أفلحَ إن صدَقَ) أو (إن صدقَ دخلَ الجَنَّةَ)، والعُلَمَاءُ اختلفوا في هذه الأحاديثِ علىٰ أربعةِ أقوال:

القولُ الأولُ: قولُ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أنه يرىٰ أنَّ هذه الرِّوَايَةَ فيها ألفاظٌ أخرىٰ، وأنَّ الرِّوَايَة التي فيها ذِكرُ الحلفِ بأبيه شاذَّةٌ، وإن كانت في الصحيحِ، والرِّوَايَةُ إذا خالفَ فيها الثقةُ الثقاتِ تُسمَّىٰ شاذَّةً، وإن كانت صحيحةً من حيث السندِ، وإن كانت ضعيفةً تسمَّىٰ مُنكرةً، فابن عبد البر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مُسْلِم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإِسْلَام، برقم: (١١)، (١/ ٤٠)، والبُخَارِيُ بلفظ: " أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق"، كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان، برقم: (١٨٩١).

وصف هذه الرِّوَايَةَ بالشذوذ، ولكنَّ الشَّارِحَ رَحِمَهُ اللَّهُ تعقَّبه، وقال: لو كان الحَدِيثُ واحداً لأمكن لنا أن نقبلَ هذا التخريجَ والتوجيهَ، لكن ورد ذلك في أكثرِ من حديثٍ.

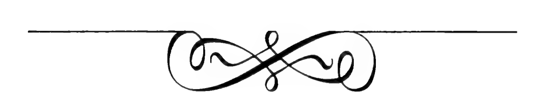
القولُ الثاني: إنَّ هذا القسمَ كان يجري على ألسنتِهم من غير قصدٍ للقسمِ، وارتضاه النووي، لكنَّ الشَّارِحَ ردَّه.

القول الثالث: أنَّ الحلفَ للتأكيدِ وليس للتعظيم، وهذا القول ذهبَ إليه بعضُ العُلَمَاءِ، لكن لم يذكرْ الشَّارِحُ من قال به.

القولُ الأخيرُ: أنَّ هذا كان مُستعمِلاً في أولِ الإِسْلَام ثم نُسِخَ، وهذا الذي رَجَّحَه الشَّارِحُ وقبلَه السهيلي وابن العَرَبي وغيرِهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ، ونُسب إلى الجمهورِ، قالوا: ليس هناك وجهٌ صحيحٌ يشملُ جميعَ الأحاديثِ إلا أن نقول: هذا كان موجوداً ثم نُسِخَ.

فهذا هو القولُ الذي ارتضاه الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

هذه مجملُ القَضايا التي ذَكرها الشَّارِحُ في هذا البابِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قيل: الآية نزلت في الأكبر، قيل: السلف يحتجون بما نزل في الأكبر على الأصغر، كما فسرها ابن عباس وغيره فيما ذكره المُصَنِّفُ عنه بأنواع من الشِّرْك الأصغر، وفسرها أيضًا بالشِّرْك الأكبر، وفسرها غيره بشرك الطاعة، وذلك لأن الكل شرك.

ومعنى الآية: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نهى النَّاس أن يجعلوا له أنداداً، أي: أمثالاً في العبادة والطاعة، وهم يعلمون أن الذي فعل تلك الأفعال فهو ربهم وخالقهم وخالق من قبلهم، وجاعل على الأرض فراشًا، والسماء بناء، والذي أنزل من السماء ماء، فأخرج به من أنواع الثمرات رزقًا لهم، فإذا كنتم تعلمون ذلك فلا تجعلوا له أنداداً.

قال ابنُ القَيِّمِ: فتأمل هذه وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة، وخلوصها من كل شبهة وريب وقادح، إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال، فكيف تجعلون له أنداداً، وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله؟.

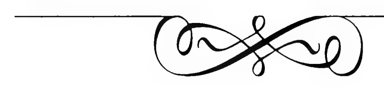
الشَّرح

يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ اللهَ ذكرَ أنَّه خلقَ ورزَقَ، خلقَ السماءَ، وخلقَ الأرضَ، وأنزلَ الماءَ من السماءِ وأنبتَ به النباتَ، هذا الفعلُ يعترفُ به قريشُ، فلماذا جعلوا مع الله أنداداً، أي أمثالاً في عبادتهم وفي طاعتِهم؟ ما كان لهم أن يفعلوا ذلك، بل كان عليهم أن يُخلِصوا الطاعةَ لله المُنعِمِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال الله بعدَ أن ذكرَ نِعمَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾



[البقرة:٢١]، إلىٰ آخرِ الآيةِ، ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة:٢٢]، تعلمون أنَّ هذه النِّعَمَ من الله، فهم يَعترِفون بأنَّ هذه النِّعَمَ من الله، لكن مع ذلك صرفوا حقَّ الله للمخلوق.

فيقولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنهم مع علمِهم بتلك النِّعَمِ أشركوا مع اللهِ غيرَه في الطاعةِ، وأشركوا مع الله غيرَه بالتذَلُّل والخضوعِ والدُّعاءِ والعبادةِ وغيرها من أنواعِ الشِّرْكِ.

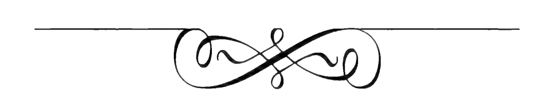




قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال المُصَنِّفُ: (قال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشِّرْك أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي. وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لو لا الله وفلان. لا تجعل فيها فلان هذا كله به شرك) رواه ابن أبي حاتم.

هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم كما قال المُصَنِّفُ، وسنده جيد.



الشَّرْح

هذا قريبٌ من معنىٰ البابِ السابقِ أنَّ الإنْسَانَ لا ينبغي له أن يُشركَ مع الله في عزو الفعل إليه، فلا يقل: هذا من اللهِ وفلان، أو لولا اللهُ وفلانُ، بل لابدَّ أن يستخدمَ حرفًا يدلُّ علىٰ الترتيب، وأنَّ الأَوَّلَ الذي قدَّر هو الله، لكنَّ الذي جرَىٰ علىٰ يديه هذه النِّعَمةَ هو فلانٌ، فقولُك: لولا اللهُ وفلانٌ شِركٌ، بل تقولُ: لولا الله ثم فلان. وهكذا في جميعِ النِّعَمِ ينبغِي لك أن تنسبَ النِّعَمةَ أولاً إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا.

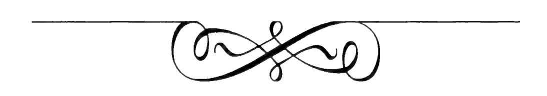
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (هو الشِّرْك أخفىٰ من دبيب النمل..) إلىٰ آخره، أي: إن هـذه الأمـور من الشِّرْك خفية في النَّاس لا يكاد يتفطن لها ولا يعرفها إلا القليل، وضرب المثل لخفائها بما هو أخفىٰ شيء، وهو أثر النمل فإنه خفي، فكيف إذا كان علىٰ صفاة فكيف إذا كانت سوداء، فكيف إذا كانـت في ظلمـة الليـل، وهـذا يـدل علـىٰ شـدة خفائه علىٰ من يدعي الإِسْلَام، وعسر التخلص منه، ولهـذا جاء في حـديث أبـي مُوسَىٰ قال: (خطبنا رَسُوْل الله ﷺ ذات يوم، فقال: أيها النَّاس اتقـوا هـذا الشِّـرْك فإنه أخفىٰ من دبيب النمل، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفـىٰ من دبيب النمل يا رَسُوْل الله؟ قال: قولوا اللهم إنا نعـوذ بـك أن نشـرك بـك شـيئًا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه) رواه أحمد والطبراني.



الشَّرح

هذا النَّص المنقول جاء موقوفًا علىٰ ابن عبَّاس، ومرفوعًا إلىٰ النَّبِـيِّ ﷺ، أمَّا المرفوعُ فإنَّه ضعيفٌ فإنَّ فيه أبا علي وهو مجهولٌ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وهو أن تقول والله وحياتك يا فلانة وحياتي) أي: إن من الحلف بغير الله الحلف بحياة المخلوق وسيأتي الكلام عليه.

قوله: (وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص) أي السراق، والمعنىٰ إن من الشِّرْك نسبة عدم السرقة إلىٰ الكلبة التي إذا رأت السراق نبحتهم فاستيقظ أهلها وهرب السراق، وربما امتنعوا من إتيان المحل الذي هي فيه خوفًا من نباحها، فيعلم بهم أهلها كما روىٰ بن أبي الدُّنْيَا في الصمت عن ابن عباس قال: (إن أحدكم ليشرك حتىٰ يشرك بكلبه، يقول: لولاه لسرقنا الليلة)

قوله: (ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص) البط بفتح الموحدة طائر معروف يتخذ في البيوت وإذا دخلها غريب صاح واستنكره، وهو الأوز بكسر الهمزة وفتح الواو، ومعناها كالذي قبله، والواجب نسبة ذلك إلىٰ الله - تَعَالَى -، فهو الذي يحفظ عباده ويكلؤهم بالليل والنهار، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٢].

قوله: (وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت) سيأتي الكلام عليها إن شاء الله.

قوله: (وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان) هكذا ثبت بخط المُصَنِّفُ بلا تنوين، والمعنىٰ: لا تجعل فيها أي في هذه الكلمة فلان فتقول: لولا الله وفلان، بل قل: لولا الله وحده، ولا تقل: لولا الله وفلان، فهو نهي عن ذلك.

قوله: (هذا كله به) أي: بالله شرك وأعاد الضمير علىٰ الله؛ لأنه قد تقدم ذكر اسمه وَجَلَّ، فتبين أن هذه الأمور ونحوها من الألفاظ الشِّرْكية الخفية كما نص عليه ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



قال: (وعن عمرَ بنِ الخطابِ أن رَسُوْل الله ﷺ قالَ: مَن حلَفَ بغير الله فقد كفَرَ أو أشرك) رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم.

قوله: (عن عمر بن الخطاب) هكذا وقع في الكتاب، وصوابه عن ابن عمر، كذلك أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه ابن حبان، وقال الزين العراقي في أماليه: إسناده ثقات.

قوله: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) قال بعضهم: ما معناه: رواه الترمذي بأو التي للشك، وفي ابن حبان والحاكم عدمها، وفي رواية للحاكم: (كل يمين يحلف بها دون الله شرك)، وفي الصَّحِيحَين من حديث ابن عمر مرفوعًا: (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)، وعن بريدة مرفوعًا: (من حلف بالأمانة فليس منا) رواه أبو داود، والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد تقدم كلام ابن عباس في عده ذلك من الأنداد، وقال كعب: إنكم تشركون في قول الرجل: كلا وأبيك كلا والكعبة، كلا وحياتك، وأشباه هذا، احلف بالله صادقًا أو كاذبًا، ولا تحلِف بغيرِه. رواه ابن أبي الدُّنْيَا في الصمت.

وأجمع العُلَمَاء على أن اليمين لا تكون إلا بالله، أو بصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره، قال ابن عبد البر: لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع انتهى.

ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين: إن ذلك على سبيل كراهة التنزيه، فإن هذا قول باطل، وكيف يُقال ذلك لما أطلق عليه الرَسُوْل ﷺ أنه كفر أو شرك؟ بل ذلك محرم، ولهذا اختار ابن مسعود رضي الله عنه أن يحلف بالله كاذبًا ولا يحلف بغيره صادقًا، فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب، مع أن الكذب من المحرمات في جميع الملل، فدل ذلك أن الحلف بغير الله من أكبر المحرمات، فإن قيل: أن الله - تَعَالَى - أقسم بالمخلوقات في القُرْآن. قيل: ذلك

يختص بالله ﷻ فهو يقسم بما شاء من خلقه لما في ذلك من الدلالة على قدرة الرب ووحدانيته وإلهيته وعلمه وحكمته وغير ذلك من صفات كماله، وأما المخلوق فلا يقسم إلا بالخالِق تعالى، فالله - تَعَالَى - يقسم بما يشاء من خلقه، وقد نهانا عن الحلف بغيره، فيجب على العبد التسليم والإذعان لما جاء من عند الله.

قال الشعبي: الخالِق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا يقسم إلا بالخالِق. قال: ولأن أقسم بالله فأحنث أحب إليّ من أن أقسم بغيره فأبر.

وقال مطرف بن عبد الله: إنما أقسم الله بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوقين ويعرفهم قدرته لعظم شأنها عندهم ولدلالتها على خالقها. ذكرهما ابن جرير.

فإن قيل: قد جاء في الحَدِيث أن النَّبِيّ ﷺ قال للأعرابي الذي سأله عن أمور الإسْلَام فأخبره فقال النَّبِيّ ﷺ: (أفلح وأبيه إن صدق) رواه البُخَارِيُ، وقال للذي سأله أي الصدقة أفضل؟ (أما وأبيك لتنبأنه). رواه مُسْلِم ونحو ذلك من الأحاديث، قيل: ذكر العُلَمَاء عن ذلك أجوبة:

أحدها: ما قاله ابن عبد البر في قوله: (أفلح وأبيه إن صدق) هذه اللفظة غير محفوظة، وقد جاءت عن راويها إسماعيل بن جعفر: (أفلح والله إن صدق)، قال: وهذا أولى من رواية من روى عنه بلفظ: (أفلح وأبيه)؛ لأنها لفظة منكرة تردها الآثار الصحاح، ولم تقع في رواية مالك أصلاً، وزعم بعضهم أن بعض الرواة عنه صحف، قوله: (وأبيه) من قوله: (والله) انتهى.

وهذا جواب عن هذا الحَدِيث الواحد فقط، ولا يمكن أن يجاب به عن غيره.

الثاني: أن هذا اللفظ كان يجري على ألسنتهم من غير قصد للقسم به، والنهي وإنما ورد في حق من قصد حقيقة الحلف، ذكره البيهقي. وقال النووي: إنه المرضي. قلت: هذا جواب فاسد، بل أحاديث النهي عامة مطلقة ليس فيها تفريق بين من قصد القسم وبين من لم يقصد، ويؤيد ذلك أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حلف مرة باللات والعزى، ويبعد أن يكون أراد حقيقة الحلف بهما، ولكنه جرى على لسانه من غير قصد على ما كانوا يعتادونه قبل ذلك، ومع هذا نهاه النَّبِيّ ﷺ، غاية ما يُقال: أن من جرى ذلك على لسانه من غير قصد معفو عنه، أما أن يكون ذلك أمراً جائزاً للمُسْلِم أن يعتاده فكلا، وأيضًا فهذا يحتاج إلى نقل أن ذلك كان يجري على ألسنتهم من غير قصد للقسم، وأن النهي إنما ورد في حق من قصد حقيقة الحلف وأنى يوجد ذلك.

الثالث: أن مثل ذلك يقصد به التأكيد لا التعظيم، وإنما وقع النهي عما يقصد به التعظيم، قلت: وهذا أفسد من الذي قبله، وكأن من قال ذلك لم يتصور ما قال، فهل يراد بالحلف إلا تأكيد المحلوف عليه بذكر من يعظمه الحالف والمحلوف له؟ فتأكيد المحلوف عليه بذكر المحلوف به مستلزم لتعظيمه، وأيضًا فالأحاديث مطلقة، ليس فيها تفريق، وأيضًا فهذا يحتاج إلى نقل أن ذلك جائز للتأكيد دون التعظيم وذلك معدوم.

الرابع: أن هذا كان في أول الأمر ثم نُسخ، فما جاء من الأحاديث فيه ذكر شيء من الحلف بغير الله فهو قبل النسخ، ثم نُسخ ذلك ونهي عن الحلف بغير الله. وهذا الجواب ذكره الماوردي، قال السهيلي: أكثر الشراح عليه، حتى قال ابن العَرَبي: روي أنه ﷺ كان يحلف بأبيه حتى نهي عن ذلك، قال السهيلي: ولا يصح ذلك وكذلك قال غيرهم.

وهذا الجواب هو الحق، يؤيده أن ذلك كان مستعملاً شائعًا حتى ورد النهي عن ذلك، كما في حديث ابن عمر: (أن النَّبِيّ ﷺ أدرك عمر بن الخطاب

يسير في ركب يحلف بأبيه، فقال: ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت) رواه البُخَارِيُ ومُسْلِم.

وعنه أيضًا قال: (قال رَسُوْل الله ﷺ: من كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله، وكانت قريش تحلف بآبائها، فقال: ولا تحلفوا بآبائكم) رواه مُسْلِم.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (حلفت مرة باللات والعزىٰ فقال النَّبِيّ ﷺ: قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم انفث عن يسارك ثلاثًا، وتعوذ ولا تعد) رواه النسائي وابن ماجه، وهذا لفظه، وفي هذا المعنىٰ أحاديث، فما ورد فيه ذكر الحلف بغير الله فهو جار علىٰ العادة قبل النهي؛ لأن ذلك هو الأصل حتىٰ ورد النهي عن ذلك.

وقوله: (فقد كفر أو أشرك) أخذ به طائفة من العُلَمَاء، فقالوا: يكفر من حلف بغير الله كفر شرك، قالوا: ولهذا أمره النَّبِيّ ﷺ بتجديد إسلامه بقول: لا إله إلا الله، فلولا أنه كفر ينقل عن الملة لم يؤمر بذلك.

وقال الجمهور: لا يكفر كفراً ينقله عن الملة لكنه من الشِّرْك الأصغر كما نص علىٰ ذلك ابن عباس وغيره، وأما كونه أمر من حلف باللات والعزىٰ أن يقول: لا إله إلا الله؛ فلأن هذا كفارة له مع استغفاره كما قال في الحَدِيث الصحيح (من حلف فقال في حلفه: واللات والعزىٰ، فليقل لا إله إلا الله)، وفي رواية: (فليستغفر) فهذا كفارة له في كونه تعاطي صورة تعظيم الصنم، حيث حلف به؛ لا أنه لتجديد إسلامه، ولو قدر ذلك فهو تجديد لإسلامه لنقصه بذلك لا لكفره، لكن الذي يفعله عباد القبور، إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الإيمان صادقًا أو كاذبًا، فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته ونحو ذلك لم يقدم علىٰ اليمين به إن كان كاذبًا، فهذا شرك أكبر بلا ريب؛ لأن المحلوف به عنده أخوف وأجلّ وأعظم من الله، وهذا ما بلغ إليه شرك عباد

الأصنام؛ لأن جهد اليمين عندهم هو الحلف بالله كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل:٣٨]، فمن كان جهد يمينه الحلف بالشيخ أو بحياته أو تربته فهو أكبر شركـًا منهم.

فهذا هو تفصيل القول في هـذه المسـألة، والحَدِيث دليل علىٰ أنه لا تجب الكفارة بالحلف بغير الله مطلقـًا؛ لأنه لم يذكر فيه كفارة للحلف بغير الله، ولا في غيره من الأحاديث فليس فيه كفارة إلا النطق بكلمة التَّوْحِيد والاستغفار، وقال بعض المتأخرين: تجب الكفارة بالحلف برَسُوْل الله ﷺ خاصة. وهذا قول باطل ما أنزل الله به من سلطان، فلا يلتفت إليه، وجوابه المنع.

قال المُصَنِّفُ: (وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبـًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقـًا) هكذا ذكر المُصَنِّفُ هذا الأثر عن ابن مسعود ولم يعزه، وقد ذكره ابن جرير غير مسند أيضـًا، قال: وقد جاء عن ابن عباس وابن عمر نحوه، ورواه الطبراني بإسناد موقوفـًا هكذا، قال المنذري: ورواته رواة الصحيح.

ش: قوله: (لأن أحلف بالله..) إلىٰ آخره، أن هي المصدرية والفعل بعدها منصوب في تأويل مصدر مرفوع علىٰ الابتداء، وأحب خبره، ومعناه ظاهر، وإنما رجح ابن مسعود رضي الله عنه الحلف بالله كاذبـًا علىٰ الحلف بغيره صادقـًا؛ لأن الحلف بالله توحيد، والحلف بغيره شرك، وإن قدر الصدق في الحلف بغير الله فحسنة التَّوْحِيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشِّرْك. ذكره شيخ الإِسْلَام.

وفيه دليل علىٰ أن الحلف بغير الله صادقـًا أعظم من اليمين الغموس، وفيه دليل علىٰ أن الشِّرْك الأصغر أكبر من الكبائر، وفيه شاهد للقاعدة المشهورة وهي ارتكاب أقل الشرين ضرراً إذا كان لا بد من أحدهما.

قال: (وعن حذيفة ﷺ عن النَّبِيّ ﷺ قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان) رواه أبو داود بسند صحيح.

ش: هذا الحَدِيث رواه أبو داود كما قال المُصَنِّفُ، ورواه أحمد وابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجه والبيهقي، وله علة وله شواهد، وهو صحيح المعنىٰ بلا ريب، وسيأتي الكلام علىٰ معناه في باب ما شاء الله وشئت إن شاء الله.

قال: (وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان).

ش: هذا الأثر رواه المُصَنِّفُ غير معزو، وقد رواه عبدالرزاق، وابن أبي الدُّنْيَا في كتاب الصمت عن مغيرة ﷺ قال: (كان إبراهيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويرخص أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، ويكره أن يقول لولا الله وفلان ويرخص أن يقول: لولا الله ثم فلان) لفظ ابن أبي الدُّنْيَا، وذلك - والله أعلم - لأن الواو تقتضي مطلق الجمع، فمنع منها للجمع، لئلا توهم الجمع بين الله وبين غيره كما منع من جمع اسم الله واسم رَسُوْله في ضمير واحد، وثم إنما تقتضي الترتيب فقط، فجاز ذلك لعدم المانع، ومطابقة الحَدِيثين والأثرين للترجمة ظاهرة علىٰ ما فسر به ابن عباس ﷺ الآية.





(١) قام فضيلة الشيخ بالتعليق علىٰ هذا الجزء من المتن في الكلام السابق.



باب: ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: من الوعيد؛ لأن ذلك يدل على قلة تعظيمه لجناب الربوبية، إذ القلب الممتلئ بمعرفة عظمة الله وجلاله وعزته وكبريائه لا يفعل ذلك.

قال: (عن ابن عمر أن رَسُوْل الله ﷺ قال: لا تحلفوا بآبائكم، من حُلف له بالله فليصدق ومن حُلف له بالله فليرض ومن لم يرض فليس من الله) رواه ابن ماجه بسند حسن.



الشَّرح

هنا خطأٌ: المحقَّقُ - غفرَ اللهُ له - تصرَّف في الحَدِيثِ تصرُّفًا خاطِئًا، فالصحيحُ: (من حلف بالله فليصدق)[1]، ليس فيه (له) بل على الفعلِ المبني للمعلومِ (من حلفَ بالله) وليس على الفعلِ المبني للمجهولِ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الكفارات، باب من حُلف له بالله فليرض، برقم: (٢١٠١)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب ما جاء في قول الله عزوجل: (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)، ومن رضي بحكم الله عَزَّوَجَلَّ، برقم: (٢٠٧٢٣)، (١٠/ ٣٠٥)، وصححه الألباني في تعليقه على ابن ماجه.

يقول المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلِف بالله) الحلف بالله قَسَم، يُقسم به الإنْسَانُ المُسْلِم عندما يقعُ الخلافُ بينه وبين غيرَه، فإنَّه لابدَّ من بَينةٍ أو دليلٍ، فإذا وقعَ الاختلافُ بين شخصين من المُسْلِمين فإنَّ الشرعَ قد جعل هناك قاعدةً: المُدَّعِي صاحبُ الدَّعوىٰ لابدَّ أن يأتي بشاهِدَين؛ لأنَّه ادَّعىٰ فلابدَّ له أن يُؤكد وأن يُصحِّحَ دعواه بشاهدَين، إن لم يكن له شاهدان فهل علىٰ المُدَّعَىٰ عليه شاهدان؟ لا، الأصلُ العدَمُ، فعليه أن يحلِفَ بالله عَزَّوَجَلَّ، فإذا تقدَّم اثنان إلىٰ القضاءِ في قضيةٍ، ولم يكن للمُدَّعِي شاهدان ولا بَينةٍ، هنا ينتقل القاضي إلىٰ المُدَّعي عليه، هل تحلِفُ له بالله؟ فإن قال: نعم. قال: احلف. فإن حلِف انتهىٰ الحكمُ من القاضي ووجبَ علىٰ المُدَّعِي أن يرضَىٰ؛ لأنَّ الحالفَ بين أمرين: إمَّا أن يكون صادِقًا، وإمَّا أن يكون كاذبًا، فإن كان صادقًا فليس للمُدَّعي حقٌ في عدم الرِّضىٰ، وإن كان كاذبًا فإنه سيأخذُ حقَّه يومَ القِيَامَةِ، حقُّه لا يضيع، فلماذا لا يرضىٰ ما دام الحقُّ لم يضع؟ وكلُّ إنسانٍ مُحتاجٌ إلىٰ الآخِرَةِ، فحاجةُ الدُّنْيَا تَنقضِي وتنتهي، أمَّا حاجةُ الآخِرَةِ فإنها أعظمُ، والإنْسَانُ إليها أحوجُ، فمن حُلِف له بالله فليرض، ومن لم يرضَ فليس من الله في شيءٍ، أي: أنَّ هذا قد وقع في أمرٍ عظيمٍ، كأنَّه تبرأَ الله منه، والحَدِيثُ حسنٌ، ويصلحُ شاهداً في هذه المواطنِ، فعلىٰ المُسْلِم أن يرضىٰ، وسيأتي أنَّ البُخَارِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ روىٰ حديثًا صحيحًا: (أن عيسىٰ بن مريم رأىٰ رجلاً يسرق، فقال له: سرقت. فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو. فقال عيسىٰ: آمنت بالله وكذَّبت عيني)[1].

---

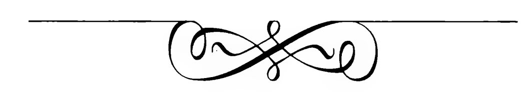
(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب أحاديث الأنْبِيَاء، باب قول الله - تَعَالَى -: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتذبت من أهلها، برقم: (٣٤٤٤)، ومُسْلِم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، برقم: (٢٣٦٨)، (٤/ ١٨٣٨).

فعيسىٰ عليه السلام نبيٌّ من أنبياءِ الله رأىٰ الفعلَ، والحَدِيثُ فيه اختلافٌ كما سيأتي، هل هو سأله استفساراً أو خاطبَه مُؤكِّداً أنَّه سرقَ.

فالإنْسَانُ إذا حُلِفَ له بالله فليرض، لو لم يرضَ لا تنتهي الخصومةُ من المجتمعِ، ويكون ثمارُ عدم الرضىٰ أخطرُ علىٰ المجتمع من ضياع حقٍّ واحدٍ من النَّاس؛ لأنه سيكون هذا سبباً في استمرارِ الخصومةِ والتَّربصُ بين الخصمين والعداءُ بينهما، وتَدخُّل القبائلِ والأُسرِ، وهذا نتائجُه أسوء، فوجبَ علىٰ المُسْلِمِ أن يحسمَ داءَ الخلاف، فإن حُلفَ له بالله فليرضَ، هذا شرعُ الله عز وجل.

لكن هل الحقوقُ ليس فيها إلاّ شاهدان أو يمينٌ؟، ابنُ القَيِّمِ رحمه الله له بحث جميل في: (إعلام الموقعين)، وهذا الكتاب من أعظم ما كتب في تأصيلِ طرقِ الأحكامِ الشرعيةِ، يقول: هذا الحَدِيثُ ما قال: عليه شاهدان، في حديث آخر جاءَ (شاهدان) لكن في هذا الحَدِيثِ قال: البَيِّنَةُ علىٰ المُدَّعِي. قال: كلمةُ (البَيِّنَةُ) كلمةٌ واسعةٌ جداً من فسَّرها بالشاهدين فقد أخطأَ، وضرب مثالاً، قال: لو أنَّا رأينا إنساناً نعرفُ أنَّ هذا الإنْسَانَ يلبسُ عمامةً طوال حياتِه، ولم نشاهدْه بدون عمَامةٍ، ثم يوماً من الأيام شاهدناه يجري في الطريق خلفَ إنسانٍ، هذا الإنْسَانُ علىٰ رأسِه عَمامةٌ، وفي يدِه عمَامَةٌ، والذي يجري خلفه ليست علىٰ رأسِه عَمامةٌ، ماذا نقولُ؟ هل يحتاجُ إلىٰ شاهدَين؟، قال: هذه بينةٌ واضحةٌ، فقال: فالبينةُ أوسعُ، والذين حصروها في الشاهدَين أخطئوا، هذا قد يُؤدِّي إلىٰ ضياعِ الحقوقِ، فإن البَينةَ أعمُّ من أن تكون شاهدَين. لكن هنا مسألةُ الدِّفاعِ عن النفسِ، فالإنْسَانُ قد يُفاجَأُ بالتُّهمةِ، ولا يستطيع أن يأتي بشاهدَين يقولان: ليس له عنده حقٌّ، حتىٰ لو شاهدا لكانا كاذبين، كيف تشهد أنه ليس له عنده حقٌّ؟، فالمتهم ضعيفٌ، فالشارعُ أعطاه حُجَّةً أقوىٰ، وهي اليمينُ، أَوَّلُ

الحَدِيثِ: (**لا تحلفوا بآبائكم ومن حلف بالله فليصدق**) هذا أمر للحالفِ أن يتقيَ الله في يمينه، فإنَّ صاحبَ اليمينِ الغموسَ لا يَنقُلُ رجلَه من مكانِه يومَ القِيَامَةِ حتىٰ يستوجبَ النَّار، (**من حلف فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرض**)[1] وهذا حكمٌ شرعيٌ، والآن نرىٰ في المحاكمِ خلافاتٍ كثيرةً، فكثير من النَّاسِ لا يَرضَىٰ باليمين، ويستمرُ الخلافُ والخصامُ، حتىٰ ينتجَ عنه أحياناً عداءٌ وتوسُّعٌ للخصومةِ ثمارُها ونتائجُها أشدُّ من الحقِّ الذي فُقِد، فأمرَ الشارعُ هكذا من حلفَ فليتق الله في يمينه، ومن حُلفَ له فليرضَ، والذي لا يرضىٰ مُهدَّدٌ بالعقابِ من الله ﷻ.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا الحَدِيث رواه ابن ماجه في سننه، وترجم عليه من حُلف له بالله فليرض، حدثنا مُحَمَّد بن إسماعيل بن سمرة ثنا أسباط بن مُحَمَّد عن مُحَمَّد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر قال: سمع النَّبِيّ ﷺ رجلاً يحلف بأبيه، فقال: (لا تحلفوا بآبائكم..) الحَدِيث، وهذا إسناد جيد علىٰ شرط مُسْلِم عند الحاكم وغيره فإنه متصل ورواته ثقات.

الشَّرح

ظاهرُ السندِ رجالُه ثقاتٌ، وأنَّه علىٰ شرطِ مُسْلِم ما عدا شيخ ابنِ ماجه، لم يظهر فيه علةٌ، بعض رواته من رجال مُسْلِم تُكلِمَ فيه، ولكنَّ العُلَمَاءَ قالوا: من روىٰ عنه الشيخان فقد تجاوزَ القنطرةَ. وليست قاعدةً، فإن لابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في:(الصارمُ المنكي) بحثٌ جميلٌ جداً ونقلَه عنه الزيلعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نصبِ الرَّايةِ، قال: الرَّاوي قد يكون له شيوخٌ وهو ثقةٌ في بعضِهم ضعيفٌ في بعضهم. فيكونُ مُسْلِم أو البُخَارِيُّ روىٰ عن شيخِه الذي هو ثقةٌ، ولم يرو عن الشيخ الذي هو ضعيفٌ، فقال: ليس كلُّ من رأينا أنه روىٰ له البُخَارِيُ ومُسْلِم نقول: إنه علىٰ شرطهما، بل يجب أن نحتاطَ هل هذا الراوي رَوىٰ البُخَارِيُ أو مُسْلِم عن هذا الشيخِ، أم لا؟ لهذا نرىٰ في تراجمِ رُواةِ الصَّحِيحَين كما في تهذيب الكمال للمزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُذكرُ وراءَ كلِّ راوٍ من رَوىٰ له من أصحابِ الكتبِ الستةِ، فيقول: روىٰ هذا الرَّاوي عن شيخِه فلانٌ، ثم رمزَ له بمُسْلِم، وروىٰ عن شيخِه فلان، ورمزَ له بالترمِذي ولم يَرمز له بِمُسْلِم.

فهذه فائدةٌ عِلميةٌ دقيقةٌ ينبغي أن نتنبَه لها، ولهذا عابَ المُحَقِّقُون علىٰ الحاكم أنَّه عَمِدَ إلىٰ رجالِ مُسْلِم والبُخَارِيِّ، فكلما رأىٰ رجَلاً رَوىٰ له البُخَارِيِّ ومُسْلِم قال: علىٰ شرطِهما. وليس هذا صحيحاً عند المُحققين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بل قد روىٰ مُسْلِم عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر: (أن النَّبِيّ ﷺ كـان يـأتي قبـاء راكبـًا وماشـيًا)، وأصـل هـذا الحَدِيث في الصَّحِيحَين عـن ابـن عمـر بلفظ: (لا تحلفوا بآبائكم من كان حالفـًا فليحلـف بـالله أو ليصـمت) ولـيس فيـه هذه الزيادة.

قوله: (لا تحلفوا بآبائكم) تقدم ما يتعلق به في الباب قبله.

قوله: (من حلـف بـالله فليصـدق) أي وجوبـًا؛ لأن الصـدق واجـب ولـو لـم يحلف بالله، فكيف إذا حلف به؟ وأيضـًا فالكذب حرام لو لـم يؤكـد الخبـر باسـم الله، فكيف إذا أكده باسم الله؟.



الشَّرْح

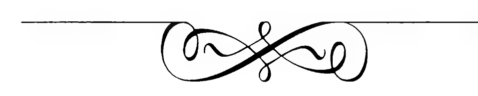
قولُه: (بل قد روىٰ مُسْلِم عن ابن عجلان...) النَّهـيُ عـن الحلـفِ بالآبـاء في الصَّحِيحَين، لكن حديثُ (من حلف بالله فليصدُق، ومن حُلف له بـالله فليـرض، ومـن لـم يـرضَ فلـيس مـن الله)[1] لـيس في الصَّـحِيحَين، وصـاحبَا الصَّـحِيحَين عندما ينتقيان مـن المتـونِ إنمـا ينتقيـان المتـون الصـحيحةَ الصـريحةَ، وأحيانـًا يكون المتنُ رُوي من سندٍ واحدٍ بأكثرَ من لفظٍ، فهما يختاران أصحَّ الرِّواياتِ، ولهذا الذي يقرأ في الصَّحِيحَين لا يكاد قلبُه يشعرُ بنَفرةٍ من أي مَتنٍ، لكـن مـن يقـرأُ في السُّـنن أحيانـًا يـرىٰ بعـضَ الألفـاظ فيهـا شـيءٌ مـن التَّعقيـدِ، وهـو بـين أمرين: إمَّا أنَّ الرَّاويَ تصرَّف فروىٰ بلفظِه، وإمَّـا أن يكـونَ المتـنُ ضـعيفـًا لـيس

---

(١) سبق تخريجه.

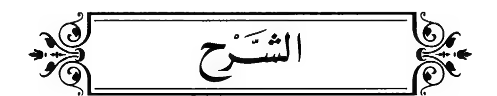
من كلامِ النَّبيّ ﷺ، بخلافِ الصَّحِيحَين متونُهُما عليها نورٌ، لا تكاد تجدُ إحساساً بشيءٍ في مُتونِهما.

قولُه: (قوله: من حلفَ بالله فليصدُق...) أي أنَّ المُسْلِم مطالبٌ بأنَّ يَصدُقَ بدون يمينٍ، ومطالبٌ بأن يتركَ الكذبَ من غيرِ قسمٍ، فكيف إذا تكلَّم أو أخبرَ بخبرٍ ثمَّ أقسمَ، فإنَّ أخبَر بخبرٍ كاذبٍ ثم أقسمَ كاذباً فقد استحقَّ العقابَ، فالمُسْلِم مطالب بالصدقِ من غير يَمينٍ في كلِّ كلامِه وأخبارِه، ومُطالبٌ باجتنابِ الكذبِ في كلِّ كلامِه، فكيف إذا زعمَ ذلك وأكدَّه بيمينٍ؟ كان وجوبُ الصدقِ، ووجوبُ اجتنابِ الكذبِ آكدَ.



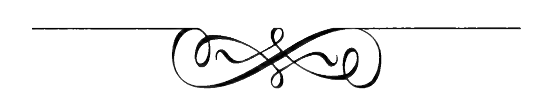
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ومن حُلف له بالله فليرض) أي وجوبًا كما يدل عليه قوله: (ومن لم يرض فليس من الله) ولفظ ابن ماجه: (ومن لم يرض بالله فليس من الله)، وهذا وعيد كقَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨]، قال ابن كثير: أي فقد برئ من الله، وهذا عام في الدعاوىٰ وغيرها ما لم يفض إلىٰ إلغاء حكم شرعي، كمن تشهد عليه البينة الشرعية، فيحلف علىٰ تكذيبها فلا يقبل حلفه.



الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو أنَّ إنسانًا ادَّعىٰ دعوىٰ، وثبتتُ بالبَيِنَةُ الشرعية، ثم جاء المُدَّعىٰ عليه ليحلِفَ فلا تُقبل يمينُه، لو جاء وقال: الرَسُوْل قال: من حُلفَ له بالله فليرضَ، وأنا أحلفُ. نقول: لا؛ ذلك أنَّ الرَسُوْل ﷺ قال: (من حُلف له بالله فليرض) في قضيةٍ لم تثبت من طرقٍ أُخرىٰ، أما ما ثبتَ فلا يُقبل فيه يَمينُ المُدعَىٰ عليه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

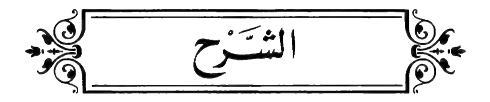
ولهذا لما رأىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رجلاً يسرق فقال له: سرقت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو. فقال عيسىٰ: آمنت بالله وكذبت عيني. رواه البُخَارِيُ، وفيه وجهان:

أحدهما: قال القرطبي: ظاهر قول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ للرجل: سرقت. أنه خبر جازم لكونه أخذ مالاً من حرز في خفية، وقول الرجل: كلا. نفي لذلك ثم أكده باليمين، وقول عيسىٰ: آمنت بالله وكذبت عيني. أي صدقت من حلف بالله، وكذبت ما ظهر لي من كون الأخذ سرقة، فإنه يحتمل أن يكون الرجل أخذ ما له فيه حق، أو ما أذن له صاحبه في أخذه، أو أخذه ليقلبه وينظر فيه، ولم يقصد الغصب والاستيلاء.

قلت: وهذا فيه نظر، وصدر الحَدِيث يرده وهو قول النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (رأىٰ عيسىٰ رجلاً يسرق) فأثبت صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرقته.

الثاني: ما قاله ابنُ القَيِّم: إن الله - تَعَالَى - كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذبًا، فدار الأمر بين تهمة الحالف، وتهمة بصره، فرد التهمة إلىٰ بصره، كما ظن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ صدق إبليس لما حلف له أنه ناصح.

قلت: هذا القول أحسن من الأول وهو الصواب إن شاء الله - تَعَالَى -.



الشَّرْح

هذا الحَدِيثُ أنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رأىٰ رجلاً يسرِقُ، فقال له: سرقت[1]. هل قال له: سَرقتَ إخباراً وتأكيداً؟ أو قال له: سرقتَ استفساراً أي: أسَرَقتَ؟

---

(١) سبق تخريجه.

فالعُلَمَاءُ خرَّجوا الحَدِيثَ على وجهين:

الوجهُ الأولِ: أنَّ هذا الرجلَ أخذَ من مالٍ له فيه حقٌّ، وأخذَه خُفيَةً لكنه له فيه حقٌّ، أو أنَّ صاحبَ المالَ أذِن له في أخذِه، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رآه في صورةِ السارقِ، أو أنَّ الرَّجلَ أخذَ المالَ ثمّ أعاده، هذه كلُّها صورُ احتمالات. هذا الوجهُ الأولُ.

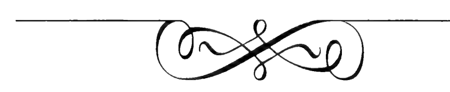
الوجهُ الثاني: أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال له: سرقتَ إخباراً وتأكيداً، لكنَّ الرجلَ أنكرَ، وأكَّدَ إنكارَه بِيمينٍ، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ احتراماً للقسمِ واعتقاداً بأن أحداً لا يحلفُ بالله كاذباً، أو لا يجرؤ على الحلفِ بالله كاذباً، صدَّقَ اليمينَ وكذَّب عينَه. هذا القولُ قالَه ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ، الشَّارِحُ هنا رجَّح هذا القولَ. وابنُ حجر في: (فتح الباري) قال: هذا القولُ لا يختلف عن القولِ الأَولِ في التكلُّفِ، كلاهما مُتكَلَّفٌ، كونُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يراه يسرقُ ورؤيةُ العينِ هي عينُ اليقينِ، الشخصُ يرى بعينه فليس هناك مجالٌ للكذبِ، ثم يقول: آمنتُ بالله. فليس الموقفُ موقفَ إيمانٍ بالله، أو عدمَ إيمانٍ بالله، لكنَّ الموقفَ موقفُ سؤالٍ، فيبدو ـ والله أعلم ـ أنَّه سألَ: سرَقتَ؟ استفساراً، فأنكرَ أنه سرَق. فبَدا لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ هذا الفعل الذي ظنَّه سرقةً ليس سرقةً، فقال: آمنتُ بالله وكذَّبتُ عينيَّ؛ لأنَّ الصورةَ الظاهرةَ صورةُ سَرقةٍ، لكن رُبَّما أنَّ الفاعلَ لم يسرِق يكونُ له فيه حقٌّ، وقد يكون الذي أقسمَ يكون صادقاً، فهذا كلُّه يحتمَل، كلُّ هذه الأوجُه مُحتملَةٌ.

لكن أن يُؤكِّد عدمَ سرقتِه، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلمُ أنَّ هذا المالَ ليس له وليس له فيه نصيبٌ، ولم يُؤَذَن له، فهذه الاحتمالات لا نستطيعُ أن نجزِم بها، فإنَّا نقول: الاحتمالاتُ الواردةُ هي: إمَّا أن يكون الرَّجلَ أخذَ من مالٍ له فيه حقٌّ،

وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ سأله هل هذا الفعلُ الذي فعلته سرقةٌ، فالرجل قال: لا والله ليس سرقةً. والله أعلمُ.

المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أوردَ هذا الكلامَ ليُبينَ أنَّ الإنْسَانَ إذا حُلف له بالله فليرَض، هذا نبيُ اللهِ رَضي بالقسمِ، مع أنه شاهدَ الفعلَ، لكن رَضيَ بالقسمِ، ولكن لو جاء إنسانٌ وسرقَ مالكُ وقال: والله ما سرقتُ مالَك فلا تصدِّقه لعدم الاحتمالات السابقة، فقد رأيتَ بنفسك.

والعُلَمَاء استنبطوا من هذا الحَدِيث حكماً قضائياً، قالوا: لا يجوزُ للقاضِي أن يقضي بعلمِه، مثلاً قاضٍ جاء إليه شخصان يَدَّعِيان في دارٍ، وأحدُ الشخصين جارٌ القاضي، والدارُ له ويعرفُه القاضي، وجاء المُدَعِي، هل يقبلُ القاضي دعوىٰ المُدَّعِي ويقول: هات شهودَك؟ فإذا جاء بشهود وقالوا: إن الدَّار لفلان المُدِّعِي. وهو يعلم علمَ اليقين أنها لفلان وبناها بعلمِه، وسكنَها بعلمِه، هل يحكمُ للمُدَّعِي؟ لا يحكُم، يقول العُلَمَاءُ: لو حكم لكان جائراً، بل القاضي هنا ينبغي أن يُكذِّب المُدَّعِي وأن لا يحكم له، هذا مقتضىٰ العدلُ، لكن قال العُلَمَاءُ: لو فُتح هذا الباب فقد يوجدُ قضاةٌ ليست لهم ذمةٌ، فكلما جاءت قضيةٌ لهم فيها مصلحةٌ قالوا: نحن نعلم أنَّ المُدَّعِيَ كاذبٌ، فقالوا: نسدُّ البابَ، ولا نقبل قضاءَ القاضي بعلمِه، فالقاضِي في هذه الحالةِ بين أمرين: إمَّا أن يُكذِبَ المُدَّعي، وإمَّا أن يُحيلَ القضيةَ إلىٰ قاضٍ آخرَ، ويكون القاضي فيها شاهداً كبقيةِ النَّاسِ، أمَّا أن يَحكمَ فيها بناءً علىٰ شاهدين وهو يعلمُ كذبَ الدَّعوىٰ فلا يجوزُ؛ لأنَّ اللهَ ما جعل هذه البيناتِ إلا لإقامةِ العدلِ ومنعِ الظلمِ، فكيف تكون هذه البينةُ ذاتها مُقرةٌ للظلمِ؟ ويُبنَىٰ علىٰ الأخذِ بها الظلمُ؟.



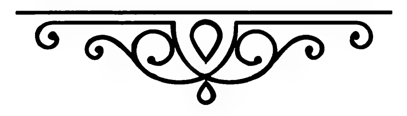
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحُدثت عن المُصَنِّفُ أنه حمل حديث الباب على اليمين في الدعاوى كمن يتحاكم عند الحاكم فيحكم على خصمه باليمين فيحلف فيجب عليه أن يرضى.



الشَّرح

يقول عن المُصَنِّفِ الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنه حملَ الحَدِيث على الحلفِ في الدَّعاوى، كمن يتحاكَم عند الحاكمِ فيحلف على خَصمِه باليمين فيحلفَ فيجب عليه أن يَرضى، أي: هذا في المسائل القضائيةِ، ليست في المسائلِ العامَّة، وإنما هذا سبيلُه في القضاءِ.





٤٣

باب: قول ما شاء الله وشئت

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ما حكم التكلم بذلك هل يجوز أم لا؟ وإذا قلنا: لا يجوز، فهل هو من الشِّرْك أم لا؟.



الشَّرح

هذا البابُ الثاني، وقد أورد فيه المُؤَلِّفُ ثلاثةَ أحاديثٍ:

الحَدِيثُ الأولُ: عن قُتيلة، وهي صحابِيَّةٌ: **(أنَّ يهوديـًا أتىٰ النَّبِيّ ﷺ فقال: إنكم تُشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبةِ. فأمرهم النَّبِيّ ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: وربِّ الكعبةِ، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئتَ)**[1]. بالترتيب، قال: رواه النَّسائي وصحَّحه.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة، برقم: (٣٧٧٣)، وأخرجه بمعناه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٧٠٩٣)، (٤٥/ ٤٣)، والطبراني في المعجم الكبير، مسند قتيلة بنت صيفي الجهنية (٢٥/ ١٤)، وصححه الشيخ الألباني في تعليقه علىٰ النسائي.

الحَدِيثُ الثاني: عن ابن عباس: (**أنَّ رجلاً قال للنَّبِي ﷺ: ما شاء الله وشئتَ. فقال: أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده**)[١].

والحَدِيثُ الثالثُ: حديثُ الطفيلِ أخو عائشةَ، عائشةُ أُمَّ المُؤْمنِين أُمُّها أُمُّ رَومان كانت تحت رجلٍ اسمُه الحارث بن سخبرة، قدِم مكة وتحالَف مع أبي بكر ثم مات، فتزوجَ أبو بكر زوجتَه، فأنجبت ولداً وبنتاً عبد الرحمن بن أبي بكر وعائشة، وكان لها الطفيل، فالطفيل بن الحارث بن سخبرة، وأحياناً يقول العُلَمَاء: الطفيلُ بن سخبرة أخو عائشةَ من أُمِّها، وليس له إلا هذا الحَدِيثُ في كتب السنن، هذا الطفيلُ رأىٰ رُؤيا، (**كأنه أتيت إلىٰ نفر من اليَهُود، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنَّكم تقولون عزيرٌ ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء مُحَمَّد. ثم مررت بنفر من النَّصَارَىٰ، فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيحُ ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاءَ الله وشاءَ مُحَمَّد. فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرتُ، ثم أتيتُ النَّبِيَّ ﷺ فأخبرتُه، فقال: هل أخبرتَ بها أحداً؟ قلت: نعم. قال: فحمدَ الله وأثنىٰ عليه ثمَّ قال: إن طفيلاً أخبرني أنه رأىٰ رؤيا أخبر بها من أخبرَ منكم، وإنَّكم قلتم قولاً كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ما شاء الله وشاء مُحَمَّد ولكن قولوا ما شاءَ الله وحده**)[٢].

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في الأدب المفرد، باب قول الرجل ما شاء الله وشئت، برقم: (٧٨٣)، (١/ ٢٧٤)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ مع زيادة، كتاب الجمعة، باب ما يكره من الكلام في الخطبة، برقم: (٥٨١٢)، (٣/ ٣٠٧)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٨٣٩)، (٣/ ٣٣٩) غير أنه قال "عدلا" بدل "ندا". وصححه الألباني في تعليقه علىٰ الأدب المفرد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسنده، برقم: (٢٠٦٩٤)، (٣٤/ ٢٩٦)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٨٢١٤)، (٨/ ٣٨٩)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، برقم: (١٥٤)، (٣/ ٢٤٦)، وأخرجه مختصراً ابن ماجه في سننه، كتاب الكفارات، باب النهي أن

هذه الأحاديثُ الثلاثةُ أوردها صاحبُ المتنِ في هذا البابِ ليمنعَ قولَ: ما شاءَ اللهِ وشئتَ، الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ تكلَّم عن هذه الأحاديثِ، وأورد عِدَّةَ مباحثَ:

المبحثُ الأولُ: في أنه هل يجوزُ أن يقولَ الإنسانُ: ما شاء اللهُ وشاء فلان. أو هذا من اللهِ ومن فُلان؟ قال المُؤَلِّفُ: جمهورُ العُلَمَاءِ بل يكادُ يكون إجماعًا على عدمِ الجوازِ، لكن أوردَ خلافًا عن أبي جعفر الداودي أنه قال: القُرْآن الكرِيم فيه آيتان تدلان على الجواز:

إحداهما: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة:٧٤]، فشَرَّك في الغنى.

والآية الثانية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧]، فشَرَّكَ بحرفِ الواو.

والعُلَمَاء ذكروا في الردِّ على الكلام وجهين:

أولاً: قالوا: إنَّ هذا القولَ قولُ الله، والله له أن يقول ما شاء جَلَّ وَعَلَا، كما أنَّه نهى أن نُقسمَ بغيره، وهو أقسمَ بالزمنِ، وبالليل وبالنهار، وبالضحى، فالله جَلَّ وَعَلَا له أن يقول ما شاء، فهو ربُّ العَالَمِينَ، كما أنَّنا نُهينا أن نُقسمَ بغيره جَلَّ وَعَلَا، وهو أقسمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ببعضِ المخلوقات، فلا يجوزُ أن نقول إنَّ الله أقسمَ، ونحن نُقسِمُ، هذا الوجهُ الأولُ.

= يقال ما شاء الله وشئت، برقم: (٢١١٨)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشاء فلان، برقم: (١٠٧٥٥)، (٩/ ٣٦١)، والدارمي في سننه، كتاب الاستئذان، باب في النهي عن أن يقول ما شاء الله وشاء فلان، برقم: (٢٧٤١)، (٣/ ١٧٦٩)، وصححه الألباني في تعليقه على ابن ماجه.

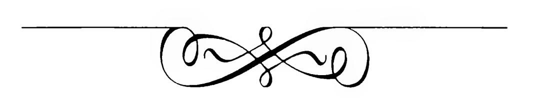
الوجهُ الثاني: أنَّ الفعلين في الآيتين مُنفكان، ففي الآيةِ الأولىٰ الإغناءُ من الله بالإيمان، والإغناءُ من رَسُوْلِ الله بالمالِ، والرَسُوْل أعطاهم المالَ.

فذكر فعلَ الرَسُوْل غيرَ فعلِ الله ﷻ، وكذلك مع مولاه زَيد؛ لأنَّ هذه الآية في زيدِ بن حارثة، فإنَّ اللهَ قد أنعم عليه بالإيمان، والرَسُوْل ﷺ قد أنعم عليه بالعتقِ، ففعلُ الله ﷻ غيرُ فعلِ الرَسُوْل ﷺ.

فاحتجاجُ الداودي بالآيتين مردودٌ، ما دام جاءت الأحاديثُ وقد شرَّعت لنا، ونَهتنَا عن هذا القولِ فلا يجوزُ لنا أن نأتي إلىٰ القُرْآنِ الكريم في شيءٍ يخصُّ الخالِقِ، ونجعلُه ينقضُ هذه الأحاديثَ.

المبحثُ الثاني: مبحثٌ لُغويٍ في (واو) و(ثمَّ)، علماءُ النَّحوِ يقولون: إنَّ كِلا الحرفين يدُلُّ علىٰ التشريك، ولكن الواو يدلَّ علىٰ التشريكِ لا علىٰ الترتيبِ، و(ثمَّ) تدلُّ علىٰ التشريكِ المُرتَّبِ، فلو قلت: دخل مُحَمَّد ثمَّ عليٌّ. أي: اشتركا في الدُّخولِ، لكن دخلَ مُحَمَّد قبلَ علي، وبعض العُلَمَاء يرىٰ أنَّ (ثُمَّ) لا تدلُّ علىٰ الترتيبِ إلا بقرينةٍ أُخرىٰ، مثلُها مثلُ الواو. ونرد علىٰ من قال: إنه ليس هناك فرق بين الواو وثم، نقول: إن الحَدِيثَ لا يَنفي فعلَ العبدَ، إنَّما يجعلُ فعلَ العبدِ تابعـًا لفعلِ الرَّبِّ، كما قال ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير:٢٨]، فأثبتَ لنا مشيئةً، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير:٢٩]، فلنا مشيئةٌ مستقلةٌ، لكنها مرتبطةٌ بمشيئةِ اللهِ ﷻ، فليس هناك اختلافٌ بين الآيتين. كذلك في الحَدِيثِ، فلنا فعلُ، لكن فعلنا جاء تابعـًا لفعلِ الله، فهو الذي أَذِن، وهو الذي خلقَ ﷻ، لو لم يأذَن اللهُ لم يقع فعلُنا، وهذَا من باب الأدبِ، وتحقيقِ التَّوْحِيدِ، وأنَّ الإنْسَانَ لا يُعلِّقُ قلبَه إلا باللهِ ﷻ. فليس في هذا إشكالٌ.

المبحثُ الثالثُ: ويتعلَّق بالحَدِيثِ الأول: (**أن يهوديًا أتى النَّبِيّ ﷺ فقال: إنكم تشركون**) فقال الشَّارِحُ رحمه الله: كيف أنَّ اليَهُودي عرفَ الشِّرْكَ الأصغرَ، وكثيرٌ من المُسْلِمين اليوم لا يعرفون الشِّرْكَ الأكبرَ؟ قال: نعوذُ بالله من الطامَّات الكبرى، هذا اليَهُوديُ أنكرَ على المُسْلِمين أنهم قالوا: ما شاءَ الله وشاءَ مُحَمَّدٌ، وأنهم قالوا: والكعبةِ. وهو شركٌ أصغرُ؛ لأنَّ هذا شركٌ لفظي، وكثيرٌ من المُسْلِمينَ يقعُ في الشِّرْكِ الأكبرِ فيدعو مع الله، ويستغيثُ مع الله بالمخلوقِ، ويذبحُ لغير الله، وينذُرُ لغير الله، فإنَّ هذا - نعوذ بالله - من الطَّامَّات التي وقعت في الأُمَّةِ، هذا ملخصُ ما في هذا البابِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

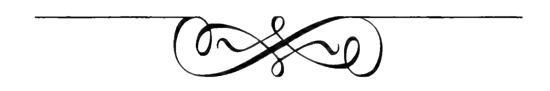
قال: عن قُتيلة: (أن يهودياً أتىٰ النَّبِيّ ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النَّبِيّ ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت) رواه النسائي وصححه.

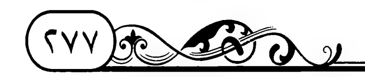
هذا الحَدِيث رواه النسائي في السنن واليوم والليلة، وهذا لفظه في اليوم والليلة، أخبرنا يوسف بن عيسىٰ قال ثنا الفضل بن مُوسَىٰ قال أنا مسعر عن معبد بن خالد عن عبد الله بن يسار عن قتيلة امرأة من جهينة: أن يهوديًا أتىٰ النَّبِيّ ﷺ فقال: إنكم تنددون وتشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت. وتقولون: والكعبة. فأمرهم النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة وقول أحدكم ما شاء الله ثم شئت).

الشَّرح

قوله: (وهذا لفظه في اليوم والليلة) اليومُ والليلةُ ليس اسمًا لكتابٍ له، إنَّما اسم الكتابُ (عملُ اليومِ والليلةِ)، وهو عن الأورادِ في اليومِ والليلةِ، أي: كيف تُرتِّب أورادَك، فألَّفَ كتابًا سمَّاه (عملُ اليومِ والليلةِ)، لكن قولُه: (اليومُ والليلةُ) هذا اختصار، العُلَمَاء أحيانًا يختصرون اسم الكتابِ أثناء العَزوِ إليه.

قوله: (إنكم تنددون) أي: تجعلون لله نِدًّا.



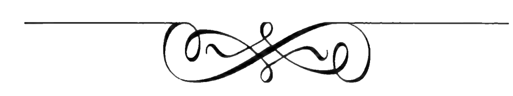


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رواه عن أحمد بن حفص حدثني أبي حدثني إبراهيم بن طهمان عن مغيرة عن معبد بن خالد عن قتيلة امرأة من جهينة قالت: (دخلت يهودية على عائشة فقالت: إنكم تشركون) وساق الحَدِيث، ولم يذكر عبد الله بن يسار والمشهور ذكره، وقد رواه ابن سعد والطبراني، وابن منده، وأشار ابن سعد إلى إنها ليس لها غيره.

الشَّرح

هذه الرِّوَايَةُ الثانيةُ أنَّ القائلَ ليس رجلاً، وإنَّما هي امرأةٌ من اليَهُود، واليَهُود هم أحسنُ حالاً من النَّصَارَىٰ في معتقدِهم في اللهِ ﷻ، لكنهم لهم طامَّات كُبرىٰ أُخرىٰ، هم مُوحِّدون لا يقولون: بأنَّ أحداً من الأنْبِيَاءِ ابنَ الله إلا طائفةً كانت تقول: عُزَيرٌ ابنُ الله. لكن اليَهُودُ المتأخرين مُوحِّدون لله ﷻ، لكنهم لهم اعتقادات أُخرىٰ باطلةٌ،فهم يعرفون الشِّرْكَ، وأنَّ الإنْسَان إذا عمل عملاً وأشركَ مع الله غيره يعرِفونه، ولهذا فإنَّ ذبيحةَ اليَهُودي أنظفُ من ذبيحةِ النصراني؛ لأنَّ اليَهُوديَ لا يذكرُ عليها اسماً غيرَ اسمِ اللهِ ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (عن قتيلة) هو بضم القاف وفتح التاء بعدها مثناة تحتية مصغراً بنت صيفي الجهنية أو الأنصارية صحابية.

قوله: (إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت) هذا نص في أن هذا اللفظ من الشِّرْك؛ لأن النَّبِيّ ﷺ أقر اليَهُودي علىٰ تسمية هذا اللفظ تنديداً أو شركًا، ونهىٰ النَّبِيّ ﷺ عن ذلك، وأرشد إلىٰ استعمال اللفظ البعيد عن الشِّرْك، وقول: ما شاء الله ثم شئت. وإن كان الأولىٰ قول: ما شاء الله وحده. كما يدل عليه حديث ابن عباس وغيره.

وعلىٰ النهي عن قول: ما شاء الله وشئت جمهور العُلَمَاء إلا أنه حُكي عن أبي جعفر الداودي ما يقتضي جواز ذلك احتجاجًا بقَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة:٧٤]، وقَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧] ونحو ذلك.

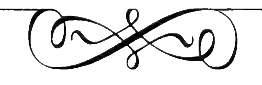
الشَّرْح

قوله: (احتجاجًا بقوله) ليس "لقوله" - كما في المطبوع - إنَّما يُحتَج به لا يُحتجُّ له، فَرقٌ بين الاحتجاجِ له أو به، فهنا الاحتجاجُ به وليس له.

قال فيه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، إلىٰ آخر الآياتِ، ما هو الشيء الذي كان يخفيه في نفسِه ﷺ؟ بعضُ المفسرون أحيانًا يتَّبعُ بعضَ الآثار الضعيفةِ، والأقوالِ غيرِ المُوثَّقةِ،

فالنَّبِيُّ ﷺ عندما زوَّجَ بنتَ عمته بزيد وكانت قرشيةً، وترىٰ أن زواجَها من المَولىٰ يُنقِصُها كعادةِ العَرَب؛ لأنَّ العَرَبَ كانت عندهم أَنَفَةٌ أن يُصاهروا مواليهم، والإِسْلَام جاءَ بالسواسية، وما يوجد في كتبِ الفِقه من أن الكفاءةَ في النَّسب مطلوبةٌ في الزواجِ وواجبةٌ إذ ليس علىٰ ذلك دليلٌ شرعي، بل تخالفُ الأدلةُ الشرعيةُ ذلك، هذه الحادثةُ تَنقُضُها، لكنَّ الفُقهاءَ جعلوها استحباباً، حتىٰ لا يقعُ فجوةً بين الزَّوجين، وإلا فليس هناك تشريعٌ في هذا الأمر، فإنَّ النَّاسَ أكفَاءُ بدينِهم، وليسوا بأنسابِهم.

فإنَّ زيداً تزوَّج من زينبَ وهي قرشيةٌ وهو ليس بقرشي، فكانت تشعر بغضَاضةٍ، ولكن الذي زوَّجَها هو النَّبِيّ ﷺ، وزيد كان يشكو من كبريائِها، وأنَّها لا تُعطِيه ليناً في الحَدِيث، وما يرىٰ منها وِداً، ويعرضُ علىٰ الرَسُوْل أن يُطلِّقها ﷺ، وقد جاء الوحي من السماء أنَّ زيداً سيطلقها وأنَّك ستتزوجها لتهدمَ عادةَ التَّبني في الجاهليةِ، وهي أنَّ الرجلَ إذا تبنَّىٰ شخصاً يكون ولداً له، فلا يتزوج أحدُهما زوجةَ الآخر بعد الطلاقِ أو الوفاةِ، وهذا كان تشريعاً عظيماً علىٰ رَسُوْل الله ﷺ ثقيلاً؛ لأنها كانت عادةً راسخةً في نفوس النَّاسِ، فالرَسُوْل ﷺ كان ينصحه بأن لا يستعجل، والقُرْآنُ يقول: أنت تعلم أنه سيقع خلافُ ما تنصحَ به، هذا هو الصحيحُ، ليس كما يقول بعض المُفسرين، أنَّ الرَسُوْل ﷺ كان يحبُّها، كيف كان يحبُّها، ما الذي منعه من الزواجِ منها قبل أن يُزَوجُها لمولاه زيدٍ؟ هذا كذبٌ في تفسيرِ هذه، بل إنَّه كان عنده علمٌ بأن الله زوجها من مولاه ليجعلها واقعةً للتشريع الذي سيشرعه الله ﷻ، فهذا هو الذي وقعَ منه ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب القول الأول، فإن النَّبِيّ ﷺ أنكر ذلك، وقال لمن قال له ذلك: (أجعلتني لله نداً) وأقرن من أسمائه تنديداً وشركًا على تسميته، ومن المحال أن يكون هذا أمراً جائزاً، وأما ما احتج من القُرْآن فقد ذكروا عن ذلك جوابين:

أحدهما: أن ذلك لله وحده لا شريك له كما أنه تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته فكذلك هذا.

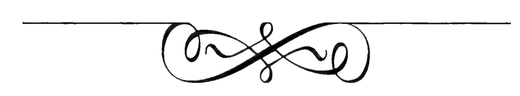
الثاني: أن قوله: (ما شاء الله وشئت) تشريك في مشيئة الله، وأما الآية فإنما أخبر بها عن فعلين متغايرين، فأخبر تعالى أنه أغناهم، وأن رَسُوْله أغناهم، وهو من الله حقيقة؛ لأنه الذي قدر ذلك، ومن الرَسُوْل ﷺ حقيقة باعتبار تعاطي الفعل، وكذا الإنعام أنعم الله على زيد بالإسْلَام، والنَّبِيّ ﷺ أنعم عليه بالعتق، وهذا بخلاف المشاركة في الفعل الواحد، فالكلام إنما هو فيه والمنع إنما هو منه.



الشَّرح

قولُه: (وأقرن من أسمائه تنديداً) هنا خطأٌ في الطباعةِ (وأقرن من أسمائه تنديديًا) لا بل الصوابُ: (وأقرَّ مَن سمَّاه تَنديداً).

قوله: (وشركًا) أي: أنَّ اليَهُودي قال: إنَّكم تُنددون وتُشرِكون. فالرَسُوْل ﷺ لم يرد عليه بأنَّ هذا ليس شركًا بل أقرَّه، فإقرارُه له يدلُّ على أنَّ هذا الكلامَ صحيحٌ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قلت: قد ذكر النحاة أن (ثم) تقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم كالواو فلم جاز ذلك بـ (ثم) ومنع منه الواو؟ وغاية ما يُقال: إن (ثم) تقتضي الترتيب بخلاف الواو فإنها تقتضي مطلق الجمع، وهذا لا يغير صورة الاشتراك قبل النهي عن ذلك، إنما هو إذا أتى بصورة التشريك جميعًا، وهذا لا يحصل إلا بالواو بخلاف (ثم) فإنها لا تقتضي الجمع، إنما تقتضي الترتيب، فإذا أتى بها زالت صورة التشريك والجمع في اللفظ، وأما المعنى فلله تعالى ما يختص به من المشيئة وللمخلوق ما يختص به، فلو أتى بـ (ثم) وأراد أنه شريك لله تعالى في المشيئة كـ (لولا الله ثم فلان) - مثلا - لم يوجد ذلك. فالنهي باق بحاله بل يكون في هذه الصورة أشد ممن أتى بالواو مع عدم هذا الاعتقاد.



الشَّرْح

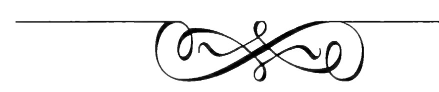
يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ النحاةَ يقولون: إنَّ الواو و(ثم) كلاهما يقتضي التَّشرِيكَ، ولكن (ثُمَّ) تقتضي الترتيبَ، لا أنها تنفي الاشتراك في الفعلِ، وقلنا: لو قلنا دخلَ فلانٌ وفلانٌ. فهذان اشتراكا في الدُّخول، لكن لا ندري أيهما سَبقَ، لكن لو قلنا: دخل فلان ثمَّ فلان. فإنهما اشتركا في الدُخول، لكنَّ أحدَهما سبقَ الثاني، فإذا كان كِلا الحرفين يدلُّ على التشريكِ وإنما الفرق بينهما أنَّ هذا للترتيب، وهذا لعدم الترتيبِ، فلم تحل المشكلةُ إذن. فنقول: المشكلةُ قد حُلَّت، وأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا ينفي فعلَ العبدِ، العبدُ له فعلٌ، لكنَّ فعلَه تابعٌ لفعلِ الخالِقِ، كما أنَّ مشيئتَه تابعةٌ لمشيئةِ الخالِقِ، وهذا من بابِ الأدبِ في الاعتراف بأن الأحداث والحوادثَ من الله، وأنَّ اللهَ هو الفاعلُ والخالِقُ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه هو الذي أَذِنَ فلو لم يأذَن بالفعل لم يقع. فليس الاعتراض في محلِّه والله أعلم.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويشبه ذلك الجمع بين اسم الله واسم غيره في ضمير واحد، ولهذا أنكره النَّبِيّ ﷺ علىٰ الخطيب لما قال: (ومن يعصهما فقد غوىٰ) فقال له: (بئس الخطيب أنت، قل: فمن يعصي الله ورَسُوْله).

الشَّرح

ذَكَرَ أنه لا يجوزُ أن يقول: (ومن يعصِهما) بلفظ الفعلِ الواحد، لابدَّ أن يفصلَ بين الفِعلينِ، فيقول: ومن يعصِ اللهَ ورَسُوْله؛ لأنَّ الجمعَ بينهما قد يُوهمُ الاشتراكَ والمُماثلةَ، مع أنَّه جاءَ في بعضِ الأحاديثِ الاشراكُ، لكنَّ المُسْلِم مخاطبٌ بقول الرَسُوْل ﷺ قبل فعلَه، فلو جاء عندنا قولٌ وفعلٌ للنَّبيِّ ﷺ أحدُهما يخالفُ الآخر، فالقول يأمُرُنا بأن نفعلَ أو نتركَ، فنحن مُخاطَبون بقولِ الرَسُوْل ﷺ؛ لأنَّ فعلَ الرَسُوْل ﷺ له رُبَّما تكون من خصائصه. فإن اتفق القولُ والفعلُ فذاك، وإن أمكن الجمعُ بين القولِ والفعلِ فذاك، وإن لم يمكن فنحن إنما نفعلُ ما خُوطِبنا به، لا ما فعلَه ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (فأمرهم النَّبِيّ ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة) تقدم ما يتعلق بالحلف بغير الله قريباً.

وفي الحَدِيث من الفوائد: معرفة اليَهُود بالشِّرْك الأصغر، وكثير ممن يدعي الإسْلَام لا يعرف الشِّرْك الأكبر بل يصرف خالص العبادات من الدعاء والذبح والنذر لغير الله، ويظن أن ذلك من دين الإسْلَام، فعلمت أن اليَهُود في ذلك الوقت أحسن حالاً ومعرفة منهم. وفيه فهم الإنْسَان إذا كان له هوىٰ، كما نبه عليه المُصَنِّفُ، وأن المعرفة بالحق لا تستلزم الإيمان ولا العمل، وقبول الحق ممن جاء به، وإن كان عدواً مخالفاً في الدين، وإن الحلف بغير الله من الشِّرْك، وأن الشِّرْك الأصغر لا يمرق به الإنْسَان من الإسْلَام.

قال: (وله أيضاً عن ابن عباس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال: أجعلتني لله نداً ما شاء الله وحده).

هذا الحَدِيث رواه النسائي، كما قال المُصَنِّفُ لكن في اليوم والليلة، وهذا لفظه: (أخبرنا علي بن خشرم عن عيسىٰ عن الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس أن رجلاً أتىٰ النَّبِيّ ﷺ فكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وشئت، فقال النَّبِيّ ﷺ: أجعلتني لله عدلاً، قل: ما شاء الله وحده) ورواه ابن ماجه في الكفارات من السنن (عن هشام بن عمار عن عيسىٰ نحوه ولفظه: (إذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت..) الحَدِيث، وقد تابع عيسىٰ علىٰ هذا الحَدِيث سفيان الثوري وعبد الرحمن المجازلي وجعفر بن عون عن الأجلح وكلهم ثقات، وخالفهم القاسم بن مالك وهو ثقة فرواه عن الأجلح عن أبي الزبير عن جابر، والأول أرجح ويحتمل أن يكون عند الأجلح عنهما جميعاً.

قوله: (أجعلتني لله نداً) هذه رواية ابن مردويه، والرِّوَايَة عند النسائي وابن ماجه: (أجعلتني لله عدلاً) والمعنىٰ واحد.

قال ابنُ القَيِّمِ: ومن ذلك -أي من الشِّرْك بالله- في الألفاظ قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النَّبِيّ ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت. وذكر الحَدِيث المشروح، ثم قال: هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة لقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير:٢٨]، فكيف بمن يقول: أنا متوكل علىٰ الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، والله وحياة فلان، أو يقول: نذراً لله ولفلان، وأنا تائب لله ولفلان، وأرجو الله وفلانـًا، فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش، يتبين لك أن قائلها أولىٰ بجواب النَّبِيّ ﷺ القائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعله نداً بها فهذا قد جعل من لا يداني رَسُوْل الله ﷺ في شيء من الأشياء، بل لعله أن يكون من أعدائه نداً لرب العَالَمِينَ، فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة والتقوىٰ والخشية والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعـًا وتعبداً والطواف بالبيت والدعاء كل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل.

وفي مسند الإمام أحمد: (أن رجلاً أتي به إلىٰ النَّبِيّ ﷺ قد أذنب فلما وقف بين يديه قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلىٰ مُحَمَّد، فقال: عرف الحق لأهله).

قلت: إذا كان هذا كلامه ﷺ لمن قال له: ما شاء الله وشئت. فكيف بمن يقول فيه:

فإن من جودك الدُّنْيَا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ويقول في همزيته:

هذه علتي وأنت طبيبي ... ليس يخفىٰ عليك في القلب داء

وأشباه هذا من الكفر الصريح.

قال: ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: (رأيت كأني أتيت علىٰ نفر من اليَهُود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء مُحَمَّد. ثم مررت بنفر من النَّصَارَىٰ فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء مُحَمَّد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النَّبِيّ ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: أما بعد فإن طفيلاً رأىٰ رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء مُحَمَّد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده).

هذا الحَدِيث لم يروه ابن ماجه بهذا اللفظ عن الطفيل إنما رواه عن حذيفة ولفظه: حدثنا هشام بن عمار ثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان: أن رجلاً من المُسْلِمين رأىٰ في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب، فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشاء مُحَمَّد.. وذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: أما والله إن كنت لأعرفها لكم قولوا: ما شاء الله ثم شاء مُحَمَّد) ورواه أحمد والنسائي بنحوه، وفي رواية للنسائي أن الراوي لذلك هو حذيفة نفسه، هذه رواية ابن عيينة ثم ذكر ابن ماجه

حديث الطفيل هذا فساق إسناده، ولم يذكر اللفظ فقال: حدثنا ابن أبي الشوارب ثنا ابن عوانة عن عبد الملك عن ربعي بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها عن النَّبِيّ ﷺ بنحوه، هذا لفظ ابن ماجه، وهكذا رواه حماد بن سلمة وشعبة وابن إدريس عن عبدالملك فقالوا عن الطفيل وهو الذي رجحه الحفاظ، وقالوا: ابن عيينة وهم في قوله: (عن حذيفة) فقد تبين أن هذا الحَدِيث المذكور لم يروه ابن ماجه بهذا اللفظ لكن رواه أحمد والطبراني بنحو مما ذكره المُصَنِّفُ.

قوله: (عن الطفيل) هو ابن سخبرة، وفي حديثه هذا أنه أخو عائشة لأمها وكذا قال الحربي، وقال الذي عندي: إن الحارث بن سخبرة قدم مكة فحالف أبا بكر فمات، فخلف أبو بكر على أم رومان، فولدت له عبد الرحمن وعائشة، وكان لها من الحارث الطفيل بن الحارث، فهو أخو عائشة لأمها. وقيل: غير ذلك وهو صحابي ليس له إلا هذا الحَدِيث. قال البغوي: لا أعلم له غيره.

قوله: (رأيت فيما يرى النائم) كما روى أحمد والطبراني.

قوله: (على نفر من اليَهُود) وفي رواية أحمد والطبراني (كأني مررت برهط من اليَهُود، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن اليَهُود) والنفر رهط الإِنْسَان وعشيرته، وهو اسم جمع يقع على جماعة من الرجال خاصة ما بين الثلاثة إلى العشرة، ولا واحد له من لفظه، قال أبو السعادات: قوله: (فقلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله) أي: نعم القوم أنتم لولا ما أنتم عليه من الشِّرْك والمسبة لله بنسبة الولد إليه، وهذا لفظ الطبراني ولفظ أحمد قال: (أنتم القوم).

قوله: (قالوا: وأنت لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء مُحَمَّد) عارضوه بذكر شيء مما في المُسْلِمين من الشِّرْك الأصغر، فقالوا له هذا الكلام، أي: نعم القوم أنتم لولا ما فيكم من الشِّرْك، وكذلك جرى له مع النَّصَارَى.

قوله: (فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت) وفي رواية أحمد (فلما أصبح أخبر بها من أخبر)، وفي رواية الطبراني (فما أصبحت أخبرت بها أناسًا).

قوله: (ثم أتيت النَّبِيّ ﷺ فأخبرته)، فيه حسن خلقه ﷺ وعدم احتجابه عن النَّاس كالملوك بحيث إذا أراد أحد الوصول إليه أمكنه ذلك بلا كلفة ولا مشقة، بل يصلون إليه، ويقضي حاجتهم ويخبرونه بما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم ويقصون عليه ما يرونه في المنام، بل كان ﷺ يعتني بالرؤيا؛ لأنها من أقسام الوحي، وكان إذا صلىٰ الصبح كثيراً ما يقول: (هل رأىٰ أحد منكم رؤيا).

قوله: (فحمد الله وأثنىٰ عليه) وفي رواية أحمد: (فلما أصبحوا خطبهم فحمد الله وأثنىٰ عليه) وفي رواية الطبراني: (فما صلىٰ الظهر قام خطيبًا) ففيه مشروعية حمد الله والثناء عليه في الخطب، وفيه الخطبة في الأمور المهمة، وأما معنىٰ الحمد فقد تقدم في باب قول الله - تَعَالَى -: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا ﴾ [الأعراف:١٩١]، وأما الثناء فقال ابنُ القَيِّمِ: هو تكرار المحامد.

قوله: (ثم قال: أما بعد)، في رواية أحمد والطبراني ثم قال: (إن طفيلاً رأىٰ رؤيا) ولم يذكر أما بعد، وفي رواية للطبراني: (فقام نبي الله علىٰ المنبر فقال: إن أخاكم رأىٰ رؤيا، قد حدثكم بما رأىٰ) فيه مشروعية أما بعد في الخطب في هذا الحَدِيث وإلا فلا يضر فإنها ثابتة في خطبه عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي غيره.

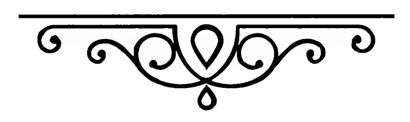
قوله: (وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها)، وفي رواية أحمد والطبراني: (وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها) وهذا الحياء منهم ليس علىٰ سبيل الحياء من الإنكار عليهم، بل كان ﷺ يكرهها ويستحيي أن يذكرها؛ لأنه لم يأمر بإنكارها، فلما جاء الأمر الإلهي بالرؤيا الصالحة أنكرها ولم يستحي في ذلك.

وفيه دليل علىٰ أنها من الشِّرْك الأصغر؛ إذ لو كانت من الأكبر لأنكرها من أول مرة قالوها، وفيه ما كان عليه النَّبِيّ ﷺ من الحياء، وأنه من الأخلاق المحمودة.

قوله: (فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء مُحَمَّد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده) هذا علىٰ سبيل الاستحباب، وإلا فيجوز أن يقول: ما شاء الله ثم شاء فلان، كما تقدم، وفيه أن الرؤيا قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام كما في هذا الحَدِيث وحديث الأذان وحديث الذكر بعد الصلوات.



الشَّرْح (١)



(١) قام فضيلة الشيخ بالتعليق علىٰ هذا الجزء من المتن في الكلام السابق.



باب: من سب الدهر فقد آذى اللّه

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مناسبة هذا الباب لكتاب التَّوْحِيد ظاهرة؛ لأن سب الدهر يتضمن الشِّرْك كما سيأتي بيانه، ولفظ الأذىٰ في اللغة هو لما خف أمره وضعف أثره من الشِّرْك والمكروه، ذكره الخطابي.

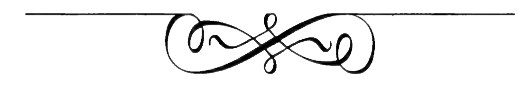
قال شيخ الإِسْلَام: وهو كما قال، وهذا بخلاف الضرر، فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرونه كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٦]، فبين سبحانه أن الخلق لا يضرونه لكن يؤذونه إذا سبوا مقلب الأمور.



هذا البابُ عقدَه المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعنوانِ: (بابُ من سبَّ الدَّهرَ فقد آذىٰ الله)، سيأتي تفصيلُ هذا البابِ، والحَدِيثُ المرفوع فيه هو من الأحاديثِ القُدُسيةِ، أنَّ اللهَ ﷻ يقول: (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب

الليل والنهار)[١] فهذا يقع فيه كثير من النَّاس عندما يحدُث له حادثةٌ، أو عندما يُهضم حقُّه، أو عندما يُنتقَص من حقوقِه، أو عندما يرىٰ بعضَ النَّاسِ يرتفعُ وهو ليس أهلاً للرِّفعة، يسبَّ الدَّهرَ والزمنَ، وهذا خلافُ المشروعِ، بل هذا محرمٌ في دين الإِسْلَام، كما سيأتي في هذا الحَدِيثِ الشريفِ.

قوله: (**مناسبة هذا الباب لكتاب التَّوْحِيد ظاهرة...**) ذكر الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ أمرين: الأذَىٰ والضررَ، أمَّا الأذىٰ فقد وردَ فيه أن من سبَّ الدهرَ؛ فقد آذىٰ اللهَ، أو فعلَ فِعلاً أو قال قولاً يكرهُه الله؛ فقد آذىٰ الله، لكن لا يلحقُ اللهَ ضررٌ بهذا السَّبِّ، فإنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ذكر أنهم لن يضروا الله شيئًا، وفي الحَدِيث القدسي: (**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**)[٢] لا يستطيعون أن يَضُرُّوا الله عَزَّ وَجَلَّ، إنَّما يضرون أنفسَهم، والأذىٰ في حقِّ المخلوقِ ليس مثلُه في حقِّ الخالِقِ، فإنَّ الأذىٰ يلحقُ المخلوقَ وهو عاجزٌ عن ردِّه، لكنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قادرٌ علىٰ أن لا يؤذيه أحدٌ، لكن الله جعلَه ابتلاءً، وأعطىٰ النَّاس القدرةَ علىٰ أن يقولوا ويفعلوا، وسيحاسبُهم علىٰ أقوالِهم وأفعالِهم يومَ القِيَامَةِ إن كان خيراً أعطاهم الثوابَ، وإن كان شراً عذَّبهم في جهنَّم أعاذنا الله من ذلك.



(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب التَّوْحِيد، باب قول الله تعالي: "يريدون أن يبدلوا كلام الله"، برقم: (٧٤٩١)، ومُسْلِم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر، برقم: (٢٢٤٦)، (٤/ ١٧٦٢).

(٢) أخرجه مُسْلِم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧)، (٤/ ١٩٩٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال: وقول الله - تَعَالَى -: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية:٢٤] الآية.

قال ابن كثير: يخبر تعالىٰ عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مُشْرِكي العَرَب في إنكار المعاد، وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية:٢٤].

قال ابن جرير: أي: ما حياة إلا حياتنا التي نحن فيها لا حياة سواها، تكذيباً منهم بالبعث بعد الموت.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية:٢٤] قال ابن كثير: أي يموت قوم، ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مُشْرِكو العَرَب المنكرون للمعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدورية المنكرون للصانع المعتقدون في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلىٰ ما كان عليه، فزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهي، فكابروا العقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية:٢٤] قال ابن جرير: أي ما يهلكنا فيفنينا إلا مر الليالي والأيام وطول العمر إنكاراً منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم.

الشَّرح

هذه هي إحدىٰ القضايا الثلاثِ التي يدور عليها القُرْآنُ الكرِيمُ: قضيةُ العِبادةِ: وهو ما وقع فيه الشِّرْك من الذين عبدُوا مع الله غيرَه، وقضيةُ الإيمانِ بالآخِرَةِ: فإن بعضَ النَّاسِ يُنكرون أنَّ هناك بعثاً وحياةً بعد الموت، وقضيةُ النبوة؛ لأنها الواسطةُ في تبليغ هذه القضايا.

القُرْآنُ الكرِيم يدورُ علىٰ هذه المحاورِ الثلاثةِ، توحيدُ الأُلوهية أو الإلهية، والإيمانُ بالبعث، وإثباتُ نبوةِ نبينَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فهذه هي القضيةُ الأساسيةُ للقرآنِ الكريم، بعض العَرَب أو أكثرهم كان يعتقد أنه ليس هناك بعثٌ ولا حسابٌ ولا عقابٌ ولا جزاءٌ، فإذا تصوَّر الإنْسَانُ أنه ليس هناك آخرةٌ، وليس هناك بعثٌ، ولا حسابٌ، تكون الحياةُ حياةَ الوحوش، فإنَّ القويَ يأكل الضعيفَ، والغنيَ يظلم الفقيرَ وتصبح الحياةُ لا تُطاق، لكن الله ﷻ لم يخلق النَّاسَ هَمَلاً، وإنَّما خلقَهم لعملٍ جليلٍ وهو عبادتُه، ثم جعل هناك يوماً آخِرَ يُحاسبُ النَّاسُ فيه، فإن هذا من عدلِ الله ﷻ، وإلا لكانت الحياةُ شقاءً، وكانت الحياةُ حياةً بائسةً، لكنَّ الإنْسَانَ المُسْلِم إن لحقه ظلمٌ فسيُعَوَّضُ في الآخِرَةِ، وإن عمل صالحاً وتعبَ في هذا العمل سيُعطىٰ في الآخِرَةِ. فالإيمان بالآخِرَةِ هو البلسم الشافي للقلوب، الفقيرُ يصبرُ، والمريضُ يصبرُ، والمظلومُ يصبرُ؛ لأنه لن تضيع هذه الحقوقُ، أمَّا العَرَبُ فكانوا يُنكِرون أنَّ هناك ميعاداً أو بعثاً، وكانوا يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] أي:: ما هناك خالق يُهلِك، لكن ما أنكروا الخالِقَ، إنما أنكروا أنَّ الخالِقَ له فعلٌ في إهلاكِهم أو في موتِهم أو في حياتِهم، لكنهم كانوا يعترفون بأن الله هو الذي خلقَ كما قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، هل هم طوائفٌ طائفةٌ تقول بكذا، وطائفةٌ تقول بكذا؟ احتمال كما ذكر ﷻ عن النَّصارَىٰ، أحياناً أنتم قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة. وأحياناً قالوا: إن المسيح ابن الله. ليس كلُّهم قالوا هذا القول، بل طوائف منهم. فهل قريش كانت فيهم طوائف؟ نعم، كان فيهم جماعة يُسمُّون الدَّهرية، أي الذين يَنسبُون الأحداث إلىٰ الدهرِ، لكنهم لم يكونوا يُنكِرون الخالِقَ، إنما أنكروا أن يكون هلاكُهم وفناؤهم من فعل الله ﷻ، فردَّ الله عليهم أن هذا ليس من فعل الدهر، بل الله الذي يفعل ﷻ.

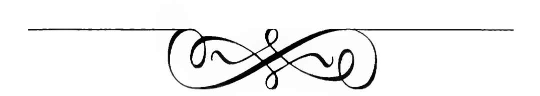


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم رُوىٰ بإسناد علىٰ شرط الصَّحِيحَين عن أبي هريرة: عن النَّبِيِّ ﷺ قال: (كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية:٢٤] قال: فيسبون الدهر فقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار).

الشَّرح

ذكرَ هذه الرِّوَايَةَ التي هي علىٰ شرطِ الصَّحِيحَين؛ لأنَّ فيها سببَ نزولِ الآيةِ، وإلا فإنَّ أصلَ الحَدِيث في الصَّحِيحَين كما سيأتي من قولِ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



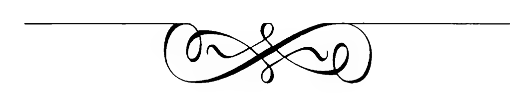
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٤] قال ابن جرير: أي: من يقين علم. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:٢٤] قال ابن كثير: يتوهمون ويتخيلون. فإن قلت: فأين مطابقة الآية للترجمة إذا كانت خبراً عن الدهرية المُشْرِكينَ؟ قيل: المطابقة ظاهرة؛ لأن من سب الدهر فقد شاركهم في سبه، وإن لم يشاركهم في الاعتقاد.

الشَّرْح

قوله: (قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ [الجاثية:٢٤] أي: هذا القولُ الذي قالوه لم يكن عندَهم علمٌ بصحتهِ، إنما هو ظنٌّ، والظنُّ لا يغني من الحق شيئـًا، ولهذا نحن منهيون عن اتباع الظنِّ، ومأمُورون بأن لا نتبعَ إلا العلمَ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، لابد أن يكون عندك علمٌ مما تقول وما تفعلُ، أمَّا الظنُّ فلا يغني ولا يكفي، هذا من أخلاقِ الجاهليةِ، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:٢٤]، والظنُّ لا يُتبعُ في العقائدِ، ولا يُتبعُ في الأعمالِ ولا في الأحكامِ، لابدَّ أن يكون هناك علمٌ يَقِينيٌ فيما يفعل الإنْسَانُ وما يتركُ، وما يعتقدُ صِحَّته، وما يعتقدُ بطلانَه، فقد جاء الإسْلَام فرفعَ الإنْسَانَ المُسْلِم عن أن يكون فريسةً للأوهام والخيالات، فلا ينبغي للإنسان أن يكون عُرضَةً للتصورات الكاذبةِ والأوهامِ، فلا يتَّبع ولا يصدِّق إلا ما صحَّ، ولهذا قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، والغيبُ: هو ما صحَّ عن طريق الدليلِ، أمَّا الخرافاتُ فلا ينبغي للإنسان المُسْلِم أن يُصدِّقَها ولا يقبلُها، فلابدَّ من صحةِ الدَّليل حتىٰ نصدِّق، أو حتىٰ نعتقد أو نعملَ.

قولـه: (فـإن قلـت: فـأين مطابقـة...) الشَّـارِحُ ﵀ يحـاول أن يـربطَ بـين النصوصِ التي يذكرها صاحبُ المتنِ وبين العُنوانِ، فالعُنوانُ: (بـابُ مـن سـبَّ الدهرَ فقد آذىٰ اللهَ) ثم جاء بآيةٍ في اعتقـادِ المُشْـرِكينَ، فيقـول: كيـف نـربطُ بـين الآيةِ وبين العُنوان؟ قال الشَّارِحُ ﵀: الرَّبطُ سهلٌ فإنَّه لما كـان المُسْـلِم يسـبُّ الدَّهرَ فإنه قد شابَه المُشْرِكينَ في عَزوِ الأعمالِ إلىٰ الـدَّهرِ، وإن لـم يشـابِهُهم في اعتقادِهم، فالمُسْلِم قد يسبُّ الدهرَ ويذمُّه وهو لا يعتقدُ أنَّ الـدهرَ يفعـلُ، لكنـه شابَهَ المُشْرِكينَ في أحدِ الوجهين؛ لأنَّ المُشْرِكينَ سبُّوا الدهرَ واعتقـدوا أنـه هـو الفاعلُ، فالمُسْلِم إذا سبَّ الدَّهرَ وإن لم يعتقد أنـه هـو الفاعـل شَـابَهَ المُشْـرِكينَ في جزءٍ من المسألةِ، فإن اعتقدَ كان مُشْرِكـًا.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: في الصحيح عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ قال: (قال الله - تَعَالَى -: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار)، وفي رواية: (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر).

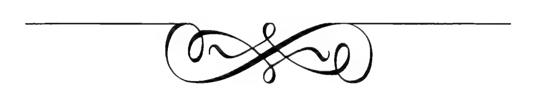
قوله: (في الصحيح) أي صحيح مُسْلِم، ورواه أحمد بهذا اللفظ وأخرجه البُخَارِيُ بلفظ آخر.

قوله: (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر) فيه أن سب الدهر يؤذي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قال الشافعي: في تأويله ـ والله أعلم ـ إن العَرَب كان من شأنها أن تذم الدهر وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم من موت أو هرم أو تلف أو غير ذلك، فيقولون: إنما يهلكنا الدهر، وهو الليل والنهار. ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء فيذمون الدهر بأنه الذي يفنيهم ويفعل بهم، فقال رَسُوْل الله ﷺ: (لا تسبوا الدهر) على أنه الذي يفنيكم والذي يفعل بكم هذه الأشياء، فإنكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء فإنما تسبون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإنه فاعل هذه الأشياء. انتهى.

الشَّرح

قولُه: (قال: في الصحيح عن أبي هريرة عن...) كلام الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُوهِمُ أنَّ لفظَ البُخَارِيِّ مختلفٌ عن لفظ مُسْلِمٍ، والحقيقة أنه ليس بينهما خلاف، بل بنفس الألفاظ ما عدا خلافٍ يسيرٍ لا يُؤثِّر على المعنى، ففي (مُسْلِمٍ): (يؤذيني بني آدم)، ولفظ البُخَارِيُ: (يؤذيني بنو آدم) على الجمعِ ومثل هذا، وإلا فإنَّ البُخَارِيَّ أوردَه بهذا اللفظ.

قوله: (قوله: (يؤذيني ابن آدم يسب...) هذا كلامُ الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ عن واقعِ قريشٍ، أنهم كانوا يَنسِبون الأحداثَ إلىٰ الدهرِ، وسيذكرُ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ وجه اعتقادِ المُشْرِكينَ في هذه المسألةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: والظاهر أن المُشْرِكينَ نوعان:

أحدهما: من يعتقد أن الدهر هو الفاعل فيسبه لذلك، فهؤلاء هم الدهرية.

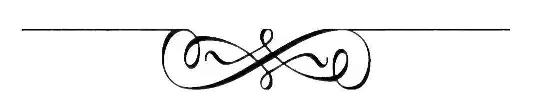
الثاني: من يعتقد أن المدبر للأمور هو الله وحده لا شريك له، ولكن يسبون الدهر لما يجري عليهم فيه من المصائب والحوادث، فيضيفون ذلك إليه من إضافة الشيء إلىٰ محله، لا لأنه عندهم فاعل لذلك.

والحَدِيث صريح في النهي عن سب الدهر مطلقـًا سواء اعتقد أنه فاعل أو لم يعتقد ذلك، كما يقع كثيراً ممن يعتقد الإِسْلَام.



الشَّرح

يُقسِّمُ رَحِمَهُ اللَّهُ الذين يَسبُّون الدهرَ إلىٰ قِسمين: قسمٌ يسبُّ ويعتقدُ، وقِسمٌ يَسُبُّ ولا يعتقدُ. فالأولُ مُشْرِكٌ، والثاني مُرتكِبٌ لأمرٍ محرَّمٍ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كقول ابن المعتز:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً وأنت والد سوء تأكل الولدا

وقول أبي الطيب:

قبحًا لوجهك يا زمان كأنه وجه له من كل قبح برقع

وقول الطرفي:

إن تبتلىٰ بلئام النَّاس يرفعهم عليك دهر لأهل الفضل قد خانا

وقول الحريري:

ولا تأمن من الدهر الخؤون فكم خامل أخنىٰ عليه ونابه

ونحو ذلك كثير، وكل هذا داخل في الحَدِيث.



الشَّرح

يذكرُ بعض أبياتِ شعرٍ قالها بعضُ الشعراءِ يَسبُّون فيها الدهرَ، فإنَّه في كل عصر كثيرٌ من النَّاس يرتفعون في المجتمعِ وليسوا أهلاً، وكثيرٌ من النَّاس يُخفَضون في المجتمعِ وليسوا أهلاً، فالنَّاسُ ينظرون إلىٰ هذا الارتفاع وإلىٰ هذا الانخفاضِ أنه من الزمنِ أو الليل والنهار، في الحقيقةِ هذا من أفعالِ بني آدم، فكثيرٌ من العُلَمَاءِ وكثير لا من الشُّجعانِ، وكثيرٌ من الكُرماءِ وكثيرٌ من الصَّالِحِينَ وكثير من النَّابهين والأذكياءِ يُهضَمون في مجتمعاتهم؛ لأنَّ كثيراً من أصحابِ المكانة أحيانًا لا يريدون أن يظهرَ إلىٰ جنبِهم من هم في مستوىٰ أعلىٰ منهم عقلاً، أو ذكاءً أو حزمًا أو عزمًا أو علمًا أو صلاحًا، لضعفِ في

دينِهم أو أخلاقِهم، فلا يرضون إلا بالإنْسَانِ السافلِ كما جاء في الحَدِيثِ، عندما سأل أحدُ الأعرابِ: متىٰ الساعةُ يا رَسُوْل الله؟ قال: (**إذا وُسِّدَ الأمرُ إلىٰ غير أهلِه فانتظر الساعة**)[١]، وجاء من علامات الساعةِ أنه ينطق فيها الرُّويبضةُ[٢]، الرويبضةُ: الإنْسَانُ الحقيرُ الذي لا عقلَ له ولا علمَ يصبحُ هو الذي يتحدَّث باسم النَّاس، هذا من علامات الخلل في المجتمع، فكثير من العُلَمَاءِ هُضِموا في حقوقِهم، وكثيرٌ من الشعراءِ هُضِموا في حقوقِهم، نَسبُوا هذا الهضمَ إلىٰ الزمنِ. وليس الزمنُ، إنما من يعيشُ في الزمن أي النَّاسُ.

ونضربُ مثالاً: هل يختارُ المديرُ في إدارةٍ ما وكيلاً عنه أو نائباً عنه إنساناً أذكَىٰ منه، أو أعلمَ منه؟ لا، طبيعةُ الإنْسَانِ أن يختارَ أضعفَ منه حتىٰ يكون هو أمامَه عملاقاً كبيراً، لو جاء بواحدٍ أقوىٰ منه يصغُر هو أمامَ النَّاسِ، وهكذا من في إدارته الذين هم أهلٌ لهذا المنصب في أنفسِهم يشعرون بأنهم قد ظُلِموا، فهناك من يتَّهم الزمنَ في ذلك، والزمنُ ليس له فعلٌ في حياة النَّاسِ، وإنما هم النَّاسُ أنفسُهم، وهكذا.

فلا يجوز لك أن تعتقدَ أنَّ الزمنَ هو الفاعلُ، ثم لا يجوز لك أن تسبَّ الزمنَ، بعضُ النَّاسِ يقول: الزمنُ غدَّار، الزمن خائنٌ، الزمن ظالُم، هذا كلُّه

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه....، برقم: (٥٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب شدة الزمان، برقم: (٤٠٣٦)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٧٩١٢)، (١٣/ ٢٩١)، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، برقم: (٨٥٠٥)، (٤/ ٦٣٤)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٣٢٥٨)، (٣/ ٣١٣)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٣٧١٥)، (٦/ ٣٧٨)، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في مصنفه، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، والبزار في مسنده، والطبراني في مسنده الشاميين، وصححه الحاكم ولكن ضعفه الذهبي في التخليص، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ ابن ماجه.

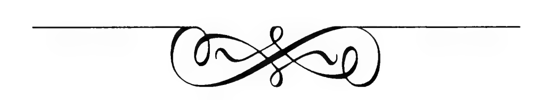
خطأً، إنَّما المُرتكبُ للخطيئةِ هم أهلُ الزَّمن، وليس الزمنُ، وهذا محظورٌ ومحرَّمٌ في الإسْلَام أن تنسبَ الحوادثَ إلىٰ الزمن، وفي الحَدِيثِ: أنه (يؤذيني ابن آدم)[١] بهذا العمل، والنَّاس في الجاهليةِ كانوا لا يرضون أن يكون بعضهم رئيساً علىٰ بعض؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يعتقدُ أنَّه أولىٰ بالرئاسة، فعندما جاء الإسْلَام شرَّعَ للمُسْلِمين أنهم إذا وُلِّيَ عليهم شخصٌ أن يسمَعوا ويُطيعوا، ولو كان أقلَّ ذكاءً منهم، ولو كان أقلَّ عِلماً منهم؛ لأنه ما من إنسان إلا ويعتقدُ أنه أذكىٰ النَّاس، لو عملنا دراسةً وسألنا الأشخاصَ هل تعتقد أن مالكَ قليلٌ؟ يقول: نعم. هل تعتقد أن قوتَك الجسمية ضعيفةً؟ يقول: والله هي ضعيفةٌ ما هي بقوية جداً. هل تعتقد أنَّ عقلَك ناقصٌ؟ يقول: لا. ليس هناك إنسانٌ يقرُّ بأنَّ عقلَه ناقصٌ أبداً، كلُّ إنسانٍ يعتقد أن عقلَه أحسنُ العقول، فلو وُكِل إلىٰ النَّاس أن يضعوا أنفسَهم في مواضعِ المسئوليةِ لكان كلُّ واحدٍ منهم يعتقد أنه أولىٰ بالمسئولية، فتقعَ الفوضىٰ في المجتمع، وقد جاء في الحَدِيث: (**مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا علىٰ سفينة، فكان بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها**)[٢] انقسمُوا بالحظِّ، وهكذا في المجتمعات، يرتفعُ ناسٌ بالنصيبِ والحظِّ، والحظُّ من الله، وناسٌ ينخفِضون بالحظِّ، وهذا من الله، بل ربما نرىٰ الأذكياءَ أفقر النَّاس وأبعدَهم عن السلطةِ وعن الرئاسة؛ لأنَّ هذه الأمورَ ليست بالقوة العقليةِ، ولا بالقوة المادية، وإنما هي أقدارٌ، أقدارٌ وأرزاقٌ يُوزِّعُها اللهُ بين النَّاس ابتلاءً، قد يرتفعُ الخاملُ، ويرتفعُ الرُّويبضةَ، فالنَّاسُ يَذُمُّون الزمنَ، والحقُّ أنَّ أهلَ الزمن هم المُخطِئون.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

فهكذا المُسْلِمُ يتعاملُ مع الأحداثِ ويعتقدُ أنَّ هذه من أقدارِ الله، وأنَّ الليلَ والنهارَ ليس لهما أثرٌ في رفعِ النَّاس أو في خفضِهم، فلا يقول: إيه يا زمن، ولا يقول: الزمنُ غدَّار، ولا يقول: الزمن خائنٌ، ولا يسبُّ الزمنَ، سبُّ الزمن مُنكرٌ ومُحرَّم في شرعِ الإسْلَام. وقد تسمعون من أناس كثيرين في العملِ، وفي السوقِ، وفي المدرسة، وفي الوظيفة سبَّ الزمنِ، وهذا لا يجوزُ، بل هذا يُؤذي الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابنُ القَيِّم: وفي هذا ثلاث مفاسد عظيمة:

أحدها: سبه من ليس أهلاً للسب، فإن الدهر خلق مسخر من خلق الله، منقاد لأمره متذلل لتسخيره، فسابه أولىٰ بالذم والسب منه.

والثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جداً، وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه.



الشَّرح

قولُه: (قال ابنُ القَيِّمِ: وفي هذا...) ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرَ المفاسدَ الثلاثَ التي ستترَتَب علىٰ سبِّ الدَّهرِ:

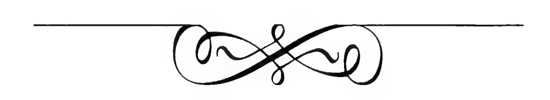
المفسدةُ الأُولىٰ: أنَّ سبَّ الإنسَان للزمنِ سبٌّ في غيرِ محلِّه؛ لأنَّ الزمنَ وعاءٌ، مثلُ المكان، فلو أنَّ إنساناً مثلاً بنىٰ بيتاً في مكان وسبَّه آخرُ؛ لأنه سمح لفلان بأن يبني له فيه بيتاً، ما ذنب المكان؟ كذلك الزمنُ، المكانُ مساحةٌ للعملِ، والزمنُ مِساحةٌ للعمل، والذي يعملُ هو الإِنْسَانُ. فالذي يسبُّ الزمنَ غيرُ عاقل؛ لأنَّه يسبُّ من لا أثرَ له، ولا ذنبَ له، ولا عملَ له، فسبُّ الليل والنَّهار نقصٌ في عقلِ الإِنْسَانِ.

قولُه: (والثانية: أن سبَّه متضمن للشرك، فإنه...) هذا أشدُّ، الذي يلعن الزمنَ ويُقبِّحه أشدُّ، يقول: المفسدةُ الثانية أن سبَّه للزمن يتضمن شِركاً، ودلالةُ التَّضَمنِ نوعٌ من دلالاتِ الألفاظِ؛ لأنَّ علماءَ الأصولِ يذكرون أنَّ دلالةَ

النُّصوص علىٰ الأشياءِ علىٰ مراتبَ: نصٌّ ومفهومٌ، ومن ضمنِ المفهومِ التَّضمنَ، أي: كلامٌ يتضمنُ أمر وليس منصوصاً عليه، فهذا اللفظُ يتضمَّن الشِّرْكَ؛ لأنه لو لم يعتقد أنَّ الزمنَ له أثرٌ ما سبَّه.

فالأولى: سبُّ من لا يستحقُّ السبُّ.

والثانيةُ: أن سبَّه يتضمَّن الشِّرْكَ؛ لأنه يعتقدُ أنه له أثراً في أفعالِ النَّاس.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

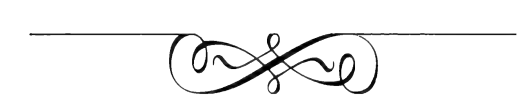
الثالثة: أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه، وفي حقيقة الأمر فرب الدهر هو المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبتهم الدهر مسبة لله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى، فساب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما، إما مسبة الله أو الشِّرْك به. فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مُشْرِك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسب من فعله فهو يسب الله - تَعَالَى -. انتهى.



الشَّرح

هذا من تمام كلامِ ابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنَّ المفسدةَ الثالثة: أن سبَّه إنما يقع على الله؛ لأنَّ الأحداثَ كلَّها من قَدَرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال: السَّابُّ دائرٌ بين أمرين: إمَّا أن يكون مُشْرِكًا، وإمَّا أن يكون سابًّا لله عَزَّوَجَلَّ، فيختارَ أحدَهما، وهما أمران أحلاهما مُرٌّ - نعوذ بالله -.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأشار ابن أبي حمزة إلىٰ أن النهي عن سب الدهر تنبيه بالأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ، وأن فيه إشارة إلىٰ ترك سب كل شيء مطلق إلا ما أذن الشرع فيه؛ لأن العلة واحدة.

قوله: (وأنا الدهر) قال الخطابي: معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التي ينسبونها إلىٰ الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلىٰ ربه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جعل ظرفًا لمواقع الأمور.



الشَّرح

قوله: (**وأشار ابن أبي حمزة**) خطأٌ في الطباعة، "ابن أبي جمرة" وليس حمزةَ، وهذا عالمُ أندلسي من المُحدِّثينَ، اختصر (البُخَارِيَّ) ثمَّ شرحَه، وله كلامٌ متينٌ جداً يدلُّ أسلوبُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ قوةِ عِلمِه، تُوفي في آخرِ القرن السابعِ، وكثيراً ما ينقلِ العُلَمَاءُ عنه، وخاصةً القُرطبي في كتابِ التذكرةِ في أحوالِ الآخِرَةِ، فإنه ينقلَ عنه كثيراً، كذلك الحافظُ ابن حَجر في: (فتح الباري) نقلَ عنه كثيراً، وعندما ترىٰ نصَّه تراه في غايةِ القوةِ والجزالةِ، فاسمه عبد الله بن سعد بن أبي جمرة.

قوله: (**وأشار ابن أبي حمزة إلىٰ أن النهي عن سب..**) وهذا كلامٌ جيدٌ، هذا استنباطٌ متينٌ، أنه لا يجوز للإنسان المُسْلِمِ أن يَسُبَّ شيئًا في حياته إلا إذا أَذن الشَّرعُ له، فإن السبَّ عملٌ قبيحٌ، لا يجوز أن يصدرَ من إنسانٍ مُسْلِم إلا إذا أذن الشارعُ، فإذا أذنَ الشارعُ في سبِّ شيءٍ فلا بأسَ عندئذٍ فهذا هو الأصلُ، الأصلُ عدم جوازِ السبِّ لأيِّ شيءٍ. وفي قصةٍ وقعت في أحدِ أسفارِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّ امرأةً

لعنت ناقتَها، فأمرَها النَّبِيُّ ﷺ أن تُطلِقَها، وقال: (**لا يصحبني شيءٌ ملعون**)[١] فسبَّت الناقةَ أو لعنتها فعاقبَها بحرمانِها منها، وهكذا الإنْسَانُ المُسْلِمُ لا يجوزُ أن يسبَّ شيئاً في الحياةِ إلا إذا أذن له الشارعُ في السَّبِّ.

قولُه في الحَدِيث القدسي: (أنا الدهر) وليس من أسماء الله الدَّهرُ، ولكن عندما نفسِّره بغير هذا لا يكون تأويلاً؛ لأنَّ الحَدِيثَ جاء مُفسِّراً: (**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**)[٢]. فالحَدِيث مُفَسِّرٌ، والألفاظُ بمجملِها تدلُّ على المعنى، التأويلُ يكونُ عندما يكون معنى اللفظِ غيرَ واضحٍ، وحملُه على المعنى القريب ربما يكونُ غيرَ سليمٍ فتَلجأُ إلى التأويلِ، لكن هنا الحَدِيثُ واضحٌ فليس هناك حاجةً للتأويل، فإذا جاء النصُّ يُفسِّرُ بعضَه بعضاً لا يُسمَّى تأويلاً؛ لأنذَ الألفاظَ إنَّما وُضِعت لأداءِ المعنى، والمعنى المرادُ أنَّ اللهَ ﷻ يقول: إنَّ الدَّهرَ ليس له تأثيرٌ، أنا الذي أُغيِّرُه، فعندما تسبُّ الدَّهرَ يقع سبَّك عليَّ؛ لأنني أنا الفاعل، هذا المعنى واضحٌ جداً وليس فيه تأويلٌ.

فالحَدِيثُ مُفَسَّرٌ وليس فيه صرفُ اللفظ عن ظاهرِه، فإنَّ آخرَه يُبينُ أولَّه، وهكذا كلُّ نصٍ أتى مُفَسَّراً. كما في حديثٍ آخرَ: (**يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العَالَمِينَ؟ قال: أما علمت أن عبدِي فلانا مرض..**)[٣] هذا في الصحيحِ.

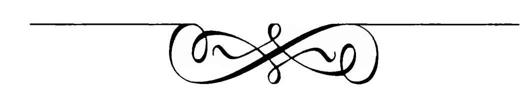
---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٦٢١٠)، (٤٣/ ٢٧٥)، وأخرجه مُسْلِم بمعناه في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، برقم: (٢٥٩٥)، (٤/ ٢٠٠٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مُسْلِم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، برقم=

فالحَدِيثُ يُفَسِّرُ المعنىٰ، فليس في هذا تأويلٌ، التأويلُ عندما يأتي النصُّ ليس مُفَسَّراً، فأنا أُفَسِّرُه بمعنىً غيرِ معناه الظاهرِ، وهكذا كلُّ حديثٍ فيه اشتباه، يأتي ما يفسِّرُه من نفسِ النَّص، أو من نصٍّ آخر، ولهذا العُلَمَاءُ يُقسِّمون النصوصَ إلىٰ مُحكمٍ ومتشابهٍ: فالمُتشَابِهُ ما يحتاجُ إلىٰ بيانِ معناه من لفظِه أو من نصٍ آخرَ، أمَّا هذا الحَدِيثُ فمحكمٌ؛ لأنَّ آخرَه يُبينُ معنىٰ أولِه، وابنُ حزمٍ قد أخطأ عندما جعل الدَّهرَ من أسماء الله، لو كان الدَّهرُ من أسماء الله لما أنكرَ اللهُ علىٰ قريشٍ عندما قالت: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] ولكان كلامُها صحيحاً إذا، فلو كان صحيحاً ما ذمَّها اللهُ ﷻ. فالدهرُ ليس من أسماءِ الله؛ كما يتَّضح من فقهِ الحَدِيث نفسِه.



= (٢٥٦٩)، (٤/ ١٩٩٠)، والبُخَارِيُ في الأدب المفرد، باب عيادة المريض، برقم: (٥١٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

قلت: ولهذا قال في الحَدِيث: (وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)

وفي رواية لأحمد: (بيدي الليل والنهار أجدده وأبليه وأذهب بالملوك)، وفي رواية: (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر الأيام والليالي أجددها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك) قال الحافظ: وسنده صحيح، فقد تبين بهذا خطأ ابن حزم في عده الدهر من أسماء الله الحسنىٰ وهذا غلط فاحش، ولو كان كذلك لكان الذين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] مصيبين.

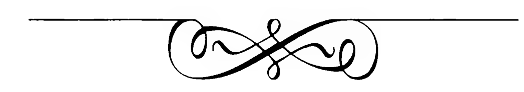
الشَّرح

قولُه: (قلت: ولهذا قال في الحَدِيث...) هذا النصُّ الذي يقول فيه: (وأنا الدهر بيدي الأمر) في البُخَارِيُ.

قوله: (وفي رواية لأحمد: بيدي..) هذه الرِّوَايَة قال عنها المُحقِّقُ: لم يَثبُتْ هذا المتنَ.

قوله: (قال الحافظ: وسنده صحيح، فقد تبين...) ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ ظاهِري في مذهبِه، في الفِقه وفي العقيدةِ، ولهذا فإنه يقرر آياتٍ كثيرةٍ، ويستنبطُ منها أسماءً لله مُخالَفَةً لما جاء عن السلفِ، فليس علىٰ مذهبِ السلفِ في مُعتقدِه، بل هو خليطٌ جمع بين الاعتزالِ والتَّشبيهِ، لا يكادُ مذهبُه يتركُ مذهبًا من المذاهبِ، ولهذا فإنَّه مخالفٌ في الاعتقادِ، وإن كان رَحِمَهُ اللهُ يظنُّ أنَّه علىٰ الحقِّ؛ لأنَّه قد ألغىٰ تفكيرَه، لا يُفكِّرُ بعقلِه مع النُّصوصِ، والنُّصوصُ جاءت تُخاطبُ العقلَ، والعقلُ هو الذي يُفهَمُ به كلامُ الشارعُ، وأحيانًا يحتاجُ العقلُ إلىٰ أن يُثبت المعنىٰ الذي ليس علىٰ ظاهِرِه، مثلاً: في قولِ الله -تَعالَىٰ-: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾

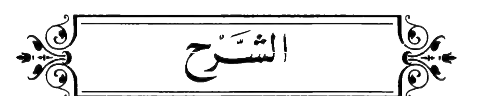
[القمر:١٤]، جاء لهذه الآيةِ وقال: إنَّ لله عينـاً. وهذا جهلٌ، وجاء عند قَوْله - تَعَالَى -: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩﴾ [طه:٣٩]، قال: إنَّ لله عينـاً، قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦]، قال: إنَّ لله جَنبـاً. وهذا مُعتقَدٌ من أسوء المُعتقدات، ولهذا ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يؤخذُ منه الاعتقادُ؛ كذلك الفِقه؛ فإنَّه في فقهِه _ رغمَ حفظِه وذكائه وسعةِ اطلاعِه، وما رُزق عند الاستذكارِ وعند الاستدلالِ إلا أنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد خالفَ الأَئمةَ الأربعةَ في كثيرٍ من المسائل، ولهذا لا يُعتمدُ عليه في فقهِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بل فِقهُه يُعتبر مهجوراً، رغم أنَّ كُتبَه مملوءةٌ بالعلم. ولهذا بعض العُلَمَاءِ لا يعتدُّ بمخالفةِ الظاهرية إذا خالَفوا؛ لأنهم مَشوا علىٰ غير منهجٍ مُعتمدٍ ومقرَّرٍ عند علماءِ الأُمَّةِ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وفي رواية) هذه الرِّوَايَة رواها مُسْلِم وغيره، قال المُصَنِّفُ: وفيه أنه قد يكون سباً ولو لم يقصده بقلبه.



الشَّرح

أي: أنَّ الإنْسَانَ يُحاكَم علىٰ لفظِه لا علىٰ قصدِه في الدُّنْيَا، أمَّا في الآخِرَةِ فشيءٌ آخرٌ، فالإنْسَان لو قال قولاً خاطئاً يُخطَّأ. ليس له أن يقول: أنا قصدتُ غيرَ هذا؛ لأنَّ الباطن لا يعلمُه إلا الله ﷻ، فالإنْسَانُ إن قال قولاً صحيحاً قُبِلَ وأُثني عليه، وإن قال قولاً باطلاً رُدَّ وذُمَّ القولُ وصاحبُه، وإن كان قصدُه شيئاً آخرَ، ولهذا في الزواج لو عقد إنسانٌ علىٰ امرأةٍ لا يقول: إني أمزح، أو قصدتُ شيئاً آخرَ. لو طلَّقَ لا يقول: قصدتُ شيئاً آخر، لو أعتق لا يقول: قَصدتُ شيئاً آخرَ، لو سبَّ إنسانٌ إنساناً لا يقول: قصدتُ شيئاً آخر، النِّيَّةُ لا مَدخلَ لها في مثل هذه الأمور، فسبُّ الدَّهرِ عملٌ مذموم، وإن كان لم يقصد أنه يسبُّ اللهَ ﷻ، لكن هذا القول مذمومٌ، فنحن إنما نحكمُ علىٰ الأقوالِ الظاهرةِ لا علىٰ ما يكون في النَّوايا والمقاصدِ.





٤٥

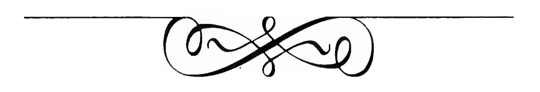
باب: التسمي بقاضي القضاة ونحوه

الشَّرح

هذا البابُ يذكر فيه المُصَنِّفُ تحريمَ التسميةَ ببعضِ الأسماء، فإنَّ بعضَ النَّاسِ من أصحابِ الجاهِ والسلطان أو من أصحابِ العلمِ أو العبادةِ قد يأخذُه الغرورُ حتىٰ يعتقدَ في نفسِه أنه فوقَ البشر فقد يُسمِّىٰ إنسانٌ نفسَه: "مَلِكُ الأملاكِ"، ولا شك أنَّ "مَلكَ المُلوكِ" هو الله ﷻ، قد يُسمِّي الإنْسَان أحدَ القضاةِ أو الفقهاءِ "قاضي القُضاةِ"، وهذا لا يجوزُ؛ لأنَّ هذا يوهم بأنه أقضىٰ النَّاسِ وأنه لا يُخطئُ وهذه تزكيةٌ باطلةٌ، وكذلك "شاهان شاه" وهو معناه: ملكُ الملوكِ كما يُسمِّيه العجمُ، لهذا جاء في الحَدِيثِ: **(إن أخنعَ اسمٍ عند الله رجلٌ تسمَّىٰ ملكَ الأملاك)**[1] أخنع: أي: أذلُّ وأحقرُ، وقد ورد عن بعض علماءِ اللغةِ أن أخنعَ بمعنىٰ أفجَر، فإذا كان الاسمُ أذلُّ فما بالك بصاحبِه فهو أشدُّ ذُلاً. لهذا جاء في الحَدِيثِ أنَّ الُمتكبِّرين يُحشَرون يومَ القِيَامَةِ في صورِ

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلىٰ الله، برقم: (٦٢٠٦)، و مُسْلِم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك، برقم: (٢١٤٣)، (٣/ ١٦٨٨).

الذَّرِ[(١)]، أي:المُتكبِّرُ يومَ القِيَامَةِ يُصغَّرُ ويُصَغَّرُ حتىٰ يكون مثل الذَّرِ؛ لأنه قد انتفخ وقد استعلىٰ فيعاقبَه الله في الموقفِ بضدِّ قصدِه، ثمَّ تكون نهايتُه إلىٰ جهنَّم؛ لأنه لا يدخل الجنةَ من كان في قلبِه مثقالُ ذرةٍ من كبر. فالاستعلاءُ علىٰ النَّاس والتَّسمي بالأسماء التي ليست من حقِّ الإنْسَانِ مُحرمٌ في شريعة الإسْلَام، فمن تسمَّىٰ بملكِ الملوكِ، أو مَلكِ الأملاكِ، أو قاضي القضاةِ أو بأسماء العجم مثل: "شاهان شاه"، هذه كلُّها مُحرَّمةٌ ولا تجوز التسميةُ بها. هذا ملخصُ البابِ.



---

(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كأقضىٰ القضاة وحاكم الحكام أو سيد النَّاس ونحو ذلك، أي: ما حكم التسمي بذلك هل يجوز أم لا؟

قال: في الصحيح: عن أبي هريرة عن النَّبِيّ ﷺ قال: (إن أخنع اسم عند الله رجل تسمىٰ ملك الأملاك لا مالك إلا الله)، وزاد ابن أبي شيبة في روايته: (لا مالك إلا الله ﷻ)، قال سفيان: مثل شاهان شاه. وفي رواية: (أغيظ رجل علىٰ الله وأخبثه).

قوله: (أخنع) أي: أوضع.

قوله: (في الصحيح) أي الصَّحِيحَين.

قوله: (إن أخنع) ذكر المُصَنِّفُ أن معناه أوضع، وهذا التفسير رواه مُسْلِم عن الإمام أحمد عن أبي عمرو الشيباني، قال عياض: معناه أنه أشد الأسماء صغاراً، وبنحو ذلك فسره أبو عبيد، والخانع: الذليل، وخنع الرجل ذل، قال ابن بطال: وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمىٰ به أشد ذلاً.

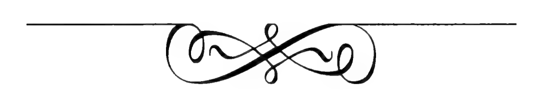
وقد فسر الخليل أخنع أفجر فقال: الخنع الفجور.

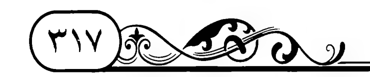


الشَّرح

قولُه: (كأقضىٰ القضاة وحاكم الحكام...) لأنَّ الأسماءَ العظيمةَ حقُّ اللهِ ﷻ، والإنْسَانُ لا ينبغي له أن يُنازِعَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أسمائِه، وفي العظمةِ والملكِ، ومن يفعل هذا فإنَّ اللهَ يومَ القِيَامَةِ يُذلُّه إن لم يُذِلُّه في الدُّنْيَا، فلهذا ينبغي للمُسْلِم أن لا يتسمَّىٰ باسمٍ فيه تزكيةٍ، فإنَّ الأسماءَ التي فيها تزكيةٌ كان النَّبِيِّ ﷺ يُغيرُها؛ لأنَّ الإنْسَانَ لا ينبغي له أن يُزكِّي نفسَه، وأن يُعطيَّها فوقَ حقِّها.

قولـه: (قولـه: (أخنـع) أي:...) هـذا وصـفُ ذمٍّ، "أخنَـعُ" إمَّـا أن يكـون بمعنىٰ: "أذلُّ" النَّاسِ أو أفجرُهم أو أحقرُهم أو أوضعُهم، فإن هذه كلَّهـا معـانٍ لُغويةٌ، وكلُّها تدور علىٰ إهانةٍ وذلٍ وصَغارٍ لمن تسمَّىٰ بهذا الاسم.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي رواية: (أخنى الأسماء) من الخنا بفتح المعجمة وتخفيف النون مقصور وهو الفحش في القول، وفي رواية: (اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك) رواه الطبراني.

قوله: (رجل يُسمى) بصيغة المجهول من التسمية أي يُدعى بذلك ويرضى به، وفي بعض الروايات: (تَسمّى) بفتح الفوقانية وتشديد الميم ماض معلوم من التسمي أي سمى نفسه.

قوله: (ملك الأملاك) هو بكسر اللام من ملك، والأملاك جمع ملك، ثم أكد النَّبِيّ ﷺ التشديد في تحريم التسمي بذلك بقوله: (لا مالك إلا الله) فالذي تسمى بهذا الاسم قد كذب وفجر وارتقى إلى ما ليس له بأهل، بل هو حقيق برب العَالَمِينَ، فإنه الملك في الحقيقة، فلهذا كان أذل النَّاس عند الله يوم القِيَامَةِ، والفرق بين الملك والمالك أن المالك: هو المتصرف بفعله وأمره، ذكره ابنُ القَيِّمِ، فالذي تسمى ملك الأملاك أو ملك الملوك قد بلغ الغاية في الكفر والكذب، ولقد كان بعض السلاطين المساكين يفتخر بهذا الاسم فأذله الله.

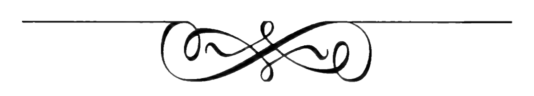


الشَّرح

قوله: (قوله: رجل يُسمى...) أي: هو بين أمرين: إما أن يُسمَّى ويَرضَى، وإمَّا أن يتسمَّى به هو. وعلى كلا الحالين قد رَضي فقد ارتكب أمراً مُحرمًا، وإن تسمَّى به هو فهو أشدُّ حرمةً، فسواء قلنا: رجلٌ يُسمى أو رجل تَسمَّى، كِلا الأمرين محرمٌ.

قولُه: (قولُه: ملك الأملاك...) يتكلَّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مسألةٍ لُغويةٍ، شخصٌ يُسمَّى بملك، وهذا في الدُّنْيَا لا بأس به يُسمى بملكِ النَّاس، لكن "مَالكُ النَّاسِ" لا يجوزُ؛ لأنَّ المالكَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أمَّا الملكُ فقد يكون الملكُ له أمرٌ ونهيٌ، لكن ليس مالكاً لهم وليسوا عبيداً له، ولهذا في سورة الفاتحة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤]، وهناك قراءةٌ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤]، لكن "مالكُ" أبلغُ؛ لأنَّ الشخصَ الذي يَملِكُ له الأمرُ والنَّهيُ، بل الأمرُ والنَّهي الذي ليس لهما حدودٌ، ولكن المَلكُ له أمرٌ ونهيٌ محدودٌ، فالذي يُسمَّى بمالك قد اعتدَى على حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، ويجوز أن تتسمَّى بالملك، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف:٧٩]، فالمَلِك هو الذي له الأمرُ والنَّهي، ولكنَّ مَالكَ النَّاسِ غيرُ مَلكِ النَّاس، فمالك لا يجوزُ التسمَّي بها؛ لأنَّ هذا حقُّ الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا المالكُ أقوى من المَلكِ في التَّصرفِ، فإنَّ الملكَ قد يكون ملكاً ولا يكون مالكاً، لكنَّ المالكَ يكون مَلِكاً على ما يملشك.

فالذي يتسمَّى بمالك الأملاك كأنه جعل نفسَه سُلطاناً أو مالكاً ليس له مُنازع، وهذا - نعوذ بالله - قد نافسَ اللهَ أو زاحمَ اللهَ في حقِّه عَزَّوَجَلَّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (قال سفيان) هو ابن عيينة تقدمت ترجمته.

قوله: (مثل شاهان شاه) هو بكسر النون والهاء في آخره وقد تنون وليس هاء تأنيث فلا يقال بالمثناة أصلاً، وإنما مثل سفيانِ بشاهانِ شاه؛ لأنه قد كثرت التسمية به في ذلك العصر، فنبه سفيان بأن الاسم الذي ورد الخبر بذمه لا ينحصر في ملك الأملاك بل كل ما أدىٰ معناه بأي لسان كان فهو مراد بالذم، ذكره الحافظ.

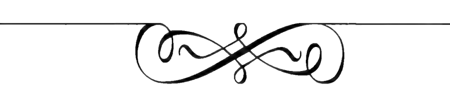
والحَدِيث صريح في تحريم التسمي بملك الأملاك ونحوه كملك الملوك وسلطان السلاطين.

قال ابنُ القَيِّمِ: لما كان الملك لله وحده لا ملك علىٰ الحقيقة سواه كان أخنع اسم وأوضعه عنده وأبغضه له اسم شاهان شاه، أي ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله، فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لا يحب الباطل، وقد ألحق أهل العلم بهذا قاضي القضاة، وقالوا: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاصلين الذي إذا قضىٰ أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ويلي هذا الاسم في القبح والكراهة والكذب سيد النَّاس وسيد الكل وليس ذلك إلا لرَسُوْل الله ﷺ خاصة، كما قال: (أنا سيد ولد آدم)، فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: هو سيد النَّاس. كما لا يجوز له أن يقول: أنا سيد ولد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الشَّـرح

قولُه: (قوله: قال سفيان...) يقول رَحِمَهُ اللَّهُ إنَّ الذَّمَّ ليس خاصـاً بمن تسمَّىٰ باسمٍ باللغةِ العَرَبية، بل كلُّ من تسمَّىٰ بالمعنىٰ في أيِّ لغةٍ أُخرىٰ، أو تسمَّىٰ بمعنىٰ: "مَلك الأملاك" فإنَّه يَحرُمُ، ودائماً النصوص الشرعيةُ تأتي لمواجهةِ أو لعلاجِ مسألةٍ، لكنَّ تكون فيها مسائل أكثر، وهكذا كان السلفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يستنبِطُون من الأحاديثِ مسائل أوسعُ من ألفاظها التي وردت بها.

قوله: (قال ابنُ القيِّمِ: لما كان الملك لله...) هنا ذكرَ مسألةً أُخرىٰ وهي تتعلَّقُ بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جاءَ في الحَدِيثِ أنه قال: (أنا سيد ولد آدم يوم القِيَامَةِ)[1] فإذا جاءَ إنسانٌ وقال: أنا سيدُ النَّاس، أو تسمَّىٰ باسم سيدِ النَّاس، أو سيدِ الكلِ، أو ستِّ الكُلِّ، كلُّ هذه أسماءٌ باطلةٌ، فإنها من الأسماءِ المُحرمةِ؛ لأنَّ السيادةَ المُطلقَةَ ليست إلا لرَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإذنٍ من الله عَزَّ وَجَلَّ، وإلا فإنه لم يُسَمَّ "سيدُ النَّاسِ"، ما قيل له في حياتِه: سيدُ النَّاس، إنَّما هذه مكانةٌ أعطاها الله إياه يومَ القِيَامَةِ، لكن لم يكن يُدعَىٰ بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعندما يتسمَّىٰ المُسْلِمُ بهذا الاسم يكون قد ارتكب محظوراً، وادَّعىٰ ما ليس له فيه حقٌّ.



---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن أبي جمرة: يلتحق بملك الأملاك قاضي القضاة، وإن كان قد اشتهر في بلاد الشرق من قديم الزمان إطلاق ذلك على كبير القضاة، وقد سلم أهل المغرب من هذا، فاسم كبير القضاة عندهم قاضي الجماعة.

وقد زعم بعض المتأخرين أن التسمي بقاضي القضاة ونحوها جائز. واستدل له بحديث: (أقضاكم علي)، قال: فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاض أن يكون أعدل القضاة، وأعلمهم في زمانه أقضى القضاة أو يريد إقليمه، أو بلده، وتعقبه العالم العراقي فصوب المنع، ورد ما احتج به بأن التفضيل في ذلك وقع في حق من خوطب به ومن يلتحق بهم، فليس مساويًا لإطلاق التفضيل بالألف واللام، قال: ولا يخفى ما في ذلك من الجرأة وسوء الأدب، ولا عبرة بقول من ولي القضاة فنُعت بذلك، فلذ في سمعه واحتال في الجواز فإن الحق أحق أن يتبع.



الشَّرح

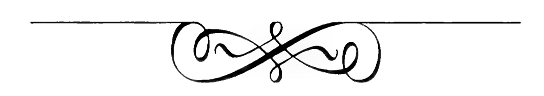
قوله: (وقال ابن أبي جمرة) هنا جاء الاسم مُصحَّحًا "ابنُ أبي جَمرةَ"، وفي السابقِ وردَ أنه "ابن أبي حمزة"، وقلنا: إنه خطأ في الطباعة.

قوله: (وقال ابن أبي جمرة: يلتحق بملك الأملاك...) ابن أبي جمرة أندلسي أي من جهة المغرب، فقال: إنَّ أهلَ المغربِ لم يُسمَّ عندهم أحدٌ من القضاة بهذا الاسمِ، لكن أهلُ المشرقِ ظهرت فيهم هذه التسميةُ، فرئيسُ القضاةِ يُسمُّونه بقاضي القضاةِ، لكن لو قالوا: كبير القضاةِ أو رئيسُ القضاةِ ليس في هذا حرج، لكن قاضي القضاةِ وصفٌ أبلغُ، وليس لأحدٍ من البشرِ أن يتسمَّى به. بعضُ العُلَمَاءِ أجازَ هذه التسمِيةَ، لكن مفهومُ الحَدِيثِ يمنع هذه

التسميةَ؛ لأنَّ فيها تزكيةً ووصفًا لا يليقُ إلا بالله ﷻ.

قوله: (ولا عبرة بقول من ولي القضاة فنُعت بذلك فلذا في سمعه واحتال في الجواز فإن الحق أحق أن يتبع) أي: أحيانًا يكون المُفتي له مَصلحةٌ في الفتوىٰ، أو يكون قد ارتكب مخالفةً مُعينةً فُيرجِّح جوازَ ما ارتكبَ لا علىٰ أنَّه جائزٌ في الحقيقةِ، لكن لأنَّه يمسُّ حياتَه هو، وهذا قد يحدثُ في الإنْسَان، فإنَّ الإنْسَان بشرٌ وليس معصومًا.

قوله: (أقضاكم علي) هذا موقوفٌ علىٰ عمرَ أنه قال: (علي أقضانا وأُبي أقرأنا)(١) وليس مرفوعًا، ثم قال: (أقضانا) أي: جماعةُ الصَّحَابَة، لم يقل: أقضَىٰ البشرية؛ لأن (قاضي القضاة) غيرُ (أقضانا علي)، حتىٰ لو قال: أقضاكم عليٌّ فإنه يتكلم عن مجموعةٍ مُعينةٍ، أمَّا أن يكون الإنْسَانُ قاضي القضاةِ فهذا وصفٌ يشمل القضاةَ من آدمَ ﷺ إلىٰ قيامِ السَّاعة، وهذا وصف لا يليق بمُسْلِمٍ أن يتسمَّىٰ به.



(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، بلفظ: "أقرؤنا أبي وأقضانا علي"، كتاب تفسير القُرْآن، باب قوله (ما ننسخ من آية أو ننسها)، برقم: (٤٤٨١)، وأخرجه بهذا اللفظ الذي أورده الشيخ الإمام أحمد في المسند، برقم: (٢١٠٨٤)، (٣٥/ ١٢)، والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصَّحَابَة ﷺ، ذكر مناقب أبي بن كعب، برقم: (٥٣٩٥)، (٣/ ٣٧٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القُرْآن، باب ممن يؤخذ القُرْآن، برقم: (٣٠٧٥٥)، (١٥/ ٥١٠)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٧٧٢١)، (٧/ ٣٥٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: وقد تبين بهذا مطابقة الحَدِيث للترجمة.

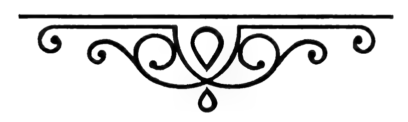
قوله: (وفي رواية: أغيظ رجل على الله يوم القِيَامَةِ وأخبثه)، هذه الرِّوَايَة رواها مُسْلِم في صحيحه. قال ابن أبي جمرة: وفي الحَدِيث مشروعية الأدب في كل شيء؛ لأن الزجر عن ملك الأملاك والوعيد عليه يقتضي المنع منه مطلقًا، سواء أراد من تسمى بذلك أنه ملك على ملوك الأرض أم على بعضها، وسواء كان محقًا في ذلك أم مبطلاً، مع أنه لا يخفى الفرق بين من قصد ذلك وكان فيه صادقًا، ومن قصده وكان فيه كاذبًا.

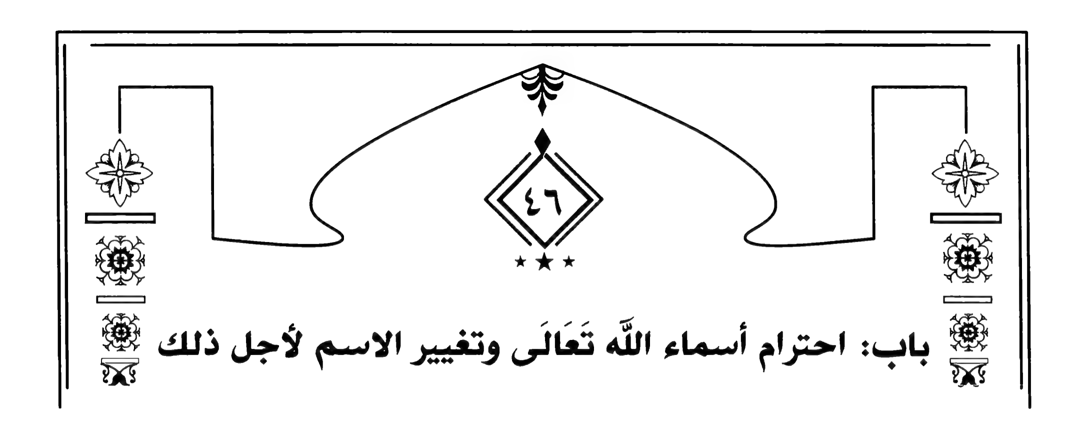
قلت: أي: أن الثاني أشد إثمًا من الأول.



الشَّرح

يقول: الشخصُ بين أمرين: إمَّا أن يكون مَلِكًا وتحته مُلوكٌ، في الماضي كان يتسمَّى الرئيسُ الأكبرُ في الحكمِ بالمَلِك، أو مَلِك الملوكِ، وتحته ملوكٌ صِغار، وهذا انتهى، ولم يعد أحدٌ يَرضَى بأن يكون هناكَ ملوكٌ معه في المجتمعِ بالمُلْكِ الواحدِ، لم يعد هناك ملوكٌ صغار، ولكن بقيت قضيةُ القضاءِ فإن القضاءَ مُستمِرٌ في كلِّ عصرٍ، والقضاةُ كثيرون، وهناك رئيسٌ القضاة، فلا يجوز أن يتسمى بقاضي القضاةِ؛ لأنَّ هذا فيه اعتداءٌ على حقِّ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّ الإنْسَانَ يكون قاضيًا، لكن لا يكون أقضَى القُضاةِ، فأقضى القضاةِ تشملُ الأنْبِيَاءَ، فإن الأنْبِيَاء كانوا يقضون على أُمَمِهم، والرُّسلُ كانوا يَقضُون، فالذي يدَّعي هذا الوصفَ يرفع نفسَه منزلةً لا يستحِقُّها.





باب: احترام أسماء اللَّه تَعَالَىٰ وتغيير الاسم لأجل ذلك

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: لأجل احترامها وهو تعظيمها، وذلك من تحقيق التَّوْحِيد ويستفاد منه المنع من التسمي بهذا ابتداء من باب الأولىٰ، لكن في الأسماء المختصة بالله - تَعَالَىٰ -.



أوردَ صاحبَ المُتنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثًا واحداً في هذا البابِ (بابُ احترامِ أسماءِ الله - تَعَالَىٰ -، وتغيير الاسمِ لأجل ذلك)، اسمُ الله عَزَّوَجَلَّ مُقدَّسٌ ومُعظَمٌ ومُحترمٌ، فينبغي للمُسْلِمِ أن يحترِم أسماءَ الله عَزَّوَجَلَّ وأن يُعظِّمها ولا يُهينها؛ لأنَّ هذا من علامةِ الإيمانِ، هذا الباب عقدَه المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبين أنَّ من لوازم الإيمان احترامَ أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ فلا يتسمَّىٰ بها، ولا يُعبِّدَ نفسَه لغيرها، ولا يُهينها برميها في الطرقات، أو الجلوسِ علىٰ كتابات فيها اسمُ الله عَزَّوَجَلَّ أو أيِّ مظهر من مظاهرِ الإهانةِ فإنه لا يقعُ فيها بل يحترِمُها، هذا من لوازمِ الدِّين.

أوردَ فيه حديثاً واحداً عن أبي شُريح، وكان يُكَنَّىٰ أبا الحكمِ، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: (إنَّ اللهَ هو الحكمُ وإليه الحكم)، فسأله عن سبب التَّسمِيةِ بهذا الاسم، فقال: (إنَّ قومي إذا اختلفوا في شيءٍ أتوني فحكمتُ بينهم، فرَضِي كلا الفريقين. فقال النَّبِيّ ﷺ: ما أحسنَ هذا) أي ما أحسنَ أن تُصلحَ بين قومِك، (ما لك من الولد؟ قال: لي شريح ومُسْلِم وعبد الله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: أنت أبو شريح)[1] هذا الحَدِيث في سنن أبي داود والنسائي بسند حسن، فهو قال: (إن الله هو الحَكمُ وإليه الحُكمُ) فلا ينبغي أن يتكَنَّىٰ الإنْسَانُ باسم هو من أسماءِ الله، فاللهُ هو الحُكمُ، وهو الذي يُحكمُ بين النَّاس، فإذا حكمَ فلا مُعقِّبَ لِحُكمه ﷻ.

هذا الحَدِيثُ يفيدُنا أن المُسْلِمَ يحترم اسمَ الله ﷻ، فلو وقع في اسمِه أو في اسم أولادِه أو في كُنيتِه ما يُفهم منه تنقصٌ لأسماءِ الله وجبَ عليه أن يُغيِّره، سواءٌ كان في كُنيتِه أو كان في اسمه، فإن كان هو مُعبَّداً لغير الله وجبَ تغيير اسمه مثل: عبد الرَسُوْل، أو عبد العباس، أو عبد المطلب، أيُّ اسمٍ مُعَبَّدٍ لغير الله يُغير، لكن التغييرُ للأحياءِ وليس للأموات، ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ يُغيرُّ

(١) أخرجه البُخَارِيُ في الأدب المفرد، باب كنية أبي الحكم، برقم: (٨١١)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في تغيير اسم قبيح، برقم: (٤٩٥٥)، والنسائي في سننه، كتاب آداب القضاة، باب إذا حكموا رجلاً فقضىٰ بينهم، برقم: (٥٣٨٧)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب آداب القاضي، باب ما جاء في التحكيم، برقم: (٣٠٥١١)، (١٠/ ٢٤٤)، والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، برقم: (٦٢)، (١/ ٦٨)، وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب إفشاء السلام وإطعام الطعام، برقم: (٥٠٤)، (٢/ ٢٥٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٨٩)، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

أسماءَ الأحياءِ كما فعل في هذا حيثُ غيَّر كُنيَته، لكنه لم يُغيِّر أسماءَ الأموات، فإنه من أجداده ﷺ عبد المطلب، ولم يُغيِّره، بل كان ينتسبُ إليه فكان يقول في إحدىٰ الغزوات: (أنا ابن عبد المطلب)[١]، وكان يأتيه الأعرابي فينسبه إلىٰ جده؛ لأن جدَّه كان مشهوراً، فكان يقول: يا ابن عبد المطلب. فيقول ﷺ: (أجبتُك)[٢].

فالأموات لا تُغَيَّرُ أسماؤهم، إنما تُغَيَّرُ أسماءُ الأحياءِ إذا كانت مُعبَّدَةً لغيرِ الله ﷻ، مثل عبدُ الموجود، كلُّ واحدٍ منا مَوجود، وليس هذا من أسماء الله، الإنْسَان مَوجودٌ، والبيت موجود، والدابة موجودة، فكيف يكون عبداً لموجودٍ؟ أنت عبدُ كلِّ شيءٍ مَوجودٍ؟! هذه تسميةٌ خاطئةٌ، والتعبيدُ حقُ الله، كلُّنا عبيدٌ لله، لا نُعبِّد أنفسنا حياتَنا لغير الله ﷻ، فكل مُسْلِمٍ إذا كان في اسمِه أو كُنيتِه مُعبَّدٌ لغيرِ الله وجبَ عليه أن يُغَيِّر ذلك احتراماً لأسماءِ الله ﷻ.

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب المغازي، باب قول الله - تَعَالَىٰ -: "ويوم حنين..."، برقم: (٤٣١٦) ومُسْلِم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، برقم: (١٧٧٦)، (٣/ ١٤٠٠).

(٢) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم، برقم:(٦٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: (عن أبي شريح أنه كان يُسمىٰ أبا الحكم، فقال له النَّبِيّ ﷺ: إن الله هو الحكم وإليه الحكم فلم تُكنىٰ أبا الحكم؟ فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال رَسُوْل الله ﷺ: ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟ فقلت: شريح ومُسْلِم وعبد الله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: أنت أبو شريح) رواه أبو داود وغيره.

هذا الحَدِيث رواه أبو داود، كما قال المُصَنِّفُ، ورواه النسائي.

ولفظ أبي داود من طريق يزيد بن المقدام بن شريح عن أبيه عن جده عن أبيه هانئ، وهو أبو شريح، أنه لما وفد علىٰ رَسُوْل الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رَسُوْل الله ﷺ فقال: (إن الله هو الحكم واليه الحكم فلم تكنىٰ أبا الحكم؟) فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء.. الحَدِيث. قال ابن مفلح وإسناده جيد ورواه الحاكم وزاد فدعا له ولولده.

الشَّرح

إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يُعنِّفه ولم يعاتِبه، إنما سأله لماذا تُسمَّىٰ أبا الحكم؟ فقال: إنَّ قومي هم الذين سمُّوني بذلك؛ لأنه ليس له ولد اسمُه الحكم، إنما هذا من باب التَّكنيةِ بوصفٍ محبوبٍ، كما يُقال: أبو الفضائل، أبو الكرمِ، أبو الخيرات. هذه الكُنيةُ ليست كنيةَ نسبٍ، إنَّما كُنيةُ صفةٍ، أو كنيةُ مَدحٍ، فهو عندما كان قومُه يَرضون حكمه فأكرموه بهذه النِّسبةِ، لكن هذه النسبةُ بعد أن أسلمَ لا تتفقُ مع دينِ الله ﷻ، فغيرَّها النَّبِيُّ ﷺ بأن كناه بأحدِ أولادِه، والتَّكنيةُ تكون بأكبر الأولادِ، وليس بأصغرِهم أو بأحدِهم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (عن أبي شريح) هو بضم المعجمة وفتح الراء وآخره مهملة مصغر واسمه هانئ بن يزيد الكندي. قال الحافظ: وقيل الحارثي الضبابي قاله: المزي وقيل: المذحجي، وقيل غير ذلك صحابي نزل الكوفة ولا عبرة بقول من قال إنه الخزاعي ولا من ظن أنه النخعي والد شريح القاضي فإن ذلك خطأ فاحش.

قوله: (إنه كان يكنىٰ أبا الحكم) قال بعضهم الكنية قد تكون بالأوصاف كأبي الفضائل وأبي المعالي وأبي الخير وأبي الحكم، وقد تكون بالنسبة إلىٰ الأولاد كأبي سلمة وأبي شريح وإلىٰ ما يلابسه كأبي هريرة فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ رآه ومعه هرة فكناه بأبي هريرة، وقد تكون للعلمية الصرفة كأبي بكر.



الشَّرح

فالكُنيَةُ على أربعةِ أقسامٍ:

القسم الأول كنيةٌ بالوصفِ: أبو الخيرات، أبو الكرمِ، أبو الجود، هذه نسبةً إلىٰ الصفةِ.

القسم الثاني: وكنيةٌ بالأولاد أبو محمد ، أبو أحمد.

والقسم الثالث: كنيةٌ بسببِ حدَثٍ: كما كني أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإنه كُني بهذه الكنية؛ لأنه رآه النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه هرة، فكناه بأبي هريرة.

والقسمُ الرابع: العَلَمِيَّةُ الصِّرفُ، أي: اسمُ عَلَم، ليس له اسمٌ غيره، فالعَرَب قد تسمِّي الشخص بالكُنية، فأبو بكر اسمه، وبعض العُلَماء يرىٰ أنَّ اسمَه عبد الله، لكن لم يعرف إلا بهذا الاسم، هذا هو علَمُه الذي عُرف به رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وليس له ولد اسمُه بكر، بل ولدُه عبد الرحمن، ولهذا تكون الكُنيةُ علَماً مثل عبد الله وعمر وعلي وعثمان.



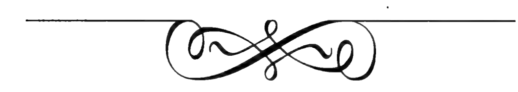
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (إن الله هو الحَكم وإليه الحُكم) أما الحَكم فهو من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كما في هذا الحَدِيث، وقد ورد عده في الأسماء الحسنىٰ مقرونًا بالعدل، فسبحان الله ما أحسن اقتران هذين الاسمين، قال في شرح السُّنَّةِ: الحَكم هو الحاكم الذي إذا حَكم لا يُرد حُكمه وهذه الصفة لا تليق بغير الله - تَعَالَى - كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١]، وقال بعضهم: عرف الخبر في الجملة الأولىٰ وأتىٰ بضمير الفصل فدل علىٰ الحصر، وإن هذا الوصف مختص به لا يتجاوز إلىٰ غيره.

الشَّرح

قولُه: (عرف الخبر في الجملة الأولىٰ) أي:: اللهُ هو الحَكمُ، وإليه الحُكمُ. فقوله: "هو" من باب الحصرِ، أي ليس غيرُه هو الحَكَمُ، ولا يشاركه غيرُه في هذا الاسم، وهذا من بابِ الحصر والقصرِ، أي: ليس غيرُه يستحقُّ أن يُسمىٰ بهذا الاسم، بل "الحَكَمُ" خاصٌ بالله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم ذكر اقتران الاسمين: الحَكَمُ العَدلُ، فإنَّ الإنْسَان قد يحْكم، لكن ليس كلُّ من حَكم يكون عادلاً، فالذي يحْكُم في أيِّ قضيةٍ فهو بين أمرين: إمَّا أن يحْكمَ بالعدل، وإمَّا أن يحكمَ بالظُّلم، ولكنَّ: ربُّ العَالَمِينَ حَكَمٌ عدلٌ، فإنه لا يظلمُ، وهذا من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: (وإليه الحكم) أي إليه الفصل بين العباد في الدُّنْيَا والآخِرَةِ كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص:٨٨]، وقال: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧]، وفيه الدليل علىٰ المنع من التسمي بأسماء الله المختصة به، والمنع مما يوهم عدم الاحترام لها كالتكنىٰ بأبي الحكم ونحوه.

قوله: (إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم) أي: أنا لم أكن نفسي بهذه الكنية، وإنما كنت أحكم بين قومي فكنوني بها، وفيه جواز التحاكم إلىٰ من يصلح للقضاء إن لم يكن قاضيًا، وأنه يلزم حكمه، ولهذا قال النَّبِيّ ﷺ: (ما أحسن هذا).

قال الخلخالي: للتعجب أي: الحكم بين النَّاس حسن ولكن هذه الكنية غير حسنة.

وقال غيره: أي الذي ذكرته من الحكم بالعدل.

وقيل: ما أحسن هذا أي ما ذكرت من وجه الكنية.

قال بعضهم ـ وهو الأولىٰ ـ قلت: فعلىٰ هذا يكون حكمه لقومه قبل إسلامه، إذ يبعد أن يكون قاضيًا لهم قبل أن يلقىٰ رَسُوْل الله ﷺ ويتعلم منه؛ لأن هذه القصة كانت بعد إسلامه بقليل؛ لأنه كان مع وفد قومه حين أسلموا وقدموا علىٰ رَسُوْل الله ﷺ ولا يظن أن رَسُوْل الله ﷺ يُحسن أمر حكام الجاهلية.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الشخص الذي يصلحُ قاضياً يجوز التحاكُم إليه، والتحاكم نوعان: إمَّا أن يكون حُكمًا، وإمَّا أن يكون صُلحًا. الحُكمُ لا يجوز أن يكون إلا من شرعِ الله؛ لأنَّ الحُكمَ إلزامٌ بأمرٍ على خلاف مُرادِ الإنْسَانِ، أمَّا الصُّلحُ فلا يكون كذلك، فهو يكون برِضَى الطَّرفين، أو بعدمِ الرِّضا، أي: ليس فيه إلزامٌ شرعيٌ، أمَّا القضاءُ فلا يصحُّ أن يكون إلا ممن عنده علمٌ شَرعيٌ؛ لأنَّ الحُكمَ إخبارٌ عن ربِّ العَالَمِينَ، كما سمَّى ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابَه الذي ألفه للمُفتِين (إعلام الموقعين عن رب العَالَمِينَ)، فهذا الشخص الذي يفتي هو في الحقيقةُ يُبلِّغ النَّاسَ حكمَ الله.

في الجاهليةِ كان النَّاس يتحاكمُون إلى من يَثقون في عقلِه، فالذي يشتهرُ بينهم بالعقل الراجحِ يتحاكمون إليه، ولهذا لما اختلفت قُريش بعد أن هُدمت الكعبةُ ثم أرادوا أن يبنوها من جديد فلما ارتفع البناءُ، وجاء دورُ وضعِ الحجرِ الأسودِ، كادت القبائلُ أن تتقاتلَ، كلُّ قبيلةٍ تقول: نحن الذين نضعُ الحجرَ، ثم اصطلحوا أخيراً على أن يُحكِّموا بينهم أولَ داخلٍ عليهم من الحرمِ، فدخل النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففرِحوا بدخولِه لما عرفوا منه من رُجحان عقلِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعندما جاء عرضوا عليه أمرهم، فخلع رِداءه، والرِّداءُ في الماضي لم يكن مُخاطًا بل كان عبارةٌ عن وصلةٍ من القماش، فخلَع الرداء ووضعَه ثم وضعَ الحجرَ بنفسه في الرداء، وقال: (لتمسِك كلُّ قبيلةٍ بطرفٍ) فرفعوا الحجر جميعًا، ثم وضعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده في مكانه الذي هو بِه[1]، وهذا لكمالِ عقلِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) القصة أخرجها البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج، باب دخول المسجد من باب بني شيبة، برقم: (٩٢٠٨)، (٥/ ١١٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب المناسك، برقم: (١٦٨٥)، (١/ ٦٣٠)، والطيالسي في مسنده، برقم:(١١٣)، (١/ ١٨)، وصححه الحاكم على شرط مُسْلِم.

وهناك قصص كثيرة من هذا القبيل في الجاهلية، منها: أنَّ أحدَ مشايخ القبائلِ جاءه أهلُ ولدٍ خُنثىٰ ليس ذكراً ولا أنثىٰ، فسألوه عن إرثه من أبيه، فاحتار فوعدَهم بعد أيامٍ، ثم اقترب الموعدُ، فاشتدت عليه المسألةُ، وصعُب عليه حلُّها، وكان عنده خادمٌ يرعىٰ الغنم فرآه مُكتئِباً فسأله فطردَه، ثم سأله الثانية فطردَه، ثم سأله الثالثة فقال: لعلي آخذ منه فائدةً. فقال له: الموضوع له كذا وكذا. قال: بسيطةٌ. قال: كيف الحلُ؟ قال: ألحق الحكمَ المبالةَ، المكان الذي يبولُ منه فاحكم له به، إن كان يبول من مخرجِ الرجلِ فاحكم به، وإن كان يبول من مخرجِ المرأةِ فاحكم له. ففرَّجَ عنه، وعندما جاء النَّاسُ حكم لهم علىٰ هذا الأمر، فالشاهدُ أنهم كانوا في الجَاهليةِ يتحاكمون بعضُهم إلىٰ بعض، وعندما جاء الإسْلَام انتهىٰ حكم الجاهليةِ، قال ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فجاء شرع الله ﷻ فحل محل عادات الجاهليةِ، ولهذا لا يجوز التحاكمُ إلىٰ عاداتِ الجاهليةِ، وعاداتِ القبائلِ، هذه كلُّها عاداتٌ جاهليةٌ، لا يجوز أن نُلزِمَ النَّاسَ بها.

لكنَّ الصلحَ جائزٌ، ولكن إذا أصلحنا بين شخصين فرفضا ما نتخذُ موقفاً جاهلياً، بل نُحيلُهما إلىٰ الشرعِ؛ لأنا إذا حكمنا بالحكم الجاهِلي في حياتنا فلم يرضَ أحدُ الطرفين بالحُكم اتخذت القبيلةُ منه موقفَ العداء والظلمِ والهجرِ والتغريمِ، وهذا كلُّه من أحكامِ الجاهليةِ، والمُسْلِمُ لا ينبغي له أن يتحاكَم ولا يرضَىٰ بغير حُكم الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

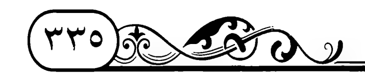
قوله: (قال: شريح ومُسْلِم وعبدالله) صريح في أن الواو لا تقتضي الترتيب وإنما تقتضي مطلق الجمع، فلذا سأله رَسُوْل الله ﷺ عن الأكبر، إذ لو كانت دالة على الترتيب لم يحتج إلى سؤال عن أكبرهم.



الشَّرح

الحروفُ في اللغةِ قسمان: حروفُ المعاني، وحروفُ المبَاني.

حروفُ المباني أي: الكلمةُ تُبنىٰ من حروفٍ، فمثلاً علي تُبنَىٰ من العين واللام والياء، اسمُ كلِّ حرفٍ منها حرفُ مَبْنَىٰ، أي: بُني منه اسمٌ، حرف المعنىٰ لا يُبنىٰ به اسم، إنَّما يُؤتىٰ به لتوصيلِ كلمةٍ بكلمةٍ، أي: بين كَلِمتين، فالواو من حروف المعاني، فالواو يدلُّ علىٰ الجمعِ بين أمرين لا علىٰ الترتيبِ بينهما، وإنَّما تدُلُّ علىٰ مُطلقِ الجمع، فلو قلنا: "دخلَ من الباب مُحَمَّدٌ وعليٌّ" لا يقتضي أن يكون مُحَمَّدٌ قبلَ علي، ولهذا عندما سأل النَّبِيُّ ﷺ أبا شريحٍ عن أبنائه قال: (**كم لك من الولد**) قال: (**شريحٌ ومُسْلِم وعبدُ الله**) قال: (**من أكبرُهم؟**)، فلو كانت الواو تدلُّ علىٰ الترتيبِ يقيناً لما سأله عن أكبرِهم؛ لأنَّه بدأ بالكبير، لكن لما كانت الواو لا تدلُّ دلالةً قاطعةً علىٰ الترتيبه سأَلَه عن أكبرهم، قال: فهذا يدلُّ علىٰ عدم الترتيبِ. هل هناك حروفٌ تدلُّ علىٰ الترتَيب؟ المتفقُ عليه بين العُلَمَاءِ: لا، حرفُ (ثُمَّ) لا يدلُّ علىٰ الترتيب يَقيناً، وإنَّما الظاهرُ أنها تدلُّ علىٰ الترتيب، لكن قد يؤتىٰ بها لغيرِ الترتيبِ، ولهذا علماءُ اللغة يقولون: إن (ثُمَّ) لا تدلُّ علىٰ الترتيبِ الْمُطلقِ أو الجازمِ، لكنها مَظَنَّةُ الترتيب، أمَّا الواو فإنها لا تدلُّ علىٰ الترتيب اتفاقاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قولـه: (فأنـت أبـو شـريح) أي رعايـة للأكبـر منـا في التكـريم والإجـلال فـإن الكبير أولى بذلك، قال في شرح السُّنَّةِ: فيـه أن يكنـى الرجـل بـأكبر بنيـه، فـإن لـم يكن له ابن فبأكبر بناته، وكـذلك المـرأة تكنـى بـأكبر بنيهـا فـإن لـم يكـن لهـا ابـن فبأكبر بناتها. انتهى.

وفيه تقديم الأكبر، وفيه أن استعمال اللفظ الشـريف الحسـن مكـروه في حـق من ليس كذلك، ومنه أن يقول المملوك لسيده وغيره: ربي، نبه عليه ابنُ القَيِّمِ.



الشَّرح

قولـه: (قولـه: فأنـت أبـو شـريح...) يقـول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الإنْسَـانَ يتكَنَّـى بـأحـدِ أولادِه، لكنَّ الكُنيةَ لا تكون بأي ولدٍ، وإنَّما الكنيـةُ تكون بـالأكبرِ رِعايـةٍ لكبرِ سِنِّه، وهكـذا الإسْـلَام، الإسْلَام يُكرِمُ الكبيـرَ، ويفـرضُ علـى الصـغير احتـرامَ الكبيرِ، ويفرضُ على الكبيرِ رحمةَ الصغيرِ، فالكبيرُ ينبغي أن يُحترمَ، وهكـذا في حيـاة المُسْـلِمين كبـارُ السـنِّ يُقـدَّرون في المجـالسِ، ويُقـدَّرون في الطُّرُقـاتِ، ويُقدَّرون في أي مكـان، نُقدِّر كبيـرَ السـنِّ، وكبيـرُ السـنِّ ينبغـي أن يَرحـمَ صـغيرَ السنِّ، ولهذا أمرَه بأن يتكنَّى بأكبرِ أولاده، مـا يـأتي الشـخصُ إلـى أصـغر أولاده فيتكَنَّـى بـه، فـإنَّ هـذا يُـؤدِّي إلـى خصـومةٍ بـين الأولاد، ولكـنَّ التكنِّـي يكـون بالكبير، فإنَّ هذه عادةٌ لا يترتَّب عليها مفسدةٌ في حياةِ الإنْسَانِ، ولو لـم يكـن لـه أولاد لجاز له أن يتكنَّى بأكبرِ بناتِه، كان في الصَّحَابَة أبـو أُمامـة، وأُمَامـةُ بنتـه لـم يكـن لـه ول ذكـرٌ، فيجـوز أن يتكنـى الإنْسَـانُ بـأكبر بناتِـه، ولـيس في هـذا حـرجٌ شرعيٌ، بعضُ النَّاسِ عنده حساسيةٌ مـن إطـلاق اسـم بنتِـه، وهـذا في الحقيقـةِ حساسيةٌ زائدةٌ، صحيح أننا لا يجوز لنا أن نتوسَّع في ذلك، ولكـن عنـد الحاجـة

فليس في هذا حـرجٌ إن شـاء الله، ولهـذا نعـرِف أسـماءَ أُمَّهات المُـؤْمنِين: قالـت عائشة، وقالت أم سلمة، وقالت أم حبيبة، وهكذا، فاسمُ المـرأةِ لـيس عـورةً إلا إذا لم يكن هناك حاجة، فعند الحاجةِ ليس في هذا حرج إن شاء الله.

قوله: (**وفيه تقديم الأكبر، وفيـه...**) أحيانـًا يكـونُ الاستنباطُ بوجـهٍ بعيـدٍ، فمثلاً: هنا قوله: (أنَّ استعمالَ اللفظَ الشريفَ الحسنَ مكروه في حـقٍّ مـن لـيس كذلك) ليس شريفـًا فقط، بل هو اسمُ ربِّ العَالَمِينَ، أمَّـا لـو أنَّ الإنْسَـانَ تسـمَّىٰ باسمٍ طَيبٍ فليس في هذا حرجٌ إن شاء الله، إنَّما المحظـور أن يتكنَّـىٰ أو يتسـمَّىٰ باسم من أسماء الله ﷻ.





باب: من هزل بشيء فيه ذكر اللَّه أو القُرآن أو الرَسُوْل

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: إنه يكفر بذلك لاستخفافه بجناب الربوبية والرسالة، وذلك مناف للتوحيد، ولهذا أجمع العُلَمَاء علىٰ كفر من فعل شيئًا من ذلك، فمن استهزأ بالله أو بكتابه أو برَسُوْله أو بدينه كفر ولو كان هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعًا.



هذا البابُ من أخطرِ أبوابِ الكتاب؛ لأنه يتحدَّث عن أمرٍ يقعُ فيه كثيرٌ من جهلةِ المُسْلِمين، وهو الاستهزاءُ بشيء من الدِّين، أوردَ فيه المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ آيةً واحدةً، وذكر سببَ نزولها[1]، وهي قولُه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥]، ونزولُها كان في آخرِ حياةِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوةِ تبوكٍ، وقد كان فيها مع الصَّحَابَةِ مُنَافِقُونَ، فإن المُنَافِقينَ كانوا موجودين

---

(١) ذكر سبب نزول هذه الآية الطبري في جامع البيان، برقم: (١٦٩١٢)، (١٤/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره، برقم: (١٠٥٥٢)، (٧/ ٣١٣)، والثعلبي في الكشف والبيان (٥/ ٦٥)، وأبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٦٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣٠)، وابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٤٧).

في مجتمعِ رَسُوْل الله، فإن الإسْلَامَ إذا قوي يكثرُ النِّفَاقُ؛ لأنَّه لا يَجرَؤ علىٰ المُصارحةِ، فيلجأُ إلىٰ التَستُّرِ باسم الإسْلَامِ، وفي داخلِه كافرٌ لكن ظاهرَه إسلامٌ، هذا هو المُنَافِقُ، فكان بعض المُنَافِقينَ في مجلسٍ في غزوةِ تبوكَ فقال بعضُهم: (ما رأينا مثلَ قُرائنا هؤلاء أرغبَ بطونـًا) أي: أوسعَ بطونـًا (وأكذبَ ألسنـًا وأجبنَ عند اللقاء) وكان في المجلسِ أحدُ المُؤْمِنين واسمه عوف بن مالك، قال: كذبتَ، ولكنك مُنافقٌ لأُخبرنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ. فذهب إلىٰ رَسُوْلِ الله ﷺ يخبرُه، فوجدَ القُرْآنَ قد سبقَه، أنزل اللهُ هذه الآية، فجاء ذلك المُنَافِقُ علىٰ رَسُوْلِ الله ﷺ، وقال: يا رَسُوْل الله إنَّما كُنَّا نخوضُ ونتحدَّث حديثَ الرَّكبِ نقطعُ به عنا عناءَ السفرِ، وكان قد ارتحلَ رَسُوْلُ الله ﷺ علىٰ راحلته فتعلَّق براحلتِه والراحلةُ تمشي، وكانت الحجارةُ تَنفضُ قدمَيه، ورَسُوْلُ الله يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التوبة:٦٥]، وهو يعتذرُ، ورَسُوْلُ الله لا يقبلُ عذرَه.

وهذا البابُ عقدَه المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبينَ أنَّه لا يجتمعُ في قلبِ إنسانٍ إيمانٌ واستهزاءٌ بدينِ الله عَزَّ وَجَلَّ، **وذكرَ عدَّةَ فوائد:**

أولها: أنَّ من استهزأ بشيءٍ من الدِّينِ يكفرُ إجماعـًا، ولـو كـان هـازلاً، هـذا المُنَـافِقُ قـال هـذه الكلمـةُ في رَسُـوْلِ الله ﷺ وفي أصـحابِه، أنهـم كثيـرو الأكـلِ وكـذَّابُون وجُبناءُ في الحـربِ، وقـد كـذبَ ـ والله ـ فـإنَّ هـذه صـفةُ هـذا المُنَـافِقِ وإخوانِـه، لكـن المُنَـافِقونَ عنـدهم جـرأةٌ علىٰ الكـذبِ، وغَمـزٌ للمُـؤمنينَ، ولا يخلُو مُجتمعٌ من مُجتمعاتِ المُسْلِمين من المُنَافِقينَ، وهذا ابتلاءٌ مـن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا ضعفَ الإسْلَامُ لا يكون فيه مُنَافِقُونَ، ولهذا لـم يكـن في مكـةَ مُنَـافِقُونَ؛ لأنَّ الإسْلَامَ كان ضعيفـًا، والمُنَافِقُ إنما ينـافقُ ليُداريَ الأقـوىٰ، فـإذا كـان الإسْـلَامُ

أقوى ظهرَ النِّفَاقُ، وإذا كان الإسْلَامُ أضعف يظهر الكفرَ، المُنَافِقُ يتستر بالإسْلَام في الظاهرِ، وهو كاذبٌ في حقيقتِه، والعُلَمَاءُ مُجمِعون على أنَّ من استهزأ بشيء من الدِّين ولو كان هَازِلاً أو مازِحاً فإنه يكفرُ، وقد جاء في الحَدِيثِ: (**إنَّ الرجلَ ليتكلم بالكلمةِ من سخطِ الله ليُضحكَ بها القوم يَهوي بها في جهنَّم سبعين خريفًا**)[1]. فالسخريةُ من دينِ الله من أشدِّ أنواع الأعمالِ التي تُسخِطُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثانياً: ثمَّ ذكرَ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ الاستهزاءَ بشيءٍ من الدِّين مُطلقًا كُفرٌ، ولو كان بالسواكِ، السواكُ من شرائعِ الدِّينِ، ليس واجبًا، ولو لم يتسوك الإنْسَانُ طوالَ حياتِه ما نقُص إيمانُه، نعم ينقصُ أجرُه لكن لا ينقصُ إيمانُه، لكنَّه لو تسوَّك طوالَ حياتِه، واستهزأ بالسواكِ فإنَّه كافرٌ، لو أنَّ إنسانًا استهزأ بتقصيرِ الملابِس فإنَّه كافرٌ، إذا عرف أنَّ هذه سُنَّةُ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه قد أمرَ بها واستهزأ بها يَكفُر، ولو أطال ثوبَه، ولم يستهزئ لم يكفُر، بل يكون عاصيًا، لو أنّ إنسانًا استهزأ باللحيةِ وهو يعلم أنها من السُّنَّةِ يكفُر- ولو كانت لحيتُه تصلُ إلى صدره-، ولكن لو حلقَ لحيتِه ولم يستهزئ بها يكون عاصيًا، وهكذا، فالاستهزاءُ بشيءٍ من الدِّين كُفرٌ، ولا يجتمع في قلبِ مُسْلِم إيمانٌ واستهزاءٌ بشيءٍ من دينِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّ الاستهزاءَ مرضٌ لا يُجامِعُ الإيمانَ، بل إذا دخل هذا المرضُ في القلب خرج الإيمانُ من قلبِ الإنْسَان كما قال الله - تَعَالَى -: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٦]، أثبت لهم إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوا، وبهذه الكلمةِ خرجوا من دينِ الله وكفروا، فالاستهزاءُ أمرُه عظيمٌ، فينبغي أن نُنبِّه إخواننا ومن نعرفُه، وأن نُحذِّر النَّاسَ من هذا الخُلقِ، فإنه خُلقٌ

---

(١) سبق تخريجه.

ذميمٌ لا يكون في قلبِ إنسانٍ مُسْلِمٍ. بعضُ النَّاس يتفكَّه بالمُتدَينين، ويظنُّ أنَّ هذا أمرٌ سهل، لو استهزأ الإنْسَان بإنسانٍ مُتدَين من أجل دِينِه لَكَفرَ، فكلُّ شيءٍ يعرِضُ له الإنْسَانُ بسببِ الدِّينِ ويستهزئُ به فإنَّه يكفُر ويخرجُ من دينِ الله؛ لأنَّ دِينَ الله مفروضٌ علىٰ المُسْلِم أن يحترمَه وأن يُعظِّمَه وأن يُقدِّرَه، فإذا فعل عكس ذلك فإنه يكونُ قد ارتكب أمراً محظوراً.

ثالثاً: يتبينُ من هذا ما لحِقَ رَسُوْلَ الله ﷺ من الأذىٰ، سيدَ البشر وأفضلَهم وأكرمَهم وأصدَقَهم وأشجَعهم يوصفُ بهذه الأوصاف الذَّميمةِ، ثـمَّ لا يُعاقِبُهم ﷺ، بل يحتملُ آذاهم ويصبرُ علىٰ آذاهم؛ لأنَّهم أظهروا الإيمان، وكلَّما فعلوا قبيحاً اعتذروا وهم كاذِبون، وقد تابَ بعضُ المُنَافِقينَ إلىٰ الله ﷻ، وبعضُهم لم يتب، وهذا من سخط الله عليهم، فكم لحقَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ في مكةَ من الكفارِ؟ وكم لحقه في المَدِينَة من المُنَافِقينَ؟ فهذا أُسوةٌ لنا، فالمُسْلِمُ قد يُبتلىٰ من المُنَافِقينَ فليَصبر، فهذا رَسُوْلُ الله ﷺ يعلمُ أنهم مُنافِقُونَ، وأنهم في الباطنِ كُفارٌ، لكنه ﷺ يُشّرِّع، فلا يأخذ النَّاس إلا بما ظهر منهم، أمَّا الباطنُ فيَكِلُ أمرَه إلىٰ الله ﷻ، وهكذا المُسْلِم قد يُبتلىٰ بالمُنَافِق فلا ينبغي له أن يُكفِّرَه، نعم يُحاسِبَه علىٰ ما يظهر من كلامِه، لكنَّه لا ينبغي له أن يبادِره بالتكفيرِ؛ لأنَّ هذا دخولٌ في القلوبِ، قد يكونُ الإنْسَانُ ماجِناً، ولا يكون كافراً، أي: يكون ساحِراً أو يكون عنده شيء من التوسُّعِ في المُداعبةِ غير منضبطةٍ، لكن لا يكون مُنافقاً فلا ينبغي لك أن تستعجلَ في الحكمِ علىٰ النَّاسِ إلا بحسب ما ظهر منهم، وعليك أن تصبرَ علىٰ آذاهم، وتعلم أنه كلَّما قويَ الإسْلَامُ وُجِدَ النِّفَاقُ، فإذا كان أفضلُ المجتمعاتِ وأعظمُها وأشرفُها وهو مجتمعُ رَسُوْلِ الله ﷺ كان فيه نفاقٌ، فلا تظنن أنه سيأتي مجتمعٌ يخلو منه.

رابعاً: إحاطةُ علمِ الله ﷻ، فاللهُ ﷻ لا تخفىٰ عليه خافيةٌ، عندما تكلَّم هذا المُنَافِقُ بهذه الكلمةِ فكان نزولُ القُرْآنِ أسرعُ من انتقال الشخصِ من خيمةِ المُنَافِقِ إلىٰ خيمةِ رَسُوْلِ الله ﷺ، وهذا يدُلُّنا علىٰ علمِ الله المحيطِ بخلقِه، فإنَّ اللهَ يسمعُ النَّاسَ ويراهم ولا تخفَىٰ عليه خافيةٌ.

خامساً: غَيرَةُ المُؤمنِ، هذا عوف بن مالك ؓ غَارَ علىٰ رَسُوْلِ الله ﷺ، وعلىٰ دينِ الله، ما سكت علىٰ هذا المُنكرِ، بل قال: لأُخبرنَّ رَسُوْلِ الله ﷺ، ثم قال: إنَّك مُنافقٌ. وهذا كلام صحيحٌ، فإنه لو ظهر من كلامِ الإنْسَان نفاقٌ فإنه يوصفُ بالنِّفَاقِ، ولم يسكت عوف بن مالك مجاملةً لهم، بل أنكر عليهم، ولم يرض بما سمعَه من كلامِهم مما يُسخِطُ اللهَ ﷻ.

سادساً: رفْعُ المُستهزئين إلىٰ من يُؤدِّبهم إن كانوا في مجتمعٍ مُسْلِمٍ، أي إذا كان هناك حاكمٌ مُسْلِم يُعاقِبُ من يستهزِئ بالدِّين وجبَ رفعُه إلىٰ هذا الحاكمِ ليُعاقِبَ المُستهزِئ، ولكن إن كان في مجتمعٍ لا يحكمُ بشرعِ الله فعليه أن يتخذَ أُسلوباً آخر، وهو الدَّعوةُ إلىٰ الله وتحذِيرِهم من عقابِ الله، ومن سخطِه ﷻ.

سابعاً: أسلوبُ المُنَافِقينَ في كلِّ عصرٍ هو الاستهزاءُ بالمُؤْمِنِين، ولهذا سورةُ التوبة التي فيها هذه الآيةُ أنزلها الله ﷻ ففضحت المُنَافِقينَ، وكشفت أستارهم وأسرارهم وبيَّنت أخلاقَهم، فتُسمَّىٰ الفاضحةُ والمُقَشقِشة؛ لأنها بينت أنواع المُنَافِقينَ في عهدِ رَسُوْل الله ﷺ، والمُنَافِقونَ في كل عصر يسلكون هذه السبلَ، وفي أول سورة البقرة ذكر اللهُ أخلاقهم، وكيف أنهم يستهزئون بالمُؤْمنِين، ويتَّهِمون المُؤمنِين بأنهم فاسقون، وأنهم جهلةٌ وسفهاءُ، وأنَّ المُنَافِقينَ هم العقلاءُ، ونعجب هل العاقلُ الذي يعمل عملاً يؤدي به إلىٰ العقابِ أم العاقلُ هو الذي يعمل العملَ الذي يؤدي به إلىٰ الثوابِ؟ لاشك أن

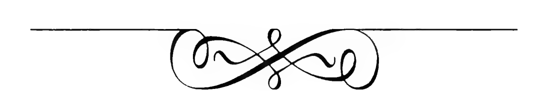
العاقلَ هو الذي عملُه يُؤدِي به إلىٰ الثوابِ، أمَّا الذي يعملُ عملاً يؤدي به إلىٰ العقابِ فإنه ليس عاقلاً، فهم يتَّهِمون الصَّحَابَةَ بأنهم سفهاءُ ليس لهم عقولٌ، حيث أفرَطوا في شهواتِ الدُّنْيَا انتظاراً لجنات النَّعيم، وهذا لا يفعله عاقلٌ في ميزان المُنَافِقينَ.

ثامناً: خطورةُ اللسان، لسانُ الإنْسَان خطيرٌ جداً، فينبغي أن ينضبطَ ويضبط، فليس كلُّ ما يخطرُ ببالك تتكلَّم به، زِن هذا الكلامَ، وحاسب نفسكَ عند هذا الكلامِ، هل هذه الكلمةُ تُرضِي اللهَ، فأقولَها، أو تسخط الله فلا أقولها؟ فالإنْسَانُ العاقل يكون لسانُه وراءَ عقلِه، لا يكون عقلُه وراء لسانِه، بعد أن يتكلَّم بالكلمةِ يُفكِّر فيها!! بل قبل أن تُخرجَ الكلمةَ أنت تحكُمُها؛ لأنَّها إن خرجت هي تحكمُك. فينبغي للإنسان العاقل أن يضبط نفسه، فلا يتكلَّم بكلِّ شيءٍ، بعضُ النَّاس يتكلَّم بكلِّ ما يسمع، وهذا قد يُعرضُه للكذب، فلا تكن إنساناً كثيرَ الكلامِ في أمر تعرفُه وأمرٍ لا تعرفُه، ثمَّ كلُّ ما يخطر ببالك لا تتكلَّم به، بل انظر فيه هل فيه منفعةٌ، هل هو يرضي الله؟ أتكلمُ به، هل فيه مضرةٌ؟ هل لا يرضي اللهَ؟ أسكت عنه، فينبغي للمُسْلِم أن يحذرَ من زلَّات اللسانِ فإنها خطيرةٌ جداً.

تاسعاً: لا يخلو مجتمعٌ من المُنَافِقينَ - إلا من رحمَ الله، أو كان مجتمعاً صغيراً جداً -، أمَّا المجتمعُ إذا كَبرَ فلابدَّ أن يكونَ فيه مُنَافِقُونَ، والنِّفَاقُ درجاتٌ، والمُسْلِم يُؤذَىٰ من المُنَافِقينَ، يُؤذَىٰ في حضوره وفي غيابِه، وسيسمع المُسْلِم من المُنَافِقينَ كلاماً كثيراً، وهم يتظاهرون بالإسْلَام والغَيرةِ علىٰ الإسْلَامِ، وهذا كلُّه كذبٌ؛ لأنهم في داخلِهم زَندقةٌ، وكرهٌ للإسلام، وحقدٌ عليه، لكن لا يستطيعون أن يُصرِّحوا بذلك، وإنَّما يظهر من فلتاتِ لسانه، بل ربما يُظهِرُ الغيرةَ علىٰ الدِّينِ، وأنه هو الذي يفهم الدينَ، وأنكم تجهلونه، وقد يدعو إلىٰ تركِ الواجباتِ، وترك الفرائضِ والاستهانة بها، ويُشجِّع علىٰ

ارتكابِ المُحرماتِ، ثم يزعم أن هذا هو الفهمُ الصحيحُ لدينِ الله، وهذا من علاماتِ المُنَافِقينَ.

عاشراً: أنَّ للمُنافقين علاماتٍ، والقُرْآنُ الكريم ذكر علاماتهم، وخاصةً سورة التوبة ذكرت علاماتٍ كثيرة، ومن ضمن هذه العلامات أنَّ بعضهم أولياُء بعض، وأنهم يأمرون بالمنكرِ، وينهون عن المعروف، ولا يتصدَّقون، وهكذا فإن كثيراً من علاماتهم قد كشفها القُرْآنُ الكرِيمُ وبين حالهم في أول سورةٍ من كتابِ الله، هذا مجمل ما في الباب.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وقول الله - تَعالَى -: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥]، يقول تعالىٰ مخاطبًا لرَسُوْله ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٥] أي: سألت المُنَافِقينَ الذين تكلموا بكلمة الكفر استهزاء ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥] أي يعتذرون بأنهم لم يقصدوا الاستهزاء والتكذيب، إنما قصدوا الخوض في الحَدِيث واللعب {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُوْلِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ}.

الشَّرح

أي: هل اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وآياتُه ورَسُوْلُه ميدانٌ للسُّخريةِ، أو ميدانٌ للاستهزاء: ﴿كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥] هل هذا عذرٌ مقبولٌ؟ كثيرٌ من النَّاس يقع في مثل هذا، ثم يقول: إنَّما كنت أمزح، لا مزاحَ في دينِ الله ربِّ العَالَمِينَ مالكِ المُلكِ خالقِ الكونِ، ينبغي أن تُعظِّمَ دينِ الله وتحترمَه وتقدِّرَ كلَّ شيءٍ فيه، هذا هو الإيمانُ. الإِنْسَانُ قد يقع في المعصيةِ ويغفرُ اللهُ له، وقد يُقصِّرُ في طاعةِ الله ويغفرُ اللهُ له؛ لأنَّ هذا ضعفٌ بشريٌ، أمَّا أن تسخرَ بدينِ الله وتستهزئَ به وتزعمَ أنَّك مُسْلِمٌ فهذا كذبٌ، لا يجتمع إيمانٌ واستهزاءٌ بدينِ الله عَزَّ وَجَلَّ، والشَّيْطَانُ يأتي الإِنْسَانَ أحيانًا - لاسيَّما إذا كان إنسانًا متدينًا في مجموعةٍ من المُنَافِقينَ والفُسَّاقِ -، فبعضُهم يحبُّ أن يضحك عليه أمامَ النَّاس. فمثلاً إذا دخل شخصٌ ثوبُه قصيرٌ في مجلسٍ وفيه بعضُ الأشخاص المفرِّطين،يقول له: تعال يا فلان ما هذا الفستان الذي عليك؟ أي: كأنَّه جعله امرأةً لأنَّ ثوبَه قصيرٌ، وهذا سخريةٌ بدين الله، وهذا ونحوه من الأقوالِ والأفعالِ قد يُؤدِّي به إلىٰ الكفرِ. قد يقول شخصٌ إنَّما هذه اللحيةُ قد يتربَّىٰ فيها البعوضُ فينبغي أن

تحلقَ لحيتَك، وهذا اتهام لِلحيةِ رَسُوْلِ الله ﷺ، وهكذا بعضُ النَّاسِ لديهم جُرأةٌ علىٰ السخريةِ بدين الله، وهذا كفرٌ ورِدةٌ، هذا النوعُ من النَّاسِ لا يُوفَّقُ للتَّوبةِ غالبـاً، أمَّا الذي يقعُ في المعصيةِ ويشعرُ بأنَّه مُقصِّرٌ في حق ربِّه وأنه مُخطِئٌ فقد يُوفِّقُه الله للتوبةِ، ويعفو اللهُ عنه ويغفرُ الله له، كلُّنا أصحابُ معاصٍ، أمَّا أن تصلَ المعصيةُ إلىٰ السخرية بالدِّينِ فهذا إلحادٌ وكفرٌ، صاحبُه لا يكادُ ينجو من عذابِ الله ﷻ.

أذكرُ قصةَ امرأةٍ وقعت قبل سنتين تقريبـاً: حدَّثني بهذا قريـبٌ لهـا، دخلت تلك المرأةُ إلىٰ صيدليةٍ لأخذ العلاج، وكان فيها امرأةٌ متبرجةٌ وكانت تخاطبُ الصيدلي، فقالت المرأةُ المُتدينةُ لهذه المرأةِ المتبَرجَةِ: اتقـي الله يـا أختـاه. أي: استري جسمَك، فقالت: اتركي هذا، قالت: خافي من الله؛ لأنـك لا تـدرين متىٰ يأتي مَلكُ الموت. قالـت: إذا جاءَ ملكُ المـوتِ صَرّفتُه. فغضبت هـذه المـرأةُ المُتدينةُ وخرجَت، فعنـدما وصـلت إلـىٰ السيارةِ وإذا بضوضـاءَ وجلبةٍ داخـل الصيدليةِ، فرجعَت وإذا بـالمرأةِ المُتبرجةِ قـد سـقطت ميتـةً، أهـذه التـي قالـت تُصرِّفُ مَلكَ الموت؟ هذا استهزاءٌ خطيرٌ، لـو قالـت: جـزاكِ الله خيـراً وإن شـاء الله ربنا يغفر لنا، أو أنا مُبتلاةٌ، أو مثل هذا الكلام فربما يُغفرُ لها، لكـن أن تصـل بالتبجحِ إلىٰ: "أنِّي سأصرفُ ملكَ الموتِ"! في غمضةِ عينٍ جـاء ملـكُ المـوتِ بأمرِ الله ﷻ وقبض روحَها.

فالاستهزاءُ خطيرٌ جداً، وهـذا المـرضُ يُوجـدُ كثيـراً في العـالمِ الإسْلَامي، وخاصَّـةً عنـدما يَقـلُّ العلـمُ الشَّـرعي في النَّـاس فيكثـرُ الاسـتهزاءُ، وخاصَّـةً في المجتمعـات التـي قـد مُسـخَت بالعـاداتِ الغَربيـةِ؛ لأنهـم يَـرونَ التَـدَيُّنَ تـأَخُّراً، ويرون أنَّ الإنْسَانَ المُتأنِّقَ الذي لا يَنضبِطَ بحرامٍ ولا بحلالٍ ولا يُراعِـي حُرمـةَ الله مُتحَضِراً، ومن هنا ينطلـق لسـانُ المُنَـافِقينَ في سـبِّ الـدِّين والاسـتهزاءِ بـه،- أعاذنا الله من ذلك -.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

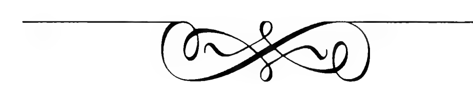
لم يعبأ باعتذارهم إما لأنهم كانوا كاذبين فيه؛ وإما لأن الاستهزاء على وجه الخوض واللعب لا يكون صاحبه معذوراً، وعلى التقديرين فهذا عذر باطل، فإنهم أخطؤوا موقع الاستهزاء. وهل يجتمع الإيمان بالله وكتابه ورَسُوْله والاستهزاء بذلك في قلب؟ بل ذلك عين الكفر، لذ-لك كان الجواب مع ما قبله ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ [التوبة:٦٦]. قال شيخ الإِسْلَام: فقد أمره أن يقول: ﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ [التوبة:٦٦]، وقول من يقول إنهم قد كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يُقال: ﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ [التوبة:٦٦] فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر.

الشَّرح

أي: الذي يُعَدُّ مُستهزِئـًا بالدِّين شرعـًا، لا يُشتَرطُ فيه أن يكونَ الاستهزاءُ من قلبِه، بل يكتفى بالاستهزاءِ باللسان، وإن كان في قلبِه مُؤمِنـًا؛ لأنه ليس هناك ارتباطٌ، هذا كفرٌ عقدي، وذاك كفرٌ قولي، فإذا استهزأت بالدِّين بلسانِك كفرت حتى ولو زعمت أنَّ في داخلِك إيمانـًا، ولهذا لا يخلو مذهبٌ من مذاهبِ المُسْلِمين في الفقهِ الإسْلَامي من: "بابُ الرِّدَّةِ". ومن أنواع الرِّدَّةِ: أن يَرميَ إنسانٌ المصحفَ في مكانٍ للقاذورات، وأن يَطأ المصحفَ بقدمِه، وهكذا ذكروا أنواعـًا من الأعمالِ، ولم يشترطوا أن يكون في القلبِ كُفرٌ، هذه الأعمالُ الظاهرةُ رِدَّةٌ، ولو لم تكن في داخل قلبِه رِدَّةٌ.

فأيُّ عملٍ في الظاهرِ فيه استهزاءٌ بدينِ الله يكون رِدَّةً ويُحكَمُ على صاحبِه

بالقتل، ولكن النَّبِيَّ ﷺ لم يُعاقِب المُنَافِقينَ؛ لأنهم اعتذروا وزعَموا أنهم يخوضُون ويَجهَلون الحُكمَ الشَّرعيَ، أمَّا إذا عرفَ الإنْسَانُ الأحكامَ الشَّرعيةَ وأصرَّ علىٰ فعلِه فيُقامُ عليه حُكمُ الرِّدةُ، إلا إذا تابَ وأعلن توبَتَه، وليس كما يقول البعض: لابدَّ أن يكون عملُ القلبِ موافقًا لعمل اللسانِ والجوارحِ، فالفقهاءُ في جميعِ المذاهبِ لم يشترطوا هذا، بل قالوا: من ظَهر منه استهزاءٌ بدينِ الله حُكِمَ عليه بالرِّدَّةِ، ولا يُبحث عمَّا في قلبِه؛ لأنَّ ما في القلبِ بينِه وبين الله، أمَّا أحكامُ الدُّنْيَا فيُؤخَذُ فيها بالظاهرِ.



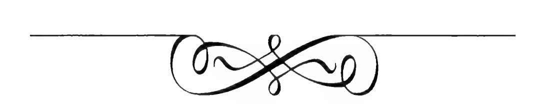
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإن أريد إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا ذلك إلا لخوضهم، وهم مع خوضهم ما زالوا هكذا، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل عليهم سورة تبين ما في قلوبهم من النِّفَاق، وتكلموا بالاستهزاء، أي صاروا كافرين بعد إيمانهم، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين إلى أن قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥] فاعترفوا، ولهذا قيل: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ [التوبة:٦٦]. فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر، فتبين أن الاستهزاء بآيات الله ورَسُوْله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم، ولكن لم يظنوه كفراً، وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه.

الشَّرح

قد يُقالُ: هناك إشكالٌ إذ كيف كانوا مُنافِقين وكانوا مُؤمنينَ؟ فيُقال: لم يكن كلُّهم مُنافقينَ، فبعضهم كان مؤمنًا، وبعضهم كان منافقًا، فلعل المُتكلِّم كان مؤمنًا، لكن أحيانًا إذا جلسَ المُؤمنُ مع المُنَافِقينَ يستدرجُونه ويُغرِونَه، فربما أنَّ المُتكلِّمَ بهذا كان مُؤمنًا وقيل إن القائلَ كان مَخشي بن حمير وأنه تابَ إلى الله - تَعَالَى - وتسمَّى باسم عبد الرحمن، وأنه مات في سبيلِ الله، فربَّما أنَّ هذا الشخصَ كان مؤمنًا، لكن عندما اجتمع مع المُنَافِقينَ تكلَّم بما تكلَّم، أحيانًا الاجتماعُ والمجموعةُ تُؤثِّرُ في الإنْسَان، فلعلَّه قال هذه الكلمةَ ليرضيَهم، ليسخرَ معهم بدينِ الله أو برَسُوْلِ الله ﷺ، ولم يعلم أنَّ هذا نفاقٌ،

فكان هذا سببـًا في كفرِه ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٦]، وهكذا الإِنْسَانُ قد يكون مؤمنـًا، فيظهر منه النِّفَاقُ أو الكلمةُ السيئةُ فتخرجَه من دينِ الله من غير علم.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة:٦٦] قال ابن كثير: أي لا يعفىٰ عن جميعكم ولابد من عذاب بعضكم بأنهم كانوا مجرمين بهذه المقالة الفاجرة.

قيل: إن الطائفة مخشي بن حمير، عفا الله عنه وتسمىٰ عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يُعلم مقتله فقتل يوم اليمامة ولم يُعلم مقتله ولا من قتله ولا يدرىٰ له عين ولا أثر. وقيل: إن الطائفة زيد بن وديعة. والأول أشهر، ويحتمل أن الله عفا عنهما جميعًا.

وفي الآية دليل علىٰ أن الرجل إذا فعل الكفر ولم يعلم أنه كفر لا يُعذر بذلك بل يكفر، وعلىٰ أن الساب كافر بطريق الأولىٰ، نبه عليه شيخ الإسْلَام.

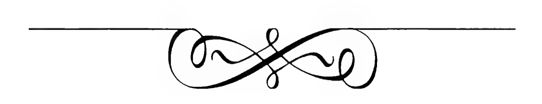


الشَّرح

قول الله - تَعَالَى -: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٦] فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ مِنهم مَن سيتوبُ، فهذا الشخصُ عندما تابَ وتسمَّىٰ باسم عبد الرحمن، وسأل اللهَ الشهادةَ، وأن لا يُعلَم مقتلُه، فكان كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذا دليلٌ علىٰ أنَّه نَدِم علىٰ هذه المقولةِ، وأنه قبل أن يقولَ ما قال كان مُؤمِنـًا، لكن المُنَافِقينَ استدرجُوه حتىٰ قال هذه الكلمةَ.

قوله: (وفي الآية دليل علىٰ أن الرجل): شيخُ الإسْلَام رَحِمَهُ اللَّهُ له كتابٌ اسمه (الصارمُ المسلول علىٰ شاتم الرَّسُوْل ﷺ) حيث كان في عهدِه رجلٌ نَصراني من أهل الذِّمَّةِ سبَّ النَّبِيَّ ﷺ، ومعلومٌ أنَّ أهلَ الذمةِ عليهم شرطٌ وعقدٌ أن لا يظهروا شيئـًا يخالفُ دينَ الله، فهذا الشخصُ سبَّ النَّبِيَّ ﷺ واحتمىٰ ببعض

مشايخِ القبائل في عصرِه، ثم ذهب ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ مع بعض العُلَمَاءِ إلى الوالي وأخبروه بذلك، فجيءَ بهذا الشخص، وفي الطريق رمَاه النَّاسُ بالحجارةِ فأدمَىٰ رأسَه، فغضب الوالي وعاقبَ شيخَ الإسْلَامِ والآخرَ بالسجن، ثمَّ هذا الشخص اعتذرَ أو كذَّبَ ما نُقِل عنه، ثم إنَّه أسلمَ وحسن إسلامُه، وهذا سببُ كتابةُ ابنِ تَيْمِيَةَ لهذا الكتاب (الصارم المسلول على شاتم الرَسُوْل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فبيَّن فيه أحكامُ شتمِ الرَسُوْلِ أو الاستهزاءِ بالدِّين، كلُّ هذه الأحكامِ أوردها في هذا الكتابِ الذي هو من أواخرِ ما كَتبَ رَحِمَهُ اللَّهُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: (عن ابن عمر ومُحَمَّد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة دخل حديث بعضهم في بعض، أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونـًا ولا أكذب ألسنـًا ولا أجبن عند اللقاء) أي: رَسُوْل الله ﷺ وأصحابه القراء (فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رَسُوْل الله ﷺ فذهب عوف إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ ليخبره فوجد القُرْآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رَسُوْل الله: إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقـًا بنسعة ناقة رَسُوْل الله ﷺ، وإن الحجارة لتنكب رجليه، وهو يقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٥]. فيقول له رَسُوْل الله ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التوبة:٦٥] ما يلتفت إليه وما يزيد عليه).

هذا الأثر ذكره المُصَنِّفُ مجموعـًا من رواية ابن عمر ومُحَمَّد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة وقد ذكره قبله كذلك شيخ الإسْلَام، فأما أثر ابن عمر فرواه ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما بنحو مما ذكره المُصَنِّفُ، وأما أثر مُحَمَّد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة فهي معروفة لكن بغير هذا اللفظ.

قوله: (عن ابن عمر) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا (ومُحَمَّد بن كعب) هو مُحَمَّد كعب بن سليم أبو حمزة القرظي المدني، قال البُخَارِيُ: إن أباه كان ممن لم ينبت من بني قريظة، وهو ثقة عالم مات سنة عشرين ومائة (وزيد بن أسلم) هو: مولىٰ عمر بن الخطاب والد عبد الرحمن وإخوته يكنىٰ أبا عبد الله ثقة مشهور مات سنة ست وثلاثين ومائة، (وقتادة) هو: ابن دعامة، وتقدم.

قوله: (دخل حديث بعضهم في بعض) أي: إن الحَدِيث مجموع من رواياتهم فلذلك دخل بعضه في بعض. قوله: (إنه قال رجل في غزوة تبوك) لم أقف علىٰ تسمية القائل، لذلك أبهم اسمه في جميع الروايات التي وقفت عليها، ولكن قد ورد تسمية جماعة ممن نزلت فيهم الآية مع اختلاف الرِّوَايَة فيما قالوه من الكلام، ففي بعض الروايات أنهم قالوا ما ذكره المُصَنِّفُ، وعن مجاهد في الآية: (قال رجل من المُنَافِقينَ يحدثنا مُحَمَّد أن ناقة فلان بواد كذا وكذا في يوم كذا وكذا وما يدريه بالغيب) رواه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم، وعن قتادة قال: (بينما رَسُوْل الله ﷺ في غزوته إلىٰ تبوك وبين يديه أناس من المُنَافِقينَ، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه علىٰ ذلك فقال نبي الله ﷺ: احبسوا علي الركب فأتاهم، فقال: قلتم كذا وقلتم كذا. قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم.

وفي رواية جابر بن عبد الله عند ابن مردويه: (كان فيمن تخلف من المُنَافِقينَ بالمَدِينَة وداعة بن ثابت أحد بني عمرو بن عوف، فقيل له: ما خلفك عن رَسُوْل الله ﷺ؟ فقال: الخوض واللعب فأنزل الله فيه، وفي أصحابه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥] إلىٰ ﴿مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٦]) وسمىٰ ابن عباس في رواية عند ابن مرديه منهم وديعة بن ثابت ومخشي بن حمير وأنهم قالوا: أتحسبون أن قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنكم غداً تفرون في الجبال. القصة بكمالها فيحتمل أنهم قالوا ذلك كله، فإن المُنَافِقينَ إذا خلوا إلىٰ شياطينهم أخذوا في الاستهزاء بالله وآياته ورَسُوْله والمُؤْمِنِين، فلا يبعد أنهم قالوا ذلك فكل ذكر بعض كلامهم، والآية تعم ذلك، وفي هذه الروايات ذكر أسماء القائلين لبعضهم ذلك منهم وديعة بن ثابت وقيل وداعة وزيد ابن وديعة ومخشي بن حمير الذي تاب الله عليه لكنه لم يقل ذلك

إنما حضره، وفي بعض الروايات: (أن عبد الله بن أبي هو الذي قال ذلك) لكن رواه ابنُ القيِّمِ بأن ابن أبي تخلف عن غزوة تبوك وذكر ابن إسحاق أسماء الذين هموا بالفتك برَسُوْل الله ﷺ فعد جماعة فيحتمل أنهم من المستهزئين، ويحتمل أنهم غيرهم، ولهذا قال تعالىٰ في المستهزئين: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦]، وفي الآخرين: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤].

قوله: (ما رأينا مثل قرائنا) هؤلاء القراء جمع قارئ وهم عند السلف الذين يقرؤون القُرْآن ويعرفون معانيه، أما قراءته من غير فهم لمعناه فلا يوجد في ذلك العصر، وإنما حدث بعد ذلك من جملة البدع.

قوله: (أرغب بطونـًا) أي أوسع بطونـًا، الرغب والرغيب الواسع يقال: جوف رغيب وواد رغيب يصفونهم بسعة البطون وكثرة الأكل كما روىٰ أبو نعيم عن شريح بن عبيد: أن رجلاً قال لأبي الدرداء: ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم وأعظم لقمـًا إذا أكلتم. فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه شيئـًا، وأخبر بذلك عمر بن الخطاب فانطلق عمر إلىٰ الرجل الذي قال ذلك، فأخذه بثوبه وخنقه وقاده إلىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فقال الرجل: إنما كنا نخوض ونلعب.

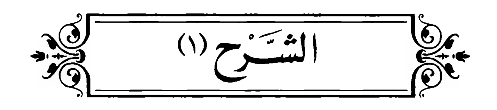
قوله: (فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق) فيه المبادرة في الإنكار والشدة علىٰ المُنَافِقينَ، وجواز وصف الرجل بالنِّفَاق إذا قال أو فعل ما يدل عليه.

قوله: (لأخبرن رَسُوْل الله ﷺ) فيه أن هذا وما أشبهه لا يكون غيبة ولا نميمة بل من النصح لله ورَسُوْله، فينبغي الفرق بين الغيبة والنميمة وبين النصيحة لله ورَسُوْله، فذكر أفعال المُنَافِقينَ والفساق لولاة الأمور ليزجروهم ويقيموا عليهم أحكام الشريعة ليس من الغيبة والنميمة انتهىٰ.

قوله: (فوجد القُرْآن قد سبقه) أي: جاءه الوحي من الله بما قالوه في هذه الآية ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥] الآية، وفيه دلالة على علم الله سبحانه وعلى قدرته وإلهيته وعلى أن مُحَمَّداً رَسُوْل الله.

قوله: (فجاء ذلك الرجل) قد تقدم أنه ابن أبي كما رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر، لكن رواه ابنُ القَيِّم بأن ابن أبي تخلف عن غزوة تبوك.

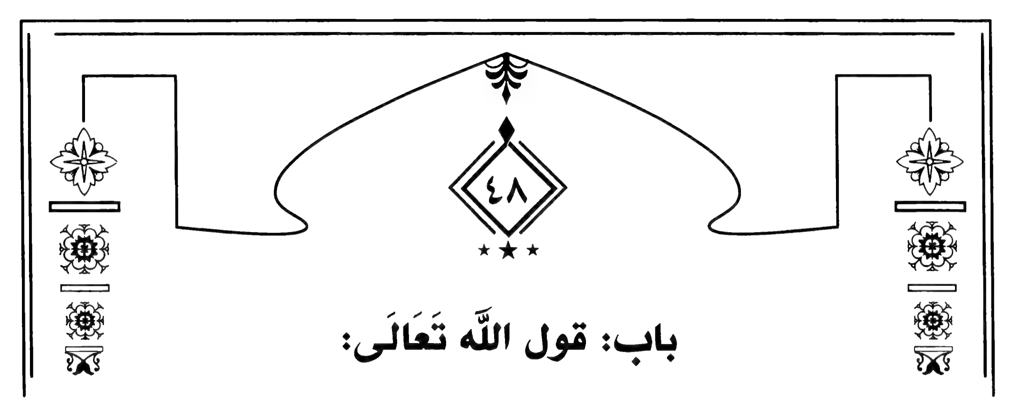
وفي هذا الحَدِيث من الفوائد: أن الإنْسَان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به، وأشدها خطراً إرادات القلوب فهي كالبحر الذي لا ساحل له، ويفيد الخوف من النِّفَاق الأكبر فإن الله - تَعَالَى - أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه كما قال ابن أبي مليكة: (أدركت ثلاثين من أصحاب رَسُوْل الله ﷺ كلهم يخاف النِّفَاق على نفسه) نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدُّنْيَا والآخِرَةِ.



الشَّرْح (١)



(١) قام فضيلة الشيخ بالتعليق على هذا الجزء من المتن في الكلام السابق.

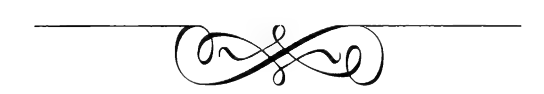


باب: قول الله تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت:٥٠].



هذا البابُ عقدَه المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ ليُبيِّنَ بعضَ واجباتِ التَّوْحِيد، وهو أن تعرف نعمةَ الله عليك، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو المُنعمُ، خلقَك وأوجدَك ورزقَك، فينبغي للمُسْلِم أن يعرفَ هذه النِّعمة، وسيذكر المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بعد هذا حديثًا يذكر ما وقع في بني إسْرَائِيلَ لأُناسٍ جحدوا نعمةَ الله عليهم، فإنَّ الإنْسَان أحيانًا يأخذُه الغرورُ، ويزعمُ أنَّ النِّعمةَ التي أنعمَ الله بها عليه من جهدِه ومن خبرتِه هو، ومن معرِفته بِطُرقِ الكسبِ، ويُنسِى أنَّ الذي أنعمَ هو الله عَزَّوَجَلَّ، فهذه الآيةُ تذكرُ هذا المعنى، والحَدِيثُ يُفسِّر معنى الآيةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: باب قول الله - تَعَالَى -: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ [فصلت:٥٠] الآية ذكر المُصَنِّفُ -رحمه الله تَعَالَى- عن ابن عباس وغيره من المفسرين في معنىٰ هذه الآية وما بعدها ما يكفي في المعنىٰ ويشفي.

قوله: (قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به. وقال ابن عباس: يريد من عندي، وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨]، قال قتادة: علىٰ علم مني بوجوه المكاسب. وقال آخرون: علىٰ علم من الله أني له أهل، وهذا معنىٰ قول مجاهد أوتيته علىٰ شرف)، وليس فيما ذكروه اختلاف، وإنما هي أفراد المعنىٰ.

الشَّرح

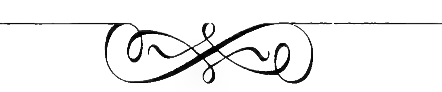
هنا ذكرَ آيتين إحداهما عامَّةً تصورُ طبيعةَ الإنْسَان، واللهُ الذي خلقَه يعلمُ طبيعتَه، فالإنْسَان له طبيعةٌ في حال النَّعماءِ، وله طبيعةٌ في حالِ الضَّراءِ، إذا أصابته ضرَّاءُ كان كثيرَ الدُّعاءِ، وإذا أصابته النِّعمةُ والسَّراءُ أصابَه الغرورُ والكِبْرُ، -إلا من رحِم الله-، هذا في الآيةِ الأولىٰ.

الآية الثانية: تصور حال قارون ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [القصص:٧٦] والله أعطاه من الأموالِ والكنوزِ: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص:٧٦]، قال بعض المُفسِّرين: أربعون رجلاً لا يكادون يحمِلون مفاتيحَ خزائنِ قارونَ، فبغَىٰ علىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومِه.

وتذكر القصص الإسْرَائيلَية أخباراً عن قارون، وهذه الأخبار التي رُويت عن بني إسْرَائِيلَ علىٰ ثلاثةِ أقسام:

- قسمٌ صدَّقه القُرْآنُ والسُّنَّةُ، وهذا نقبلُه.
- وقسمٌ كذَّبه القُرْآنُ والسُّنَّةُ، وهذا نَرُدُّه.
- وقسمٌ لم يُذكر في القُرْآن والسُّنَّةِ ما يدل علىٰ صدقه أو كذبه، هذا نتوقف فيه، وتجوز حكايته.

فتذكرُ بعضُ الرواياتِ الإِسْرَائِيلِيَة أنَّ قارونَ آذىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومن أشدِّ ما آذاه به أنه كانت هناك امرأةً زانيةً حملت من الزِّنا، فجاء إليها قارون، وقال: قولي أنَّ الذي زنىٰ بك مُوسَىٰ، وأُعطِيكِ كذا وكذا. فيُقال: إنَّ المرأةَ أعلَنت أمامَ جمعٍ من النَّاسِ أنَّ الذي زنىٰ بها هو مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فجاء مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فوخزَ في بطنِها وقال: سألتُكَ باللهِ من أبوك؟ فقال: أبي فلانٌ الرَّاعي. أنطقَه الله في بطنِ أُمِّه. فبرَّأَ اللهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فجاءه الوحيُ، قال: يا مُوسَىٰ إنَّ الله قد أمرَ الأرض أن تطيعك فيما تأمرها به، فقال مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: خذيهم يا أرضُ. فخُسفَ بهم إلىٰ رُكبِهم، وهم ينادون: خُذيهم يا أرضُ، فخسفَ اللهُ به وبدارِه معه حتىٰ أصبحوا في عمقِ الأرضِ، هذا معنىٰ قولِ اللهِ - تَعَالَى -: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١]، تذكر القصصُ الإِسْرَائِيلِيَةُ هذا المعنىٰ، والله أعلمُ بصحته، لكن هذا الرجل قد طغىٰ، أعطاه الله المالَ ولم يَعزُ النِّعمةَ إلىٰ الله، بل قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، أي: أنا خبيرٌ بوجوه الاقتصادِ، ووجوه التجارةِ، ووجوه الكسبِ، وليس من الله. وهذا ـ نعوذ بالله ـ جُحُودٌ بنعمةِ الله علىٰ الإِنْسَانِ، فهذا قارون كان ممن جَحَدَ النِّعمةِ، وسيأتي نموذجٌ آخرَ من بني إِسْرَائِيلَ وردَ في الصَّحِيحَين.

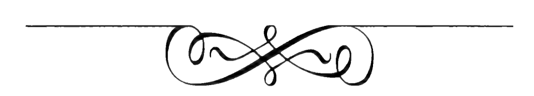


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في معنىٰ قَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩]: يُخبر أن الإنْسَان في حال الضر يضرع إلىٰ الله - تَعَالَى - وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوله نعمة منا طغىٰ وبغىٰ. و ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ﴾ [الزمر:٤٩] أي: لما يعلم من استحقاقي له، ولولا أني عند الله حظيظ لما خولني هذا، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩] أي: ليس الأمر كما زعمتم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النِّعَمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي مع علمنا المتقدم بذلك، ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩] أي: اختبار، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر:٤٩] فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون، ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر:٥٠] أي: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم، وادعىٰ هذه الدعوىٰ كثير من سلف من الأمم، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزمر:٥٠] أي: فما صح قولهم ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، كما قال تعالىٰ مخبراً عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٦-٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٥].

الشَّرح

معنى الآيات ـ كما قلنا ـ أنَّ الإنْسَانَ إذا أنعمَ اللهُ ﷻ عليه فإنه يطغى كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق: ٦-٧]، ومن أشدِّ أسباب الطُّغيان الغِنى والجاه، ولهذا ذكر ﷻ هذين النموذجين: ذكر فرعونَ وهو يُمثِّلُ أصحابَ الجاه الذين يطغون في الأممِ، فإنَّ الإنْسَانَ إذا أصبحَ له الحكمُ والأمرُ والنهيُ وعُوفي في بدنِه وعاشَ فترةً طويلةً يأتيه الوسواسُ، ويأتيه الكِبرُ، ويظن أنه له عند الله مكانةً، وإلا ما أعطاه هذا المالَ وهذا الجاهَ والعافيةَ فيطغى، ولهذا فرعونُ ادَّعى أنه هو الرَّبُ الأعلى، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات:٢٤] والنُّموذجُ الآخرُ قارون الذي أعطاه الله المالَ فطغَى، وقال: هذا المالُ من خبرتي، ولهذا قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: إياك وغرورَ" أنا" وطغيانَ "عندي". أي: لا تُكثِر من قول: أنا، ولا تقل عندي؛ لأنَّ هذه قالها فرعون وقالها قارون، وكانت النتيجةُ أنَّ اللهَ ﷻ أغرقَ الأولَ، وخسفَ بالثاني.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رَسُوْل الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إن ثلاثة في بني إسْرَائِيلَ أبرص وأقرع وأعمىٰ فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكًا فأتىٰ الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قذرني النَّاس به. قال: فمسحه فذهب عنه قذره فأُعطي لونًا حسنًا وجلداً حسنًا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر ـ شك إسحاق إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل، وقال الآخر البقر ـ قال: فأُعطي ناقة عشراء، وقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتىٰ الأقرع فقال أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني النَّاس به. قال: فمسحه فذهب عنه وأعطي شعراً حسنًا. فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأُعطي بقرة حاملاً. قال: بارك الله له فيها. فأتىٰ الأعمىٰ فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر به النَّاس. قال: فمسحه فرد الله إليه بصره قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأُعطي شاة والداً، فأُنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم، قال: ثم إنه أتىٰ الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت به الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة. فقال: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك النَّاس فقيراً فأعطاك الله عَزَّ وَجَلَّ المال. فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلىٰ ما كنت به، قال: وأتىٰ الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد علىٰ هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلىٰ ما كنت. قال: وأتىٰ الأعمىٰ في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري،

فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمىٰ فرد الله إليَّ بصرِي فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله. فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط علىٰ صاحبيك) أخرجاه.



الشَّرح

هذه القصةُ ذكرَها النَّبِيُّ ﷺ مما وقع في بني إِسْرَائِيلَ، فالأبرصُ والأقرعُ جحدا نعمةَ الله، (والله أرسلَ المَلَكَ في صورتِه وهيئتِه) لها أحد معنيين:

المعنىٰ الأول:(في صورته) أي في الصورةِ التي جاءهم بها في أولِّ مرةٍ؛ فإنه قد جاءهم في صورةِ شخصٍ وسألهم عما يُحِبُّون، فالأبرصُ قال: (أُحبُّ لونًا حسنًا وجلداً حسنًا. فمسحَه فذهب ما به)، والأقرعُ نفسَ الشيءِ (أُحبُّ شعراً حسنًا ولونًا حسنًا فمسحه فذهب ما به)، فالمراد: الصورةُ التي جاءهم بها قبل أن يُصبِح عندهم أموالٌ، ودعا لهم بالبركة فيما أعطاهم الله.

والمعنىٰ الثاني: أنه جاءهم في صورتهم أنفسِهم، جاء الأبرصَ في صورةِ الأبرصِ ليتذكرَ كيف كان، وجاء الأقرعَ في صورةِ الأقرعِ، وفي الثالث في صورةِ أعمىٰ. اللفظ يحتملُ لكلا المَعنيين، وكِلتا الصُورتين تُذَكِّرهم بحالتِهم الأولىٰ، لكنَّ الأبرصَ والأقرعَ أنكرا حالتَهما الأُولىٰ وقالا: لم نكن فُقراءَ، هذا المالُ ورثناه عن آبائِنا، وآباؤُنا ورثُوه عن آبائِهم، فنحن عَريقُون في الغِنىٰ، فدعا عليهما، فأهلَكَ الله مواشيهما، ورجعَا كما كانا من المرضِ والفقرِ، أمَّا الأعمىٰ فقد وفَّقه اللهُ ﷻ وقنَّعَه، قال: (نعم قد كنت أعمىٰ فردَّ اللهُ إليَّ بصري، وكنت فقيراً فأعطاني اللهُ ﷻ المالَ، خُذ من المالِ ما شئتَ، والله لا أُجهِدُك) أي: لا أغضبُ عليك مهما أخذتَ من هذا المالِ، قال: (إنما أُبتليتَ أنت وصاحباك،

فقد رُضي عنك وسُخط علىٰ صاحبيك)[1] ثم دعا له بالبركةِ.

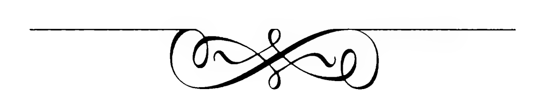
وهكذا الإنْسَانُ يطغىٰ إذا استغنَىٰ بمرور الزمن، والمالُ يُطغِي، والجاه يُطغِي، ومن رحمةِ الله بعبدِه المُؤمنِ أن يَحميَه من الذي يُطغِيَه، فبعض النَّاسِ رُبَّما يحبُّ المال، لكن لو أعطاك المالَ لربَّما طَغيتَ، والله لا يحبُّ لك الطغيانَ، أنت لا تعرف نفسَك، النفسُ لها طبائعُ غريبةٌ، كم من إنسانٍ كان ظاهِره الصلاحُ، فلما جاءه المالُ طَغَىٰ، وقد قال بعض الذين أُوتوا المال: ما أرىٰ هذه إلا ضريبةً يأخذُها منَّا مُحَمَّدٌ. ويُذكرُ قَصَصٌ كثيرٌ قديماً وحاضراً، وهناك قصةٌ وقعت في هذا البلد: شخصٌ كان يحمل الماءَ علىٰ كتفِه، ويبيعُه إلىٰ النَّاس، ويحافظ علىٰ صلاةِ الجماعة في المسجدِ الحرامِ، ثم شاء الله ﷻ أن يبتليه فأخذَت منه الحكومةُ داره عند تَوسِعةِ الحرمِ، فأُعطِي مالاً ضخماً جداً، ففُوجئ ما كان عنده إلا مالٌ قليلٌ، فإذا به يتغير، وإذا به يتركُ الصلاةَ، ويُنصح في بعض الأوقات: يا فلان الصلاةَ. قال: ما رأينا من صلاتِكم خيراً. فالنفسُ البشريةُ ضعيفةٌ.

بعض النَّاس يعاتب من يصبحُ مديراً أو وزيراً أو له مكانة فيتغيَّر، لا ينبغي ذلك؛ لأنَّ المنصبَ يُسكر، يقول ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا كان لك صديقٌ أُبتلي بمنصبٍ لا تطلب منه الأخلاقَ التي كانت قبل المنصبِ، قال: النفس تتغير، النفسُ ضعيفةٌ، فبعض النَّاس يظن أنه ربما لو كان مكان فلان لكان شيئاً آخرَ، وليس بصحيحٍ؛ لأنَّه رُبَّما يكون أسوأَ منه، ومن رحمةِ اللهِ بالإنْسَان أن يختارَ له الخيرَ، فدائماً اسأل اللهَ ﷻ أن يختارَ لك هو، وهذه صلاةُ الاستخارةِ،

---

[1] القصة أخرجها البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب أحاديث الأنْبِيَاء، باب حديث أبرص وأعمىٰ وأقرع في بني إسْرَائِيلَ، برقم: (٣٤٦٤)، ومُسْلِم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، برقم: (٢٩٦٤)، (٤/ ٢٢٧٥).

الإنْسَان إذا أقدَم علىٰ أمر يجعل أمرَه في يدِ الله، اللهم إن كنت تعلمُ في هذا الأمر خيراً لي في ديني ودُنياي فيسره لي واقدرُه لي وبارك لي فيه. -جعلتَ أمركَ بيدِ الله-، وإن كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمر شرٌ لي في دِيني ودُنياي فاصرفه عني واصرفنِي عنه، واقدر لي الخيرَ حيث كان. هكذا يجبُ أن يكون المُسْلِمُ، ينبغي أن تعلمَ أنَّ حالك الذي معه التقوىٰ هو الخيرُ لك، لا تظنَّ أنَّ الجاهَ خيرٌ لك، أو أنَّ المالَ خيرٌ لك، فهكذا ينبغي للإنسان أن يكون حسَّاساً في النِّعَمِ، يشعرُ أنَّ النِّعَمةَ من الله، ويحاولُ أن يقومَ بشكرها، وسيذكر الشَّارِحُ من كلام ابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من يكون شاكِراً، ومن يكون لنعمِ الله كافِراً.



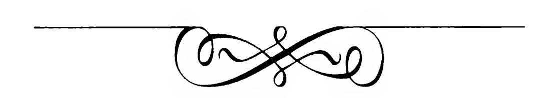


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (أخرجاه) أي البُخَارِيُ ومُسْلِم، و(الناقة العشراء) بضم العين وفتح الشين وبالمد هي الحامل. قوله: (أُنتج) وفي رواية (فنتج) معناه تولى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة.

الشَّرح

كلمة (أُنتجَ) هكذا في اللغةِ مبنيةٌ للمجهول وليست أَنتْج، وكذلك تأتي نُتج بمعنى أنه تَولى ولادةَ الناقة وقام برعايتها حالَ الولادةِ كما تتولَّى القابلةُ ولادَةَ المرأةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولّد هذا) هو بتشديد اللام، أي: تولىٰ ولادتها وهو بمعنىٰ أُنتج في الناقة، فالمولِّد والناتج والقابلة بمعنىٰ واحد، لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره.

قوله: (انقطعت بي الحبال) هو بالحاء المهملة والباء الموحدة هي الأسباب.

قوله: (لا أجهدك) معناه لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالي، ذكره النووي.

وهذا حديث عظيم وفيه معتبر، فان الأولين جحدا نعمة الله فما أقرا لله بنعمته، ولا نسبا النِّعَمة إلىٰ المنعم بها، ولا أديا حق الله فحل عليهما السخط، وأما الأعمىٰ فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلىٰ من أنعم عليه بها وأدىٰ حق الله فيها، فاستحق الرضىٰ من الله بقيامه بشكر النِّعَمة لما أتىٰ بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها، وهي: الإقرار بالنِّعَمة، ونسبتها إلىٰ المنعم، وبذلها فيما يحب.

قال العلامة ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم علىٰ وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النِّعَمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضًا، ومن عرف النِّعَمة والمنعم، لكن جحدها كما يجحدها المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النِّعَمة والمنعم بها وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ولم يرض به وعنه لم يشكره أيضًا، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلىٰ المنعم ومحبته والخضوع له.

قوله: (قذرني النَّاس) بكراهة رؤيته وقربه منهم.

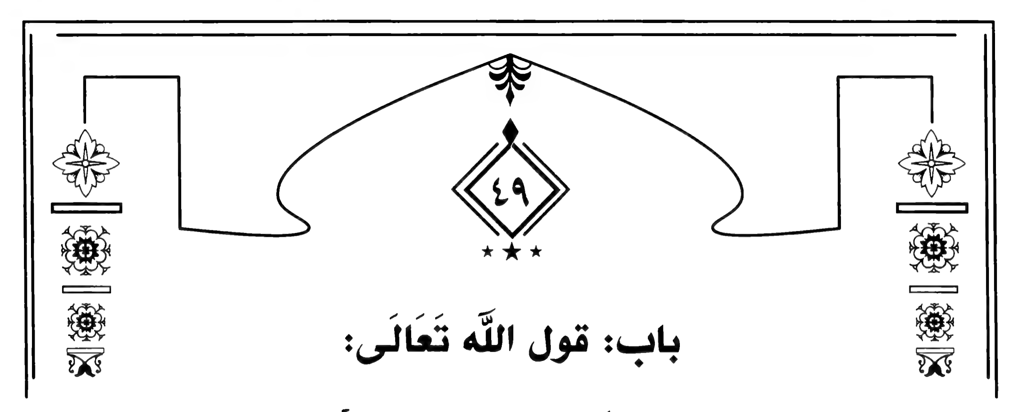
الشَّرح

ذكر ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الإنْسَانَ لابدَّ أن تتوافر فيه خمسُ درجات ليكون شاكراً:

- **الأُولى**: معرفةُ النِّعَمة، تعرفُ أنَّ الذي بك هو نعمةٌ.
- **الثانية**: ثمَّ تعرف الذي أنعمَ عليك، نعمةٌ ومُنعِمٌ، فعرفت النِّعَمةَ وعرفت المُنعمَ.
- **الثالثة**: ثمَّ تُقرُّ بأنها نعمةٌ عليك من الله، تلك معرفةٌ، وهذا إقرارٌ.
- **الرابعة**: أن تُحِبَّ المُنعمَ الذي أنعم عليك، وتخضعَ له وتذل له.
- **الخامسة**: أن تستعملَها فيما يُحبُّه المُنعمُ.

فإنك إذا عرفت النِّعَمةَ، وعرفت المُنعمَ، وأقررت بها، وأحببتَه لكن لم تستعملها في طاعتِه لم تكن شاكراً، فلابدَّ من توافر خمسةِ شروطٍ لتكون شاكراً: تعرفُ أنَّ هذه نعمةٌ، وكلُّ واحدٍ منَّا يعيش في نعمٍ لا حصر لها، وأن تعرفَ المُنعمَ، وأن تُقرَّ بأنَّ هذه النِّعَمةَ منه ليست منك أنت، وأن تحبَّ الذي أنعمَ الذي هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وأن تستعملها فيما يُحبُّه عَزَّوَجَلَّ، لا تستخدمَها في معصيةِ الله، إذا أعطاك المالَ ما تشتري به شيئاً يكرهُه، أو شيئاً لا يحبُّه، فإذاً أنت لم تشكر النِّعَمةَ؛ لأنك لم تستعملها فيما يحبُّ، والشكرُ هو العملُ وليس هو الإقرارُ الداخلي بالقلبِ فقط، فلابدَّ أن يكون إقراراً يتبعُه العملُ.





باب: قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠].

قال المؤلف رحمه الله:

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبّد لغير الله كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب.

وعن ابن عباس في الآية: لما تغشاها آدم حملت فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطأي: أو لأجعلن له قرنَي أيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما - سمياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا، ثم حملت فآتاهما فقال مثل قوله فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا، ثم حملت فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾ [الأعراف:١٩٠] رواه ابن أبي حاتم.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته.

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:١٨٩] قال: أشفقا أن لا يكون إنسانا. وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

الشَّرح

هذا البابُ الذي ذكره المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مُلَخَّصه أنَّ الإنْسَانَ قد يقع في الشِّرْك بسببِ ظنِّه أنَّ النِّعَمةَ من غير الله، فيشركُ بمن يظنُّ أنَّ النِّعَمةَ منه.

أورد المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا البابِ آيةً وأثراً عن ابن عباس، وتفسيرات للتابعين لمعنىٰ الآية، والآيةُ هي قَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف:١٩٠]، هذه الآيةُ من الآيات التي أشكَلَ معناها علىٰ المُفَسِّرين، ولهذا اختلفوا في تفسيرها، فجماعةٌ من المُفسِّرين ـ وفي مقدمتهم شيخُ المُفسِّرين الطَبري - رَحِمَهُ اللَّهُ - ـ فسَّروا الآيةَ علىٰ أنَّ الذي وقعَ في الشِّرْك هو آدمُ وحواء، علىٰ ما وردَ في أثر ابن عباس، فإن آدمَ وحواءَ عندما نزلا إلىٰ الأرضِ لم يَريا أشخاصـًا مثلَهما، وإنَّما رأيا حيواناتٍ: أبقاراً وأغنامـًا وجمالاً ووحوشـًا، فعندما حملَت خافا أنَّ الذي في بطنها سيكون مثلَ هذه الوحوش، كما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَخوَّفهما الشَّيْطَانُ، قال: **(لأجعل له قرني أيل)** أي: وَعْلُ **(فيخرج من بطنك)** فخوَّفها **(فسمياه عبد الحارث)**، وكان الشَّيْطَانُ يُسمَّىٰ الحارثُ قبل أن يلعنَه الله ويُخرِجَه من جنَّتِه إلىٰ الأرض، هذا القولُ الأول، وقد وردَ حديثٌ مرفوْع في هذا المعنىٰ. ومال الطبري إلىٰ هذا القولِ، ومالَ إليه أيضـًا الشَّارِحُ الشيخُ سليمان بن عبد الله، وذكر أنَّ هناك تفسيراً للمبتدِعة يخالفُ هذا التفسير، فلا ينبغي أن يُصغىٰ إليه، لكنه رَحِمَهُ اللَّهُ قد قَسا في هذه الكلمة، فإنَّ الذي خالفَ ليس فقط المُبتدِعةُ بل منهم مُفَسِّرو أهلِ السُّنَّةِ، فأولُ من خالف الحسنُ البصري، وقد ثبت عنه بأسانيدَ صحيحةٍ أنه فسَّر الذين أشركوا بأنهم من اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ أو من بني آدمِ، وليسوا آدم وحواء.

فالتفسير الأول ذهب إليه الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، وأورد فيه حديثاً مرفوعاً، وأثرَ ابنِ عباسٍ هذا، أمَّا الحَدِيث المرفوع فإنه لا يصح نسبتُه إلىٰ رَسُوْلِ الله ﷺ، وقد ردَّه ابنُ كثيرٍ وذكر له ثلاثَ عِلَلٍ، فلم يصح حديثٌ مرفوع يُفَسِّرُ هذه الآيةَ بأنهما آدمُ وحواءُ، **وأثرُ ابنِ عباسٍ هذا ورد على صورتين:**

الصورةُ الأولى: أنَّ ابن عباس هو الذي قال.

والصورة الثانية: أنَّ ابن عباس قال: إنَّ الذي قال هذا الكلام هو أُبي بن كعب ـ ولعلَّه تلقَّاه عن أهل الكتاب، وأهلُ الكتاب عندهم آثارٌ إِسْرَائِيلِيَةٌ، فكلُّ الذي يقولُه أهلُ الكتابِ الذين أَسلَموا يُسمَّىٰ: (آثارٌ إِسْرَائِيلِيَة)، وهي لا تُعتمدُ في الدِّين.

فهذا الأثر وردَ موقوفاً علىٰ ابن عباس، وورد مقطوعاً أو موقوفاً علىٰ أُبي بن كعب.

قال ابن كثير: ظاهر هذه الراوياتِ أنها إِسْرَائِيلِيَة، وأنها من أهلِ الكتاب، وذهب ابن كثير إلىٰ القول الثاني، وهو قول الحسن البصري، والحسن البصري هو الذي روىٰ الحَدِيث المرفوعَ فإنَّه رواه عن سمرة بن جندب، والحسنُ لم يسمع من سَمُرةَ وإنَّما أحاديثُه عنه مرسلةٌ، فالحَدِيثُ الذي رواه الحسنُ لم يصح، والذي صحَّ عنه تفسيره للآيةِ بأن الذي وقعَ في الشِّرْك ليس آدمَ وحواءَ.

أمَّا الشيخُ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ إمامُ المُفسِّرين في العصرِ الحاضرِ فإنَّه توقَّف في الآيةِ، وقال: اللهُ أعلم، ظاهرُ الآيةِ يدلُّ علىٰ أنَّ الذي وقعَ في الشِّرْكِ هو آدمُ وحواء، ولكن لا يليقُ ذلك بهما؛ لأنَّ آدمَ نَبيٌّ من أنبياءِ الله؛ فإنه كان يأتيه الوحيُ من جبريلَ، كان لا يعرفُ الدينَ إلا عن طريقِ الوحيِ، فكيف يُشركُ؟.

وورَدَ عن بعض التَّابِعِينَ كمجاهدَ وغيرِه أنَّ الشِّرْكَ كان في الطاعةِ وليس في العبادةِ؛ لأنهما أطاعاه في التسميةِ فسمَّياه عبدَ الحارث، ولم يُطيعاه بأنهما سجَدا له، أو أشركاه مع الله، فهذا أخفُّ.

الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللهُ يقول: الذي يُنكِر هذا من آدمَ وحواءَ، ليس هذا بأشدِّ من طاعةِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لإبليس في أكلِه من الشجرةِ ـ كذا قال رَحِمَهُ اللهُ ـ لكن هذا شركٌ، وتلك معصيةٌ، وشتَّان بين الشِّرْك والمعصية.

فنحن نقول: قد يترجَّح ـ والله أعلمُ ـ أنه ليس المرادُ بالذَينِ أشار إليهما في هذه الآيةِ هما آدمُ وحواءُ؛ لأنَّه لم يصح حديثٌ أنَّ الذي وقعَ في الشِّرْكِ آدمُ وحواءُ، والصَّحابِي إذا فسَّر القُرْآنَ أو إذا قال قولاً من قضايا الغيبِ مما لا مجال فيه للرأيِ والاجتهادِ فذهب بعضُ العُلَمَاءِ إلىٰ أنَّ حُكمَه حُكمُ المرفوعِ؛ لأنَّ الغيبَ لا يعلمه الصَّحابِي، فربما سمعه من رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. لكنا نقول: إن الصَّحابِي ربما سمِعه من الرَسُوْلِ وربما سمِعه من أهلِ الكتاب، فكلاهما يُحتمَل، وابن عباس ممن أخذَ عن أهل الكتاب، وإذا كان ابنُ عباسٍ لم يُصرِّح بأن هذا من قولِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كيف تجرؤُ أنت وتنسبُه للرَسُوْلِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لم يَقله؟

فقول الصَّحابِي ليس له حكم المرفوع أبداً. وهذا هو الذي رجحه ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ، أي أن الصَّحابِي إذا قال قولاً فإنه باجتهاده سواءٌ كان في الغيبيات أو في الشرعيات، ولا يجوز أن يرفع إلىٰ رَسُوْل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذا ملخص ما في هذا الباب.

أمَّا قولُ ابنِ حزم رَحِمَهُ اللهُ: (أنه لا يجوز عبدُ عمروٍ وعبدُ الكعبةِ حاشا عبد المطلب) فإنه مردودٌ؛ لأنَّ التعبيدَ لغيرِ الله لا يجوزُ، والمُطَّلبُ ليس من أسماءِ

الله فكيف يجوزُ؟ لعلَّه رَحِمَهُ اللَّهُ ظنَّ أنَّ عدمَ تغييرِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لاسمِ جدِّه جعلَه جائزاً. والحقُّ أنَّه لم يكن من سنَّةِ رَسُوْل الله ﷺ تغييرُ أسماءِ الأموات حتى ولو كان فيها شركٌ، إنما كان يُغيِّرُ أسماءَ الأحياء، ولهذا كان يقول: (أنا ابن عبد المطلب)[1] وكان يأتيه الأعرابي فيقول: يا ابن عبد المطلب. فيقول: (أجبتُك)[2]، لكنه كان يُغيرُ أسماءَ الأحياء، ولا يُوجَد صَحابي مُطلقاً مُعبدٌ لغيرِ الله.

فقولُ ابنِ حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في الحقيقةِ قولٌ مردودٌ وضعيفٌ، والصحيحُ أنَّه لا يجوزُ التعبيدُ لا للمُطَّلِب ولا لغيرِه؛ لأنَّ التعبيدَ لا يكون إلا لأسماءِ الله: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الكريم، عبد الرؤوف، وهكذا... أمَّا إن لم يكن الاسمُ لله فلا يجوزُ أن يُعبَّدَ النَّاسُ له، عبدُ العبَّاسِ ما يجوزُ، عبدُ علي ما يجوز، عبدُ الحسين ما يجوز، عبد الرَسُوْل ما يجوز، العبدُ والتعبيدُ لله، هذا هو الصحيحُ والله أعلمُ.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (باب قول الله - تعالى -: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠]، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى هذه الآية: حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النَّبِيّ ﷺ قال: (لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحي الشَّيْطَان وأمره) رواه أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير والحاكم وصححه.



الشَّرح

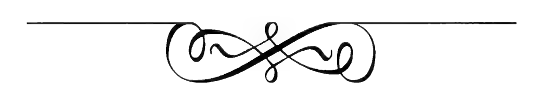
هذا الحَدِيثُ هو المرفوعُ، وفيه ثلاثُ عللٍ:

العِلَّةُ الأُولىٰ: عمرُ بنُ إبراهيم، وَثَقَّه ابنُ مَعينٌ، لكن قال أبو حاتم: لا يُحتجُّ به. والجَرحُ مُقدَّمٌ علىٰ التَّعديلِ؛ لأنَّ الجارحَ قد اطَّلع علىٰ ما خفِي علىٰ المُوثِّقِ، ورواية عمر بن إبراهيم عن قَتادةَ خاصَّةً فيها مقالٌ قويٌّ.

والثاني: أنه في بعضِ الرواياتِ وردَ مَوقوفاً علىٰ سمُرةَ، وهذا يجعلُ رفعَه وَهماً من الرَّاوي.

والثالثُ: أنَّ الحسنَ البصريَ رَحِمَهُ اللَّهُ صحَّ عنه بأسانيدَ كما قال ابنُ كثيرٍ أنَّه فسَّر الآيةَ بغيرِ الحَدِيث، فلو كان الحَدِيثُ صحيحاً عنده وهو الرَّاوي له لما كان له أن يخالفَ الحَدِيثَ.

هذه التعليلات ذكرها ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في رَدِّه لهذا الحَدِيثِ المرفوعِ.

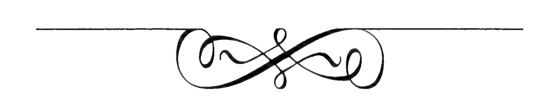


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا ذكر الضمير في آخرها بصيغة الجمع استطراداً من ذكر الشخص إلىٰ الجنس، ومعنىٰ الآية أنه تعالىٰ يخبر عن مبدأ الجنس الإنْسَاني، وما فيه لله من عجائب القدرة، فأوجد هذا الجنس علىٰ كثرته واختلاف أنواعه ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف:١٨٩] وهو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف:١٨٩] وذلك الحمل لا تجد المرأة له ألمـاً إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

الشَّرح

هنا يقولُ الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في أولِ الآية: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠] ثم قال في آخرِ الآيةِ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف:١٩٠]، قال: فذكرَ ضمير المثنىٰ في أولِ الآية، وضميرَ الجمعِ في آخرِها، فدلَّ علىٰ أنَّ المُرادَ بالشِّرْكِ في آخرِ الآيةِ: الشِّرْكُ الواقعُ من النَّاسِ الذين بعد آدمَ وحواءَ، فتخريجُ الآيةِ فيه تكلُّفٌ.



وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٩] قال مجاهد: استمرت عليه. وقال مهران: استخفته، وقال ابن جرير: استمرت بالماء وقامت به وقعدت (فَلَمَّا أَثْقَلَت) أي: صارت ذات ثقل بحملها، قال السدي: كبر في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ [الأعراف:١٨٩] أي: أن آدم وحواء عليهما السلام دعوا الله ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:١٨٩] بشراً سوياً. قال ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) أي: لنشكرنك على ذلك. انتهى ملخصًا من ابن كثر وفيه زيادة.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ [الأعراف:١٩٠] أي: لله شركاء (فِيمَا آتَاهُمَا) أي: لم يقوما بشكر ذلك على الوجه المرضي كما وعدا بذلك، بل جعلا لي فيه شركاء فيما أعطيتهما من الولد الصالح والبشر السوي بأن سمياه عبد الحارث، فإن من تمام الشكر أن لا يعبد الاسم إلا لله، وإذا تأملت سياق الكلام من أوله إلى آخره مع ما فسره به السلف تبين قطعًا أن ذلك في آدم وحواء عليهما السلام، فإن فيه غير موضع يدل على ذلك، والعجب ممن يكذب بهذه القصة وينسى ما جرى أول مرة، ويكابر بالتفاسير المبتدعة ويترك تفاسير السلف وأقوالهم، وليس المحظور في هذه القصة بأعظم من المحظور في المرة الأولى.

وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف:١٩٠] هذا ـ والله أعلم ـ عائد إلى المُشْرِكينَ من القدرية فاستطرد من ذلك الشخص إلى الجنس، وله نظائر في القُرْآن.

قوله: (قال ابن حزم) هو أبو مُحَمَّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري المشهور صاحب كتاب الإجماع والإيصال والمحلى وغيرها من المُصَنَّفات.

قوله: (اتفقوا) الظاهر أن المراد أجمعوا فمقصوده حكاية الإجماع لا حكاية الاتفاق على طريقة المتأخرين.

قوله: (حاشا عبد المطلب) قال ابنُ القَيِّمِ: لا تحل التسمية بعبد علي وعبد الحسين ولا عبد الكعبة، وقد روىٰ ابن أبي شيبة عن هانئ بن شريح قال: وفد علىٰ النَّبِيّ ﷺ قوم فسمعهم يسمون رجلاً عبد الحجر، فقال له: (ما اسمك؟) قال: عبد الحجر، فقال له رَسُوْل الله ﷺ: (إنما أنت عبد الله). فقيل: كيف يتفقون علىٰ تحريم الاسم المعبد لغير الله وقد صح عنه ﷺ قال: (تعس عبد الدينار..) الحَدِيث، وصح عنه أنه قال: (أنا النَّبِيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب)؟ فالجواب: أما قوله: (تعس عبد الدينار) فلم يرد الاسم، وإنما أراد به الوصف والدعاء علىٰ من يعبد قلبه للدينار والدرهم فرضي بعبوديتهما عن عبودية الله تبارك وتعالى. وأما قوله: (أنا ابن عبد المطلب) فهذا ليس من باب إنشاء التسمية بذلك، وإنما هو من باب الإخبار بالاسم الذي عرف به المسمىٰ دون غيره، والإخبار بمثل ذلك علىٰ وجه تعريف المسمىٰ لا يحرم، ولا وجه لتخصيص أبي مُحَمَّد ذلك بعبد المطلب خاصة، فقد كان أصحابه يسمون بعبد شمس وبني عبد الدار بأسمائهم ولا ينكر عليهم النَّبِيّ ﷺ ذلك، فباب الأخبار أوسع من الإنشاء، فيجوز فيه مالا يجوز في الإنشاء انتهىٰ ملخصاً.

وهو حسن، ولكن بقي إشكال، وهو أن في الصَّحَابَة من اسمه المطلب بن ربيعةَ بن الحارث بن عبد المطلب، فالجواب: أما من اسمه عبد شمس فغيره النَّبِيّ ﷺ إلىٰ عبد الله كما ذكروا ذلك في تراجمهم، وأما المطلب بن ربيعة فذكر ابن عبد البر أن اسمه عبد المطلب، وقال: كان علىٰ عهد رَسُوْل الله ﷺ يغير اسمه فيما علمت، وقال الحافظ: وفيما قاله نظر، فإن الزبير أعلم من غيره بنسب قريش ولم يذكر أن اسمه إلا المطلب، وقد ذكر العسكري: أن أهل النسب إنما يسمونه المطلب، وأما أهل الحَدِيث فمنهم من يقول المطلب ومنهم من يقول عبد المطلب، وأما عبد يزيد أبو ركانة فذكره الذهبي في التجريد، وقال: أبو

ركانة طلق امرأته، وهذا لا يصح، والمعروف أن صاحب القصة ركانة، وروى حديثه أبو داود، وفي السنن عن ابن عباس قال: (طلق عبد يزيد أبوركانة وأخوته أم ركانة..) وذكر الحَدِيث، ثم قال: وحديث نافع بن عجير وعبد الله بن علي بن يزيد بن ركانة عن أبيه عن جده أن ركانة طلق امرأته البتة، فجعلها النَّبِيّ ﷺ واحدة أصح؛ لأنهم ولد الرجل وأهله وهم أعلم به، فقد تبين أنه ليس في الصَّحَابَة من أولاء من تصح له صحبته، فعلى هذا لا تجوز التسمية بعبد المطلب ولا غيره مما عبد لغير الله، وكيف تجوز التسمية وقد أجمع العُلَمَاء على تحريم التسمية بعبد النَّبِيّ وعبد الرَسُوْل وعبد المسيح وعبد علي وعبد الحسين وعبد الكعبة، وكل هذه أولى بالجواز من عبد المطلب لو جازت التسمية به، وأيضًا فقد نص النَّبِيّ ﷺ على أن التسمية بعبد الحارث من وحي الشَّيْطَان، وأمره بعبد المطلب كعبد الحارث، لا فرق بينهما إلا أن أصدق الأسماء الحارث وهمام فلعله أولى بالجواز، لا يقال: إن الحارث اسم للشيطان؛ لأنه وإن كان اسمًا له فلا فرق في ذلك بين جميع من اسمه الحارث، فلا يجوز التسمية به، وإن نوى عبد الحارث بن هشام أو غيره.

فإن قلت: إذا كان ابن حزم قد حكى الإجماع على جواز التسمية بعبد المطلب فكيف يجوز خلافه؟ قلت: كلام ابن حزم ليس صريحًا في حكاية الإجماع على جواز ذلك بعبد المطلب، فإن لفظة (اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد العزى وعبد هبل وعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب، واتفقوا على إباحة كل اسم بعد ما ذكرنا ما لم يكن اسم نبي أو اسم ملك..) إلى آخر كلامه فيحتمل أن مراده حكاية الخلاف فيه ويكون التقدير اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله حاشا عبد المطلب، أي: فإنهم لم يتفقوا على تحريمه بل اختلفوا، ويؤيده أنه قال بعده: واتفقوا على إباحة كل اسم بعد ما ذكرنا إلى آخره، ويكون المراد حاشا عبد المطلب فلا أحفظ ما قالوا

فيه، ويكون سكوتـًا منه عن حكاية إجماعٍ أو خلاف فيه، وعلىٰ تقدير أن مراده حكاية الإجماع من جواز ذلك فليس كل من حكىٰ إجماعـًا يسلم له، ولا كل إجماع يكون حجة أيضـًا، فكيف والخلاف موجود والسُّنَّةِ فاصلة بين المتنازعين.

وغاية حجة من أجازه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (أنا ابن عبد المطلب) ونحوه أو أن بعض الصَّحَابَة اسمه عبد المطلب، وقد تقدم الجواب عن ذلك، وأيضـًا فلو كان قوله: (أنا ابن عبد المطلب) حجة علىٰ جواز التسمية به لكان قوله: (إنما بنو هاشم وبنو عبد مناف شيء واحد) حجة علىٰ جواز التسمية بعبد مناف، ولكن فرق بين إنشاء التسمية وبين الإخبار بذلك عمن هو اسمه.

قوله: (في الآية) أي المترجم لها. قوله: (تغشاها) أي حواء أي وطئها عليهما السلام، قوله: (أو لأجعلن له) أي لولدكما. قوله: (قرني أيل) هو بالتثنية أو الإضافة، وأيل ـ بفتح الهمزة وكسر المثناة التحتية المشددة ـ ذكر الأوعال، والمعنىٰ أنه يخوفهما بكونه يجل للولد قرني وعل فيخرج من بطنها فيشقه كما قال: (فيخرج من بطنك فيشقه).

قوله: (ولأفعلن) ولأفعلن يخوفهما بغير ما ذكر ويزعم أنه يفعل بهما غير ذلك.

قوله: (سمياه عبد الحارث) قال سعيد بن جبير: كان اسمه في الملائكة الحارث، وكان مراده أن سمياه بذلك ليكون قد وجد له صورة الإشراك به، فإن هذا من باب كيد إبليس إذا عجز عن الآدمي أن يوقعه في المعصية الكبيرة قنع منه بالصغيرة، وأيضـًا فإنه يحصل له منهما طاعته كما أطاعا أول مرة كما روىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال رَسُوْل الله ﷺ: (خدعهما مرتين) قال زيد: خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض.

قوله: (فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا..) إلىٰ آخره، هذا والله أعلم من الامتحان، فان الإنْسَان لا عزم له وإن عاين ماذا عساه أن يعاين من الآيات إلا بتوفيق الله - تَعَالَى -، فإن الطبيعة البشرية تغلب عليه كما غلبت علىٰ الأبوين مرتين مع ما وقع لهما قبل من التحذير والإنذار عن كيد إبليس وعداوته لهما، ومع ذلك أدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، وكان ذلك شركًا في التسمية وإن لم يقصدا العبادة للشيطان، بل قصدا به فيما ظنا إما دفع شره عن حواء وإما الخوف علىٰ الولد من الموت، كما روىٰ عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: (لما حملت حواء أتاها الشَّيْطَان فقال: أتطيعينني ويسلم ولدك سميه عبد الحارث، فلم تفعل فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فقال: أتطيعينني يسلم لك ولدك، وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبها فأطاعاه) رواه ابن أبي حاتم. قلت: وإسناده صحيح، ورواه سعيد بن منصور وابن المنذر، وعن ابن عباس قال: (كانت حواء تلد لآدم أولاداً فتعبدهم لله وتسميه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تسميانه بغير ما تسميانه لعاش. فولدت له رجلاً فسمياه عبد الحارث، ففيه أنزل ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأعراف:١٨٩]، إلىٰ آخر الآية)، رواه ابن مردويه.

قوله: (شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته) أي لكونهما أطاعاه في التسمية بعبد الحارث لا أنهما عبداه، فهو دليل علىٰ الفرق بين شرك الطاعة وبين شرك العبادة. قال بعضهم: تفسير قتادة في هذه الآية بالطاعة؛ لأن المراد بها علىٰ كلام كثير من المفسرين آدم وحواء عليهما السلام، فناسب تفسيرها بالطاعة؛ لأنهما أطاعا الشَّيْطَان في تسمية الولد بعبد الحارث، وقد استشكله بعض المعاصرين بما حاصله أنهم قد فسروا العبادة بالطاعة، فيلزم علىٰ قول قتادة أن يكون الشِّرْك في العبادة. والجواب: أن تفسير العبادة بالطاعة من التفسير اللازم، فإنه لازم

العبادة أن يكون العابد مطيعًا لمن عبده بها، فلذا فُسرت بالطاعة، أو يقال: هو من التفسير بالملزوم وإرادة اللازم، أي: لما كانت الطاعة ملزومًا للعبادة والعبادة لازمة لها فلا تحصل إلا بالطاعة جاز تفسيرها بذلك، وهو أصح، وبالجملة فلا إشكال في ذلك بحمد الله.

فإن قلت: قد سمىٰ النَّبِيّ ﷺ طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة. قلت: راجع الكلام علىٰ حديث عدي يتضح الجواب.

قوله: (أشفقا) أي خافا، أي آدم وحواء (أن لا يكون إنسانًا)، قال أبو صالح: أشفقا أن يكون بهيمة، فقال: لئن آتيتنا بشراً سوياً. رواه ابن أبي حاتم، وفي هذا أن هبة الله للرجل البنت السوية من النِّعَم ذكره المُصَنِّفُ، وذلك أن الله ﷻ قادر علىٰ أن يجعلها غير سوية، وأن يجعلها من غير الجنس، فلا ينبغي للرجل أن يسخط مما وهبه الله له كما يفعل أهل الجاهلية، بل يحمد الله الذي جعلها بشرية سوية، ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها إذا بُشرت بمولود لم تسأل إلا عن صورته لا عن ذكوريته وأنوثيته.

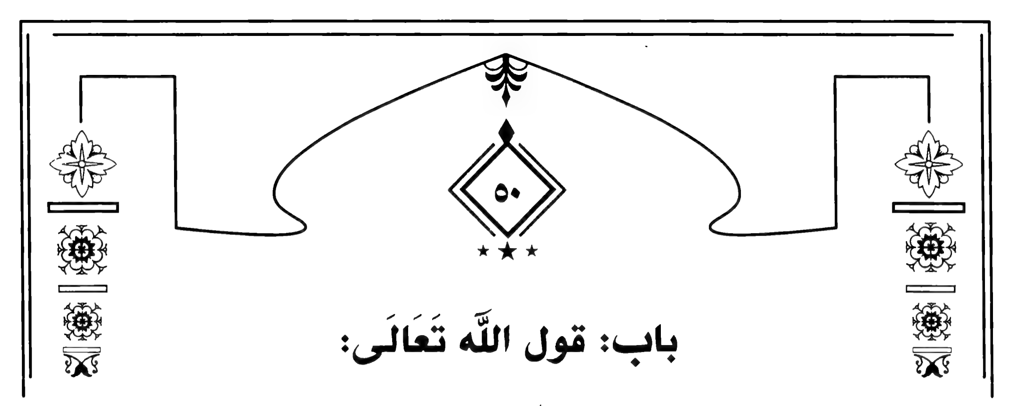
قوله: (وذكر) أي ذكر ابن أبي حاتم، فإنه روىٰ ذلك عمن ذكر المُصَنِّفُ (معناه عن الحسن) هو البصري قوله: (وسعيد) أي ابن جبير (وغيرهما) كالسدي وغيره.



الشَّرْح (١)



(١) قام فضيلة الشيخ بالتعليق علىٰ هذا الجزء من المتن في الكلام السابق.



باب: قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

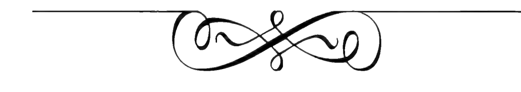
يخبر تعالىٰ أن له أسماءً وصفها بكونها حسنىٰ أي: حسان، وقد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها كما يدل عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال، فأسماؤه الدالة علىٰ صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها.



هذا البابُ عقدَه المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبينَ مَوقِفَ المُسْلِمِ من أسماءِ الله جَلَّ وَعَلَا، إنَّ الشخصَ لا يُعرفُ إلا إذا عُرفت صفاتُه وأعمالُه، فلو مرَّ أمَامنا إنسانٌ عادةً لا نُلقي له بالاً، لكن لو قيل: إنَّ هذا الشخصَ أعلمُ إنسانٍ في الذرةِ واخترع جهازَ كذا زادت قيمتُه عندنا، فكلما عرفنا بعضَ صفاتِه التي هي ثناءٌ وذكرٌ جميلٌ يرتفع عندنا، ـ ولله المثلُ الأعلىٰ ـ الله جَلَّ وَعَلَا له أسماءٌ تدلُّ علىٰ صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأسماءُ الله الحُسنىٰ بلغَت في الكمال والجمالِ مُنتهاه، فهي حُسنىٰ، وحُسنىٰ: مُؤنَّث أحسن؛ لأنَّ هناك كَلمتين: حَسنٌ وأحسنُ، أي: الشيءِ

يُوصفُ بالوصفِ العادي، ويوصفُ بالوصفِ الأفضلِ الأكملِ، فأسماءُ الله - تَعَالَى - ليست فقط حسنةً بل حُسنىٰ، أي لا أحسنَ منها، وأسماءُ الله تدلُّ علىٰ صفاتِه ﷻ، والمُسْلِمُ مطلوبٌ منه أن يعرفَ أسماءَ الله ﷻ، وأن يتعبَّدَ اللهَ بها، وأن لا يُسمِّيَ اللهَ بغير اسمٍ وردَ في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّك قد تُسمِّيه باسمٍ لا يكون من الأسماءِ الحُسنىٰ، فيكون الاسمُ يتضمَّن جانباً محموداً وجانباً مذموماً، فلا ينبغي لك أن تُسمِّيَ اللهَ إلا بما سمَّىٰ به نفسَه، وهذا إجماعٌ من العُلَمَاءِ، أجمعوا علىٰ أنه لا يجوز أن يُسمَّىٰ اللهُ بغيرِ ما وردَ في الكتابِ والسُّنَّةِ.

وخالفَت بعضُ الطوائف في أسماءَ مُفردةٍ، ولم يجعلوها أسماءَ للتعبُّد، وإنَّما للخبر، لكن أن يُطلَقَ علىٰ الله اسمٌ يُتعبَّدُ به فهذا مُجمَعٌ عليه بين العُلَمَاءِ أنه لا يجوزُ إلا بما يثبتُ في الكتاب والسُّنَّةِ، وأسماءُ الله توقيفيةٌ، والله قد أخبرنا عن أسمائه ﷻ، والقُرْآنُ الكريمُ مملوءٌ بأسماءِ الله - تَعَالَى -، أشهرُها: اسمُ الله. اللهُ هو اسمٌ علىٰ الذاتِ الإلهية، وجميعُ الأسماءِ الأُخرىٰ تأتي صفاتٌ لها كالرحمن الرحيمِ العفوِ القديرِ الكريم الجوادِ، كلُّها من أسماءِ الله ﷻ، لكنها تأتي صفاتٌ للاسم العَلَمِ الذي هو الله ﷻ، فأسماءُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلُّها حُسنىٰ، وينبغي للإنسان أن يتعلَّمها، وسيأتي في الحَدِيث: (إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة)[1]، وسيأتي معنىٰ الإحصاء، وهو علىٰ ثلاثِ مراتبَ: حفظَها، وفهمُ معانِيها، والعملُ بمقتضاها. هذا معنىٰ أحصَاها، ليس معنىٰ أحصاها أن يحفظَها عَدًّا، فإنَّ حفظَها عَدًّا جزءٌ من إحصائها، لكنَّ المرادَ بالإحصاءِ هو هذه المراتب الثلاث.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمراد محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهم.



الشرح

أحيانـًا العُلَمَاء يُفسِّرون أسماءَ الله عَزَّ وَجَلَّ، لكنَّ الكلمةَ التي تأتي مُفَسِّرةً لاسمِ الله ليست مُنطَبقةً على كلِّ المعنى، فمثلاً تقول: سبحان اللهِ، قال العُلَمَاءُ: أي تنزيهُ الله، لكن ما يجوزُ أن تقول في الركوعِ: تنزيهُ ربي العظيم، تقول: سبحان ربيَ العظيم؛ لأنَّ تنزيهَ شرحٌ لكلمةِ "سُبحانَ"، لكنها لا تُغني عنها، ولا تنطبقُ عليها كمالَ الانطباقِ.

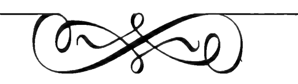
فالتفسيرُ لا يأتي إلا لتقريبِ المعنى، وتفسيرُ العَرَبيةِ وترجمتُها إلى لغاتٍ أُخرى على صورتين:

الأولى: الترجمةُ الحرفية، يأتي بالكلمة ويضع أمامها كلمةً، وهذه أسوءُ صورةٍ للترجمة؛ لأنَّ الكلماتِ في اللغات الأخرى لا تنطبق على كلماتِ العَرَبية تمامَ الانطباقِ، فيؤدى إلى خللٍ في فهمِ كثيرٍ من النَّاسِ للعربيةِ.

والثانيةُ: الترجمةُ أو التفسيرُ الإجماليُّ، وهذه هي الطريقةُ الصحيحةُ، أن تنقل معنى العبارةِ بأقربِ لفظٍ، أمَّا لفظٌ مقابلُ لفظٍ فلا يُمكن أن تنطبقَ جميعُ الألفاظ في أي لغةٍ على ما في لغةٍ أخرى تمامَ الانطباقِ؛ لهذا عندما تُرجِمت بعضُ الآيات إلى الإنجليزيةِ قالوا في قَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، ترجموها سبحان الذي أسرَى بخادِمِه، كم بين العبدِ والخادِمِ؟ شتَّان،وترجموا: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر:٤]: وبنطلونك فطَهِّر،

فالتفسيرُ الحرفي الكَلِمي أدىٰ إلىٰ نتائجَ خطيرةٍ، كذلك العَرَبيةُ عندما يأتي العُلَمَاءُ يُفسِّرون الألفاظَ بكلمات أُخرىٰ لا تنطبق عليها تمام الانطباقِ، إنما تُفسَّر الكلمةُ التي هي غريبةٌ علينا لم نسمعها إلا نادراً بكلمةٍ مألوفةٍ. وكما قلنا: إن مفرداتِ العَرَبيةِ تُقدَّر بملايين المفرداتِ، ومجموع ما نتحدَّث به في اليومِ والليلة ونخطبُ به لا يتعدّىٰ ألفي كلمةٍ، فلا تستطيع أن تفهم الكلماتِ الأخرىٰ إلا من خلال المفردات التي نتعامل بها، وإلا فلو فُسِّرت كلمةٌ غامضةٌ بكلمةٍ غامضةٍ لما عُرفَ المعنىٰ، ولكن هم مُضطَرون أن يُفسِّروا بالكلماتِ المألوفةِ، وأحياناً الكلمةُ المألوفة لا تنطبقُ تمام الانطباقِ علىٰ الكلمةِ المُفَسِّرةِ، وبخاصةٍ في أسماء الله ﷻ.

فالتفسيرُ لأسماء الله تقريبي، وليس مُنطبقاً تمامَ الانطباق، وكذلك التفسيرُ لكلامِ الله ﷻ، ولهذا العُلَمَاءُ مُجمِعون علىٰ أنه لا يجوزُ ترجمةُ القُرْآنِ، وإنَّما تُتَرجَمُ معاني القُرْآنِ فيُقال: ترجمةُ معاني القُرْآنِ، لا يُقال: ترجمةُ القُرْآنِ؛ لأنه ما يمكن أن يضعَ البشرُ ألفاظاً من لغةٍ أُخرىٰ تقابلُ ألفاظَ القُرْآن، هذا ما يمكن في العَرَبيةِ، وهي أوسعُ اللغاتِ، وأنضجُ اللغات، فكيف باللغاتِ الأُخرىٰ، والعُلَمَاءُ إنَّما أجازوا ترجمةَ معاني القُرْآنِ، أي أنَّك تُفسِّر القُرْآنَ بفهمِك، ثم تقول: هذا الذي فهمناه من القُرْآنِ. فالمترجَم فهمُنا، وليس كلامَ الله ﷻ. هذه القاعدةُ ينبغي أن تُفهَم في كلامِ اللهِ وأسمائه ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنىٰ وأبعده وأنزهه عن شائبة نقص، فله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العالم الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر، ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود دون الرفيق والشفيق والمشوق، وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف، وكذلك الكريم دون السخي، والخالِق البارئ المصور دون الصانع الفاعل المشكل، والعفو الغفور دون الصفوح الساتر، وكذلك سائر أسماء الله - تَعَالَى - يجري علىٰ نفسه أكملها وأحسنها، ولا يقوم غيره مقامه، فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات.



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في العَرَبية كلماتٌ معانيها متقاربةٌ، فقال في صفةِ إدراكِ الأشياءِ العليمِ الخبيرِ، فمن الصفاتِ التي تُطلَق علىٰ الله - تَعَالَى - أنه هو العليمُ الخبيرُ، لو قيل: العالمُ الفقيهُ ما يجوزُ، وإن كان المعنىٰ مُتقارِبًا، لكن هذا ليس في مقامِ العليمِ الخبير، وكذلك لو قيل في صفات الإحسانِ الرفيقِ الشفيقِ بدلاً من البَرِ الرحيم الودودِ التي هي أسماءُ الله ما يجوزُ؛ لأنَّ الرَّفيقَ الشفيقَ ليست بقوةِ الودودِ البرِّ الرحيمِ، البرُّ الرحيمُ الودودُ تَشعرُ فيها بعظمةٍ، لكنَ الرفيقَ أو الشفيقَ ليس في مستواها، قد يُفسرُ الاسمُ للتقريبِ، لكن لا يجوزُ أن يُقال: هذا هو المعنىٰ، بل هذا معنىٰ تقريبي.

فمثلاً إذا جاءك طفلٌ صغيرٌ وتكلَّمت أمامَه بقضيةٍ ثم أردت أن تُفهمَه يصعب عليك أن تُفهِمَه القضيةَ بكاملِها، إنما تُقرِّبُ له القضيةَ بحسبِ عقلِه، وهذا إنسانٌ، فما بالُك بالخالِقِ جَلَّ وَعَلَا رب العَالَمِينَ، لا مقارنة بين الخالِقِ والمخلوقِ، واسم الله أعظمُ من أن يُدرَك بكاملِه ويُحاطُ بجوانبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فهذا للتقريب وليس اسمًا مُنطبِقًا علىٰ اسمِ الله جَلَّ وَعَلَا.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

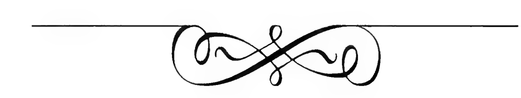
فلا نعدل عما سمىٰ به نفسه إلىٰ غيره، كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رَسُوْله ﷺ إلىٰ ما وصفه به المبطلون، ومن هنا يتبين لك خطأ من أطلق عليه اسم الصانع والفاعل والمربي ونحوها؛ لأن اللفظ الذي أطلقه سبحانه علىٰ نفسه وأخبر به عنها أتم من هذا، وأكمل وأجل شأنًا، فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها.

الشَّرح

الفلاسفةُ سمُّوا اللهَ: "الصانعُ والفاعلُ" وأحيانًا يقولون: "العِلةُ الأُولىٰ"، وواجبُ الوجود المُربِّي، الرَّبُّ في لغةِ العَرَب تُطلق علىٰ المُربِّي إلىٰ جانب إطلاقها علىٰ السيدِ والمُطاعِ، فتُطلق علىٰ المُربي، هل يُقال في حق الله: إنه مُربِّي؛ لأن من معاني الربِّ المُرَبِّي؟ لا، إنما هذا للتقريبِ، تُفسر أنَّ الله سمِّي رَبًا؛ لأنه يُربِّي عبادَه ويُراعيهم ويحفظُهم، كما أنه يُربِّي مخلوقاتِه بالحفظ والرعايةِ كالزراعةِ، فإنَّ الله هو الذي يتولىٰ رعايةَ الزراعةِ، وهو الذي يتولىٰ رعايةَ الأفلاك والكواكبِ والنجومِ، فالمزارعُ قُصارىٰ عملِه أن يقذف بالحبِّ في داخل التُربةِ، وينتهي دورُه، والذي يقوم علىٰ رعايتها هو الله ﷻ، ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام:٩٥]، حبةٌ مُغلقَةٌ تضعها في أعماقِ التراب، وينتهي دورُك، ويأتي دورُ ربِّ العَالَمِينَ، فإذا بها تنشطرُ ويخرجُ منها رأسٌ وذيلٌ، ذيلٌ إلىٰ أسفلَ، ورأسٌ إلىٰ أعلىٰ، الله الذي يرعاها، وإذا بها تُعاكس الجاذبيةَ، والجاذبية هي: اتجاهُ الأعلىٰ إلىٰ الأسفل، ما بال الشجرةِ تُعاكس الجاذبيةَ؟ النظامُ بيد اللهِ، هو الذي يضع النظامَ ﷻ، وهو الذي يَحكُمه، وليس النظامُ

يحكمُ ربَّ العَالَمِينَ.

فمن معاني الرَّبِّ أنه يُربِّي ويَرعىٰ ويحفظُ، لكن لا يجوز أن نقول: إنَّ الْمُربِّيَ اسمٌ لله، إنَّما كخبرٍ فهذا جائزٌ؛ لأنه كما سيأتي أن بابَ الخبرِ أوسعُ، فعندنا اسمٌ وصفةٌ، هذه تقوم علىٰ النَّقلِ والتَّوقيفِ، أمَّا الخبرُ فتُخبِر عنَ أفعال الله، لكن ما تعتقدها اسمًا لله، وما تتعاملُ معها علىٰ أنها أسماءٌ لله ﷻ، وإنما يجوزُ ذلك من بابِ الخبرِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

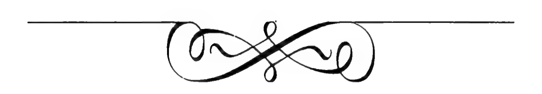
فيوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته كما قال تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج:١٦]، وبإرادة اليسر لا العسر كما قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وبإرادة الإحسان وتمام النِّعمة علىٰ عباده كقَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء:٢٧]، فإرادة التوبة له وإرادة الميل لمبتغي الشهوات.

الشَّـرح

يقول: إنَّ الله - تَعَالَى - ذكر الإرادةَ قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج:١٦]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧]، لكن لا يجوزُ أن نقول الله المريدُ قال: لأنَّ كلمةَ المُريدُ تأتي في الخيرِ وتأتي في الشرِّ، نفسُ الآيةِ تُوضِّح ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [النساء:٢٧]، فهنا إرادةٌ أُخرىٰ.

فالإرادةُ قد يكون بعضها خيراً وبعضها شراً، فلا يجوز أن يوصفَ الله بأنَّه المريد؛ لأنَّه جاء هذا الوصف مُقيداً، يريد بنا اليسرِ، نقول: إن الله يريدُ بنا اليسرَ، يُريدُ أن يتوبَ علينا، تأتي مُقيدةً، لا تأتي مُطلقةً، ولهذا لا يجوز أن يُطلَقَ ما قَيَّده القُرْآنُ، كما قال – تعالىٰ–، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥]، ما نقول: الله المُستهزِئُ، إنما نقول: الله يستهزِئُ بالمُنَافِقِينَ، يستهزِئ بالكافرين، يمكرُ بالكافرين ما نقول: الله الماكرُ؛ لأنَّ هذه جاءت مُقيدةً فلا يجوز أن تُطلِق،

وهكذا كل ما وُصِفَ اللهُ به مُقيَّداً لا يجوز أن يُطلَق؛ لأنَّ الوصفَ المُطلَقَ ينقسمُ إلىٰ: مَمدوحٍ ومذمومٍ، فالإطلاقُ يُؤدِّي إلىٰ أن يُوصفَ الله عَزَّوَجَلَّ بالمعنىٰ المذمومِ.



قال المؤلف رحمه الله:

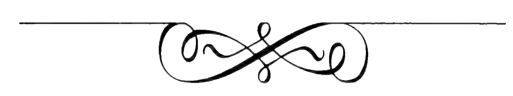
وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦]، وكذلك العليم الخبير أكمل من الفقيه العارف، والكريم الجواد أكمل من السخي، والرحيم أكمل من الشفيق، والخالِق البارئ المصور أكمل من الفاعل الصانع، ولهذا لم تجيء هذه في أسمائه الحسنى، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات، والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقًا لمعنى أسمائه وصفاته، وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته لها دون اللفظ، ولاسيما إذا كان مجملاً، أو منقسمًا، أو ما يمدح به، وغيره فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيداً، وهذا كلفظ الفاعل والصانع فإنه لا يُطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقًا مقيداً، كما أطلقه على نفسه كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج:١٦]، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧]، وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم، فلهذا المعنى ـ والله أعلم ـ لم يجيء في الأسماء الحسنى المريد، كما جاء فيها السميع البصير، ولا المتكلم الآمر الناهي لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها وشرف أنواعها، ومن هنا يُعلم غلط بعض المتأخرين وزلقه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسمًا مطلقًا، وأدخله في أسمائه الحسنى، فأشتق منها اسم الماكر والمخادع والفاتن والمضل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، انتهى ملخصًا من كلام الإمام ابنُ القيِّمِ.

الشَّرْح

قولُه: (وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ﴾ [المائدة:٦]) ورد أنَّ اللهَ فعَّالٌ، ويفعلُ، صُنعَ اللهِ، لكن ما يأتي مُطلقًا، ولهذا لا يجوزُ أن نقول: إنَّ اللهَ فاعلٌ، أو اللهُ صانعٌ، وإنما نذكرُه كما جاء مُقيداً، وهذا احترامٌ للخالقِ ﷻ لئلا نقع في اسم يترتَّب عليه معنىً مذمومٌ، فيلحقنا العقابُ، ويلحقنا الذمِّ من الله ﷻ.

قولـه: (فـإن اسـم الفاعـل والصـانع منقسـم المعنـىٰ...) وُجِـد في بعـضِ المُتأخرين من أرادَ أن يُكثرَ أسماءَ الله عن طريقِ الاستنباط فوقـعَ في المحظـورِ، فكلُّ ما وردَ في القُرْآنِ الكريمِ من الأسماءِ المُقيدةِ ذكرَها مُطلَقةً. وهـذا خطأٌ وجهلٌ، حتىٰ قيل: إنَّ بعضَ العُلَمَاء أوردَ قرابةَ ألف وخمسمائة اسم لله ﷻ، علىٰ هذا النمطِ، كلُّه استنباطٌ خَاطئٌ، وهذا ذمٌّ لله، وليس وصفًا له بالكمالِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقيل: فصل الخطاب في أسماء الله الحسنىٰ هل هي توقيفية أم لا؟ وحاصله أن ما يُطلق عليه من باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يُطلق من باب الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً، كالقديم والشيء الموجود والقائم بنفسه والصانع ونحو ذلك.

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] أي: اسألوه وتوسلوا إليه بها، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فإن ذلك من أقرب الوسائل وأحبها إليه، كما في المسند والترمذي: (ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام) والحَدِيث الآخر: (سمع النَّبِيّ ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطىٰ) رواه الترمذي وغيره.



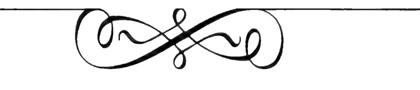
الشَّرح

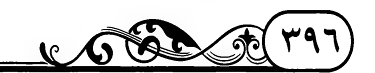
قوله: (**وقيل: فصل الخطاب في أسماء الله...**) هذه الأسماءُ ليست أسماءً مَحضةً، إنما هذا من بابِ الخبرِ، فيجوز من باب الخبرِ إطلاقُ هذه الألفاظِ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، لكن لا من بابِ التَّسميةِ، نقول: إنَّ اللهَ قديمٌ، إنَّ الله الصانعُ، ليس في هذا حرجٌ، أمَّا أن نتعبد لله بها كأن تقول: عبد الصانعِ. أو عبدُ القديم فلا يجوز.

قولُه: (**﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] أي: اسألوه وتوسلوا...**) هذا الحَدِيث يشير إلىٰ مسألة، وهي أنَّ لله اسماً أعظم، هل هذا صحيحٌ؟ الذي أميل إليه -

والله أعلمُ ـ أنه ليس لله اسمٌ أعظمُ، كلُّ أسماءِ الله عظيمةٌ، كلُّها حُسنىٰ، أيُّ اسمٍ من أسماء اللهِ ليس عظيماً؟! والأحاديثُ في هذا البابِ مُضطِربةٌ، ولهذا العُلَمَاءُ اضطربوا، منهم من يجعلُ اسمَ اللهِ الأعظمَ الحيَّ القيومَ، ومنهم من يجعل اسمَ اللهِ الأعظمَ الأحدَ الصمدَ، ومنهم من يجعل اسمَ اللهِ الأعظمَ الله، وهذا لاختلافِ الأحاديث، لهذا كلُّ أسماءِ الله عظيمةٌ، كلُّها حُسنىٰ، وكلُّها في غايةِ الجلالِ والجمالِ، والآثار في هذا لا تخلو من مقالٍ عند دراستها وتأمُّلِها، إن لم تكن أسانيدُها ضعيفةٌ فهي مُتضاربةٌ، ولهذا اختلفوا في تحديدِ اسمِ اللهِ الأعظمِ، أمَّا في قَوْلِه - تَعَالَى -: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل:٤٠] ليس معنىٰ هذا أنَ عنده الاسمُ الأعظمُ، هذا يبدو من خُرافاتِ الصُّوفيةِ أرادوا أن يُوهِموا النَّاسَ بأنَّ عندهم أسراراً، ومعرفةً بالاسم الأعظمِ عندما يَرون أحداثاً شيطانيةً، وفي الحقيقةِ أسماءُ الله كلُّها عظيمةٌ وجليلةٌ، الأحاديثُ الواردةُ في أسماء الله لا ترقىٰ إلىٰ درجةِ القبولِ، فإنه لا يوجد في الصَّحِيحَين شيءٌ منها، إنَّما كلُّها في السننِ أو في المسانيدِ.

فينبغي أن يُعادَ النظرُ في هذا الأمر؛ لأنَّ هذا فيه خطورةٌ أنك تفاضلُ بين أسماءِ الله ﷻ فتجعلَ اسماً عظيماً، واسماً غيرَ عظيمٍ، كلُ أسماء اللهِ عظيمةٌ، وكلُّها حُسنَىٰ، وكلُّها جليلةٌ وجميلةٌ، فلا ينبغي لنا أن نعتقد أنَّ أسماءَ الله بعضُها دون بعضٍ؛ لأنَّ الذاتَ الإلهيةَ واحدةٌ، والأسماءُ دالةٌ علىٰ الذاتِ الإلهيةِ، فليس هناك اسمٌ له مكانةٌ غير بقيةِ الأسماءِ، كلُّها لها مكانةٌ، وكلُّها عظيمةٌ، فينبغي أن نتأمل هذا.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وأعوذ بك ومنك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) حديث صحيح رواه مُسْلِم وغيره، ومنه: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم) رواه الترمذي بنحوه واللفظ لغيره.



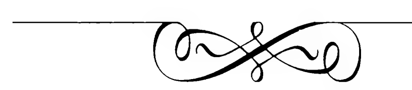
الشَّرح

هذا الحَدِيثُ الثاني له أيضـاً سببُ ورودٍ، وهو أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سمعَ هذا الشخصَ الذي يدعو فقال: **(لقد دعا الله باسمه الأعظم)**(١)، هناك يقول (دعا باسمِه الأعظم)، وهنا يقول (قد دعا باسمه الأعظم)، وترىٰ الأحاديثَ مُضطَربةً في هذا الباب، وقد أعرضَ صاحبَا الصَّحِيحَين عن روايةِ شيءٍ منها، ولم يَذكرا حديثاً واحداً يدلُّ علىٰ هذا، ولهذا يقولُ العُلَمَاء: كلُّ أصل ليس له أصلٍ في الصَّحِيحَين أو أحدِهما لا يخلُو من عِلَّةٍ، فإنَّ صَاحبي الصَّحِيحَين

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب خلق الله مائة رحمة، برقم: (٣٥٤٤)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، برقم: (١٤٩٣-١٤٩٥)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب النعوت، باب ذكر أسماء الله - تَعَالَىٰ -، برقم: (٧٦١٩)، (٧/ ١٢٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، برقم: (٣٨٥٧)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٣٠٤١)، (٣٨/ ١٤٩)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، برقم: (١٩٠٨)، (١/ ٦٨٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية، برقم: (٨٩١)، (٣/ ١٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، فصل في رفع الصوت بالقُرْآن إذا لم يتأذ به أصحابه، برقم: (٢٦٠٤)، (٢/ ٥٢٥). وصححه الحاكم علىٰ شرط مُسْلِم، ووافقه الذهبي، وحسنه الترمذي، وقال الألباني: صحيح.

أرادَا أن يذكَرا الدَّلائلَ علىٰ المسائلِ الشَّرعيةِ مما صحَّ، فإذا تركَا أصلاً ولم يذكرا فيه حديثًا دلَّ علىٰ أنهما لم يثبت عندهما حديثٌ في هذه المسألة، لكن لو ذكرا أحاديثَ صحيحةً في مسألةٍ وتركا غيرها لا يدلُّ علىٰ أنَّ المتروكَ ليس صحيحًا، إنَّما كانا ينتقيان، هذا مرادُ العُلَمَاء ليس كلُّ ما صحَّ أضعه في كتابي، أي: ليس كل ما صحَّ يُذكر في المسألةِ، لكنَّ المسألةَ التي لا يذكران فيها حديثًا يدلُّ علىٰ أنَّه لم يصح عندهما ولا عند أحدهما شيءٌ في هذه المسألةِ، وهذا الذي اعتمدَه حافظُ المغربِ ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: كلُّ حديثٍ أعرضَ عنه صاحبا الصَّحِيحَين ولم يذكراه في الأصول فإنه لا يخلُو من عِلَّةٍ؛ لأنهما استوعبا الأحاديثَ الصحيحةَ في مسألةٍ واحدةٍ.





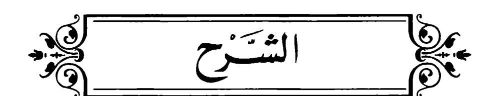
قال ابنُ القَيِّمِ: فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند السؤال!، واعلم أن الدعاء بها أحد مراتب إحصائها الذي قال فيه النَّبِيّ ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة) رواه البُخَارِيُ وغيره وهي ثلاث مراتب:

١) المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وأسمائها وعددها.

٢) المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

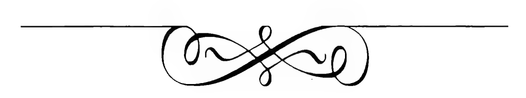
٣) المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما في الآية وهي نوعان:

١. دعاء ثناء وعبادة. ٢. ودعاء طلب ومسألة.



هذا جمعٌ بين الأقوالِ في معنى الإحصاءِ، ابنُ القَيِّمِ رحمه الله قال: الأقوالُ في الإحصاء كلُّها ترجعُ إلى معنى مُشترك؛ لأنَّ العُلَمَاءَ اختلفوا في معنى (من أحصاها): منهم من قال: من عدَّها وحفِظَها. ومنهم من قال: من فهِم معناها. ومنهم من قال: من دعا اللهَ بها. قال ابنُ القَيِّمِ رحمه الله: الصحيحُ أنَّ الإحصاءَ يشملُ المراتبَ الثلاثَ، فمن عدَّها وحفظَها وفهِمَ معناها وتقرَّب إلى الله بها فقد أحصاها مثلاً: شخصٌ مُذنبٌ يقول: اللهم يا غفورُ اغفر لي. ما يقول: يا جبارُ اغفر لي. أو يا منتقمُ اغفر لي؛ لأنه لا يليقُ، وما يذكرُ إلا الاسمَ الذي له علاقةٌ بالفعلِ، فيتعبَّد إلى اللهِ بالأسماء بحسبِ معانيها، هذا معنى أن يتعبَّد لله بها.

يقولُ أيضـاً: (الدُّعاءُ نوعان: دعاءُ مسألةٍ وعبادةٍ، ودعاءُ ثناءٍ)، دُعاء الثناءِ أن تُثنيَ علىٰ الله بأسمائه، كقولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢-٤] هذا ثناءٌ، ثم تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٥-٦]، هذا دعاءٌ، ولهذا يَحسنُ للدَّاعي أن يُثنيَ علىٰ الله قبل أن يدعوَ، ثم يَدعو بعد أن يُثنيَ علىٰ الله، كما في سورة الفاتحةِ، فآخرُها دعاءٌ وأولها ثناءٌ. فتُثنِي علىٰ الله قبل أن تدعوَه بحاجتك، وهذا من أدبِ الدُّعاءِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

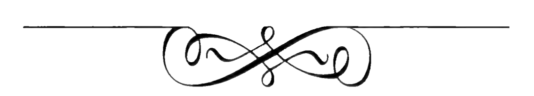
فلا يثني عليه إلا بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، وكذا لا يُسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود ويا شيء ويا ذات اغفر لي، بل يُسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

ومن تأمل أدعية الرسل لاسيما خاتمهم عليه وعليهم السلام وجدها مطابقة لهذا كما نقول: رب اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع العليم البصير، ولكن أسماؤه تعالىٰ منها ما يطلق عليه مفرداً، وهو غالب الأسماء كالقدير والسميع والبصير والحكيم، فهذا يسوغ أن يُدعىٰ به مفرداً ومقترناً بغيره، فتقول: يا عزيز يا حكيم يا قدير يا سميع يا بصير، وإن انفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه وبه يسوغ لك الإفراد والجمع، ومنها ما يطلق عليه مفرداً بل مقروناً بمقابله، كالمانع، والضار، والمنتقم، والمذل، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي، والنافع، والعفو، والعزيز، والمعز، فهو المعطي المانع الضار النافع المنتقم العفو المعز المذل؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذا بمقابله؛ لأنه يراد به أنه المتفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم إعطاءً ومنعاً ونفعاً وضراً وانتقاماً وإعزازاً وإذلالاً، فأما الثناء عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماء الممزوجة يجري الاسمان منها مجرىٰ الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه من بعض، ولذلك لم تجئ مفردة، ولم تُطلق عليه إلا مقترنة، فلو قلت: يا ضار يا مانع يا مذل لم تكن مثنياً عليه ولا حامداً له حتىٰ تذكر مقابلتها انتهىٰ ملخصاً من كلام ابنُ القَيِّمِ، وفيه بعض زيادة.

الشَّرْح

قوله: (ومنها ما يطلقُ عليه مفرداً) هنا حرفٌ ناقصٌ، والصوابُ: (منها ما لا)؛ لأنَّه تكلَّمَ في ما يجوز أن نُطلِقه علىٰ الله مُفرداً، وسيذكر ما لا يجوز أن يُطلقَ مفرداً، فالجملةُ: (ومنها ما لا يُطلق عليه مفرداً).

قوله: (فلا يثني عليه إلا بأسمائه الحسنىٰ...) هذه الأسماءُ بعضُها لا يصحُّ إطلاقُه علىٰ الله ﷻ أصلاً؛ لأنه لم يصح، كما سيأتي أنَّ الحَدِيث الذي ذكر هذه الأسماءَ ليس مرفوعًا بإجماعِ العُلَمَاء، ولكنه مُدرجٌ من أحد الرواة، والذي في الصَّحِيحَين أولُ الحَدِيثِ فقط: (إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة)[1]، وأمَّا ذكرُ الأسماء فليس في الصَّحِيحَين، وإنما جاء في كتب أخرىٰ من طرقٍ ثلاثٍ كلِّها مَعلولةٍ، في السننِ والمستدركِ وعند ابنِ حبَّان وغيرها، وكلُّها ضعيفةٌ، وأولُ الحَدِيثِ هو الصحيحُ، والحَدِيثُ الذي فيه سردُ الأسماء ضعيفٌ.

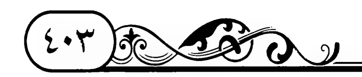


(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبه يظهر الجواب عما قد يرد على ما سبق ذكر الأسـماء الحسنى التي ورد عددها في الحَدِيث، لما كان إحصاء الأسـماء الحسنى والعمل بها أصلاً للعلم بكل معلوم، وكانت سعادة الـدُّنْيَا والآخِـرَةِ مرتبـة عليهـا، فمـا حصـل مـن آثارهـا للعباد هو الذي أوجب لهم دخول الجنة، ولهذا جاء الحَدِيث الصحيح المتفق عليه: (أن من أحصاها دخل الجنة) وذكرنا مراتب الإحصاء؛ لأن العبد محتاج، بل مضطر إلى معرفتها فوق كل ضرورة.

وقد قيل: إن الله ذكرها كلها في القُرْآن. ولا ريب أن الله - تَعَالَى - ذكر أكثرها بلفظها وما لم يذكره بلفظه ففي القُرْآن ما يدل عليه، قال شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قال رَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالِق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الولي المتعال البر التواب المنعم المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور).

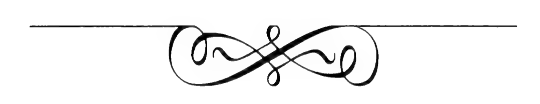




الشَّرح

كثيرٌ من النَّاسِ اعتمدَ علىٰ هذا الحَدِيث في ذكرِ أسماءِ اللهِ ﷻ، وهذا الحَدِيثُ -كما قلنا- الحفاظُ أنكروا رفع هذه الزيادةِ، ومن أوائل من أنكرَها البيهقي، ثم ابنُ تَيْمِيَةَ وابن كثير والحافظ ابن حجر رحمهم الله، قالوا: هذا مُدرجٌ، قال ابنُ كثير: والذي عَوَّلَ عليه جماعةٌ من الحُفاظِ أن سردَ الأسماءَ في هذا الحَدِيثِ مُدرجَ، وإنما ذلك كما رواه الوليد وعبد الملك إلىٰ أن قال: إنَّه بلغَه عن غيرِ واحدٍ من أهل العلمِ يقول: بَلَغَني.

فالحَدِيثُ الذي فيه ذكرُ هذه الأسماءِ مُدرَجٌ، ولا يجوزُ أن نعتمدَ علىٰ هذا الحَدِيثِ في ذكر هذه الأسماءِ، وكلُّ اسمٍ لم يَردِ في القُرْآنِ الكريمِ أو في السُّنَّةِ الصحيحةِ لا يجوزُ أن نتعبَّدَ اللهَ به ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الترمذي: هذا حديث غريب جداً، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحَدِيث، وقد رُوي هذا الحَدِيث من غير وجه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيّ ﷺ، لا نعلم في كبير شيء من الروايات ذكر الأسماء الحسنىٰ في هذا الحَدِيث، وقد روىٰ آدم عن أبي إياس هذا الحَدِيث بإسنادٍ غير هذا عن أبي هريرة عن النَّبِيّ ﷺ، وذكر فيه الأسماء، وليس له إسنادٌ صحيح.

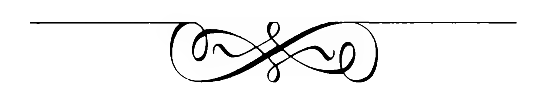
قلت: يشير إلىٰ عدد الأسماء سرداً، وإلا فصدر الحَدِيث متفق عليه، وقد خرَّجه بالعدد المذكور ابن المنذر وابن خزيمة في صحيحه وابن حبان والطبراني والحاكم في المستدرك وغيرهم به، ولم يذكروا فيه المعطي، وإسناده صحيح، ولكن المُغْتَرب منه ذِكرُ العدد، ورواه ابن ماجه من طريق عبد الملك بن الصنعاني عن زهير بن مُحَمَّد التميمي عن مُوسَىٰ بن عقبة عن الأعرج وساق الأسماء وخالف سياق الترمذي والترتيب والزيادة والنقص، فأما الزيادة فهي: البارئ الراشد البرهان الشديد الواقي القائم الحافظ الناظر السامع المعطي الأبد المنير التام القدير الوتر، وعبد الملك لينُ الحَدِيث، وزهير مختلف فيه، وحديث الوليد أصح إسناداً وأحسن سياقًا، وأجدر أن يكون مرفوعًا، ولهذا قال النووي: هو حديث حسن. قال بعضهم: والعلة في كونهما لم يخرجاه بذكر الأسامي تفرد الوليد بن مُسْلِم عالم الشاميين ثقة.



الشَّرح

قولُه: (**هذا حديث غريب جداً**) هذا كلام الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ.

قولُه: (**قال بعضهم: والعلة في كونهما...**) أي: السببُ في إعراضِ البُخَارِيِّ ومُسْلِمٍ عن إخراجِ هذا الحَدِيث أنه تفرَّدَ به الوليدُ بن مُسْلِم، وهذا من علماء الشام، لكن قال الوليدُ في طريقٍ أُخرىٰ فيما أخبرنا به بعضُ أهلِ العلم. أي: بيَّنَ مخرجَ الحَدِيثِ، هو ليس ضعيفاً، لكن بَيَّنَ أنَّ هذا مما حدَّثه به بعضُ أهلِ العلمِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد قيل: إن العدد المذكور مدرج، قال في الإرشاد ما معناه: ذكر جماعة من الحفاظ المحققين المتقنين أن سرد الأسماء في حديث أبي هريرة مدرج فيه، وأن جماعة من أهل العلم جمعوها من القُرْآن، كما روي ذلك عن جعفر بن مُحَمَّد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللُغوي.

وقال البيهقي: يحتمل أن يكون التفسير للأسماء وقع من بعض الرواة، ولهذا الاحتمال ترك الشيخان إخراج حديث الوليد في الصحيح، قال في البدر: والدليل علىٰ ذلك وجهان:

أحدهما: أن أصحاب الحَدِيث لم يذكروها.

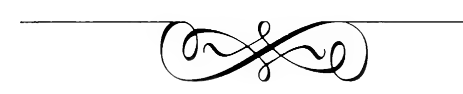
والثاني: أن فيها تغييراً بزيادة ونقصان، وذلك لا يليق بالمرتبة العليا النبوية.

كذا قال، وفيه نظر؛ فإن الزيادة والنقصان قد تكون من الرواة وإن كان الحَدِيث صحيحًا كما في غير ذلك من الأحاديث، وقد رواه الطبراني في الدعاء والحاكم وغيرهما فزادوا: (الرب الإله الحنان المنان البارئ)، وفي لفظ: (القائم الفرد)، وفي لفظ: (القادر) بدل (الفرد) و(المغيث الدائم الحميد)، وفي لفظ: (الجميل الصادق المولىٰ النصير القديم الوتر الفاطر العلام المليك الأكرم المدبر المالك الشاكر الرفيع ذو الطول المعارج ذو الفضل الخلاق)، ولا أظنه يثبت وإن كان بعض العدد صحيحًا.



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ العُلَمَاءَ يقولون: إنَّ من علامات عدمِ صحةِ هذا الحَدِيثِ اختلافُ الرواةِ في سرد الأسماءِ، فبعضهم يزيدُ أسماءً، وبعضهم يحذف أسماءً، وبعضُهم يضعُ أسماءً بَدلَ أسماءٍ، فقال: لو كان هذا من مِشكاةِ النُّبُوةِ ما وقعَ فيه هذا الخوضُ، أمَّا كونُ الرَّاوي يجزم بأنَّ هذا من أسماءِ الله، ويجزمُ راوٍ ثانٍ بأن هذا من أسماءِ الله، فهذا يدلُّ علىٰ التناقضِ، هذا والحَدِيثُ ليس مرفوعًا، وإنما هو مُجَمَّعٌ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعد جعفر بن مُحَمَّد منها: (المنعم المتفضل السريع)، وقال ابن حزم: جاءت في إحصائها أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً. ونُقل عنه أنه قال: صح عندي قريبًا من ثمانين اسمًا اشتمل عليها الكتاب والصحاح من الأخبار، فليطلب الباقي بطريق الاجتهاد. وقال القرطبي: في شرح الأسماء الحسنىٰ العجب من ابن حزم ذكر من الأسماء الحسنىٰ نيفًا وثمانين فقط، والله يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، ثم ساق ما ذكره ابن حزم، وفيه من الزيادة علىٰ ما تقدم: (الرب الإله الأعلىٰ الأكبر الأعز السيد السبوح الوتر المحسن الجميل الرفيق الدهر).

الشَّـرح

ابنُ حزمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شذَّ من بينِ جميعِ العُلَمَاءِ في وصفِ الله بأنَّه الدَّهر؛ لأنه قال: صحَّ الحَدِيثُ الذي جاء فيه: (يسبُّ ابنُ آدمَ الدهر، وأنا الدهرُ أُقلِّبُ الليل والنهار)(١) فجعل الدَّهرَ من أسماء الله. قال العُلَمَاء: لو كان الدَّهر من أسماء الله لما ذمَّ الله الذين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]؛ لأنَّهم بقولهم هذا أصابُوا، لكنَّ اللهَ ذَمَّهم، فدلَّ علىٰ أنَّ الدَّهرَ ليس من أسماءِ الله، والحَدِيثُ يُفسِّرُ بعضَه بعضًا (أنا الدهر أُقلِّبُ الليلَ والنهارَ) الدَّهرُ هو الليلُ والنهارُ، كيف أُقلِّبُ نَفسي، ولكنه قال: أنا الذي أُقلِّبُ الدَّهرَ، أنا الذي أتيتُ بالزمن فكونُك تسبُّ الزمنَ تسبُّ من أتىٰ به، أي: سبُّك يقعُ عليَّ؛ لأنَّ الزمنَ لا حقيقةَ له، بل أنا الذي أُقلِّبُ الليلَ والنهارَ، الزَّمان ليست له حقيقةٌ موجودةٌ، إنما هي حركةُ الأفلاك ينتجُ عنها الزمنُ.

---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد عدها الحافظ فزاد: (الخفي السريع الغالب العالم الحافظ المستعان)، وفي هذا نظر يُفهم مما تقدم، وإن كان قد ذكر بعضها فيما لا يثبت من الحَدِيث، فهذه خمسة وستون ومائة اسم، أقربها من جهة الإسناد سياق الترمذي، وما عدا ذلك ففيه أسماء صحيحة ثابتة، وفي بعضها توقف، وبعضها خطأ محض كالأبد والناظر والسامع والقائم والسريع، فهذه وإن ورد عدادها في بعض الأحاديث فلا يصح ذلك أصلاً، وكذلك الدهر والفعال والفالق والمخرج والعالم، مع أن هذه لم ترد في شيء من الأحاديث إلا حديث (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر)، وقد مضىٰ معناه وبيّنا خطأ ابن حزم في عده من الأسماء الحسنىٰ هناك.

واعلم أن الأسماء الحسنىٰ لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، فإن لله تعالىٰ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، ولا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.



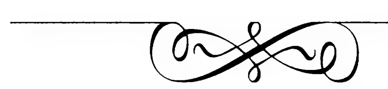
الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله - تَعَالَى - له أسماءٌ استأثر بعلمِها، وابنُ حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ خالف جمهورَ العُلَمَاءِ في معنىٰ حديثِ: (إن لله تسعًا وتسعين اسمًا)، وفي بعض الروايات الصحيحة: (مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة)[1]، قال ابن حزم: من زعم أنَّ لله اسماً غيرَ التسعة والتسعين فقد كفرَ. وجميعُ العُلَمَاءُ قد خالَفوا، فكلُّهم كفارٌ عنده؛ لأنهم قالوا: الحَدِيثُ لا يدلُّ علىٰ الحصر، بل يدلُّ علىٰ معنىٰ، وضَربُوا مثلاً، قالوا: لو قال إنسانٌ: عندي مائةٌ من الغنمِ أعددتُها

---

(١) سبق تخريجه.

للضيوفِ، هل يدلُّ علىٰ أنَّه ليس عندَه غيرها؟ قالوا: لا، هذه أَعدَّها للضيوفِ، وقد يكون عنده غيرها، عندي مائةُ درهمٍ أَعدَدتُها للفقراء، وهكذا.. فالعُلَمَاءُ قالوا: إنَّ الحَدِيثَ لا يدلُّ علىٰ الحصرِ، إنَّما يَدلُّ علىٰ المعنىٰ الذي سيقَ الحَدِيثُ من أجلِه، وهو أنَّ من أحصىٰ التسعةَ والتسعين دخلَ الجنَّةَ، لا أنَّه ليس لله اسمٌ غيرُها، مع أنَّ الأحاديثَ التي استشهد بها الجمهورُ ضعيفةٌ، ومنها هذا الحَدِيثُ، وليس هناك دليلٌ آخرُ عند الجمهورِ يَقوَىٰ علىٰ إثباتِ هذا المعنىٰ، وهذا الحَدِيثُ ضعيفٌ؛ لأنه من رِوايةِ عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعودٍ، وعبدُ الرحمن بن عبد الله بن مسعود ماتَ أبوه وعمرُه ستُّ سنواتٍ، قال العُلَمَاء: لم يسمع منه؛ لأنَّه لم يكن في سنِّ التَّحملِ لما مات أبوه، فدَلَّ علىٰ أنَّ الحَدِيثَ عن غيرِه، لكن أسقطَ الواسطةَ بينه وبين أبيه، فالحَدِيثُ ضعيفٌ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كما في الحَدِيث الصحيح: (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه وغيرهما.

قال ابنُ القَيِّمِ: فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمىٰ به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه. وقسم أنزل به كتابه وتعرف به إلىٰ عباده، وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولهذا قال: (استأثرت به) أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالمسمىٰ به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه، ومن هذا قوله ﷺ في حديث الشفاعة: (فيفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن)، وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته، ومنه قوله: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك).

وأما قوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة) فالكلام جملة واحدة. وقوله: (من أحصاها دخل الجنة) صفة لا خبر مستقبل، والمعنىٰ له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذه كقولك: لفلان ألف شاة أعدها للأضياف. فلا يدل علىٰ أنه لا يملك غيرها، وهذا لا خلاف بين العُلَمَاء فيه.

وقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]، أي: اتركوهم وأعرضوا عن مجادلتهم. قال ابنُ القَيِّمِ: والإلحاد في أسمائه هو العدول

بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة اللحد، ومنه اللحد، وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه اللحد في الدين المائل عن الحق إلىٰ الباطل، إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز، وتسميتهم الصنم إلها، وهذا إلحاد حقيقة، فهم عدلوا بأسمائه إلىٰ أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النَّصَارَىٰ له أبـًا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالىٰ عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليَهُود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: (يد الله مغلولة) وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء الحسنىٰ عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني. فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعًا ولغةً وفطرةً، وهو يقابل إلحاد المُشْرِكينَ، فإن أولئك أعطوا من أسمائه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوا كماله وجحدوها وعطلوها، وكلاهما ألحد في أسمائه ثم الجهمية وفروقهم متفاوتون في هذا الإلحاد فمنهم: الغالي والمتوسط والمتلوث، وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه، أو

وصفه به رَسُوْله ﷺ فقد ألحد في ذلك فليقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالىٰ الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً، فهذا الإلحاد في مقابله إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه وبرأ الله أتباع رَسُوْله، وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ولا معنىٰ بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وتنزيههم خاليًا من التعطيل لا كمن شبه كأنه يعبد صنمًا أو عطل حتىٰ كأنه لا يعبد إلا عدمًا، وأهل السُّنَّةِ وسط في النحل كما أن أهل الإسْلَام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠] وعيد وتهديد.

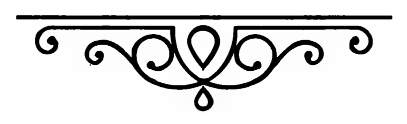
قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠] أي يشركون غيره في أسمائه كتسميتهم الصنم إلهًا، ويحتمل أن المراد الشِّرْك في العبادة؛ لأن أسماءه تعالىٰ تدل علىٰ التَّوْحِيد، فالإشراك بغيره إلحاد في معاني أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لاسيما مع الإقرار بها كما كانوا يقرون بالله ويعبدون غيره، فهذا الاسم وحده أعظم الأدلة علىٰ التَّوْحِيد، فمن عبد غيره فقد ألحد في هذا الاسم، وعلىٰ هذا بقية الأسماء، وهذا الأثر لم يروه ابن أبي حاتم عن ابن عباس إنما رواه عن قتادة، فاعلم ذلك.

قوله: (وعنه سمو اللات من الإله والعزىٰ من العزيز) هذا الأثر معطوف علىٰ سابقه أي رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وكذلك الأثر الثاني عن الأعمش معطوف علىٰ سابقه أي رواه ابن أبي حاتم عنه، والأعمش اسمه سليمان بن مهران أبو مُحَمَّد الكوفي الفقيه ثقة حافظ ورع، مات سنة ١٤٧، وكان مولده أول سنة ٦١.

قوله: (يدخلون فيها ما ليس منها) أي كتسمية النَّصَارَىٰ له أبـًا ونحوه كما سبق.



الشَّرْح (١)



(١) قام فضيلة الشيخ بالتعليق علىٰ هذا الجزء من المتن في الكلام السابق.



باب: لا يُقال السلام على الله

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما كان حقيقة لفظ الإسْلَام السلامة والبراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب فإذا قال المُسْلِم: السلام عليكم. فهو دعاء للمُسْلِم عليه، وطلب له أن يسلم من الشر كله، والله هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، وهو الغني له ما في السموات وما في الأرض، استحال أن يسلم عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل هو المُسْلِم على عباده كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩]، وقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات:١٨١]، وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، فهو السلام ومنه السلام، لا إله غيره ولا رب سواه.

الشَّرح

قوله: (**لما كان حقيقة لفظ الإسْلَام**) هنا خطأٌ في أول سطرٍ من المطبوع، صوابُه (السلامُ) وليس الإسْلَام؛ لأنَّ الموضوعَ موضوعَ السلامِ وليس موضوعَ الإسْلَامِ.

قولُه: (**باب لا يُقال السلام على الله**) هذا البابُ عقدَه المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبينَ نوعًا من أنواعِ الأدبِ مع الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الصَّحَابَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في أولِ الإسْلَامِ علَّمهم

النَّبيُّ ﷺ التحيةَ التي يقولها المُسْلِم إذا قابل أخاه، فإنَّ كلَّ المُجتمعات لها تحيةٌ يُحَيِّي بعضُهم بعضاً بها، فالمُسْلِمُ تحيتُه السلامُ، والسلامُ أملُ البشريةِ، هذا شعارُها، كان بعضُ غيرِ المُسْلِمين واقفاً في إحدىٰ السفارات، فلاحظ أنَّ كلَّ من دخل من المُسْلِمين قال: السلامُ عليكم. فسأل هذا الشخص ما معنىٰ السلامُ عليكم، فشرحوا له معناه بِلغتِه، وقالوا معناه السلامةُ والطُمأنينةُ والأمنُ، قال: عجيبٌ! المُسْلِمون يعرفون السلامَ؟ المُسْلِمون أصحابُ حربٍ وقتالٍ وأصحابُ إرهابٍ، قال: هذا عندكم؟ قال: نعم، شعارنا الذي يُطلِقُه المُسْلِمُ في كلِّ مكانٍ، عندما يقابل أخاه في الطريقِ عندما يدخل منزلَه، عندما يدخلُ إلىٰ أهلِه، وعندما يدخُل متجراً، عندما يدخل وظيفته شعارُه السلامُ. قال: فكان سبباً لإسلامِه، نحن أُمَّةُ السلام لسنا أُمَّةَ القتالِ، لكن عندما يوجد من يمنعُ عبادَ الله عن أن يعبُدوا ربَّهم يُشرَعُ الجهادُ، لا أنَّنا نبتدئُ قتالَ النَّاسِ، إنما نريد أن يكونَ الإنْسَانُ حُراً لا يُستعبَد إلا لله، والقتال شُرِعَ لفرضِ الحُرِّية التي مُنعَها الإنْسَانُ، مَن منعه؟ أخوه الإنْسَان ظلمَه واستعبدَه وقهره، وحالَ بينَه وبين أن يُحقِّقَ عبوديتَه لربِّه الذي خلقَه، فنحن نزيلُ الحواجزَ، ولا نُكْرِه النَّاسَ علىٰ أن يدخُلوا في الإسْلَام، بل نمنع أن يُكرَه النَّاس علىٰ دينٍ مُعينٍ، نعطيهم فرصةً أن يسمعوا الدِّينَ، ويسمعُوا الإسْلَامَ. فالسلامُ تحيةٌ يُطلِقُها المُسْلِمُ علىٰ أخيه.

الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم فهموا أنَّ السلامَ الذي هو تحيةٌ يُطلقُ علىٰ الله، فكانوا يقولون في صلاتهم: السلام علىٰ الله من عبادِه. فقال النَّبيُّ ﷺ: **(لا تقولوا: السلام علىٰ الله، فإن الله هو السلام)**[(١)] نحن نرجوه، ندعوه أن يُسلِّمنا، وأن ينشر

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد، برقم: (٨٣٥)، ومُسْلِم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، برقم: (٤٠٢)، (١/ ٣٠١)..

السلامَ بيننا، فإنَّ من أسماء الله السلامَ.

ولهذا شُرِع لنا أن نُثني على اللهِ، لا أن نُطلِق عليه ﷺ، نحن في حاجة إلى أن يُسَلِّمنا هو ﷻ، ولهذا جاء في أول سورةٍ في القُرْآنِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، الحمدُ ثناءٌ، المُسْلِمُ إذا دخل في الصلاةِ واقفاً يُثْنِي على اللهِ، وإذا جلس يستفتح بالثناءِ: (التحياتُ لله) كان الصَّحَابَةُ يُحيُّون اللهَ، فعلَّمَهم النَّبِيُّ ﷺ أنَّ التحياتِ كُلَّها له، فإن كلَّ ثناءٍ وكلِّ تعظيمٍ له ﷻ.

فنحن في حاجةٍ إلى أن يُعطيَنا اللهُ سبحانه وتعالى الأمانَ والسلامةَ والبراءةَ ونحو ذلك من معاني السَّلام، فلا يُقال: السَّلامُ على الله، هذه تحيةٌ شرعَها الله بيننا، أمَّا في حقِّ الله فنقول: التحياتُ لله، والصلواتُ والطيباتُ، كلُّها لله، السلامُ عليك أيُّها النَّبِيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاته، السلام عليك بكاف الخطابِ، هذا شُرِعَ في أولِ الإسْلَامِ، والنَّبِيُّ ﷺ كان حيَاً، وبقيَ كما هو، بعضُ الصَّحَابَة غَيَّرَ اللفظ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: السلامُ على النَّبِيِّ ورحمةُ الله وبركاته. ولم يقل: السلام عليك بكاف الخطاب، لكن ليس في الخطابِ حرجٌ؛ لأنَّ هذه اللفظةَ قيلت في حياته، فبقيت كما قِيلت، هذا من بابِ الحِكايةِ، لا من بابِ أنَّ الرَّسُوْلَ ﷺ يسمعُنا؛ لأنَّه ﷺ لم يكن يسمعُ في حياتِه من كان غائباً عنه، ولا يسمع أحداً وهو ميتٌ؛ إذ لو كان يسمعُ النَّاسَ وهو حيٌ لما وقعت في عهده مظالمٌ، ولا وقعت في عهدِه سرقاتٌ، ولا وقعَ في عهده شركٌ ولا كفرٌ؛ لأنه يسمع النَّاس، وكم كانت في حياته أشياءٌ لم يسمعها ﷺ ؟ قضيةُ الإفكِ واتهامُ عائشةَ رضي الله عنها بالزِّنا -وحاشاها- وبرأها الله ﷻ، ما سمعها النَّبِيُّ ﷺ وهو في المَدِينَة، وهذا الكلامُ في المَدِينَة، فالرَّسُوْلُ لم يسمع الغائبَ عنه وهو حيٌّ، فلا يسمعُ أحداً وهو ميتٍ من باب أولى، لكنَّ النَّاسَ الجهلةَ أصبغوا على الرَّسُوْل

ﷺ صفة الخالِقِ واعتقدوا أنه يسمعُ النَّاس، وهذا خطأٌ، الرَسُوْلُ ﷺ لا يسمع إلا ما أسمعَه اللهُ ﷻ في حياته، وبعد موته.

هل يسمع بعد الموتِ؟ هل يسمعُ التحية عند قبره أو لا يسمعُها؟ للعلماءِ قولان في المسألة، ويبدو لي أنَّ الرَسُوْلَ ﷺ شأنُه شأنُ سائرِ الأموات، فإن كان جميعُ الموتىٰ يسمعون فهو يسمع؛ لأن الموتَ حكمٌ عامٌ، أمَّا الرَسُوْلُ ﷺ فهو حيٌّ في قبره حياةً بَرزَخيةً، ليست حياةً دُنيَويةً كما يقول المُتَصَوِّفَةُ، يقولون: إنَّ الرَسُوْلَ حيٌّ في قبره حياةً كحياته في الدُّنْيَا، فهو مَسجونٌ؛ كما لو وضعنا الإِنْسَانَ في غُرفةٍ وأغلقنا عليه البابَ. فهذا ليس بمدحٍ، بل هذا ذمٌّ، فلو كان حيًا كحياتنا كان هذا ذمًّا له ﷺ، فهو مسجونٌ، بل هو حيٌّ حياةً أُخرىٰ، لا نُدرِكُ كُنهَهَا.

فالسلامُ تحيةُ المُسْلِمين فيما بينهم، وهذا شعارٌ المُسْلِم مع أخيه، أن يُؤَمنَه إذا قابلَه، ولا يجوز له أن يَخونَه ولا يُخوِّفَه، ولا ينتهك عَرضَه ولا مالَه ولا دَمه، إذا قال: السلامُ معناه إني قد أَمَّنتُك، فهذا شعارُ المُسْلِم يقوله في كلِّ مكانٍ، لو افترقا يقول: السلامُ عليكم. إذا أراد أن يخرج: السلامُ عليكم. إن دخلَ: السلامُ عليكم، وله في ذلك أجرٌ، كلَّما قال المُسْلِم هذه اللفظةَ له فيها عشرُ حسناتٍ، السلامُ عليكم: عشرٌ، ورحمةُ الله: عشرٌ، وبركاته: عشرٌ، وعلينا أن نقتصر علىٰ ما جاءت به السُّنَّةِ، ولا نزيد عليه كما يقول بعضهم: ورضاه ومرضاته، المشروعُ هو هذا، أي: لو زدت لا تعتقدَ أنها مشروعة، إنَّما المشروعُ هو هذه الكلمات الثلاثُ فقط.

فلا يُقال: السلامُ علىٰ الله من عبادِه، وسيأتي سببُ هذا الكلامِ في الحَدِيثِ الصحيحِ الآتي إن شاءَ الله تَعَالَىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في الصحيح عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا إذا كنا مع رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلاة قلنا: السلام علىٰ الله من عباده، السلام علىٰ فلان، فقال النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تقولوا السلام علىٰ الله، فإن الله هو السلام) الحَدِيث.

قوله: (في الصحيح) أي الصَّحِيحَين. قوله: (قلنا: السلام علىٰ الله) أي يقولون ذلك في التشهد الأخير كما هو مصرح به في بعض ألفاظ الحَدِيث: (كنا نقول قبل أن يفرض التشهد السلام علىٰ الله، فقال النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الله هو السلام ولكن قولوا: التحيات لله).

قوله: (فقال النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تقولوا: السلام علىٰ الله) أي والله أعلم لما تقدم، وكأن السلام اسمه كما يرشد إليه آخر الحَدِيث. قوله: (فإن الله هو السلام)، أنكر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التسليم علىٰ الله وأخبر أن ذلك عكس ما يجب له سبحانه، فإن كل سلام ورحمة له ومنه، فهو مالكها ومعطيها، وهو السلام، قال ابن الأنباري: أمرهم أن يعرفوه إلىٰ الخلق لحاجتهم إلىٰ السلامة.

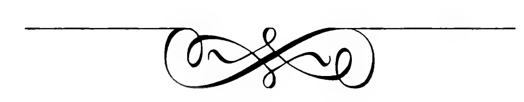


الشَّرْح

قوله: (في الصحيح عن ابن مسعود) هذا جزءٌ من حديثٍ وبقيَّتُه (ولكن قولوا: التحيات لله الصلوات الطيبات السلام عليك أيها النَّبِيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصَّالِحِينَ، فإذا قلتم ذلك أصاب هذا الدعاء كل عبد في السماء والأرض، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن مُحَمَّداً

عبده ورَسُوْله، ثم ليتخير من الدعاء ما شاء)[1]، هـذا هـو الحَدِيثُ، نهاهم عـن شيءٍ وعلَّمَهم البديلَ، فهذه اللفظةُ كان يقولها الصَّحَابَةُ جَهلاً؛ لأنهـم لا يـأتيهم الوحيُ. والتشريعُ نزلَ بأسبابه، ولم يأت الدِّينُ ولا التشريعُ دفعةً واحدةً، وإنما كان ينزل على مراحلَ، كلما أخطأَ صَحابيٌّ أو لم يعـرف الصَّـحابِيُّ علَّمـه النَّبِـيُّ ﷺ، وتعليمُـه لـه تعليمٌ لنـا، ولا يَـنقُصُ مـن قَـدرِ الصَّـحابِي أنَّـه لـم يعـرف مـن البدايةِ؛ لأنَّه لم يأته الوحيُ، وإنما يتعلَّم ما يُعلَّمُ. فكان الرَسُـوْلُ ﷺ كلَّمـا رأى خَطأً أو تقصيراً أو قصوراً علَّم أصحابَه ثم يكون هذا تشريعـًا للمُسْلِمين.

قولُـه: (أمـرهم أن يعرفـوه إلىٰ الخلـق) هنـا خطـأٌ في المطبـوع، وصـوابُه (أمرَهم أن يُضيفُوه إلىٰ الخلقِ) أي: يُضيفُوا السلامَ، أمرهم أن يضيفوه إلىٰ الخَلقِ، إلىٰ الله ﷻ.



(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد، برقم: (٨٣٥)، ومُسْلِم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، برقم: (٤٠٢)، (١/ ٣٠١).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال غيره: وهذا كله حماية منه ﷺ لجناب التَّوْحِيد حتىٰ يُعرف لله تعالىٰ ما يستحقه من الأسماء والصفات وأنواع العبادات.

قوله: (السلام علىٰ فلان وفلان) اختلف العُلَمَاء في معنىٰ السلام المطلوب عند التحية علىٰ قولين:

أحدهما: أن المعنىٰ اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله عَزَّوَجَلَّ، ومعنىٰ الكلام: نزلت بركة اسم السلام عليكم، وحُملت عليكم، فاختير في هذا المعنىٰ من أسمائه اسم السلام دون غيره، ويدل عليه قوله في آخر الحَدِيث.

قوله: (فإن الله هو السلام) فهذا صريح في كون السلام اسمًا من أسمائه، فإذا قال المُسْلِم: السلام عليكم. كان معناه اسم السلام عليكم يدل عليه ما رواه أبو داود (عن ابن عمر أن رجلاً سلم علىٰ النَّبِيّ ﷺ فلم يرد عليه حتىٰ استقبل الجدار ثم تيمم، ورد عليه وقال: إني كرهت أن أذكر الله إلا علىٰ طهر)، ففي هذا بيان أن السلام ذكر لله، وإنما يكون ذكراً إذا تضمنت اسمًا من أسمائه.

الشَّرح

يقول: العُلَمَاءُ اختلفوا في معنىٰ كلمةِ السلامِ التي في التحيةِ هل هي اسمُ السلامِ الذي هو من أسماءِ الله، أو لها معنىً آخرَ؟ العُلَمَاءُ ذكروا قولَين:

القولُ الأولُ: أنَّ هذا الحَدِيث يدلُّ علىٰ أن السلامَ في شعارنا وفي تحيتِنا هو اسمُ الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا قلت: السلامُ عليك فمعناه نزلَت بركةُ اسمِ الله عليك، يؤيدُه ما جاء في حديثٍ عن ابنِ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رَجلاً سلَّم علىٰ النَّبِيِّ ﷺ، والرَسُوْلُ ﷺ لم يكن علىٰ طُهرٍ، فلم يَرد عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتىٰ جاء وضرب الجدارَ بيديه وتيمَّم؛

لأنَّ الماءَ كان بعيداً عنه ﷺ، ثم ردَّ عليه السلام، وقال لذلك الرجل: (**كَرِهتُ أن أذكر الله إلا علىٰ طُهرٍ**)[1]، فالرَسُوْل ﷺ يذكرُ الله أي: يقول: وعليكمُ السلامَ علىٰ غيرِ طهرٍ، فالسلامُ هنا ذِكرٌ لله، لكن هذا الحَدِيثُ ضعيفٌ وردَ عن صَحابِيَّين، وكلا الطريقين فيهما مقالٌ، الحَدِيثُ الذي ذكره هنا بهذا اللفظِ في إسناده مُحَمَّدُ بن ثابت العبدي، هو ضعيفٌ جداً لا يُحتجُّ به. ولو صحَّ لما كان دليلاً صريحاً؛ لأنَّ الردَّ: وعليكم السلامُ ورحمةُ الله وبركاته، ففيه ذكرُ الله: السلامُ في الابتداء، وفي الرَّدِ زيادةٌ هي ذِكرُ الله، ليس فقط السلام.

الحَدِيثُ الثاني عن المهاجرِ بن قنفذ، وفي سنده ثلاثةِ مُدلِّسين كلُّهم ثقاتٌ، لكنَّهم مُدلِّسون، وقد رَووه بالعنعنةِ، الأول: سعيدُ بن أبي عروبة وهو مُدلِّسٌ، وقال في روايته: (عن)، والثاني: قتادة وهو مُدَلِّسٌ، وقال في روايته (عن)، والثالث: الحسنُ البَصريُ وهو مُدَلِّسٌ، وقال في روايته: (عن)، فهؤلاء الثلاثةُ عنعنوا الحَدِيثَ، ولو صحَّ هذا الحَدِيثَ لجازَ لنا أن نتيمَّم في كلِّ جِدارٍ، وهذا مذهبُ الأحنافِ، الأحنافِ يَرون أنَّه يجوز لك أن تَتَيمَّمَ علىٰ كل أرضٍ سواءٌ كانت صخراً أو كانت تراباً أو كانت بطحاءَ أو كانت خرسانةً ما دامَ أنه من الأرضِ، حتىٰ علىٰ غبارِ الفراش، وهذا لا شكَّ تَوسُّعٌ قد يُحتاجُ إليه الإِنْسَان إذا كان مُضطراً إليه ربما هذا يجوزُ له، لكن أن يتركَ الترابَ الذي هو

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه،كتاب الطهارة، باب كراهية الكلام عند الخلاء، برقم: (١٧)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٩٠٣٤)، (٣١/ ٣٨١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الطهارة، باب استحباب الطهر للذكر والقراءة، برقم: (٤٢٦)، (١/ ١٤٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب الطهارة، برقم: (٥٩٤)، (١/ ٢٥٨)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب قراءة القُرْآن، برقم: (٨٠٣)، (٣/ ٨٢)، وابن خزيمة في صحيحه، كتب الوضوء، باب استحباب الوضوء لذكر الله، برقم: (٢٠٦)، (١/ ١٠٣)، والطحاوي في شرح معاني الآثار، برقم: (٥١٠)، (١/ ٨٥)، وصحخه الحاكم علىٰ شرط الشيخين، قد صححه الشيخ الألباني.

صريحٌ وصحيح ثم يلجأ إلىٰ هذا فليس هناك دليلٌ صحيحٌ يدلُّ عليه، ولو صحَّ هذا الحَدِيثُ لكان حُجَّةً في هذه المسألة، لكنَّ الحَدِيثَ لم يَصح.

فبقي اللفظ الذي في آخر الحَدِيثِ: (فإن الله هو السلام)[1]، وقد وردَ في القُرْآنِ: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر:٢٣]، نقول: صحيحٌ أنَّ السلام من أسماء الله، ثبت ذلك بالقُرْآن والسُّنَّةِ، لكنَّ التَّحيةَ التي شرَعها الله لنا هل المرادُ بالسلام فيها هو اسمُ الله، أو المعنىٰ المأخوذُ من السلامة؟ هذا هو سبب الخلافِ، وتخريج القولِ الأول أنَّك تقول: بركةُ اسمِ الله عليك؛ لأنَّ أسماءَ الله مُباركةٌ، والمساجدُ مُباركةٌ، ونبيُّنا ﷺ مُباركٌ، ومن عملَ بِسنتَّه فإن سنَّته بَركةٌ، هذه بركةٌ لا ننكرها، بعض النَّاس يتصور عندما نُنكرُ التَّبركَ ببعض الأشخاص أننا ننكر البركَةَ، وليس بصحيحٍ، فالقُرْآنُ مُباركٌ، وأسماءُ الله مُباركةٌ، ونعتقد أنَّك إذا سمَّيت علىٰ شيء بسمِ اللهِ أنَّ البَركةَ تنزل فيه، النَّبِيُّ ﷺ مُباركٌ، دعاؤه مباركٌ، رِيقُه مُباركٌ، ملابسُه فيها بركةٌ، أي: كلُّ شيء في حياته فيه بَركةٌ؛ لأنَّه إنسانٌ مُفضَّلٌ مُصطفىً مُختارٌ طاهرٌ نظيفٌ، كان كلُّه ذِكرٌ لله، لكن من جاء بعده هل نتبرَّكُ به؟ هل نتبركُ بالعُلَمَاءِ والصَّالِحِينَ؟ لا شك أننا نتعقد أنَّ كلَّ مُؤمنٍ مُباركٌ إن شاء الله، ولكن من الذي يُدريك أنَّ هذا الإِنْسَانَ بعينه مُباركٌ؟، نحن لنا الظاهرُ، أمَّا الحقيقةُ فعند اللهِ - تَعَالَىٰ -.

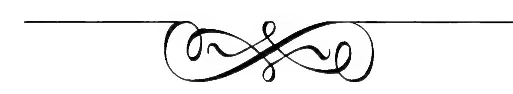
فنعتقدُ أنَّ كلَّ مُؤمنٍ مُباركٍ إن شاء الله، ولكن لا يجوزُ لنا أن نتبركَ بالأشخاص خشيةَ أن نقعَ في التقديس؛ لأنَّ من أسبابِ الشِّرْكِ تقديسَ الأشخاصِ، وهناك طائفتان تُقدِّسان الأشخاص في العصرِ الحاضرِ: الصُّوفيةُ يُقدِّسون مشايخَهم، والشِّيعةُ يُقدِّسون أئمتَهم ومشايخَهم، تقديسٌ فيه غُلُوٌّ،

---

(١) سبق تخريجه.

حتىٰ ذُكر أنَّهم قد يعطونهم حقَّ اللهِ، في كتاب: (الكافي) - والكافي من أهم كتب الشيعة مثل البُخَارِيُ عندنا - "بابُ أنَّ الأئمةَ يعلمون الغيب"، "باب أن الإمام لا يموت حتىٰ يخبره الله"، "باب أن الله لا يعمل عملاً حتىٰ يخبر الأئمة"، يستشيرُهم!، هذا في كُتبهم، ماذا بقي للخالقِ ﷻ إذا كان المخلوقُ يُشارِك الله في علمِ الغيب؟ فهذا المخلوقُ مثلُ الخالِق.

فلاشك أننا نُحبُّ الصَّالِحِينَ، ونتقرب إلىٰ الله بحبِّهم، لكننا حمايةً للتوحيد وحتىٰ لا يُزاحِمَ مكانَ الله في قلوبنا لا نعطيهم هذا الحقَّ، نحبُّهم ونجلُّهم ونحترمُهم ونقدرُهم، لكن نحرصُ علىٰ أن لا يُزاحمَ ذلك الله ﷻ، أي: مكانُ الله في القلبِ لا يزاحمُه مكانُ مخلوقٍ، ولا مكانَ رَسُوْلِ الله ﷺ؛ لأنَّ هذا ربُّ الجميع ربُّنا وربُّ مُحَمَّدٍ وربُّ الأنْبِيَاء خالقُنا وإلهنُا ﷻ كيف نرفع المخلوقَ الذي خلقَه إلىٰ درجته؟، المخلوقُ له مكانٌ خاص يليق به، والخالِقُ له مكان يليق به ﷻ، لا نشركُ مع الله خلقَه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثاني: أن السلام مصدر بمعنىٰ السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية؛ لأنه ينكر بلا ألف ولام، فيجوز أن يقول المُسْلِم: سلام عليكم، ولو كان اسمًا من أسمائه تعالىٰ لم يستعمل كذلك، بل كان يطلق عليه معرفًا كما يطلق علىٰ سائر أسمائه الحسنىٰ، فيُقال: السلام المؤمن المهيمن، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلىٰ معين فضلاً عن أن يصرفه إلىٰ الله وحده، بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعيينًا إذا ذُكرت أسماؤه الحسنىٰ، ويدل علىٰ ذلك عطف الرحمة والبركة عليه في قوله: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ ولأنه لو كان اسمًا من أسمائه تعالىٰ لم يستقم الكلام إلا بالإضمار، وذلك خلاف الأصل، ولا دليل عليه؛ ولأنه ليس المقصود من السلام هذا المعنىٰ، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء.


الشَّرح

هذا القولُ الثاني وهو أنَّ السلام مصدرٌ بمعنىٰ السلامة، سلَّمَ عليه سلامًا، **ورجَّحُوا هذا المعنى بأربعة مُرجَّحَاتٍ**:

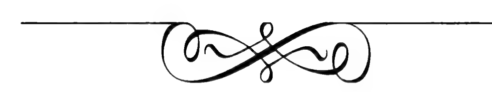
الأول: أنه يجوز أن يُنكَّرَ، تقول: سلامٌ عليكم، واسم الله لا يُنكر، تقول: الرحمنُ الرحيمُ. إذا قلت: الرحمنُ فهو الله، لو قلت: رحيمٌ. قد تريد بها الله، وقد تريد بها غيرَ الله، لكن لو قلت: الرحيمُ فلا ينطبقُ هذا إلا علىٰ الله. فكونه يجوز أن يُنكَّرَ يدلُّ علىٰ أنه ليس المرادُ به هنا اسمُ الله.

والثاني: جوازُ عطف الرَّحمة عليه، سلامٌ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته. فكلُّه دعاءٌ، فلما عُطف عليه دلَّ علىٰ أنَّ الاسم السابق هو دعاءٌ مثلُ الرحمةِ. فالسلام هنا بمعنىٰ الدُّعاءِ، وليس المعنىٰ أنه السلامُ الذي من أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الثالـث: أنَّ الأصـلَ في الألفـاظِ عـدمُ الإضـمارِ، أي: ألا تُقـدِّرَ كلامـًا محذوفًا، هـذا هـو الأصلُ، لكن إن لـم يُفهـم المعنىٰ إلا بـأن نُضمِرَ ضَـمرنا، والقولُ الأول يقتضي الإضمارَ، ولا حاجةَ إليه هنا، كأنك تقـول: اسمُ السلامِ عليك. فقدَّرت كلمةَ (اسم)، وفي الثاني لا تُقدِّرُ، والكلام الذي لـيس فيـه تقـديرٌ أرجح من أن يُقدر فيه؛ كما في هذا القول الثاني.

الوجهُ الرابع: أنَّ المرادَ بالسلام هـو الـدُّعاءُ أصـلاً، فأنـت تـدعو لأخيـك، وإذا قلت السلامُ بمعنىٰ اسم الله فليس فيه الدُّعاءُ.

فالقولُ الثاني هو الراجحُ والله أعلم، أي أنك عندما تقول: السـلامُ علـيكم تقصدُ به الدعاءَ لأخيك بأن الله ﷻ يُنزلُ عليه بركتَه، وكذلك يُبرِّئه مـن الـنقصِ ويُؤمِّنه من الخوفِ، فكلُّ هذه المعاني تقتضي أن يكون السـلامُ بمعنـىٰ الـدُّعاءِ، وهذا هو الراجحُ بكلمةِ (السلام) في التحيـةِ، لـيس المـرادُ إنكـارَ اسـمِ الله، إنمـا المُرادُ به معرفةُ المرادِ بالشعار الإسْلَامي الذي هـو السـلام، فإنَّـه دُعـاءٌ وتـأمينٌ للمُسْلِم عندما يُقابل أخاه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابنُ القيِّمِ: والصواب في مجموعهما ـ أي القولين ـ وذلك أن من دعا الله بأسمائه الحسنىٰ يسأل في كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتىٰ كأن الداعي مستشفع إليه متوسل به، فإذا قال: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم الغفور، فقد سأله أمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه، وهذا كثير جداً، وإذا ثبت هذا المقام لما كان طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتىٰ بلفظها بصيغة اسم من أسمائه تعالىٰ، وهو السلام، الذي تطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما ذكر الله - تَعَالَى - كما في حديث ابن عمر، والثاني: طلب السلامة وهو المقصود من المُسْلِم، فقد تضمن سلام عليكم اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه انتهىٰ ملخصاً.



الشَّرح

ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إنه لا مانع من إرادة المعنيين، لكن في الجمع بينهما تكلُّفٍ في الحقيقة؛ لأنه كيف تعتقدُ أنَّ السلام اسم الله، ثم تعتقدُ أنك دعوت له بالسلامةِ؟ ما يجتمعان، إما أنك تريدُ بالسلام اسمَ الله فيكون أنت تدعو بنزول البركةِ علىٰ أخيك، وإمَّا أنك تريدُ السلامة بمعنىٰ البراءة من كلِّ عيب ومن كلِّ نقص، وأن تؤمنه فلا يلحقه منك أذىٰ، فالاقتصار علىٰ أحد المعنيين لازم في تخريج معنىٰ هذه التحية.





باب: قول: اللهم اغفر لي إن شئت

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

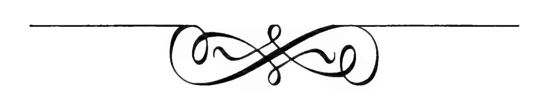
لما كان العبد لا غنىٰ له عن رحمة الله ومغفرته طرفة عين، بل فقير بالذات إلىٰ الغني بالذات كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] نُهِيَ عن قول ذلك لما فيه من إيهام الاستغناء عن مغفرة الله ورحمته كما سيأتي، وذلك مضاد للتوحيد.



هذا الباب أيضـًا في أدبِ السؤال، المُسْلِم الذي يعرِضُ حاجَته أمامَ الله عَزَّوَجَلَّ ينبغي أن يكون له أدبٌ، نرىٰ في حياة النَّاس الأدبَ إذا أرادوا أن يذهبوا إلىٰ مَلكٍ من ملوكِ البشرِ، مع أنهم ضِعافٌ فقراءُ بالذات، ما هنالك شخصٌ وُلد غنيـًا، بل الغنىٰ جاء بعد أن وُلِد وبعد أن كبُر، ما هناك إنسان وُلِد من بطنِ أُمِّه مَلكـًا، كلُّهم يُولدُون فقراءَ، ضعفاءُ، ثم يحدث لهم الغنىٰ والمُلكُ.

فهو فقيرٌ بالذات أي: أنَّ الشخصَ نفسَه فقيرٌ في حقيقته، إنَّما الغنىٰ إضافيٌّ، أمَّا ربُّ العـالَمِينَ غناه ذاتيٌّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعندما تعرض حاجتك أمامَ الله يجب أن تكون متأدبـًا، لو دخل إنسان عند الملك ودخل من الباب وسأل حاجتَه بغير

مُقدِّمةٍ لطردَه، ولله المثل الأعلىٰ، طريقةُ عرضِ المسألة علىٰ الله ينبغي أن تكون بأدبٍ، وأن يكون فيها ألفاظٌ تُؤكِّدُ رغبتَك الأكيدةَ في قضاء حاجتِك وتُؤكِّدُ يقينك في فقرِك إلىٰ الله، وفي أنَّك فقيرٌ مُحتاجٌ، فهذا البابُ عقده المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ ليُبين فيه أدب السؤال، أدب عرض الحاجة أمامَ الله عَزَّوَجَلَّ.

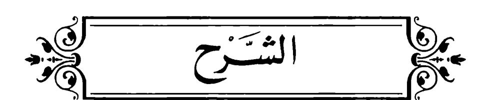


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(في الصحيح عن أبي هريرة أن رَسُوْل الله ﷺ قال: لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له)، ولمُسْلِم: (وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه).

قوله: (في الصحيح) أي الصَّحِيحَين.

قوله: (اللهم اغفر لي إن شئت) قال القرطبي: إنما نهىٰ الرَسُوْل ﷺ عن هذا القول؛ لأنه يدل علىٰ فتور الرغبة، وقلة الاهتمام بالمطلوب، وكأن هذا القول يتضمن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استُغني عنه، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء، وكان ذلك دليلاً علىٰ قلة معرفته بذنوبه وبرحمة ربه، وأيضـًا فإنه لا يكون موقنـًا بالإجابة.



الشَّرح

إذا قال العبد: اللهم اغفر لي إن شئت. يُفهم منها أحدُ معنيين:

المعنىٰ الأول: أنَّ الإنْسَان إن حصلت له المغفرةُ فحسنٌ، أو لم تحصل فلا بأس، مثلاً لو دخلَ إنسانٌ ـ ولله المثلُ الأعلىٰ ـ عند إنسانٍ صاحبِ مالٍ، وقال: أعطني حسنةً إن شئت. أي: لك أن تعطيني أو لا تعطيني، أي: كأنَّك تقول: حاجتي لم تصل إلىٰ درجةِ الإلحاح، وفي الحقيقةِ أنت محتاجٌ، فلابد أن تُلِحَّ في الدُّعاء، لا تَقل: إن شئتَ. إذ يُفهم منها الاستغناءُ لو لم يحصل.

والمعنىٰ الثاني: كأنَّك تقول: يا رب إنني لا أُكرِهُك، لا أُجبرُك علىٰ أنَّك تغفرُ لي. مَن يُكرِه الله؟. فهذا الأسلوبُ خطأٌ، ألِحَّ في الدَّعاء اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم عافِني، هذا معنىٰ: (ثم ليعزم الرغبة) بعض الأشخاصُ

يقول: يا رب أعطني ولداً واحداً فقط. كأنك تقول: يا رب ما أريدُ أن أُثقِل عليك!. الله كريمٌ، الله يقول: ـ كما في حديثِ أبي ذر، وهو حديث قدسي: **(لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا)**(١). ربُّ العَالَمِينَ كريمٌ، يقول بعضُ النَّاس: اللهم إني لا أسألك ردَّ القضاء ولكن أسألك اللطف فيه. لكنَّ القضاءَ الحدثَ والصورةَ مكتوبٌ عند الله، وهو قادر علىٰ أن يمنع عنك الحدثَ والصورةَ، فكأنك تقول: يا رب ما أحبُّ أن أُثقِلَ عليك!، أوقع القضاءَ عليَّ لكن اجعله لطيفًا عليَّ!، الله قد سجَّل وكتبَ القضاءَ حدثًا وصورةً، فأنت تطلبُ من الله أن يُغَيِّر علمَه فيك، هذا خطأٌ، لا تُفَصِّل في الدُّعاء، بل تدعو: اللهم اغفر لي، اللهم عافني، اللهم اكفني الشرور، لا تُفَصِّل مع ربِّ العَالَمِينَ، بل أنت تأدَّب في السؤال، بعضُ الأشخاص قد يجهلُ طريقةَ السؤال فيُحرَم بركةَ الإجابةِ؛ لأنه ما تأدَّب مع الله، الإنْسَانُ ما يدخل عند ملوك الدُّنْيَا إلا بعد أن يُدرَّبَ ويُعَلَّمَ كيف يخاطبُ، إذا كان هذا مع المخلوقِ فما بالك مع ربِّ العَالَمِينَ؟

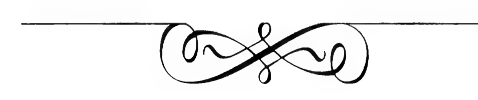
فينبغي للإنسانِ أن يتأدَّب مع الله، فنبينا ﷺ يعلِّمُنا الأدبَ مع الله، كيف نخاطبُ الله، كيف نعرض حاجاتنا أمام اللهِ ﷻ، فإن الرَسُوْلَ ﷺ بعثه الله - تَعَالَى - يُعلِّمُنا، فعلَّمك إذا دعوت اللهَ فألِحَّ في الدُّعاء، واطلب حاجتك، لا تقل: إنَّ هذا كثيرٌ، ليس هناك شيءٌ كثيرٌ علىٰ ربِّ العَالَمِينَ، الله غنيٌ كريمٌ، لكن لا تطلب حاجتك وأنت تخالفُ مُرادَه منك، لا تقل: اللهم اغفر لي. وأنت ـ مثلاً ـ تشربُ الخمر، هذه سخريةٌ، يفعل المعصيةَ ويُصرُّ عليها ويقول:

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صحيحه، كتاب البر والصلة ولآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧)، (٤/ ١٩٩٤).

اللهم اغفر لي، فيجبُ أن تستشعر أنَّك أخطأت في حقِّ الله، وتدعو الله وأنت مُنكسِرٌ.

فربُّ العَالَمِينَ كريمٌ لا يثقله شيءٌ، إذا كان آخر مَنْ يدخل الجنَّةَ بعد أن أخرجَه الله برحمته من النَّار، فيطلب والله يُذَكِّره،حتى يقول: يا رب أنت تسخرُ بي؟ هو ليس بمصدقٍ، فقال: إنني ربُّ العَالَمِينَ لا أسخرُ، لك مثل ما طلبت وعشرةُ أمثاله"، فلا ينبغي لك أن تشعر بأن هذا يثقل على ربِّ العَالَمِينَ، ادع الله بحاجتِك، ولكن تأدَّب في السؤال.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقـد قـال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (ادعـوا الله وأنـتم موقنـون بالإجابـة، واعلمـوا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل).

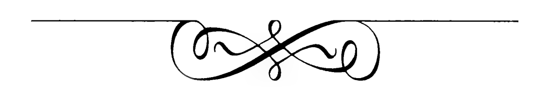
قوله: (ليعزم المسألة) قال القرطبي: أي ليجزم في طلبته ويحقق رغبته ويتيقن الإجابة، فإنه إذا فعل ذلك دل علىٰ علمه بعظيم ما يطلب من المغفرة والرحمة، وعلىٰ أنه مفتقر إلىٰ ما يطلب مضطر إليه، وقد وعد الله المضطر بالإجابة بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢].

قولـه: (فإنـه لا مكـره لـه) أي: فـإن الله لا مكـره لـه، هـذا لفـظ البُخَـارِيُ في الـدعوات، ولفـظ مُسْـلِم: (عـن أبـي هريـرة قـال: قـال رَسُـوْل الله ﷺ لا يقـولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهـم ارحمني إن شئت ليعـزم علىٰ المسألة في الدعاء فإن الله صانع ما شاء لا مكره لـه)، قـال القرطبي: هـذا إظهـار لعـدم فائـدة تقبل الاستغفار والرحمة بالمشيئة، كـأن الله - تَعَالَى - لا يضـطره إلىٰ فعـل شـيء دعاء ولا غيره، بل يفعل ما يريد، ويحكم ما يشاء، ولذلك قيـد لله تعـالىٰ الإجابـة بالمسألة في قوله: (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ)، فـلا معنىٰ لاشـتراط المشيئة بقيله.

الشَّرح

قولـه: (وقـد قـال ﷺ: (ادعـوا الله...)[1] هـذا الحَدِيثُ ضـعيفٌ، وهنـاك حديثٌ آخرَ مثلُه ضعيف، لكن المعنىٰ صحيحٌ؛ لأنَّ بعض الأحاديثِ قد لا يصحُّ سَنداً، ولكن معناه صحيحٌ.

قوله: (قوله: (ليعزم المسألة...) أي: إجابتُه ﷻ بمشيئته أصلاً، فلا دَاعيَ للتقييد في الدُّعاءِ، لا تقل: اللهم اغفر لي إن شئت؛. لأنه إن شاء غفرَ، وإن شاء أجابَ، وإن شاءَ أعطىٰ وإن شاء منعَ ﷻ، لا مانعَ لما أعطىٰ، ولا مُعطيَ لما منعَ.



(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب (٦٦)، برقم: (٣٤٧٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٦٦٥٥)، (١١/ ٢٣٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، برقم: (١٨٦٨)، (١/ ٦٧٦)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٥١٠٩)، (٥/ ٢١١)، قال الحاكم: "هذا حديث مستقيم الإسناد"، وحسنه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولمُسْلِم) أي من وجه آخر.

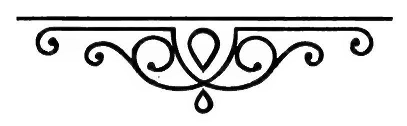
قوله: (وليعظم الرغبة) هو بالتشديد، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه، يُقال تعاظم زيد هذا الأمر، أي: كبر عليه وعسر.

قال: (الرغبة) أي: الطلبة والحاجة التي يريد، وقيل: السؤال والطلب تعظيم علىٰ هذا بالإلحاح، والأول أظهر، أي: لسعة جوده وكرمه لا يعظم عليه إعطاء شيء، بل جميع الموجودات في أمره يسير، وهو أكبر من ذلك، وهذا هو غاية المطالب، فالاقتصار علىٰ الداني في المسألة إساءة ظن بجوده وكرمه.



الشَّرح

أي: الإنْسَانُ عندما يطلبُ من الله ﷻ صغائرَ الأمورِ ويترُك عظامَها، كأنَّك تشكُّ في جُودِ الله، وفي كرمِه ﷻ، وهذا خطأ لاشك، فينبغي لك أن تطلبَ من الله حاجاتك كبيرُها وصغيرُها.





باب: لا يقول: عبدي وأمتي

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي لما في ذلك من الإيهام من المشاركة في الربوبية، فنُهي عن ذلك أدبًا مع جناب الربوبية وحماية لجناب التَّوْحِيد.

قال: (في الصحيح عن أبي هريرة أن رَسُوْل الله ﷺ قال: لا يقل أحدكم أطعم ربك وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي).



قوله: (أي لما في ذلك من الإيهام من...) كذلك هذا اللفظ، فإنَّ الإنْسَان قد يكون عندَه عبدٌ، وتكون عنده أمةٌ، فهل يجوز أن يقول: عبدي وأمتي؟ فالعبوديةُ خاصَّةٌ بالله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا من بابِ التأدُّب، فجاءت الأحاديثُ تنهىٰ عن أن يقولَ الإنْسَانُ لعبده: عبدِي، إنما يقول: فَتاي وفَتاتِي، وكذلك العبدُ لا يقول لسيدِه: رَبِّي. وإنما يقول: سيدي أو مولاي، وستأتي بعض الأحاديث تنهىٰ عن هذا، لكن فيها اضطراب.

قوله: (قال: (في الصحيح عن أبي هريرة...) هنا ينهىٰ أن يقولَ الإنْسَانُ

لعبدِه أو أمته: عبدي وأمتي. وأن يقول العبدُ لسيده: رَبي. وهذا أدبٌ في اللفظِ، لكن في الحقيقةِ أنه عبدٌ لفلان، وقد كانت العبوديةُ في الماضي من جراءِ القتال بين المُسْلِمين والكافرين، يقع فيها أسرىٰ في أيدي الطَّرفين فيُستعبَدون، وليس في الشرعِ مصدرٌ للرقِّ إلا مصدرٌ واحدٌ، وهو الحروبُ بين المُسْلِمين والكافرين، لكن لو اتفقَ المُسْلِمون والكافرون علىٰ أن لا يكون بينهم رِقٌّ، وإنَّما يتبادلون الأسرىٰ فليس في هذا حرجٌ؛ لأنه ليس واجباً أن نَسترقَّ، بل هو أمرٌ جائزٌ، وما دام الأمرُ جائزاً فلو اتفقوا علىٰ تبادلٍ للأسرىٰ بين الطرفين فهذا يجوزُ؛ لأنك كما أنك ستسترقُّ من يأتي منهم فإنهم سيسترقُّون إخوانَك، فأنت تدفعُ الرقَّ عن إخوانك بالتنازلِ عن الرقِّ لإخوانهم، لكن لو لم يكن هناك اتفاق لجازَ الاسترقاقُ. فليس هناك مَوردٌ آخرٌ للرقِّ إلا هذا، أمَّا الذين يَخطِفون النَّاس ويبيعونهم ويسرقونَهم كما كان يُفعل في الجاهليةِ القديمةِ والحَدِيثة فإن هذا مخالفٌ لشرعش الله.

فلا يقول الإنْسَانُ عبدي، بل يقول فتاي. ولا يقول العبدُ: ربي، بل يقول: سيدي ومولاي، لكن وردَ في كتاب الله ﷻ ـ كما في سورة يوسف ـ أنه قال: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢] وفي حديث أشراط الساعةِ **(أن تلد الأمة ربتها)**[١]، والعُلَمَاءُ لهم تخريجات في هذا، أمَّا فيما يتعلَّق بقصة يوسف عليه السلام فقالوا: هذا إنما كان في شرعِ من قبلنا، وشرع من قبلنا ليس تشريعاً لنا إلا إذا أقرَّه الإِسْلَامُ، فإذا نَهىٰ عنه نُسِخَ، فإخوةُ يوسفَ عليه السلام عندما دخلوا عليه سجدُوا، لكن لا يجوز لنا السجودُ تحيةً، الملائكة أمرَها الله أن تسجدَ لآدمَ،

---

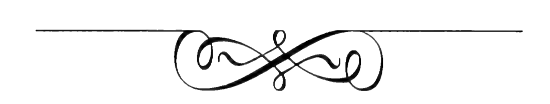
(١) أخرجه بهذا اللفظ مُسْلِم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإِسْلَام، برقم: (٩)، (١/ ٣٩)، وأخرجه البُخَارِيُّ في صحيحه، بلفظ: "إذا ولدت الأمة ربتها"، كتاب التفسير، باب قول الله - تَعَالَىٰ -: "إن الله عنده علم الساعة"، برقم: (٤٧٧٧).

كذلك هذا تعظيمٌ، لكن نهىٰ الرَسُوْلُ ﷺ عن السجودِ لغير الله ﷻ، وكذلك نهىٰ أن يقول الشخصُ: ربي. أو تقول المرأةُ: ربي.

بقي ما جاء في الحَدِيث، الحَدِيثُ إنما يذكر الحوادثَ المستقبليَّةَ أن هذا سيقع، لا أنه يُقرِّرُ هذا اللفظَ، يقول: إنه سيحدث ويقع هذا في المستقبلِ، لا أنَّه يُقرُّ أن يُقال: ربَّها أو رَبَّتها، إنما يُخبر كما أخبر أنه سيأتي في آخر الزمنِ استحلالُ الفُروجِ، واستحلال الخمورِ فهذا مجردُ إخبار وليس معنىٰ هذا الإباحةَ، إنما هذه أحداث ستأتي قبل قيامِ الساعةِ.

ووردت بعض الأحاديثِ تنهىٰ أن يقول الإنْسَانُ: مَولاي. وهو في صحيحِ مُسْلِم، لكن ذكر العُلَمَاءُ أنَّ رُواية مُسْلِم هذه مُضطربةٌ، وأن بعض الطرق ليس فيها ذكر مولاي، وهذا في الصَّحِيحَين، فيكون هذا مُقدَّماً علىٰ ما في صحيحِ مُسْلِم؛ لأنه لم يذكره الرواةَ كلَّهم عن الأعمش، بل اختلفوا في رواياتهم عن الأعمش، بعضهم ذكر (مولاي) وبعضُهم لم يذكرها، فيكون الراجحُ جوازَ أن يقول العبدُ: مولاي، أو تقول الأمةُ مَولاتي لسيدتِها.

أمَّا (السيدُ) بالألف واللام مثل: "السلام" من أسماء الله كما سيأتي في بعض الروايات.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (في الصحيح) أي الصَّحِيحَين.

قوله: (لا يقل أحدكم) هو بالجزم على النهي، والمراد أن يقول ذلك لمملوكه أو مملوك غيره، فالكل منهي عنه.

قوله: (أطعم ربك) بفتح الهمزة من الإطعام.

قوله: (وضئ ربك) أمر من الوضوء، وفيهما في هذا الحَدِيث زيادة (أسق ربك) وكأن المُؤَلِّفُ اقتصرها.

قال الخطابي: وسبب المنع أن الإنْسَان مربوب معبد بإخلاص التَّوْحِيد لله تعالىٰ، وترك الإشراك به، فترك المضاهاة بالاسم لئلا يدخل في معنىٰ الشِّرْك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد، وأما من لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يكره أن يُطلق ذلك عليه عند الإضافة كقوله: رب الدار والثوب.

قال ابن مفلح في الفروع: وظاهر النهي التحريم، وقد يحتمل أنه للكراهية. وجزم به غير واحد من العُلَمَاء. فإن قلت: قد قال الله - تَعَالَى - حكاية عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢]، وقال النَّبِيّ ﷺ في اشتراط الساعة: (أن تلد الأمة ربتها) فهذا يدل علىٰ الجواز.



الشَّرح

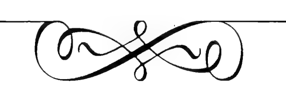
قوله: (قوله: (في الصحيح...) أي: لو قال إنسان: هل النهي عن ذكر الربِّ خاصٌ بالإنْسَان؟ قال العُلَمَاء: نعم، خاص بما كان مُتعبَّداً، أمَا الحيوانات فليست مُتعبَّدةٌ لله، والبيوتُ ليست متعبدَةً لله، فيجوزُ أن تقول: رَبُّ الدار، ربُّ الدَّابة، ربُّ الأرض، أمَّا الإنْسَانُ فمكلَّفٌ بالعبودية لله، فما يجوزُ أن تقول له:

رَبي أو ربُّ فلان. لكن يجوز في الجمادات وفي الحيوانات؛ لأنها ليست مُتعبَّدةً لله ﷻ.

قوله: (قال ابن مفلح في الفروع...) أحياناً تأتي أحاديثُ قد تُوهمُ بأنها تتعارض مع ما صحَّ؛ كما في هذه الآية والحَدِيثِ، وقد قلنا: إنَّ الآية ذكرت ما وقع في ديانةٍ سبقت، وليس كلُّ ما سبقَ في الأديانِ السابقةِ جائزٌ لنا.

يقول ابنُ مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الفروع) وهو من كتب الفقه الحنبلي، هل النهي للتحريمِ أو للكراهة؟ وهذه من مباحثِ الأصولِ، هل الأمرُ للوجوب أو للاستحبابِ؟ وهل النَّهي للكراهةِ أو للتَّحريم؟ الأصلُ في النَّهي أنه للتحريمِ حتىٰ يأتي ما يدلُّ علىٰ الكراهة، فلو أنَّ إنساناً قال لولده: لا تخرج، وخرجَ فهل هذا يدلُّ علىٰ أنه عصاه؟ نعم عصاه؛ لأن النَّهي للمنعِ، وهكذا كل نهيٍ للمنع، حتىٰ يأتي ما يدلُّ علىٰ الكراهةِ، بعض الفُقهاءِ توسَّعوا فجعلوا جميعَ الأوامرَ للندبِ والاستحباب، وهذا فيه خطورةٌ، وجميعُ التحريمِ للكراهةِ، وهذا كذلك فيه خطورةٌ كما مرَّ أنه جاءَ التحريمُ بالنهي عن الصلاةِ في المقابرِ فجعلوها للكراهةِ، بأي دليلٍ؟ قالوا: لأنها قد تكون فيها نجاسةٌ، هذا تعليلٌ للآيةِ وليس لهم دليلٌ يعول عليه كما ذكرنا ذلك في موضعِه، فالأصلُ في النهي التحريمُ، والأصلُ في الأمرِ الوجوبُ، فإذا نَهىٰ الرَّسُوْلُ ﷺ عن أمرَ وجبَ علينا أن نمتثلَ، إلا إذا جاء دليلٌ آخرَ يدلُّ علىٰ الكراهةِ.

فهذان الدليلان لا يدلان علىٰ الجوازِ؛ لأنَّ الآيةَ إنما هي في قصةُ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتشريعُ من سبقنا ليس تشريعاً لنا، والحَدِيثُ لم يذكره للإباحةِ، وإنما ذكره لبيانِ ما سيحدُث، وليس كلُّ ما سيحدثُ في المستقبل مما ذكر في الأحاديثِ يكون مباحاً،بل هو مجردُ إخبارٍ عمَّا سيقعُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قيل: فأما الآية ففيها جوابان: أحدهما: وهو الأظهر أن هذا جائز في شرع من قبلنا وقد ورد شرعنا بخلافه، والثاني: أنه ورد لبيان الجواز والنهي للأدب والتنزيه دون التحريم.

وأما الحَدِيث فليس من هذا الباب للتأنيث، والنهي عنه أن يقول ذلك للذكر لما فيه من إيهام المشاركة، وهو معدوم في الأنثىٰ، أو يُقال بحمله علىٰ الكراهة في الأنثىٰ أيضًا لورود الحَدِيث بذلك دون الذكر؛ لأنه لم يرد فيه إلا النهي، ويقال وهو أظهر: إن هذا ليس فيه إلا وصفها بذلك لا دعاؤها به وتسميتها به، وفرق بين الدعاء والتسمية وبين الوصف، كما تقول: زيد فاضل. فتصفه بذلك، ولا تسميه به ولا تدعوه به.

قوله: (وليقل: سيدي) قيل: إن الفرق بين الرب والسيد؛ لأن الرب من أسماء الله - تَعَالَى - اتفاقًا، واختلف في السيد هل هو من أسماء الله - تَعَالَى -، ولم يأت في القُرْآن أنه من أسماء الله، لكن في حديث عبد الله بن الشخير (السيد الله) وسيأتي، فإن قلنا: ليس من أسماء الله فالفرق واضح، إذ لا التباس. وإن قلنا: إنه من أسماء الله فليس في الشهرة والاستعمال كلفظ الرب، فيحصل الفرق، وأما من حيث اللغة فالسيد من السؤدد وهو التقدم، يُقال: ساد قومه إذا تقدمهم ولا شكر في تقديم السيد علىٰ غلامه، فلما حصل الافتراق جاز الإطلاق.

قلت: وحديث ابن الشخير لا ينفي إطلاق لفظ السيد علىٰ غير الله، بل المراد أن الله هو الأحق بهذا الاسم بأنواع العبارات، كما أن غيره لا يسمىٰ به.

ومولاي قال النووي: المولىٰ يطلق علىٰ ستة عشر معنىٰ، منها الناظر والمولىٰ والمالك، وحينئذ فلا بأس أن يقول: مولاي.

قال في الفروع: (ولا يقل: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله وإماء الله، ولا يقل العبد لسيده: ربي)، وفي مُسْلِم أيضًا: (ولا مولاي فمولاكم الله)، وظاهر النهي للتحريم، وقد يُحتمل أنه للكراهة، وجزم به غير واحد من العُلَمَاء كما في شرح مُسْلِم انتهىٰ كلامه. قلت: فظاهر رواية مُسْلِم معارضة لحديث الباب، وأجيب بأن مُسْلِمًا قد بيّن الاختلاف فيه عن الأعمش، وأن منهم من ذكر هذه الزيادة، ومنهم من حذفها.

قال عياض: وحذفها أصح، فظهر أن اللفظ الأول أرجح، وإنما صرنا للترجيح للتعارض بينهما، والجمع متعذر، والعلم بالتاريخ مفقود فلم يبق إلا الترجيح.

قلت: الجمع ممكن بحمل النهي علىٰ الكراهة أو علىٰ خلاف الأولىٰ.

قوله: (ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي)؛ لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله - تَعَالَى -؛ ولأن فيها تعظيمًا لا يليق بالمخلوق، وقد بيَن النَّبِيّ ﷺ العلة في ذلك، كما رواه أبو داود بإسناد صحيح (عن أبي هريرة مرفوعًا: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولا يقولن: المملوك ربي وربتي، وليقل المالك: فتاي وفتاتي، وليقل المملوك: سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون والرب الله عَزَّ وَجَلَّ)، ورواه أيضًا بإسناد صحيح موقوفًا فهذه علة له، وفي رواية لمُسْلِم: (لا يقولن أحدكم عبدي فإن كلكم عبيد الله)، قال في مصابيح الجامع: النهي إنما جاء متوجهًا إلىٰ السيد، إذ هو في مظنه الاستطالة. وأما قول الغير: هذا عبد زيد وهذه أمة خالد فجائز؛ لأنه يقول إخباراً أو تعريفًا، وليس في مظنة الاستطالة.

قلت: وهو حسن، وقد رويت أحاديث تدل علىٰ ذلك. وقال أبو جعفر النحاس: لا نعلم بين العُلَمَاء خلافًا أنه لا ينبغي لأحد أن يقول لأحد من المخلوقين: مولاي، ولا يقول: عبدك وعبدي وإن كان مملوكًا، وقد حظر رَسُوْل الله ﷺ علىٰ المملوكين، فكيف للأحرار؟.

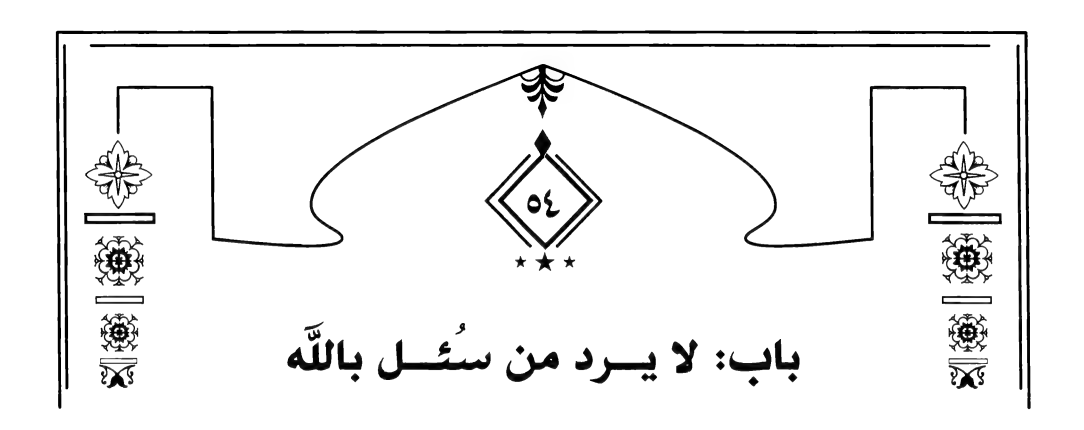
قوله: (وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي) أي لأنها ليست دالة علىٰ الملك كدلالة عبدي وأمتي، فأرشد عليه السلام إلىٰ ما يؤدي المعنىٰ من السلامة من الإيهام والتعاظم مع أنها تطلق علىٰ الحر والمملوك لكن إضافته تدل علىٰ الإخلاص.



الشَّرْح (١)



(١)قام فضيلة الشيخ بالتعليق علىٰ هذا الجزء من المتن في الكلام السابق.



باب: لا يرد من سُئل بالله

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي إعظامًا وإجلالاً لله تعالىٰ أن يسأل به في شيء ولا يجاب السائل إلىٰ سؤاله ومطلوبه، ولهذا أمر النَّبِيّ ﷺ بإبرار القسم، وتنازعوا هل هو أمر استحباب أو إيجاب، وظاهر كلام شيخ الإسْلَام التفريق بين أن يقصد إلزامه بالقسم فتجب إجابته، أو يقصد إكرامه فلا تجب عليه، ولهذا أوجب علىٰ المقسم في الأولىٰ الكفارة إذا لم يفعل المحلوف عليه دون الثانية؛ لأنه كالأمر، ولا يجب إذا كان للإكرام لأمر النَّبِيّ ﷺ أبا بكر بوقوفه في الصف ولم يقف؛ ولأن أبا بكر أقسم علىٰ النَّبِيّ ﷺ ليخبرنه بالصواب والخطأ لما فسر الرؤيا.



هذا البابُ عقدَه المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ استكمالاً لأنواع التَّوْحِيد. فإنَّ من التَّوْحِيدِ أن تُعظِّمَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، ومن كمال تعظيمِ الله أنَّه لو سُئلت به في مسألةٍ دُنيويةٍ فينبغي عليك أن تجيبَ السائلَ، هذا مفهوم البابِ، لكن هل هو واجبٌ أم مُستحبٌ؟ هذا فيه خلافٌ بين العُلَمَاءِ، وأكثرُ الأحاديث لم تصح في هذا الباب، لكن من تعظيم الله أنَّك إذا سُئلت به أن تجيبَ إن لم يلحق بك ضررٌ في هذه الإجابةِ.

يقـول رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولهـذا أمـرَ النَّبِـيُّ ﷺ بـإبرارِ القسـم) إبـرارُ القسـمِ وردَ فيـه أحاديثُ صحيحةٌ في الصَّحِيحَين، عن البراء بن عـازب رضي الله عنه قـال: (**أمرنـا رَسُـوْل الله ﷺ بسبعٍ ونهانا عـن سبعٍ، فـذكر عيادةَ المـريضِ واتبـاعِ الجنائزِ وتشـميتِ العاطسِ وردِّ السلامِ ونصرِ المظلوم وإجابة الـدَّاعي وإبـرارِ المقسـم**)[1]، فـإبرار القسمِ مما أمرَ به النَّبِيُّ ﷺ.

فالعُلَمَاءُ تنازعوا في حكمِ إبرارِ القسمِ، هل هو للوجوبِ أو للاستحبابِ؛ لأنه في الحَدِيث (أمرنا) فهل الأمرُ هنا للوجوبِ أم للاستحبابِ؟ وهذه من مسائلِ أصولِ الفِقهِ. فجمهورُ العُلَمَاءِ علىٰ أنَّ الأمرَ للوجوبِ، إذا أُمرت بأمرٍ فوجب عليك أن تطيع، لكن قد يأتي صارفٌ يصرفه إلىٰ الاستحبابِ، كما في هذا الأمر هنا، الأمرُ بإجابةِ السائلِ كما سيأتي في أحاديثَ أُخرىٰ قال العُلَمَاءُ: إنه للاستحبابِ، والقرينةُ الصارفةُ من المُوجبِ إلىٰ الاستحبابِ هنا أنه قُرِن بإفشاءِ السلامِ، وإفشاءُ السلامِ بإجماعِ العُلَمَاءِ مُستحبٌ وليس واجبـًا، وبِدءُ السلامِ مُستحبٌ وردُّه واجبٌ، كما في قَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء:٨٦]، "أو ردوها" هنا أصبحَ الردُّ واجبـًا، لكن البدءُ بالسلامِ مُستحبٌّ، ولما قُرن الأمرُ بإبرار القسمِ مع أمرٍ مُستحبٍّ دلَّ علىٰ أنَّ الأمرَ في إبرار القسمِ أيضـًا للاستحبابِ، فلو أن إنسانـًا أقسمَ عليك في فعلٍ فلم تفعل أنت لا تأثَم.

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، برقم: (٢٤٤٥)، ومُسْلِم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة علىٰ الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير علىٰ الرجل....، برقم (٢٠٦٦)، (٣/ ١٦٣٥).

وسيأتي من الحَدِيث الذي سيذكره الشَّارِحُ في رؤيا وقعت كما ذكر عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أن رجلاً أتىٰ رَسُوْل الله ﷺ فقال: إني رأيت الليلة) وكان كثيراً ما يقول النَّبِيُّ ﷺ هل رأىٰ أحدكُم رؤيا؟ وكان يُعبِّرها لهم بعد الفجر، (في المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرىٰ النَّاس يتكفَّفون منها) "يتكَفَّفُون": أي يأخذون بأكفِّهم، و"تَنطُف": أي تَتقَاطَر (فالمستكثر والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلىٰ السماء) سبَب: أي حبلٌ ممدودٌ (فأراك أخذت به السبب فعلوت) أي: ارتفعت (ثم أخذ به رجل آخر فعلا به ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثمَّ وصلَ) وكان في الحلقة أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (فقال أبوبكر: يا رَسُوْل الله، بأبي أنت والله لتدعنىٰ فأعبرها. فقال النَّبِيّ ﷺ: اعبرها). فعبرها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (قال: أمَّا الظلةُ فالإسْلَام، وأمَّا الذي ينطف من العسل والسمنُ فالقُرْآن، حلاوته تنطفُ فالمستكثر من القُرْآن، والمستقل، وأما السببُ الواصل من السماء إلىٰ الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيعليك الله ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذه رجل آخر فينقطع ثم يوصل له فيعلوبه) ثم قال: (فأخبرني يا رَسُوْل الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت. قال النَّبِيّ ﷺ: أصبت بعضًا، وأخطأت بعضًا، قال: فوالله يا رَسُوْل الله، لتحدثني بالذي أخطأت، قال: لا تقسم)(١)، فلو كان الإبرار واجبًا لأخبره ﷺ لكنه نهاه عن القسمِ، ثم لم يأمره بالكفارةِ، ولهذا العُلَمَاءُ اختلفوا فيمن أقسمَ علىٰ غيره بعملٍ فلم يفعله، فجمهور العُلَمَاءِ علىٰ أنَّه ليست عليه كفارةٌ، لو كانت علىٰ أبي بكرٍ كفارةٌ لأمرَه النَّبِيُّ ﷺ فإنه لا يؤخرُ البيانَ عن وقت الحاجةِ، وهنا الحاجةُ قائمةٌ.

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب التعبير، باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب، برقم: (٧٠٤٦).

جمهورُ العُلَمَاءِ الحنفية والمالكيةُ والحنابلةُ يقولون: ليست عليه كفارةٌ. أمَّا الشافعية فيوجِبون عليه الكفارةُ، وابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ يُفرِّق، يقول: القسم نوعان: قَسمٌ للإيجابِ بأن تفعل، وقسمٌ للإكرام. كيف صورتهما، مثلاً: شخص أقسم على ولدِه، أو على من تحت يده أن يفعلَ، هذا للوجوب، وشخص أقسم على إنسان أعلَى منه احتراماً له كما لو أتى شخصٌ إلى الباب ليدخل منه ووراءه من هو أفضل منه، فأراد أن يُكرِمَه بأن يدخل قبلَه، فأقسمَ عليه أن يدخلَ قبلَه فامتنع، هذا القسمُ ليس للوجوبِ، وإنما هو للإكرامِ.

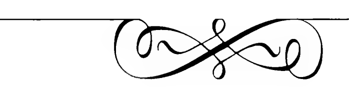
وصورته في الأمر ما جاء في الصَّحِيحَين **(أن رَسُوْل الله ﷺ ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليُصلح بينهم،فحانت الصلاة، فجاء المُؤذن إلى أبي بكر، فقال أتصلي للناس فأقيم؟ قال: نعم. فصلى أبو بكر رضي الله عنه، فجاء رَسُوْل الله ﷺ والنَّاس في الصلاةِ فتخلَّص حتى وقف في الصفِّ، فصفقَ النَّاس، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر النَّاس التصفيقَ التفت، فرأى رَسُوْلَ الله ﷺ، فأشار إليه رَسُوْل الله ﷺ أن أمكث مكانك فرفع أبو بكر يديه وحمد الله على ما أمرَه به رَسُوْل الله من ذلك، ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف، وتقدَّم رَسُوْل الله ﷺ فصلَّى، فلما انصرف قال: "يا أبا بكر ما منعك أن تثبت إذ أَمَرتك؟" قال: ما كان لابن أبي قحافة أن يُصلي بين يَدي رَسُوْل الله ﷺ."**[(١)]

فهنا أمرَه ﷺ لكنَّ الأمرَ هنا من بابِ التكريم، ومع أنه أمرُ الأعلى إلى الأدنى، ولكنه ليس أمرَ إيجابٍ، إنَّما أمرَ تكريمٍ.

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب الأذان، باب من دخل ليؤم النَّاس فجاء الإمام الأول فتأخر الأول أو لم يتأخر جازت صلاته، برقم (٦٨٤)، و مُسْلِم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تقديم الجماعة من يصلى بهم إذا تأخر الإمام ولم يخافوا مفسدة بالتقديم، برقم (٤٢١)، (١/ ٣١٦).

ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ يقول: من أقسمَ عليك قسمَ إيجابٍ فلم تفعل وجبَت عليه الكفَّارةُ، ومن أقسم عليك قسمَ تكريمُ فلم تفعل لم تجب عليه الكفارةُ. لكن العُلَمَاء قالوا: بأنه لم يأت حديثٌ صحيحٌ يدلُّ علىٰ أن هناك كفارةً في الأيمان التي لا يملِكها الشخص، وكذلك في الأيمان الكاذبةِ، فلو أنَّ الإنْسَان أقسم كاذباً أنه ما دخل المسجد، أو أنه دخل المسجد ولم يدخله، هل عليه كفارة ؟ عند المذاهب الثلاثة ليست عليه كفارة، أمَّا الشافعية توجبُ عليه الكفارة في كلِّ يمين لم تكن صحيحةً، أو لم تكن صادقةً، أو لم يقع المقسومُ عليه، وجمهورُ العُلَمَاءِ لا يُوجِبون عليه الكفارةَ. فابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ يُفرق بين أمرين: فالقسم إذا كان من بابِ التكريم لا يرىٰ علىٰ صاحبِه كفَّارة، وإذا كان من باب الإيجابِ يرىٰ عليه الكفَّارةَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فقال النَّبِيّ ﷺ: لا تقسم) كما في الصَّحِيحَين، قال: لأنه علم أنه لـم يقصـد الإقسام عليه مع المصلحة المقتضية للكتم.



الشَّرح

(الكَتمُ) هذه الرؤيا اختلف العُلَمَاء فيها على أقوال، ما هو الشيء الذي أخطأ فيه وكتمَه النَّبِيّ ﷺ؟

منهم من قال: إنه أخطأ في كونه طلبَ أن يُؤول الرُّؤيا في حضرةِ رَسُوْلِ الله ﷺ، وهـذا مـردود. فالحـافظ ابـن حجـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنـدما أورد الأقـوال، قـال: ولـم نرتض ما قالوه في الصدِّيقِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ الرَسُوْلَ أقرَّه، وأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لـم يتقـدم بـين يدي رَسُوْل الله إلا ليختبرَ علمَه.

ومنهم من قال: إن الذي أخطأ فيه هـو التفسير، فإنها تـدلُّ علىٰ الخلافـة، فلو أنَّ الرَسُوْلَ أجابَـه، وقـال: هـذه علىٰ الخلافةِ، أنـت بعـدي، وعمـر بعـدي، وعثمان يأتي فيفعلُ فيه كذا لكانت حدثت فتنةٌ قبل حدوثِ القَدر، فكانت المصلحةُ تقتضي عدمَ إجابته، فلهذا لم يجبْه، كما وقع في قضية عُكَّاشة عندما قال: ادع الله أن أكون منهم. فدعا له، ثم قام شخصٌ، وقال: يا رَسُوْل الله ادع الله أن أكـون مـنهم. قـال: (**سبقك بهـا عكَّاشـة**)[1]؛ لأنـه لـو فـتح البـاب لقـام المُنَافِقونَ فدعا لهم وهم لا يستَحِقُّون، فسدَّ البابَ من أولِه.

فهنا لم يُجِب ولم يُفَسِّر؛ لأنَّ المصلحة تقتضي عدمَ البيانِ، فإنَّ الرُّؤيا ـ والله أعلـم ـ شـكلها الظـاهري يـدُلُّ علىٰ الخلافـةِ التـي تتعلَّـق بالصـديقِ، والفاروقِ، وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بأنه سيحدث له في حياتِه أمرٌ.

---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: (عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رَسُوْل الله ﷺ: من استعاذ بـالله فأعيـذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفـًا فكـافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا لـه حتىٰ تـروا أنكـم قـد كافـأتموه) رواه أبـو داود والنسائي بسند صحيح.

الشَّرح

الأحاديثُ التي أوردَها المُؤَلِّفُ والشَّارِحُ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ في الحقيقة لا يخلـو حـديث منها من مقالٍ، قلنا إن الاستشهاد لا يصحُّ إلا بحديثٍ صحيحٍ، لكـن لعـلَّ كثـرةَ الأحاديثِ في هذا البابِ يُقَوِّي بعضَها بعضـًا، هذا الحَدِيثُ رجَالُـه ثقـاتٌ، لكـن فـيهم سـليمان بـن مهـران الأعمـش وهـو مـن الثقـاتِ، لكنـه مُـدلِّسٌ، فظـاهر الحَدِيث أنهم ثقات، لكنه لا يقول: حدثنا؛ لأنَّ نقلَ الحَدِيثِ لـه صِيغٌ، وكـلُّ صِيغةٍ لها دلالةٌ خاصةٌ عند العُلَمَاء، إذا قـال: "حـدَّثنا" فإنَّـه قـد سـمِع الحَدِيث بأذنِه، وإذا قـال: "عـن فـلان" فـلا يفيـدُ السماعَ، وهنـاك خـلافٌ بين البُخَـارِيُ ومُسْلِمٍ، البُخَارِيُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُوجِبُ أن يكون الـذي يـروي عـن شيخِه قـد لَقِيـه، فـإذا قال: عن، ولم يكن مُدلسـًا فإنها تدلُّ علىٰ السماع، ولكـن إن لـم يكـن لَقيَـه ثـم قـال: "عـن"، يُخشـىٰ أن يكـون فيـه تـدليسٌ، وأمَّـا مُسْـلِم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنـه يشـترطُ المُعاصرَة بينهما، ولا يشترطُ ثبوتَ اللقاء.

الأعمشُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُدَلِّس، أي: أنه يُسقط أحيانـًا بعـض الضعفاءِ ليكـون ظاهرَ الحَدِيثِ الصحةُ، فهو هنا روىٰ بالعَنعَنةِ، قـال: عـن فـلان، فـلا يعني أنَّـه سـمعه بأُذنه، يحتمل أنَّه سمعه ويحتمل أنه أخبره بـه شـخصٌ آخرَ، فالاحتمـال واردٌ، وإذا احتمـل تـدليسُ الـرَّاوي وكـان موسـومـًا بالتـدليسِ فـلا يكـون الحَـدِيثُ صحيحـًا، إلا إذا جاء من طريقٍ أُخرىٰ يقوي هذا الطريقَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (من استعاذ بالله فأعيذوه) أي: من سألكم أن تدفعوا عنه شركم أو شر غيركم بالله، كقوله: بالله عليك أن تدفع عني شر فلان أو شرِّك، أعوذ بالله من شرك أو شر فلان، ونحو ذلك، (فأعيذوه) أي: امنعوه مما استعاذ منه وكفوه عنه لتعظيم اسم الله - تَعَالَى -، ولهذا قالت الجونية للنبي ﷺ: أعوذ بالله منك. قال: (لقد عذت بمعاذ، الحقي بأهلك)، ولفظ أبي داود: (من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه).

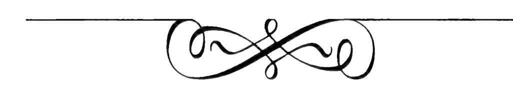


الشَّرح

هـذان الحَـدِيثان ذكرهمـا استشـهاداً علـىٰ قولـه، وحـديثُ الجونيـة في الصَّحِيحَين، هـذه امـرأةٌ زَوَّجهـا أبوهـا للنبـي ﷺ، فـاختلف العُلَمَـاءِ في سببِ قولِها هذا الكلام، ولـيس في الصَّحِيحَين التعليـلُ الـذي ذكِـر في السـنن وغيرهـا من الكتبِ، أن بعضَ زوجات النَّبِيِّ ﷺ أخذنها فخَضَّبنها وغَسَّلنها ومشَّطنها وهيأنَها، ثـم قلـن لهـا: إذا أردت أن يُحبَّك رَسُوْلُ الله فقـولي: أعـوذُ بـالله منك حتىٰ تحظَي بحبِّه، لمـا رأوا مـن جمالهـا، وهـذا مـن بـاب الغيـرةِ ـ إن صـحَّت الراوية ـ، مع أننا لا نصحِّحُها، لكن هكذا ذكرت في بعض كتبِ السُّنَّةِ، فعندما دخل بها النَّبِيّ ﷺ ومد يده إليها قالت: أعوذُ بالله منك. وكان النَّبِيّ ﷺ أعظمُ النَّاس تعظيمـاً لخالقـه، فهـي استعاذت بالخـالِقِ منـه، فكفـَّ يـده، وقـال: (لقـد عذت بعظيمٍ الحقي بأهلِك)[1].

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، برقم: (٥٢٥٤).

وشتَّان بينِ رَسُوْلِ الله ﷺ وسائرِ البشرِ، فهو ﷺ يقول: (والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له)(١)،قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، كفَّ يدَه عنها تعظيمـاً لخالقِه، وإلا فلو كان واحدٌ منا لأخذ يُعلِّمَها، أحسن ما يفعله أن يقول لها: ما يجوزُ أن تستعيذي بالله من زوجِك ولن يُجيبَها إلىٰ قولِها، لكن هذا الأدبُ النبويُ العظيمُ مع خالقِه ﷻ، فعندما قالت ذلك أمرَ أبا أُسيد أن يُعطيَها ثوبين، ثم قال: (ألحِقها بأهلها). قال العُلَمَاء: دلَّ هذا الحَدِيث علىٰ أن من استعاذ بالله من شخصٍ وجبَ عليه أن يُعيذَه، أي: من قال: إنني ألجأ إلىٰ الله أن تكفَّ شرَّك عني، أو إنني أحتمي بالله من شرِّكَ، فإن الاستعاذةَ احتماءٌ، إن قال: ألوذُ بالله وأَحتمِي به من شَرِّكَ، فوجب عليك أن تكفَّ عنه شرَّكَ، تعظيمـاً لله ﷻ، لكن لو استعاذ إنسانٌ من إنسانٍ في حقٍ واجبٍ عليه فقد اختلَف فيه العُلَمَاءُ، أما لو استعاذ به في أمرٍ ممكنِ الوقوع ولا يلحقُه منه ضررٌ وجب عليه أن يجيبَ تعظيمـاً لله سبحانه وتعالى.



(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، برقم: (٥٠٦٣)



قوله: (ومن سأل بالله فأعطوه)، وفي حديث ابن عباس عند أحمد وأبي داود: (ومن سألكم بوجه الله فأعطوه)، ومعناه ظاهر، وهو يقول: أسألك بالله أو بوجه الله ونحو ذلك أن تفعل أو تعطيني كذا، ويدخل في ذلك القسم عليه: بالله أن يفعل كذا، وظاهر الحَدِيث وجوب إعطائه ما سأل ما لم يسأل إثمـًا أو قطيعة رحم.

وقد جاء الوعيد علىٰ ذلك في عدة أحاديث، منها حديث أبي مُوسَىٰ مرفوعـًا: (ملعون من سئل بوجه الله وملعون من يُسأل بوجهه ثم منع سائله ما لم يسأل هجراً) رواه الطبراني، قال في تنبيه الغافلين: ورجال إسناده رجال الصحيح إلا شيخه يحيىٰ بن عثمان ابن صالح، والأكثر علىٰ توثيقه، فإن بلغ هذا الإسناد أو إسناد غيره مبلغـًا يحتج به كان ذلك من الكبائر.



قوله: (وفي حديث ابن عباس عند أحمد وأبي داود...) حديث ابن عباس هذا حديث ضعيف، فإن في سنده مجهولاً، وهو أبو نُهيك، فلا يُقبل في الاستشهادِ.

قوله: (وقد جاء الوعيد علىٰ ذلك في عدة...) أيضـًا هذا الحَدِيث تفرد به الطبراني، والطبراني رَحِمَهُ اللَّهُ له المعاجم الثلاثة، جمع في معجمه الكبيرِ من الأحاديثِ ما استنكرها عليه العُلَمَاءُ، حتىٰ أجاب عن ذلك وقال: نحن علينا أن نجمعَ، ومن يأتي بعدنا عليه أن يُحقِّقَ.

شيخُ الطبراني في هذا الحَدِيث تكلَّم فيه العُلَمَاءُ، منهم من وَثَّقَه، ومنهم من ضَعَّفه، وقد اختلفَ العُلَمَاءُ في التوثيقِ والتضعيفِ أَيُّهما المقدَّمُ، منهم من يقبلُ التوثيقَ مُطلقـًا، ومنهم من قال: يُقدِّمُ الجرحَ إذا كان مُفسِّراً، أما التضعيف

العام أي: فلان قال ضعيفٌ، وفلانٌ قال: ثِقةٌ، فيُقدَّم التوثيقُ، ومنهم من قال: بل الاعتبارُ للأكثريةِ، إن كان الأكثرُ علىٰ تضعيفه يكون ضعيفًا، وإن كان الأكثر علىٰ توثيقِه يكون ثِقةً.

لكنَّ الصحيحَ أنَّ الرُّواةَ علىٰ طبقتين: طبقةٌ اشتهرت عدالَتُها وعُرِفت، فمن جرحها لا يُقبلُ؛ لأنَّ الأصل أصبحَ التوثيق. وطبقةٌ مُختلفٌ فيها، لم يثبت عند العُلَمَاءِ أنهم ثقاتٌ ولا أنهم ضعافٌ، وإنما اختلف فيهم العُلَمَاءُ، فهذا يُرجحِ جانبِ التضعيفِ؛ لأنَّ الذي وثقَ لم ينكشف له شيءٌ يَجرحُه به، لكن الذي ضعَّف فعنده علمٌ زائدٌ، ما ضعَّفَه إلا لأنه قد أصبح عنده علمٌ زائدٌ علىٰ علم المُوثِّقِ، فيُقدَم الجارحُ علىٰ المُوثِّقِ. هذا هو المنهجُ الأحمدُ إن شاء الله؛ لأنَّ الواقفُ علىٰ الأحاديثِ الموجودة في كتبِ السُننِ يرىٰ العجبَ، لو أن النَّبِيَّ ﷺ منذ بُعِثَ حتىٰ مات ما توقَّف عن الكلام رُبَّما ما تكلَّم بهذه الكميةِ من الأحاديثِ، تصل في الطبراني وحدَه إلىٰ ستين ألفِ حديثٍ، ما كان الرَسُوْلُ ﷺ يكثر الكلامَ إلىٰ هذه الصورةِ، ولهذا نرىٰ الأحاديثَ بالآلاف، فكثرةُ الأحاديثِ للتساهلِ في روايتها، ولهذا الإمامُ مُسْلِم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمةِ الصحيح شدَّدَ علىٰ المُحدِّثين بكثرةِ الرِّوَايَةِ، فقال: بعضُهم هدفُه أن يُقال: روىٰ ألفَ حديثٍ، خمسمائةَ ألفِ حديثٍ، أربعين ألفَ حديث، مائتي ألف حديث، وليس هدفُه الانتقاءُ والتحقيقُ.

بعضُ النَّاس يرىٰ أن في ردِّ الحَدِيثِ خطورةٌ، والحقُّ أنَّ الرَّدَّ والقبولَ كلاهما خطرٌ؛ لأنك لو أخذت بالضعيفِ فإنَّك تفرض علىٰ النَّاس حديثًا ما صحَّ، وتُحمِّلُ النَّاس تشريعًا ما صحَّ في دينِ الله، فكذلك ينبغي للإنسانِ أن يَحرِص، وأن ينتقيَ، وأن يدرسَ فلا يقبل مُطلَقًا إلا إذا كان في الصَّحِيحَين، فما في هذين الكتابين قد تجاوزَ القَنطرةَ، إلا ما انتقد فيهما من أحاديثَ قليلةٍ يسيرةٍ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن أبي عبيدة مولىٰ رفاعة بن رافع مرفوعـًا: (ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله فمنع سائله) رواه الطبراني أيضـًا.

وعن ابن عباس مرفوعـًا: (ألا أخبركم بشر النَّاس رجل يُسأل بالله ولا يعطي) رواه الترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه.

(وعن أبي هريرة قال: قال رَسُوْل الله ﷺ: ألا أخبركم بشر البرية؟ قالوا: بلىٰ يا رَسُوْل الله، قال: الذي يُسأل بالله ولا يعطي) رواه أحمد.

إذا تبين هذا فهذه الأحاديث دالة علىٰ إجابة من سأل بالله، أو أقسم به، ولكن قال شيخ الإسْلَام: إنما تجب علىٰ معين، فلا تجب علىٰ سائل يقسم علىٰ النَّاس. وظاهر كلام الفقهاء أن ذلك مستحب كإبرار القسم، والأول أصح.



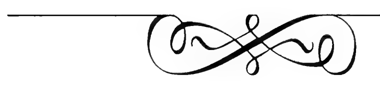
الشَّرح

قوله: (وعن أبي عبيدة مولىٰ رفاعة...) هذا حديث ضعيف؛ لأن فيه مجهولاً.

قوله: (وعن ابن عباس مرفوعـًا...) كذلك هذا فيه ابنُ لهيعةَ قاضي مصرَ، وهو قد احترقَت كُتُبه فحدَّث من حفظِه، فكثُرت أوهامُه فضعَّفه العُلَمَاء لذلك، وإلا فهو في نفسِه ثقةٌ، أي: ليس مجروحـًا في دينِه، ولكن الجرحُ في حفظِه رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (وعن أبي هريرة قال...) هذا فيه ابن وهب مولىٰ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مجهولٌ.

قوله: (**إذا تبين هذا فهذه الأحاديث دالة...**) ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ له تفصيلٌ، يقول: بعضُ هؤلاء الذين يسألون النَّاس، كلَّما مرَّ علىٰ إنسان قال: سألتك بالله إلا أن تُعطيَني، فقال: هذا لا يُعطىٰ ولا يُجابُ؛ بل هذا جعلَ السؤال بالله مهنةً. لكن لو حدثت قضيةٌ مُعينةٌ وشخصٌ أقسم بها وجبَ أن يُجاب، لكن جمهورُ العُلَمَاء علىٰ أنَّ الإجابة وإبرارَ القسم ليست واجبةً بل مُستحبَّةً، وقالوا: هذه الأشياءُ التي ذكرها في الحَدِيث كلُّها تُستحبُّ إجابةُ صاحبِها ولا تجبُّ عليه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ومن دعاكم فأجيبوه) أي: من دعاكم إلىٰ طعام فأجيبوه، فإن كانت وليمة عرس وتوفرت الشروط المبينة في كتب الفقه وجبت الإجابة، وإن كان لغيرها استحب إجابتها، وتجب مطلقًا، وهو الصحيح لظاهر الأحاديث، وهي لم تفرق بين وليمة العرس وغيرها، وإن كانت وليمة العرس آكد وأوجب.

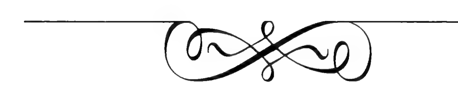
الشَّـرح

الوَليمةُ وردَ فيها أحاديثُ في الصَّحِيحَين، فوجوب إجابةِ الدَّاعي للوليمةِ ليس لهذه الأحاديثِ التي ذكرناها، بل يجبُ لأنَّه ورد الأمرُ بها في الصَّحِيحَين، فقد أمرَ النَّبِيُّ ﷺ بإجابةِ الدَّاعي، قال: **(من لم يجب الدعوة فقد عصىٰ الله ورَسُوْله)**[1]، اختلف العُلَمَاء هل المقصود بالوليمةِ الوليمةُ الخاصَّةُ بالزواج؟ فجمهورُ العُلَمَاء علىٰ أنَّ المرادَ بالوليمةِ هي الخاصةُ بالزواج، لكنَّ الأحاديثَ -كما قال الشَّارِحُ- لا تدلُّ علىٰ أنَّ المُرادَ بها الزواجُ فقط، بل كلُّ وَليمةٍ. فإذا دُعي الإنْسَان إلىٰ وليمةٍ عند أخيه تطييبًا لخاطرِه وجب عليه أن يجيب؛ لأن عدم الإجابة تُحمل علىٰ وجود كره، أو عدم رضىٰ في نفس الداعي، فهذه تبث النفرة بين النَّاس، فوجب عليه أن يجيب إلا إذا كان هناك عائقٌ، أو كانت في الوليمةِ معصيةٌ لا يستطيع منعها، كما هو الحالُ اليوم، أكثر الأعراسُ يكون فيها مُنكراتٌ -خاصة خارجُ هذه البلاد- باختلاط النساءِ بالرجالِ، وقد تُقدَّم فيها الخمور، وتأتي النِّساءُ فيها كاشفاتٌ مُتبرجَاتٌ، ويُوجدُ فيها الغناءُ الفاجرُ،

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلىٰ دعوة، برقم: (١٤٣٢)، (٢/ ١٠٥٤)، وأخرجه البُخَارِيُّ أيضًا بلفظ: "ومن ترك الدعوة"، كتاب النكاح، باب من ترك الدعوة فقد عصىٰ الله ورَسُوْله، برقم: (٥١٧٧).

ورقصُ النساءِ العاريات، في مثل هذا لا يجبُ عليه الحضور، بل يحرُم عليه، لكن لو لم يكن فيه مُنكرٌ لوجبَ عليه أن يجيبَ؛ لأنه قد جاء الأمرُ بإجابةِ الدَّعوةِ في الصَّحِيحَين وغيرهما، سواءٌ كانت وليمةَ زواجٍ أو غيره.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه) المعروف: اسم جامع للخير، وقوله: (فكافئوه) أي: على إحسانه بمثله، أو خير منه، وقد أشار شيخ الإسلام إلى مشروعية المكافأة؛ لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، فهو إذا أحسن إليه ولم يكافئه يبقى في قلبه نوع تأله لمن أحسن إليه، فشرع قطع ذلك بالمكافأة فهذا معنى كلامه. وقال غيره: إنما أمر بالمكافأة ليخلص القلب من إحسان الخلق ويتعلق بالحق. ولفظ أبي داود: (من أتى إليكم معروفًا).

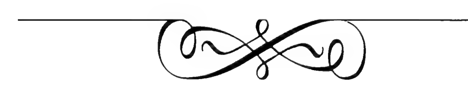


الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ لو أن إنسانًا صنع إليك معروفًا فأنت بين أمرين: إمَّا أن تكون قادراً على أن تُكافِئه بمعروفٍ مثلِه، فوجب عليك أن تُكافِئه، وإمَّا أن تكون عاجزاً فتدعو له وتُسمِعُه الدعاءَ، لماذا؟ ابنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ له ملحظٌ دقيقٌ، يقول: الذي يُحسنُ إلى النَّاس ولا يكافئه على إحسانِه يحدثُ في قلبِه نوعُ تألُّهٍ، أي: يحدثُ في قلبِه شيءٌ من معنى الرُّبوبية؛ لأنَّ الذي يُعطي ولا يحتاجُ إلى أن تُكافئه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فيحدثُ في قلبِه نوعُ تَأَلُّهٍ، فيريدُ أن يُخلِصَ. فأراد أن يقطعَ هذا الذي قد يحدث في قلبِ هذا المُعطي بأن تُحسنَ إليه بالدُّعاءِ إن عجزت عن مكافأتِه، هذا رأي ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

أمَّا غيرُ ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: لا، الموضوعُ لا يتعلَّق بمن فعل معروفًا أو صنعَ معروفًا إنما بالشخصِ الذي صُنع إليه، فإن الذي صُنعَ إليه يتعلَّق قلبُه

بمن أحسنَ إليه، فقد يُزاحمُ تعظيمَه تعظيمَ الله، لكـن عنـدما يـدعُو لـه، أو يـردُّ مكافأتَـه بمثلهـا يصـفو قلبُـه، ويَخلُـص لله ﷻ، ولا يكـون مُتعلِّقـًا بغيـرِ الله أو مُعظِّمـًا لغيـره في الإحسـانِ. هـذا تعليـلُ المكافـأة، ولا يخفـىٰ أنـه عنـد العُلَمَـاءِ التعليلُ اجتهادي وليس نصـًا قاطعـًا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فإن لم تجدوا ما تكافئوه) هكذا ثبت بحذف النون في خط المُصَنِّفُ، وهكذا هو في غيره من أصول الحَدِيث، قال الطيبي: سقطت من غير ناصب ولا جازم إما تخفيفـًا أو سهواً من النَّاسخ.

قوله: (فادعوا له) إلىٰ آخره، أي : من أحسن إليكم أي إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا فبالغوا في الدعاء له جهدكم حتىٰ تحصل المسألة، ووجه المبالغة أنه رأىٰ في نفسه تقصيراً في المجازاة لعدم القدرة عليها، فأحالها إلىٰ الله ونعم المجازي هو. وهذا الحَدِيث رواه أيضـًا أحمد بإسناد صحيح وابن حبان والحاكم وصححه النووي.

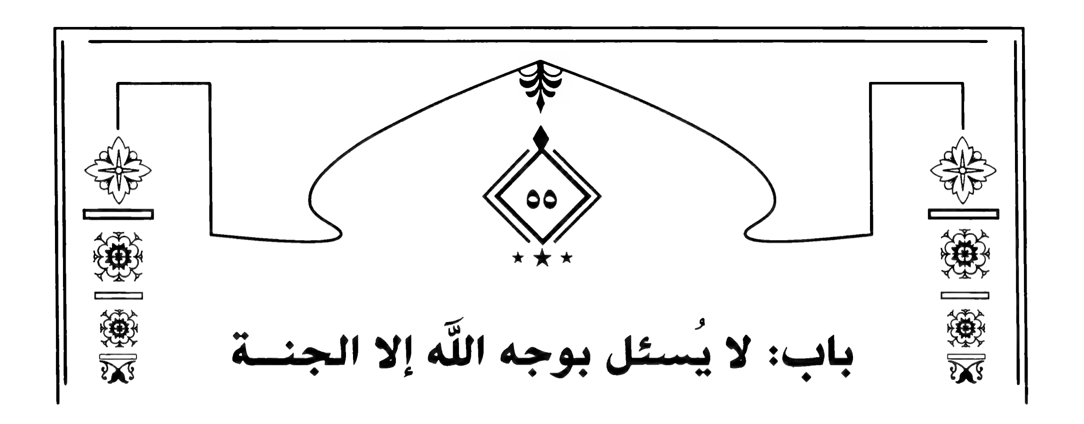
وقد روىٰ الترمذي وصححه النسائي وابن حبان عن أسامة بن زيد مرفوعـًا: (من صنع إليكم معروفـًا، فقال الفاعل: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء).

الشَّرح

قوله: (فإن لم تجدوا ما تكافئوه) الأصلُ أن يقول: فإن لم تجدوا ما تكافِئونه، علىٰ رفع الفعل بثبوت النون، لكنها سقطت هنا، وبالعودة إلىٰ كتب الأصول نجد أن النون ثابتة في بعض النسخ من سنن أبي داود، ولا توجد في نسخ أخرىٰ كما أنها لا توجد في رواية المسند، والصحيح لغةً أن تَثبتُ، فيقول: إن هذا ـ والله أعلم ـ سهوٌ من النَّاسخ؛ لأنه جاء في بعض النسخ (فإن لم تكافئوا به) كما ذكر هنا، قال: (تكافئوا به) فيبدو أن (به) هذه أصلُها (نه) فحرَّفها النَّاسخُ إلىٰ (به)، وإلا فالصحيحُ أن يقول: فإن لم تجدوا ما تكافئونه به، أمَّا إسقاطُ النون فيخالفُ قواعدَ العَرَبيةِ، فإن كان هذا من كلامِ رَسُوْل الله ﷺ يكون من بابِ التخفيف، ويكونُ وجهـًا للعربية، لكن إن كان من النُّسَّاخ فيكون خطأً نحويـًا في هذه الرِّوَايَة.

قوله: (من صنع إليكم معروفًا فقال...) هذا الحَدِيثُ سقط علىٰ المُحقِّقِ هنا ولم يذكره، وهو في الترمذي، وفيه سُعَيْر بن الخِمس، قال فيه العُلَمَاء: يُكتَبُ حديثُه ولا يُحتجُّ به، قالوا: إنه تُوفِّي وعندما وضِعَ في قبره تحرَّكت يدُه، فأعادوه وعاش بعد ذلك خمس عشرة عامًا، أي: لو دَفنُوه واستعجلوا في دفنِه لمات في قبرِه، ولكن من رحمةِ الله تحرَّك قبلَ أن يُدفَن، أي: عندما تَوقَّف قلبُه، ولم يبق له وعيٌ ولا إحساسٌ فهذا ظاهره الموتُ فظنُّوه مَيِّتًا، فسبحان الخالِقِ وبعد ثلاث أو أربع أو خمس ساعات، وربما أكثر يتحركُ من جديد، فهكذا قدَّر الله ﷻ، فهذا الحَدِيثُ من روايته، والعُلَمَاء قالوا: إنَّ حديثَه لا يُحتجُّ به، وإمَّا لأنه كثيرُ الأوهامِ أو لأيِ عِلَّةٍ أُخرىٰ والله أعلم.





باب: لا يُسئل بوجه اللّه إلا الجنــة

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي إعظامـًا وإجلالاً وإكرامـًا لوجه الله أن يُسأل به إلا غاية المطالب، وهذا من معاني قَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧].

قال: (عن جابر بن عبـد الله قـال: قـال رَسُـوْل الله ﷺ لا يُسـأل بوجـه الله إلا الجنة) رواه أبو داود أيضـًا.

قوله: (عن جابر) هو جابر بن عبد الله. قوله: (لا يُسأل بوجه الله إلا الجنـة)، روي بـالنفي والنهـي، وروي بالبنـاء للمجهـول وهـو الـذي في الأصـل، وروي بالخطـاب للمفـرد، وفيـه إثبـات الوجـه خلافـًا للجهميـة ونحـوهم، فـإنهم أوَّلـوا الوجه بالذات وهو باطل، إذ لا يسمىٰ ذات الشيء وحقيقتـه وجهـًا، فـلا يسـمىٰ الإِنْسَان وجهـًا، ولا تسمىٰ يده وجهـًا، ولا تسمىٰ رجله وجهـًا، والقول في الوجـه عند أهل السُّنَّةِ كالقول في بقية الصفات، فيثبتونه لله علىٰ ما يليق بجلاله وكبريائـه من غير كيف ولا تحديد، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل.

الشَّرح

وهذا بابٌ جديدٌ (بابُ لا يُسأل بوجه الله إلا الجنَّة) وهو استكمالٌ للباب السابق.

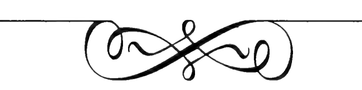
قوله: (**قال: عن جابر بن عبد الله قال...**) وهذا الحَدِيث ضعيفٌ، إذا كان أصلُ المسألةِ مُقرَّراً فالعُلَمَاءُ رحمهم الله يتسامَحون في روايةِ الضعيف الذي يُؤيدُ الأصلَ، فكأنهم يَرون أن هذه الأحاديثَ ضَعفُها لا يُؤثِّر ما دام الأصلُ مُقرَّراً، فهذا البابُ عقده ليتأدَّب المُسْلِمُ مع وجهِ الله، ومع السؤالِ بالله، فلا يسألُ به إلا أعظمَ المطالب، وهو الجنةُ، أمَّا سؤالُ حُطامِ الدُّنْيا بوجه الله فإن فيه تَنقُّصاً لمكانةِ الله سبحانه وتعالى.

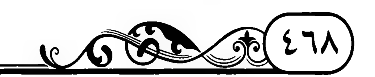
قوله: (**وفيه إثبات الوجه لله...**) هنا يتكلَّم رحمه الله عن إحدى صفاتِ الله عز وجل وهي الوَجهُ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد ذكرَ في كتابِه الكريمِ وجهَه، منها هذه الآية ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧]، فقال العُلَمَاءُ: هذه الآيةُ تُثبتُ أنَّ لله عز وجل وجهاً، لكن لا ينبغي لنا أن نَفهَم منها أن له وجهاً كوجهِ المخلوقِ؛ لأنَّ المخلوقَ غيرَ الخالِقِ، فوجهُ الخالِقِ ويدُه، وسمعُه، وبصرُه، وغضبُه، ورضاه عز وجل كلُّها تختلفُ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ونحن قلنا: إنَّ الأسماءَ والأفعالَ لها جانبان: جانبُ المعنىٰ، وجانبُ الكيفِ، فإذا أُطلقَ الاسمُ أو الفعل علىٰ المخلوقِ عرفنا المعنىٰ والكيفَ، لكن إذا أُطلق علىٰ الخالِقِ عرفنا المعنَىٰ، ولم نعرف الكَيفَ.

فالمعنىٰ والكيف في حقِّ المخلوقِ معروفان؛ لأننا نعرفُ المخلوق، لكن في حق الله نعرفُ المعنىٰ؛ لأنَّ اللفظَ عربي، وكلامُ العَرَب له معنىٰ، ليس في

كـلام العَـرَب لفـظٌ لا معنـىٰ لـه، لكـن المعنـىٰ الـذي في حـقِّ الخـالِقِ لـيس هـو المعنىٰ الـذي في حـقِّ المخلـوقِ، فشـتَّان بـين الخـالِقِ والمخلـوقِ!، فـالله ﷻ ليس مثلَ خلقِه لا في أسمائه، ولا في صفاتِه، ولا في أفعالِه. فنحن نثبت مـا صـحَّ فيـه الحَـدِيثُ، أمـا إذا جـاء ضـعيفـاً نـردُّه سـواء كـان في العقيـدةِ أو في الشـريعة، وحتىٰ في فضائلِ الأعمالِ لا نقولُ إلا ما صحَّ؛ لأنَّ الله تعهَّد بحفـظِ هـذا الـدِّينِ، فيستحيل أن يكون هناك حديثٌ من دينِ الله ولم يصح.

فكلُّ حـديثٍ لـم يصـح نـرده، ولا نقبلُـه، والعُلَمَـاء كتبـوه ليـأتي علمـاءٌ مـن بعدهم ويبحثوا عن طرقٍ أخرىٰ، فهذا من باب إثبـاتِ الأحاديـثِ وتركِهـا لمـن بعدهم من المُحقِّقين، وإلا فإنهم لم يذكروها للاستشهادِ، والعُلَمَاءُ المُحقِّقـون ردُّوا علىٰ من استشهدَ بالضعيف، وبعضهم يَردُّ من الناحيـةِ النظريـة، لكـن يقـع من الناحيةِ التطبيقية علىٰ خلافِ ما يقول، وإلا فإنَّ النووي رحمه الله يقـول: مـذهبُ المحقِّقـين عـدمُ الاستشـهاد بالضـعيف. لكـن نـأتي إلـىٰ: (المجمـوع)، أو إلـىٰ: (رِياضُ الصَّالِحِينَ)، فنراه رحمه الله يتسـاهلُ في أخـذِ الضـعيف، فالـذي يهمُّنـا نحـن تأصيلُه، وليس مخالفتُه لما أَصلَّ، وهذا هـو الصـحيحُ أن الضـعيفَ لا يستشـهدُ بـه، ربمـا يُـروىٰ مـن بـاب الاسـتئناسِ لا مـن بـابِ الاستشـهادِ؛ لأنَّ هـذا دِيـنٌ، والحكمُ علىٰ النَّاس بما لم يصح تشريعٌ لما لم يُشَرِعهُ الله ﷻ.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (إلا الجنة) كأن يقول: اللهم إني أسألك بوجهك الكريم أن تدخلني الجنة، وقيل: المراد لا تسألوا من النَّاس شيئًا بوجه الله، كأن يقول: أعطني شيئًا بوجه الله. فإن الله أعظم من أن يُسأل به شيء من الحطام.

قلت: والظاهر أن كلا المعنيين صحيح.

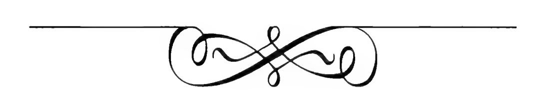
قال الحافظ العراقي: وذكر الجنة إنما هو للتنبيه به على الأمور العظام، لا للتخصيص، فلا يُسأل بوجهه في الأمور الدنيئة، بخلاف الأمور العظام تحصيلاً أو دفعًا، كما يشير إليه استعاذة النَّبِيّ ﷺ به.



الشَّرح

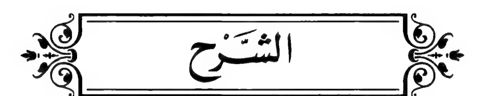
الرَّاوي السابق سُعير بن الخمس قال أبو حاتم: يُكتب حديثُه، ولا يُحتجُ به. لكن روى له مُسْلِمٌ، فكيف نُضَعِّفُ رُواةُ الصَّحِيحَين؟ مرَّ تحقيق لابن عبدالهادي وقد أورده عنه أيضًا الزيلعي في (نَصبِ الرَّاية) وأكدَّه، يقول: إنَّ أصحاب الصَّحِيحَين ينتقيان رِوايةَ الرَّاوي الذي فيه ضعفٌ عن بعضِ شيوخهم، فلا يرويان له عن كلِّ الشيوخِ، بل ينتقيان من حديثِه، هذا الشخصُ لم يرو له مُسْلِمٌ إلا حديثًا واحداً، لا يعني هذا أنه يُوثِّقُه؛ لأنَّ من منهج صاحبي الصَّحِيحَين أنهما قد يرويان عن الشخصِ الذي قد جُرِحِ، لكن ينتقيان من حديثِه ما يكون عندهما دَلالاتٌ على صحته، وربما يرويان عنه في المُتابعاتِ والشواهد لا في الأصولِ، فإنَّ مُسلِمًا رَحِمَهُ اللَّهُ قد يذكر حديثًا أصلاً في البابِ، ويذكر بعده أحاديثَ من بابِ الشَّواهِدِ أو المتابعات، فلا تكون على شرطِه، وإن كان ذكرُها في الصحيحِ، لكن لا تكون على شرطِه، فيذكره من باب التأكيدِ لا من بابِ التأصيلِ.

فصاحبا الصَّحِيحَين قد ينتقيان من أحاديثِ الرُّواةِ الذين فيهم نوعُ مقالٍ، فيرويان حديثَه عن شيخٍ واحدٍ لمزيد عنايةٍ به، أو لأنَّه صحَّ من وجهٍ آخرَ، لكنه أنزَلَ منه، ويبتغي العالمُ أو المُحدِّثُ الطريقَ الأعلَىٰ ولها حيثيات أخرىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: والظاهر أن المراد لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة، أو ما هو وسيلة إليها كالاستعاذة بوجه الله من غضبه ومن النار ونحو ذلك مما هو وارد في أدعيته ﷺ وتعوذاته.

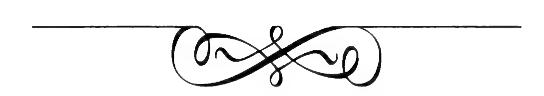


الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العُلَمَاء ذكروا لهذا الحَدِيث معنيين:

إمَّا أن يكون المرادُ فلا تسألوا من النَّاس شيئًا بوجهِ الله مُطلقًا، كأن يقول: أعطني شيئًا بوجهِ الله، فإنَّ اللهَ أعظمُ من أن يُسأل به شيءٌ من حطامِ الدُّنْيَا، أي: لا تسأل بوجهِ الله أي علىٰ وجهِ القَسمِ.

وإمَّا أنَّ المُرادَ أن تقول: أعطني هذا لوجهِ الله، أي: حتىٰ تبتغي به وجهَ الله. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المرادُ به كلاهما، أي: لا يُسأل بوجهِ الله، ولا لأجلِ وجه اللهِ حُطامَ الدُّنْيَا، بل لا يُسألُ به أو له إلا ما هو أعظمُ من ذلك وهو الجَنةُ أو ما قرَّب إليها، أو أن تسألُ الله بوجههِ الكريمِ أن يمنعك من النارِ، أو مثل ذلك.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولما نزل قَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] قال النَّبِيّ ﷺ: (أعوذ بوجهك)، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] فقال النَّبِيّ ﷺ: (أعوذ بوجهك). رواه البُخَارِيُ، وهذا الحَدِيث رواه في المختارة أيضًا ولكن في إسناده سليمان بن معاذ، قال ابن معين: ليس بشيء. وضعفه عبد الحق وابن القطان.

الشَّرح

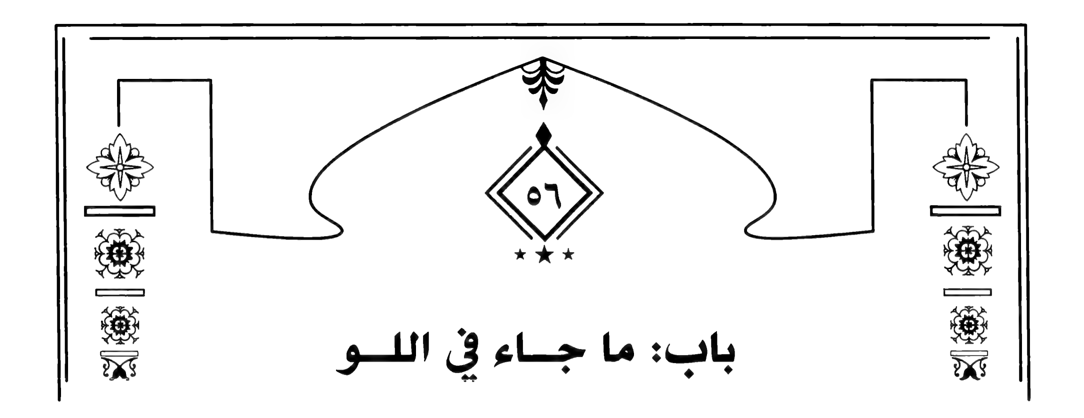
جاء في الصحيح، أنه عندما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، وكلامُ الله له معنىٰ، فالنَّبِيُّ ﷺ قال: (أعوذ بوجهك)، ثم قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] قال: (أعوذ بوجهك)، ثم قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] قال: (هذه أيسرُ)[1]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استجاب له أن لا يعذبنا عذابًا من فوقنا ولا من تحت أرجلِنا، لا بعذاب من السماءِ، ولا الخسفِ ونحوه، لكنه كتبَ أن يقع فينا الخلاف ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام:٦٥] أن تختلفوا، وهذا الذي جاءت به الأحاديثُ أنه سيقع في الأُمَّةِ اختلافٌ في دينِها، فهذا الذي أخبرَ به اللهُ جَلَّ وَعَلَا، والرَّسُوْلُ ﷺ لم يستعذ منه، وإنما قال: (هذا أيسر).

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: قل هو القادر علىٰ أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الآية، برقم: (٤٦٢٨).



هذا الحَدِيث رواه في: (المُختارةِ)، وصاحبُ (المُختارةِ) عاش في القرن السادس أو السابع، اسمُه: الضياءُ، وشرطُه أقوىٰ من شرطِ صاحبِ المُستدرَك، لكنه لم يُسلَّم له في كثيرٍ مما ذكرَ من الأحاديثِ، أورد هذا الحَدِيث بلفظ آخر في المختارةِ، لكنه ضعيف كما ضعَّفه عبد الحق الأشبيلي في كتابه، وهناك عالم آخر اسمه ابن القطان الفاسي توفي سنة ٦٢٨هـ، استدرك علىٰ ما في أحكام عبدالحق من الأوهام في كتاب سماه (بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام) وهو مطبوع متداول، وكلاهما من علماء المغرب، فيقول: إن ابن عبد الحق وابن القطان ضَعَّفَا هذا الحَدِيث الذي من روايةِ: (المختارة)، لكنه صح في: (البُخَارِيُ)، فلا حاجة لنا إلىٰ سندِ: (المختارة).

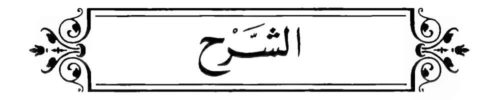




باب: ما جاء في اللو

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلم أن من كمال التَّوْحِيد الاستسلام للقضاء والقدر كالمصائب إذا جرىٰ بها القدر رضًا بالله ربًا، فإن هذا من جنس المصائب، والعبد مأمور عند المصائب بالصبر والإرجاع والتوبة، وقول: (لو) لا يجدي عليه إلا الحزن والتحسر، مع ما يخاف توحيده من نوع المعاندة للقدر الذي لا يكاد يسلم منها من وقع منه هذا إلا ما شاء الله، فهذا وجه إيراده هذا الباب في التَّوْحِيد.



قوله: (مع ما يخاف توحيده) هنا حرف (علىٰ) ناقص وصواب العبارةِ (مع ما يخاف علىٰ توحيده).

قولُه: (اعلم أن من كمال التَّوْحِيد...) يذكر الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه المقدمةِ وجهَ إيرادِ هذا البابِ في كتابِ التَّوْحِيد، وهو أمرٌ يتعلَّق بالقدرِ، فإنَّ الإنْسَانَ مُعرَّضٌ للمصائبِ، ومُعرَّضٌ للابتلاءِ في نفسه وفي أهلِه وفي ماله، هذه المصائبُ شرعَ الله لنا موقفًا منها، وهو أننا نقابلَها بالصبرِ، وليس معنىٰ الصبرِ ألا تتخذ الأسبابَ لدفعِها، بل تتخذُ الأسبابُ، لكنك لا تَتضَجَر ولا تشكو، لا

تظنُّ أنك قادر علىٰ أن تردَّ ما وقع بك، لا تقول: لو أني فعلتُ كذا ما كـان كـذا، لا تستطيع أن تردَّ ما نزلَ، فهناك موقفان: أحدهما واجبٌ، والثـاني: مُستحبٌ. الموقفُ الواجبُ: الصبرُ وعدمُ التَّشَكِّي؛ لأنك تشكو اللهَ الذي أنزل الـبلاءَ إلـىٰ المخلـوقِ، لا تشـكُ الخـالِقَ إلـىٰ المخلـوق، والموقـفُ الأعلـىٰ: هـو الرِّضـىٰ بالقضاءِ بأن لا يقعَ في نفسِّك تَحسُّرٌ أو تَضَجرٌ، وهـذا لا يستطيعه كـلُّ إنسـانٍ، ولـم يوجبه الله علينا، لو أوجبَ الله علينا الرِّضىٰ لما استطاعَ منـا أحـدٌ أن يفعلـه إلا القليلُ النادرُ.

مثلاً: إنسان مرض فيصبر، وفي الوقـت نفسِـه يبحث عـن أسبابِ الشـفاء، لكن لا يشكو: مـاذا فعلـتُ، مـا ذنبي، لمـاذا الله يبتليني دون النَّـاس؟؛ لأنَّـه قـد يكون هذا المـرضُ سببـاً لـدخولِ الجَنـةِ، ومنعـاً لـدخولِ النَّـارِ، فالعافيـةُ تـدفع البعضَ إلىٰ جهنَّمَ، فمن رحمة الله به أن يصيبه بالمرضِ، قد يكـون المـالُ سببـاً لدخول النَّار فيمنعه الله من المالِ، ولا يدري، فاحمـد الله علـىٰ مـا يُقـدِّر عليـك من قدرٍ، ثم لا بأس بأن تبحث عن أسبابِ الشـفاءِ، وأسبابِ الغنـىٰ، لـيس هـذا مُحرَّمـاً، فتبحـث وتتـيقن في قلبِـك أنـه لـن يقـعَ إلا مـا أرادَ الله، وبهـذا يسـتطيع الإنْسَانُ أن يعيشَ حياةً سعيدةً، لكن لو اعتقد أنه قادر علىٰ أن يدفعَ ما وقع فإنـه يعيش حياةً مُتحسرةً، ويُصابُ بالحسرةِ، ويعيش طوال حياتِه في نكدٍ، ومـا وقـع لن يتغيرَ، ولو رجعت الأيامُ إلىٰ الـوراء ثـم عـادت مـرةً أخرىٰ، فلـن يقـع ولـن يحدثَ إلا ما حدثَ.

فكلمةُ (لو) ليس لها مكان فيما يتعلَّق بقضايا القـدرِ الماضـية التـي وقعَـت بك، فلا ينبغي لك إن وقعتَ في أمرٍ أن تقول: إنني لو فعلت كذا لمـا وقـعَ كـذا، فقد أخطأتَ في هذا الظنِّ؛ لأنَّك إنما تتحركُ وِفقَ إرادة الله ومشيئتِه ﷻ، وأنت

لا تُعاقَبُ علىٰ قدرِ الله فيما يتعلَّقُ بجانب المصائبِ، إنَّما تُعاقِب بفعلِك أنت، فإن وقعت في خطيئةٍ أو معصيةٍ فإنها تُمحَىٰ بالاستغفارِ والتَّوبةِ، وإن عرضَ لك مرضٌ أو ابتلاءٌ فإنك تدافعُ الابتلاءَ بالأسباب التي خلقَها اللهُ ﷻ.

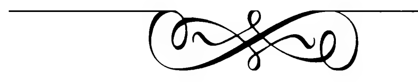
عندما ذهب عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إلىٰ الشام وعلم أنَّه وقع طاعونٌ هناك وقفَ بالنَّاس وشاورَهم: طبقةً طبقةً، شاور أهلَ بدرٍ، وشاورَ المُهاجرين، وشاور الأنصارَ، وشاورَ الصغارَ، شاور جميعَ الفئات، فكثير منهم كان يقول: يا أميرَ المُؤْمنِين ندخل ونتوكَّلُ علىٰ الله إلا مُسْلِمةَ الفتحِ - من أسلم متأخراً-، فإنهم قالوا: يا أميرَ المُؤْمنِين لا ندخلُ علىٰ الوباء. عمرُ رضي الله عنه أخذ بقولهم؛ لأنَّ هذا كان في نفسه، وهو أن لا يُدخلَهم علىٰ الوَباء، وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه غائباً، فعندما حضر حدَّثهم حديثاً عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: (**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدِموا عليه وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**)[1] أي: لا تخرجوا من الأرض التي فيها وباءٌ، ولا تدخلوا إليها، فحمدَ عمرُ رضي الله عنه الله، وهذا أحدُ المواقفِ التي وافقَ فيها موقفُ عمرٍ رضي الله عنه شرعَ الله، فإنه رضي الله عنه كثيراً ما كان يرىٰ الأمرَ فينزلَ القُرْآنُ مُؤيداً لرأيه؛ لأنه لم يكن له هوىٰ، كان حريصاً علىٰ أن يتبع مراد الله ﷻ، وما يرضي الله سبحانه وتعالى.

فاتخاذ الأسباب مطلوبٌ، لكن لا تظنَّ أنَّ السببَ تتولَّد عنه نتيجةٌ حتماً، النتائج بيدِ الله. فإن وقعت في أمرٍ فلتصبر، ولا تظنَّ أنك قادرٌ علىٰ أن تردَّه، ولكن تبحثُ في الأسبابِ عن دفعِ هذا البلاءِ، مثل الإنْسَان إذا جاعَ يبحث عن

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، برقم: (٤٧٢٩)، ومُسْلِم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة، برقم: (٢٢١٩)، (٤/ ١٧٣٠).

طعامٍ يسدُّ به الجوعَ، إذا أصبحَ عاريـاً يبحث عن لباس يكسو به جسمَه، وهكذا، فاتخاذ الأسباب الشرعُ قد حث عليه، وأمرَ به، ولهذا نرىٰ نبينا ﷺ عندما هاجر من مكةَ إلىٰ المَدِينَة، اتخذ الأسبابَ الكثيرةَ مع أنَّ اللهَ ذكرَ في الإسراءَ أنه أخذه من مكةَ إلىٰ بيت المقدسِ إلىٰ السماء السابعةِ في ليلةٍ واحدةٍ، فما الذي يمنعُ من أن يأخذه من مكةَ إلىٰ المَدِينَة؟ أراد أن يُشرِّع لنا أن نتخذَ الأسباب، فاختفىٰ وأعدَّ العُدَّةَ وبحثَ عن الدليلِ، كل هذا تشريعٌ لنا منه ﷺ. فاتخاذ الأسبابِ مطلوبٌ، ولكن لا تعتمد عليها وتَنسَىٰ اللهَ، اعتمد علىٰ اللهِ واتخذ الأسبابَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقول الله - تَعَالَى -: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] الآية.

قال ابن كثير: فسَّر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] أي: يسرون هذه المقالة عن رَسُوْل الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: حدثني يحيىٰ بن عبادة بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: (لقد رأيتني مع رَسُوْل الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] لقول معتب) رواه ابن أبي حاتم، قال الله - تَعَالَى -: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]، أي: هذا قدر مقدر من الله عَزَّ وَجَلَّ، وحكم حتم لازم لا محيد عنه، ولا مناص منه.

الشَّرح

هذه آيةٌ من الآيات التي نزلت عُقيبَ غزوةِ أحدٍ، فإنَّ غزوةَ أُحدٍ كانت الغزوةَ الثانيةَ من غزوات الرَسُوْلِ ﷺ، الأُولىٰ: غزوةُ بدرٍ انتصر فيها المُسْلِمون، وغزوةُ أُحدٍ جاء كفارُ قُريشٍ وأرادوا أن ينتقموا لأنفسِهم ويَجبُروا ما حصل لهم في معركة بدرٍ، فإنَّ أبا سفيان جعل القافلةَ التجاريةَ التي نَجت

من رَسُوْلِ الله ﷺ جعلها لإعداد العُدَّةِ لغزوةِ أُحدٍ، فجاءت قريشٌ بما يُقارِبُ ثلاثةِ آلاف مقاتلٍ وقاموا باستنفارٍ عام، فعندما وصلوا إلىٰ المَدِينَة شاورَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابَةَ، وكان الذين لم يحضروا غزوةَ بدرٍ من الشباب مُتحمِّسين للخروج، فكثُرت المطالبةُ بالخروج، وقد كان رأي النَّبِيِّ ﷺ البقاءَ في المَدِينَة، وقال: "**إن جاءونا قاتلناهم من الداخل**"، وكان قد رأىٰ رُؤيا عليه الصلاة والسلام، قال: "**رأيتُ أنَّ في سيفي ثَلمَةَ، وأنَّ بَقراً تُنحرُ أو تُذبحُ، وأنَّ يدي في درعٍ حصينةٍ**" فأَوَّلَها ﷺ بأنه يُصابُ رجلٌ من أهل بيتِه، وأنَّ بعض أصحابه يُقتل، والدرعُ الحصينةُ هي المَدِينَةُ، لكنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم أكثروا عليه في الخروج، فخرج بألف مقاتلٍ، وعندما وصل إلىٰ منتصف الطريقِ رجع عبد الله بن أُبي ابن سلول بثلثٍ المُقاتلين، وكانوا قرابة ثلاثمائة شخص، وقال: يأخذُ بآراء الصبيان، ويتركُ آراءنا. فلحقَه عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر يُذَكِّرَه الله، وهو لا يستمع ويقول: لو كنت أعلمُ أن هناك قتالاً لجئتُ، لكنني أعلمُ أنه لن يكون هناك قتالٌ. فذهب الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم.

في أولِ المعركة خطَّطَ النَّبِيُّ ﷺ للمعركةِ، وقال: (خُذوا بنا حتىٰ نخرج من خلفِ ظُهورهِم، ونجعلَ أُحدَ خلفَنا) وهكذا فعلَ ﷺ، ثم جاء بخمسين من الرُّماةِ وجعلَهم علىٰ قمةِ الجبلِ، وقال: (لا تتحرَّكُوا من هنا، إن رأيتموهم فبالنبالِ، ولو رأيتمونا تتخطفُنا الطيرُ)، ووقعت المعركة وانتصرَ المُسْلِمون في أولِ الأمرِ، فاختلف الرُّماةُ، وكان قائدُهم عبد الله بن جبير يقول: نَبقَىٰ. والباقون يقولون: ننزل نشاركُ في الغنائم. فنزل أكثرهم فتنبَّه خالدُ بنُ الوليد، وكان قائداً لجيشِ المُشْرِكينَ عندما رآهم أخلُوا المكان، وهذا مكانُ عورةٍ، هو المكان الذي منه يستطيع أن يُجهِز علىٰ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، فجاء من هذا المكان، ثم انقلبت المعركةُ، وأُصيب رَسُوْلُ الله ﷺ في وجهِه الشريفِ،

وكُسرت رَباعيتُه، وسقط في حفرةٍ وضعها أبو عامر الفاسقِ، الذي كان يُسمَّىٰ أبا عامر الراهبِ، وهو الذي جاء بقريشٍ، وأصيبَ المُسْلِمون، وانتشر الخبرَ أنَّ مُحَمَّداً ماتَ، فأصيبَ الصَّحَابَةُ ﷺ بصدمةٍ نفسية عنيفةٍ، فمنهم من ترك القتالَ، ومنهم من قال: إذا مات رَسُوْل الله لماذا نبقىٰ بعدَه؟ فأخذوا يُقاتلون، وهكذا كانت المعركةُ.

الشاهدُ أنَّ الله صوَّر هذا القولَ وأن المُنَافِقينَ الذين في قلوبهم مرضٌ أو بعض من المتأثرين بالمُنَافِقينَ، قالوا: لو بقينا في المَدِينَة ما وقعنا فيما وقعنا فيه، فأنزل الله ﷻ الآياتِ تكشف ما في قلوبهم وما قالوه: كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] أحياناً الشخص المُرهَقُ إذا أغمضَ عينَه دقائقَ فإنه بإذن الله يقوم وهو في غايةِ النشاط، وهكذا الله ﷻ أنزل أَمَنةً نُعاساً، أي: أمنةً قليلةً علىٰ المُؤْمِنين، لكن الذين في قلوبهم مرضٌ ما ناموا ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤] يظنون أنَّ الله لن ينصرَهم ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]، المكانُ المحدَّدُ الذي قدَّره الله لك لو كنت في منزلِك لخرجتَ إليه، هم قالوا: "لو كان لنا من الأمرِ شيء"، هنا كلمة (لو) قالها هؤلاء الأشخاصُ، والقُرْآنُ وَبَّخهم علىٰ هذه المقالةِ. فالإنْسَانُ إذا وقع في أمرٍ فلا يقولن: لو فعلتُ كذا لوقعَ كذا، فإنَّ هذا من أخلاقِ المُنَافِقينَ، بل يقول: قَدَّرَ اللهُ وما شاء فعل، أو قَدَرُ الله وما شاء فعلَ، علىٰ كلا اللفظين.



قال المؤلف رحمه الله:

قلت: فتبين وجه إيراد المُصَنِّفُ الآية على الترجمة؛ لأن قول: (لو) في الأمور المقدرة من كلام المُنَافِقينَ، ولهذا رد الله عليهم ذلك بأن هذا قدر، فمن كُتب عليه شيء فلا بد أن يناله، فماذا يغني عنكم قول: (لو) و(ليت) إلا الحسرة والندامة؟! فالواجب عليكم في هذه الحالة الإيمان بالله والتعزي بقدره مع ما ترجون من حسن ثوابه، وفي ذلك عين الفلاح لكم في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، بل يصل الأمر إلى أن تنقلب المخاوف أمانًا والأحزان سروراً وفرحًا كما قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر.

قال: وقَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٨].

روى ابن جرير عن السدي قال: (خرج رَسُوْل الله ﷺ يوم أحد في ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أُبي في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم فلما غلبوه، وقالوا له: ما نعلم قتالاً ولئن أطعتنا لترجعن معنا، فنزل: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران:١٦٨] الآية، وعن ابن جريج في الآية قال: هو عبد الله بن أُبي، ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ ﴾ [آل عمران:١٦٨] الذين خرجوا مع النَّبِيّ ﷺ يوم أحد. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

فعلى هذا إخوانهم هم المُسْلِمون المجاهدون، وسموا إخوانهم لموافقتهم في الظاهر، وقيل: إخوانهم في النسب لا في الدين.

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران:١٦٨] قال ابن كثير: لو سمعوا مشورتنا عليهم

في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قُتل، قال الله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٨] أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لابد آتٍ إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي.

قلت: وكان أشار على رَسُوْل الله ﷺ يوم أحد بعدم الخروج، فلما قدر الله الأمر قال ذلك تصويبًا لرأيه ورفعًا لشأنه، فرد الله عليه وعلى أمثاله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٨] فلا تعذرون عن ذلك، فعُلم أن ذلك بقضاء الله وقدره، أي يستوي الذي في وسط الصفوف والذي في البروج المشيدة في القتل والموت، بل ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]، فلا ينجي حذر عن قدر، وفي ضمن ذلك قول: (لو) ونحوه في مثل هذا المقام؛ لأن ذلك لا يجدي شيئًا، إذ المقدر قد وقع فلا سبيل إلى دفعه أبداً ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

الشَّرح

هذا هو حالُ المُنَافِقينَ، وقد أُبتلي نبيُّنا عليه الصلاة والسلام بالمُنَافِقينَ، وهم قومٌ أظهروا في الظاهرِ الإِسْلَامَ، وفي باطنهم الكفرُ والجحودُ والعداءُ، ومع ذلك لم يُؤْذِهم رَسُوْلُ اللهِ ﷺ؛ لأنه يُشرعُ لنا، فهم قومٌ في أصلِهم كافرون، وقد توعدَهم الله في الآخِرَةِ بأشدِّ مما وعدَ به الكافرين كما في قَوْله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، ومع ذلك ما آذاهم رَسُوْل الله ﷺ، بل

صبرَ علىٰ آذاهم، انخذلوا ورجِعوا، لو كان هذا حصلَ في مثل دولِ اليوم أنَّ جماعةً رجعوا من القتال لُقتِلوا عن بكرةِ أَبيهم، ولو وقع اليوم ما وقع من المُنَافِقينَ مع حاكمٍ قادرٍ عليهم ما تركَهم، لكن الله يُشرِّعُ لنا، فالشخص الذي يُظهر لك الإيمانَ والإسْلَام عليك أن تقبلَ منه ذلك، وإن كنت تعلم في نفسِك أنه كاذبٌ، هذا حالنا مع المُنَافِقينَ، فما هو الحال الذي ينبغي أن يكون مع إخواننا المُسْلِمين الذين يخالفوننا في الرأي؟، بعض النَّاس يستبيح عرضَ أخيه؛ لأنه خالفه في قضيةٍ أو فَهمِ آيةٍ أو حديثٍ، فيستبيحَ عرضَه، ويسعىٰ إلىٰ إيذائه، وليس ذلك أدبَ الإسْلَام، فهؤلاء المُنَافِقونَ أعداءُ الله ورَسُوْله، حاربوا الإسْلَام، وما من موقف من مواقف القتال والحربِ إلا ويخذلون فيه دينَ الله، ومع ذلك لم يؤذهم رَسُوْلُ الله ﷺ، والإسْلَامُ في بدايته، والأعداءُ محاطون بهم من كلِّ مكانٍ، ما قال ﷺ: نُصَفِّيهم، لكن من أظهرَ الخيرَ صَبرنا علىٰ شرِّه.

بعضُ المُسْلِمين، بل ربما بعضُ أهل العلم يستبيح عرضَ إخوانه ويستبيح إيذاءهم ويوجِّه هذه الاستباحةَ بأنه ينصرُ الدِّين، وينصرُ العقيدةَ، وينصرُ الحقَّ؟، من أذن له في عرضِ أخيه؟ الخلافُ ليس مُبرِّراً لاستباحةِ الأعراضِ، ولا لاستباحةِ الدِّماءِ، ولا للإيذاءِ. ولهذا الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه: (رفعُ الرِّيبةِ عمَّا يحلُّ وما لا يحلُّ من الغِيبةِ) ردَّ علىٰ من يزعم أنه يستبيحَ عرضَ الآخرين للدِّفاع عن الإسْلَام، قال: هذه قضيةٌ من أعظم القضايا، وقد نزل فيها القُرْآنُ والسُّنَّةِ النَّبويةِ وإجماعِ الأُمَّةِ، فلا ينبغي لك أن تسبيحَ أمراً لشبهةٍ أو لخلافٍ. هؤلاء المُنَافِقونَ خذلوا رَسُوْلَ الله ﷺ في كلِّ مَوقفٍ جادٍّ، كم آذوه حتىٰ في عرضِه، في زوجته عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ومع ذلك لم يعاقبهم إلا بالعقابِ الشَّرعي الظاهرِ؛ لأنَّ الرَسُوْل يُشرِّعُ، أرأيتم لو استباحَ قتلَهم أو إيذاءهم كم سيقع من بعدِه من قتلٍ للصَّالحِين بحجَّةِ أنهم مُنَافِقُونَ؟.

فينبغي لك أن تتورعَ في المُسْلِم، وأن تترفع علىٰ أن تؤذي غيرك لهوىٰ أو شبهةٍ، المُسْلِم مُؤتمنٌ علىٰ ما في داخلِه، وفَهمُ النَّص قضيةٌ تنقدحُ في الذِّهن، فإذا أنت فهمتَ معنىٰ، وأنا فهمتُ معنًىٰ، فكلُّ إنسانٍ مُؤتَمنٌ أن يعبر عمَّا في داخله، وليس فهمُك شرعًا حتىٰ تُلزِمَني به، وليس فهمُ العالِمِ الذي تَتَّبِعه شرعًا.

فالقضيةُ قضيةُ حقوقٍ، فلنتقِ الله، هؤلاء المُنَافِقونَ كم آذوا رَسُوْلَ الله ﷺ، حتىٰ انسحَبُوا في بداية القتالِ والحرب، الخلافُ لن ينتهي إلىٰ قيامِ الساعة، والخلافُ الذي يكون له مُبَرِّرُه، أو له حيثياتُه المقبولةُ نقبلها، انظر للفقه الإِسْلَامي، اقرأ في كتاب: (المغني)، في كتاب (المجموع)، في كتاب: (التمهيد)، أكبر الكتب الإِسْلَامية تراها مملوءةً بالخلاف، ولكن ليس بعضُهم يستبيحَ عرضَ الآخرين أو الطعنَ فيهم، هذا- أي الخطأ - أمر عفا الله عنه، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال الله: قد فعلت، كما في صحيح البُخَارِيُ، الله يُؤدِّبُنا ويُعلِّمُنا أن نقول هذا الدُّعاءَ، ثم يجيب هو عن نفسه ويقول: قد فعلتُ. فهذه المواقفُ نأخذ منها عبرةً؛ لأنَّ الأمةَ الإِسْلَامية اليوم مصابةٌ بالخلافات وباستباحةِ الأعراضِ لأدنىٰ خلافٍ، ولأدنىٰ شبهةٍ، ترىٰ الأمةَ مُمَزقةً، وكل يوم تظهرُ جماعةٌ، وكلُّ يوم يظهر حزبٌ، وكل يوم يظهر اتجاه، بعض النَّاس يعتقدون أنه يمكن أن تكون أُمَّةٌ بدون خلاف، وهذا يخالِفُ العقل، ويخالف الدِّين، يستحيلُ أن يوجد مجتمعٌ لا خلاف فيه، فإن جيلَ الصَّحَابَةِ أفضلُ الأجيالِ كان بينهم خلاف في بعضِ القضايا.

فما دام اللفظُ يحتملُ وأخوك فهِم المعنىٰ الثاني حاوره وناظره، لا تستبح دَمَه ولا عرضَه ولا إيذاءه، وهكذا تجتمعُ الأُمَّةَ، أمَّا الذين ينظرون بمنظار كثقبِ الإبرةِ، ويريدون أن يجمَعوا الأُمَّةَ من هذا المنظار فإنَّه جاهلٌ بالدِّين،

وجاهلٌ بسننِ الاجتماعِ، وجاهلٌ بالعقلِ البشري، لابدَّ أن يقع الخلافُ، ولن يُرفع الخلافُ إلىٰ قيام الساعةِ، لكن الخلاف علىٰ نوعين: خلافٌ في أمرٍ فيه نصٌ قطعي ظاهرٍ، وخلافٌ فيه نصوص تحتملُ وجوهًا، فما دام الأمرُ يحتملُ نقبلُ الخلافَ ونحاورُ فيه، ولا نعتدي علىٰ إخواننا، ولا نتهمُهم لا في دينِهم، ولا في أعراضِهم، ولا في عقولِهم، فإن هذا الدينَ ليس لفئة معينة تخرج من شاءت من الدِّين، وتُدخِلُ من شاءت في الدِّينِ، بل هو دين ربِّ العَالَمِينَ.

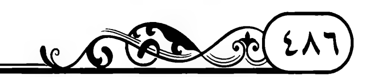
والله ﷻ قد عفا عن الخطأ، وعفا عن المُجتهدِ الذي أخطأ في فهمِه، ولم يرفع الخلافَ، لكن عندما يخالِفُنا بعضُهم في فهم مسألةٍ شرعيةٍ لا نتهمهم بأنهم خارجون عن شرعِ الله، من أخبرك أنَّ هذا العالِمَ شرع، من قال: إن فهمَ العَالِمِ شرعٌ، بل من قال: إن فهمَ الصَّحابِي شرعٌ؟ الصَّحَابَةُ ﷺ أفضلُ الأُمَّةِ وأشرفِها، فهمُهم ليس شرعًا إلا إذا أجمعوا، فالإجماعُ حُجَّةٌ، ولو كان فهمُ الصَّحابِي شرعًا فلماذا يختلِفون؟ نحن لسنا كالنَّصارَىٰ نقول: إن الصَّحَابَة رُسلٌ. كما يقول النَّصارَىٰ في الحواريين أنهم رُسلٌ وأنبياءُ؛ ولهذا ما كتبوه من الأناجيل قالوا: إنه بوحي من الله، لكن عندما قرأنا الأناجيل وجدنا بينها اختلافًا كبيرًا، ويكذِّبُ بعضَها بعضًا، وكان هذا أكبر مسمار في نعشِ النَّصرانية، كيف يكون وحيًا من الله ويكون مُختلِفًا؟!! ومن أمثلة اختلافها أنَّ الأناجيلَ تذكرُ نسبَ عيسىٰ عليه السلام، ونسبوه إلىٰ يوسفَ، والله يذكر أنَّ عيسىٰ عليه السلام ليس من رجلٍ، بل من كلمةِ الله، ثم تختلفُ، إنجيل يجعل عيسىٰ من نسلِ سليمانَ بنِ داود ـ عليهم السلام ـ، وإنجيل يجعلُه من نسلِ ناسان بن داود، وهما أخوان، هذه قضيةٌ واحدةٌ.

عندما ناظر الشيخُ النجدي رحمه الله المبشر فندر في الهند، وكان يُشكك المُسْلِمين، وكان قويًا، فالتقىٰ بالشيخ، وقال: يا شيخ أنا أناظرك فإن غلبتُك تَتنَصر، وإن غلبتني أدخلُ الإِسْلَام، قال: نعم، فحددوا يومًا معينًا، فاجتمع

العُلَمَاء ورؤساءُ القبائلِ والأمراءُ والقادةُ العسكريون، فجاء في أول يوم وبدأ النجدي رَحِمَهُ اللهُ فأثبت له أمام النَّاس أنَّ في الأناجيلِ ثمانيةَ أخطاء، قد اختلفت بعضُها مع بعض، ما رأيك؟ قال: صحيحٌ، لكن هذا لعله من النساخ، قال: إذاً إن كنت اعترفت أنَّ فيها ثمانيةَ أخطاءٍ، فما الذي يُطمئنُنا أن ما بقي منها صحيحٌ؟ كيف تحاورني علىٰ كتبٍ أنت تشكُّ في صحة بعضها؟ فانقطع وانسحبَ من الحوار، واليوم الثاني لم يأت؛ لأنهم قالوا: الأناجيلُ وحيٌ من الله. فكيف تكون وحياً من الله وفيها خلاف؟!!. وما نقول: إنَّ كلامَ الصَّحَابَة وحيٌ، ولو قلنا: كلامُهم مُلزمٌ فكأننا نقول: إن كلامَهم وحيٌ! ولهذا قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في معرض حديثه عن تفسيرِ الصَّحابِي: (تفسيرُ الصَّحابِي أصوبُ من تفسير غيره). قال: أصوَبُ، ما قال هو الحقُّ فقط، أي: أقربُ إلىٰ الصواب، فإذا كان الصَّحَابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ هذا مكانهم، فكل العُلَمَاء بعدهم ليس قولهُم شرعاً، فلا نلزم النَّاس بأقوال العُلَمَاء، والعالِمُ نستأنسُ بقوله، ونأخذ قولَه إذا اعتقدنا أنه يعتمدُ علىٰ النَّص الصريحِ الصحيحِ.

فلابد أن نتقبل الخلافَ وإلا فإننا لن نجتمع، حدثنا بعض الإخوة: إن بعضَ مُدن المغربِ كان فيها سبعون جماعةَ، كلُّ جماعةٍ تعتقد أنها هي الإسْلَام؛ لأنهم عقولٌ لم تَنضج، لم يتربَّوا علىٰ أيدي أهلِ العلمِ، والدينُ نصوصٌ ومعانٍ وتطبيقٌ، عرَفوا النصَّ والمعنىٰ، لكن لم يعرِفوا تطبيقَ النصَ والمعنىٰ.

فإذا رأينا مثل هذه الأحداث فلا نستعجل في الطعنِ علىٰ إخواننا أو اتهامِهم في مقاصدهم بل نتقبل الكلام، ونحاور إخواننا؛ لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُعاقِب المُنَافِقينَ مع أعمالهم الشنيعةِ، بل نرىٰ من نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصبرَ علىٰ عبدِ الله بن أُبي والترفُّقِ به، وهو يعلمُ أنه منافقٌ؛ لأنَّ الأُمَّةَ إذا بدأ فيها الشقاقُ فإنه لا ينتهي.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: في الصحيح: (عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وان أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشَّيْطَان).

قوله: (في الصحيح) أي صحيح مُسْلِم.

قوله: (احرص على ما ينفعك) إلى آخره. هذا الحَدِيث اختصره المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولفظه أن النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك...) إلى آخره.

فقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) فيه أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب على الحقيقة كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

وفيه أنه سبحانه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي ويحب المؤمن القوي، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العُلَمَاء، ومحسن يحب المحسنين، وصبور يحب الصابرين، وشكور يحب الشاكرين.

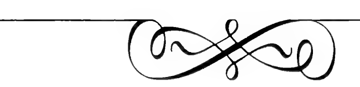


الشَّرح

هذا التعقيب من الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الحَدِيثِ بأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يحبُّ الُمؤمنَ القويَّ، القويَّ في دينِه، وفي مواقفِه، وفي دعوتِه، وفي حرصِه على الخيرِ، ليست القوةُ البَدنيةُ؛ لأنَّ القوةَ البدنيةَ لا يملِكها الإنْسَانُ، لكنَّ قوةَ الدينِ مُيَسَّرةٌ لمن أراد أن يكون قويـًا في دينِه، لكن لا يعني هذا أنه لا يحبُّ المؤمنَ الضعيفَ في

إيمانِه، كلُّهم عند الله محبوبون، لكنَّ حبَّ المؤمنِ القويِّ أكثرُ، فالمحبَّةُ نثبتُها لله، وأنَّ اللهَ يُحِبُّ ﷻ، وأنه يُحَبُّ، ولهذا قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، قال: ليست العبرةُ بأنهم يحبُّون اللهَ؛ لأنَّه ربُّهم خلقَهم وأكرمَهم وأنعمَ عليهم كيف لا يحبُّونه وهو صاحبُ النِّعَم ﷻ، لكنَّ الأمرَ في أن يحبَّهم هو ﷻ، وهذه مكانةٌ عاليةٌ، فإذا أحبَّك اللهُ كما جاء في الحَدِيث الصحيحِ(كان سمعُك الذي تسمعُ به، وبصرك الذي تبصر به، ويدَكَ التي تبطش بها)، أي: إنَّ الله يرعاك في سمعِك وبصرِك وقدمِك وحركتِك، الله يرعىٰ ذلك كلَّه منك.

فحبُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعظمُ المطالبِ، ونحن نسعىٰ إلىٰ أن نصلَ إلىٰ هذه المرتبةِ، أن يُحبَّنا الله، إنما يُحبَّنا الله إذا كنا لا نعملُ إلا ما يُحبُّ، ونجتنب ما يكرَه، عندئذٍ يحبُّنا الله، هذا هو معنىٰ كلامِ الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: الظاهر أن المراد القوة في أمر الله وتنفيذه والمسابقة بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر علىٰ ما يصيب في ذات الله ونحو ذلك، لا قوة البدن، ولهذا مدح الله الأنبِيَاء بذلك في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص:٤٥]، فالأيدي القوة والعزائم في تنفيذ أمر الله، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص:١٧].

وقوله: (في كل خير) أي: كل من المؤمن القوي والمؤمن الضعيف علىٰ خير وعافية لاشتراكهما في الإيمان والعمل الصالح، ولكن القوي في إيمانه ودينه أحب إلىٰ الله، وفيه أن محبة المُؤْمِنِين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

وقوله: (احرص علىٰ ما ينفعك) هو بفتح الراء وكسرها.

قال ابنُ القَيِّمِ: سعادة الإنْسَان في حرصه علىٰ ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص: هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً وكماله كله في مجموع هذين الأمرين، أن يكون حريصـًا وأن يكون حرصه علىٰ ما ينتفع به، فإن حرص علىٰ ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص علىٰ ما ينفع.

الشَّرح

هنا شرحُ الجملةِ الأولىٰ من قولِ النَّبِيِّ ﷺ: (**احرص علىٰ ما ينفعك**)[١]، وهنا لم يُحدِّد شيئًا، فأيُّ شيءٍ ينفعك في الدُّنْيَا والآخِرَةِ احرص عليه.

فلم يجعل الحرصَ علىٰ الآخِرَةِ فقط، بل كلُّ شيء ينفعُك احرص عليه، وهذا أمرٌ عامٌّ، وهذا إنما يُحقَّقُ بأن تبذلَ الأسبابَ التي تؤدي إلىٰ تحقيقِ ما ينفعُك في الدُّنْيَا والآخِرَةِ (**واستعن بالله ولا تعجز**). هذا توجيهٌ من النَّبِيِّ ﷺ في أمرِ حياتِك، وهذا معنىٰ قولِ الله - تَعَالَى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، وكما قال العُلَمَاءُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] فِعلُه، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] فِعلُ الإنْسَانِ، فقدِّم فِعلَك علىٰ فعلِه، أي: اعمل واستعِن، لا تبدأ تستعينُ وأنت نائمٌ، بل تحرَّك. ثم اخرج من بيتك، كان بعضُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم إذا خرجَ من صلاةِ الجمعة وقف علىٰ باب المسجدِ يقول: اللهم إني قد أَدَّيتُ فريضتي كما أمرتَني، وإني انتشرتُ كما أمرتَ، اللهم فارزقني، ثم يتحرَّك، هذا غايةُ اليقين، أنت قلت: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]، أنهيتُ الصلاةَ والآن بدأتُ أبحثُ عن فضل الله، هذا هو التعاملُ مع الآيات القُرْآنيةِ، فالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عندما أيقنوا بهذا الكلامِ وصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه، لكن لا يعني هذا أن تحرصَ علىٰ ما ينفعك في الدُّنْيَا وتُضيِّعَ الآخِرَةَ، ولا أن تأخذ الآخِرَةِ وتترك الدُّنْيَا، ليس هناك طريقٌ إلىٰ الآخِرَةِ

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز...، برقم: (٢٦٦٤).

إلا من الدُّنْيَا، المساجدُ في الدُّنْيَا، حركتُك في الأرضِ في الدُّنْيَا، بيتك في الدُّنْيَا، جهادُك على الدُّنْيَا، ما هناك طريقٌ آخرُ، ما هناك انفصالٌ في حياةِ المُسْلِمِ، وما جاءت آيةٌ أو حديثٌ يمنعُك من الدُّنْيَا، إنما تُحذِّرُك من فتنتِها، فإنها تفتنُ وتَغرُّ، ما قال: اتركها، تَرْكُ الدُّنْيَا رهبانيةٌ، ولهذا الرَسُوْلُ ﷺ عندما جاء الثلاثة الذين قال بعضُهم: إنني لا آكلُ اللحمَ، وقال الآخر: إنني لا أنام الليلَ، وبعضهم قال: لا أتزوجُ النساءَ، قال: **(لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)**[1]، هذا دينُ الإِسْلَامِ، ما فيه رهبانيةٌ، الدُّنْيَا والآخِرَةِ كلاهما مطلوبٌ، ولكن لا ينبغي أن تُزاحمَ الآخِرَةَ.

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، برقم: (٥٠٦٣)، و مُسْلِمِ في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن....، برقم: (١٤٠١).

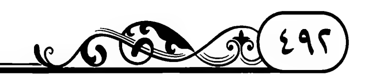
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (واستعن بالله). قال ابنُ القيِّمِ: لما كان حرص الإنْسَان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين به، ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين، فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله، ولا تتم إلا بمعونته، فأمره بأن يعبده ويستعين به.

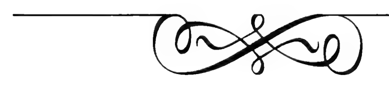
وقال غيره: (استعن بالله) أي: اطلب الإعانة في جميع أمورك من الله لا من غيره كما قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥]، فإن العبد عاجز لا يقدر علىٰ شيء إن لم يعنه الله عليه، فلا معين له علىٰ مصالح دينه ودنياه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول.



العُلَمَاء يقولون: هناك توكُّلٌ وتواكُلٌ، الفرقُ بينهما أنَّ التَّوكُّلَ أن تتخذَ الأسبابَ، وتعتمدَ علىٰ الله، والتَّوَاكُلَ أن تتركَ الأسبابَ وتعتمدَ علىٰ الله، فمثلاً: إنسانٌ يريد أن يُنجبَ أولاداً وينامُ في البيت دون أن يتزوجَ، يقول: اللهم ارزُقني أولاداً. هذا تواكُلٌ وعَجزٌ. إنسانٌ يريدُ أن يكسبَ مالاً ليعفَّ نفَسه عن السؤال والحرامِ ويقول: الله قادرٌ علىٰ أن يرزقَني وأنا في البيتِ. هذا تواكلٌ، والشرع لم يأمر بهذا، لهذا قال العُلَمَاءُ: الاعتمادُ علىٰ الأسباب طعنٌ في الدِّينِ، أي: أن تَبذلَ السببَ وتعتمدَ عليه وتنسىٰ اللهَ، هذا نقصٌ في الدِينِ، وتركُ الأسبابِ طعنٌ في العقلِ، العقلُ لا يعرف شيئًا في الحياةِ بدون سببٍ أبداً، فأنت تتخذُ الأسبابَ، ولهذا مريمُ ـ عليها السلام ـ وهي في المخاضُ وتحتاج إلىٰ



المساعدة، ما أنزل الله إليها الرُّطبَ والله قادرٌ، بل قال لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٥]، أي: ابذلي السببَ والباقي عليَّ، من يُحرِّكُ النَّخلةَ؟ لكن امدُدِي يدَك، اتخذي الأسبابَ، وهكذا الدينُ يحثُّك علىٰ اتخاذِ الأسباب، ولكنَّ النتيجةَ بيدِ الله قد تتحققُ، وقد لا تتحققُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد كان النَّبيّ ﷺ يقول في خطبته ويُعلم أصحابه أن يقولوا: (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه). ومن دعاء القنوت: (اللهم إنا نستعينك)، وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)، وكان ذلك من دعائه ﷺ.



الشَّرح

قوله:(وقد كان النَّبيّ ﷺ يقول في خطبته...) هذا الحَدِيث في: (مُسْلِم)، واللفظةُ الأخيرةُ (نستهديه) ليس فيه، وإنما اللفظ الذي فيه: (إن الحمد لله نحمده ونستعينه)[1]، أمَّا (نستهديه) فليس في لفظِ: (مُسْلِم).

قوله: (وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع...) هذا يردُّ على الذين يقولون: ليس بعد الصلاةِ إلا ذِكرٌ، وليس بعد الصلاة دعاءٌ؛ لأنَّ الصلاةَ أشرف موطنٍ للدُّعاءِ، لكن لايعني هذا المنعَ من الدُّعاءِ بعد السلام، ولهذا أمر معاذاً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يقول: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[2]، دُبرَ كل صلاة، ودُبرُ الشيء فيه خلافٌ بين العُلَمَاء، هل دُبرُ الشيءِ جُزءٌ من الشيءِ، أو دُبرُ الشيء بعدهَ منفصلٌ عنه؟ فبعض الأحاديثِ جاء فيها دُبُرُ كلِّ صلاةٍ، واعتبرها العُلَمَاء داخلَ السلامِ، وبعضَها اعتبرها العُلَمَاءُ بعدَ الصلاةِ.

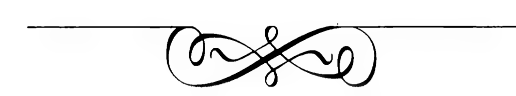
---

(١) انظر: صحيح مُسْلِم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحَدِيث: (٨٦٨)، (٢/ ٥٩٣).

(٢) سبق تخريجه.

والراجحُ أنها بعد الصلاةِ، ولكن العُلَمَاءُ قالوا: إنه لا يليق فصلٌ، وهناك كلامٌ جميلٌ لابنُ القَيِّمِ وابنُ تَيْمِيَةَ رحمهما الله يقولان: أنت كنت في صلاةٍ، وهذا موطنُ دُعاءٍ، فكيف تترك موطنَ الدُّعاءِ وعندما تُسلِّمُ تدعو ترفع يديك؟ ولم يُنقل عن نبينا ﷺ أنه رفع يديه بعدَ الصلاةِ، لكن لو أن إنساناً رفع يديه ودعا ما نمنعه؛ لأنَّ رفع اليدين في الدُّعاءِ جائزٌ، والدُّعاءُ جائزٌ. فبعض النَّاس يُدقِّقُ ويقول: ما ترفع بعد الصلاةِ يديك وتدعُو!! ما هنالك نَهيٌ، نعم هذا ما جاء في السُّنَّةِ، ولكن إنسانٌ أحسَّ بحاجةٍ إلىٰ الدُّعاءِ يرفع يديه ويدعو، ولكن ليس من السُّنَّةِ أن يلازمَ هذه الحالةَ، السُّنَّةِ أن تدعو داخلَ الصلاةِ، ولكن لو دعوت بعد الصلاةِ فجائزٌ.

ابنُ القَيِّمِ رحمه الله يجمع بينهما، يقول: بعدَ الصلاة سبِّح واحمد وكبِّر. فأنت قدَّمت عبادةً، وبعدَها تدعو، فجمعت بين أمرين، وهذا هو أنسب الجمعِ بين الأحاديثِ في هذا المجالِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنه أيضـًا: (رب أعني ولا تعن علي) وإذا حقق العبد مقام الاستعانة وعمل به كان مستعينًا بالله ﷻ، متوكلاً عليه، راغبـًا وراهبـًا إليه، فيستحق له مقامِ التَّوْحِيد إن شاء الله - تَعَالَى -

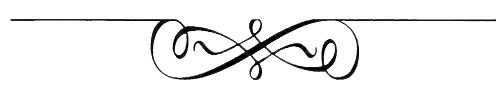
قوله: (ولا تعجزن) وهو بكسر الجيم وفتحها استعمل الحرص والاجتهاد وفي تحصيل ما ينفعك من أمر دينك ودنياك التي تستعين بها علىٰ صيانة دينك، وصيانة عيالك ومكارم أخلاقك، ولا تفرط في طلب ذلك، ولا تتعاجز عنه متكلاً علىٰ القدر، أو متهاونـًا بالأمر فتنسب للتقصير وتلام علىٰ التفريط شرعـًا وعقلاً، مع إنهاء الاجتهاد نهايته، وبلاغ الحرص غايته، فلابد من الاستعانة بالله والتوكل عليه والالتجاء في كل الأمور إليه، فمن ملك هذين الطريقين حصل علىٰ خير الدارين.



الشَّرْح

قوله:(فيستحق له مقام التَّوْحِيد) كلمة (فيستحقُّ) خطأ مطبعي، صوابه: (فيتحقَّقُ له مقامُ التَّوْحِيد).

قوله: (قوله: (ولا تعجزن) وهو بكسر...) ما قال: احرص علىٰ ما ينفعَك، وتركَ الأمر، بل قال: احرِص واستعِن. أي: لابد أن تجمعَ بين الأمرين، فأنت ابذل جهدَك، لكنَّك تستعينُ بالله علىٰ تحقيقِ مُرادِك، فلا تقتصر علىٰ أحدِ الفِعلين، بل عليك بالحرصِ وهو اتخاذُ الأسبابِ، ثم التوكُّلُ علىٰ الله في تحقيقِ المرادِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابنُ القَيِّمِ: العجز ينافي حرصه علىٰ ما ينفعه، وينافي استعانته بالله، فالحريص علىٰ ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلىٰ ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحريص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه، ومردها إليه.

قوله: (فإن أصابك شيء) إلىٰ آخره، العبد إذا فاته ما لم يقدر له فله حالتان:

حالة عجز: وهي مفتاح عمل الشَّيْطَان، فيلقيه العجز إلىٰ (لو)، ولا فائدة في (لو) ههنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشَّيْطَان، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية.

الثانية: وهي النظر إلىٰ القدر وملاحظته، وأنه لو قدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود المقدور، وإذا انتفت امتنع وجوده، فلهذا قال: (وإن أصابك شيء) أي: غلبك الأمر، ولم يحصل المقصود بعد بذل جهده والاستعانة بالله.

قوله: (فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل) فأرشده إلىٰ ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحَدِيث مما لا يستغني عنه العبد أبداً، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية باطناً وظاهراً، في حالتي حصول المطلوب وعدمه، هذا معنىٰ كلام ابنُ القَيِّمِ.

وقال القاضي: قال بعض العُلَمَاء: هذا النهي إنما هو لمن قاله معتقداً ذلك حتماً، وإنه لو فعل ذلك لم يصبه قطعاً، فأما من رد ذلك إلىٰ مشيئة الله - تَعَالَى - ، وأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله فليس من هذا، واستدل بقول أبي بكر الصديق في

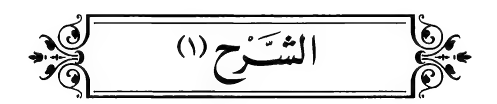
الغار: (لو أن أحدهم رفع رأسه لرآنا)، قال القاضي: وهذا ما لا حجة فيه؛ لأنه أخبر عن مستقبل، وليس فيه دعوىٰ لرد القدر بعد وقوعه.

قال: وكذا جميع ما ذكره البُخَارِيُ فيما يجوز من اللو، كحديث: (لولا حدثان قومك بالكفر لأتممت البيت علىٰ قواعد إبراهيم)، (ولو كنت راجمًا بغير بينة لرجمت هذه)، (ولولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم بالسواك) وشبه ذلك، وكله مستقبل لا اعتراض فيه علىٰ قدر ولا كراهة فيه؛ لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع، وعما هو في قدرته، فأما ما ذهب فليس في قدرته.

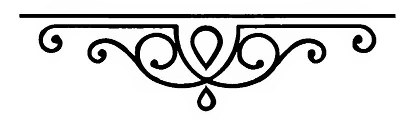
فإن قيل: ما تصنعون بقوله ﷺ: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولجعلتها عمرة)؟ قيل: هذا كقوله: (لولا حدثان قومك بالكفر) ونحوه، مما هو خبر عن مستقبل لا اعتراض فيه علىٰ قدر، بل هو إخبار لهم أنه لو استقبل الإحرام بالحج ما ساق الهدي ولا أحرم بالعمرة بقوله لهم لما أمرهم بفسخ الحج إلىٰ العمرة حثاً لهم، وتطييبًا لقلوبهم لما رآهم توقفوا في أمره، فليس من المنهي عنه بل هو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما ينهىٰ عن ذلك في معارضة القدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو يقع لوقع خلاف المقدور.

قوله: (فإن لو تفتح عمل الشَّيْطَان) أي: من الجزع والعجز واللوم والسخط من القضاء والقدر ونحو ذلك، ولهذا من قالها علىٰ وجه النهي عنه فإن سلم من التكذيب بالقضاء والقدر لم يسلم من المعاندة له، واعتقاد أنه لو فعل ما زعم لم يقع المقدور، ونحو ذلك، وهذا من عمل الشَّيْطَان، فإن قيل: ليس في هذا رد للقدر ولا تكذيب به، إذ تلك الأسباب التي تمناها من القدر، فهو يقول: لو أني وقفت لهذا القدر لاندفع به عني ذلك القدر، فإن القدر يدفع بعضه ببعض. قيل:

هذا حق ولكن ينفع قبل وقوع القدر المكروه، فأما إذا ما وقع فلا سبيل إلىٰ دفعه، وإن كان له سبب إلىٰ دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولىٰ به من قول: لو كنت فعلت، بل وحقيقته في هذا الحال أن يستقبل فعله الذي يدفع به المكروه ولا يتمنىٰ ما لا مطمع في وقوعه، فإنه عجز محض، والله يلوم علىٰ العجز، ويحب الكيس ويأمر به، والكيس مباشرة الأسباب التي ربط الله بها بمسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، انتهىٰ ملخصًا من كلام ابنُ القَيِّمِ.



الشَّرح (١)



---

(١) قام فضيلة الشيخ بالتعليق علىٰ هذا الجزء من المتن في الكلام السابق.



باب: النهي عن سب الريح

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي لأنها مأمورة ولا تأثير لها في شيء إلا بأمر الله، فسبها كسب الدهر، وقد تقدم النهي عنه، فكذلك الريح.



المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر قبل هذا البابِ باباً في القدرِ،وسيأتي بعد هذا الباب بابٌ ثانٍ في القدرِ، وهو: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وسيأتي بعد الباب الثاني بابٌ آخر في القدرِ، باب ما جاء في منكري القدر. فإقحامُ هذا البابِ بين أبواب القَدَرِ قد يكون سهواً وقد يكون عمداً؛ لأن سبَّ الريحِ وهي من قَدَرِ الله الكوني ربما يكون اعتراضاً على قدرِ الله، فلعلَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحظَ هذا، وهو أنَّ هذا البابَ له علاقةٌ بالقَدرِ من حيث عدمِ الرِّضَىٰ بما يُقدِّره الله عَزَّ وَجَلَّ من مظاهرِ الكون، وإلا فأحياناً يجمع الكاتب أو المُؤَلِّفُ أبوابَ الكتاب ولم يُعِد النظرَ فيها، ولو أعاد النظر فيه ربَّما أخَّر أو قدَّم.

فسبُّ الريحِ مُحرمٌ؛ لأنَّ الـريحَ مـأمورةٌ، مثـل سـبِّ الـدَّهرِ أو سـبُّ المطرِ الشديدِ، أو حرُّ الشمس الشديدِ، أو البردِ الشديدِ، كل هذه من تقـدير الله ﷻ لا تُسبُّ ولا تُذمُّ، وليس لها اختيار، بل بتقديرِ الخالقِ ﷻ. فـلا نَسُـبُّ الـريحَ، بـل جاءَ الحَدِيثُ أنه إذا رأىٰ الإنْسَان ما يكـره أن يسـأل خيرهـا وخيـرَ مـا أُمِـرَت بـه ويستعين من شرِّها وشرِّ ما جاءت بـه. فهـذا هـو الموقـفُ الصـحيحُ، أمـا سـبُّ الريحِ أو سبُّ الليلِ والنَّهـارِ أو سـبُّ الشـمسِ أو البحـرِ، فهـذا جهـلٌ ونقـصٌ في العقلِ؛ لأنَّ هذه ليست لها عقـولٌ ولا اختيـارٌ، الـذي يُـدبِّرها ويُسـخِّرُها هـو الله ﷻ. فالمُسْلِم له موقفٌ مُؤدبٌ مع مظاهرِ الكونِ وهو أنه لا يسبُّ؛ لأنهـا لـيس لهـا اختيـارٌ، وموقفنـا إذا اشـتدَّت الـرِّيحُ أن نسـتعيذَ بـالله مـن شـرِّها ونسـألَ اللهَ خيرَها، ونلجأَ إلىٰ صاحبِها ومدَّبرِها ومُنشِئِها الذي هو اللهُ ﷻ.

والـذي ينظـر في مخلوقـات الخـالِقِ يـرىٰ عجبـاً، لا توجـد ريـحٌ خـارجَ الأرض، الغلافُ الجويُ فقط فيه ريحٌ، ولا يوجدُ في بقيـةِ الكواكـب هـواءٌ؛ لأنَّ الأرض تحتـاجُ هـذا الهـواءِ، لـو لـم يكـن عنـدنا ريـحٌ وهَـواءٌ يتحـرك لتعفَّنـت الأرضُ، حفظَهـا اللهُ بـالريح كمـا حفـظَ البحـرَ بـالملح، البحـرُ الضـخمُ الكبيـرُ العجيبُ الذي يُقدر مساحتُه بثلثـي الأرضِ، فيـه مـن الأسـماكِ والحيتـانِ أمثـال الجبالِ، وتموتُ هذه الحيتان في أعماقِ البحارِ، لو مات قِطٌ أو فأرٌ في خزان مـن المـاءِ بجانبـك يـتعفَّن، لمـاذا لا تـتعفَّن هـذه البحـارُ؟ لأنَّ الله حفظَهـا بـالملحِ. سبحان الخالِقِ! البحارُ كلُها مالحةٌ، لو لم يكن فيها أملاحُ مـا اسـتطاع الإنْسَـان أن يعـيش علـىٰ ظهـرِ الأرض، لكـن الخـالِقَ خلـقَ الأرضَ مـن أجلـك، هـذه الأرضُ مسـخرةٌ لـك، فلـو لـم يجعـل فيهـا هـذا النظـامُ مـا اسـتطاع الإنْسَـانُ أن يعيشَ.

كذلك الهواء، الهواءُ له فائدةٌ عظيمةٌ جداً، لو لم يكن هناك هواءُ ما انتقل

الصوتُ، الهواء كذلكُ مشبعٌ بالأكسجين الذي يحتاجُه الإنْسَانُ لكي يتنفس، فإنه لو لم يكن فيه أكسجين لما استطاع الإنْسَانُ أن يعيش، كذلك الهواء ينقل السحبَ والمياه من المحيطات والبحارِ إلىٰ الأراضي الجافة، فكم في الهواء من فائدةٍ لا تُحصىٰ ولا تُعد، لا يستطيع الإنْسَان أن يعرف كيف يتحرك الهواءُ، إنما يدرس المظاهرَ فقط، تهبُّ ريحٌ من الجهةِ الفلانية وتهبُّ من الجهةِ الفلانية فقط، لماذا تهبُّ أحياناً دون أحيانٍ؟ لماذا المطرُ ينزل أحياناً دون أحيانٍ مع أن المطرَ تنعقد أسبابُه في كل لحظةٍ، بخار الماء الذي يصعدُ من المحيطات هو الذي ينزلُ مرةً أخرىٰ، هذه الأرض مُستودعٌ فيها أرزاقُها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت:١٠]، ومقدَّرٌ فيها.

ولهذا في أعماقِ الهواء في الغلاف الجوي توجدُ منطقةٌ باردةٌ شديدةٌ جداً، البخارُ إذا وصلَ إليها تجمَّد، ما يتعدَّاها؛ لأن محلَّه هنا، ثم يرجع مرةً أخرىٰ. لكن لماذا لا ينزلُ المطرُ باستمرار والبخارُ مُستمرٌّ؟ لأن الذي ينزلُه هو الله ﷻ، ليس الإنْسَانُ، وليس المطرُ من نفسه ولا الهواءُ من نفسِه يُنزِلُ المطرَ.

فهذا الهواءُ من نعم الله، فلا ينبغي لك أن تسبَّ نعمَ الخالِقِ، قد تعرف أحياناً بعض الحِكمِ وقد تجهل بعض الحِكَمِ، فإذا لم تعرف الحِكمةَ من الشيءِ لا تنكر حكمةَ خَلقِه، مثلاً الحياتُ والثعابينُ كلُّها سمومٌ، لكن فيها حِكَمٌ، هل نعرف؟ قد نعرفُ وقد لا نعرف. يقول ابنُ القَيِّمِ رحمه الله: من حكمِ هذه الأشياءِ أن تعرف بعض أنواعِ الأذىٰ وبعض أنواعِ العقابِ في الآخِرَةِ، لو لم يكن عقابٌ في الدُّنْيَا وشيءٌ يُؤذيكَ ربما لا تتصورُ الآخِرَةَ. هذا طَرفٌ وإلا فإنَّ هناك أشياءً لا نعلمها؛ لأن جهلك لا يدل علىٰ عدم الحكمة.

والعُلَمَاءُ يذكرون أن النَّاس يتفاوتون في إدراكِ الحكمةِ، لو جاء طفلك وسألك عن عملٍ في بيتك كأن يسأل: لماذا يا أبت وضعت باب البيت هنا؟

لماذا تضع هذا الشيء في هذا المكان؟ لماذا تخرج من هذا الطريقِ؟ ربما لو أردت أن تشرح له ما تستطيع أن تفهمه؛ لأن مستواه العقلي أقل من مستواك، كذلك النَّاس يتفاوتُون. ولهذا نرىٰ في قصةِ الخَضرِ ومُوسَىٰ -عليهما السلام- قصةً عجيبةً، الخَضرُ عبدٌ من عباد الله، وهو نبيٌ لا شكَّ فيه، ومُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الأنْبِيَاءِ الذين يُسمُّون بأولي العزمِ، عندما رافقَ مُوسَىٰ بعقلِه الكبيرِ الخضرَ لم تنكشف له الحكمةُ من أفعال الخَضرِ حتىٰ أخبره. فالعقول تتفاوت في إدراكِ الحِكَمِ.

فقد آمنتَ باللهِ وعرفتَ أنَّ اللهَ حكيمٌ، إن عرفتَ الحِكمةَ من خلقِه سَلِّم، وإن لم تعرف تُسلِّم، نحن في حياةِ البشر نرىٰ أُناساً يستسلمون لأُناسٍ، يقول الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: لو كان في قريةٍ طبيبٍ ماهرٍ، لا يذهب إليه أحدٌ إلا شُفي بإذن الله، فذهبت إليه وأعطاك علاجاً وقال: تأخذُ مقدارُ كذا في الصباح ومقدار النصفِ في الظهر، ومقدار الربعِ في المساء فلا تناقشه لماذا النصفُ والثلثُ والربعُ؛ لأنك واثق فيه؛ لأنَّ سُمعتَه بين النَّاس وخبرته جعَلت الإنْسَانَ يثقُ فيه، فإذا كان هذا موقفُك مع مخلوق مثلك ألا يحسن أن يكون موقفك مع الله مثل هذا الموقفِ؟ بلىٰ. فسبُّ المخلوقات خطأٌ، نُسلم للخالقِ وإن لم نعرف؛ لأننا نعرفُ ونؤمنُ بأن ربَّنا حكيمٌ. فالريحُ من خلق الله وتجري بأمرِه، وفيها من النِّعَم والفوائدِ ما لا يُحصىٰ، فإن جاءت في يومٍ من الأيام شديدةً وأثَّرت عليك لا تسبُّها، بل اسأل الله خيرَها واستعذ بالله من شرِّها. هذا هو الموقفُ الصحيحُ للمُسْلِمِ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: عن أبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به) صححه الترمذي.

قوله: (عن أبي بن كعب) أي ابن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي أبو المنذر، صحابي بدري جليل، وكان من قراء الصَّحَابَة وقضاتهم وعلمائهم، وله مناقب مشهورة، اختُلف في سنة موته، فقال الهيثم بن عدي: مات سنة تسعة عشر، وقال خليفة بن خياط: سنة اثنين وثلاثين، يقال فيها مات أُبي بن كعب، ويقال بل مات في خلافة عمر.

قلت: وقيل غير ذلك.

قوله: (لا تسبوا الريح) أي لا تشتموها ولا تلعنوها للحوق ضرر فيها، فإنها مأمورة مقهورة فلا يجوز سبها، بل تجب التوبة عند التضرر بها، وهو تأديب من الله - تَعَالَى - لعباده، وتأديبه رحمة للعباد؛ فلهذا جاء في حديث أبي هريرة مرفوعًا: (الريح من روح الله، قال سلمة: فروح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه. وكونها قد تأتي بالعذاب لا ينافي كونها من رحمة الله.

وعن ابن عباس أن رجلاً لعن الريح عند النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: (لا تلعنوا الريح، فإنها مأمورة وإنه من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة إليه)، رواه الترمذي وقال: غريب.

الشَّرح

قوله: (قال: عن أبي بن كعب...) أُبي بن كعب من كبارِ الصَّحَابَة ﭭ، وقد جاءت أحاديثُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: **(إن الله أمرني أن أقرأ عليك القُرْآن)**[١] **– أو أقرأ عليك سورة كذا"** فأُبيّ ﭬ من خيارِ الصَّحَابَةِ ﭭ، والمُؤَلِّفُ ﭬ يُترجِم عادةً لمن يروي الأَحاديثَ.

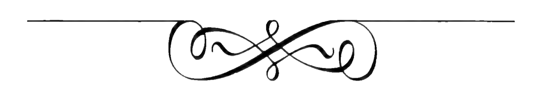
قوله: (**قوله: لا تسبوا الريح، أي لا تشتموها...**) هذه الأَحاديثُ تُبيِّنُ لنا أنَّ المُسْلِم لا يجوزُ له أن يسبَّ الريحَ؛ لأنها إنما تتحرك بقدر الله وبأمر الله ﻷ، والإنْسَانُ قد يدرس مظاهرَ الرِّيحَ وحركتها ويعرف طرفًا من سيرها وحركتها، لكن لا يعني هذا أننا ننفي تقديرَ الله لها وأمرَ اللهِ لها، وأنها مأمورةٌ بقدَرِ الله، مثلُ الخُسوفِ، الإنْسَانُ قد يستطيع أن يعرفَ متىٰ يقعُ الخسوفَ والكسوفَ، لكن هل يعني هذا أنَّ هذا الخسوف والكسوفَ ليس له علاقةٌ بحركةِ بني آدم من أنها عقابٌ من الله أو أنها تخويفٌ من الله؟ لا، لكنَّ الخالِقَ ﻷ أقام هذا الكون علىٰ سننٍ ونظامٍ دقيقٍ، بل هذا يزيدنا خشوعًا لله وتعظيمًا له ﻷ؛ لأنَّ الأجرام الميتةَ الهامدةَ تجري بدقةٍ متناهيةٍ، الإنْسَانُ في الأَرض يمشي بعقله وسمعِه وبصرِه، وقد يصطدمُ مع إنسانٍ مثله سميعٍ بصيرٍ عاقلٍ، ولكنَّ هذه الكواكبَ في السماء لا يصطدمُ نجمٌ بنجمٍ ولا تتقدم في سيرِها ولا

---

(١) أخرجه البُخَارِيُّ في صحيحه، كتاب النفسير، سورة البينة، برقم: (٤٩٦٠). ومُسْلِم في صحيحه بدون لفظ "القُرْآن"، كتاب الصلاة، باب استحباب قراءة القُرْآن علىٰ أهل الفضل والحذاق فيه وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه، برقم: (٧٩٩)، (١/ ٥٥٠).

تتأخر في سيرِها، هذه الشمسُ منذ أن خلقها اللهُ ﷻ إلىٰ الآن وهي تجري بنظام دقيقٍ، نورُها هو هو، حرارتها هي هي، سَيرُها هو، ما الذي يضبِطُها؟ نظامٌ نظَّمَها الله به ﷻ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨]، تقدير الله، ليس ذلك من نفسها، لكن الإنْسَان عندما يعرف بعض مظاهرِ الكون يصاب بشيءٍ من الغرورِ، وأحيانًا يظن أن هذا ليست وراءه حكمةٌ، ليس وراءه تدبير، بل يجب علينا أن نربطَ ما يقع في الكونِ من حركةٍ أو من زيادةٍ في بعض مظاهرِه نربطها إلىٰ أن هذا من تقدير الله، وأنَّ له علاقةً بالإنْسَان، وأن الله أراد أن يذكر الإنْسَان ولو عرفنا ذلك مسبقًا، هكذا جاءت الأحاديثُ، وهكذا موقفُ المُسْلِم مع مظاهرِ الكون يتعامل معها ويعتقد أنَّ الله الذي نظمها، هو الذي حركَّها وأرسلها، قد تكون عذابًا، وقد تأتي برحمة.

وسيأتي في حديثٍ أنَّ النَّبِيّ ﷺ كان إذا رأىٰ السحاب يتغير لونه ويدخل ويخرج خشيةَ أن يكون في السحابِ عذاب(١)، فهكذا المُسْلِمُ يتعاملُ مع المظاهرِ الكونيةِ من هذا المُنطلقِ، أي: يتعلَّق قلبُه بخالقِ الأشياء، بمدبِّرِها الذي هو الله ﷻ.



(١) أخرجه مُسْلِم في صحيحه باختلاف في اللفظ، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح عند المطر، برقم: (٨٩٩)، (٢/ ٦١٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الشافعي: لا ينبغي شتم الريح، فإنها خلق مطيع لله، وجند من جنوده، يجعلها الله رحمة إذا شاء ونقمة إذا شاء.

ثـم روي بإسناده حديث منقطع أن رجلاً شكا إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ الفقر، فقال له: (لعلك تسب الريح).

وقال مطرف: لو حُبست الريح عن النَّاس لأنتن ما بين السماء والأرض.

قوله: (فإذا رأيتم ما تكرهون) أي من الريح، إما شدة حرها أو بردها أو قوتها.

قوله: (فقولوا اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح) أمر ﷺ بالرجوع إلىٰ خالقها، وآمرها الذي أَزِمَّة الأمور كلها بيده، ومصدرها عن قضائه، فما استُجلبت نعمة بمثل طاعته وشكره، ولا استُدفعت نقمة بمثل الالتجاء إليه والتعوذ به والاضطرار إليه، والاستكانة له ودعائه والتوبة إليه، والاستغفار من الذنوب.

قالت عائشة: كان رَسُوْل الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به. وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأدبر وأقبل، فإذا مطرت سُري ذلك عنه فعرفت عائشة ذلك فسألته، فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾ [الأحقاف:٢٤] رواه البُخَارِيُ ومُسْلِم.

الشَّرْح

قوله: (ثم رُوي بإسنادٍ حديث منقطع) ويجوز أن نقرأ: (ثم روىٰ حديث بإسناده حديثًا منقطعًا)، لكن هنا ورد مرفوعًا علىٰ أنه مَبني للمَجهولِ.

هذا الحَدِيث ضعيف أنَّ شخصًا اشتكىٰ الفقرَ، وقال له: (لعلَّك تسبُّ الريحَ) واضحٌ من متنه أنه ليس من كلامِ النُّبوةِ.

قوله: (**قالت عائشة: كان رَسُوْل الله ﷺ إذا...**) هكذا المُسْلِم يعيش بحساسية النفس المترقِّبة الخائفةُ؛ لأن الإنْسَان لا يدري ما حالُه عند الله، فعندما يرىٰ شيئًا قد عذَّب الله به أقوامًا قبلنا لا ندري أيحملُ الخيرَ أم الشرَّ؟ وإن كنا في هذه الأُمَّةِ الإسْلَامية لم يعاملنا الله معاملةَ الماضين بكثرةِ العقوبات القَدرية، لكن ربما أنَّ الله ﷻ يعاقِب بهذه الريح والسحاب، فالإنْسَان هكذا يعيش، فهذا سيدُ البشر ﷺ كان يخافُ أنَّ السَّحاب فيه عذابٌ وهو إمامُ المتقينَ وسيدُ المرسَلين ﷺ، فنحن أولَىٰ، هكذا ينبغي أن يعيشَ الإنْسَانُ مع الله بهذه الحياة وبهذا المسلك، فيعيش في نعيم؛ لأنَّه له علاقةً بخالقِه، أمَّا الذي ينقطع عن الله فإنه مثل الدَّابةِ يأكل ويشرب، ولا يدري ماذا يحدث في كونِ الله - تَعَالَى -.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

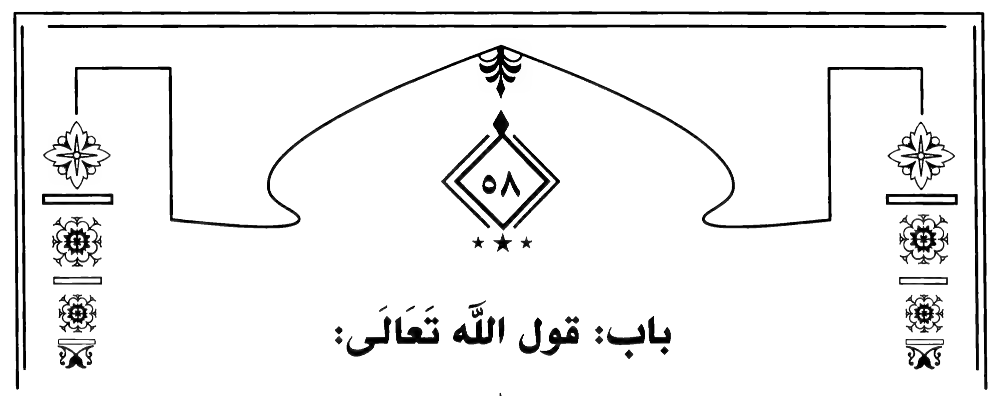
فهذا ما أمر به ﷺ وفعله عند الريح وغيرها من الشدائد المكروهات، فأين هذا ممن يستغيث بغير الله من الطواغيت والأموات، فيقولون يا فلان الزمها أو أزلها، فالله المستعان.



الشَّرْح

يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ بعضِ المُتَصوِّفةِ الذين يَدعُون المخلوقَ من دون الله، فإذا وقعَت بهم مصيبةٌ أو بلاءٌ لجئوا إلىٰ المخلوقِ، إلىٰ من يزعمونهم أولياءَ، فدَعَوهم من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا ـ نعوذ بالله ـ شركٌ، والمُسْلِمُ قلبُه مرتبطٌ بخالقِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في السَّرَّاء والضَّرَّاء، ولا يلتفت إلىٰ المخلوقِ.





باب: قول الله تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]



المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أورد هذا الباب ليبين موقف المُسْلِم من أقدار الله وأنه لا يظنُّ بالله إلا الظنَّ الحسنَ، وقد أورد في هذا الباب آيتين: الآيةُ الأولىٰ التي عنوَن بها البابَ، والثانية قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦]، وأورد الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ ثلاثة أحاديث، حديثين صحيحين وحديثًا ضعيفًا.

الحَدِيثُ الصحيحُ الأولُ: قولُه ﷺ في حديث قدسي: **(أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني)**(١)، والحَدِيث الثاني: **(لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن**

---

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب التَّوْحِيد، باب قول الله - تَعَالَىٰ -: "ويحذركم الله نفسه"، برقم: (٧٤٠٥). ومُسْلِم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث علىٰ ذكر الله - تَعَالَىٰ -، برقم: (٢٦٧٥)، (٤/ ٢٠٦١).

الظـن بـالله)[١]. هـذان صـحيحان. الثالـث الضـعيف: **(حسـن الظـن مـن حسـن العبادة)**[٢].

وأورد أيضـاً كلامـاً طـويلاً عـن ابـنُ القَـيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسـير هـذه الآيـة، ثـم الشَّارِحُ أورد الكلامَ بكامله أثناء الشَّرحُ وزاد عليه.

هذا النص الذي نقله عن ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ يتضمن عدة مسائل:

منها: أن ظنَّ الجاهليةِ الذي أشار إليه هو تكذيبُ الجاهليةِ بقَدَرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤]، ويقولـون: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]. فهؤلاء أنكروا القدرَ أو جهلوه، أو تشكَّكوا في حكمةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم ذكر الحكمةَ من الابتلاءِ، الله قد يبتلي المؤمنَ ويبتلي الكافرَ، فيبتلي المؤمنَ ليُمحِّصَه ويُطَهرَه من ذنوبِه، ويبتلي الكافرَ عقابـاً عـاجلاً قبل عقابِ الآخِرَةِ، فالابتلاءُ من الله لا يخلو من حكمةٍ إن كان علىٰ المؤمنِ وإن كان علىٰ المُنَافِقِ.

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بـالله - تَعَالَىٰ - عند الموت، برقم: (٢٨٧٧)، (٤/ ٢٢٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الظن، برقم: (٤٩٩٣)، والإمام أحمد في مسنده، برقم: (٩٢٨٠)، (١٥/ ١٦٠)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الرجاء من الله - تَعَالَىٰ -، برقم (١٠١٨)، (٢/ ١٠)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب حسن الظن بالله - تَعَالَىٰ -، برقم: (٦٣١)، (٢/ ٣٩٩)، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة، بـرقم: (٧٧٣٨)، (٤/ ٣٨٨)، والقضـاعي في مسـند الشـهاب، بـرقم: (٩٧٣)، (٢/ ١٠٣)، وصححه الحاكم، ولكن ضعفه الذهبي في التلخيص، وضعفه أيضـاً الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

ومن ظنِّ الجاهليةِ كذلك اعتقادُ المُنَافِقينَ أنَّ الله لن ينصر رَسُوْلهﷺ، وقلنا إنه في غزوة أُحدٍ رجع رئيس المُنَافِقينَ عبد الله بن أُبي بثلثِ الخارجين معه، فعندما وقعت الهزيمةُ قالوا: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] أي: لو أطاعَنا ورجعنا مع من رجع ما قُتلنا في هذا المكان. قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾ [آل عمران:١٥٤]، قَدرُ الله نافذٌ، فلا يستطيع الإنْسَانُ أن يردَّ قدرَ الله، ولا ينبغي له أن يظنَّ أنه يستطيع بحيلتِهِ أن يردَّ القدرَ، فالذي يقعُ لا يُردُّ، أنت تتحركَ لردِّ الغيبِ الذي لا تدري عن مجيئه، أمَّا الذي وقع فلا يَتَغيرَّ إلا ما كان يَتغيرُ بالأسباب فتتخذ السببَ لرفعه، لا تقول: لو أنني فعلتُ لما وقعَ. هذا منهيٌّ عنه.

وقد أشار ابنُ القيِّمِ رحمه الله إلىٰ عقائدَ وظنونِ الجاهليةِ الموجودةِ لدىٰ بعض الفرقِ والطوائف، فذكر منه: أنه من اعتقد أنَّ الله يمكن أن يُعذبَ الطائع ويُنَعِّم العاصي فهذا ظنٌّ من ظنِّ الجاهلية، ومن ردَّ أسماءَ الله وصفاته فقد ظنَّ ظنَّ الجاهليةِ، ومن أنكر القدَر فقد ظنَّ ظنَّ الجاهليةِ، وهكذا جاء بجميع عقائدِ الفرقِ المختلفة وجعل جميع عقائدِهم من ظنِّ الجاهلية.

ثم ذكر رحمه الله أن من ظنِّ الجاهلية: بعضُ عقائدِ الأشاعرة الذين يزعمون أنَّ القُبحَ والحُسنَ في الأشياء شرعيان وليسا عقليين، وهذه المسألة فيها مذاهب:

المعتزلة يرون أن الحسنَ والقبحَ عقليان، فما حسَّنه العقلَ فهو حسنٌ، وما قبَّحه فهو قبيحٌ.

والأشاعرة قابلوه، يرون أن الحُسن والقبحَ شرعيان، فالحسنُ ما حسَّنه الشرع، والقبيحُ ما قبَّحه الشرع، والعقل لا يعرف الحسنَ والقبيحَ استقلالاً.

وأهل السُّنَّةِ والجماعة يقولون: إن الحسنَ والقبح منهما ما هو شرعيٌ ومنهما ما هو عقليٌ. فالإنْسَان يعرف حُسنَ العدلِ وحسن الصدق وحسنَ الكرمِ، ويعرف قبحَ الكذب وقبح السرقةِ وقبح القتلِ، هذه الأمور تُعرف بالعقل.

فابنُ القَيِّمِ وقبله ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ لهم ردودٌ طويلة على مذهب المعتزلة ومذهب الأشاعرةِ، وقررا مذهبِ أهل السُّنَّةِ والجماعةِ في هذه المسألة، قالوا: إن منها ما يكون عقلياً ومنها ما يكون شرعياً، فالشرعي مثلاً: الكذبُ مذمومُ وقبيح، لكن الشرع عندما أباحَه لمصلحةِ الإنْسَان أباحَ كذب الرجل على زوجته لحماية الأسرةِ من التصدُّع، وأباح الكذبَ في الإصلاح بين النَّاس، فهذا الشرعُ أباحَه فكان محموداً.

وما جاء به الشرع فإن العقلَ يُدركُ حسنَه، فعندما يأمر الشرع بشيء يكون حسناً لا شكَّ فيه، والعقل يدرك هذا الجانبَ.

فابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تكلم على عقائدِ هذه الطوائف، بَيَّنَ أنَّ كلَّ ما خالفت فيه الكتابَ والسُّنَّةَ وعقيدةَ السلفِ فإنه من ظنونِ الجاهلية. ثم ذكر أن من ساوى بين الطائع والعاصي واعتقد أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يعاقب الطائع ويثيب العاصيَ، قال: فهذا كذلك من ظنِّ الجاهلية.

كذلك من ظنون الجاهلية أن الإنْسَان الذي يُحرَمُ المالَ ويظنَّ أن الله قد ظلمَه أو أنَّ الله لم يعطه ما يستحقُّ، أو أن الله عندما يبتليه بالفقر أو يبتليه بالمرض يقول: فلانٌ لا يستاهل!! كيف ما يستأهل؟ بعض الأشخاص قد يتأوه إذا أُصيبَ بمرض، قال: فلان لا يستاهل!. فالذي يُمرضُ الله، المرضُ بيد الله، فهذا من أقدارِ الله، فلا تعترض على قدرِ الله، ولا تقول: الله لماذا يعطي الكفارَ مالاً لماذا يعطيهم قوةً ولا يعطي المُسْلِمين؟ كل هذا اعتراض على قدرِ الله، ولله حكمةٌ في كلِّ ما يفعل.

لا يعني هذا أن الله ﷻ قسّمَ الأشياء في الدُّنْيَا بين المُسْلِمين والكفارِ، فالكفارُ أعطاهم المالَ ونحن أعطانا الفقر، لكن الله جعل أسباباً ووفَّق النَّاس للأسباب. مثلاً بعض النَّاس يقول: إن اللهَ جعل الكفار لهم جنةُ في الدُّنْيَا، في أمريكا وبريطانيا وفرنسا في الغرب، أي: عندهم الخضرةُ والأمطار. إن الله لم يُقسِّم الأرضَ على هذا الأساس، إنما هكذا طبيعة الأرض، وهناك مؤمنون وكفار، وعندنا في البلاد الشرقية التي فيها جَدَبٌ وقحطٌ كفارٌ ومؤمنون.

فالله لم يجعل نعيم الدُّنْيَا للكفار، يقول ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف:٣٢]، فهي لهم لكن نحن فرطنا، وإلا فالدُّنْيَا لنا والآخِرَةِ لنا. فالمُسْلِم ينبغي أن تكون الأرض كلها له في الدُّنْيَا، ولم تأت آية أو حديث تنهىٰ عن الدُّنْيَا، إنما الذي جاء التحذير من فتنتها، وإلا فإن بعض الصَّحَابَة ﷺ كان يملك كثيراً من المال مثل عبد الرحمن بن عوف ﷺ وهو من العشرة المبشرين بالجنة كان يملك من المال ما كان يُقسم بالكؤوس من الذهب بعد وفاته ﷺ لكثرة ماله، فلا أي: هذا أن المال ليس لنا، لكن لا تجعل هذا هدفك، فلا تترك الحركة والأسباب ولا تتخذ الأسباب للدنيا وتنسىٰ الآخِرَةِ.

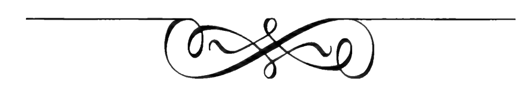
فالاعتراض علىٰ عطاء الله ﷻ من عقائد الجاهلية، أنت تتحرك وما قُدر لك سيأتي، الإنْسَان مطلوب منه الحركة واتخاذ الأسباب، لكن لا يأتيك إلا ما قُدر لك. نحن وجدنا أصحاب عقول عجيبة ودقيقة تدرس الحركة الدنيوية دراسة متكاملة، تدرس المشاريع دراسة كاملة بذكائها وقدرتها، ولكنها تفشل في النتيجة تصاب بالخسارة. وفي المقابل نرىٰ أشخاصاً ليست عندهم هذه القدرة، وإنما يضربها هكذا ضرباً ويفاجأ بأنه يأتيه الثراء، فهذا يؤكد أن هذا ليس بقدرة الإنْسَان إنما بتوفيق الله - تَعَالَى - وقدَره.

ومن نعمة الله علىٰ الإنْسَان المُسْلِم أن يحميه مما يكون سبباً لضلاله، وكم رأينا من حوادث، كم رأينا من أشخاص أصحاب مال لو لم يكن لهم مال ما انحرفوا، لكن الله أراد أن يضلهم لخبث في نفوسهم فأعطاهم المال، ولم يوفقهم ولم يحفظهم؛ لأنهم ليس لهم توجه إلىٰ الله ﴿عَجَلَّ﴾.

فالإنْسَان إذا رأىٰ إنساناً مبتلًىٰ لا يظن أن الله ظلمه بل لحكمة فعل به ذلك، والإنْسَان إذا ابتُلي يصبر فإن الدُّنْيَا ستنتهي. كم كان قبلنا من مرضىٰ، وكم كان قبلنا من أصحاء، كم كان قبلنا من أثرياء وفقراء وهكذا، أين هم ؟ رحلوا، ما الذي بقيَ لهم؟ ما قدموه لأنفسهم عند الله ﷻ.

فلا ينبغي للإنسان أن يعترض علىٰ حكمةِ الله وقدره، لكن لا يكون هذا سبباً في التواكل، بل تتخذُ الأسبابَ وما قدَّره الله ﷻ سيأتي، فإن حُرمت أو مُنعت لتعلم أنَّ هذا خيراً لك، لا تدري أين الخيُر، ربما لو كان عندك مال ما تأتي إلىٰ الصف الأوِل في الصلاةِ، تكون مشغولاً بمالك. كم من صاحبِ مالٍ مشغول بماله حتىٰ لو صلىٰ لا يدري، يدخلُ المسجد ويقفُ مع النَّاس وتنهي الصلاة ويخرج منها، ولو سُئل ماذا حدث في المسجدِ لا يدري؛ لأن تفكيرهم في أشياء أخرىٰ. فهذا محرومٌ وإن كان عنده مالٌ.

فالإنْسَان إذا رأىٰ في الدُّنْيَا تناقضات ورأىٰ ما لا يدركه عقلُه لا يعترضُ، بل يُسلِّم الأمرَ لخالقِه، فإن ربنا ﷻ حكيم في شرعه وحكيم في خلقه ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أراد المُصَنِّفُ بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله؛ لأن ذلك من واجبات التَّوْحِيد، ولذلك ذم الله من أساء الظن به؛ لأن مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره وقوة المتوكل عليه، فإذا تم العلم بذلك أثمر له حسن الظن بالله. وقد ينشأ حسن الظن من مشاهدة بعض هذه الصفات، وبالجملة فمن قام بقلبه حقائق معاني أسماء الله وصفاته قام به من حسن الظن ما يناسب كل اسم وصفة؛ لأن كل صفة لها عبودية خاصة، وحسن ظن خاص.

وقد جاء الحَدِيث القدسي: (قال الله - تَعَالَى -: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني) رواه البُخَارِيُ ومُسْلِم.



الشَّرح

تكملةُ هذا الحَدِيث: (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعـًا...)[1] إلى آخرِ الحَدِيثِ، فهذا الحَدِيث يُبينُ أَوَّلُه أنه يجبُ على الإنْسَان المُسْلِم أن يُحسنَ الظنَّ بخالقِه، لا تظنُّ بالله ظنَّ السوء، فالله كريمٌ، الكونُ كلُّه ملكُه، والآخِرَةِ ملكُه، وأنت عبدٌ من عبادِه، ولا ينقصُ شيءٌ من مُلكِه إذا أعطاك عَزَّ وَجَلَّ، فأنت تسألُ اللهَ من خيرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وإن جاءك الموتُ فينبغي أن تُحسنَ الظنَّ بخالقِك وأنَّ اللهَ رحيمٌ وأنه كريمٌ عَزَّ وَجَلَّ، لا تُسء الظنَّ بالله، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحبُّ

(١) أخرجه البُخَارِيُ في صحيحه، كتاب التَّوْحِيد، باب قول الله - تَعَالَى - "ويحذركم الله نفسه"، برقم: (٧٤٠٥). ومُسْلِم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله - تَعَالَى -، برقم: (٢٦٧٥)، (٤/ ٢٠٦١).

الصَّالِحِينَ ويحب المُؤْمِنِين ولن يُعذبَ عبدَه الصالحَ.

فأحسن الظنَّ بالله لا تُحسن الظنَّ بعملِك، فإن عملنا لا يُقدِّم شيئاً ولا يُؤخرُ، لكن كونُ اللهِ وَفَّقنَا للعمل الصالحِ فهذا دليلٌ علىٰ محبتِّه لنا إن شاء الله.

وقد سبقت القصة التي قالها البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ، قصةُ القاضي مع أَمَتِه عندما بحث عنها في الليلِ فلم يجدها علىٰ فراشها، فشكَّ فيها، فبحث عنها وإذا بها ساجدةً تُصلي، وسمعها تقول: اللهم بِحبِّك إياي اغفر لي، أي: تَتوسلُ إلىٰ الله بأنه يُحبُّها. وهذا مشروعٌ أو جائزٌ، وإن كان لم يُشَرِّعْه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لنا، ولم يأت عن الصَّحَابَةِ ولا عن كبارِ عُلماءِ الأُمَّةِ، لكنه جائزٌ، فقد جاء في حديثِ الثلاثة الذين دخلوا الغارَ أنهم تَشَفَّعوا بأعمالهِم إلىٰ اللهِ. فهذه المرأةُ تعرفُ أنها تحبُّ اللهَ وأنَّ اللهَ يحبُّها، فقالت: اللهم بحبِّك إياي اغفر لي. ما قالت بحبي إياك، فكيف تعرفُ أنَّ الله يحبُّها؟ فقال لها القاضي بعد أن انتهت من الصلاةِ: لا تقولي اللهم أسألك بحبِّك إياي، ما الذي أدراك أنَّ اللهَ يحبُّكِ؟ لكن قولي أسأُلكَ بحبِّي إياك. فقالت هذه الأَمة لهذا القاضي الكبير: حبُّه إياي أيقظَ عينيَّ وأنام عينَيك. تعني ما الذي أقامَني من فراشي لأُصلي صلاةَ الليل إلا اللهُ؟ وإلا فكلنا نحبُّ النومَ وأنت نائم علىٰ فراشك وأنا أقومُ أُصلي. فالقاضي تعجَّب من كلامها، فقال: اذهبي فأنت حرةٌ لوجه الله. رأىٰ عجباً، امرأةٌ بهذا الفهمِ والإدراكِ! هذا نورٌ في القلب.

فالله إذا وفَّقَك للخير فإنه يحبُّك، علامةُ حبِّ الله لك أن تعملَ الطاعةَ تبتغي بها وجهَ الله؛ لأنَّ هذا من توفيقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكونُ الله وَفقَك لطاعته دليلٌ علىٰ محبَّته فلا تسئ الظن به، هو الذي وفقك، فلو لم يوفقك ما استطعت أن تقوم بطاعةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل موته بثلاثة أيام يقول: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ) رواه مُسْلِم وأبو داود.

وفي حديث عند أبي داود وابن حبان: (حسن الظن من حسن العبادة) رواه الترمذي والحاكم. ولفظهما: (حسن الظن بالله من حسن العبادة).



الشَّرح

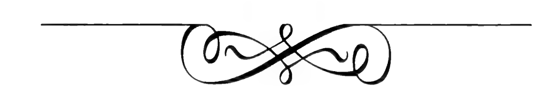
قوله: (**وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع...**) يقول العُلَمَاءُ: حسن الظنِّ بالله يرافقُ الإنْسَان طوالَ حياتِه، لكن لا ينبغي أن يمنعَك من الطاعةِ والعملِ الصالحِ وتقول أُحسِنُ الظنَّ بالله، قال بعض السلف: "لو أحسنَ الظنَّ بالله لأحسنَ العمل". أما أن تُسيءَ بعملِك وتقولُ أنا أحسنُ الظنَّ بالله فأنت كاذبٌ، فحُسنُ الظنِّ بالله مع حسنِ العمل، هذا هو المطلوبُ، أما أن يسيء في عملِه ويحسن الظنَّ بالله فهذا تناقضٌ، لو أحسنَ الظنَّ بالله لأحسنَ العملَ؛ ولهذا يقول العُلَمَاءُ: الإنْسَانُ يعيش بين جناحين: الخوفُ والرجاءُ، فينبغي أن يُغلِّبَ جانبَ الخوفِ أثناءِ الحياةِ حتىٰ يدفعَه للعمل، وإذا اقتربت الوفاةُ هنا يُغلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ في اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه لا ينبغي له أن يلقَىٰ الله إلا علىٰ حُسنِ ظنهٍ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (**وفي حديث عند أبي داود وابن حبان...**) هذا الحَدِيث في سندِه مجهولٌ، ونحن قلنا: إن كتبَ السُّننِ ليس كل ما فيها صحيحًا، فهذا الحَدِيثُ في سنده راوٍ مجهولٌ، والمجهولُ إذا جاء في السندِ يكون ضعيفًا، لكن المعنىٰ من حيث الجملةِ صحيحٌ، قد يُقال: كيف يكون معناها صحيحًا ويكون

سندُها ضعيفـاً ؟ الرَّاوي أحيانـاً يسمع الحكمـةَ مـن الصَّـحابِي أو يسمعُها مـن التابعي ويكون الذي يـتكلَّم بهـا مـن العُلَمَـاء فيقـع في ذهنه أنها حـديثٌ مرفـوعٌ فَيَهِمَ فيرفعَه، أو يتعمدَ الرفعَ لأسباب عدةٍ، إما ليُكثرَ ما معه من الأحاديثِ وهـو لا يكـون عنـده ورعٌ يمنعُـه مـن ذلـك كمـا كانـت تفعلُ بعضُ الطوائـف، كـانوا يعتقدون أنَّ الكذبَ علىٰ النَّبِيِّ ﷺ ليس كذبـاً مذمومـاً إذا كـان فيـه ترغيـبٌ أو ترهيب، حتىٰ إن بعضَهم عندما كُشف وقيل له كيف تُكذب علىٰ الرَسُوْل ﷺ وقد قال: (**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده مـن النار**)[1] قـال: أنـا لا أكـذبُ علىٰ رَسُوْلِ الله أنا أكذِبُ له.

مثـل المـرأة التـي جـاءت للمـأمون تـدَّعي النُّبـوةَ، فقـال لهـا: ألـم تقرئـي الحَدِيث: (**لا نبي بعدي**)[2] قالت: صدقَ رَسُوْلُ الله، لكن ما قال لا نبيةَ بعـدي! أحيانـاً العقل البشري يصابُ بشيء من الجمود والانغـلاقِ، فهـي تعـرف أنـه في الحَدِيث قال: (لا نبيَّ بعدي)، وهل هناك نبيةٌ أصلاً في التـاريخ، حتىٰ يقـولُ لا نبيةَ بعدي؟.

فالشاهد أن الإنْسَان قد يُخطئ في فهمِه أو في ظنِّه وهو لا يشعُر.



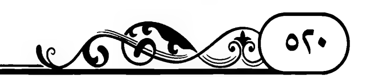
(١) أخرجه البُخَارِيُ في مواضع من صحيحه، منها: كتاب العلم، باب إثـم مـن كـذب علىٰ النَّبِيّ ﷺ، برقم: (١٠٧)، ومُسْلِم في مقدمة صحيحه، باب تغليظ الكذب علىٰ رَسُوْل الله ﷺ، برقم (٢)، (١/ ١٠).

(٢) أخرجه البُخَـارِيُ في صـحيحه، كتـاب أحاديـث الأنْبِيَـاء، بـاب مـا ذكـر عـن إسْرَائِيلَ، بـرقم: (٣٤٥٥). ومُسْـلِم في صـحيحه، كتـاب الإمـارة، بـاب وجـوب الوفـاء ببيعـة الخلفـاء الأول فالأول، برقم (١٨٤٢)، (٣/ ١٤٧١).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (يقولون: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران:١٥٤])، قال ابنُ القَيِّمِ: ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤]، فليس مقصودهم بالكلمة الأولىٰ والثانية إثبات القدر ورد الأمر كله لله، ولو كان مقصودهم لما ذموا عليه، ولما حسن الرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية؛ ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل هاهنا هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم لكان رَسُوْل الله ﷺ وأصحابه تبعـًا لهم يسمعون منهم لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فكذبهم الله ﷻ في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلىٰ أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه أنهم كانوا قادرين علىٰ دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرىٰ به قلمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان ولابد شاء النَّاس أم أبوا، وما لم يشأ لم يكن شاءه النَّاس أو لم يشاؤوه، وما جرىٰ عليكم من الهزيمة والقتل فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلىٰ دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء أو لم يكن، فإنكم لو كنتم في بيوتكم وقد كُتب القتل علىٰ بعضكم لخرج من كُتب عليه القتل من بيته إلىٰ مضجعه ولابد، سواء كان له من الأمر شيء أو لم يكن.

وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاء الله، وأن يشاء مالا يقع.



الشَّـرْح

قضيةُ القدرِ من المسائل التي وقع فيها الخلافُ بين الأُمةِ، وهـي مـن أقـدمِ مسائلِ الخلافِ، فما هو القَدَرُ وما هو القَضـاءُ؟ القَضـاءُ والقَـدرُ كلمتـان تَـردَان دائمـاً في كُتُبِ السُّنَّةِ وفي كُتبِ العقيدةِ.

القضاء: هو عِلمُ الله بما سيحدثُ وإرادتُه لـه. والقـدر: إخـراجُ هـذا العلـمِ والإرادةِ إلىٰ حَيِّزِ الوجودِ.

لا يتغيرُ القضـاءُ أو القـدرُ. جـاء في بعـض الأحاديـث **(أنـه لا يـردُّ القـدرَ إلا الدعاء)**[1]، وهذا الحَدِيث ليس صحيحـًا، حديثٌ مردودٌ سنداً ومتنـًا، وإن قـال به بعض العُلَمَاء. القضيةُ قضيةُ دراسةٍ وتأمُّلٍ؛ لأنَّ القضاء يتعلَّق بعلـمِ الخـالِقِ، الله عَلمَ وكَتبَ، فكيف يردُّه الدُّعاءُ؟ وبعضُ العُلَمَاء أحيانـًا يأتون إلـىٰ أحاديـثَ ضـعيفةٍ ويَـرون أنها تُصادِمُ نصـًا قويـاً أو قاعـدةً شـرعيةً، فيريـدون أن يجمعـوا بينهمـا، كمـا قـالوا في هـذه القضـية: القضـاءُ منـه مُبرَمٌ ومنه مُنَجَّزٌ، كيف مُبرمٌ ومَنجَّزٌ؟ القضاءُ واحدٌ، القضاءُ يتعلَّق بعِلمِ الخـالِقِ، الله كتـبَ كـلَّ شـيءٍ، خلـقَ القلمَ وأمـره أن يكتـبَ كـلَّ شـيءٍ منذ خلـقَ الكـونِ إلـىٰ قيـام السـاعة لا يتغَير، فقضاءُ الله لا يُرد.

الدُّعاءُ سببٌ أراد الله أن يُحدثَ له نتيجةً، قد كتب أن فلانـًا سيدعو بكذا والله سيعطِيه كذا، هذا مكتوبٌ، أما أن نقول إن قضاءَ الله يُرد، فهذا طعنٌ في

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القـدر، بـاب لا يـرد القـدر إلا الـدعاء، بـرقم: (٢١٣٩)، وابـن ماجه في مقدمة سننه، باب في القدر، برقم: (٩٠)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٢٣٨٦)، (٣٧/ ٦٨)، والحاكم في المستدرك، كتـاب، بـرقم: (١٨٦٥)، (١/ ٦٧٥)، والبيهقـي في شـعب الإيمـان، بـرقم: (١٠٢٣٣)، (٧/ ٢٥٨)، والطـبراني في المعجـم الكبيـر، بـرقم: (١٤٤٢)، (٢/ ١٠٠)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي عليه، وحسنه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي.

الخالِقِ وطعنٌ في الدينِ، فأنت بين أمرين: إمَّا أن تطعنَ في الخالِقِ أو تطعن في فهمِ العَالِمِ، العَالِمُ بشرٌ يخطئُ ويصيبُ، والحَدِيثُ ضعيف، ورد فيه حديثان ضعيفان، وبعض العُلَمَاءِ لا يُمحص، ينبغي تمحيصُ الأحاديثِ، وبخاصة في مثل هذه القضيةِ؛ لأنها قضية عقدية. القضاءُ لا يُرَدُّ، قضاءُ الله يقوم على عِلمِه ﷻ، فعلمُ الله لا يتغيَّر، الله الذي قد كتبَه هو الذي سينفذ، قد يُقال: فما معنى قَوْلهُ - تَعَالَى -: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، هل معناه يمحو من كتابه الذي كتبه فيه؟ فكيف يمحو شيئًا قد كتَبه وكتبَه بعلمِه أم الكتاب لا يُمحى منه شيءٌ؟، المَحوُ من كتبِ وصحفِ الملائكةِ، الملائكة كتبوا أنك شقيٌ لما يرون من ظاهرك وأنت عند الله سعيدٌ، ما يدرُون، علمُ الله لا يعرفه أحدٌ، المحوُ والإثباتُ من كتبِ الملائكة ليس من الكتابِ الأُمِّ، علمُ الله لا يتغَيَّرُ، قدرُ الله لا يُردُّ، قضاء الله لا يُنتقَضُ، فكل حديثٍ جاء يتعارض مع هذه العقيدةِ المُسْلَّمَةِ الثابتةِ فإنه حديثٌ مردودٌ ولو كان صحيحًا، ومن ذلك حديثٍ في صحيحِ مُسْلِم وهو: خلقُ الله ﷻ التربة يوم السبت وخلق فيها الجبالَ يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلقَ المكروه يوم الثلاثاء وخلقَ النورَ يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميسَ وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة"[(١)]، فهذا نردُّه وإن كان في صحيح مُسْلِم؛ لأنَّ القُرْآنَ يقول: خلقَ الله السمواتِ والأرضَ كلَّها في ستةِ أيامٍ، وهذا جعل خلقَ الأرضِ كلِّها في سبعةِ أيام، من أين جاء هذا اليوم السابع؟ السبت ما خلقَ الله فيه شيئًا، هذه قضيةٌ ثابتةٌ ليس فيها أخذٌ وردٌ، ولهذا البُخَارِيُ والعُلَمَاءُ كلُّهم قد نقضوا هذا الحَدِيثَ وردُّوه.

---

(١) سبق تخريجه.

فهذه المسألة فيها أحاديث ضعيفة، وبعض العُلَمَاء القدماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وجزاهم خيراً فإنهم مُجتهدون، يأتون إلىٰ الأحاديثِ الضعيفةِ المتعارضَةِ ويجمع بينها، هذه ما صحَّت أصلاً، والجمعُ لا يكون إلا بين صحِيحين.

فقضية القضاءِ والقَدرِ قضيةٌ ثابتةٌ نؤمن بها وهي من أركان الإيمان، كما جاء في حديثِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **(وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)**[1]. القَدَرُ: أي ما يحدثُ في الكون من قَدَرِ الله، وهذا يقوم علىٰ العلمِ. ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ جعل القدر علىٰ أربع مراتب: علمُ الله بالشيء، وإرادتُه له، وكتابتُه له، ثم خلقُه إياه. أيها الذي يُنتقضُ؟ لا ينتقض شيءٌ من علمِ الله، الله كتبَ، لا يتغيَرُ ما كتب، الله علِمَ، لا يتغيرث عِلمُ الله.

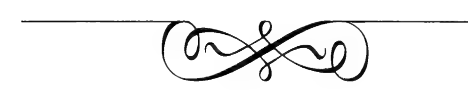
الشيعةُ عندهم عقيدةٌ وهي البَدَاءُ، يعتقدون أن الأئمةَ يعلمون الغيبَ، الإمام قد يقول إنَّ الله سيفعلُ كذا، وإن لم يحصل ما أخبر به قال: بدا لله أن يُغَيِّرَ. أي: ما يتهم نفسَه بالخطأ، الله أخبرني لكنه غيَّر، الله له حقٌّ أن يُغَيِّرَ!!، أي: الله كذبَ عليك، وما كان يدري! هذا اعتقاد الرافضةُ أنَّ الأئمةَ يعلمون ما سيكون، وقالوا بعقيدة البَداءِ علىٰ الله؛ لأنَّ الإمام إذا أخطأ في كلامِه رَجَّعوه إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ! -نعوذ بالله من سخطه-.

فنحن نقول: علمُ الله لا يتغيرُ، والقضاءُ لا يُرد، والدُّعاءُ من القضاءِ، الدُّعاءُ من قدرِ الله، الدُّعاءُ سببٌ، لكن هذا السببُ قد كتبَه الله وأنك ستدعو به وسيحدُث كذا، كلُّ شيءٍ مكتوبٌ، فالذي يعتقدُ أنه سيدعو دعاءً جديداً غيرَ مكتوبٍ وسيردُّ ما هو مكتوبٌ فإنه وقع في عدَّةِ محاذير، منها: أنه اتهمَ اللهَ بأنه

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسْلَام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله - تَعَالَىٰ -....، برقم (٨)، (١/ ٣٦).

لا يعلمُ بأن فلاناً سيدعو، ثم إنه سيُغير ما كتبَ. فهذا تناقضٌ عجيب في الحقيقةِ، والعُلَمَاء بشرٌ، ما هناك عالم لا يُخطئ، وكما يقول ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لو كان كل ما يقول العَالَمُ صحيحاً لكان هذا العَالِمُ مُساوياً للنبيِّ ﷺ. فكلنا نُخطئ، العالِمُ يخطئُ والجاهل يخطئُ، والمؤمنُ يخطئُ والفاسقُ يخطئُ، والخطأُ وارد على كل إنسانٍ. فهذا ما يتعلقُّ بالقَضاءِ والقَدرِ، بعض الأشخاص عنده شيء من اللبسِ والغموضِ حول هذه القضية فأحببت أن أُنبِّه عليها.

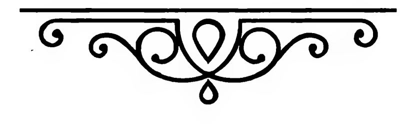


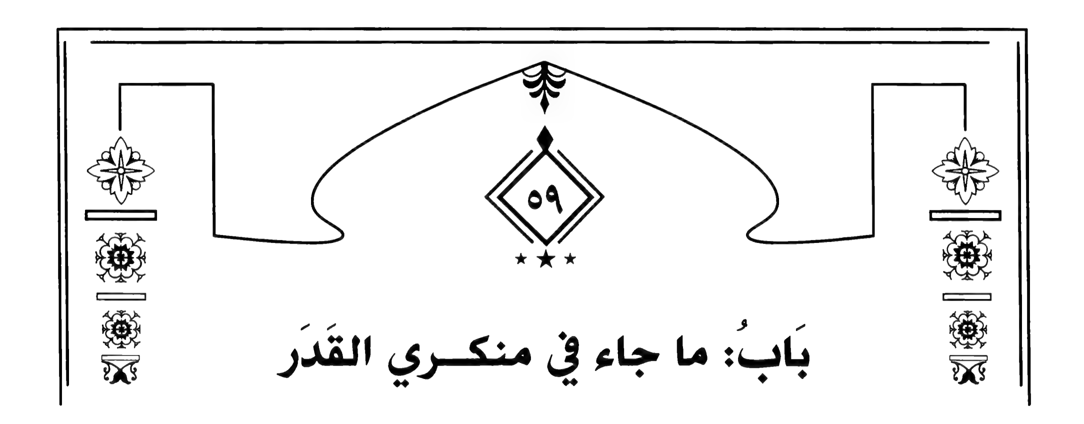
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] **أي يختبر ما فيها من الإيمان والنِّفَاق، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، والمُنَافِق ومن في قلبه مرض لابد أن يظهر ما في قلبه علىٰ جوارحه ولسانه.**

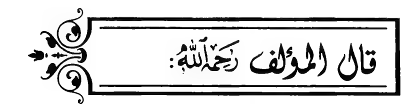


الابتلاءُ عامٌّ للمُسْلِمِ والمُنَافِقِ، لكنَّ المُسْلِمَ يُبتلىٰ لتمحيصِ ما في قلبِه من الشرِّ حتىٰ لا يُعاقَب عليه، والمُنَافِقُ يُبتلىٰ ويُمحَّص ما في قلبِه للعقاب العاجلِ قبلَ الآخِرَةِ.





بَابُ: ما جاء في منكري القَدَر



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش: أي من الوعيد، والقَدَر بالفتح والسكون ما يقدره الله من القضاء ولما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القَدَر

قال القرطبي: القَدَر مصدر قدرت الشي بتخفيف الدال، أقدِره وأقدُره قدراً، وقدر إذا حصلت بمقداره، ويقال فيه: قدَّرت أُقَدِّر تقديراً مشدد الدال، فإذا قلنا إن الله - تَعَالَى - قدر الأشياء فمعناه: إنه تعالىٰ علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده علىٰ نحو ما سبق في علمه، فلا محدث في العالم العلوي والسفلي إلا هو صادر عن علمه تعالىٰ وقدرته وإرادته، هذا هو المعلوم من دين السَّلَف الماضين الذي دلت عليه البراهين. ذكر المُصَنِّفُ ما جاء في الوعيد فيمن أنكره تنبيهاً علىٰ وجوب الإيمَان، ولهذا عده النَّبِيّ ﷺ من أركان الإيمَان، كما ثبت في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما سئل عن الإيمَان فقال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَر خيره وشره، قال: صدقت).

الشَّرح

هذا البَابُ أورده المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ ليُبين أنَّ الإِيمَانَ بالقَدَرِ رُكنٌ من أركانِ الإِيمَانِ وأنَّه لا يصحُّ إيمانُ الإِنْسَان إلا بالإِيمَان بالقَدَر، وأنَّ إنكارَ القَدَرَ يُخرج الإِنْسَانَ من الإسْلَام إلىٰ الكُفْر، وقد مرَّ في البَابُين السابقين: (بَابُ النَّهي عن سبِّ الريحِ)، و(بَابُ يظَنُّون بالله غير الحق ظَنَّ الجَاهِلِيَّة)، أنَّ القَدَرَ مُتعَلِّقٌ بعلمِ الخَالِقِ، أي: اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - عَلِمَ ما سيكونُ قبل أن يكون ثمَّ خلقَ القلمَ وأمره بأن يكتبَ ما عَلمَ عَزَّ وَجَلَّ من شأنِ الخَلائقِ، فهذا هو القَدَرُ، لا يَنقُصُ منه شيءٌ ولا يزيدُ فيه شيءٌ، والمُسْلِم يؤمن بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قد علمَ ما سيحدُث، وقد جاء في الحَدِيْث: (**أنَّ الله قدَّرَ مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يَخلُقَ السَّماوَاتِ والأرضِ بخمسين ألفَ سنةٍ**)(١)، نعم، خمسون ألفَ سنةٍ!، الإِنْسَانُ يتفاوتُ الزمانُ عنده، لكنَّ الماضِيَ والمُستقبَلَ والحاضِرَ عند الخَالِقِ سَواءٌ. أنزل اللهُ علىٰ نَبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آياتٍ منها: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القمر:١] أين السَّاعَةُ؟ وقد قال ذلك قبل ألف وأربعمائة سنةٍ، لكنَّ الخَالِقَ كلُّ شيءٍ عنده قريبٌ، فقبل خلقِ السَّماوَاتِ والأرضِ بخمسينَ ألفِ سنةٍ كتبَ الله مقاديرَ الخلائقِ، فربُّنا عَزَّ وَجَلَّ تقديرُه عظيمٌ، لا يوجدُ في ملوكِ الدُّنْيَا هذا التقديرُ العظيمُ؛ لأنَّ البشر تقديرُهم صغيرٌ إمَّا لعامٍ أو عامين أو ثلاثةٍ، لكنَّ رَبَّ العَالَمِينَ قدَّر قبلَ خمسين ألف سنةٍ!

قدَّر مقاديرَ الخلائقِ كلِّها قبلَ أن يخلُقَها، ثمَّ أَوَّلُ ما خلقَ الله القلمُ وكان

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه بلفظ: "كتب الله مقادير الخلائق... الخ" كتاب القَدَر، بَابُ حجاج مُوْسَىٰ وآدم عليهما السلام، برقم: (٢٦٥٣)، (٤/ ٢٠٤٤).

عرشُه علىٰ الماء؛ لأنَّ العرشَ فوق هذا الكونِ الموجودِ، وإلا فإنَّ اللهَ ﷻ كان له مخلوقاتٌ قبلَ هذا كلِّه، لكنَّ أولَ ما خلقَ اللهُ في الكونِ القلمُ، **فقال له: اكتب قال: وما أكتبُ يا ربِّ؟ قال: كلَّ شيءٍ إلىٰ قيامِ السَّاعَةِ**، لا يعرفُ القلمُ الغيبَ، بل يكتُب بأمرِ الخَالِقِ ﷻ، فكلُّ شيءٍ مكتوبٌ والإنْسَانُ المُسْلِم يُؤمنُ بهذا، والعقلُ البشريُ إدراكُه محدودٌ، قلنا: إن النَّاسَ متفاوتون في إدراكِ الأشياءِ وهم مَخلوقُون، فما بالك بالذي خلقَ الخلقَ؟ وضربنا مثلاً بقصةِ مُوْسَىٰ والخَضرِ - عليهما السَّلامُ - كلاهما نَبِيٌ، ومُوْسَىٰ عليه السلام من الخمسةِ أُولي العزمِ من الرُّسُلِ، وكان يخطبُ في قومِه فيُعجب النَّاسُ به، فسألوه يا مُوسَىٰ هل تعرف أحداً أعلمَ منك؟ قال: لا. وهو ما كذبَ؛ لأنه أجاب بما في عِلمَه، لكنَّ اللهَ ﷻ بيَّن له أن بعضَ خلقِي موجودٌ وهم أعلمُ منك، فقال: يا ربِّ دُلَّنِي عليهم حتىٰ أتعلَّم منهم. فقال هو في المكان الفلاني:" مَجمعُ البحرين، هناك تجدُ هذا العبدَ، فاذهب إليه"، وأعطاه علامةً:أنَّ السَّمك الذي يكون معك في المِكتل إذا خرج من مكتلِه وعاشَ من جديدٍ هو في هذا المكان، فذهب وعندما قابلَه مُوْسَىٰ عليه السلام قال له: أريدُ أن أُصاحِبك وأتعلَّمُ منك، قال: ما تستطيعُ يا مُوْسَىٰ!؛ لأنَّ العقول البشرية تتفاوتُ، والعلمُ الإلهي الذي أعطاه اللهُ النَّاسَ يتفاوتُ، فقال له مُوْسَىٰ عليه السلام: إن شاءَ اللهُ أكونُ صابراً معك، فعندما بدأَ وخرَق السَّفينةَ، ومعلومٌ أنَّ السفينة لا تجري في البحرِ إلا إذا كانت مُحكَمَةً ليس فيها خرقٌ وإذا خرَقها تغرقُ، فمُوْسَىٰ عليه السلام عقلُه ما تحمَّل وهو نبيٌّ مُصطَفَىٰ كلَّمه اللهُ ﷻ بدون جبريلَ عليه السلام مباشرةً، لكنَّ اللهَ أراد أن يُعلِّمه ويُعلِّمُنا، فنقل اللهُ القصةَ بكاملها ليعلِّمَنا، فقال الخَضِرُ: يا مُوْسَىٰ أنت وَعدتَني أنك لن تعترضَ! قال: هذه المرةُ سامِحني، المرةُ الثانيةُ وجد طفلاً يجري في

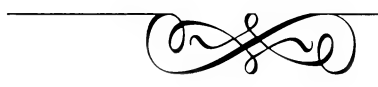
الحيِ وجاء الخَضِرُ فقتلَه، هذه ما تحمَّلها قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤]، قال: كيف تقتلُ هذا الإِنْسَان؟ فقال: يا مُوْسَىٰ! ذكَّره، أخيراً قال: إذا عُدتُ مرةً ثالثةً فلا تصاحِبني، ثم دخلوا القريةَ فاستضافوا أهلَها؛ فما ضَيَّفوهم، فالخضرُ عندما مرَّ بجدارٍ كادَ أن يسقطَ قال: تعال نعيدُ البناءَ، قال: يا خَضرُ ما ضَيَّفونا هؤلاء، فكيف نقيمُ جدارَهم؟ فقال: ألم أقل لك، ثمَّ أخيراً اعترفَ بأنه ما يستطيعُ أن يمشيَ معه، ثلاثُ حوادثَ وما تحمَّل.

هذا مخلوقٌ مع مخلوقٍ، فكيف بعقلِ البشرِ مع ربِّ العَالَمِينَ؟ فإذا أصررت أن تعرفَ القضيةَ بكاملِها لن تنكشفَ لك بكاملِها؛ لأنك تطلب أن تكونَ مثلَ ربِّ العَالَمِينَ، فالمُسْلِم له مَوقِفان: موقفٌ يتعلَّق بقضايا الغيبِ، وموقفٌ يتعلَّق بقضايا الحاضرِ، الموقفُ الأول التسليمُ أي أن تُسَلِّم وتُصَدِّقَ، ولا تبحث بعقلِك، وهذه أولُ صفاتِ المُؤْمِنِين؛ لأنَّ أَوَّلَ صفاتِ المُؤْمِنين في كتابِ الله الإِيمَانُ بالغيبِ، ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١-٣]، فلا تُتعِب عقلَك بأن تحاولَ معرفةَ الغيبِ وتطمعَ أن يصلَ عقلُك إلىٰ مستوىٰ علمِ الخَالِقِ؟ القَدَرُ من الغيبِ، فلا ندرىٰ أنَّ قدَرَ الله كيف يجري، وكيف تَلتَقي مشيئتُنا مع مشيئةِ الخَالِقِ، لكننا نؤمن بأنَّ لنا مشيئةً واختياراً لكنَّ مَشيئتَنا مربوطةٌ بمشيئةِ الخَالِقِ، كيف تلتقِي المشيئتان؟ لا ندري؛ لأنَّ "قضايا كَيْفَ" فوق طاقةِ العقليةِ البشرية، نحن في حياتنا اليوميةِ وفي صناعات الإِنْسَانِ اليوم نُؤمنُ بوجودِ الكهرباءِ، ونفتح سلكَ الكهرباءِ، لا نرىٰ شيئًا يجري فيها لكن تُضيءُ اللمبَة، فتعلمَ أنَّ هناك كهرباءَ تجري، تلمِسها بيدك تَنتفِض، فالعقلُ والحواسُّ ما تستطيع أن تُدرِك كلَّ شيءٍ، وتُوجَدُ أشياءٌ في حياتنا والسمعُ لا يسمعُها والبصرُ لا يراها، فهذا الجوُّ في هذا المكان مملوءٌ بالصورِ والأصواتِ، منها ما هو من خلقِ الخَالِقِ، ومنها ما هو من بثِّ

الإِنْسَانِ، الآن تفتح التلفزيونَ تشاهدُ الصورةَ، جاءت الصورةُ من فوق رأسِك، لماذا ما تراها بعينِك؟ الله ما أعطاك القَدَرة؛ لأن من مصلحتك أن لا ترىٰ كلَّ شيء، لو كنت ترىٰ كلَّ شيءٍ ما تستطيعُ أن تعيشَ، تفتح الإذاعةَ تسمعُ الصوتُ، جاء هذا الصوتُ من فوق رأسك، ومن رحمةِ اللهِ أنه جعل لأذنِك وسمعِك حدّاً مُعيَّناً إذا زادت ذبذبةُ الصوت عن هذا الحدِّ لا تسمعُ، لو سمعتَ ما تستطيعُ أن تعيشَ.

فقدراتُك البشريةُ محدودةٌ، فإذا أردت أن تحيطَ بهذه القَدَراتِ المحدودةِ بالأمرِ الذي لا يُحاطُ والذي ليس له حدٌّ تكون قد حمَّلتَ نفسَك فوق طاقتِها، ولهذا الباحثون في القَدَرِ في الماضي أخطئوا في حقِّ أنفسِهم؛ لأنهم اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يُدرِكُوا الغيبياتِ بعقولِهم، وأرادوا أن يُحاكِموا الخَالِقَ ﷻ إلىٰ القوانين التي تحكمُ الإِنْسَانَ، فأخطئوا وأساءوا، فالإِنْسَانُ لا ينبغي له أن يخوض في قضايا الغيبِ بل يُسَلِّم، فالقَدَرُ نُؤمنُ به وأنه يحكُمنا لكننا لنا اختيارٌ يترتَّب عليه الثوابُ والعقابُ، هذا الذي يجبُ أن نفهمَه، وما نتعدَّىٰ هذا الحدَّ؛ لأننا لا نستطيع، ولو خرجنا عن هذا الحدِّ نعيشُ حياةً مضطربةً لا تستقيمُ وننتهي إلىٰ الحَيرةِ التي أصابت كثيراً من المُتكلِّمِين، والذي يقرأُ في حياةِ المُتكلِّمين الذين خاضوا بعقولِهم في مسائلِ الغيبِ يرىٰ أنهم انتهوا في آخرِ حياتِهم إلىٰ الحَيرةِ وندِموا علىٰ ما قدَّموه وعلىٰ ما فعلوه، فنحن لا ينبغي لنا أن نقعَ في هذا، المُسْلِم الذي يتلَقَّىٰ علمَه من كتابِ الله ﷻ ومن سُنَّةِ رَسُوْله ﷺ يُسلِّمُ وهذا مجالُ الاعتقادِ، وقلت لكم أنَّ الغزاليَّ رَحِمَهُ اللهُ يضرب مثالاً علىٰ هذا: بطبيبٍ ماهرٍ في قريةٍ من القرىٰ أهلُها مُجمِعون علىٰ أنَّ هذا الطبيبَ ماهرٌ لا يُعالِجُ إنساناً إلا شُفي، فلو مرضَ إنسانٌ عاقلٌ وذهب إليه وقال: يا فلانُ خذ مقداراً من العلاجِ: في الصباحِ كذا وفي الظهرِ ضاعِفه مرتين

وفي المغربِ انقصه إلىٰ نصف الأول لمدة أسبوع، هل لنا أن نناقشَه لماذا ما لا تكون الكميةُ مُتساويةً؟ في الصباح نصف وفي الظهر مضاعفٌ وفي المغرب رُبع؟ لا نناقشُه؛ لأنَّ ثِقَتَنا فيه تجعلُنا لا نسألُه، فإذا كانت ثقتُك في مخلوقٍ تجعلُك لا تسألُه ولا تعترضُ عليه فينبغي أن تكون ثقتَك في الخَالِقِ أعظمُ؛ لأنَّ الله ﷻ له الصفاتُ العُلىٰ، الله حكيمٌ لا يعملُ إلا لحكمةٍ، لا يفعلُ إلا لحكمةٍ، والله عدلٌ لا يظلمُ أحداً، والله رحيمٌ أرحمُ بنا من أنفسنا، فهذه صفاتُ الخَالِقِ، أنت تتعرفُ علىٰ صفات خالقِك ثم تُسَلِّم، والبحثُ في هذا المجال خطيرٌ، فلهذا ينبغي للإنسانِ أن يُسلِّم، الذين بحثوا نَدموا ووصلوا إلىٰ الاضطرابِ والحَيرةَ، ولهذا لا ينبغي للمُسْلِم أن يبدأ من حيث بدءوا بل من حيث انتهوا، هم انتهوا إلىٰ الندمِ، فنحن من البداية ما نخوض حتىٰ لا نندمَ كما نَدِموا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رَسُوْل الله ﷺ يقول: (إن الله - تَعَالَى - كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السَّماوَاتِ والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء).

الشَّرح

الحَدِيْثُ السابقُ حديثُ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من رِوايةِ عمرَ بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يروِه إلا: مُسْلِم، الرِّوَايَةُ الطويلةُ التي يرويها عبدُ الله بنُ عمرَ لم يروها البُخَارِيُّ، إنما رَوى روايةَ أبي هُرَيْرَةَ التي هي أوجزُ من هذه الرِّوَايَة، فقوله في الحاشية: (إنه رَواه البُخَارِيُّ) خطأٌ، الصَحِيح أنه تفرد به مُسْلِم، لكنه أراد أن الحَدِيْث أصله في الصَحِيحين لا هذه الرِّوَايَة. هذا الحَدِيْث يذكر **(أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة)**[1]، كلُّ شيءٍ مكتوبٌ؛ كما قلنا أن بعض النَّاس يرى في المنامِ حدثاً، ويقع كما هو في اليومِ الثاني أو الثالث أو بعدَ ذلك، من أين رأت النَّفسُ؟ الله كشفَ للنِّفسِ مما في اللوحِ المحفوظِ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ مُسجَّلٌ، كلُّ شيءٍ مكتوبٌ عند اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، لا يتغيَّر القضاءُ ولا القَدَرُ؛ لأنَّه مبنيٌ على علمِ الخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا، الذي يتغيَّرُ هو ما يكون في علمِ المخلوقِ الذي لا يستطيعُ أن يعرِفَ الغيبَ، أمَّا الخَالِقُ فإنَّه لا يَتغيَّرُ شيءٌ من قضائِه وقدرِه، بل يقعُ كما أراد اللهُ؛ لأنَّ الله علِم وكتبَ، فلو تغيَّر لكان نقصاً في علمِ الخَالِقِ، ونقصاً في إرادةِ الخَالِقِ، ونقصاً في كتابةِ الخَالِقِ، فيكون الكتابُ الأوَّلُ غيرَ صَحِيح، فعلمُ الله لا يَتغيَّرُ، والقَدَرُ لا يَتغيَرُ، لكن

(١) سبق تخريجه.

ليس القَدَرُ أمراً فرضَه الله عليك، الله خلقَك وأعطاكَ اختياراً وعلِمَ أنه سيأتيك رَسُوْل أو يأتيك الكتابُ أو يأتيك داعيةٌ فيدعوك إلىٰ الخيرِ فتستجيبَ وتكونَ من أهلِ الجَنَّةِ كتبَ هذا، أو ترفُضُ وتمتنعُ فتكونَ من أهلِ النَّارِ، فكتبَ هذا، فإذاً اللهُ كتبَ ما سيحدُثُ ليس كما يزعمُ البعض أنَّ اللهَ ﷻ جبرَ النَّاسَ علىٰ أمرٍ ليس من أعمالِهم، وإلَّا كيف يحاسبُنا؟ وكيف يعاقِبُنا إذا كان هذا ليس من أفعالِنا ونحن عليه مُجَبَرُونَ؟ واللهُ رحيمٌ عدلٌ لا يَظلِمُ كما في حديثِ أبي ذرٍ القُدسِي المشهورِ: **(يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا)**[1] فاللهُ لا يَظلِمُ، رَبُّنَا عدلٌ ورَبُّنا رَحيمٌ، فلمّا كان قد يُفهم أنَّ الإِنْسَانَ يستطيعُ أن يفعلَ ما يُريدُ قال الله: لا، أنت لك اختيارٌ لكنك تحتَ حكمِ المالكِ، تحتَ الذي يملِكُك وهو اللهُ ﷻ، فليس معنىٰ أنَّ لك اختياراً أنك تفعلُ شيئًا لا يريدُه الله، بل أنت تتحركَ في داخلِ إرادةِ الخَالِقِ، إذا أرادَ أن يمنعَك منعَك، إذا أراد أن يُعينَك أعانَك، إذا أرادَ أن يُوفِقَك وَفَقَك، فلك اختيارٌ لكنَّك محكومٌ في داخل الكونِ، كما أنَّك محكومٌ بهذا الغلافِ الجوي ما تستطيع أن تخرج منه كذلك مَشيئةُ الخَالِقِ مُحيطةٌ بك من كلِّ مكانٍ؛ لأنَّك تعيشُ في مُلك المالكِ ﷻ، ما تعيش خارجَ مُلكِه، إذاً هذا مفهومٌ أنَّ مشيئةَ اللهِ تحيط بمشيئة المخلوقِ.

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧)، (٤/ ١٩٩٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كل شيء بقدر حتى العجز والكيس). رواهما مُسْلِم في صَحِيحه.

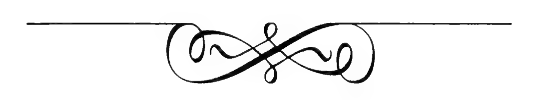
وعن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رَسُوْل الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، والبعث بعد الموت، ويؤمن بالقَدَر) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم في صَحِيحه، والأَحَادِيث في ذلك كثيرة جداً قد أفردها العُلَمَاء بالتصنيف، قال البغوي في شرح السُّنَّة: الإيمَان بالقَدَر فرض لازم وهو: أن يعتقد أن الله - تَعَالَى - خالق أعمال العباد خيرها وشرها كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم، قال الله - تَعَالَى -: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات:٩٦]؛ فالإيمَان والكُفْر والطاعة وعد عليها الثواب، ولا يرضى الكُفْر والمعصية ووعد عليهما العقاب، قال الله - تَعَالَى -: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

الشَّرح

قوله: (وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال...) العجزُ: الضعف في الإِنْسَانِ، والكَيسُ: الفِطنةُ والذَّكاءُ، كلُّ هذا قدرُ الله؛ لأنَّ الله -سبحانَه وَتَعَالَىٰ -- خلقَ الخلقَ وزَوَّدَهم باستعداداتٍ وإمكاناتٍ مُتفاوتةٌ، هذا إنسانٌ ذكيٌ، وهذا إنسانٌ غبيٌ، هذا إنسانٌ صَحِيح، وهذا مريضٌ، هذا إنسانٌ عالِمٌ وهذا إنسانٌ جاهلٌ، هذا إنسانٌ جميلٌ، وهذا إنسانٌ قبيحٌ كلُّ هذا قدرُ الخَالِقِ؛ لأنَّ اللهَ هو الذي خلقَ، والقَدَرُ مُرتبِطٌ بخلقِ الله -سبحَانه وَتَعَالَىٰ - هذا مرادُ الحَدِيْث والله أعلم.

قوله: (**وعن علي ﷺ قال...**) هناك أربعةُ أشياءٍ -كما سيأتي في كلامِ ابنِ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ- مُرتبطَةٌ بالقَدَر، ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ قال إنها مراتبُ، لكنها ليست مراتبُ بالمفهومِ الاصطلاحي، فليست مَرتَبةً فوقَ مَرتبَةٍ، إنما نقول: إنَّما القَدَرُ يقومُ علىٰ أربعةِ أُسُسٍ: أنَّ اللهَ عَلِمَ، وأنَّ الله قدَّرَ، وأنَّ اللهَ كَتَبَ، ثم لا تخرجُ إلىٰ الوجودِ إلا إذا خلقَها الله عَزَّ وَجَلَّ، أي: أنَّ اللهَ علمَ وأرادَ فكتبَ ثمَّ خلقَ، فأفعالُ العبادِ من خلقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف يخلقُ حركاتنِا؟ وكم في الأرضِ من بشرٍ؟ لا ندري، إدراكُ هذا فوقَ طاقةِ الإِنْسَان، نحن ضربنا مثالاً بجهازِ الهاتفِ، كيف تنطلقُ المُكالمات من مكان إلىٰ مكانٍ وليس هناك أسلاكٌ؟ تَنطلقُ من الطبقِ الأرضِي إلىٰ الطبقِ في الجو، ومن الطبقِ في الجوِّ إلىٰ الطبقِ الأرضي في مكانٍ آخر، تتكلَّم من هنا في استراليا مثلاً في لحظةٍ واحدةٍ تنطلقُ المكالماتُ من هذا الصحنِ إلىٰ صحنٍ فضائيٍ ثمَّ إلىٰ صحنٍ أرضيٍ، ما يقع اختلاطُ وهو صحنٌ واحدٌ، والصحنُ يستوعِبُ مليون مكالمةٍ في وقتٍ واحدٍ، أو مئةَ ألف مكالمةٍ أو أكثر وتنطلق في الفضاءِ، كم بينها وبين استراليا؟ يمكن قرابةَ عشرةِ آلاف مترٍ، أنت تتكلَّمُ ويردُّ عليك في نفسِ اللحظةِ، عاملُ المسافةِ مفقودٌ هنا، وهذه صناعةُ الإِنْسَان -ولله المثلُ الأعلىٰ-، تتكلَّم ويسمعَك في نفس اللحظةِ، ويرزقُك في نفس اللحظةِ، والجميعُ يتكلَّمُون ولا تختلطُ أصواتُهم، فكما لا تختلط أصواتُ الإِنْسَان في صناعةِ المخلوقِ لا تختلطُ في سمعِ الخَالِقِ، فهذه الصناعاتُ تُقرِّب لنا أشياءَ رُبَّما كان إدراكُها فوق طاقة البشرِ في الماضِي، الآن تأتِي بجهازين للتسجيلِ تسجلُ من هذا في هذا، وأنت بجانبه لا تسمعُ الصوتِ، كيف انتقل الصوتُ؟ شيءٌ فوقَ خيالِ الإِنْسَان، هذه في صناعةِ الإِنْسَان، الإِنْسَان العاديُّ لا يستطيعُ أن يعلَمَ، ولكنه رأىٰ الأصواتَ والصورَ

مُسجَّلةً، فإيمانُنا في مستوى الرُّؤيا، نُصدِّقُ بأنَّ هذا الكونَ العجيبَ العظيمَ المُحكَم وما فيه من إحكامٍ يدُلُّنا على حِكمةِ الخَالِقِ، فنُسَلِّم له -سُبحانَه- ولو لم نُدرِك؛ لأنَّ معنى الإِيمَانِ بالغيب: التصديقُ والإقرارُ، فقضايا الغيبِ يجبُ فيها التصديقُ، وأمَّا قضايا الشهادةِ فهي تحتاجُ إلى تأمُّلٍ وتفكُّرٍ، لا نُسَلِّمُ حتى نعرفَ ونَعلَمَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: والقَدَر سرّ من أسرار الله - تَعَالَى - لم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً، لا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله - تَعَالَى - خلق الخلق، فجعلهم فريقين أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً، قال الله - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقد سأل رجل علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أمير المُؤْمِنين! أخبرني عن القَدَر؟ قال: طريق مظلم فلا تسلكه. فأعاد السؤال فقال: بحر عميق لا تلجه. فأعاد السؤال فقال: سر الله خفي عليك فلا تفشه.

وقال شيخ الإِسْلَام: مذهب أهل السُّنَّةِ في هذا البَابُ وغيره ما دلّ عليه الكتاب والسُّنَّةِ وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أنّ الله خالق كل شيء وربّه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه- سُبْحَانَهُ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته لا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو قادر علىٰ كل شيء، ولا يشاء شيئًا إلا وهو قادر عليه، وأنه- سُبْحَانَهُ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدر أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء وقدرته علىٰ كل شيء ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون، وغلاة القَدَرية ينكرون علمه المتقدم وكتابته السابقة، ويزعمون أنه أمر ونهىٰ وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه بل الأمر أنف، أي: مستأنف، وهذا القول أول ما حدث في الإِسْلَام بعد انقراض عصر الخلفاء

الراشدين، وبعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبني أمية في آخر عصر عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، وغيرهما من الصَّحَابَة، وكان أول من ظهر ذلك عنه بالبصرة معبد الجهني، فلما بلغ الصَّحَابَة قول هؤلاء تبرؤوا منهم وأنكروا مقالتهم، ثم لما كثر خوض النَّاس في القَدَر صار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم والكتاب السابق، ولكن ينكرون عموم مشيئة الله وعموم خلقه وقدرته، ويظنّون أنه لا معنىٰ لمشيئته إلا أمره، فما شاء فقد أمر به وما لم يشأ لم يأمر به، فلزمهم أنّه قد يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء، وأنكروا أن يكون الله خالقًا لأفعال العباد أو قادراً عليها أو أن يخص بعض عباده من النعم مما يقتضي إيمانهم به وطاعتهم له، وزعموا أن نعمته التي بما يمكن الإيمَان والعمل الصالح علىٰ الكفار كأبي جهل وأبي لهب مثل نعمته بذلك علىٰ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بمنزلة رجل دفع إلىٰ ولديه بمال قسمه بينهم بالسوية، لكن هؤلاء أحدثوا أعمالهم الصالحة وهؤلاء أحدثوا أعمالهم الفاسدة من غير نعمة خصّ الله بها المُؤْمنين، وهذا قول باطل وقد قال الله - تَعَالَى -: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾.

الشَّرح

هذا كلُّه كلامُ ابنِ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول: إنَّ عقيدةَ السَّلَفِ الماضِين: الإيمَانُ بالقَدَر، وأنَّ اللهَ عَلِمَ وأرادَ وكتبَ وخَلقَ، هذه كُلُّها مُرتبطةٌ بفعلِ الإنْسَانِ، اللهُ عَلِمَ ما سيكونُ، وكتبَ ما سيكونُ، وهذا بإرادته عَزَّ وَجَلَّ ليس بدون إرادةٍ، ثمَّ إنه

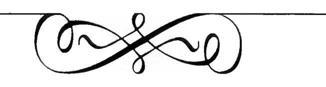
يخلقُ الأشياءَ، لكن ظهرت القَدَريةُ في القرنِ الأوَّلِ، والقَدَريةُ من البدعِ التي ظَهرت مُبكِّراً، يقولون: لا يخلُقُ اللهُ ﷻ الشَّرَّ، يخلقُ الخيرَ فقط، والذي خلقَ الشرَّ هو الإِنْسَانُ، قالوا: فعلُ الإِنْسَان وحركتُه ليست مخلوقةً لله، فغُلاةُ القَدَريةِ الأُولَىٰ كانوا يُنكِرون أنَّ اللهَ يعلمُ أَصلاً، قالوا: اللهُ لا يدري ماذا سيحدُثُ، لكنَّ العُلَمَاءَ رَدُّوا عليهم بأنَّ الكتابَ الكريمَ يدُلُّ علىٰ عِلمِ الله، فإذا ساويتُم بين الخَالِقِ والمخلوقِ وكلاهما لا يعلمُ الغيبِ فالخَالِقُ مثلُ المخلوقِ لا فرق بينهما، فهذا جزءٌ من العقيدةِ الباطلةِ للقدَريةِ الغُلَاةِ، وقد انتهت هذه الطائفةُ ولم يبق أحد يقول بها؛ لأنها عقيدةٌ باطلةٌ واضحةُ البُطلان، وبَقِي من القَدَريةِ طائفةٌ هم الُمعتزِلَةٌ، اليومُ المُعتزلَةُ قليلون جداً وأصبحوا يُسَمُّون العقلانيين، هم الذين ورِثوا المُعتزِلةَ، أَمَّا بقيةُ الطوائفِ مثلُ الأشاعرةِ والماتريديةِ فكلُّهم يؤمنون بأنَّ أفعال العبادِ مَخلوقَةٌ لله ﷻ.

والمُعتزلةُ قالوا: الإِنْسَانُ هو الذي يخلقُ فعلَه بنفسِه، أَمَّا اللهُ فلا يخلقُ أفعال العبادِ؛ لأنهم قالوا: لو قلنا إنَّ اللهَ يخلقُ أفعالَ العِبادِ، ومنها الخيرُ والشَّرِّ، فيكون قد أضفنا الشَّرَّ إلىٰ الله واللهُ لا يُضافُ إليه الشَّرُّ. والعُلَمَاءُ رَدُّوا عليهم وقالوا: الشَّرُّ نوعان: شرٌّ مطلقٌ، وشرٌّ إضافيٌّ، فالشرُّ هنا إضافيٌّ، فمثلاً: الإِنْسَانُ يمشي ويتحرَّك والله يخلُق هذه الحركةَ، لكنَّ الإِنْسَان قد يتَّجهُ بها إلىٰ المعصيةِ وقد يتجهُ بها إلىٰ المسجدِ، فالحرَكةُ نفسُها ليست خيراً أو شراً، مثلُ السيفِ والقلمِ، السيفُ خلقَه اللهُ لا يُقالُ إنه خيرٌ، ولا يُقال إنه شرٌّ لكن إذا استخدمتَه في طاعةِ الله وجاهدتَ به أعداءَ الإِسْلَام كان خيراً، وإن استخدمته في قتالِ المُسْلِمين كان شَرّاً، القلمُ تكتبُ به الخيرَ فيصبحَ فعلُك خيراً، فبِفعلِك أصبحَت حركَتك شَّراً أو خيراً، أَمَّا اللهُ فقد خلقَها، فلا تُسمَّىٰ خيراً أو شراً إلا بفعلِ الإِنْسَان، ولهذا لا نرىٰ في القُرْآن الكَرِيم إضافةَ الشرِّ إلىٰ اللهِ ﷻ كما قالت الجنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن:١٠]

فالجنُّ تأدَّبوا مع الله، ما نسبوا الشرَّ إلىٰ الله، بل قالوا: ﴿أُرِيدَ﴾ [الجن:١٠] لِعلمِهم بأنَّ الخَالِقَ ليس إليه شرٌّ.

اللهُ -سبحانه وَتَعَالَىٰ- خلقَ الكونَ وفيه مُتضَاداتٌ، وهذه المتضاداتُ تبينُ قدرةَ الخَالِقِ ﷻ، لو لم يكن هناك شرٌّ لما عرفنا الخيرَ، لو لم يكن هناك خبيثٌ لما عرفنا الطَّيبَ، لو لم يكن هناك مرضٌ ما عرفنا قيمةَ العافيةَ، لو لم يكن هناك فقرٌ ما عرفنا قيمةَ الغِنىٰ، لو لم يكن هناك جوعٌ ما عرفنا قيمةَ الشَّبع وهكذا، فالمتضاداتُ تَتَبينُ من خلالها حكمةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي تدلُّ علىٰ قدرةِ الخَالِقِ وعظمتِه، اللهُ خلَقَ الخيرَ وخلقَ الشرَّ، خلقَ الحسنَ وخلقَ القبيحَ، خلقَ الطَّيبَ وخلقَ الخبيثَ، فهذا كلُّه من خلقِه ﷻ، لكن لا يُضافُ إليه الشرُّ؛ لأنَّ الله خلقَ الأشياءَ كلَّها ولكن أصبح الشرُّ منها إضافيًا ونسبيًا، مثلًا: الإِنْسَان الذي يسرِقُ تُقطعُ يدُه، وقطعُ يدِه بالنسبةِ له شرٌّ لكن بالنسبةِ للنَّاسِ خيرٌ، كذلك الإِنْسَان الذي يكون فيه مَرضٌ مُعدٍ يُحجَر عليه و يُمنعُ من مخالطةِ النَّاسِ، هذا الحَجْرُ شرٌّ له وحرَمانٌ من أن يخالِطَ النَّاسَ لكن بالنسبةِ للآخرين خيرٌ، فهذا شرٌّ إضافيٌّ أو شرٌّ نسبيٌّ، ما هناك شرٌّ مُطلَقٌ، فكلُّ شيءٍ شرٌّ بالنسبة لغيرِه، فالمخلوقاتُ بعضُها فيها خيرٌ وبعضُها فيها شرٌّ.

ولكن لا ينبغي لك أن تتوسعَ في دراسةِ هذه القضايا؛ لأنَّ هناك من الخفايا ما لا تُدرِكُه أوسع بكثير مما تدركُه، بل عليك أن تُسلِّم للخالقِ ﷻ أمرِه ونهيِه وخبرِه، ثُمَّ لا تعترض علىٰ قَدَرِ الله بل سلِّم له، وكلُّ ما جاء في كتاب الله تُؤمِن به وتُسَلِّم؛ لأنَّ إدراكَك العقلي محدودٌ ولا تستطيع أن تُدركَ كلَّ شيءٍ، فلتُسَلِّم؛ لأنَّ يقينك في الخَالِقِ كاملٌ وإيمانُك بأن الله حكيمٌ وأنه عدلٌ وأنه رحيمٌ تجعلك تُسَلِّم ولو لم يُدرِكُه عقلُك؛ لأنَّ العقلَ إدراكُه محدود، لا يدركُ جميعَ الأشياءِ.

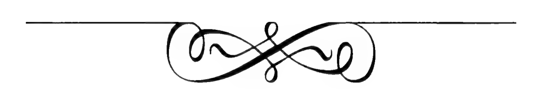


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن القَيِّم ما معناه: مراتب القضاء والقَدَر أربع مراتب: الأولىٰ: علم الرب- سُبْحَانَهُ بالأشياء قبل كونها، الثانية: كتابة ذلك عنده في الأزل قبل خلق السَّماوَاتِ والأرض، الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود، فلا خروج لكائن كما لا خروج له عن علمه، الرابعة: خلقه لها وإيجاده وتكوينه، فالله خالق كل شيء وما سواه مخلوق.

الشَّرح

هذه المراتبُ الأربعةُ لا نستطيع أن نُرتِّبها هذا الترتيبَ فمثلاً: هو ذكرَ المشيئةَ في الثالثة، لكن هل المشيئةُ كانت قبل الكتابةِ أو بعد الكتابةِ؟ لا شك أنها قبل الكتابةِ، لكنَّ هذا الترتيبَ ليس معناه أن هذه المراتبَ بعضَها فوق بعضٍ، إنما القَدَرُ يقومُ علىٰ أربعةِ أُسسٍ: عِلمُ الله، وإرادتُه، وكتابتُه، وخلقُه، لكن ليس لها ترتيبٌ مُعيَّنٌ، فلا ينبغي لنا أن نظَنَّ أنَّ المُرادَ بهذه المراتب أن بعضَها قبل بعضٍ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقَدَر، ثم استدل بقول النَّبِيّ ﷺ عندما سأله جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الإيمَان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَر خيره وشره) رواه مُسْلِم.

ش: قوله: (وقال ابن عمر) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب.

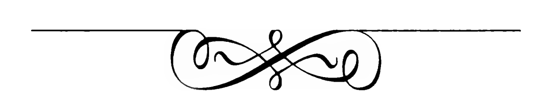
قوله: (لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه.. إلىٰ آخره). هذا قول ابن عمر لغلاة القَدَرية الذين أنكروا أن يكون الله - تَعَالَى - عالمًا بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منها وإنما يعلمها بعد كونها منهم كما تقدم عنهم. قال القرطبي: ولا شك في تكفير من يذهب إلىٰ ذلك فإنه جحد معلومًا من الشرع بالضرورة، لذلك تبرأ منهم ابن عمر وأفتىٰ بأنهم لا تقبل منهم أعمالهم ولا نفقاتهم، وأنهم كمن قال الله فيهم: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٥٤]، وهذا المذهب قد تُرك اليوم، فلا يعرف من ينسب إليه من المتأخرين من أهل البدع المشهورين.

فقال شيخ الإسْلَام لما ذكر كلام ابن عمر هذا: وكذلك كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصَّحَابَة والتَّابِعينَ لهم بإحسان إلىٰ يوم الدِّين، وسائر أئمة المُسْلِمين فيهم كثير، حتىٰ قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم: إن المنكرين لعلم الله المتقدم ينكرون القَدَر.

الشَّرْح

قوله: (**قال: وقال ابن عمر**) بِدعةُ القَدَرِ كانت مُرَكَّبةً من أمرين: إنكارُ عِلمِ اللهِ، وإنكارُ خلقِ الله للأشياءِ، وقد انقرضَ الذين يُنكِرون علمَ اللهِ بالأشياءِ، ولم يبقَ هناك من يقول به، لكن بَقِيَ الأمرُ الثاني وهو: إنكارُ خلقِ اللهِ لأفعالِ العِبادِ.

قوله: (**فقال شيخ الإسْلَام لما ذكر كلام...**) هؤلاء الذين كانوا ينكرون علمَ الله بالأشياءِ قبل وقوعِها من مُتَقَدِّمِي القَدَرية.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله:((ثم استدلَّ بقول النَّبيِّ ﷺ: الإِيمَانُ أن تؤمنَ بالله، وملائكتِه، وكُتُبه، ورسلِه، واليومِ الآخر، وتؤمنَ بالقَدَر خيرِه وشرِّه. فجعل النَّبيَّ ﷺ في هذا الحَدِيْث كأنه لما سئل عن الإِسْلَام، ذكر أركان الإِسْلَام الخمسة لأنها أصل الإِسْلَام، ولما سئل عن الإِيمَان أجابَ بقوله:(أن تؤمِن بالله...) إلىٰ آخرِه. فيكون المرادُ حينئذ بالإِيمَانِ: جنسُ تصديقِ القلبِ، وبالإِسْلَامِ: جنسُ العملِ. والقُرْآن والسُّنَّة مملوءان بإطلاقِ الإِيمَانِ علىٰ الأعمالِ، كما هما مملوءان بإطلاقِ الإِسْلَامِ علىٰ الإِيمَانِ الباطنِ، مع ظهور دلالتِهما أيضًا علىٰ الفرقِ بينهما، ولكن حيث أُفرِدَ أحدُ الاسمين دخلَ فيه الآخرُ، وإنما يُفرَّق بينهما حيث فرَّق بين الاسمين، ومن أرادَ تحقيقَ ما أشرنا إليه فليراجِع كتابَ: (الإِيمَان الكبير) لشيخ الإِسْلَام.

إذا تبيَّن هذا، فوجهُ استدلال ابن عمرَ بالحَدِيْث من جهةِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ عدَّ الإِيمَانَ بالقَدَرِ من أركانِ الإِيمَانِ، فمن أنكره لم يكن مؤمنًا، إذ الكافرُ بالبعضِ كافرٌ بالكلِّ، فلا يكون مؤمنًا مُتقيًا، والله لا يقبلُ إلا من المتَّقين.

وهذا قطعة من حديثِ جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد أخرجه مُسْلِم بطوله أول كتابِ الإِيمَان في(صَحِيحه)من حديث يحيىٰ بن يعمُر عن ابن عمر، ولفظه: ((عن يحيىٰ بن يعمر قال: كان أولُ من قال في القَدَرِ بالبصرةِ معبدُ الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجَّين أو مُعتَمِرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحابِ رَسُوْل اللهِ ﷺ فسألناه عما يقولُ هؤلاء في القَدَرِ، فوُفِّق لنا عبدُ الله بن عمرَ بن الخطاب داخلاً المسجدَ، فاكتَنَفتُه أنا وصاحبي، أحدُنا عن يمينه، والآخر عن شمالِه، فظَنَنتُ أن صاحِبي سَيَكِلُ الكلامَ إليَّ، فقلتُ: يا أبا عبد

الرحمن إنه قد ظهر قِبَلنا أُناسٌ يقرءون القُرْآن ويَتَقَفَّرون العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قَدرَ، وأنَّ الأمرَ أَنِفٌ. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم، وأنهم بَرآءٌ مني، والذي يَحلفُ به عبدُ الله بن عمر: لو أنَّ لأحدِهم مثلَ أُحدٍ ذهبًا فأنفقَه، ما قَبِله الله منه حتىٰ يؤمن بالقَدَر. ثم قال: حدثني أبي عمرُ بنُ الخطاب قال: بينما نحن عند رَسُوْل الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحدٌ حتىٰ جلسَ إلىٰ النَّبِيّ ﷺ فأسندَ ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخِذيه، فقال: يا محمدُ أخبرني عن الإِسْلَام.... وذكر الحَدِيْث.

وقوله:((خيرِه وشرِّه))، أي: خيرُ القَدَرِ وشرُّه، أي: أنه – تعالىٰ – قدَّر الخيرَ والشرَّ قبلَ خلقِ الخلقِ، وأنَّ جميع الكائناتِ بقضائِه وقدرِه وإرادتِه، لقوله - تعالى -: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان:٢]. {﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات:٩٦]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر:٤٩]، وغير ذلك.

فإن قلت: كيف قال:(وتؤمن بالقَدَر خيره وشرِّه)وقد قال في الحَدِيْث: (والشرُّ ليس إليك).

قيل: إثباتُ الشرِّ في القضاءِ والقَدَر إنما هو بالإضافةِ إلىٰ العبدِ، والمفعول إن كان مُقدرًا عليه، فهو بسببِ جهلِه وظُلمه وذُنوبه، لا إلىٰ الخَالِقِ، فله في ذلك من الحِكمِ ما تَقصرُ عنه أفهامُ البشر، لأن الشرَّ إنما هو بالذنوبِ وعقوباتها في الدُّنْيَا والآخرةِ، فهو شرٌّ بالإضافة إلىٰ العبدِ، أمَّا بالإضافة إلىٰ الربِّ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – فكلُّه خيرٌ وحكمةٌ، فإنه صادرٌ عن حُكمِه وعِلمِه، وما كان كذلك فهو خير محض بالنسبة إلىٰ الرب –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ –إذ هو موجب أسمائه وصفاته، ولهذا قال(والشُّر ليس إليك)، أي: تمتنِعُ إضافتُه إليك بوجهٍ من الوجوه، فلا يضافُ الشرُّ إلىٰ ذاته وصفاته، ولا أسمائِه ولا أفعالِه، فإنَّ ذاتَه منْزهةٌ عن كلِّ شرٍّ،

وصفاتُه كذلك، إذ كلُّها صفاتُ كمالٍ، ونُعُوتُ جلالٍ، لا نقصَ فيها بوجهٍ من الوجوه، وأسماؤه كلُّها حسنىٰ ليس فيها اسمُ ذمٍّ ولا عيبٍ، وأفعالُه حِكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وإحسانٌ وعدلٌ، لا تخرج عن ذلك البتَّةَ، وهو المحمودُ علىٰ ذلك كلِّه، فتستحيل إضافةُ الشرِّ إليه، فإنه ليس شرٌّ في الوجودِ إلا الذُّنوبَ وعقوبتَها، وكونُها ذُنوبًا تأتي من نفسِ العبدِ، فإن سببَ الذَّنبِ الظلمُ والجهلُ، وهما في نفسِ العبدِ. فإنه ذاتٌ مُستلزِمةٌ للجهلِ والظُّلمِ، وما فيه من العلمِ والعدلِ فإنما حصلَ له بفضلِ الله عليه، وهو أمرٌ خارجٌ عن نفسه، فمن أراد الله به خيرًا أعطاه الفضلَ فصدرَ منه الإحسانَ والبرَّ والطاعةَ، ومن أراد به شرًّا أمسكَه عنه وخلَّاه ودواعيَ نفسِه وطبعِه وموجبها، فصدرَ عنه موجبُ الجهلِ والظلمِ من كلِّ شرٍ وقبيحٍ، وليس منعُه من ذلك شرًّا، ولله في ذلك الحكمةُ التامَّةُ، والحجَّةُ البالِغةُ، فهذا عدلُه، وذلك فضلُه يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم، وهو العليُّ الحكيمُ. هذا معنىٰ كلامُ ابن القيِّمِ، وهو الحقُّ.

وحاصلُه أنَّ الشرَّ راجعٌ إلىٰ مفعولاته، لا إلىٰ ذاتِه وصفاتِه، ويتبيَّنُ ذلك بمثالٍ ولله المثلُ الأعلىٰ. لو أنَّ مَلِكًا من ملوكِ العدلِ كان معروفًا بقمعِ المُخالِفين وأهل الفسادِ، مُقيمًا للحُدود والتعزيراتِ الشرعيةِ علىٰ أربَابُ أصحابِها، لعدُّوا ذلك خيرًا يحمدُه عليه الملوكُ، ويمدحُه النَّاسُ ويشكرونه علىٰ ذلك، فهو خيرٌ بالنسبة إلىٰ الملوكِ، يُمدحُ ويُثنىٰ عليه به ويُشكرُ عليه وإن كان شرًّا بالنسبة إلىٰ من أُقيمَ عليه، فربُّ العَالَمِينَ أولىٰ بذلك، لأنَّ له الكمالُ الُمطلقُ من جميع الوجوه والاعتبارات. وأيضًا فلولا الشرُّ هل كان يُعرفُ الخيرُ؟ فإن الضدَّ لا يعرَفُ إلا بضدِّه، فإن لم تُحط به خبرًا فاذكر كلامَ ابنِ عُقيل في البَابُ الذي قبلَ هذا، وأسلِم تسلَم، والله أعلم.

﴿ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك﴾.

قال: (وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعمَ الإيمَان حتىٰ تعلمَ أنَّ ما أصابَك لم يكن ليُخطِئك وما أخطأك لم يكن ليصيبَك، سمعت رَسُوْل اللهِ ﷺ يقول: " إنَّ أوَّل ما خلقَ اللُه القلمَ، فقال: ﴿له﴾ اكتب. قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلِّ شيءٍ حتىٰ تقومَ السَّاعَةُ"، يا بني سمعتُ رَسُوْل اللهِ ﷺ يقول: "من مات علىٰ غير هذا فليس مِنِّي).

ش قوله:(يا بني إنك لن تجد طعمَ الإيمَان...) إلىٰ آخرِه. ابنه هذا هو الوليد بن عبادة كما صرَّح به الترمذي في روايته، وفيه أنَّ للإيمانِ طعمًا، وهو كذلك، فإنَّ له حلاوةً وطعمًا، من ذاقه تَسَلَّىٰ به عن الدُّنْيَا وما عليها وقد قال النَّبِيّ ﷺ: "ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمَان...) الحَدِيْث وإنما يكون العبدُ كذلك إذا كان مُؤمِنًا بالقَدَر، إذ يمتنعُ أن توجدَ الثلاثُ فيه وهو لا يُؤمنُ بالقَدَر بل يُكذِّب به ويردُّ علىٰ الله كلامَه وعلىٰ الرَسُوْل ﷺ مقالَته، فإنَّ المحبَّةَ التامَّةَ تقتضي المتابعةَ التامَّةَ، فمن لم يؤمِن بالقَدَر، لم يكن اللهُ ورَسُوْله أحبَّ إليه مما سواهما، فلا يجدُ حلاوةَ الإيمَانِ ولا طعمَه، بل إن كان مُنكِرًا للعلمِ القديمِ، فهو كافرٌ كما تقدَّم، ولهذا روي عن بعض الأئمة القَدَريةِ الكبار بإسناد صَحِيح أنه قال لما ذكر حديثَ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:(حدثني الصادقُ المصدوقُ...). الحَدِيْث: لو سمعت الأعمشَ يقول هذا لكذَّبتُه، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا لأجبتُه، ولو سمعت عبد الله بن مسعود يقول هذا ما قَبِلتُه، ولو سمعت رَسُوْل الله ﷺ يقول هذا لرَدَدتُه، وذكر كلمةً بعدها. فهذا كفرٌ صريحٌ نعوذُ بالله من مُوجباتِ غضبِه، وأليمِ عقابِه.

وقد بَيَّن في الحَدِيْثِ كيفيةِ الإيمَانِ بالقَدَرِ: أن يعلمَ أن ما أصابَه لم يكن ليُخطِئه وما أخطأه لم يكن ليصيبَه، وهذا كما قال النَّبِيُّ ﷺ في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا يؤمن عبدٌ حتىٰ يؤمن بالقَدَر خيرِه وشرِّه حتىٰ إن ما أصابَه لم يكن

ليخطِئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه). رواه الترمذي.

والمعنى: أنَّ العبدَ لا يؤمن حتى يعلمَ أنَّ ما يصيبُه إنما أصابَه في القَدَرِ، أي: ما قُدِّرَ عليه من الخيرِ والشرِّ، لم يكن ليخطِئه، أي: يجاوزه فلا يصيبُه، وإنما أخطأَه من الخيرِ والشرِّ في القَدَرِ، أي: ما لم يُقَدَّر عليه، لم يكن ليصيبَه، كما قال - تعالى -: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]. وقال - تَعَالَى -: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

قوله: (إن أول ما خلق الله القلم"، قال شيخ الإسْلَام: قد ذكرنا أن للسلف في العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر قولين، كما ذكر ذلك الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره.

أحدهما: أن القلمَ خُلق أولاً، كما أطلقَ ذلك غيرُ واحدٍ، وهذا هو الذي يفهم من ظاهرِ كُتب المُصَنِّفين في(الأوائل) للحافظ أبو عروبة الحراني ولد القاسم الطبراني، للحديث الذي رواه أبو داود في(سننه)عن عبادة ابن الصامت، وذكر الحَدِيْث المشروح.

والثاني: أن العرشَ خُلق أولاً. قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في تصنيفه في: (الرد على الجهمية): حدثنا محمد بن كثير العبدي، أنبأنا سفيان الثوري، ثنا أبو هاشم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال:(إن الله كان على عرشِه قبل أن يخلُق شيئًا، فكان أولَ ما خلقَ اللهُ القلمَ، فأمره أن يكتبَ ما هو كائنٌ، وأنَّ ما يجري على النَّاس على أمرٍ قد فُرِغَ منه) وكذلك ذكر الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب(الأسماء والصفات) لما ذكر بَدءَ الخلقِ، ثم ذكر حديث الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير،(عن ابن عباس أنه سُئِلَ عن قول الله - تعالى -: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]. على أيِّ شيءٍ ﴿كان الماءُ﴾

؟ قال: على متنِ الرِّيحِ". وروى حديث القاسم بن أبي بزة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رَسُوْل الله ﷺ قال: "أَوَّلُ شيءٍ خلقَه اللهُ القَلَمَ، وأمرَه فكتبَ كلَّ شيءٍ يكون)قال البيهقي: (وإنما أرادَ - والله أعلمُ - أولُ شيءٍ خلقَه بعد خلقِ الماءِ والريحِ والعرشِ، وذلك في حديث عمران بن حصين الذي أشار إليه، وهو ما رواه البُخَارِيُّ من غيرِ وجهٍ مرفوعًا عنه: "كان الله ولم يكن شيءٌ قبلَه وكان عرشُه على الماءِ، ثم خلقَ السمواتِ والأرضَ، وكتب في الذِّكرِ كلَّ شيءٍ). ورواه البيهقي كما رواه محمد بن هارون الروياني في(مسنده)وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما، من حديث الثقات المتفق على ثقتهم، عن أبي إسحاق، عن الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز،عن عمران بن حصين عن النَّبِيّ ﷺ قال: "كان اللهُ ولم يكن شيءٌ غيرُه، وكان عرشُه على الماء، ثم كتبَ في الذِّكرِ كلَّ شيءٍ، ثمَّ خلقَ السموات". وذكر أحاديثًا وآثارًا، ثم قال ما معناه: فثبت في النصوص الصَحِيحة أنَّ العرشَ خُلِقَ أولاً.

وقال ابن كثير: قال قائلون: خُلقَ القلمُ أولاً، وهذا اختيار ابن جرير وابن الجوزي وغيرهما.

قال ابن جرير: وبعدَ القلمِ السَّحابُ الرقيقُ، وبعدَه العرشُ، واحتجوا بحديث عبادة.

والذي عليه الجمهور أنَّ العرشَ مخلوقٌ قبل ذلك، كما دلَّ على ذلك الحَدِيْثُ الذي رواه مُسْلِم في صَحِيحه أي: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي تقدم. قالوا: وهذا التقدير هو كتابته بالقلمِ المقاديرَ، وقد دلَّ الحَدِيْثُ أنَّ ذلك بعد خلقِ العرشِ، فثبت تقديمُ العرشِ على القلمِ الذي كتبَ به المقاديرَ كما ذهب إلى ذلك الجماهيرُ. ويُحملُ حديثُ القلمِ على أنَّه أولُ المخلوقات

من هذا العالَم. انتهىٰ بمعناه. قوله(كتب مقادير كلِّ شيء حتىٰ تقومَ السَّاعَةُ) قال شيخ الإسْلَام: وكذلك في حديث ابن عباس وغيره، وهذا يُبينُ أنَّه إنما أمَرَه حينئذ أن يكتبَ مقدارَ هذا الخلقِ إلىٰ قيامِ السَّاعَةُ، لم يكن حينئذ ما يكون بعدَ ذلك.

قوله:(من ماتَ علىٰ غير هذا لم يكن مِنِّي". أي: لأنَّه إذا كان جاحدًا للعلمِ القديمِ فهو كافرٌ، كما قال كثيرٌ من أئمةِ السَّلَفِ: "ناظِرُوا القَدَريةَ بالعلم، فإن أقرُّوا به خُصِمُوا، وإن جَحدُوا كَفروا". يريدون أن من أنكرَ العلمَ القديمَ السابقَ بأفعالِ العبادِ، وأنَّ اللهَ قسَّمَهم قبل خلقِهم إلىٰ شقيٍ وسعيدٍ، وكتبَ ذلك عنده في كتابٍ حفيظٍ، فقد كذَّبَ القُرْآن، فيكفرُ بذلك، كما نص عليه الشافعيُّ وأحمدُ وغيرُهما، وإن أقرُّوا بذلك وأنكرُوا أنَّ اللهَ خلقَ أفعالَ العبادِ، وشاءها وأرادَها بينهم إرادةً كونيةً قدريةً، فقد خُصِمُوا، لأنَّ ما أقرُّوا به حُجَّةٌ عليهم فيما أنكروه. وفي تكفير هؤلاء نزاعٌ مشهورٌ،يقول: أتيتُ أُبيَّ بن كعب، فقلت: يا أبا المنذر إنه قد وقعَ في قلبي شيءٌ من هذا القَدَر، فخشيت علىٰ ديني وأمري، فحدثني من ذلك بشيءٍ لعلَّ اللهَ أن ينفعَني. فقال: لو أنَّ اللهَ عذَّبَ أهلَ سماواتِه وأهلَّ أرضِه لعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رحمَهم لكانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالِهم، ولو كان لك مثلُ أُحدٍ ذهبًا أو مثلُ جبلِ أُحد تنفقُه في سبيل الله ما قبل منك حتىٰ تؤمنَ بالقَدَر فتعلمَ أنَّ ما أصابَك لم يكن ليخطِئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبَك، وإنَّك إن متَّ علىٰ غير هذا دخلت النارَ، ولا عليك أن تأتي يا أخي عبد الله بن مسعود فتسأل، فأتيت عبد الله فسألته، فذكر مثل ما قال أبي، وقال لي: لا عليك أن تأتيَ حذيفةَ، فأتيتُ حُذيفةَ فسألته، فقال مثلَ ما قال: ائت زيدَ بن ثابت فاسأله، فأتيت زيدَ بنَ ثابت فسألته فقال: سمعت رَسُوْل الله ﷺ يقول: "لو أنَّ اللهَ عذَّب أهل سماواتِه وأهلَ أرضِه لعذبَّهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رحمَهم لكانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالِهم، ولو كان مثل أُحدٍ أو مثلَ جبلِ أُحدٍ ذهبًا

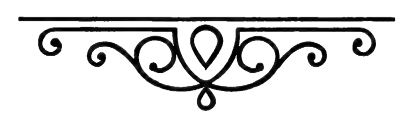
تُنفقهُ في سبيلَ الله ما قبلَه الله منك حتىٰ تُؤمنَ بالقَدَر كلِّه، فتعلمَ أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطِئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبَك، وإنك إن متَّ علىٰ غير هذا دخلتَ النار". هذا حديث ابن ماجة. ولفظ أبي داود كما ذكره المُصَنِّفُ إلا أنه قال: ثم أتيتُ عبدَ الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيتُ حذيفةَ بنَ اليمان فقال مثلَ ذلك، ثم أتيتُ زيدَ بنَ ثابتٍ فحدَّثني عن النَّبِيّ ﷺ بمثل ذلك.

قوله:(عن ابن الديلمي). هو عبد الله بن فيروز الديلمي. وفيروزُ قاتلُ الأسودِ العَنسي الكذابِ. وعبد الله هذا ثقةٌ من كبارِ التَّابِعينَ، بل ذكرَه بعضُهم في الصَّحَابَة. والديلمي نسبة إلىٰ جبلِ الدَيلَم، وهو من أبناءِ الفرس الذين بعثهم كسرىٰ إلىٰ اليمن.

قوله: (وقع في نفسي شيءٌ من القَدَر). أي: شكٌ أو اضطرابٌ يُؤدِّي إلىٰ شكٍّ فيه، أو جَحدٍ له.

قوله (لو أنفقتَ مثلَ أُحدٍ ذهبًا ما قبلَه الله منك.) هذا تمثيل علىٰ سبيل الفرضِ لا تحديداً، إذ لو فُرِض إنفاقُ ملءِ السموات والأرض كان كذلك.

قوله: (حتىٰ تؤمنَ بالقَدَرِ). أي: بأنَّ جميعَ الأمورِ الكائنةِ خيرِها وشرِّها، وحُلُوِّها ومرِّها، ونفعُها وضرُّها، وقليلُها وكثيرُها، وكبيرُها وصغيرُها بقضائه وقدرِه وإرادتِه ومشيئتِه وأمرِه، كما ذُكرَ عن عليٍّ رضي الله عنه.





بَابُ: ما جاء في الْمُصَوِّرِين

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قال الله - تَعَالَى -: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبّة أو ليخلقوا شعيرة) أخرجاه.

الشَّرح

البَابُ الماضي كان آخرَ شرحِ كتابِ تيسيرِ العزيزِ الحَميدِ؛ لأنَّ الشَّارِحَ رَحِمَهُ اللَّهُ تُوفِّي قبلَ أن يُكمِل الشَّرْحَ، وشرحُ هذا البَابِ (بَابُ ما جاء في المُصوِّرين) فما بعدَه نُقلَ من كتاب: (فتحُ المجيدِ)، وسنرىٰ اختلافاً بين المنهجين، الشَّارِحُ السابقُ يستفتِح البَابَ بذكرِ مناسبةِ البَابِ للتوحيدِ، ولا يورِدُ الأَحَادِيثَ أو الأَدِلَّةَ التي في المتنِ إلاّ بعد أن يذكرَ مُقدَّمةً صغيرةً، ثم يُفرِّق الأَحَادِيثَ أثناءَ الشَّرْحِ، ثم لا يذكرُ المَسَائِل، أمَّا هذا فهو منهجٌ آخرٌ، (فتحُ المجيدِ) يبدأ أولاً بذكرِ جميع الأَحَادِيثِ والمَسَائِل التي ذكرها صاحبُ كتابِ التَّوْحِيد، ثم يبدأُ بشرحِها واحداً بعدَ الآخر.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهما عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رَسُوْل الله ﷺ قال: (أشدّ النَّاس عذابـًا يوم القِيَامَةِ الذين يضاهون بخلق الله).

ولهما عن ابن عباس: سمعت رَسُوْل الله ﷺ يقول: (كل مصور في النار يُجعل له بكلّ صورة صورها نفسـًا فتعذّبه في جهنم).

ولهما عنه مرفوعـًا: (من صور صورة في الدُّنْيَا كلف أن ينفخ فيها الرُّوْح وليس بنافخ). ولمُسْلِم عن أبي الهياج قال: (قال لي علي: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رَسُوْل الله ﷺ؟: أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفـًا إلاّ سويته).

فيه مسائل:

الأولىٰ: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه علىٰ العلة، وهو ترك الأدب مع الله، لقوله في الحَدِيْث القدسي: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي).

الثالثة: التنبيه علىٰ قدرته وعجزهم لقوله: (فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة).

الرابعة: التصريح بأنهم أشدّ النَّاس عذابـًا.

الخامسة: أنّ الله يخلق بعدد كل صورة نفسـًا يعذِّب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنّه يُكلف أن ينفخ فيها الرُّوْح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وُجدت.

الشَّـرْح

هذه هي الأَحَادِيثُ والمَسَائِلُ الواردةُ في البَابِ، سنذكر موجزَ ما في هذا البَابِ.

أولُ مسألةٍ ذكرها تتعلَّقُ بخطورةِ التصويرِ، والتصويرُ منه ما يكون مُجَسَّماً أي تمثالاً، ومنه ما يكون باليدِ ما يُسمَّىٰ بالرسمِ اليدوي، هذه كانت بدايةُ عبادةِ الأصنام؛ لأنه جاء في حديثِ - ابن عباسٍ رضي الله عنهما ما معناه **أنه كان في قوم نوحٍ رجالٌ صالحون وعندما ماتوا صوروهم، قالوا: حتىٰ نتذكر عبادتَهم ويكون دافعاً لهم للعبادةِ، هذه الصورُ مع مرور الزمن أصبحت أصناماً تُعبَد من دون الله**، فأصلُ سببِ هذه الأصنام هو التصويرُ، فالتصويرُ أمرُه خطيرٌ جداً.

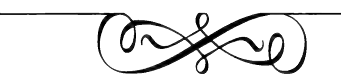
ثانياً: هذا الذي يُصوِّرُ ليضاهِي بتصويرِه خلقَ اللهِ، مُعذَّبٌ في النَّار بذلك، فإذا كان المُصوِّرُ يُعذَّب، فكيف بمن يُسَوِّي المخلوقَ بالخَالِقِ فيدعُوه مع الله، ويستغيثُه مع الله، ويُعظِّمُه مع الله؟! قال: هذا يُعذَّبُ أشدَّ من عذابِ المُصَوِّرِ؛ لأنَّ هذا الفعلَ معصيةٌ، وأمَّا اتخاذُ الأندادِ مع الله فشركٌ، فصاحبُه يستحقُّ العقابَ الأشدَّ.

ثالثاً: الشَّارِحُ رحمه الله عملَ مقارنةً بين من يُعظِّمُ القُبُوْر ـ لأن الحَدِيْثَ الأخيرَ في القُبُوْرِ ـ وبين ما جاء في الأَحَادِيثِ، ونقل هذه المقارنةَ من كلامِ ابنِ القَيِّمِ رحمه الله كما سيأتي إن شاء الله، قال: الأَحَادِيثُ كلُّها تُحذِّرُ من تعظيمِ القُبُوْر، وتَنهىٰ عن اتخاذِ القُبُوْرِ مَسَاجِدَ، وتنهىٰ عن إيقادِ السُّرُجِ، وتنهىٰ عن الصَّلَاة فيها، لكن ماذا فعل عُبَّادُ القُبُوْرِ؟ عكسوا ذلك، بنوا علىٰ القُبُوْرِ مَسَاجِدَ، وأوقدوا عليها السُّرُجِ، وتقرَّبوا إلىٰ الله فيها، واعتقدوا أنها أماكن مباركةً يُتقرَّب إلىٰ الله فيها بالدُّعاء حتىٰ إنَّ بعضهم أَلَّف كتاباً سماه: (مناسكُ حجّ

المشاهدِ)، والمشاهدُ هي القُبُوْر التي تُبنىٰ عليها القبَابُ وتُعظَّمُ كما تُعظَّم الكعبةُ.

ولاشك أنَّ تعظيمَ هذه القُبُوْر خطرٌ علىٰ توحيدِ المُسْلِم، وعلىٰ عقيدتِه وعبادتِه، ويترتَّبُ عليه مفاسدُ كثيرةٌ، فالذي يُعظِّمُ القُبُوْرَ وهذه الأماكنَ يَخِفُّ في قلبِه تعظيمُ محارمِ الله وبيوت الله، فبعضُهم لا يطوفُ بالكعبةِ بل ورد عن بعضِهم أنه حجَّ من المغرب إلىٰ القبرِ الشريفِ في المَدِيْنَة ولم يحج إلىٰ بيت الله، وقال: يكفيني هذا، وهذا مُضاهاةٌ لدينِ الله ﷻ؛ فهذا من نتائجِ تعظيمِ القُبُوْرِ التي أُمرنا بعدمِ تعظيمِها.

ثم يترتَّب عليه السفرُ إليها، ومشابهةُ الذين يعبدون الأصنامَ ويتقرَّبُون إلىٰ هذه القُبُوْرِ وما فيها من الأشخاصِ، ثم يُنذَرُ لها الذَّبائحُ، ويُعتقَد أن عندها نفعًا وأنَّ أصحابها يَنفعون، والحقيقةُ أنهم بعملِهم هذا يُؤذُون الأمواتَ الذين فيها، الأولياءُ لا يُعجِبُهم ولا يُرضِيهم هذا الفعل، فيتأذُّون بما يُعمَل عند قبورِهم، ثم إن هذا يُؤدِي إلىٰ إماتةِ السنن وإحياءِ البِدعِ، وينتج عنه تفضيلُ هذه البقاعِ علىٰ البقاعِ الطاهرةِ، ومخالفة لما شرعَه الله ﷻ.. إلىٰ آخر ما حدث للذين عظَّموا هذه القُبُوْر. هذا هو بَابُ التصوير وتعليقُ الشَّارِحِ علىٰ الحَدِيْثِ الأخير الذي تضمَّن طمسَ الصورِ وتسويةَ القُبُوْرِ بالأرض.

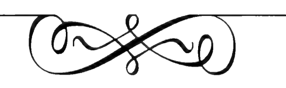


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(بَابُ ما جاء في المصورين) أي: من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه، وقد ذكر النَّبِيّ ﷺ العلة وهي: المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله - تَعَالَى - له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صور جميع المخلوقات وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة كما قال الله - تَعَالَى -: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ ﴾ [السجدة: ٧-٩]، فالمصور لما صور الصور على شكل ما خلقه الله -تَعَالَىٰ- من إنسان وبهيمة صار مضاهيـًا لخلق الله، فصار ما صور عذابـًا له يوم القِيَامَةِ، وكلف أن ينفخ فيها الرُّوْح وليس بنافخ، فكان أشد النَّاس عذابـًا؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ صوَّر هذا الإِنْسَان في أحسنِ صورةٍ وجعل له السمعَ والبصرَ، هذا خلقُ الله، فالذي يُصوِّر مثلَ هذا الإِنْسَانِ يزعمُ أنه يشاركُ اللهَ في الخلقِ، فيأتي يومَ القِيَامَةِ يُكلَّفُ أن ينفخَ فيها الرُّوْحَ ولا يستطيع أن ينفخَ فيها الرُّوْحَ بل يخلق الله فيها أرواحـًا ويُعذَّبُ هذا المُصوِّرُ بعدد ما صوَّره في الدُّنْيَا من هذه الصُّورِ، وهذا ـ نعوذ بالله ـ مضاعفةً لعذابِه في جهنَّمَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله - تَعَالَى - من الحيوان فكيف بحال من سوى المخلوق برب العَالَمِينَ وشبهه بخلقه وصرف له شيئًا من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه، فتسوية المخلوق بالخَالِقِ بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه وجعله شريكًا له فيما اختص به تعالى وتقدس هو أعظم ذنب عُصي الله - تَعَالَى - به، ولهذا أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان هذا الشِّرْك والنهي عنه وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى، فنجى الله - تَعَالَى - رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التَّوْحِيد واستمر على الشِّرْك والتنديد، فما أعظمه من ذنب! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحج:٣١].

الشَّرح

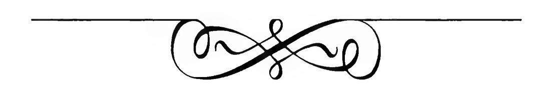
هاتان الآيتان تُصوِّرَان خطورةَ الشِّرْكِ، فإنَّ الله ﷻ ذكر أنه يغفرُ الذنوبَ كلَّها إلا الشِّرْكَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨] مُطلقًا، ولو كانت لك حسناتٌ وطاعاتٌ وأعمالٌ لا يغفرُ اللهُ الشِّرْكَ؛ لأنَّ هذا تَنقُّصٌ لحقِّه ﷻ، وفيه إساءةٌ إلى ربِّ العَالَمِينَ أن تُسوي المخلوقَ الفقيرَ بالغني الخَالِقِ ﷻ، لكن يغفرُ ما دون ذلك ما كانت دافعه الشهوةُ والضعفُ البشريُ أمَّا أن تُسوِّيَ المخلوقَ بربِّ العَالَمِينَ فلا يغفرُه الله، ولهذا نرى أنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وإبليسَ كلاهما وقعَ في المعصيةِ، فكيف قبل الله توبةَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ووفَّقَه ولم يُوفِّق إبليسَ للتَّوبةِ؟

لأنَّ إبليسَ كانت معصيتُه كبراً ناشئاً من الشِّرْكِ، أشركَ مع الله هواه، وردَّ أمرَ الله، فإنَّ ردَّ أمرِ الله كفرٌ، وكأنَّه يعترِضُ علىٰ رَبِّ العَالَمِينَ، وهذا كفرٌ وإلحادٌ وجحودٌ، أمَّا آدمُ عليه السلام فدفَعَته للمعصيةِ شهوةٌ، أرادَ الخلودَ وهذا ليس دفعاً لأمرِ الله أو ردَّاً لطاعتِه عز وجل.

فالمعصيةُ تختلف، ولهذا العُلَمَاءُ يُفرِّقون بين معصيةِ ارتكاب النهي ومعصيةِ تركِ الأمرِ قالوا: غالباً ما يكون دافعُ الإِنسَان في ارتكابِ النَّهي الشهوةُ، وغالباً ما يكون دافعُ الإِنسَانِ في ردِّ الأمرِ الكِبرُ، والكبرُ أولُ ذنبٍ عُصي الله به في السماءِ، والحسدُ أول ذنبٍ عُصي الله به في الأرض، والكِبرُ والحسدُ كلاهما خطيرٌ علىٰ إيمان الإِنْسَان، كم من إنسانٍ يدفعُه الحسدُ إلىٰ أن يعترض علىٰ ربِّ العَالَمِينَ في عطائه ومَنِّه وما يهبه للنَّاس من النعمِ، الحاسدُ يعترِضُ علىٰ الله كيف أعطىٰ فلاناً ومنَعني. وإبليسُ تكَبَّر واعترَضَ علىٰ أمرِ الله كيف تأمُرُني أن أسجدَ لمن خلقتَه من طين وأنا خلقتني من نارٍ؟ فكلا الذَّنبين خطيرٌ جداً، وارتكابها كلُّها خطيرٌ لاشك في هذا، والإِنْسَانُ المُوفَّقُ يحرص علىٰ أن يتنزَّه عن جميعها. لكنَّ الإِنْسَانَ لو زلَّت به القدَم فإن رحمةَ الله واسعةٌ، أمَّا ردُّ أمرِ الله أو الاعتراضُ علىٰ أمرِه أو عدمُ قبولِ ما لم يدركه عقلُك فكأنك جعلت من نفسِك مساوياً لله عز وجل، فالشِّرْكُ لا يغفره الله.

والله ضربَ للمشركِ مثالاً فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:٣١] فالتَّوْحِيدُ هو الذي يحفظُ الإِنْسَانَ، وكما أنَّ الأرضَ والشمسَ والقمرَ مُعلَّقةً في الفضاء، والذي يُمسِكُها هو الله، هكذا الإِنْسَانُ من الناحيةِ المعنويةِ الذي يُمسكه هو التَّوْحِيدُ، فإن تركتَ التَّوْحِيدَ سقطتَ، ولهذا قالَ - تَعَالَى -: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ يسقط ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

[التين:١-٦] فالذي يحفظُك من السقوطِ: التَّوْحِيدُ والإِيمَانُ، فالله يقول الذي يُشرِكُ مثلُ الذي يسقطُ من السماءِ ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١]، لو هوىٰ الإِنْسَان الآن في الفضاء ما الذي يُمسكُه؟ يبقىٰ في الفضاءِ إلىٰ ما لا نهاية، فهكذا الشِّرْكُ عظيمٌ جِدًّا، فالإِنْسَان ينبغي أن يحذرَ مداخلَ الشِّرْكِ الكبيرةِ والصغيرةِ؛ لأنَّ الإِنْسَانَ كما مرَّ عن الشَّارِحِ: قد يُحِبُّ الشِّرْكَ وهو لا يعلم، وقد ينصرُ الشِّرْكَ وهو لا يعلمُ، وقد يحاربُ التَّوْحِيدَ وهو لا يعلم؛ لأنه ما عرَف التَّوْحِيدَ والشِّرْكَ، فعدمُ علمِه يجعله يقع في هذه المهالِك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولِمُسْلِم عن أبي الهياج الأسدي حيان بن حصين قال: قال لي علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) هو أمير المُؤْمِنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا تدع صورة إلا طمستها -تقدم- ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) وفي الرِّوَايَة الأخرى: (ولا صورةً إلا طمستها) فيه تصريح بأن النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث علياً لذلك، أما الصور فلمضاهاتها لخلق الله، وأما تسوية القُبُوْر فلما في تعليتها من الفتنة بأربَابُها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشِّرْك ووسائله؛ فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدِّين ومقاصده وواجباته، ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور وعظمت الفتنة بأربَابُ القُبُوْر وصارت محطاً لرحال العابدين المعظمين لها، فصرفوا لها جُل العبادة من الدعاء والاستعانة والاستغاثة والتضرع لها والذبح لها والنذور وغير ذلك من كل شرك محظور.



الشَّرح

يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث علياً بأن لا يدع قبراً مُشرِفاً إلا سواه، والقبرُ المُشرِفُ هو الذي يُرفع بناؤه فوقَ الأرض، فكل قبرٍ يُرفع بناؤه ويُجَصَّص للتعظيم لا يجوزُ، ولا يَحرمُ أن يُرفع قليلاً لبيان أنَّ هذا محلُّ القبر، ومعنى (يُجصَّص) أي: يُنَوَّرُ يُوضعُ عليه النَّورَةُ أو التبييضُ الذي يُبرزُه ويجمِّلُه، فالقُبُوْرُ لا تُجمَّلُ، القبرُ ليس مسكناً حتى يكون جميلاً، والمُسْلِمون قد ابتلوا اليوم في أكثر بقاعِ العالَمِ ببناءِ القُبُوْرِ، بل كثيرٌ من الرؤساء وأصحابُ الجاه إذا دُفن يُقبَر في أماكنَ خاصةٍ تُجمَّل وتوضعُ فيها أنواعُ الرُّخامِ وتُضاء ويُوظَّفُ عنده من يقرأ القُرْآن ليلاً ونهاراً، وقراءةُ القُرْآن ليلاً ونهاراً عند هذا

القبرِ الـذي كـان هـو أولُ مـن يخـرجُ عـن القُـرْآنِ ويحاربُـه هـذا تعـذيبٌ لـه في الحقيقةِ؛ لأنه يسمعُ هذا القُرْآنَ الذي كان عاصياً له لم يمتثِله في حياتِه فهذا تعذيبٌ وزيادةُ نِكايةٍ له، القُرْآنُ ما أنزله الله للبَركةِ ما هو تعاويذُ يُتبَّركُ بها، القُرْآن دينٌ يُطاعُ أمرُه ويُجتنبُ نهيُه، ويُتَّبعُ، فهؤلاء اكتفوا من القُرْآنِ أن يُقرأ فقط عند الأموات، أي: كأنَّ القُرْآنَ أنزله اللهُ للأموات لا للأحياءِ، إن ماتَ قرأنا القُرْآن عنده أو استأجرنا من يقرأُ القُرْآن عند قبره، هذا هو دور القُرْآنِ في كثير من بلادِ الإسْلَام، القُرْآنُ أنزله الله للأحياءِ وليس للأموات، الميِّت إذا مات انقطع عملُه، كما في الحَدِيْثِ الشريف: (**إذا مات الإِنْسَان انقطع عنه عمله**)[1] والذي يبقىٰ إمَّا صدقةٌ وإمَّا علمٌ وإمَّا دعاءٌ، ولهذا شرع لنا أن ندعو للأمواتِ إذا جئنا عند الأمواتِ، أو مررنا بالقُبُوْرِ ندعو الله أن يغفرَ لهم، أمَّا أن يُقرأَ القُرْآن علىٰ الميِّتِ أو له فهذا مما لم يرد في سنةِ نَبينا ﷺ.

بعض الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم نُقِلَ عنه أنه أمرَ بأن تُقرأ عند قبرِه سورةُ البقرة أو بعضُ السورِ، لكن هذا لم يرد في السُّنَّةِ، فمن فعله في الحقيقةِ ليس عنده دليلٌ مشروعٌ والعبرةُ ليس باجتهادِ الصَّحَابِي، الصَّحَابَة رضي الله عنهم لا يُشرِّعون، وإلا لأمرَنا الله بأن نتَّبع تشريعَهم، والصَّحَابَةُ قد اختلفوا نتَّبع قولَ مَن مِنهم؟!، لا نكون مثل النَّصَارَىٰ الذين قالوا: إنَّ الذين كتبوا الأناجيلَ رُسلٌ يأتيهم الوحيُّ، وكان هذا أول مطعنٍ في كُتبهم، ولهذا اختلفَت الأناجيلُ، ليس فقط في الكلام والألفاظِ فحسب، بل في المعنىٰ والمضمون أيضاً، فمثلاً: هم زعموا أنَّ عيسىٰ عليه السلام في إنجيلٍ يوصِلُ نسبَه إلىٰ سليمانَ بن داودَ، وإنجيلُ يُوصِلُ نسبَه

---

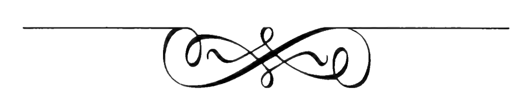
(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الوصية، بَابُ ما يلحق الإِنْسَان من الثواب بعد وفاته، برقم: (١٦٣١)، (٣/ ١٢٥٥).

إلىٰ أخي سليمانَ اسمُه نافان بن داودَ أيهما أصدقُ وَحِياً؟ فلا نقول: إنَّ كلامَ الصَّحَابَة تشريعٌ، الصَّحَابَةُ أعرفُ منَّا بمرادِ الله من دينِه، لكن لو اجتهد الصَّحَابِي وقال قولاً ثم رأينا هذا القولَ يخالف ما في النصوصِ لا نأخذُه، الصَّحَابِيُّ له قَدرُه لكنه لا يُشرِّع، ولو كانوا يُشرِّعون لما اختلفوا، لكنهم رأيهم أحسنُ من رأينا، لكن لو جاءت مسألةٌ تترتب عليها خطورةٌ في العقيدةِ أو الشريعةِ فلا نأخذ بقولِه ولا نجعل فعلَهم تشريعاً، وإلا فلو جعلنا فعلَهم تشريعاً لوقعنا في تضاربٍ؛ لأنَّ أقوالَ الصَّحَابَةِ وأعمالَهم تختلف، لكن كما وذكر ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن تفسيرهم أصوبُ من آرائنا وتفسيرِنا. لكن لو كان لهم رأيٌ وخالفَه غيره فنحن نستأنس برأي الذين وافقوا النصوصَ العامة، لا نستأنس بفعل الذين خالفوا النصَّ كما في هذه المسألة حيث وردَ النصُّ بالنهي عن تعظيمِ القُبُوْر، واتخاذها أماكنَ للعبادةِ، فقراءة القُرْآنِ عند القبر في الحقيقة ليس فيه خطورةٌ كبيرةٌ لكن الأولىٰ عدم فعلِها؛ لأنَّ هذا لم يفعله النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا كبارُ الصَّحَابَة، فلم يفعله أبو بكر الصديق ولا عمرُ ولا عثمانُ ولا عليٌّ ولا فقهاءُ الصَّحَابَة كعبدِ الله بن عمَر وعبد الله بن عباس وأبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فلو فعل الصَّحَابِي فعلاً لم يفعله الآخرون نستأنس بما يتَّفِق مع النصوص العامَّةِ، أما لو فعل جميع الصَّحَابَة أمراً أو فعله أكثرهم أو جماعةٌ منهم فلاشك أنه يكون قويـاً ويجعلنا نستأنس به. كذلك وردَ عن بعضِ الصَّحَابَة أنه كان يُعلِّق التعاويذَ من القُرْآنِ الكَرِيم علىٰ العُنقِ، فجمهورُ العُلَمَاءِ وكثيرٌ من الصَّحَابَة خالفوا هذا ولم يَروه مشروعاً ولا مُستحبَّاً، فالإِنْسَان يختار من آرائهم ما يتفقُ مع النصوصِ العامَّةِ، وليس هذا طعناً في الصَّحَابِي، لكنَّ الصَّحَابِيَ قد يقول قولاً أو يفعلُ فعلاً ويخالفه غيرُه من الصَّحَابَةِ الآخرين فنستأنس بفعل أو

قولٍ يوافقُ النصوص الشرعيةَ الصَحِيحةَ.

ولكن لو فعلَ إنسانٌ مثلَ فعلَ الصَّحَابِي هذا ما نُحرِّج عليه وما نَتَّهمُه؛ لأنه فعل فعلاً سبقَه غيرُه وهو أفضلُ منه، فلو قرأ شخصٌ القُرْآنَ علىٰ قبرٍ لا نعاتبه، لكن نُبيِّنُ له أن جمهورَ الصَّحَابَةِ لم يفعلوه، والنصوصُ العامّةُ لم يرد فيها تأكيدٌ لهذا الفعل، لكننا لا نُشنِّعُ عليه ولا نَتَّهمُه بالبدعةِ؛ لأننا لو بدَّعناه بدَّعنا الصَّحَابِيَ الذي سبقَ، لكننا نقول أن الأفضلَ ألا يفعلَ فعلاً إلا إذا كان عليه دليلٌ من الكتابِ والسُّنَّةِ، فمثلاً بعضُ الصَّحَابَة نُقل عنهم أنهم وضعوا في أعناقِ أبنائهم حُروزاً من القُرْآن، فلو فعل إنسانٌ هذا لا نتَّهمُه ولا نُبدِّعُه، لكن نقول: إنَّ أكثرَ الصَّحَابَةِ لم يفعلوه، وهذا يؤدِّي إلىٰ محاذيرَ كامتهانِ القُرْآنِ وجعلِه لغيرِ ما أُنزل من أجلِه وهكذا، أي: خلافُ الصَّحَابَةِ في مسألةٍ لا يجعلنا نتوقَّف، ولا نتعجلُ في التشنيعِ علىٰ من فَعل فِعل بعضِ الصَّحَابَة؛ لأنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ فيهم تقوىٰ وصلاحٌ وحرصٌ علىٰ الخير، لكن إذا فعل الصَّحَابِي فعلاً يخالف نصاً صريحاً يُردُّ فعلهُ ويكون الراجحُ ما فعله كبارُ الصَّحَابَةِ وعلماؤهم، كما قيل عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان يَتتبَّع أماكنَ كان فيها أفعالُ للنبيِّ ﷺ، فكان حتىٰ المكان الذي بال فيه ﷺ ينزل يبولُ فيه من بَابِ محبَّته لآثار النَّبِيِّ ﷺ، والشجرةُ التي حصلت تحتها بيعةُ الرضوان في الحديبية كان بعضُ الصَّحَابَة يأتي إليها ومنهم ابن عمرَ، لكنَّ عمرَ رضي الله عنه قطعَ الشجرة، فقال العُلَمَاءُ: إن فعل عمرَ هو الفعلُ الذي يُؤخذُ به، وعمرُ كان كثير من أقواله يأتي الوحيُ يقرِّرُها، وهو من الخُلفاءِ الراشدين الذين أُمِرنا أن نتبع سنَّتهم، فإذا اختلف عمرُ وابنُه نأخذ بقول عمرٍ؛ لأنَّ عمرَ رضي الله عنه شهدَ له النَّبِيُّ ﷺ، وأمرنا أن

نأخذ بقوله كما قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاءِ الراشدين من بعدي)[١]، فقول عمرَ رضي الله عنه مُقدَّم، وهكذا العُلَمَاء يقولون إذا ورد قولان للصَّحابةِ نأخذ بالقول الذي قاله الخليفتان أبو بكر وعمر، وإذا اختلفا نأخذ بما عليه أبو بكر. وهكذا يقدَّمُ الأفضلُ فالأفضلُ من الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم.



(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السُّنَّةِ، بَابُ في لزوم السُّنَّةِ، برقم: (٤٦٠٩)، والترمذي في سننه، كتاب العلم، بَابُ ما جاء في الأخذ بالسُّنَّةِ واجتناب البدع، برقم: (٢٦٧٦)، وابن ماجه في سننه كذلك، بَابُ اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهدين، برقم: (٤٣)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٧١٤٢)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٥٠٢١)، (١٣/ ١٦٢)، والبيهقي في سننه، كتاب آداب القاضي، بَابُبَابُ ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي فإنه غير جائز له أن يقلد أحداً من أهل دهره ولا أن يحكم أو يفتي بالاستحسان، برقم: (٢٠١٢٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب العلم، برقم: (٣٢٩)، (١/ ١٧٤)، وابن حبان في صَحِيحه، بَابُ الاعتصام بالسُّنَّةِ، برقم: (٥)، (١/ ١٧٩)، والدرمي في مقدمة سننه، بَابُ اتباع السُّنَّةِ، برقم: (٩٥)، وصححه الترمذي.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن جمع بين سنة رَسُوْل الله ﷺ في القُبُوْر وما أمر به ونهىٰ عنه وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر النَّاس اليوم رأىٰ أحدهما مضاداً للآخر مناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبداً، فنهىٰ رَسُوْل الله ﷺ عن الصَّلَاة إلىٰ القُبُوْر وهؤلاء يصلون عندها وإليها، ونهىٰ عن اتخاذها مَسَاجِد وهؤلاء يبنون عليها المَسَاجِد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله، ونهىٰ عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف علىٰ إيقاد القناديل عليها، ونهىٰ عن أن تتخذ عيداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويتجمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر، وأمر بتسويتها كما روىٰ مُسْلِم في صَحِيحه عن أبي الهياج الأسدي فذكر حديث البَابُ وحديث ثمامة بن شفي وهو عند مُسْلِم أيضًا قال: (كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي ثم قال: سمعت رَسُوْل الله ﷺ يأمر بتسويتها) وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحَدِيْثين يرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القبَابُ، ونهىٰ عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روىٰ مُسْلِم في صَحِيحه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (نهىٰ رَسُوْل الله ﷺ أن يُجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبني عليه، ونهىٰ عن الكتابة عليها).



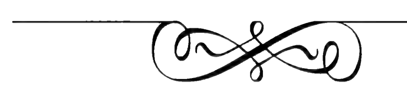
الشَّرْح

قوله: (قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن جمع...) هذه مقارنةٌ بين أعمالِ الذين يعظِّمُون القُبُوْرَ وبين الأَحَادِيثِ الواردةِ بهذا الشأن، يقول ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ نهىٰ النَّبِيُّ ﷺ عن الصَّلَاة إلىٰ القُبُوْر، والصَّلَاةِ عندها، وهؤلاء خالفوا الأمرَ،

والمشكلةُ ليست في العوامِّ، بل المشكلةُ في علماءَ مُعمَّمِين، و تقدَّم أن بعض كبارِ هيئةِ العُلَمَاءِ في بعض بلاد المُسْلِمين كان يتبَنَّىٰ هذا ويدعو إليه ويَسخرُ مما يسمِّيه بالوهابيةِ؛ لأنهم يقولون: إنَّ الأموات لا يُدعَون ولا يُستغاثُ بهم، ما أدراكم أنَّ الأمواتَ أعطاهم اللهُ قدرةً يُجيبون من دعاهم ويساعدون من احتاجهم واستغاثَ بهم؟ والأموات قد ماتوا وأنت لم ينكشف لك ما في الآخرةِ؟ كيف عرفت أنت؟! فكلمةُ ما أدراكم ما هي كلمةٌ عادية، نحن نقول: هل من دليلٍ؟ أم الأدلةُ علىٰ خلاف هذا؟ وأقاموا الآن القبَابَ علىٰ المَسَاجِدِ ولا يكادُ مسجدٌ كبيرٌ من مَسَاجِدِ العالمِ الإسْلَامي إلا وفيه قبرٌ، وهذا غايةُ المضادةِ لله ولرَسُوْلِه. وكذلك نهىٰ النَّبِيُّ ﷺ عن إيقادِ السُرج عليها وهؤلاء أوقفوا الأوقافَ لإيقادِ السُرج بحيث لا تنطفئ الأنوارُ في هذه الأماكن، أي: الآن بيوتُ الله إذا انتهت الصَّلَاة وخرج النَّاس تنطفئ الأنوارُ فيها، أمَّا المشاهد فأنوارُها لا تنطفئُ، ولها الأوقافُ مستمرةٌ، فقال: هذه مضادةٌ لله ولرَسُوْلِه، الرَسُوْلُ يأمر بأمرٍ ونحن نخالفه، وهؤلاء يزعمون محبَّةَ النَّبِيّ ﷺ أين المحبةُ؟ المحبةُ في المتابعةِ والاتباعِ، ليست المحبةُ في البدع، فتراهم يُعظِّمون القُبُوْرَ ويزعمون أن ذلك من الدِّين، لكن الدِّينَ لا يُعظَّم فيه القبرُ، بل هذا من الشيطان.

قوله: (**وهو عند مُسْلِم أيضًا قال: كنا مع...**) هذه الأَحَادِيثُ كلُّها في الصِّحاحِ أي: في صَحِيح البُخَارِيُّ وصَحِيح مُسْلِم، وهما كتابان تَلَقتهما الأُمَّةُ بالقبول، فإذا كانت هذه أحاديثُ في الصَحِيحين، ولم يُعمل بها فبماذا يُعمَل؟ وقلنا المشكلةُ في العُلَمَاءِ الذين يتصدَّرون العوامَّ، وقد رأينا في كثيرٍ من بلاد العالمِ الإسْلَامي العُلَمَاءَ هم في المقدمة، وبعضُهم يقول نحن لا نريد أن نفرِّق النَّاسَ!! تتركهم مساكين يُشرِكون بالخَالِقِ ﷻ وترىٰ هذا الشِّرْكَ بعينك

وتعلمُ أنه شركٌ، وتقول ما نحبُّ أن نفرِّق النَّاسَ! عندما جاء الأنبيَاء للأمم والنَّاسُ كلُّهم مجتَمعون علىٰ الشِّرْك، ففرَّقوهم، دعوا النَّاسَ ليبقىٰ مَن يبقىٰ يعبُدُ الأصنام، وتعبدُ طائفةٌ ربَّ العَالَمِينَ، فلو أنَّ كلَّ داعيةٍ يجيء إلىٰ قومٍ يجتمعون علىٰ معصيةٍ أو علىٰ باطلٍ ويقول ما نريدُ أن نُفرِّق النَّاسَ فماذا يكون؟، هذا كلامٌ ظاهره جميلٌ: أنه يحبُّ اجتماعَ النَّاس وهو اجتماعُهم علىٰ الباطل أو الشِّرْكِ!، يرون النَّاس صباحًا ومساءً يُشرِكون بالله ولا ينصحونهم، بل بعضُهم يدافع ويقول: إنَّ دعاءَ الأمواتَ والاستغاثةَ بهم ليس شركًا، بل يجوزُ، من أين قلتَ إنه يجوز؟ القُرْآن كلُّه يخالفُه، وماذا فعلَ المُشْرِكُونَ في الجَاهِلِيَّة إلا أنهم دَعوا الأمواتَ وذَبحوا لهم وعظَّموا أماكنهم؟ الجَاهِلِيَّة ما كانوا يقولون: إنَّ الأولياءَ والصَّالِحِينَ يخلُقون السَّماوَاتِ والأرضَ، فشركُ الجَاهِلِيَّةِ الأُولىٰ بعينِه يوجدُ اليوم في كثيرٍ من بلادِ العالمِ الإِسْلَامي، ومع ذلك يجدون من يُؤيدُهم ونحن ندعو في كل دعاءٍ: اللهم اخذل الشِّرْكَ والمُشرِكِينَ، المُشْرِكُونَ هم الذين يزعمون أن أصحابَ هذه المشاهدَ والقُبُوْرِ ينفعون مع الله ويُستغاثُ بهم ويُدعَون من دون الله ويُعظَّمون من دون الله! هذا هو الشِّرْك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كما روىٰ أبو داود في سننه عن جابر أن رَسُوْل الله ﷺ: (نهىٰ عن تجصيص القُبُوْر وأن يكتب عليها) قال الترمذي: حديث حسن صَحِيح. وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القُرْآن وغيره، ونهىٰ أن يزاد عليها غير ترابها، كما روىٰ أبو داود عن جابر أيضـًا أن رَسُوْل الله ﷺ: (نهىٰ أن يجصص القبر أو يكتب عليه أو يزاد عليه) وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر علىٰ قبورهم، والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذيها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المَسَاجِد والقبَابُ مناقضون لما أمر به رَسُوْل الله ﷺ محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مَسَاجِد، وإيقاد السرج عليها وهو من الكبائر، وقد صرح الفُقَهَاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

الشَّرح

قوله: (ونهىٰ أن يزاد عليها غير ترابها) بعضُهم يكتب علىٰ القُبُوْر كلامـًا طويلاً: حياةَ الميِّت واسمُه وأين وُلد وأين مات وكيف كان في حياتِه وكيف كان.. أي: كأنَّ هذا القبرَ هو محلُّ مزارٍ، فيحتاج أن يكتبَ عليه المعلومات حتىٰ إذا جاءَ النَّاسُ إليه يعرِفون صاحبَ القبر، فهذه كلُّها مَنهيٍ عنها لا يُكتبُ عليها ولا تُجصَّص ولا تُرفَع؛ لأنَّ فيه حمَايةٌ للتوحيدِ، حمايةٌ لحقِّ ربِّ العَالَمِينَ، ليست فيه إهانةٌ للميت، بل حمايةٌ للتوحيدِ.

والشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتجه إلىٰ وجهةٍ أخرىٰ؛ لأنَّ البَابُ في المُصوِّرين وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ من شدَّةِ ما عانىٰ في حياته وما رأىٰ انتقلَ من الأَحَادِيثِ في التَّصويرِ إلىٰ ما

يتعلَّق بالقُبُوْر، وقد مرَّت أبوابٌ في هذا الموضوع، لكنه رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يُبينَ هذا أكثر.

قوله: (**كما روىٰ أبو داود عن جابر أيضـًا...**) بعضُ الفُقَهَاء لا يحرِّم هذه المَسَائِلَ، بل يقول: هي مكروهةٌ، وهذا تساهلٌ من هؤلاءِ العُلَمَاءِ، ومعلومٌ أن هناك اختلافـًا بين العُلَمَاء في بعضِ الأوامرِ والنواهي، بعضُ الأوامرِ يرون أنها للاستحبَابِ وبعضُ النَّواهي يرون أنها للكراهةِ، لكن ما هناك ضابطٌ مُتَّفقٌ عليه، بعضُهم يرون أنَّ الأمر إذا عُلِّل نقلَه من الوجوبِ إلىٰ الاستحبَاب، والنَّهي إذا عُلِّل نقلَه من التحريمِ إلىٰ الكراهةِ، أي: إذا ذُكِرت في الحَدِيْثِ عِلَّةُ الحُكمِ افعل كذا لأجلِ كذا فإنَّ الأمرَ يكون للاستحبَابِ، مثلاً: (**خالفوا اليهود والنَّصَارَىٰ، فإنهم لا يصلُّون في نعالِهم وخفافِهم**)[1] فقالوا: هذا الأمر للاستحبَابِ، وبعضُ العُلَمَاء يقول مكروه وهو يريد التحريمَ، فينبغي ألا نتعجَّل، مثلاً يقول النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ في (رياض الصَّالِحِينَ): بَابُ كراهةِ إسبالِ الثياب، لكنَّ الأَحَادِيثَ قويةً شديدةً جداً وصريحةً في التحريمِ الشديدِ، منها قولُه ﷺ: (**ثلاثةٌ لا يكلمُهم الله يومَ القِيَامَةِ ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم،... المسبل**)[2] أوَّلُهم الْمُسبِلُ، فكيف يكون مكروهـًا واللهُ لا يكلمُه يوم القِيَامَةِ ولا يزكيه وله عذابٌ أليم؟ كيف يُعذَّبُ علىٰ المكروه؟ المكروه في اصطلاح

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصَّلَاة، بَابُ الصَّلَاة في النعل، برقم: (٦٥٢)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الصَّلَاة، بَابُ سنة الصَّلَاة في النعلين، برقم: (٤٢٥٧)، و الحاكم في المستدرك، كتاب الصَّلَاة، برقم: (٩٥٩)، وابن حبان في صَحِيحه، برقم: (٢١٨٦)، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

(٢) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الإيمَان، بَابُ غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحَلِف، برقم (١٠٦)، (١/ ١٠٢)، وتمامه " والمنان والمنفق سلعته بالحَلِف الكاذب".

الفُقَهَاء: ما يُؤجَر تاركُه ولا يأثَم فاعلُه، والمستحبُّ: ما يُؤجَر فاعلُه ولا يُعاقَب تاركُه، لكنَّ الواجبَ: هو ما يُؤجر فاعلُه ويُعاقَب تاركُه، والمُحرَّمُ: هو ما يُؤجرُ تاركُه ويُعاقبُ فاعلُه، فالحَدِيْث ذكر عِقاباً، فكيف قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّه مكروه؟ فبعضُ العُلَمَاءِ يضعُ عنواناً قد يُظَنَّ أنه يتساهل في القضيةِ، ولعلَّه - والله أعلم - أراد بالكراهةِ هنا الكراهةَ التحريميةَ؛ لأنَّ الحَدِيْث صريحٌ، مثلاً: يُكرَه الصَّلَاةُ عند القُبُوْر، أو يُكرَه رفعُ البناء علىٰ القُبُوْر، كيف يُكره والأَحَادِيثُ فيه شديدةٌ جداً؟ جاءت باللعنِ **(لعن الله اليهود والنَّصَارَىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مَسَاجِد)**[1] **فكيف يُقال مكروه؟!**

فأحياناً العنوان يكون فيه قصورٌ فينبغي أن نتنبَّه، كلُّ عنوانٍ أو كلُّ قولٍ يقوله العالِمُ إذا خالف النصَّ أو خفَّفَ من قيمةِ النصِّ فإنه يُردُّ ولا يُقبل، العالِمُ قد يكون في ذهنِه مُبرراتٌ لا نعرفُها، هو مأجورٌ إذا أخطأ، لكن إذا رأيت الحَدِيْثَ ورأيتَ قولَه ورأيتَ أن القولَ أو الاستنباطَ لا يتفقُ مع الحَدِيْث فلا يجوز لك أن تأخذ بالقولِ الذي يخالف النصَّ، الأَحَادِيثُ في القُبُوْر جاءت مُشدِّدةً جداً، وبعضُ العُلَمَاء قال: يُكرَه الصَّلَاةُ عندها! وبعضُهم قال: إنَّ النهي عن الصَّلَاة علىٰ القُبُوْرِ بسبب النَّجاسة!، وما الدليل؟ الأَحَادِيثُ لم تذكر فيها نجاسةً، هَبْ أننا جئنا إلىٰ القُبُوْر وجعلناها كلَّها رُخاماً بحيث لم يكن هناك ترابٌ ظاهرٌ فهل نصلي فوقَها؟ فهذا خطيرٌ جداً ينبغي أن نتنبَّهَ؛ فالقولُ الذي لم يتفق فهمُه مع ما دلَّ عليه النصُّ لا ينبغي للإنسان أن يقبلَه؛ لأنَّ العبرةَ بالنص، نحن نطيعُ قولَ العالِمِ إذا وافقَ النصَّ، أما إذا خالف النصَّ فما نطيعه؛ لأنَّه لا يُشرِّعُ.

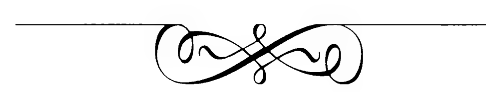
---

(١) سبق تخريجه.

والعالِمُ إذا خالفَ فإنه مأجور عند الله ﷻ، ولهذا نرىٰ الفقهَ الإسْلَاميَّ فيه اختلافٌ كبيرٌ جداً، تقرأ في أي كتابٍ فقهي ترىٰ اختلافاً كبيراً جداً بين العُلَمَاءِ؛ لأنهم يختلفون في الاستنباطِ، فالعالِمُ الذي يتفق استنباطُه مع ظاهر النصِّ نقبُله، والعالِمُ الذي يجتهد ويأتي بقولٍ يخالِف النَّصَّ ما نقبلُه، وهذا ليس ممكناً لكل النَّاس، إنما لطلبةِ العِلمِ، لكنَّ العوامَّ قد يقعون في مشاكلَ، ويحدثُ عندهم لبسٌ وربما يسأل: كيف تقول: حرامٌ، والنووي يقولُ إنه مكروه؟ أنت أعلم من النووي؟ النووي عالِمٌ جليلٌ، ومن يقرأ في كتابِ (المجموع) للنَّووي يرىٰ شيئاً مذهلاً لكنه -رَحِمَهُ اللهُ- بشرٌ، فنحن نأتي إلىٰ النصِّ، الحَدِيْثُ باللُّغة العربيةِ الفصيحة ونحن نعرف اللغةَ العربية، الحَدِيْث يُهدِّدَ من يُسبلُ، فكيف انتقل التهديدُ إلىٰ الكراهة؟ ولو لم يكن النصُّ صريحاً في المسألة لقبلنا كلامَه رَحِمَهُ اللهُ، ومثل كلامِ النَّووي هنا قولُ ابنِ قُدامة رَحِمَهُ اللهُ في آخرِ (المُغني) يقول: ويُستحبُّ للحاجِ أن يزور قبرَ النَّبيّ ﷺ. ولاشك أنَّ ابن قُدامةَ عالِمٌ جليلٌ، قال بعض العُلَمَاءُ: إنه ما استجاز الفتوىٰ حتىٰ اجتمع عنده ثلاثة كتب هي: (المجموعُ) للنووي، و(المُغني) لابن قدامة، و(المحلَّىٰ) لابن حزم، يقول: عندما توفرت هذه الكتبُ عندي استبحت لنفسي الفتوىٰ؛ لأنها كتب عظيمةٌ جداً فيما احتوته من أدلَّةٍ شرعية، ومع ذلك فإن هذا العالِمَ يقول: إنه يُستحبُّ زيارةُ قبرِ النَّبيِّ ﷺ، لكن جاءَ في الحَدِيْثِ الصريح: **(لا تُشدُّ الرحال إلا لثلاثة مَسَاجِد..)**[(١)] كيف نشدُّ الرِّحالَ ونزور قبر النَّبيِّ ﷺ والرَسُوْلُ قَصرَ الزيارةَ علىٰ المَسَاجِدِ الثلاثةَ؟ لعلَّه -والله أعلم- قصورٌ في

(١) أخرجه البُخَارِيُّ في صَحِيحه، كتاب وبَابُ فضل الصَّلَاة في مسجد مكة و المَدِيْنَة، برقم: (١١٨٩)، ومُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الحج، بَابُ لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مَسَاجِد، برقم: (١٣٩٧)، (٢/ ١٠١٤).

العبارةِ، أرادَ زيارةَ المسجدِ النَّبوي ثم تزورُ قبرَ النَّبِيِّ ﷺ إذا جئت إلىٰ المسجدِ النَّبوي، لكن النصَّ هكذا: بَابُ زيارةِ القبرِ، وهذا من المَسَائِل التي وقع فيها الخلافُ بين ابن تَيْمِيَةَ والسُبكي رحمهما الله واشتد الخلاف فيها، وابن تَيْمِيَةَ قال: الحَدِيْث صريحٌ (لا تُشدُّ..) نهي، فكيف نشدُّ الرِّحالَ؟ فلا نأخذ بقول ابن قُدامةَ، وهكذا العُلَمَاءُ الكبارُ قد تكون لهم اجتهادات يدرِكها صِغارُ الطلبةِ؛ رحمةً بنا وعظةً لنا حتىٰ لا نقدِّسُ العُلَمَاءَ، لكنَّ بعضَ الأشخاص قد يأخذ بكلِّ ما قال العالِمُ مما أصاب فيه ومما لم يُصب، ويكون بهذا قد يقع في محاذير.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القُبُوْر أشبه تعظيم الأصنام، قال: ولا يجوز اتخاذ المَسَاجِد على القُبُوْر لهذا الخبر. ولأن النَّبِيّ ﷺ قال: (لعن الله اليهود والنَّصَارَىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مَسَاجِد يحذر ما صنعوا) متفق عليه.

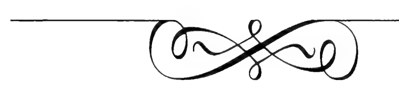
الشَّرح

قولُه: (قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح...) هذا نقلٌ من كتابِ الفُقَهَاء يُبَيِّنُ أنَّ الخبرَ صريحٌ في تحريمِ اتخاذِها مَسَاجِدَ، وصريحٌ في النهي عن تجصيصها والكتابةِ عليها، وإيقادِ السُّرجِ عليها، فلو كانت مكروهةً لما لُعِن من فعل هذا، فالأَحَادِيثُ جاءت بألفاظ في غايةِ القوةِ، وهنا ما ذكر إلا حديثًا واحداً لكن تقدَّم في أبوابِ عدة ما يدُلُّ على أن هذا الفعلَ مما حرَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (ولأن النَّبِيّ ﷺ قال: لعن الله اليهود والنَّصَارَىٰ...) هذا حديثُ من الأَحَادِيثِ التي مرَّت[1]، واللَّعنُ هو: والطردُ من رحمةِ الله، لعنَهم لأنهم اتخذوا قبورَ أنبيائِهم مَسَاجِدَ، فلو فعلنا مثلهم يلحقنا الحكمُ، هل اليهودُ والنَّصَارَىٰ ليسوا من خلقِ الله؟ هل اليهودُ والنَّصَارَىٰ ليسوا مُتعبَّدين؟ اليهودُ والنَّصَارَىٰ وغيرهم ممن كُلِّفُوا وأُمروا ونُهوا مثلُنا، نحن كذلك، والله ذكر عن بَنِي إِسْرائِيلَ من القصصِ في القُرْآن الكَرِيم؛ لأنهم كانوا قبلنا، وكانت في حياتهم عبرةً، فالله يعلِّمُنا ويُربِّينَا على ضوءِ الأحداثِ التي سبقت، فكلُّ فعلٍ

(١) سبق تخريجه.

عاقبَ اللهُ عليه مَن قَبلَنا يعاقِبنا عليه، وكلُّ فعلٍ مدحَ الله به من فعلَه ممن كان قبلنا يمدحنا عليه؛ فهذا يُسمَّىٰ التربيةَ بالأحداثِ، والتربيةُ بالقِصصِ، فاليهودُ لُعِنوا لهذا الفعلِ، إن فعلنا مثلَهم نُلعَن مثلهم، فهذا هو الحكمُ في هذه المسألةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولأن تجصيص القُبُوْر بالصَّلَاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم والتمسح بها والصَّلَاة عندها انتهىٰ.



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ ابتداءَ عبادةِ الأصنامِ والشِّرْكَ كان من تعظيمِ الصورِ، وكذلك التَّمَسُّحَ بها، وتعظيم الأمواتِ باتخاذ صورِهم وتعظيمِ قبورهم.

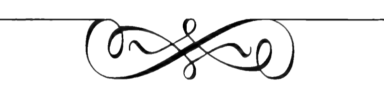
ولكنَّ التصوير المعاصر الآن الذي عمَّت به البلوىٰ في كلِّ مكان هل يدخلُ تحت هذه الأَحَادِيثِ أم أن المرادَ بما في الأَحَادِيثِ غيرَ ما جدَّ في حياةِ النَّاسِ؟

أولاً: العُلَمَاء مُجمِعون علىٰ أنَّ التماثيلَ حرامٌ، وأن من صوَّر تمثالاً فإنه مَلعونٌ ومُتوعَّدٌ بالعقاب. والذي يخرجُ إلىٰ العالمِ الإسْلَامي يرىٰ عجباً التماثيلُ في كلِّ مكان، الْمُجسَّمات في كلِّ مكان، لا تكادُ تجد بيتاً في كثيرٍ من بلادِ العالم الإسْلَامي إلا وفيه تمثالٌ، بل زُرنا وزيرَ الحجِّ والأوقافِ في بعض الدول الإسْلَامية قبلِ عشرين سنة تقريباً وأمامَ بيتِه تمثالان، وهذا وزيرُ الحجِّ ووزيرُ الأوقاف!، كلُّ ميدانٍ تجدُ فيه تمثالاً، وهذه محرَّمةٌ بلا خلافٍ.

التصويرُ باليد كذلك مُحرَّمٌ؛ لأنك تُصوِّرُ بيدِك ما يُخيَّلُ إليك أنَّك قادر علىٰ أن تفعل مثلَ فعلِ الله ﷻ، فلو أن إنساناً رسم صورةَ شخصٍ ثم أظهر لنا هذه الصورةَ فسُئلنا من هذه؟ نقول: صورةُ فلان، فهذا الشخص الذي رسم بيدِه يَلحَقَه الحكمُ، لكن التصويرُ الشمسي بالكاميرا هل يشملُه الحكمُ أم لا؟

فيه خلاف، الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ يرىٰ أن التصوير الفوتوغرافي ليس هو المقصودُ في الأَحَادِيثِ؛ لأن هذا ليس فيه جهدٌ للإنسانِ، إنما هو خلقُ الله. ويضرب علىٰ هذا مثالاً: لو أنَّ إنساناً كتب بيده كتاباً ثم صورناه وقلنا هذه الكتابةُ كتابةُ مَن؟ ما يقول أحدٌ إنها كتابةُ المُصَوِّر، بل يقول كتابةُ فلان؛ لأنَّ المُصَوِّرُ إنما صورها فقط وما كتب بيدِه، فهذه الصورةُ هي خلقُ الله، لكن لو أنَّ هذا الشخصَ نقل كلامَ شخص بيده وقلنا كتابةُ مَن هذه؟ نقول كتابةُ الأخير الذي كتبَها بيدِه، أما لو صورها فإنها ليست كتابتُه؛ ويضرب كذلك مثلاً بالمرآةِ، يقول: لو وقف إنسانٌ أمام المرآة ورأىٰ صورةً في المرآةِ وانحبست صورتُه في المرآة فليس هو الذي صوَّر الصورةَ، فليس له جهد ولا أثر في تصويرها، إنما انحبس الظلُّ في هذا المكان بمادة تُبرز الصورةَ؛ فيرىٰ أنَّ الصورةَ المعُاصرة ليست هي الصورةُ المقصودةُ في الأَحَادِيثِ.

الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ يرىٰ أن الصورة التي جدَّت في حياة النَّاس هي يشملها الحكمُ الشَّرعي في الأَحَادِيثِ. فالإِنْسَان ينبغي له أن يُحذِّرَ؛ لأنَّ القضيةَ خلافية وإن احتاج واضطر إلىٰ الصورة فليس في هذا إن شاء الله حرج، لكن التوسَّع فيها قد يؤدي إلىٰ محاذيرَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المُشرِكِينَ إلىٰ أن شرعوا للقبور حجاً ووضعوا لها مناسك حتىٰ صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً سماه: (مناسك حج المشاهد) مضاهاة منه القُبُوْر بالبيت الحرام، ولا يخفىٰ أن هذا مفارقة لدين الإِسْلَام ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلىٰ هذا التباين العظيم بين ما شرعه رَسُوْل الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القُبُوْر وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره، فمنها تعظيم الموقع في الافتتان بها، ومنها اتخاذها أعياداً، ومنها السفر إليها، ومنها مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها، وعبادها يرجحون المجاورة عندها علىٰ المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المَسَاجِد، والويل عندهم لقيمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها، ومنها النذر لها ولسدنتها، ومنها اعتقاد المُشرِكِينَ فيها أن بها يكشف البلاء وينصر علىٰ الأعداء ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب وتقضىٰ الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلىٰ غير ذلك، ومنها الدخول في لعنة الله ورَسُوْله باتخاذ المَسَاجِد عليها وإيقاد السرج عليها، ومنها الشِّرْك الأكبر الذي يفعل عندها، ومنها إيذاء أصحابها بما يفعله المُشْرِكُونَ بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهية كما أن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يكره ما يفعله النَّصَارَىٰ عند قبره وكذلك غيره من الأنبِيَاء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النَّصَارَىٰ عند قبورهم ويوم القِيَامَةِ يتبرؤون منهم كما قالَ -تَعالَىٰ-: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

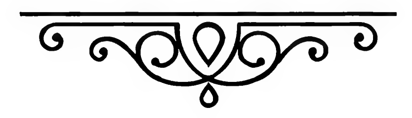
فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان: ١٧-١٨]، قال الله - تَعَالَى - للمشركين: {﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان:١٩]، وقالَ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة:١١٦]، وقالَ - تَعَالَى -: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، ومنها إماتة السنن وإحياء البدع، ومنها تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عباد القُبُوْر يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المَسَاجِد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه، ومنها أن الذي شرعه الرَسُوْل ﷺ عند زيارة القُبُوْر إنما هو تذكر الآخرة والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه والاستغفار له وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت، فقلب هؤلاء المُشْرِكُونَ الأمر وعكسوا الدِّين وجعلوا المقصود بالزيارة الشِّرْك بالميت ودعاءه والدعاءُ به وسؤاله حوائجهم واستنزال البركةِ منه ونصرِه لهم على الأعداء ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميتِ، وكان رَسُوْل الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القُبُوْر سداً للذريعة، فلما تمكن التَّوْحِيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجهِ الذي شرعه ونهاهم أن يقولوا هَجراً، ومن أعظم الهجرِ الشِّرْكُ عندها قولاً وفعلاً، وفي صَحِيح مُسْلِم عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رَسُوْل الله ﷺ: (زوروا القُبُوْر فإنها

تذكركم الموتَ) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رَسُوْلُ الله ﷺ بقبور المَدِيْنَة فأقبل عليهم بوجهِهِ فقال: (السلام عليكم يا أهل القُبُوْر يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثرِ) رواه أحمد والترمذي وحسنه. فهذه الزيارة التي شرعها رَسُوْل الله ﷺ لأمته وعلمَّهم إياها هل تجدُ فيها شيئًا مما يعتمده أهل الشِّرْكِ والبدعِ؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجهٍ؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس -رحمه الله-:" لن يصلحَ آخرُ هذه الأمةِ إلا ما أصلح أولها". ولكن كلما ضعف تمسك الأُمم بعهودِ أنبيائهم ونقصَ إيمانُهم أعرضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشِّرْك، ولقد جرد السَّلَف الصالح التَّوْحِيد وحموا جانبَه حتىٰ كان أحدهم إذا سلَّم علىٰ النَّبِيِّ ﷺ ثم أراد الدُّعاءَ استقبل القبلةَ وجعل ظهره إلىٰ جدارِ القبرِ ثم دعا، ونص علىٰ ذلك الأئمةُ الأربعة أنه يستقبل القبلةَ وقت الدعاءِ حتىٰ لا يدعو عند القبرِ، فإن الدعاءَ عبادةٌ، وفي الترمذي وغيره: (الدعاء هو العبادة)، فجرد السَّلَف العبادة لله ولم يفعلوا عند القُبُوْر منها إلا ما أذن فيه رَسُوْل الله ﷺ من الدعاءش لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم. وأخرج أبو داود عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رَسُوْل الله ﷺ: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)، وإسناده جيد ورواته ثقات مشاهير. وقوله: ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً أي: لا تعطلوها عن الصَّلَاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القُبُوْر. فأمر بتحرِّي النافلةَ في البيوت ونهىٰ عن تحري النافلة عند القُبُوْر، وهذا ضدُّ ما عليه المُشْرِكُونَ من النَّصَارَىٰ وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القُبُوْر واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمةِ التي لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجلَه كل من في قلبِه وقارٌ لله وغيره علىٰ التَّوْحِيد وتهجين

وتقبيح للشرك ولكن: " ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ". فمن المفاسد: اتخاذها أعياداً والصَّلَاة إليها، والطوافُ بها وتقبيلها واستلامُها، وتعفيرُ الخدود على ترابها، وعبادةُ أصحابها والاستغاثةُ بهم وسؤالهم النصر والرزقَ والعافيةَ وقضاءَ الدِّين وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عُبَّادُ الأوثانِ يسألونها أوثانَهم. فلو رأيت غُلاةَ المُتخذين لها عيداً وقد نزلوا عن الأكوارِ والدوابِّ إذا رأوها من مكانٍ بعيد فوضعوا لها الجباه وقبّلوا الأرض وكشفوا الرءوس وارتفعت أصواتهم بالضجيجِ وتباكوا حتىٰ تسمع لهم النشيجَ ورأوا أنهم قد أربَوا في الربحِ علىٰ الحجيجِ فاستغاثوا بمن لا يُبدِئ ولا يعيد ونادوا ولكن من مكان بعيد حتىٰ إذا دنوا منها صلَّوا عند القبر ركعتين ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجرِ ما لم يحرزه من صلَّىٰ إلىٰ القبلتين، فتراهم حولَ القبر رُكعًا سجَّداً يبتغون فضلاً من الميتِ ورضوانًا وقد ملئوا أكفهم خيبةً وخسرانًا، فلغير الله بل للشيطان ما يراق هناك من العبراتِ ويرتفع من الأصواتِ ويُطلب من الميت من الحاجات ويسأل من تفريج الكربات وإغاثة اللهفاتِ وإغناء ذوي الفاقات ومعافاةِ ذوي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين تشبيهًا له بالبيتِ الحرامِ الذي جعله الله مباركًا وهدىٰ للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العَالَمِينَ، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضًا ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظًا، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتحلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة

المتخلف إلىٰ البيت الحرام، فيقول لا ولا بحجك كل عام. هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم، إذ هي فوق ما يخطر بالبال ويدور في الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم، وكل من شم أدنىٰ رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور: سد الذريعة إلىٰ هذا المحظور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهىٰ عنه وما يؤول إليه وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدىٰ في اتباعه وطاعته والشر والضلال في معصيته ومخالفته انتهىٰ كلامه.





بَابُ: ما جاء في كثرة الحَلِف

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله - تَعَالَى -: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رَسُوْل الله ﷺ يقول: (الحَلِف منفقة للسلعة ممحقة للكسب) أخرجاه. وعن سلمان أن رَسُوْل الله ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زانٍ، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه) رواه الطبراني بسند صَحِيح. وفي الصَحِيح عن عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُوْل الله ﷺ: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثـًا، ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يُسْتَشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن). وفيه عن ابن مسعود أن النَّبِيّ ﷺ قال: (خير النَّاس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته). وقال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

فيه مسائل:

الأولىٰ: الوصية بحفظ الإيمَان.

الثانية: الإخبار بأن الحَلِف منفقة للسلعة ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه علىٰ أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ علىٰ القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يُستشهدون.

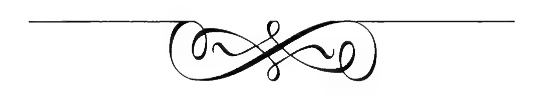
الثامنة: كون السَّلَف يضربون الصغار علىٰ الشهادة والعهد.



الشَّرْح

هذا البَابُ الذي بعنوان (بَابُ ما جاءَ في كثرةِ الحَلِف) أورد فيه المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ آية واحدة وثلاثة أحاديث وأثراً عن بعض التَّابِعينَ، وهذا البَابُ مناسبته لكتاب التَّوْحِيد هي أن كثرة الحَلِف من الإِنْسَان تدل علىٰ عدم تعظيمه لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الحَلِفَ لا يكون إلا بالله فإذا أكثرتَ من القسمِ بالله العظيم علىٰ كلِّ شيءٍ دلَّ علىٰ قلةِ الإِيمَانِ وعلىٰ عدم تعظيمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فينبغي للإنسانِ ألا يكثرَ من اليمين إلا عند الاحتياجِ، فإن كثرة اليمينِ في الحقيقةِ قد تؤدي إلىٰ الوقوعِ في المحاذيرِ، وأذكر رجلاً لم أسمعه يحلف طوالَ حياتِه قطُّ لا صادقاً ولا كاذباً، عاش قرابةَ أربعين عاماً، إذا كان له حقٌّ لا يحرِص علىٰ أخذه إذا أنكرَه شخص ولا يحلِف،عليه، وإن كان له حقٌّ طلبه بغير يمين، ولاشك أن هذا من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقليلاً من هم علىٰ هذا الخُلقِ الجميلِ في مجتمعاتنا

المُعاصرة، لكنَّ اللهَ قد شَرعَ لنا الحَلِف باليمينِ عند الاحتياجِ وقد جاء في الحَدِيْث أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (والله إنني لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كَفَّرتُ عن يميني وأتيتُ بالذي هو خير)"[1] فقد شرَع اللهُ لنا الكفَّارَة إذا احتجنا إلى مخالفةِ اليمينِ، لكن لا ينبغي لنا أن نُكثِرَ من الحَلِف إلا عند الاحتياجِ؛ لأنه يُنقِصُ من تعظيمِ الله ﷻ في قلبِ صاحبِه.



(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، بلفظ "إني لا أحلف على يمين أرى غيرها خير منها إلا أتيت الذي هو خير"، كتاب الإِيمَان، بَابُ ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه، برقم: (١٦٤٩)، (٣/ ١٢٦٨).



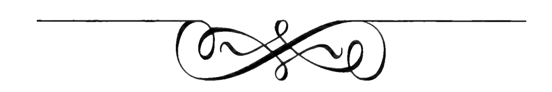
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله (بَابُ ما جاء في كثرة الحَلِف) أي: من النهي عنه والوعيد، وقول الله - تَعَالَى -: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩] قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير. وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس: يريد لا تحلفوا، وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا.

الشَّرح

هذه هي أقوالُ العُلَمَاء في معنىٰ قَولِه - تَعَالَى -: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩] حفظُ الشيءِ: الحرصُ عليه وعدمُ التفريطِ فيه، فما المرادُ بقولِه ﷻ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة:٨٩]؟ هل المرادُ به عدمُ الحَلِفِ؟ أو المراد به احفظوا أيمانكم من الحنِثِ، فلا تحنَثُوا، أي: احرص علىٰ أنك لا تحلفُ إلا علىٰ يمينٍ صادقةٍ؛ لأنك إن لم تحرص وأكثَرتَ الحَلِفَ فقد تحلِفُ علىٰ أمرٍ ليس صادقًا وليس صَحِيحًا، أو المرادُ به أنك إذا حلَفتَ لابدَّ أن تُكفِّرَ؟

الطَبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختار القولَ الأخيرَ، لكنَّ الأقربَ للصوابِ هو القولُ الأولُ، وهو قولُ ابنِ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أي: لا تحلِفوا؛ لأنَّ هذا هو المحافظةُ علىٰ اليمينِ، تحافظ علىٰ لسانِك فلا تحلِف، أما لو حلَفت فيكون لك خيارٌ إن كانت يمينًا علىٰ فعلٍ في الدُّنْيَا، ولكن إن كانت علىٰ حقٍ من حقوقِ النَّاس، فإنها خطيرةٌ، وهذه هي اليمينُ الغَمُوسُ، وهي من الكَبَائرِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

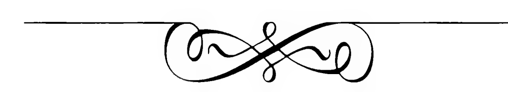
والمُصَنِّفُ أراد من الآية المعنىٰ الذي ذكره ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحَلِف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف وعدم التعظيم لله وغير ذلك مما ينافي كمال التَّوْحِيد الواجب أو عدمه.

قوله: (عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: الحَلِف منفقة للسلعة ممحقة للكسب أخرجاه). أي: البُخَارِيُّ ومُسْلِم وأخرجه أبو داود والنسائي. والمعنىٰ: أنه إذا حلف علىٰ سلعة أنه أعطىٰ فيها كذا وكذا أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنَّه المشتري صادقًا فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة علىٰ قيمتها والبائع كذاب، وحلف طمعًا في الزيادة، فيكون قد عصىٰ الله - تَعَالَى - فيعاقب بمحق البركة، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأسًا، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وإن تزخرفت الدُّنْيَا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب.

الشَّرح

قوله: (الحَلِف منفقة للسلعة....) في الحقيقةِ الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهمَ من الحَدِيْث فهمًا آخرَ غيرَ ظاهرِ الحَدِيْث؛ لأنَّ الحَدِيْثَ لم يقل: الحَلِفُ الكاذبُ، وإنما قال: الحَلِفُ مطلقًا صادقًا أو كاذبًا؛ فالحَلِف مُنفقةٌ للسلعة أي: إذا حلفتَ لإنسان أنك أخذتَ هذه بكذا سواءٌ كنت صادقًا أو كاذبًا فإن المشتري يصدقُ، فهذا أدقُّ من قولِ الشَّارِحُ.

وقوله: (مُمحِقةٌ للبركة) أي: لا تُدخلُ الأيمَانَ في تجارتِك، فالتجارةُ أخذٌ وعطاءٌ، فأنت تعرِضُها بسعرٍ مُعينٍ، فإن اشتراها المشتري فبِها ونعِمَت وإن لم يشترها فلا تحلِف، فالتاجرُ كم يأتيه من الزبائنِ في اليومِ الواحدِ؟ فهل يحلفُ لكلِّ إنسانٍ؟! هذا في الحقيقةُ إهانةٌ للقَسَمِ؛ فالمرادُ هنا أنك حتىٰ لو كنت صادقًا لا تحلف علىٰ التجارةِ، فالحَدِيْثُ في الحقيقة أدقُّ، الحَدِيْثُ لم يذكر الحَلِفَ الكاذبَ، الحَلِفُ الكاذبُ - نعوذ بالله - فُجورٌ، كما أن الحَدِيْثَ لم يقل: إنَّ اليمين فيها إثمٌ، إنما فيها عقابٌ له يمحو البركةَ؛ لأنه أدخله في التجارةِ، فلا ينبغي أن نُدخل في التجارةِ الحَلِفَ ولو كان صِدقًا، إنما أنت تبيعُ وتشتري بدون أيمانٍ، فهذا هو ظاهرُ الحَدِيْثِ والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وعن سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رَسُوْل الله ﷺ قال: "ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشميط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه" رواه الطبراني بسند صَحِيح). وسلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لعله سلمان الفارسي أبو عبد الله أسلم مقدم النَّبِيّ ﷺ المَدِيْنَة، وشهد الخندق، روىٰ عنه أبو عثمان النهدي وشرحبيل بن السمط وغيرهما، قال النَّبِيّ ﷺ: (سلمان منَّا أهل البيت، إن الله يحب من أصحابي أربعة: عليـاً، وأبا ذرٍ، وسلمان، والمقداد) أخرجه الترمذي وابن ماجه. قال الحسن: كان سلمان أميراً علىٰ ثلاثين ألفـاً يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها. توفي في خلافة عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال أبو عبيدة: سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة. ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي.



الشَّرح

هذا الحَدِيْث الذي ذكره الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحقيقةِ أنه حديثان: الحَدِيْث الأول: (سلمان منَّا أهل البيت)[١]، والحَدِيْثُ الثاني: (إن الله يُحب من أصحابي أربعة..)[٢]، وكلا الحَدِيْثين بهذين السياقين كذبٌ، فإنه يدلُّ علىٰ أنه من كلامِ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصَّحَابَة، ذكر سلمان الفارسي، برقم: (٦٥٣٩)، (٣/ ٦٩١)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٥٩٠٨)، (٦/ ١٠)، والبزار في مسنده، برقم: (٦٥٣٤)، (٢/ ٢٩٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، بَابُ (٢٠)، برقم: (٣٧١٨)، وابن ماجه في سننه، كتاب الفضائل، بَابُ فضل سلمان وأبي ذر والمقداد، برقم: (١٤٩)، (١/ ٥٢)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٢٩٦٨)، (٥/ ٣٥١)، والطبراني في المعجم الأوسط مع اختلاف، =

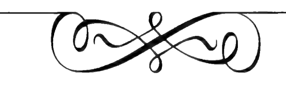
الشـيعةِ، فـإن الشـيعة تقـول: إنَّ الصَّـحَابَة كلُّهـم كفـروا إلا أربعـةً: سـلمانَ، والمقـدادَ، وأبـا ذر وعليـاً -*رضي الله عنهم جميعًا*-، والظـاهر أن هـذا مـن كـلام الشيعةِ. الحَدِيْثُ الأولُ: فيه كثير بن عبد الله متَّهمٌ بالكذب، والثاني فيه: أبو ربيعة الإيادي منكر الحَدِيْث، أي: أنَّ حديثَه أنكره العُلَمَاء، ويدلُّ علىٰ كذبِ هذا الحَدِيْث أيضًا أنَّ القُرْآن الكَرِيم صرحَ بأنَّ الله يحبُّ أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ كلُّهم إلا ما جاء الدليلُ بإخراجه، وكم من الصَّحَابَةِ يذكر النَّبِيُّ ﷺ أن الله يحبُّهم: أصحابُ غزوة أُحد، وغزوةِ بدرٍ، وقد سبقت قصةُ حاطبٍ رضي الله عنه الذي أبلغ قريشًا عن نيةِ حربِ النَّبِيِّ ﷺ لمكةَ، فقال عمرُ رضي الله عنه: دعني يا رَسُوْل الله اضرب عنقَ هذا المنافقَ. فقال له النَّبِيُّ ﷺ: (**وما يُدريك يا عمر أن الله اطلع علىٰ أهل بدرٍ فقال افعلوا أو اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**)[١]، والعُلَمَاءُ إذا ترجَموا للصحابي يذكرون ما حضرَه من الوقائع، ويقولون: فلانٌ من أهل بدر، فإن هذه مَيَزةٌ وفضيلةٌ عظيمةٌ، وكذلك قال ﷺ في بيعةِ الرِّضوان في الحُديبيةَ: (**لا يدخل النارَ أحدٌ ممن بايع تحتَ الشجرة**)[٢]، وهناك غيرُها من الأَحَادِيث؛ فالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم قد جاء القُرْآنُ بمدحهم والثناء عليهم، أمَّا الشيعةُ فإنهم يقولون ويكذبون أن هناك أربعةً من أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ فقط هم الذين يحبُّهم الله، قد يكون الشَّارِحُ رحمه الله ذكره هنا كغيره من العُلَمَاءِ السابقين الذين يتوسَّعون في ذكر الفضائلِ، لكن الحَدِيْثَ واضحُ الدَّلالةِ أنه لا يصح، وسلمان رضي الله عنه

= برقم: (٧١٤٦)، والبزار في مسنده، برقم: (٤٣٩٤)، (٢/ ١٣٨)، قال الترمذي: "هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شريك"، وضعفه الألباني في تعليقه على الترمذي.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

قد صحت فيه أحاديثُ أخرىٰ، أمَّا هـذان الحَدِيْثان بهذا السياقِ ضعيفٌ كما تقدم، والكتب مملوءة بمثل هذه الأَحَادِيث، وتحتاج إلىٰ تصفيةٍ وغربلةٍ، ومنعِ طباعة الكتب التي فيها أحاديثُ من هـذا النوع؛ لأنَّ عوامَّ النَّاس يتشَوشُون عندما يسمعون هذا الكلامَ، ولهذا مُسْلِمُ رَحِمَهُ اللهُ في مقدمةِ صَحِيحه تكلَّم بكلام قاس علىٰ بعضِ المحدثين الذين يذكُرون الأَحَادِيثَ بدون ذكر درجَاتها؛ لأن عوامَّ النَّاسِ لا يُدرِكون هذه الأَحَادِيثَ؛ فهذه الكُتب ينبغي أن تُمحَّص وتُحقَّق حتىٰ نحمي عقيدةَ الأُمَّةِ ودينها مما لحقَ به من هـذه الأَحَادِيثِ التي لم تصح عن نبينا ﷺ. سلمانُ الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو من بلاد فارس التي هي الآن إيران، هذا الشخصُ كان من عُبَّادِ النَّارِ ولكنه لم يرتح لعبادة النارِ، وسمعَ من بعضِ اليهودِ أو النَّصَارَىٰ عن دينٍ جديدٍ، ورحل إلىٰ الشام ثم من الشامِ سمع أنه سيكون بالمَدِيْنَة فأراد أن يرحل إلىٰ المَدِيْنَة ورحل مع قافلةٍ أخذوه وباعوه رقيقًا، وكان في المَدِيْنَة رقيقًا، والبحثُ عن الدِّين الصَحِيح هو الذي جعله يتنقَّل من مكان إلىٰ مكانٍ، وقد عاش أكثر من ثلاثمائة وخمسين سنةٍ، وهذا في الحقيقة عمرٌ غريبٌ لم يعهده النَّاس، لكنَّ الله قادر أن يُحييَ وأن يُطيل في عمرِ الإِنْسَان أو يُنقصُ منه، هكذا ذُكر في ترجَمتِه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه عاشَ ثلاثُمائةٍ وخمسين سنةٍ، ثم كانت حياته الأخيرةُ أن أسلمَ وحسنَ إسلامُه وأثنىٰ عليه النَّبِيُّ ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ثلاثة لا يكلمهم الله) نفي كلام الرب تعالىٰ وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل علىٰ أنه يكلم من أطاعه وأن الكلام صفة من صفات كماله، والأدلة علىٰ ذلك من الكتاب والسُّنَّةِ أظهر شيء وأبينه، وهذا هو الذي عليه أهل السُّنَّةِ والجماعة من المحققين، قيام الأفعال بالله- سُبْحَانَهُ وأن الفعل يقع بمشيئته تعالىٰ وقدرته شيئًا فشيئًا ولم يزل متصفًا به، فهو حادث الآحاد قديم النوع كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحَدِيْث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف، كما قالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس:٨٢] فأتىٰ بالحروف الدالة علىٰ الحال والاستقبال أيضًا، وذلك في القُرْآن كثير.

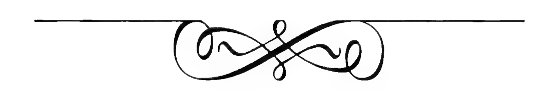
الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لقد أثبت القُرْآنُ الكَرِيم صفات الله - تَعَالَى - في عشراتٍ ومئاتٍ الآيات، هنا يثبت أن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يتكلَّم؛ فبعض الطوائفُ تُنكر أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يتكلَّم؛ لأنها فَهمت أنه لو أثبتنا أن اللهَّ يتكلَّمُ يلزم منه أن يكون لـه مثل الإِنْسَان أسنانٌ ولسانٌ وحنجرةٌ، وهذا جهلٌ فإن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قادرٌ علىٰ أن يتكلَّم بدون هذه اللوازم، في عصرنا الحاضرِ اخترع الإِنْسَان المسجلاتِ والإذاعات والتلفزيوناتِ، وكلَّها يخرج الكلامُ منها بدون أن يكون لها لسانٌ ولا حنجرةٌ ولا رئتان، وهي من صناعةِ المخلوقِ، فما بالك بالخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فلا ينبغي أن نظَنَّ أننا إذا أثبتنا لله الكلام أنَّ اللهَ مثلَ خلقِه، الله يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، فالإِنْسَانُ قد يقع في نفسِه هذا الكلامُ

لكن يدفعُه بالنصوص الشرعيةِ؛ فإثبات الكلام للهِ ﷻ عقيدةُ أهل السُّنَّةِ والجماعةِ، لكنَّ كلامَه ليس ككلام البشرِ، فنحن مخلوقون، وأفعالُنا مخلوقةٌ، والله قد أثبت لنفسِه ﷻ صفاتٍ، وأثبت مثلَها للمخلوق، فالله يسمعُ ونحن نسمع، لكن ليست طريقةُ سمع الله كسمعِنا، ولا بصرُ الله كبصرِنا، ولا نظرُ الله كنظرنا، هذا خطأٌ يقع في نفسِ الإنْسَان لكن ليَدفعه، والإِنْسَان ليس آثمـًا إذا وقع في قلبِه هذا الكلامُ؛ لأنه لا يستطيع أن يزيل هذا الشيءَ من خاطره، لكنه يدافعُه فإنَّ الشيطانُ حريص علىٰ الوسوسة، والإِنْسَانُ ينبغي له أن يدافعَ الشيطانَ.

فربنا ﷻ ليس كمثل المخلوقِ، اللهُ يتكلَّم بما شاء وكيف شاءَ، ويسمعُ بما شاء وكيف شاءَ، ويُبصِرُ كيف شاء، ثم إنَّ القُرْآنَ ذكر أنَّ الله ﷻ لا يُكلِّمُ أُناسـًا مُعينين أي: أنه يُكَلِّمُ غيرَهم، ولا ينظر إلىٰ أُناسٍ مُعينين أي: أنه ينظرُ إلىٰ غيرهم، هذا معنىٰ الحَدِيْث (لا يُكلِّمُهم اللهُ) أي: أنه يُكلِّم غيرهم، وهذا في يوم القِيَامَةِ: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:٧٧] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥]، فقال العُلَمَاءُ: لما كان هؤلاء حُجِبوا عقابـًا لهم دلَّ علىٰ أنَّ أصحابَ الثواب لا يُحجَبون عن رؤيته ﷻ. فهذا فيه دليلٌ علىٰ رؤيةِ اللهِ - تَعَالَى -، وكذلك ورَدت أحاديثُ (ولا ينظرُ إليهم) و ليس معناه أنهم يختفُون عن عين الله، بل لا ينظر إليهم نظرَ الرحمةِ، وإلا فإن الله لا يغيبُ عن بصرِه ولا عن سمعِه شيءٌ، لكنَّ النظرَ المنفيَّ هنا هو نظرُ الرحمةِ والمغفرةِ، وجاء في بعض الآثارِ إنَّ اللهَ لو نظر إلىٰ أهل النارِ لرحمَهم. ولا يعني هذا أنَّ اللهَ لا يراهم، وهذا أثرٌ خطأٌ مردودٌ، ولو قال به بعض التَّابِعينَ فإنه يُردُّ عليه؛ لأنَّ الله لا يغفلُ عن شيءٍ

وَجَلَّ، لكن المرادَ هنا نظرُ الرَّحمةِ؛ وكما في قولِه - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل:١٢٨] وكما في آية أخرىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ [المجادلة:٧]، فإنَّ الله مع خلقِه المعيةَ العامةَ، فلا يخفىٰ عليه شيءٌ، فالمرادُ بالنفي هنا هو نظرُ الرحمةِ والمغفرةِ وليس النظرَ المطلقَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال شيخ الإسْلَام ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: فإذا قالوا لنا أي: النفاة فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به، ومن أنكر هذا قبلكم من السَّلَف والأئمة، ونصوص القُرْآن والسُّنَّةِ تتضمن ذلك مع صريح العقل، ولفظ الحوادث مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائص والله - تَعَالَى - منزه عن ذلك، ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسُّنَّةِ والقول الصَحِيح: هو قول أهل العلم هو الحَدِيْث الذين يقولون: لم يزل الله متكلماً إذا شاء كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السُّنَّةِ.

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى قدرته عليها وإيجاده لها بمشيئته وأمره، والله أعلم.



الشَّرح

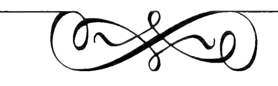
هنا أورد نصاً لابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ،وهذا النص دقيق في مسألةٍ عَقديةٍ تحتاجُ إلى مُقدماتٍ مُلخَّصها: أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يفعلُ ما يُريد، أي: في أي زمنٍ أراد شيئاً فعلَه كما قالَ - تَعَالَى -: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩] أي: كلُّ يوم يعملُ عملاً يختصُّ بذلك اليوم، فإنَّ الله لا يعمل عمل غدِ اليوم، فغداً يُحيي أُناساً، اليوم يُحيي أُناساً، ويُميت أُناساً، ويُعزُّ أُناساً ويُذلُّ أُناساً، ويُفقِر أُناساً ويُغني أُناساً، وغداً نفسُ الشيء، فِعلُ اللهِ يتعلَّق بالمخلوق بحسبِ الزمان والمكانِ والأشخاص، هذا معنى كلامِ ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يفعل ما يُريد في أي وقتٍ أرادَ، المُتكلِّمون الذين خالفوا السَّلَفَ لهم تدقيقاتٌ تقوم على علم الفلسفةِ وعلمِ المنطقِ اليوناني، وهذان عِلمان ظهرا قبل الإسْلَامِ بثمانمائة سنة

ظهر على أيدي وثنيين مُشركين بالله ﷻ ليس على أيدي أهل العلمِ الشرعي، فعندما تُرجِمت الكتبُ الفارسيةُ والكتبُ اليونانيةُ إلى اللغةِ العربيةِ وقعت في أيدي أُناسٍ ليست عندهم حصانةٌ أو تأصيلُ علمِ شرعِي، مثل الأُدباءِ اليوم الذين يقال عنهم إنهم أُدباءُ أو أنهم مفكرون كما يُسمون، لكنهم ما يحبُّون العلمَ الشرعيَّ، ففي بعض البلدان الإسْلَامية يضحكُون على الذي يقول قال النَّبيُّ ﷺ، يريد أن يُتكلَّم بطريقة عقليةٍ مُتقدِّمةٍ، ولاشك أن هذا لجهلِهم؛ لأنَّ كمالَ الإِنْسَان في أن يعرف ما قال ربُّه، فإن الإِنْسَانَ الراقيَ الممتازَ هو الذي يعيش حياةً وفق تشريعِ الذي خلق الكونَ، أما الذي يتدنىَّ ويترك تشريعَ من خلقَ الكون فإنه يهبطُ؛ كما قالَ - تَعَالَى -: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ [الحج:٣١] فالمُؤْمِن في القمةِ، أَمَّا المشركُ فإنه يهبطُ ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج:٣١]، فالمُؤْمِن في قمَّةِ الحياةِ الإِنْسَانية.

لكن صار المُسْلِمون اليوم ضعافاً في الدُّنْيَا وضعافاً في الدِّين، والنَّاسُ ينظرون إلى الإِسْلَامِ من خلالنا نحن المُسْلِمين، لو رأيت إنساناً قالوا: إن هذا من أثرى النَّاس ويمشي حافياً، وثيابُه ممزقةٌ ومتسخةٌ ولا ترى عليه آثارَ النظافة فأنت تكرهه، ما ينفعُه مالُه وما تحترمُه، بل ربما لا تصدَّق أنه عنده مالاً، هكذا نحن المُسْلِمون اليوم، عندنا دينُ الحضارة ودينُ التقدم فيتساءل النَّاس: ما دام هكذا دينُكم فلماذا أنتم مُتأخِّرون؟ لماذا عندكم الظلمُ والبغيُ والاستبدادُ والإلحادُ واستباحةُ حقوقِ النَّاس، وعدمُ المعاملةِ الحسنةِ؟، فإذا قلنا لهم: والله ما عمِلنا به، فيقولون: إذا أنتم ما عمِلتم بالدِّينِ كيف نحن نعملُ به! ومعنى هذا أننا نصدُّ النَّاس بواقعنا عن دينِ الله، وإلا فهذا دينُ ربِّ العَالَمِينَ الذي خلق الكونَ ونظَّم الشمس والقمرَ، فنظامُ الكون من الحياةِ

والهواءِ والأفلاكِ النباتات والمخلوقات الحيةِ كلِّها من عند الخَالِق ﷻ، وهو الذي أنزل هذا الدِّين، فمن يعيش عليه يعيش أرقىٰ حياةٍ، لكنَّ بعضَ المُسْلِمين مُسْلِمون اسماً إلا من رحمَ الله، اليوم يبلغ المُسْلِمون أكثر مليار مُسْلِم، لكن كم منهم يعرفُ الدِّينَ؟ قليلون، وكثيرٌ من المُسْلِمين جهلةٌ بدين الله، يَصدُّون النَّاسَ عن دينِ الله، فإذا دُعِيَ الكفارُ إلىٰ الإسْلَام فأولاً ينظرون إلىٰ واقعِنا، وربما قالوا: هؤلاء المُسْلِمون، هذا يكذِبُ وهذا يسرقُ وهذا يخونُ وهذا يخدعُ، فما يصدِّقون أنَّ الدِّينَ الإسْلَاميَ دينٌ صَحِيحٌ، يقولون: لو كان ديناً صَحِيحاً لرأينا واقعاً طيباً.

فالشاهد أن المتكلِّمين الذين أدخلوا في الإسْلَام قواعدَ الفلاسفة وقواعدَ المنطقيين قبل الإسْلَامِ أساءوا إلىٰ دينِ الله ﷻ، فأصبح النَّاس يفهمون الدِّينَ من خلال الفلسفةِ والمنطقِ، وفي كثيرٍ من البلدانِ الإسْلَامية الآن في كلِّ جامعةٍ يُدرَّس الدِّينُ من خلال علمِ الكلام، حتىٰ قال بعضُهم -صاحب المكتبة المنيرية-، وله كتاب بعنوان (الأعمال الكاملة): بقينا في الأزهر ندرسُ في علم الكلامِ نصفَ صفحةٍ في ستةِ أشهر؛ لأن عقائدَ أهل الكلامِ كُتبت بكلام خفيٍّ وغامضٍ ومُعقَّدٍ جداً، كأنه رموز تحتاج إلىٰ من يفكُّها ويَحلّها، فأيُّ إيمانٍ يحصلُ بهذا العلم؟ فالشاهدُ أن إدخال هؤلاء لهذا الفنِّ في العلوم الإسْلَامية أدىٰ إلىٰ هذا، ونتج عنه تصور خاطئ عن ربِّ العَالَمِينَ، فربنا ﷻ ذكر في كتابِه الكريمِ أنه يُعزُّ ويُذلُّ ويُعطي ويمنعُ، فكلُّ يوم له عملٌ مع خلقِه، هذا ملخصُ كلامِ ابنِ تَيْمِيَةَ رحمه الله، وهذا اعتقادُ المُسْلِمين.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات.

قوله: (أشيمط زان) صغره تحقيراً له، وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا محبة المعصية والفجور وعدم خوفه من الله، وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه بخلاف الشاب، فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم ولومها على المعصية فينتهي ويرجع. وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر؛ لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة، والعائل الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر، فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيعة له كامن في قلبه، فعظمت عقوبته لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم الذي هو من أكبر المعاصي.



الشَّرح

المعصيةُ مذمومةٌ من أي إنسان، لكن تتفاوت المعصيةُ من شخصٍ إلى شخصٍ، فإنسان غنيٌ صاحبُ ثروةٍ إذا سرق يُستهجن منه، كيف يكون صاحبَ ثروةٍ ويسرقُ! فالنَّاس ينظرون إليه باستهجان غريب، لكن لو كان السارقُ فقيراً فالنَّاس يحتقرُونه، لكن أقلُّ من الشخصِ الثري، فهكذا الذنوبُ، بعضُ النَّاس ليس مدفوعاً إلى المعصيةِ من منطلقِ الاحتياج، لكن دافعُه إليها حبُّ الفاحشةِ وحبُّ الجريمة، والفسادُ الداخلي في قلبِه، فقوله ﷺ: (أشيمط

زان)(١) الأُشَيمِطُ: الشخص الذي ظهر فيه الشيبُ، أي: بلغ سناً كبيرةً، في هذه السن عادةً تضعف عند الإِنْسَانِ الرَّغبة في النساءِ، لأنَّ العلاقةَ الجنسيةَ بين الرجلِ والمرأةِ تضعف في هذه السن، بناءً علىٰ ضعف الرغبةِ والقوةِ الجنسية عندهما، فالذي يقع في الفاحشةِ في سنٍ كبيرةٍ عنده خُبثٌ في الداخل وليس مقهوراً علىٰ نفسِه، فهذا ذنبُه أشدُّ.

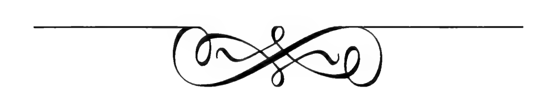
والثاني: عائلٌ مستكبرٌ، فالذي يستكبِرُ غالباً هو صاحبُ المال والجاه، أي: عنده في الظاهرِ مُبرِّراتُ الاستكبارِ، لكن الفقير لماذا يستكبرُ؟ هذا لخبث الداخل، إنسانٌ فقير وتراه يحرصُ علىٰ الانتفاشِ والانتفاخِ ويقلِّدُ الآخرين، هذا في داخله مريضٌ مرضاً شديداً، وإلا فكل من يقعُ في الاستكبارِ مريضٌ. كذلك الثالث: رجلٌ لا يشتري بضاعتَه إلا بيمينٍ، ما الذي يدفعه إلىٰ أن يحلف باللهِ في كلِّ شيءٍ؟ فهذا ضعفُ إيمانِه وإلا فإن بإمكانِه أن يبيعَ ويشتري كغيرِه من النَّاس بدون يمينٍ.

وقد رُويت أحاديثُ كثيرةٌ في أصحاب مثل هذه الذنوبِ أن الله لا يُكلِّمهم ولا ينظرُ إليهم يومَ القِيَامَةِ ولهم عذابٌ أليمٌ، كل هذه عقوباتٌ بسبب أن المعصيةَ التي وقع فيها الشخصُ لم يُوقعه فيها غَلبَةُ نفسٍ أو غَلبةُ هوىٰ، وإنما لخُبثٍ في الداخلِ وبإمكانِه ألا يقعَ، ولهذا يقولون في أحكامِ في الزِّنا أن الْمُتَزوجَ دافعُه للزِّنَا أقلُّ؛ لأنه شخص عنده ما يُغنيه، أمَّا الشخص الذي ليس مُتزوجاً فربما يضعفُ ضعفاً شديداً أمام هذه الشهوةِ، فعقابُه أقلُّ، لكن الذي يقع في الزنا مع أنه متزوجٌ عقابُه أشدُّ، وهذا من مراعاةِ الشرعِ الحنيفِ في الحدود والعقوباتِ.

---

(١) سبق تخريجه.

زِيدَ في بعضِ روايات هذا الحَدِيْث (وملكٌ كذاب)[1] أي: صاحبُ جاه لـه سـلطةٌ فمَـن يخـاف؟ فدافعُـه للكـذب لـيس عـن احتيـاجٍ، وإنمـا عـن خُبـثٍ في الداخلِ؛ فهذه العقوبات شرعَها الله لأن أصحابها إنما كـان دافعهـم إليهـا خُبـثُ الداخلِ، وليس ضعفًا أو شدةً احتياجٍ لما يفعلونه.



(١) هـذه الزيـادة في صَـحِيح مُسْلِم، ولفظـه: "شـيخ زان وملـك كـذاب وعائـل مسـتكبر"، كتـاب الإِيمَان، بَابُ بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيـق السـلعة بـالحَلِف، بـرقم: (١٠٧)، (١/ ١٠٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ورجل جعل الله بضاعته) بنصب الاسم الشريف أي: الحَلِف به جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه، وهذه أعمال تدل علىٰ أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة بحسب ما قام بقلبه وظهر علىٰ لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة علىٰ قلة الداعي إليها، نسأل الله السلامة والعافية ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه.

قوله: (وفي الصَحِيح) أي: صَحِيح مُسْلِم، وأخرجه أبو داود والترمذي ورواه البُخَارِيُّ بلفظ (خيركم).

قوله: (عن عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُوْل الله ﷺ: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـ قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثـًا ـ ثم إن بعدكم قومـًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن). قوله: (خير أمتي قرني) لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإِيمَان والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون ويتفاضل فيها العاملون، فغلب الخير فيها وكثر أهله وقل الشر فيها وأهله واعتز فيها الإِسْلَام والإِيمَان، وكثر فيها العلم والعُلَمَاء. (ثم الذين يلونهم) فُضلوا علىٰ من بعدهم لظهور الإِسْلَام فيهم، وكثرة الداعي إليه والراغب فيه والقائم به، وما ظهر فيه من البدع أُنكر واستعظم وأُزيل كبدعة الخوارج والقَدَرية والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب.

الشَّرح

هذا الحَدِيْث يدلُّ علىٰ أنَّ القرن الأول في مجموعِه أفضلُ من القرن الثاني، والقرن الثاني أفضل من القرن الثالث وهكذا، ليس معنىٰ هذا أنَّ الأُمةَ الإسْلَامية لا يأتي فيها أفاضل بعد ذلك، لكن من حيث المجموع هذه القرون أفضلُ ممن أتىٰ بعدهم، فالنَّبِيُّ ﷺ ربَّىٰ الصَّحَابَةَ علىٰ الدِّين ونشر العلمِ الشرعي فيهم، والصَّحَابَةُ ﷺ تحمَلُّوا هذا العلمَ الشَّرعي ونشروه، وكان الدِّين في عهدهِم عزيزاً قوياً وكانت البدعةُ ضعيفةٌ لا تكاد تظهرُ بدعةٌ إلا ويُقضىٰ عليها أو يُردَّ علىٰ صاحبِها؛ فكان الدِّين من حيث الجملةِ أفضلِ من القرن الثاني، والثاني أفضل من القرن الثالث، ولهذا قال العُلَمَاءُ: إذا ذكرت كلمةَ السَّلَف وعلماءَ السَّلَف أي: أهلُ القرون الثلاثة، فمن جاء بعد القرون الثلاثة لا يوصفُ بأنه من السَّلَفِ، إنما يُسمَّىٰ سلفياً، فمثلاً شيخ الإسْلَام ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ ليس من السَّلَف؛ لأنه ليس من أصحابِ القرون الثلاثة، لكنه من علماء المذهبِ السَّلَفي؛ فالسَّلَفُ هم الذين يُستشهَدُ بقولهم، وهم الذين عاشوا في القُرون الثلاثةِ الأولىٰ، ولم يُوصف ببدعةٍ أو لم يكن عليه مأخذٌ شرعي، فبعدُ الصَّحَابَةِ سعيدُ بن جبير، وابن المسيب، والحسن البصري، وقتادةُ، وعكرمة، ومجاهدُ وأمثالُهم من التَّابِعينَ، وكذا من أتباعِ التَّابِعينَ إبراهيم النخعي ومن كان في طبقته، ثم كذلك العُلَمَاء بعدهم مالك، وأبو حنيفة، ثم الشافعي، وأحمد ومن كان في عصره من العُلَمَاء كالأوزاعي وابن المبارك والثوري، هؤلاء علماءُ الأُمَّة في القُرون الثلاثة يُسمُّون علماءَ السَّلَف، لكن من جاء بعدهم لا يُقال لهم علماءُ السَّلَف، وكثيرٌ من النَّاس يُخطئُ ويقول: من علماءِ السَّلَف فلان ولا يكون من علماءِ السَّلَف، فنحن من أتباعِ مذهبِ السَّلَفِ، ولسنا من السَّلَفِ؛ فكلمةُ السَّلَفِ فقط عن القرون الثلاثة.

هذه القرونُ شَهدَ لها النَّبِيّ ﷺ بالأفضليةِ وإنها أفضل القرون الإسْلَامية؛ لأنَّ الإسْلَام في مجموعِها كان منصوراً عزيزاً، لكن بعد ذلك بدأ الضعف يسري في الأُمَّةِ؛ وليس معناه أنه سيختفي الحقُّ أو الخيرُ، فقد جاء في الأَحَادِيث: (لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة حتىٰ تقوم السَّاعَةُ وهم علىٰ ذلك)[١]،هناك ألفاظ مختلفةٌ بعضُها (ظاهرةٌ) وبعضها (منصورةٌ)، وكلا المعنيين متقاربان لكن يختلف المعنىٰ، فظهور الإسْلَامِ لا يَخفت بإذن الله سيبقىٰ ظاهراً إلىٰ قيام السَّاعَةُ، وليس شرطاً أن يكون في مكانٍ واحدٍ، قد يكون متفرقين وقد يكون من طبقات عِدَّةٍ، فيهم المُفسِّرُ والفقيهُ والمُحدِّثُ والمؤرخُ واللغوي علىٰ مختلفِ العُلَمَاءِ؛ فلا يعني هذا أنهم محصورون في فئةٍ مُعينةٍ كما قيل أنهم أهلُ الحَدِيْثِ، وليس أهل الحَدِيْثِ فقط، وبل يدخل فيهم الفُقَهَاء والمفَسروَن والمؤرخون وغيرهم، فكم من علماء التاريخِ واللغة والفقهِ علىٰ مذهبِ السَّلَف؟ وقد نشروا الدِّين، فلعل المراد من كان علىٰ مذهبِ أهلِ الحَدِيْث؛ لأنهم لم يبتدِعوا، كان هدفُهم متابعةَ السُّنَّةِ، لكنَّ كلمةَ أهل الحَدِيْثِ خطأٌ، فإن أهلَ الحَدِيْث فئةٌ متخصصةٌ، ولهذا يقول العُلَمَاء: إنَّ أدقَّ وصف لهذا المذهبِ أن يقول أهل السُّنَّةِ والجماعة؛ لأن كلمةَ سلفي لها علاقةٌ تأريخيةٍ تدلُّ علىٰ التاريخ، وكلمة مُحدِّثُ لها علاقةٌ بالتخصُّصِ، لكن أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ تشمل الجميعَ: الفقيهَ والُمحدث والمُفسر وكل من اتبع السُّنَّةَ وحرص علىٰ جماعةِ المُسْلِمين، فهذا هو صاحبُ المذهبِ الحقِّ، فالمذهب الصَحِيح اتباعُ السُّنَّةِ والحرصُ علىٰ جماعة المُسْلِمين، لا اتباعُ السُّنَّةِ مع التفريقِ بين المُسْلِمين، بل نحرصُ علىٰ جماعة المُسْلِمين مع اتباعنا للسنة.

---

(١) سبق تخريجه.

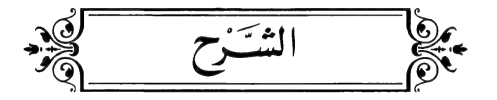


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا) هذا شك من راوي الحَدِيْث عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. والمشهور في الروايات أن: القرون المفضلة ثلاثة، الثالث دون الأولين في الفضل لكثرة البدع فيه، لكن العُلَمَاء متوافرون والإِسْلَام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدِّين وكثرة الأهواء. فقال: (ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون) لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم للصدق وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم.

قوله: (ويخونون ولا يؤتمنون) يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم. قوله: (وينذرون ولا يوفون) أي: لا يؤدون ما وجب عليهم. فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

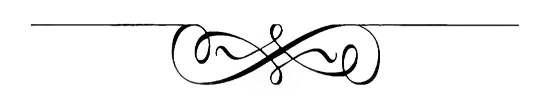
قوله: (ويظهر فيهم السمن) لرغبتهم في الدُّنْيَا ونيل شهواتهم والتنعم بها، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها، وفي حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (لا يأتي على النَّاس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) قال أنس: سمعته من نبيكم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشِّرْك والبدع في كثير منهم حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف.



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن الأعمال الذميمة التي ستظهر في الأُمةِ بعد القرن الثالثِ علامةُ ضعفِ الإِيمَان، الأول: (أنهم يشهدون ولا يُستشهدون)، والثاني: أنهم (يخونون ولا يؤتمنون) أي: طبيعتُهم الخيانةُ. والثالثُ أنهم: (ينذرون ولا

يوفـون) بنـذرهم، والرابـع: (ويظهـر فـيهم السـمن)[1]، هـذه مـن علامـةُ ضـعف الإِيمَان، فالإِنْسَان يشهدُ بدون أن يُطلبَ منه الشهادةُ أو يخون في أمانتِه، ونحـن نسمع اليوم عن الأمانةِ كثيراً، الأمانـةُ ليسـت خاصـةً بالمـال، فالإِنْسَـان إذا كـان في عملٍ قد اؤتمن عليه يكون أمينـًا في وظيفته، أمينـًا علىٰ أعراض النَّاس، أمينـًا علىٰ أسرارهم، الأمانة تقـلُّ بحسـبِ نقـصِ الـدِّينِ، لكـن إذا زاد الـدِّينُ وقـويَ الإِيمَانُ زادت الأمانة وراقبَ النَّاس رَبَّهم، فهذه الصفات تظهـر عنـدما يضـعفُ الـدِّينُ. السِـمنُ يـدلُّ علىٰ أنَّ النَّـاسَ قـد اشـتغلوا بشـهواتهم وتركـوا الواجبـاتِ الشـرعيةِ؛ لأن الشـخصَ السـمينَ عـادةً يكـون مُترفـًا إلا مـن رحـم الله، بعـض النَّاس قد يكون سمينـًا بدون ترفٍ، لكنَّ كثرةَ السِمن في الأمـةِ يـدلُّ علىٰ عـدم القيامِ بالواجبات، وعدم الاهتمامِ بقضايا الآخرةِ، ولا يعني أنَّ السِـمنَ مـذمومٌ لكـلِّ إنسـانٍ، لكـن كثـرةَ السِـمن تـدلُّ علىٰ الـترفِ، والـترفُ دليـلٌ علىٰ تـركِ الواجبات وعدمِ القيامِ بمسؤوليةِ الإِسْلَام.



(١) أخرجه البُخَارِيُّ في صَحِيحه، كتاب فضائل الصَّحَابَة، بَابُ فضائل أصحاب النَّبِيّ ﷺ، برقم (٣٦٥٠)، ومُسْلِم في صَحِيحه، كتاب فضائل الصَّحَابَة، بَابُ فضل الصَّحَابَة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم: (٢٥٣٥)، (٤/ ١٩٦٤).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: بل قد دعوا إلىٰ الشِّرْك والضلال والبدع، وصنفوا في ذلك نظمًا ونثراً، فنعوذ بالله من موجبات غضبه. قوله: (وفيه عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: خير النَّاس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلىٰ الدُّنْيَا ونسي المعاد، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداءً لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك، وهذا هو الغالب علىٰ الأكثر والله المستعان. فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإِسْلَام الأول فما بعده أكثر بأضعاف، فكن من النَّاس علىٰ حذر.

قوله: (قال إبراهيم) هو: النخعي (كانوا يضربوننا علىٰ الشهادة والعهد ونحن صغار). وذلك لكثرة علم التَّابِعينَ وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد ولا يقوم الدِّين إلا به، وفي هذا الرغبة في تمرين الصغار علىٰ طاعة ربهم ونهيهم عما يضرهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

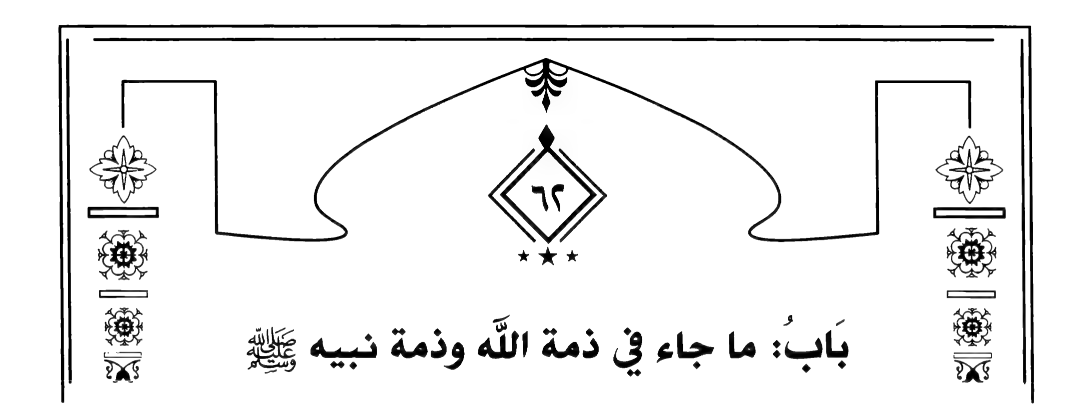


الشَّرْح

قوله: (قلت: بل قد دعوا إلىٰ الشِّرْك...) هذا إذا ظهرَ بعد القرن الثالث ونحن اليوم في القرن الخامس عشر فما بالك بما يكون؟ ولا يعني هذا أن الأُمَّة ليس فيها خيرٌ، بل في الأُمَّةِ الإِسْلَامية الخيرُ إلىٰ قيام السَّاعَةُ، لكنَّ الكثرةَ مع الجهل وعدمِ وجود العلمِ الشرعي في كثيرٍ من بلاد المُسْلِمين، فإنَّ العلمَ الشرعيَّ قد ضعُفَ وقلَّ حتىٰ لا تكاد تجدُ أي: إلا أقليةً من العُلَمَاءِ الذين هم علىٰ المنهجِ الحقِّ والصواب.

قوله: (قوله: قال إبراهيم هو: النخعي...) هنا إبراهيم النخعي من صغارِ التَّابِعينَ يقول: إنهم كانوا ـ أي: آباؤنا ـ يضربونهم على العهدِ. أي: الشخصُ إذا عاهد إنسانًا أو حلفَ على شيءٍ ألاَّ ينقضَ عهدَه، وكذلك يضربونهم على الشهادةِ أي: لا يشهدُ إلا على شيءٍ صَحِيح، وهذا من تربية الصغار على الخُلق الإسْلَامي والآداب الإسْلَامية، وهذا واجبٌ على كل مُسْلِم له أولاد.





بَابُ: ما جاء في ذمة اللّه وذمة نبيه ﷺ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل:٩١].

وعن بريدة قال: كان رَسُوْل الله ﷺ إذا أمر أميراً علىٰ جيش أو سرية أوصاه بتقوىٰ الله ومن معه من المُسْلِمين خيراً، فقال: (اغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المُشرِكِينَ فادعهم إلىٰ ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسْلَام فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما علىٰ المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المُسْلِمين يجري عليهم حكم الله - تَعَالَى - ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المُسْلِمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهما ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه ﷺ.

الشَّرح

هذا ما يتعلَّق بعنوان البَابِ، أي: إذا أردتَ أن تُعطي النَّاس عهداً أو أمانةً فلا تُنزلهم علىٰ ذمَّةِ الله ورَسُوْله ﷺ، فإنه ربما يقع منك خطأ أو تجاوزٌ.

هذا البَابُ أورده المُؤَلِّفُ رحمه الله ليُبينَ أنه ينبغي للإنسانِ ألا يجعلَ ذمةَ الله هي العلاقةَ أو العهدَ الذي بينه وبين النَّاس؛ لأنه إذا أعطاهم ذمَّةَ الله ثم خفرَهم قد يؤدِّي إلىٰ غضبِ الله وسخطه عليه، لكن ذمَّةُ نفسِه إن خفرَها فلا شكَّ أنه خطأٌ أخفُّ من أن يخفرَ ذمةَ الله عز وجل.

هذا البَابُ فيه آيةٌ وحديثٌ، وفيه مسائلُ ذكرها الشَّارِحُ رحمه الله، ونذكر زيادةً عليها:

أولاً: نقضُ اليمينِ: الشخصُ إذا حلفَ علىٰ يمينٍ ثم رأىٰ غيرَها خيراً منها جازَ له أن يُكَفِّر عن يمينه ويأتي الذي هو خيرٌ.

ثانياً: وعظ الأمراءُ:، فإذا كان هناك والٍ يبعثُ أميراً إلىٰ منطقةٍ أو قائداً من قوادِ الحربِ فليعظه ويذكره بالله عز وجل كما جاء في قصة معاذٍ رضي الله عنه في آخر الحَدِيْث: (**واتق دعوةَ المظلوم**)[1] يُذكره برقابةِ الله وأن (**ليس بينه وبين الله حجاب**) وقبلها: (**وإياك وكرائم أموالِهم**)، فينبغي للوالي إذا بعث أميراً أو رَسُوْلاً أو قائداً أن يُذكِّره بالله عز وجل.

ثالثاً: النَّهيُ عن قتلِ الأولادِ أو النساءِ في الحروبِ، لا تقتلُ النساءُ ولا تقتلُ الأولادُ الصغارُ ولا القسسُ ولا الرُّهبان.

---

(١) سبق تخريجه.

رابعاً: التدَرجُ بالدَّعوةِ إذا أراد أن يُحارِب أُناساً في الجهادِ أول ما يدعوهم للإسلامِ، فإن وافقوا وأسلَموا فبها ونَعِمت، وإن لم يُسلِموا ينتقل إلىٰ الجزيةِ، فإن لم يدفعوا جزيةً كانت الثالثة هي القتالُ، هل يُدعَىٰ كلُّ أُناسٍ إلىٰ هذه الثلاثةِ في قبل الجهادِ؟ نعم، إلا إذا كان هناك قومٌ نقضُوا العهدِ وخرجوا علىٰ الاتفاقاتِ، فهؤلاء لا يُدعَون وإنما يُقاتَلون في بدايةِ أمرِهم.

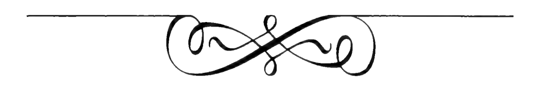
خامساً: أنه كان في أولِ الإسْلَامِ الدَّعوةِ إلىٰ الهجرةِ، وهذه نُسِخت كما جاء في الحَدِيْثِ: (**لا هجرةَ بعد الفتح**)(١) بعد أن أصبحَ الإسْلَامِ منتشراً وقوياً لم يعد هناك هجرةٌ من مكةَ إلىٰ غيرها.

سادساً: هناك خلافٌ في أهلِ الجَزيةِ، فمنهم من قال: كلُّ كافرٍ، ومنهم من قال: يُستثنَىٰ العربُ، ومنهم من قال: فقط أصحابُ الكتابِ، وكلُّها مسائلُ اجتهاديةٍ للعلماءِ رحمهم الله.

سابعاً: كذلك هناك اختلافٌ في كم يُؤخذُ من النَّاس جِزيةَ؟ قالوا: هي متروكةٌ لظروفِ كلِّ عصرٍ.

ثامناً: قال العُلَمَاءُ: المُصِيبُ هل هو واحدٌ أو جميعُ المُجتهدِين مُصيبون؟ قالوا: أحدُهما مُصيبٌ والثاني مُخطِئٌ، لكن كلاهما مَأجوران، والمصيبُ له أجرٌ زائدٌ.

هذا ملخصُ هذا البَابِ.



(١) أخرجه البُخَارِيُّ في صَحِيحه، كتاب الجهاد والسير، بَابُ فضل الجهاد والسير، برقم: (٢٧٨٣)، ومُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الإمارة، بَابُ المبايعة بعد فتح مكة علىٰ الإسْلَام والجهاد والخير وبيان معنىٰ (لا هجرة بعد الفتح)، برقم: (١٨٦٤)، (٣/ ١٤٨٨).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإذا حاصرت أهـل حصنٍ فـأرادوك أن تُنزلهم علىٰ حكـم الله فـلا تنـزلهم ولكن أنزلهم علىٰ حكمك؛ فإنـك لا تـدري أتصيبُ فيهم حكـمَ الله أم لا). رواه مُسْلِم.

فيه مسائل:

الأولىٰ: الفرقُ بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المُسْلِمين.

الثانية: الإرشادُ إلىٰ أقل الأمرين خطراً.

الثالثة: قوله: (اغزوا بسم الله في سبيل الله).

الرابعة: قوله: (قاتِلوا من كفرَ بالله).

الخامسة: قوله: (استعن بالله وقاتلهم).

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العُلَمَاء.

السابعة: في كون الصَّحَابِي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكـم الله أم لا.

قوله: بَابُ ما جاء في ذمة الله وذمة رَسُوْله وقول الله - تَعَالَى -: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الإِيمَان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ...} الآية ﴿(٩١): سورة النحل﴾.

قال العماد بن كثير: وهذا مما يأمر الله - تَعَالَى - به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة علىٰ الإيمَان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١]، ولا تعارض بين هذا وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤] وبين قوله:{﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟

أَيْمَنَكُمْ ﴾ [المائدة:٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير وبين قوله ﷺ في الصَحِيحين: (إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير منها وتحللتها). وفي رواية: (وكفَّرت عن يميني)، لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهي: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١]؛ لأن هذه الإِيمَان المراد بها: الداخلة في العهود والمواثيق لا الإِيمَان الواردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في الآية: أي: الحَلِف أي: حلف الجَاهِلِيَّة. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رَسُوْل الله ﷺ: (لا حلف في الإِسْلَام وأيما حلف كان في الجَاهِلِيَّة لم يزده الإِسْلَام إلا شدة). وكذا رواه مُسْلِم. ومعناه: أن الإِسْلَام لا يحتاج معه إلى الحَلِف الذي كان أهل الجَاهِلِيَّة يفعلونه، فإن في التمسك بالإِسْلَام كفاية عما كانوا فيه، وقَوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل:٩١] تهديد ووعيد لمن نقض الإِيمَان بعد توكيدها.

قوله: (عن بريدة) هو: ابن الحصيب الأسلمي، وهذا الحَدِيْث من رواية ابنه سليمان عنه، قاله في المفهم.

قوله: (قال: كان رَسُوْل الله ﷺ إذا أَمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله - تَعَالَى -)، فيه من الفقه تأمير الأمراء، ووصيتهم. قال الحربي: السرية الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها، والجيش ما كان أكثر من ذلك، وتقوى الله التحرز بطاعته من عقوبته. قلت: وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه. قوله: (ومن معه من المُسْلِمين خيراً) أي: ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً من الرفق بهم والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم.

قولـه: (اغـزوا باسـم الله) هـذا أي: اشـرعوا في فعـل الغـزو مسـتعينين بـالله مخلصين لـه. قلـت: فتكـون البـاء في بسـم الله هنـا للاسـتعانة والتوكـل علىٰ الله. قوله: (قـاتلوا مـن كفـر بـالله) هـذا العمـوم يشـمل جميـع أهـل الكُفْـر المحـاربين وغيرهم، وقـد خصـص منهـم مـن لـه عهـد والرهبـان، والنسـوان، ومـن لـم يبلـغ الحلـم، وقـد قـال متصـلاً بـه: (ولا تقتلـوا وليـداً) وإنمـا نهـىٰ عـن قتـل الرهبـان والنسوان؛ لأنه لا يكون منها قتال غالبـًا وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا. قلـت: وكذلك الذراري والأولاد.

قوله: (ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا) الغلول: الأخذ من الغنيمة مـن غيـر قسمتها، والغدر: نقض العهد، والتمثيل هنـا: التشـويه بالقتيـل كقطـع أنفـه وأذنـه والعبث به، ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر، وفي كراهية المثلة.

قوله: (وإذا لقيت عدوك من المُشرِكِينَ فادعهم إلىٰ ثلاث خلال أو خصـال) الرِّوَايَة بالشك وهو من بعض الرواة. ومعنىٰ الخلال والخصال واحد.

قوله: (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم) قيدناه عمـن يوثـق بعلمـه وتقييده بنصب أيتهن علىٰ أن يعمل فيها أجابوك لا علىٰ إسقاط حرف الجر، ومـا زائدة، ويكون تقدير الكلام فإلىٰ أيتهن أجابوك فاقبل منهم كما تقول: جئتك إلىٰ كـذا وفي كـذا فيعـدىٰ إلىٰ الثـاني بحـرف الجـر، قلـت: فيكـون في ناصـب أيـتهن وجهـان ذكرهمـا الشَّـارِحُ: الأول: منصـوب علـىٰ الاشـتغال، والثـاني: علـىٰ نـزع الخافض.

قوله: (ثـم ادعهـم إلـىٰ الإسْلَام) كـذا وقعـت الرِّوَايَـة في جميـع نسـخ كتـاب مُسْلِم، ثم ادعهم بزيادة ثـم، والصـواب إسـقاطها كمـا روي في غيـر كتـاب مُسْـلِم كمصنف أبي داود وكتاب الأموال لأبي عبيد؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسـير الـثلاث الخصال.

وقوله: (ثم ادعهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار المهاجرين) أي:: المَدِيْنَة وكان في أول الأمر وجوب الهجرة إلىٰ المَدِيْنَة علىٰ كل من دخل في الإسْلَام، وهذا يدل علىٰ أن الهجرة واجبة علىٰ كل من آمن من أهل مكة وغيرهم. قوله: (فإن أبوا أن يتحولوا) أي:: أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يعطىٰ من الخمس ولا من الفيء شيئًا، وقد أخذ الشافعي رحمه الله بالحَدِيْث في الأعراب، فلم يرَ لهم من الفيء شيئًا وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم. كما أن أهل الجهاد وأجناد المُسْلِمين لا حق لهم في الصدقة عنده ومصرف كل مال في أهله، وسوىٰ مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين وجوزا صرفهما للضعيف.

قوله: (فإن هم أبوا فاسألهم الجزية)، فيه حجة لمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر عربيًا كان أو غيره كتابيًا كان أو غيره، وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلىٰ أنها تؤخذ من الجميع إلا من مشركي العرب ومجوسهم. وقال الشافعي: لا تؤخذ إلىٰ من أهل الكتاب عربًا كانوا أو عجمًا. وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس. قلت: لأن النَّبِيّ ﷺ أخذها منهم وقال: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب).

وقد اختلفوا في القَدَر المفروض من الجزية، فقال مالك: أربعة دنانير علىٰ أهل الذهب وأربعون درهمًا علىٰ أهل الورق. وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان، وقال الشافعي: فيه دينار علىٰ الغني والفقير. وقال أبو حنيفة رحمه الله والكوفيون: علىٰ الغني ثمانية وأربعون درهمًا والوسط أربعة وعشرون درهمًا والفقير اثنا عشر درهمًا. وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله. قال يحيىٰ بن يوسف الصرصري الحنبلي رحمه الله:

وقاتل يهوداً والنَّصَارَىٰ وعصبة الـْ مجوس فإن هم سلموا الجزية اصدد

علىٰ الأدون اثني عشر درهمًا افرضن وأربعة من بعد عشرين زد

لأوسطهم حالاً ومن كان موسراً ثمانية مع أربعين لتنقد

وتسقط عن صبيانهم ونسائهم وشيخ لهم فانٍ وأعمىٰ ومقعد

وذي الفقر والمجنون أو عبد مُسْلِم ومن وجبت منهم عليه فيهتدي

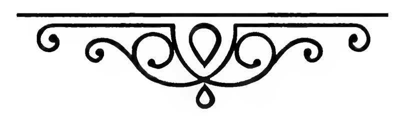
وعند مالك وكافة العُلَمَاء: علىٰ الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم. وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المُسْلِمين لا ممن نأىٰ بداره، ويجب تحويلهم إلىٰ بلاد المُسْلِمين، أو حربهم.

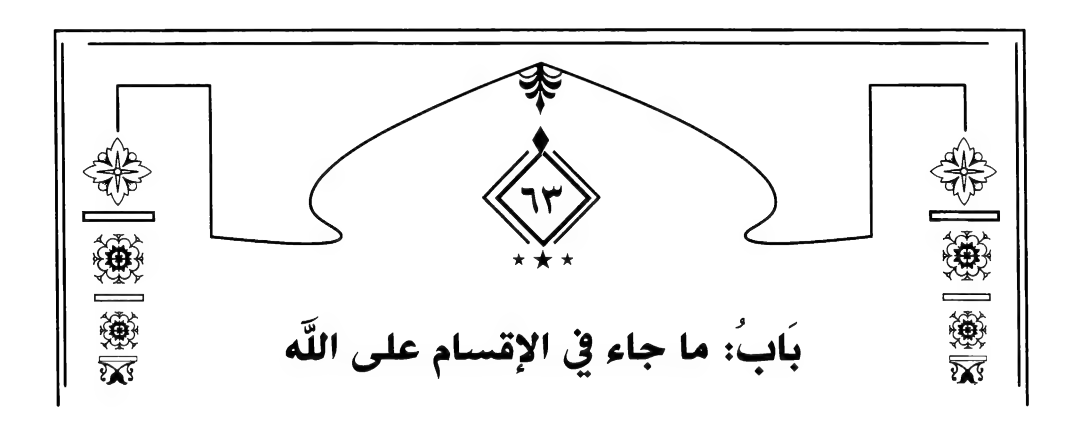
قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن) الكلام إلىٰ آخره فيه حجة لمن يقول من الفُقَهَاء وأهل الأصول إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره، ووجه الاستدلال به: أنه ﷺ قد نص علىٰ أن الله - تَعَالَى - قد حكم حكمًا معينًا في المجتهدات، فمن وافقه فهو المصيب ومن لم يوافقه فهو المخطئ.

قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه) الحَدِيْث. الذمة: العهد، وتخفر: تنقص، يقال: أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أجرته. ومعناه: أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء للعهد كجملة الأعراب فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله - تَعَالَى - والله أعلم.

قوله: وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال، ذكر فيه أن مذهب مالك يجمع بين الأَحَادِيث في الدعوة قبل القتال قال: وهو أن مالكًا قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يدعوا ولا تلتمس غرتهم إلا يكونوا قد بلغتهم الدعوة فيجوز أن

تلتمس غرتهم. وهذا الذي صار إليه مالك هو الصَحِيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المُسْلِمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المُسْلِمين فقد يظَنَّون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزيدون عتواً وبغضاً والله أعلم.





بَابُ: ما جاء في الإقسام على الله

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: من ذا الذي يتألّىٰ عليّ أن لا أغفر لفلان إني قد غفرت له وأحبطت عملك) أو كما قال، رواه مُسْلِم. وفي حديث أبي هُرَيْرَةَ أن القائل رجل عابد قال أبو هُرَيْرَةَ: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

فيه مسائل:

- **الأولىٰ:** التحذير من التألي علىٰ الله.
- **الثانية:** كون النار أقرب إلىٰ أحدنا من شراك نعله.
- **الثالثة:** أن الجنة مثل ذلك.
- **الرابعة:** فيه شاهد لقوله: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة..) الحَدِيْث.
- **الخامسة:** أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

الشَّرح

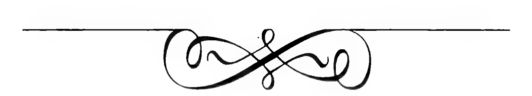
هذا البَابُ الذي عقده المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ قد أورد فيه حديثًا واحداً أو حديثين كلاهما حديثٌ واحدٌ، والشَّارِحُ رَحِمَهُ اللهُ أورد حديثًا آخر في المَسَائِل، فأمَّا حديثُ البَابِ فسيأتي شرحُه، وأمَّا حديثُ المسألةِ الرَّابعةِ وهو قوله: (**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً يكتب الله له بها سخطه إلىٰ يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً يكتب الله له به رضوانه إلىٰ يوم يلقاه -أو قال- يرفعه الله بها درجات**)[1] يذكرُ العُلَمَاءُ كابن عبد البرِّ وابن بطال رَحِمَهُمَا اللهُ وغيرهما: هذا الحَدِيْثُ معناه يتعلَّقُ بأمورٍ تتعلَّق بالحُكَّامِ أصحابِ الجاه والسلطانِ، فقد يأتي إنسانٍ منافقٍ إليهم فيشي بإنسانٍ مُسْلِمٍ بريءٍ وتتسببَ هذه الوشايةِ إلىٰ سجنِه أو قتلِه. هذا هو معنىٰ الحَدِيْثِ عند ابن عبدِ البرِّ وابن بطالٍ رَحِمَهُمَا اللهُ. تكلَّم بكلمةٍ في عرضِ مُسْلِمٍ عند سلطانٍ جائرٍ، فتسببت هذه الكلمةُ إلىٰ أذىٰ مُسْلِمٍ بريءٍ، وقد يتكلَّم بالكلمةِ من رضوانِ الله عند إمامٍ جائرٍ يحمي بها عرضَ مُسْلِمٍ، فينقذَه الله بهذه الكلمةِ ويتعرَّض هو لعقابِ الحاكمِ، لكنه فضَّل وقدَّم رضوانَ الله، فيكتب اللهُ له بها رضوانِه ﷻ. قال هذا أحدُ أنواعِ معاني الحَدِيْثِ.

والمعنىٰ الثاني: أن الإِنْسَانَ ليتكلَّمَ بالكلمةِ يَسخرُ بالدِّينِ ليُضحك النَّاسَ، أو يسخرُ بإنسانٍ مُسْلِمٍ لدينِه يُضحك النَّاس فيكتبَ اللهُ له بها سخطِه ﷻ، أو يتكلَّم بكلمةٍ كذلك يحمي بها دينَه أو يحمي بها حقَّ مُسْلِمٍ فيرفعه اللهُ ﷻ.

---

(١) سبق تخريجه.

هذا هو معنىٰ الحَدِيْثِ في المسألة الرابعة. الإِنْسَان أُتي من قِبل جهلِه يتساهل بهذه الكلمةِ ويظَنّ أنه لا يُعاقب عليها مع أنها كلمةٌ شديدةٌ، يذكر السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ أباه دخلَ إلىٰ أميرٍ من الأمراء وكان يلبس الحريرَ فنصحه في ذلك اللبس المُحرَّم، فاستجاب الأميرُ ووعده بأن لا يلبسَه مرةً أخرىٰ، وبعد أن خرج قام أحدُ الْمُنافقين ممن عنده علمٌ في ذلك المجلسِ وقال: أيها الأميرُ ألم يجد فلان هذا في السوقِ وأعمالِ التجارةِ وأعمالِ النَّاس ما يُشغله عنك، فإن الحريرِ قد أباح العُلَمَاءُ لبسِه لأسبَابٍ كثيرةٍ، وبدأ يذكر كلاماً مرجوحاً أو كلاماً كاذباً حتىٰ أوغر صدرَ الأميرِ ضد ذلك العالِم. هذه هي الكلمةُ التي تُوبِق دُنياه وآخرتُه، ما الذي دفعَه إلىٰ هذا الكلام؟ حبُّ المال أو حبُّ القُربِ من ذلك الأميرِ، فالإِنْسَان قد يتكلَّم بالكلمةِ يبتغي بها مالاً أو جاهاً، أو يريدُ إيذاءَ مُسْلِمٍ، فتوقعه في عذاب الله ويسخط الله عليه ويعذبه يوم القِيَامَةِ كما في الحَدِيْث السابق.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (بَابُ ما جاء في الإقسام على الله) ذكر المُصَنِّفُ فيه حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (أن رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدث أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان، إني قد غفرت له وأحبطت عملك) أو كما قال رواه مُسْلِم. قوله: (يتألى) أي: يحلف، والألية بالتشديد الحَلِف، وصح من حديث أبي هُرَيْرَةَ قال البغوي في شرح السُّنَّةِ وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار قال: دخلت مسجد المَدِيْنَة فناداني شيخ قال: يا يمامي تعال ـ وما أعرفه ـ قال: لا تقولن لرجل والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة، قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هُرَيْرَةَ، فقلت: إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب أو لزوجته أو لخادمه، قال: فإني سمعت رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (إن رجلين كانا في بَنِي إِسْرائِيلَ متحابين أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر كأنه يقول مذنب فجعل يقول: أقصر عما أنت فيه قال: فيقول: خلني وربي قال: فوجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال: أُقصر فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيباً، فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً، قال: فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده، فقال: للمذنب ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا يا رب قال: اذهبوا به إلى النار). قال أبو هُرَيْرَةَ: والذي نفسي بيده تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. رواه أبو داود في سننه. وهذا لفظه: عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: كان رجلان في بَنِي إِسْرائِيلَ متآخيين فكان أحدهما يُذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوماً على

ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيباً! قال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة، فقبضت أرواحهما فاجتمعا عند رب العَالَمِينَ، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار).



الشَّرْح

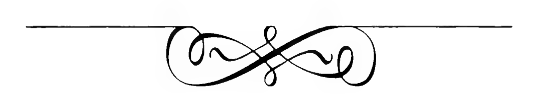
هذه الأَحَادِيثُ حدَّدت أنَّ الله أدخلَه النارَ، أما الحَدِيْثُ الذي في مُسْلِمٍ فإنما ذكر أنه قد أُحبطَ عملَه، فهذه القصةُ تتحدثُ عن شخصين أحدُهما صالحٌ والآخرُ فاسقٌ صاحبُ معصيةٍ، وفي جميعِ الشرائعِ أن المُسْلِم مطلوبٌ بأن ينصح أخاه، وأن يأمره بالمعروف وأن ينهى عن المنكرِ، هذه شريعةٌ في كلِّ الديانات السماويةِ؛ فهذا المُسْلِمُ له علاقةٌ بهذا الإِنْسَانِ العاصي، فكان في كلِّ يومٍ ينصحه لكن لما كان هذا العابدُ جاهلاً تدَخل في أمر الآخرة، وأمرُ الآخرةِ ليس بأيدينا، وليس لنا حقٌّ أن نقول: فلان في النار، نحكم على الإِنْسَان بأحكام الدُّنْيَا، نقول: هذا حرام، هذا لا يجوز، وهذا واجبٌ، وهذه طاعةٌ، وهذه معصيةٌ، وهذا يُرضي الله، وهذا يُسخط الله، هكذا نتحدث عن الدُّنْيَا، أمَّا أن نتدخل في أمرِ الآخرة فلا يجوز؛ فهذا الإِنْسَان الصالح كان يعمل عملاً فاضلاً ينصح صاحبَ المعصيةِ كلَّ يوم، لكنه أخيراً أخذه الحماسُ والغيرة الزائدةُ عن الحدِّ، فتدخل في أمر الآخرةِ فتسبب في أن الله أحبط عملَه، وغفر لصاحبِ المعصية.

فينبغي ألا نتعامل مع النَّاس في أمورِ الآخرةِ، إنَّما حديثنا عن الدُّنْيَا، ولهذا عندما يَرِدُ في كلامِ العُلَمَاء أن من عمل كذا من المُسْلِمين فهو يَكفُرُ لا نحكمُ له بالنار على خلافِ الكافرِ الأصلي، وإنما تتحدث عن أمور الدُّنْيَا أن هذا عملُه

كفرٌ، أمَّا الكافرُ الأصلي فمن مات علىٰ الكُفْر فهو في النارِ، والكُفْر الأصلي الذي لم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رَسُوْلُ الله، لكن العُلَمَاء يقولون: التكفيرُ الذي يُطلق علىٰ المُسْلِمِ إذا ارتكب أمراً مُكفِّراً لا يعني أنه كالكافرِ الأصلي؛ فلا يجوز لنا أن نتدخل في قضيةِ الآخِرةِ، فأُمورُ الآخرةِ بيدِ الله ﷻ، أحكامنا ينبغي أن تكون في أمورِ الدُّنْيَا فقط. وهذا الحَدِيْثُ ميزانٌ، فهذا الصالحُ كان ينصحُ الفاسقَ كلَّ يوم وأخيراً جاءته الغَيرةُ الزائدةُ غيرُ المنضبطةِ بالشرعِ فقال: والله لا يغفرُ اللهُ لك؛ لأنه ظَنَّ أنَّ الإِنْسَان الذي يعمل العملَ المعصيةَ علىٰ علمٍ ويُكرِّرُها أنه لا يغفر اللهُ له، وسببُ ذلك جهلُه، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨] هذا دليل قطعيٌّ ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فمهما ارتكبَ الإِنْسَانُ من خطيئةٍ أو ذنبٍ أو عملٍ تأوَّله وكان كفراً هذا في مشيئةِ الله، نحن نحكمُ علىٰ النَّاس بحسب ما يَتَبَينُ لنا من الأحكامِ الظاهرة، أما قضايا الغيبِ وقضايا الجنةِ والنارِ فليست إلىٰ الإِنْسَان.

وهذا الحَدِيْثُ فيه توجيهٌ كريم، وتربيةٌ نبويةٌ للمُسْلِمِ بأن لا تزيد غيرتُه عن الحدِّ الشرعي، غيرتُك تضبطها بالشرع فلا تتعدَّ، فالإِنْسَانُ الذي يَتَألَّىٰ علىٰ الله ﷻ كأنه يحكُم علىٰ رَبِّ العَالَمِينَ. اللهُ صاحبُ الأمرِ يغفر لمن يشاءُ ويعذِّبُ من يشاء، ورحمةُ الله واسعةٌ جداً، بعض النَّاس يريد أن يُطبق أحكامَ البشر علىٰ أحكامِ ربِّ العَالَمِينَ، فالله يغفر فوق ما تتصورُ، ويُعذِّبُ فوق ما تتصور، كما في الحَدِيْث كلمةٌ واحدةٌ أَوبَقَت دنياه وآخرتَه، وكما سبق (**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً تهوي به في جهنم أبعد مما بين المشرق والمغرب**)، فالإِنْسَان ينبغي أن ينضبِطَ، ما يتعلَّق بربِّ العَالَمِينَ أمرُه عظيمٌ، لا تتدخل بين الخَالِقِ والمخلوقِ، فالمُسْلِم عنده ضوابطُ شرعيةٌ بأدلتها من

الكتابِ والسُّنَّةِ، فإذا صحَّ الدليلُ من كلام أهل العلمِ جازَ له أن يقول به، أما إذا كانت القضيةُ فيها تأويلٌ فلا يتعجَّل في إطلاقِ الأحكام عليه، فلو لم يُطلق الحكمُ عليه لا يُعاقب عند الله، لكن لو أطلق الحكمَ عليه أصبح في خطرٍ، أحياناً الإِنْسَان يكون له هوىٰ لإنسانٍ مُعينٍ، فهذا الحكمُ يُطلقُه علىٰ شخصٍ ولا يُطلقه علىٰ شخصٍ؛ لأن له هوىٰ، فنحذر أن نقعَ في مزلقٍ نخسرُ فيه دنيانا وآخرتَنا، وهذا يتطلب من المُسْلِم أن يعرف الأحكامَ الشرعيةَ حتىٰ لا يقع في أمر يخسرُ فيه دينَه من حيث أراد أن ينصرَ فيه الدِّينَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

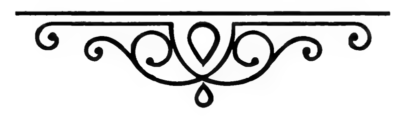
قوله: (وفي حديث أبي هُرَيْرَةَ أن القائل رجل عابد) يشير إلىٰ قوله في هذا الحَدِيْث أحدهما مجتهد في العبادة. وفي هذه الأَحَادِيث بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز من الكلام كما في حديث معاذ، قلت: يا رَسُوْل الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب النَّاس في النار علىٰ وجوههم - أو قال - علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) والله أعلم.



الشَّرح

هذا الحَدِيْث معناه صَحِيح، وهو بنفسِ معنىٰ الحَدِيْث السابق، وهو مشهور بين النَّاس، لكنَّ سندَه ضعيف. وقوله: (أحدهما مجتهد في العبادة) العبادةُ بدون علم خطرٌ علىٰ الإِنْسَان، وهذا ما ذكره عَزَّوَجَلَّ عن النَّصَارَىٰ أنهم عبدُوا اللهَ علىٰ جهل، وقد وقع في القصةِ المشهورةِ: (أن رجلاً قتل تسعة وتسعين وأراد أن يتوب فدلُّوه علىٰ عابدٍ، فعندما جاء إلىٰ العابد - والعابدُ عنده حساسيةٌ شديدةٌ جداً في العبادةِ لكن ما عنده علمٌ شرعيٌّ - قال: اخرج لا تحرِقني بنارِك ليس لك توبةٌ، فقال: ليس لي توبةٌ؟ قال: نعم، قال: وأنت إغلاقُ المائة) كمَّل به المائةَ شخصٍ، بعد فترة تاقت نفسُه للتوبةِ (فعندما دلوه علىٰ عالِمٍ قال: من يحولُ بينك وبين التوبةِ!) إذا تبت إلىٰ الله تابَ الله عليك إذا صدقت نيتك فعندما تاب وجَّهه (فقال: ولكنني أُرىٰ أن قريتَك قريةَ سوء- فإنسانٌ يقتلُ مائةَ شخصٍ في قريةٍ دلَّ علىٰ أن أهلَها سيئون أي: كلُّهم أصحابُ

إجرامٍ - ارحل إلىٰ قريةِ بني فلان فإنَّ فيها قوماً صالحين)[١] فهو لم يمنعه من التوبةِ، لكنَّ العابدَ الجاهل قال له ليس لك توبةٌ، فهذا الدِّينُ دينُ علمٍ، نحن أحوج ما نكون إلىٰ العلمِ الشرعي، فالعلم يرفع الإِنْسَان عند الله ﷻ، ويُبَصِّره بمواقعِ الخطأِ والصوابِ.



(١) القصة بتمامها في صَحِيح مُسْلِم، كتاب التوبة، بَابُ قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، برقم: (٢٧٦٦)، (٤/ ٢١١٨).



بَابُ: لا يُستشفع باللّه على خلقه

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (جاء أعرابي إلىٰ النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رَسُوْل الله نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك علىٰ الله فقال النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سبحان الله، سبحان الله، فما زال يسبح حتىٰ عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك إنه لا يُستشفع بالله علىٰ أحد..) وذكر الحَدِيْث. رواه أبو داود.

فيه مسائل:

الأولىٰ: إنكاره علىٰ من قال نستشفع بالله عليك.

الثانية: تغيره تغيراً عُرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله نستشفع بك علىٰ الله.

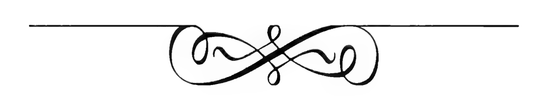
الرابعة: التنبيه علىٰ تفسير سبحان الله.

الخامسة: أن المُسْلِمين يسألونه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاستسقاء.



الشَّرْح

هـذا البَـابُ بكاملـه حـديثٌ ومسـائل، والحَـدِيْث فيـه قضـيتان: قضـيةُ الاستسقاء، وقضيةٌ تتعلَّق بالعرشِ لم يذكره المُؤَلِّفُ هنا وسيذكره الشَّارِحُ رحمهما الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (بَابُ لا يستشفع بالله علىٰ خلقه). وذكر الحَدِيْث، وسياق أبي داود في سننه أتم مما ذكره المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ، ولفظه: عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: (أتىٰ رَسُوْل الله ﷺ أعرابي فقال يا رَسُوْل الله: جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك علىٰ الله ونستشفع بالله عليك، قال رَسُوْل الله ﷺ: ويحك أتدري ما تقول؟! وسبح رَسُوْل الله ﷺ، فما زال يسبح حتىٰ عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك إنه لا يُستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه علىٰ سماواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القبة عليه، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب).

الشَّرح

هذا هو الحَدِيْثُ بكاملِه فيه قضيتان: قضيةٌ تتعلَّق بالاستشفاعِ، وقضيةٌ تتعلَّقُ بالعرشِ والسَّماوَاتِ والأَطيطُ، والعُلَمَاءُ قالوا: هذا الحَدِيْثُ عن مجهول وهو: جبير بن نفيق الذي ذكر فيه في أولِّ الحَدِيْث قالوا: مجهولُ الحالِ. لكن معنىٰ الحَدِيْث في الأولِ صَحِيحٌ. ربُّ العَالَمِينَ مالكُ الكونِ الخَالِقُ من ذا الذي يُستشفع به علىٰ ربِّ العَالَمِينَ؟! اللهُ المالكُ القهارُ العزيزُ الجبارُ عَزَّ وَجَلَّ، فينبغي أن نعرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقَّه، وجميعُ البشر بما فيهم الأنبِيَاء عبيدٌ لله، ليس في البشرِ شخصٌ يُشارِك اللهَ في ملكِه، وليس في البشرِ شخصٌ أهلٌ بأن يُؤثِّر علىٰ ربِّ العَالَمِينَ؛ فهذا الأعرابي كأنه قال: يا محمد نريد منك أن تُؤثر علىٰ الله حتىٰ يُعطينا مطراً! الإستشفاعُ ورد في الآخرةِ، الله الذي أعطىٰ نبينا سُلَّم الشفاعةِ إكراماً له فقط في الآخرةِ، أمَّا في الدُّنْيَا فليس له إلا أن يدعو،

لو قال ادع لنا جاز، كما ورد عن عمر رضي الله عنه **أنه قال: كنا إذا أجدبنا نستسقي برَسُوْل الله ﷺ**، أي: نطلب منه أن يستسقي لنا، قال: **وإنا نستسقي اليوم بعمِّ رَسُوْل الله ﷺ العباسِ بن عبد المطلب قم يا عباسُ فادعُ فدعا العباسُ فدعا الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم وسقاهم اللهُ** عز وجل[١]، فالدُّعاءُ جائزٌ، والرَسُوْلُ ﷺ كان يدعو للناسِ، وحياتُه مملوءةٌ بالدُّعاء لكثيرٍ من الصَّحَابَة، وقد استجابَ الله دعوتَه، لكنَّ الشفاعةَ شيءٌ آخرُ وهو أن يكون له دورٌ علىٰ من يشفع إليه، من يملِك هذا من البشرِ؟ النَّاس كلُّهم عبيدٌ الله، ونبيُّنا ﷺ حقَّقَ أعلىٰ درجات العُبودية، ولهذا أكرمَه الله؛ لأنه عبدٌ خالصٌ لله، وإلا فلو لم يكن كذلك ما أكرمَه، فإكرامُ الله له لأنه بلغَ في عبوديته العبوديةَ الكاملةَ، ولهذا قالَ - تَعَالَى -: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، والإسراء مقامٌ عظيم، ما قال: (برَسُوْله) وهو رَسُوْل، لكنَّ الله أراد أن يبين أنه بلغ في العبودية الدرجة التي يستحقُّ بها أن يكون عبداً لله عز وجل.

فرَسُوْل الله ﷺ عبدُ لله، ولا يجوزُ لك أن تعتقدَ أنَّ الرَسُوْلَ ﷺ يؤثرُ في الله، والله أرحمُ من جميع البشر، وقد جاء في الحَدِيْثِ أنه قال ﷺ: (**إن الله قسم الرحمة مائة جزء، فأنزل منها جزءً واحداً يتراحم بها المخلوقات إلىٰ قيام السَّاعَةُ حتىٰ إنَّ الدابةَ لترفع حافرَها عن وليدها رحمةً به وأبقىٰ الله عنده تسعةً وتسعين جزءً**)[٢]، فيوم القِيَامَةِ يعيدُ الله ذلك الجزءِ إلىٰ التسعة والتسعين فيرحمَ اللهُ به الخلائقَ يومَ القِيَامَةِ، البشرُ كلُّهم والحيوانات والحشراتُ وسعتهم رحمةٌ واحدةٌ أعطاهم الله إياها ووزَّعها بينهم؛ فكيف تُقارَنُ مَن عنده

---

(١) أخرجه البُخَارِيُّ في صَحِيحه، كتاب الاستسقاء، بَابُ سؤال النَّاس الإمام الاستسقاء، برقم: (٩٦٤).

(٢) سبق تخريجه.

هذه الرحمات الكبيرةِ الواسعةِ برحمةِ المخلوق؟! أنت ادع اللِه مباشرةً، الله ﷻ يحبُّ من يدعوه ويسأله حاجتَه، لا تظَنَّ أن الله لا يقبلُ دعوتَك إلا عن طريقِ النَّاس، لكن في الآخرةِ الشفاعةُ مقامٌ خاصٌ أراد الله أن يُكرِم به محمداً ﷺ في الموقفِ بأن يُحاسِبَ النَّاسَ، فيكون استفتاحُ الحساب بدعاءٍ منه ﷺ، كيف يدعو؟ كيف يشفعُ؟ لا يشفع مباشرةً يأتي فيضع وجهه وجبهته في التراب ﷺ أمامَ الله ﷻ، يتذلَّل يخضع لله، ويحمدُ الله ويُثني عليه ثم يأتيه الإذن من الله: يا محمدُ ارفع رأسك أي: من التراب، أمامَ ربِّ العَالَمِينَ.

بعض النَّاس ينسىٰ في تعظيمَه للرَسُوْل ﷺ أنه يُسيء إلىٰ ربِّ العَالَمِينَ، فالرَسُوْلُ جاء يُعلِّمُنا أن نعبدَ الله، أن نخضعَ لله، أن نذلَ لله، فمقام المُرسلين مقامَ العبوديةِ لله ﷻ، ليس أحدٌ من البشر يُشارك الله في أمرِه، هذا هو الذي ينبغي أن يكون في أذهان المُسْلِمين. عندما لم نفرِّق بين الخَالِقِ والمخلوقِ وقعنا في إشراكِ الرَسُوْلِ ﷺ مع اللهِ، فدعونا الرَسُوْلَ واستغثنا به مع الله، واعتقدنَا أنه يشاركُ اللهَ في الكون، بل اعتقدنا أنَّ الدُّنْيَا والآخرةَ ليس لله فيها أمرٌ،إنما هي من رَسُوْلِ الله ﷺ كما قال البوصيري:

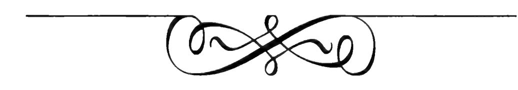
فإنِ من جودك الدُّنْيَا وضرَّتَها؛ أي: أنت جُدتَ علينا بالدُّنْيَا والآخرةِ!!، الرَسُوْلُ ﷺ كان عَدماً ثم خلقَه ربُّ العَالَمِينَ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان:١]، فهذه الأَحَادِيثُ تُعمِّق في نفوسِنا تعظيمَ الله. والرُّسُلُ كلهم جاءوا يُعلِّمونا تعظيمَ الله لم يأتوا يعلمونا أن نعبدَهم مع الله، لكن عندما جهلَ النَّاسُ الدِّينَ ولم يُفرقوا بين الخَالِقِ والمخلوق وقعوا في الشِّرْك... فدعوا المخلوقَ من الأنبِيَاء والصَّالِحِينَ مع ربِّ العَالَمِينَ، وهذا شركٌ لا يغفرُه اللهُ ﷻ.

قال المؤلف رحمه الله:

قال ابن بشار في حديثه: (إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته)، قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.



هذا الحَدِيْث من رواية محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السِير، وهو من المدَلِّسين، فإذا عنعن محمد بن إسحاق أي أسقط راوياً ضعيفاً لا يقبل، وهذا هو التدليسُ، وهو أمرٌ خطيرٌ جداً، يقول الذهبي رحمه الله: التدليس على نوعين: تدليسٌ يُسقِطُ فيه الرَّاوي الرجلَ الثقةَ لأمرٍ أرادَه إمَّا لأن هذا الرجل مكروهٌ بين النَّاس أو عليه مآخذُ لبعضِ النَّاس لكنَّه يُصدِّقُه، فهذا تدليسٌ مذمومٌ، والنوع الثاني: الذي يُسقطُ الراويَ الضعيف فقد خان الله ورَسُوْلَه؛ لأنه عندما أسقطَ الضعيف أوهم بأن الحَدِيْث صَحِيحٌ، وإذا كان الحَدِيْثُ صَحِيحاً وجبَ على كل المُسْلِمين أن يعملوا به وأن يعتقدوه؛ فأدخل بهذا في الدِّين شيئاً لم يثبت من وجهٍ صَحِيح، فالحقيقة هذا أمر خطير ويقع فيه كثيرٌ من رواة الحَدِيْث اجتهاداً منهم؛ لأنهم يقع في نفوسِهم أن الحَدِيْثَ قد صحَّ ويخشون أنه لا يُقبل إذا عُرفَ الراوي الضعيفُ، وهذا اجتهادٌ خاطئٌ في الحقيقة لم يتعمَّدوه، لكنَّ العُلَمَاءَ في تراجمِ الرُواةِ استقرءوا وبحثوا أحاديثَ الرواةِ، فعرفونا بدرجات الرواة وحفظِهم وضبطِهم وأحاديثِهم حتى أصبح الميزانُ واضحاً جلياً في قضايا الإسنادِ في الحَدِيْث.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (ويحك إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه) فإنه تعالىٰ رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضىٰ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السَّماوَاتِ ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديراً، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء وهو الذي يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر علىٰ الأعرابي قوله، وسبح الله كثيراً وعظمه؛ لأن هذا القول لا يليق بالخَالِقِ - سُبْحَانَهُ وبحمده، وإن شأن الله أعظم من ذلك.

وفي هذا الحَدِيْث إثبات علو الله علىٰ خلقه، وأن عرشه فوق سماواته، وفيه تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصَّحَابَة والتابعون والأئمة خلافًا للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنىٰ الذي وضعت له ودلت عليه من إثبات صفات الله - تَعَالَى - التي دلت علىٰ كماله جَلَّ وَعَلَا كما عليه السَّلَف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسُّنَّةِ، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رَسُوْله من صفات كماله علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.



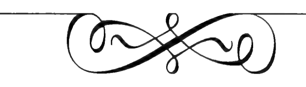
الشَّرح

يُشيرُ إلىٰ مسألة عقديةٍ وقعَ فيها انحرافٌ من المتكلِّمين، ولكنَّ هذا الحَدِيْثَ ليس هو الدليلُ، هناك أدلةٌ كثيرةٌ في كتابِ الله عَزَّ وَجَلَّ وفي سُنةِ رَسُوْلِه ﷺ، فلا ينبغي أن نستشهِد بالضعيف؛ لأن هذا الذي تمسَّك به طعنَ به المتكلِّمون علىٰ السَّلَفِ قالوا: أحاديثكم ضعيفةٌ بمنهجكم أنتم أيها

المُحدِّثون، ولهذا يقول ابن قتيبةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إن روايةَ الضعيفِ والموضوعِ في كُتُبِ العقائدِ هو الذي جَرَّأَ المعتزلةَ علىٰ المُحَدِّثين، ليس كل ما في كتبِ العقائدِ ضعيفًا أو موضوعًا، لكن إيرادُ هذه الأَحَادِيثِ يجعل أصحابَ العقل يطعنون في هذه الأَحَادِيث التي لا يُصدقها العقل، وأحيانًا يأتي العُلَمَاء بأحاديث موضوعة وما يُشيرون إلىٰ وضعها، وهذا في الحقيقة ضعفٌ في المنهج، لكن هذا ضعفٌ شخصي ليس منهج السَّلَف، قال ابن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره: إنما يُستشهد بالصَحِيحِ ولا يُستشهدُ بالضعيف، لكن قد يردُ في بعض كتب العقائدِ مثل:(السُّنَّةِ) لابن أبي عاصم، و(الشريعة) للآجري، و(الحجةُ) للمقدسي، و(الإبانةُ) لابن بطة و(السُّنَّةِ) لعبد الله بن حنبل، نجدُ فيها أحاديثَ ضعيفة والعُلَمَاء بيَنوا ضعفها، لكن ليس كل ما فيها ضعيفًا، فنحن نقول لهم: هَبْ أنَّ هذه ضعيفة لكن غيرها كثير، فمثلاً: مسألةُ عُلُوِّ الله عَزَّ وَجَلَّ يثبتُه القُرْآنُ الكَرِيم، من قرأه بقلبٍ سليمٍ خرج بأن ربَّ العَالَمِينَ في السماء، وليس هناك دليلٌ يدلُّ علىٰ عدم هذا الاعتقادِ؛ لأنَّ المعتزلة والجهمية والأشاعرة يجهلون الوجهةَ التي تتجه قلوبُهم إليها إلىٰ ربِّ العَالَمِينَ، فينكرون أن يكون الله في السماء، بل بعضُ الجهمية المعاصرين في بعض البلدان الإسْلَامية يحفظون الصغار في المدارس الابتدائية يقول: إذا سألك الوهابي أين اللهُ؟ فقل: إنَّ الله ليس له مكان!.

فهذه الأَحَادِيثُ ليست هي التي نعتمدُ عليها، عندنا من القُرْآنِ الكَرِيمِ والسُّنَّةِ النبويةِ عشراتُ الأدلة، كقوله -تَعَالَى-: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠] وآياتٌ كثيرةٌ كلُّها تدلُّ علىٰ أنَّ ربَّ العَالَمِينَ في السماءِ، لكن لا يعني هذا أنه في السماءِ عَزَّ وَجَلَّ داخلَ خلقِه؛ لأنَّ العرب تُطلق لفظة السماءِ علىٰ معنيين: تُطلقُه

علىٰ السقفِ الذي هو السماء المخلوقةُ، وتُطلقه علىٰ الجهةِ فـ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] الذي في جهة السماء في العُلو ليس معناها أنَّ اللهَ داخل السَّماوَاتِ، الله فوقَ عرشه والعرشُ محيطٌ بالسَّماوَاتِ كلِّها كما ورد في أكثر من آية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، والعرشُ فوق السَّماوَاتِ، لكن العقل البشري لا يستطيع أن يتصوَّر كيف؛ لأن العقلَ البشري يقيس الغائبَ علىٰ الشاهد، والله ليس مثل الشاهدِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]، لا ينبغي للعقلِ أن يقيس ربَّ العَالَمِينَ علىٰ المخلوق؛ لأنَّ الله ليس كمثلِه شيءٌ لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاتِه ولا في أفعاله، هو ربُّ العَالَمِينَ؛ لكن ينبغي أن يُعتقدَ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فوق عرشِه كما يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يُتَصَوَّرُ أنه مثلُ المخلوقِ وأنه محتاجٌ للعرش، بل الله هو الذي يحمي العرشَ وما تحت العرشِ، أمَّا الإِنْسَانُ إذا استقر أو استوىٰ علىٰ شيءٍ فإنه محتاجٌ إلىٰ هذا الشيء، لكنَّ اللهَ ليس مُحتاجًا إلىٰ عرشِه، اللهُ الذي خلقَ العرشَ وخلقَ السَّماوَاتِ، والله الذي يُمسك السَّماوَاتِ، كما قالَ - تَعَالَى -: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥] أي: لا يثقِلُه حفظُ السَّماوَاتِ والأرضِ، فهذه المسألة التي خالف فيها الجهميةُ والمعتزلةُ والأشاعرةُ وغيرهم مع أنَّ أدِلَّتها ثبتت في غير هذا الحَدِيْث، لكنَّ الشَّارِحَ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يُبينَ أنَّ هذا الحَدِيْث يُضَمُّ إلىٰ تلك الأدلةِ التي وردت في هذه المسألة.



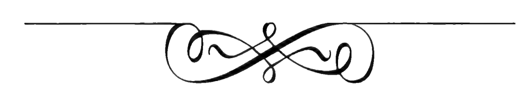
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال العلامة ابن القَيِّمِ -رحمه الله تَعَالَى- في (مفتاح دار السعادة) بعد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته.



الشَّرح

هذا الكتابُ (مفتاح دار السعادة) لابن القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابٌ جميلٌ يتحدَّث عن عجائبِ الخلقِ، وهو كتابٌ إيمانيٌّ يكشفُ لك عظمةَ خلقِ الله عَزَّ وَجَلَّ في السَّماوَاتِ، وعظمةَ خلقِ الله في الأشجارِ، وعظمةَ خلقِ الله في الجبالِ، وعظمةَ خلقِ الله في الحيوانات وفي النباتات بتأمُّل العالَمِ المُدرَك، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر نماذج كثيرةَ من حِكَمِ الله عَزَّ وَجَلَّ، من ضمن ذلك ذكر نماذجَ وضربَ مثالاً بين خلقِ الله لأشجارِ النخيل وخلقِ الله لأشجار الحبحبِ، قال: شجرةُ النخيل شجرةٌ كبيرة طويلةٌ في السماء وثمرتها صغيرةٌ، وقال: شجرةُ الحبحَب ساقها صغيرٌ وحباتها كبيرةٌ، لكن لو كانت النخلةُ فيها حبحبُ كم حبةِ تحمل؟ أربعُ حبات خمس حباتٍ عشرُ حبات، ثم لو سقطت حبةٌ من فوق على رأس بعض النَّاس ماذا يحدث له؟! فذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلاماً عجيباً، كلامَ عاقل ينظر في حِكَمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتكلَّم عن الحيوانات، وتكلَّم عن أعضاء الإِنْسَانِ، وتكلَّم عن السحبِ وتكلَّم.. فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب تكلَّم في هذا البَابُ ثم بعد ذلك يُعقِّب ببعض الحكمِ كهذه الذي سيذكرها الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال بعد ذلك: والثاني: أن يتجاوز هذا إلىٰ النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم يفتح له بَابُ بعد بَابُ حتىٰ ينتهي به سير القلب إلىٰ عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرىٰ السَّماوَاتِ السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة...



الشَّرح

يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن دعا إلىٰ أمرين: ينظرُ في المخلوقاتِ وما فيها من حِكمٍ ثم قال: والثاني أن يترقَّىٰ فينطلقَ فِكرُه إلىٰ السماء ثم لينتهيَ إلىٰ ربِّ العَالَمِينَ ليشهدَ مَلِكًا عظيمًا متصرفًا يُعزَّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، ويُغني من يشاء ويُفقر من يشاء، يُصرِّف الأمرَ جَلَّ وَعَلَا تنزل ملائكته إلىٰ الأرض إلىٰ السَّماوَاتِ بأمره وتصريفه جَلَّ وَعَلَا إلىٰ آخر ما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الثاني.

قوله: (بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة)، أي: السَّماوَاتُ السبعُ كما ورد في بعض الآثار (السَّماوَاتِ السبع الكبيرة الواسعة الشاسعة كحلقات أُلقيت في فلاة بالنسبة للعرش)، فربُّ العَالَمِينَ أعظمُ من عرشه وأعظمُ من سماواته السبعِ، ولهذا شرع الله لنا في الصَّلَاة وفي الأذان أن نقول: الله أكبر، نستفتح الأذانَ في كلِّ يوم خمس مرات بالله أكبر، ما قال اللهُ أكبر من الأرض أو أكبر من السماءِ، بل كلُّ ما خطر في بالِك اللهُ أكبر منه، فهذه الكلمةُ كما قال العُلَمَاءُ: بليغةٌ في قمةِ البلاغة؛ لأنه قال: اللهُ أكبر، ولم يذكر ما الشيءُ الذي هو أكبرُ منه؛ حتىٰ لا تعمل مقارنةً بين الخَالِقِ والمخلوق، "الله أكبر" كلمةٌ عظيمةٌ جداً، فالسَّماوَاتِ في العرش كحلقاتٍ في فلاةٍ في صحراء، فما بالك بالله ربِّ العَالَمِينَ الذي فوقَ عرشِه؟.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

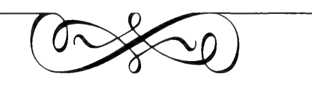
... ويرىٰ الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلىٰ محل، وقضاء الحاجات علىٰ اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضر، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورد آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف، وإغاثة لملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكف لعدوان، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفد في أقطار العوالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تغلطه كثرة المَسَائِل والحوائج علىٰ اختلاف لغاتها وتباينها واتحاد وقتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقًا لهيبته خاشعًا لعظمته عاليًا لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم المزيد، فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم ثمرته وربحه وأجلّ منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والالبَابُ لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب. انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



الشَّرح

هكذا القلبُ المُؤْمِنُ يترقَّىٰ في فكره في مخلوقاتِ الله جَلَّ وَعَلَا حتىٰ يصل إلىٰ العرشِ، وهناك يعتقد وينظر إلىٰ مالكِ الخلقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو يصرِّف ملكَه كما وردَ

في قَولِه - تَعَالَى -: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩]، في كل يوم يُعز أقوامـًا ويُذل أقوامـًا، ويُميت أقوامـًا ويُحيي أقوامـًا، ويُغني أقوامـًا ويُفقر أقوامـًا، ويشفي أقوامـًا.. فالأمرُ كلُّه بيده ﷻ هو ربُّ العَالَمِينَ، فقال: عندئذٍ يخضع القلبُ ويخشعُ ويسجدُ سجدةً لا يرفع رأسَه منها إلَّا يومَ المزيدِ، أي: في الآخرةِ، خضوعُه لربِّ العَالَمِينَ، لكنْ الذي لا يعرفُ اللهَ ولا يُعظِّمه ولا يُقدِّره كيف يخشع قلبُه؟ كيف تذلُّ نفسُه وجوارحُه؟ فلا بدَّ من خضوعِ القلب، وخضوعُ القلبِ متعلِّقٌ بالعلم الشرعي بربِّ العَالَمِينَ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: العلم علمان: علمٌ بالله، وعلمٌ بشرعِه، فإذا عرفت المخلوقات وما فيها من حكم وما فيها من إتقانٍ وما فيها من عظمةٍ وما فيها من سعة وما فيها من تصريف الأمورِ عندئذٍ تعرفُ ربَّ العَالَمِينَ، لكن إذا لم تعرف اللهَ تكون جريئـًا علىٰ معاصيه، ولهذا نرىٰ كثيراً من النَّاس يعرفُ الحرامَ والحلالَ وربما يحفظُ القُرْآنَ ونراه جريئـًا علىٰ المحارمِ جريئـًا علىٰ معصيةِ الله ﷻ ولا يستحيي من الله، لكنَّ الإِنْسَان بشرٌ يقع في الخطيئةِ، لكن شتان بين إنسانٍ يقع في الخطيئةِ وقلبُه مُنكسِرٌ ونفسه ذليلةٌ خاشعةٌ يعرف أنه قد أخطأ في حقِّه وحقِّ ربِّ العَالَمِينَ وبين إنسانٍ مُنافقٍ كما جاء في الحَدِيْث: (**أن المُؤْمِن إذا أذنب ذنبـًا فكأنه في أصل جبل يخشىٰ أن يقع عليه، وأما المنافق إذا أذنب ذنبـًا فكأنما ذُبَابُ وقع علىٰ أنفه فطار**)[1] لو وقع أنفك ذُبَابُ ثم طار نسيت أصلاً لا تهتم لا تشعر بشيءٍ، فهكذا فرقٌ بين قلبِ الإِنْسَان الخاشعِ وبين صاحبِ القلبِ القَاسي.



(١) سبق تخريجه.

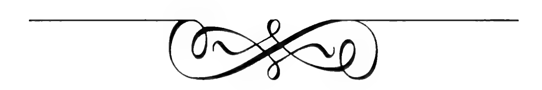
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما الاستشفاع بالرَسُوْل ﷺ في حياته فالمراد به: استجلاب دعائه وليس خاصاً به ﷺ، بل كل حي صالح يرجىٰ أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة كما قال النَّبِيّ ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المَدِيْنَة: (لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك).



الشَّرح

هذا الحَدِيْث كما ذكره المحقق في الحاشية ضعيف، فالاستشهاد بهذا الحَدِيْث علىٰ جواز الدعاءِ لا يصلحُ، لكن لا يعني هذا عدمَ جوازِ طلب الدُّعاءِ من المُسْلِم، لكن هذا الحَدِيْث الذي هو عمدةُ من أجازَ فإنه في الحقيقة لم يصح من حيث السندِ، ولم يُعرف أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اعتمر في عهدِ النَّبِيّ ﷺ بمفرده.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما الميت فإنما يُشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك، وهذا هو الذي يشرع في حق الميت، وأما دعاؤه فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسُّنَّةِ على النهي عنه والوعيد عليه كما قالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

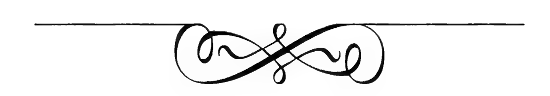
الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أُمرنا في الشرعِ بأن ندعو للميتِ، نُصلِّي صلاةَ الجنازةِ، وندعو له إذا مررنا بالمقابرِ، والابنُ يدعو لأبيه إذا ذكَره ويُكثرُ من دعائه؛ لأنه وردَ في الحَدِيْثِ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... ولد صالح يدعو له)(١) هذا هو حقُّ الميِّتِ في الإسْلَام، لكن الذين غيَّروا هذا الشرعَ أصبحوا يدعون الميَّتَ مع الله، والميت لو كان يملك شيئًا ما ماتَ، ولهذا قالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]، أما الذي يموت لا تتوكَّل عليه، لا تُنزِل به حاجَتك، لا تدعُوه من دون الله، لا تستغِث به من دون الله، والمشكلةُ أن بعض من يحملِ العلمَ في بلادِ المُسْلِمينَ يزعمُ أنَّ الميتَ يُدعَى ويُستغاثُ به من دون الله، وأنَّ الأمواتَ لهم خاصيةٌ قوية في استجابةِ الدُّعاءِ، وهذا دعوةٌ إلى الشِّرْك بصورةٍ سيئةٍ؛ لأنه إذا خرج هذا الكلامُ من العالِمِ كان سيئًا وكان هذا دفعُ النَّاس إلى الشِّرْكِ بالله عَزَّوَجَلَّ، وسبق كلام شخص ممن هو عضو في هيئة كبار العُلَمَاء في إحدى البلدان يقول: أنَّ الميِّتَ يُدعَى! ما الذي

---

(١) سبق تخريجه.

يُدريكم أن روحَ الميتِ تُعطىٰ قدرةً علىٰ أن تستجيبَ لمن دعاها؟ هذا في قضايا الدِّين، الدَّليلُ يمنع دعاءَ غيرِ ربِّ العالَمِينَ، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨]، فكيف تقول يُدعَىٰ الميِّتُ؟ لا يُدعىٰ الحيُّ ولا الميتُ، إذا كان نبيُّنا ﷺ وهو حيٌّ ما دُعي. وسيأتي قولُ عمرَ رضي الله عنه في قضية الاستسقاءِ.

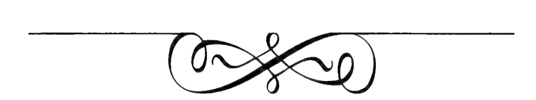


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فبين الله - تَعَالَى - أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القِيَامَةِ أي: ينكره ويعادي من فعله كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف:٦]، فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر، والصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجاتهم بالنَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته حتىٰ في أوقات الجدب.

الشَّرح

يقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مر بهم ظروفٌ كثيرةٌ، مرَّت بهم فتنٌ وجدبٌ وقحطٌ ما عُرف أنَّ أحداً من الصَّحَابَة وقف علىٰ قبر النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا رَسُوْلَ الله أعطنا، والصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أعرفُ النَّاس بدينِ الله والرَسُوْلُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريبٌ منهم، وإذا كان أحدُ من الأموات يملك فرَسُوْلُنا أكثرُ وأحقُّ بأن يملك، لكنه لا يملك لمخلوقٍ مع الله شيئاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

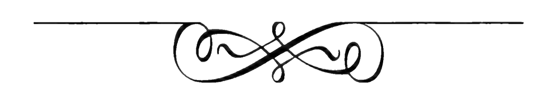
كما وقع لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما خرج ليستسقي بالنَّاس خرج بالعباس عم النَّبِيّ ﷺ فأمره أن يستسقي؛ لأنه حي حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يستسقي بأحد بعد وفاته لاستسقىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والسابقون الأولون بالنَّبِيّ ﷺ.



الشَّرح

هذا فِعلُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من الخلفاءِ الرَّاشدين الذي أُمرنا بأن نَتَّبع طريقَتهم، لم يذهب علىٰ مرأىٰ ومسمعٍ من الصَّحَابَة إلىٰ قبرِ النَّبِيِّ ﷺ في وقت القَحطِ، إنما أخذ عمَّ الرَسُوْل العباسَ وخرج به إلىٰ الصحراءِ للاستسقاءِ، ثم قال: (**اللهم إنَّا كنا إذا أجدبنا نستسقي برَسُوْلك فتسقينا وإنَّا نستسقي بعم نبيك اللهم فاسقنا**)، بعضُ النَّاس قال هنا سأل بذاتِه. ليس بذاته لو كان بالذات كان سأل بذاتِ النَّبِيّ ﷺ، ذاتُ الرَسُوْلِ موجودةٌ في القبرِ، لكن سأل بدعائه قال: (**ارفع يدك يا عباس**) في بعض الرواياتِ.

فلو كان هناك أمراً مشروعـاً غير هذا ما سكت الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،ولا تركوه، بل ما فعل عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكيف نقول: عمرُ ما يعرف ونحن نعرف!؛ فالذين يزعمون أنهم يدعُون الأمواتَ وغيرَ الأموات فإنهم يَطعنون في عمرَ وفي الصَّحَابَة أنهم لم يعرفوا حقَّ الميِّتِ ولم يعرفوا أن الأولياءَ يُساعِدون النَّاسَ، ويقضُون حاجتَهم ويُغيثونَهم!، وهذا غايةُ الجهلِ.



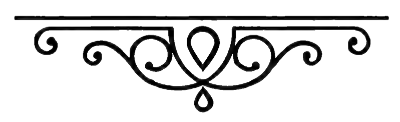
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

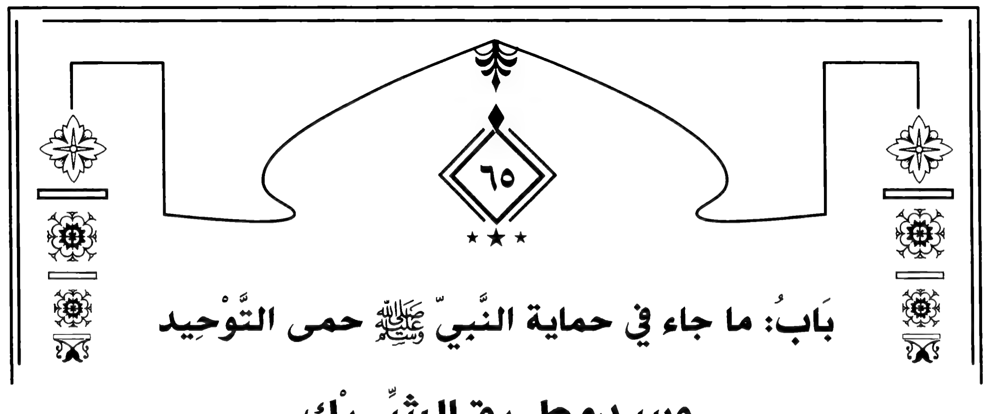
وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت؛ لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضراً، فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلىٰ الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدىٰ المشروع إلىٰ مالا يشرع ضل وأضل، ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصَّحَابَة إليه أسبق وعليه أحرص وبهم أليق وبحقه أعلم وأقوم، فمن تمسك بكتاب الله نجا ومن تركه واعتمد علىٰ عقله هلك، وبالله التوفيق.



الشَّرح

هذه المسألةُ من المَسَائِل التي وقعَت فيها كثيرٌ من طوائفِ المُسْلِمين وهي: دعاءُ الأمواتِ والاستغاثةِ بهم، ولا تكاد تجدُ بلداً من بلدان المُسْلِمين إلا وفيها هذا العملُ الذي هو شركٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، يدعون الأمواتَ في حاجاتهم وقضاءِ مصالِحِهم، وهذا مخالفٌ للقرآن والسُّنَّةِ وما ورد عن الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وفِعلُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا ردٌ عمليٌ من الصَّحَابَة لكلِ من خالف هذا المنهجَ.





بَابُ: ما جاء في حماية النَّبيِّ ﷺ حمى التَّوْحِيد وسده طرق الشِّرْك

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: السيد الله تبارك وتعالى -. قلنا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان) رواه أبو داود بسند جيد.

(وعن أنس رضي الله عنه أن أناساً قالوا: يا رَسُوْل الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، فقال: يا أيها النَّاس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورَسُوْله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل) رواه النسائي بسند جيد.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تحذير النَّاس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا.

الثالثة: قوله: (لا يستجرينكم الشيطان) مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: (ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي).

الشَّرح

هذا البَابُ عقده المُصَنِّفُ رحمه الله ليُبيِّن أنه لا ينبغي أن يُزاحِمُ تعظيمَ اللهِ عز وجل تعظيمُ أيِّ مخلوقٍ في الأرض، ولو كان سيدَ البشرِ صلى الله عليه وسلم، وإلا فإنَّ الرَّسُوْل صلى الله عليه وسلم هو خيرُنا وأفضلُنا وأشرفُنا وسيدُنا، ولكن أراد أن يسدَّ البَابَ الذي قد يُؤدِّي إلىٰ الشِّرْك بالله عز وجل، التعظيمُ كلُّه يجب أن يكون لله، والفضلُ كلُّه من الله، والفضل كلُّه مِلكُ الله، والنَّاس كلُّهم عبادُ الله، فإذا حدث في قلبِ الإِنْسَان تعظيمٌ للمخلوق أدَّىٰ به إلىٰ الشِّرْك، ولهذا ينبغي أن لا نُعظِّمَ إلا الله، وأن نكثرَ من تعظيمِ الله والثناءِ عليه، وعَزوِ النعمِّ كلِّها إليه، وينبغي أن يُعمَّقُ هذا ويُكثَّف في جميع وسائلِ الإعلاناتِ والإعلامِ، لا يُعظَّم إلا اللهُ؛ لأنَّ النَّاس إذا عُظَّمُوا المخلوق زاحمَ الخَالِقِ، والرَسُوْلُ صلى الله عليه وسلم أراد أن يسدذَ هذا البَابَ، فالمُسْلِم لا يُعظِّمُ المخلوقَ أبداً، ينبغي أن يكون تعظيمُ الله هو البارزُ في كلِّ شيءٍ في حياتنا، في وسائلِ إعلامِنا وفي صحافتِنا، في إذاعتنا في جميع حياتنا، في مناهجِنا الدراسيةِ في بيوتِنا، الله يُعَظَّمُ في كلِّ مكانٍ، ولكن إن لم نعط اللهَ إلا حَيزاً قليلاً كيف نُعظِّمُه كيف يكون بيننا وبين الله أُنسٌ وقربٌ!، ومن صفات المُؤْمِنين أنهم ذاكرون اللهَ كثيراً بدون حدودٍ، كلُّ شيءٍ في العباداتِ قد يُوجدُ له حدٌّ إلا الذِّكر، ليس له حدٌّ ينتهي عليه، تذكرُ الله علىٰ كل أحوالك، تذكرُه في بيتك وفي طريقك، وفي وظيفتِك، في كل وقت، ولكن إن لم تذكر الله إلا قليلاً كما قال الله في المنافقين: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء:١٤٢] فهذا في شأن المنافقين.

فتعظيم الخَالِقِ لا ينبغي أن يُزاحمَه تعظيمُ المخلوق، هكذا ربَّىٰ الرَّسُوْلَ صلى الله عليه وسلم الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم، وكانوا يعرفون أنه إنسانٌ معظمٌ محترمٌ، له مكانته عند الله،

سيدُ البشر، أعظمُ إنسانٍ في الدُّنْيَا والآخرةِ، جاء في الحَدِيْث أنّ آدمَ ومن دونه تحتَ لوائه ﷺ في الآخرةِ، وجاء في الحَدِيْثِ أن الجنَّةَ فيها درجةٌ واحدة لا ينالها إلا إنسان واحدٌ، قال ﷺ: (أرجو أن أكون أنا هو)(١)، ندعو بعد كل أذان أن يعطيَه اللهُ الوسيلةَ، والوسيلةُ درجةٌ في الجنةِ لا ينالها إلا عبدُ واحدٌ، وجاء في الحَدِيْث أيضاً: (أنا سيد ولد آدم يوم القِيَامَةِ ولا فخر)(٢)، ويوم القِيَامَةِ تتخلَّىٰ جميعُ الأنبِيَاء والرُّسُل عن الشفاعةِ إلىٰ الله ليفصل الحساب بين النَّاس، ولا يجرُؤ مخلوقٌ علىٰ أن يتقدَّم للشفاعة إلا نبيُّنا ﷺ، يذهبون إلىٰ آدمَ فيعتذرَ يقول: وهل أخرجَكم من الجنةِ إلا أبوكم آدم أو معصيةُ أبيكم آدمَ، ثم إلىٰ نوح فيعتذر، وإلىٰ إبراهيمَ ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ فيعتذر، كلُّ الأنبِيَاءِ تعتذر، فإذا جاء عليه ﷺ يقول: أنا لها أنا لها، ولكن ما يشفع حتىٰ يستأذن، فيسجدَ يضع جبهته في التراب أمامَ المَلِكِ ﷻ، فيحمدَ اللهَ وُيثنِي عليه ويستأذنه، فيتركه الله ما شاء أن يتركَه، ثم يأتيه الإذنُ من السماء: يا محمدُ ارفع رأسك، واشفع تُشفع(٣).

سيد البشرِ ﷺ ينهىٰ عن إطرائه ومدحِه، ينهىٰ علىٰ أن نقول: سيدَ. عندما قالوا: أنت سيدُنا، قال: السيدُ هو الله. أي: السيدُ الكاملُ الذي كُمُل سُؤدُدُه الله. فالرَسُوْلُ يَسدُّ هذا البَابَ، تعظيم المخلوقِ هو سببُ الشِّرْك في الأرضِ، ومنهجُ علماءِ الأُمَّةِ ومُحقِّقيها أنهم سدُّوه حتىٰ بَابِ التبرُّك بالصَّالِحِينَ، مع أنَّ

---

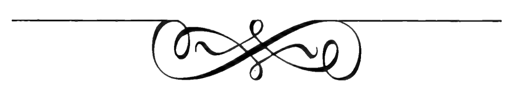
(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الصَّلَاة، بَابُ استحبَابُ القول مثل قول المؤذن ....، برقم (٣٨٤)، وتمامه: "سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة"

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

الصَّالِحِينَ فيهم خيرٌ، وفيهم بركةٌ لا شك في هذا، والمُؤْمِنُ مباركٌ بإذن الله في كلِّ شيءٍ في حياتِه، ولكن سُدَّ هذا البَابُ حتىٰ لا يُفضي إلىٰ الشِّرْكِ بالله ﷻ، فإن الإسْلَام قد ينهىٰ عن أمر مباحٍ خيرٍ لئلا يُفضِي إلىٰ ما هو شرٌّ منه، كما قالَ - تَعَالَى -: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٠٨]، وسبُّ الأصنام ليس محظوراً، ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] هذا سدُّ الذرائع، ذكر ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (إعلام الموقعين) تسعةً وتسعين بَابًا من أبوابِ سدِّ الذَّرائعِ، وقال: هذه بعددِ أسماء الله الحسنىٰ أرجو أنه من يَعملُ بها ويعرفها ويتَّبعُها أن يحفظَه الله من الابتداعِ والانحرافِ في عقيدتِه وشريعتِه.

فهذا الرَسُوْلُ سيدُ البشرِ المُصطفىٰ المُختارُ ﷺ، فوَّضَ الله إليه الأمرَ، يقول بعض العُلَمَاءِ: في حياة الملوكِ والرؤساءِ هناك وزارةٌ اسمُها وزارةُ التفويض، أي: يُفوِّض الوزيرَ أن يصنع في الحكمِ، أو في أعمالِ الدولة ما يشاء لثقتِه فيه ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ، قال الله عن نبيه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]، هذا مقامٌ عالٍ جداً، ولكن مع ذلك ينهانا أن نُعظِّمَه لئلا يُزاحِمَ تعظيمُنا له تعظيمَ اللهِ ﷻ، فهذا البَابُ عقدَه المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبين أنه ينبغي أن نسدَّ البَابُ الذي يؤدي فيه إلىٰ تنقُّصِ التَّوْحِيد أو نقضِه، فإنَّ الله هو المعظم، هو الذي بيده كل شيء، فينبغي أن تمتلِئ قلوبُنا بتعظيمِه ومحبَّته وطاعتِه والخضوعِ له والذُّل له، ولا يزاحمُه مخلوقٌ، ولو كان سيدَ البشرِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (بَابُ ما جاء في حماية المصطفىٰ ﷺ حمىٰ التَّوْحِيد وسده طرق الشِّرْك) حمايته ﷺ حمىٰ التَّوْحِيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التَّوْحِيد، أو ينقص، وهذا كثير في السُّنَّةِ الثابتة عنه ﷺ، كقوله: (لا تطروني كما أطرت النَّصَارَىٰ ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورَسُوْله)، وتقدم قوله: (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عَزَّوَجَلَّ) ونحو ذلك، ونهىٰ عن التمادح وشدد القول فيه كقوله لمن مدح إنسانًا: (ويلك قطعت عنق صاحبك)، الحَدِيْث أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أن رجلاً أثنىٰ علىٰ رجل عند النَّبِيّ ﷺ فقال له: (قطعت عنق صاحبك) ثلاثًا، وقال: (إذا لقيتم المداحين فأحثوا في وجوههم التراب) أخرجه مُسْلِم والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن الأسود.

الشَّرح

هذه الأَحَادِيثُ قد تقدَّم بعضُها عندما أثنىٰ الصَّحَابَة علىٰ الرَسُوْلِ ﷺ قال: (لا تطروني كما أطرت النَّصَارَىٰ عيسىٰ ابن مريم)[١] يُحذِّرنا مما وقع فيه أهلُ الكتابِ ممن قبلنا، (لا تَطرُوني) والإطرَاءُ هو المدحُ الزَّائدُ، كما أطرَت النَّصَارَىٰ عيسىٰ ابنَ مريم، أطروه وعظَّموه، حتىٰ زعمُوا أنه هو اللهُ، أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثة، سببُه الإطراءُ، ولهذا جاء عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في صَحِيح البُخَارِيُّ: أنَّ سببَ الشِّرْكِ إنما كان تعظيمَ العبادِ الصَّالِحِينَ، كان هناك أناس

(١) سبق تخريجه.

صالحون فماتوا في عامٍ واحدٍ، فحزن النَّاسُ عليهم، فجاء الشَّيطانُ وقال: صَوِّرُوا لهم صوراً حتىٰ تتذكَّروهم. فصوَّروا لهم الصورَ، وكانت في مجالسِهم حتىٰ يتذكَّروا عبادةَ العبادِ الذين ماتوا، ثم بعد ذلك عُظِّمُوا، ثم عُبِدُوا من دون الله أو مع الله ﷻ، وهكذا الإطراءُ والمدحُ الزائدُ، ولهذا نهىٰ حتىٰ عن المدحِ العادي، قال: (أحثوا في وجوه المداحين التراب)[1] المدَّاحُ: هذه صيغةُ مُبالَغةٍ، الذي هذا عملُه، وإلا فإنَّ الرَسُوْل ﷺ لم يحثُ الترابَ في وجه الشخص الذي مدَحه، ولكن إذا كان الشخصُ اتخذها حرفة يكسب من ورائها العيش، قال: إذا جاءك لا تعطِه مالاً، أعطِه تراباً؛ لأن الذي يجعل مهنَته مدحَ النَّاس نَسيَ مدحَ الخَالِقِ ﷻ، والمدحُ والثناءُ لله، ولهذا فإن أولَ آيةٍ في كتابِ الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] أي: الثناءُ كلُّه لله، كما قال العُلَمَاءُ: كان الشُّعراءُ والخطباءُ في الجَاهِلِيَّةِ يستفتحون خطبَهم وشعرَهم ولقاءاتهم بمدح الكبراءِ، الله عوَّضهم، قال: الحمدُ والثناء كلُّه لله، لا تصرفوه لغيره، لا يستحقُّ الحمدَ غيرَه ﷻ.

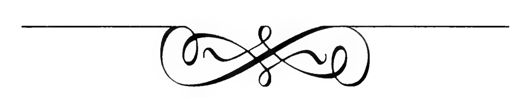
فالإطراءُ لا يجوزُ، ومدحُ النَّاس في وجوهِهم لا يجوزُ، وإذا لم يكن المدحُ في وجوهِهم فلا بأس، فيجوز أن يُذكر الإِنْسَانُ بما فيه من خيرٍ، فلا نحثو في وجوه المداحين التراب إلا إذا كانوا اتخذوها حرفةً أو مهنةً، وخاصةً الشعراء، فإنهم دائماً يُثنون علىٰ أصحابِ الجاه، وأصحابِ المالِ ليكسبوا من

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، بلفظ (إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب)، كتاب الزهد والرقائق، بَابُ النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة علىٰ الممدوح، برقم: (٣٠٠٢)، (٤/ ٢٢٩٧).

وراءِ هذا المدحِ، يقول النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذا يُراد به أحدُ معنيين: إمَّا أن يُراد به أن يَحثُو حقيقةً في وجهِه الترابَ، وإما أنه أراد أن لا نُعطِيهم مالاً أصلاً، إنما نردُّهم خائبين، وكأنهم لم يحُصِّلُوا إلا الترابَ من وراء المدحِ.

أما إذا أثنىٰ علىٰ الإِنْسَان في مجلسٍ بغير أن يتخذه حرفةً فإنما نذَّكرَه أن لا يفعلَ، ولا نحثُو في وجهه التراب، فهذا هو كلُّه لسدِّ بَابٍ ينتجُ عنه تعظيمُ المخلوقِ مع الله عَزَّ وَجَلَّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذا الحَدِيْث نهىٰ عن أن يقولوا: أنت سيدنا، وقال: (السيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -)، ونهاهم أن يقولوا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، وقال: (لا يستجرينكم الشيطان).

وكذلك قوله: (في حديث أنس أن ناساً قالوا: يا رَسُوْل الله يا خيرنا وابن خيرنا..) إلىٰ آخره، كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح، فيفضي بهم إلىٰ الغلو، وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه ولو بما هو فيه من عمل الشيطان لما تقضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه، وذلك ينافي كمال التَّوْحِيد.

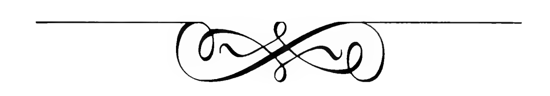


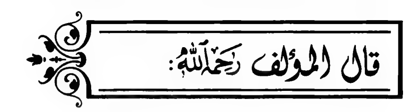
الشَّرْح

قوله: (وفي هذا الحَدِيْث نهىٰ عن أن يقولوا...) مرَّ في حديثٍ عند مُسْلِم أنه قال ﷺ: (لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي) فهناك أباح أن يقولَ المملوكَ لسيده: سدي مولاي، كما سبق أيضاً: (ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي)[1] فأباح أن يقولوا: سيِّدُ الغلامِ، يقول: سيدي ومولاي، ولكن لما كان هنا فيه تعظيمٌ وخشي أن النَّاسَ يتمادُون في مدحِه ﷺ ويُؤدِّي هذا إلىٰ تَنَقُّصِ حقِّ اللهِ نَهىٰ عن ذلك، وإلا فإنه يجوز أن يقال للإنسانِ سَيِّدٌ، من بَابُ التكريمِ، أو بدلاً عن أن يقول: هذا ربي فليقل سيدِي ومولَاي.

(١) انظر صَحِيح مُسْلِم، كتاب الألفاظ من الأدب، بَابُ حكم إطلاق لفظ العبد والأمة والمولىٰ والسيد، برقم: (٢٢٤٩)، (٤/ ١٧٦٤)، وأخرجه البُخَارِيُّ في صَحِيحه أيضا، كتاب العتق، بَابُ كراهية التطاول علىٰ الرقيق، برقم (٢٥٥٢)، وكأن الشيخ لم يستحضره.

قوله: (وكذلك قوله: في حديث أنس...) هنا ذكر مسألةً وهو أن الممدوحَ قد يدخلُه غرور، إذا قال له إنسان: أنت أكرمُ النَّاس، وأنت أفضلُ النَّاس، وأنت كذا، حتىٰ أن بعضَهم قال في بيتٍ: "فاحكم فأنت الواحدُ القهارِ". نعوذ بالله!، أي: جعله مثلَ اللهِ ﷻ، فالشعراء يبالغون في شعرهم حتىٰ يرفعوا الإِنْسَانَ فوقَ منزلته، فهذا قد يُؤدِّي إلىٰ أن الإِنْسَانَ يظَنُّ أنه كما قيلَ. وأكثرُه كذبق، فبعض النَّاس قد يكون مغفلاً فيصدِّقَ ما يمدح به، ولكن العقلاء يعرفون أن كل ما يُقال فيهم كذبٌ.





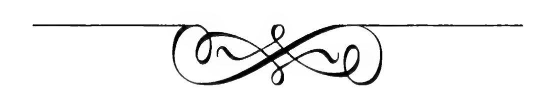
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل في غاية المحبة.



الشَّرح

الإِنْسَانُ لا يكون عبداً لله إلا إذا توفَّر فيه شرطان: كمالُ الذلِّ، وكمال الحبِّ لله، فكيف يكون في قلبِه متذلِّلاً، وكيف يرضىٰ بأن يُمدح بما ليس فيه، ويُرفع إلىٰ منزلةِ الله، فهذا كاذبٌ في دعواه، ونبيُّنا ﷺ قد بلغ كمالَ العبوديةِ، ولهذا لم يرض بأن يُمدح وأن يُثنىٰ عليه، وهو أهلٌ لكلِّ خيرٍ، ولكن حمايةً لحقِّ الله ﷻ لم يرضَ، وهكذا الإِنْسَانُ العاقلُ المُسْلِمُ لا ينبغي له أن يرضَىٰ بأن يُمدَح بما ليس فيه، أو بما فيه مما يُؤدِّي إلىٰ غرورِه، أو إلىٰ إذلالِ المادحِ؛ لأن المادحَ يذل بهذا المدحِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالىٰ، وأن لا يرىٰ نفسه إلا في مقام الذم لها والمعاتبة لها في حق ربه، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال الإرادات.

ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه، فيكون آثمًا، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأسًا، والنهي عنه صيانة لهذا المقام، فمتىٰ أخلص العبد الذل لله والمحبة له خلصت أعماله وصحت، ومتىٰ أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب دخل علىٰ مقام العبودية بالنقص أو الفساد،وإذا أداه المدح إلىٰ التعاظم في نفسه والإعجاب بها وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة، كما في الحَدِيْث: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئًا منها قذفته في النار)، وفي الحَدِيْث: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).

الشَّرح

قوله: (وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية...) يقول: الإِنْسَانُ خُلقَ فقيراً، جاء إلىٰ الدُّنْيَا صفرَ اليدين، ثم أصبح إمَّا صاحبُ مالٍ أو صاحبُ جاهٍ، والذي أعطاه هو الله ﷻ، فمن يُمدَح يُمدَح بماذا؟ فالخير كلُّه من الله، والفضل كلُّه من الله، والعطاءُ كلُّه من الله، فالإِنْسَان ليس له من نفسه إلا الفقر الذاتي، فلا يجتمع في قلب إنسان الحبُّ والتذللُّ لله، والتعاظمُ علىٰ خلقِه ﷻ.

قوله ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)[1] الكبرُ ثمرةُ

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الإيمَان، بَابُ تحريم الكبر وبيانه، برقم: (٩١)، (١/ ٩٣).

المدحِ، ولكن لو أن إنسانـًا لـم يُمدح لـم يرَ في نفسه استحقاقـًا إلىٰ أن يرفـعَ نفسه فوق منزلتِه، والكبرُ أخطر أنواع الذنوبِ، فإنه لا يدخل الجنـةَ مـن كـان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبر، نسألُ الله العافيةَ، ما معنىٰ الذَّرةِ أو الهباءةِ؟، إذا وقفت أمام النافذة في الصباحِ ورأيت الغبار المتطايرَ في الفضاءِ واحدةٌ من هـذا الغبـارِ اسمُها ذرةٌ، فالـذي في قلبـه ذرةٌ مـن كِبرٍ ولـو جاء بمثلِ الجبالِ مـن الأعمـال الصالحةِ لا يدخل الجنةَ.

فكل سببٍ يُؤدِّي إلىٰ هذه النتيجةِ مُحرَّمٌ؛ لأنه يؤدي إلىٰ الهلاكِ. "الكبرُ بطرُ الحقِّ وغمطُ النَّاس": الذي يرىٰ أن النَّاسَ مُحتقَرون؛ لأنهم إمَّا فقراءُ، وإمَّا ليست عندهم جاهٌ، وصاحبُ المال يحتقر من لا مالَ له، وصاحبُ الجاه يحتقر من لا جاهَ له، هذا هو الكِبرُ، وإلا فإن بعضَ الصَّحَابَة قال: (**إن الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبَه حسنـًا، ونعلَه حسنةً، قال: إن اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمال، الكبرُ بطرُ الحقِّ وغمطُ النَّاس**)[1]، وبطرُ الحقّ أن يَردَّ الحقَّ ولا يقبله، استعلاءً واستكباراً، كيف يُنصح؟ كيف يجرأ إنسانٌ علىٰ أن يقول: أنت مُخطئٌ، فيردَّه ولا يقبله وهذا استعلاءٌ، كما قالَ - تَعَالَى -: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]، أي: لا يرضىٰ أن يُقال له: اتقِ اللهَ، ولا يُنصح ولا يُذكَّر؛ لأن إحساسَه أنه أفضلُ النَّاس وأشرفهم وأكرمهم وأعظمهم، مَن مِن النَّاس يجرأ أن يقول له: أنت مُخطئٌ؟!، فالكبرُ ثمرةٌ من ثمرات المدحِ، ولهذا سُدَّ هذا البَابُ الذي يُؤدي إلىٰ الهلاكِ الذي ينتهي بصاحبه إلىٰ النارِ.

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الإِيمَان، بَابُ تحريم الكبر وبيانه، برقم: (٩١)، (١/ ٩٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سببًا لها وسلمًا إليها، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وأما المادح فقد يفضي به المدح إلىٰ أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيراً في أشعارهم من الغلو الذي نهىٰ عنه الرَسُوْل ﷺ، وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتىٰ صرحوا فيه بالشِّرْك في الربوبية والإلهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلىٰ شيء من ذلك، والنَّبِيّ ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يُمدح صيانة لهذا المقام، وأرشد إلىٰ ترك ذلك نصحًا لهم، وحماية لمقام التَّوْحِيد عن أن يدخله ما يفسده، أو يضعفه من الشِّرْك ووسائله، ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة:٥٩]، ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات.



الشَّرح

يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ ما وقع فيه كثيرٌ من المُسْلِمين وخاصة من أصحابِ القصائدِ التي مدحوا فيها نبيِّنا ﷺ، ومن أشهرها قصيدة البردة للبوصيري، هذه القصيدةُ حقيقةً فيها أبياتٌ في غايةِ الجمال والجودةِ والروعةِ وحسن الصياغة والألفاظ الجميلةِ، والحقائق الطيبةِ الصادقة السليمةِ، ولكنه أدخل فيها أبياتًا من الشعر جعلتها قصيدةً مذمومةً مرفوضةً، ومن ضمن ما يقول:

فإن من جودك الدُّنْيَا وضرتها   ومن علومك علمُ اللوح والقلم

ماذا بقي لله؟ الدُّنْيَا والآخرة من جوده ﷺ، النَّبِيّ إنسان خُلَقٌ فقيرٌ، ولا يملك شيئًا، وُلِدَ كما يُولدُ النَّاسُ، وعاش كما يعيش النَّاسُ، يجوعُ ويشبع،

ويعطشُ ويروىٰ، ويحزن ويتألم، ويصابُ في المعارك، وينتصر وينهزمُ ثم يموت، كيف يقول:"من جودِك"، من أين جاء به، هذا فهمٌ عجيب، واتباعُه ﷺ ليس من جوده، بل من توفيقِ الله، فإن الذي يهدي هو اللهُ، ولهذا الله قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]، فالفضلُ كلُّه من الله ﷻ عليه وعلينا، فمقامُه ﷺ مقامُ العبوديةِ، ليس مقامَ الشِّرْكِ مع الله ﷻ، فالرَسُوْلُ ﷺ يُوجِّهنا ويحذِّرنا وينهانا عن أن نُغاليَ في مدحِه، ثم يأتي هؤلاء فيعكسون القضية، ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة:٥٩]، قيل لهم: لا تطرُوه ولا تغالُوا فيه، فغيروا ذلك. ولهذا بالَغوا في النَّبِيِّ ﷺ حتىٰ إنَّ كثيراً من النَّاس يُذكر الله عندهم ولا تهتزُّ قلوبُهم، ويُذكرُ الرَسُوْلُ ﷺ ويرقُصون وَجدَاً!، ربُّ العَالَمِينَ الخَالِقِ العظيم يُذكر عندك، ما تهتزُّ!، ويُذكرُه نبيُّه وعبدُه ومصطفاه وتضطرب وتعظِّمُه، فقد وقع في قلوبهم هذا الشِّرْكُ بالمخلوقِ، حتىٰ في الإيمَانِ، إذا اتجهت اليمين علىٰ شخص، فقيل: احلف بالله يحلف، وإذا قيل: احلف بصاحب التربةِ ما يحلف!، وهذه في وقائع سُجلت في كثير من النَّاس ممن يعظم الموتىٰ؛ لأنه يقول: إن اللهَ قد يعفُو، ولكنَّ صاحبَ القبرِ ما يعفو. أي: يخافُ منه أن ينتقم منه في أولاده أو في ماله!، ـ نعوذُ بالله من هذا الشِّرْك المنحرفِ ـ، فالرَسُوْل ﷺ نهاهم عن مدحِه والمغالاةِ فيه، ولكنهم يقولون بعكس ما قال.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما تسمية العبد بالسيد فاختلف العُلَمَاء في ذلك، قال العلامة ابن القَيِّمِ في بدائع الفوائد: اختلف النَّاس في جواز إطلاق السيد علىٰ البشر فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النَّبِيِّ ﷺ لما قيل له: يا سيدنا قال: (السيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -)، وجوزه قوم، واحتجوا بقول النَّبِيِّ ﷺ للأنصار: (قوموا إلىٰ سيدكم)، وهذا أصح من الحَدِيْث الأول.



الشَّرح

فهناك قولان: قولُ يجيزُ إطلاقَ السَّيدِ علىٰ غيرِ الله. وقول: يمنع إطلاقَ السيدِ علىٰ غير اللهِ. ابن القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أورد القولين، فذكر دليلَ المانعين: حديثُ أبي داود الذي رواه في السنن، وهو حديث ابن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قالوا: يا سيدنا، قال النَّبِيُّ ﷺ: (السيد الله)[1]، أي: ليس غيرُه سيداً، فقالوا: هذا دليلٌ علىٰ عدم جوازِ إطلاقِ السيدِ.

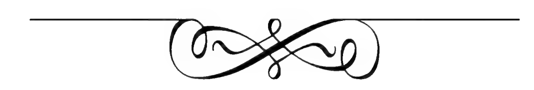
والآخرون استشهدوا بحديثِ سعدِ بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أنه قال: (قوموا إلىٰ سيدكم)[2]، فأطلق عليه السيدَ، وهذا أصحُّ من الأول، وكذلك حديثُ مُسْلِمٍ: (لا يقل أحدكم: ربي، وليقل: سيدي ومولاي)[3]، فالأَحَادِيثُ

(١) انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، بَابُ كراهية التمادح، برقم: (٤٨٠٦). وقد صححه الألباني.

(٢) أخرجه البُخَارِيُّ في صَحِيحه، كتاب المغازي، بَابُ مرجع النَّبِيِّ ﷺ من الأحزاب، برقم: (٤١٢١)، ومُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الجهاد والسير، بَابُ جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن علىٰ حكم حاكم عدل أهل للحكم، برقم: (١٧٦٨)، (٣/ ١٣٨٨).

(٣) سبق تخريجه.

الصَحِيحةُ تجيز الإطلاقَ ما لم يكن فيه غُلُوٌّ، فإذا كان فيه تعظيمٌ لا يجوز، أما إذا كان فيه تكريمُ لسَيِدِ القبيلةِ أو ذي شرفٍ -مثلاً- جازَ، ولكن إذا كان سيؤدي إلىٰ الغُلُوِ الذي نهىٰ عنه الرَسُوْلُ ﷺ لا يجوز، وهذا هو الراجحُ والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي: سيد كندة، ولا يقال: للملك سيد البشر، قال: وعلىٰ هذا فلا يجوز أن يطلق علىٰ هذا الاسم، وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالىٰ فهو في منزلة المالك والمولىٰ والرب لا بمعنىٰ الذي يطلق علىٰ المخلوق. انتهىٰ.

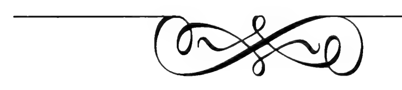
الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يجوز التعميم، مثلاً: سيد البشرِ، أو سيد النَّاس، من العُلَمَاء ابن سيد النَّاس، هذا تعميمٌ خاطئٌ، ولكن لا بأس أن يُقال سيدُ قبيلةِ كذا إذا كان هو شريفُها أو شيخُها، أمَّا إطلاقُ السيد علىٰ العمومِ، قال: هذا فيه مبالغةٌ مذمومةٌ، ثم قال: إن إطلاقَ السَّيدِ علىٰ الله، مثل إطلاقِ الربِّ، ونحن عندما نتأمل النَّاسَ وأسلوبَ الُمتصوفة، يستفتحون الثناءَ علىٰ الرَسُوْل ﷺ بالسيدِ، والعُلَمَاءُ قالوا: إن السيدَ كلمةً يضعُها النَّاسُ لبعضهم البعضِ، ولكن رَسُوْلُ الله أعظمُ من كلمةِ سيد، ولهذا لم يَرِد هذا الوصفُ في قول الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولا مرَّة واحدةً في أي حديثٍ، وإنما قال النَّبِيّ أو رَسُوْل الله، فالتكريم للنبيِّ ﷺ أن يقول: نبيَّنا، أو رَسُوْلُنا، ولكن هؤلاء عكسوا، واللفظ الأشرفُ والأفضلُ والأحسنُ وصفه بالنُّبوة، أما وصفُه بالسيادة فهذا يشتركُ فيه حتىٰ غيره ﷺ. ولهذا جاء في الأَحَادِيث قال النَّبِيّ ﷺ، أو قال رَسُوْل الله ﷺ، نعم عمر قال في أبي بكر: (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا)[1] مع بعض البعض، ولكن لم يُنقل أنَّ

---

(١) أخرجه البُخَارِيُّ في صَحِيحه، كتاب فضائل الصَّحَابَة، بَابُ مناقب بلال بن رباحة، برقم: (٣٧٥٤).

الصَّحَابَةَ كانوا يُطلِقون هذا اللفظ على النَّبِيِّ ﷺ مع العلم أن النَّبِيّ أفضلُ وأشرفُ من كلمةِ السيدِ، ولهذا هذا الاصطلاح عند المُتصوِّفةِ، هذا هو علامة حبِّك للرَسُوْل ﷺ، ولو كنتَ لا تَتبعُه، ولو لم تُؤدِّي الصلوات في بيوتِ الله، ما دمت تقول: سيُّدُنا، فأنت تحبُّ الرَسُوْلَ ﷺ!، كأنه يعاكس ويعارض ما نُهينا عنه من التعظيمِ الذي نهى عنه ﷺ.

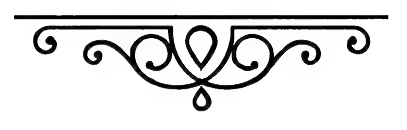


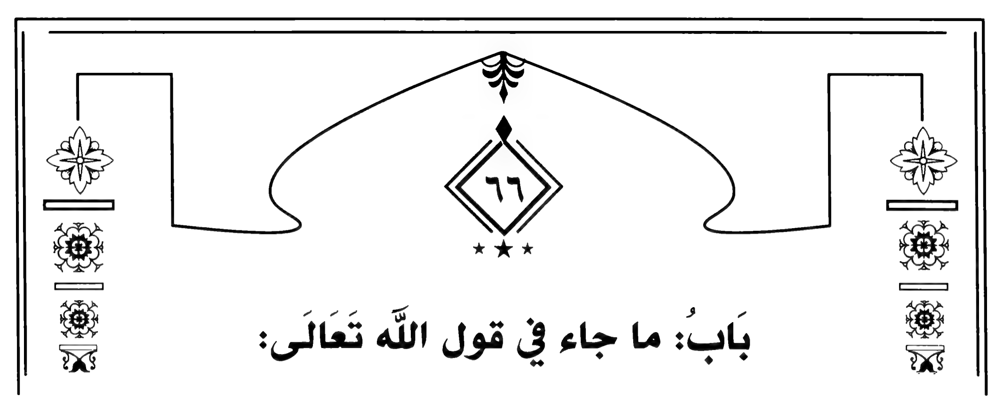
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: فقد صح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في معنى قول الله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام:١٦٤]، أي: إلهـًا وسيداً. وقال في قول الله - تَعَالَى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص:٢] إنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد. وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤده. وأما استدلالهم بقول النَّبِيّ ﷺ للأنصار: (قوموا إلى سيدكم) فالظاهر أن النَّبِيّ ﷺ لم يواجه سعداً به، فيكون في هذا المقام تفصيل والله أعلم.



الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ كأنه يميل إلى أن هناك تفصيلاً في المسألةِ، فلا يوصف الشخصُ في حضرتِه بالسيد، ولكن في غيابِه يُمدح بهذه الكلمةِ، حتى لا يؤدي إلى أن يتعاظمَ في نفسِه، فيهلَكَ بهذا التعاظمِ.





بَابُ: ما جاء في قول الله تَعالَى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رَسُوْل الله ﷺ، فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع، الجبال والشجر على إصبع، والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النَّبِيّ ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧].

وفي رواية لمُسْلِم: (والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك أنا الله) الحَدِيْث.



الشَّرْح

هذا البَابُ عقده المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ختاماً لكتاب التَّوْحِيد؛ لأنه آخر بَابُ في كتاب التَّوْحِيد، فهو يقول: إن سببَ ما وقع النَّاس فيه من الشِّرْك هو عدمُ تعظيمِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه الآية سببُ نزولها في هذا اليهودي، أو أنها كانت قبلَه،

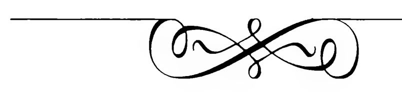
وهذا اليهودي جاءَ إلىٰ النَّبِيّ ﷺ فذكر: (**أنا نجد عندنا أن الله يجعل السموات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والماء والثرىٰ علىٰ إصبع.... إلىٰ أخره**). حتىٰ انتهىٰ من قوله، (**فضحك النَّبِيّ ﷺ حتىٰ بدت نواجده تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧](١)، هذا الحَدِيْث في الحقيقة من الأَحَادِيث المُشكِلةِ عند علماءِ العقيدةِ؛ لأنَّ هذا اليهوديَّ تَفصيلاتُه تلك تنفردُ عندنا في الكتابِ والسُّنَّةِ بهذه الصورةِ، ثم إذا تأمَّلنا السَّماوَاتِ العظيمةَ، وتقسيماته أصلاً تقسيماتٌ غريبةٌ، وليست في التوراةِ القائمةِ، فهل الرَسُوْلُ ﷺ ردَّ عليه ليُبطلَ قولَه، أو ردَّ عليه موافقةً لقوله؟

قولُ اليهودي له جانبان: جانبٌ أنَّ الكون كلَّه يجعله الله في يديه، هذا صَحِيح. أما التقسيمات فإنها مردودةٌ؛ لأنَّ الآية تردُّ عليهم، الآية جعلت البديلَ أنَّ الأرضَ قبضتُه ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] هذا هو الاعتقاد الإسْلَامي، وسيأتي الحَدِيْث بنفس المعنىٰ، والحَدِيْثُ الذي ذكرَه اليهودي اختلف العُلَمَاء في لفظِه علىٰ ستة أقوال كما في هذا الأثر: ففي رواية أنَّ الجبال والشجرَ معًا علىٰ إصبعٍ، وفي رواية أن الشجرَ والثرىٰ ـ الثرىٰ: الترابُ ـ، وثلاثةُ رواياتٍ: الشجرُ وحدَه، وروايتان دخل فيهما الجبالُ مع الشجرِ، والثَرىٰ بمفردها، إلىٰ آخر هذه التشكيلات في الألفاظ، فالعُلَمَاء في الحقيقةِ توقَّفوا فيه، قالوا: إن الصَّحَابِي

---

(١) أخرجه البُخَارِيُّ في صَحِيحه، كتاب التفسير، بَابُ قول الله "وما قدروا الله حق قدره"، برقم: (٤٨١١)، ومُسْلِم في صَحِيحه، كتاب صفة القِيَامَةِ والجنة والنار، برقم: (٢٧٨٦)، (٤/ ٢١٤٧).

وهو عبد الله ابن مسعود قال: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضحك تصديقًا لقول الحَبر. والصواب أنا لا بما ذكره اليهوديِّ بأنَّ اللهَ يجعل في الآخرةِ، بل نعتقدُ ما في القُرْآن، وهو أن الأرضَ قبضةُ الله، والسَّماوَاتِ قبضةُ الله، أما هذا التفصيل ففي الحقيقةِ إنَّ فيه إشكالاً حتىٰ في النظرِ العقلي، فقول الصَّحَابِي هذا في ظَنِّه، ما نقول: أخطأَ، ولكن هذا ظَنَّه، والآية إقرارٌ له أن الله يجعلها، ولكن هذا التقسيمات رد عليه، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ [الزمر:٦٧] هذا رد، أي: هذه الآيةُ إقرارٌ له من حيث المعنىٰ العام، أمَّا التفصيل فهي ردٌّ عليه، وهو أن الله يجعل الأرضَ قبضتَه يوم القِيَامَةِ والسَّماوَاتِ مطوياتٍ بيمينه، وهذا الذي يُصدِّقه الحَدِيْث الذي سيأتي.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي روايـة للبخـاري: (يجعـل السـموات علىٰ إصبع، والمـاء والثـرىٰ علىٰ إصبع وسائر الخلق علىٰ إصبع) الحَدِيْث أخرجاه.

ولمُسْلِم عـن ابـن عمـر مرفوعـًـا: (يطـوي الله السـموات يـوم القِيَامَـةِ ثـم يأخذهن بيده اليمنىٰ، ثـم يقـول: أنـا الملـك أيـن الجبـارون أيـن المتكبـرون، ثـم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثـم يقـول: أنـا الملـك أيـن الجبـارون أين المتكبرون).

الشَّـرح

هنا ثلاثة ألفاظ: لفظٌ قرآنيٌ ونبويٌّ، ولفـظٌ جـاء عـن هـذا الحَبر اليهـوديِّ، ولا يمكن أن يُجمَع بينها، فإما أن تكون قبضةَ الله، أو تكون علىٰ إصَبعٍ، فنُقـدِّم مـا في القُـرْآنِ والسُّـنَّةِ الصَحِيحة، اليهـودي أقـره النَّبِـيّ ﷺ مـن حيـث المعنـىٰ العام، أما الآيةُ فهي ردٌّ عليه، ليس في الآيـةِ علىٰ إصبعٍ، الآيـةُ فيهـا قبضـتُه، أمَّـا اللفظ الثـاني الـذي جـاءت (بشـماله)، فهـذه لفظـةٌ شـاذة، وإن كانـت في مُسْـلِم، ولهذا قال العُلَمَاء: هذه لفظة شاذةٌ تفرَّد بها راوٍ في طريقٍ واحـدٍ، والحَـدِيْثُ لـه ستُّ طرقٍ، وليس فيها (بشمالِه)، وإنما فيه (بيدِه الأُخرىٰ)، قال العُلَمَاء: فهـذه الرِّوَايَـة تكـون روايـةً شـاذةً تختلـف مـع بقيـةِ الروايـات، وكـذلك مـع القُـرْآنِ الكَرِيمِ، فالقُرْآن لم يذكر الشمالَ، ولـم يأت حديثٌ آخر فيه ذِكرُ الشمالِ.

فنقول: إن الصَحِيحَ أن (الشِمال) لفظةٌ شاذةُ، ولهـذا البيهقـي رَحِمَهُ اللَّهُ أورَدَهـا ورَدَّها في كتابِ الأسماء والصفات، وكذلك العُلَمَاء ذكروا أنهـا مُعلَّلة، والشـاذُّ هو أن يكون صحَّ طريقُه، ولكن يكون خالف الثِّقةُ من هـو أوثـقُ أو أكثر، فهـذه الرِّوَايَة قد خالفت من هو أكثر وأوثق، وإذا كانت هذه الرِّوَايَة في مُسْلِم، فتكـون هذه الرِّوَايَة من الرواياتِ الشاذَّة في الصَحِيح.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروي عن ابن عباس قال: (ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم).

وقال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد حدثني أبي قال: (قال رَسُوْل الله ﷺ: ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس)، قال: (وقال أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: سمعت رَسُوْل الله ﷺ يقول: ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض).

الشَّرْح

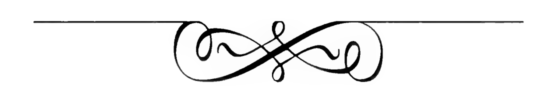
قوله: (وروي عن ابن عباس قال: ما السموات...) هذا من حيث السندِ ضعيفٌ، ولكن من حيث المعنىٰ صَحِيح، فإن الله جَلَّ وَعَلَا عظيم، ولهذا اللفظُ الذي نكرِّره في الصلوات وفي الأذانِ: "الله أكبر". ولم يقل: أكبر من كذا، بل أكبر من كلِّ شيءٍ في ذهنِك، من كلِّ ما يخطر ببالِك، فربنا عظيم، ومخلوقاته كلُّها صغيرةٌ أمامه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

قوله: (وقال ابن جرير: حدثني يونس...) وكلا هذين الأثرين لم يصحَّا من حيث السندِ، وإن كان المعنىٰ صَحِيحاً في الحقيقةِ، أن العرشَ بالنسبة للكون عظيمٌ جداً، والسَّماوَاتُ السبعُ لا تساوي شيئاً بالنسبة للعرشِ؛ لأن اللهَ جَلَّ وَعَلَا قد فضَّل العرشَ بأن جعلَه فوق المخلوقات فلا شك أنه أعظمُ، ولا نستطيع أن نتصور كيفية العرشَ، فهو أمرٌ غيبيٌّ، ولا نعتقد أن العرشَ يحملُ الله، الله هو الذي يحفظُه، فالعرشُ من خلقِ الله، والله الحافظُ للعرش ولما دون العرشِ، فلا نفهم أن الاله يحتاجُ للعرش كما يحتاجُ الإِنْسَانُ لما يجلس



عليه من المخلوقات، فنحن نؤمن بالعرشِ وأنه خَلقٌ مكرَّمٌ فضلَّه الله، خلقَه الله وجعلَه سقفَ المخلوقاتِ، ولا ينبغي لنا أن نسترسلَ في التفكيرِ، والإِنْسَان إذا جاءه الشيطانُ يسترسل في التفكيرِ فليستعذ بالله، يقول العُلَمَاء: إن الشيطانَ الإنسيِّ إذا سحبَك إلىٰ أمر تستطيع أنت أن تصانعَه وتجاملَه وتحسنَ إليه فربما يهتدي، كما قالَ - تَعَالَى -: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون:٩٦]، ولكنَّ الشيطانَ الجنيِّ، أو الشيطانَ الإبليسي لا تدفعه إلا أن تلجأَ إلىٰ الله، فإنك كلما سددَت بَابًا فتح بَابًا آخر، لا تستطيع أن تنتهي معه إلىٰ نهايةٍ، فليس لك إلا أن تنتهي إلىٰ الله ليكفيَك شرَّه، فجاءت الأَحَادِيث بأن الشخص لينته وليستعذ بالله منه.

فالكون كله في داخل العرش، ولا ندري عن كيفية العرش، وربنا ﷻ أعظم من العرشِ ومن المخلوقات كلها. فإذا كانت السَّماوَاتُ كلُّها في يده اليمنىٰ، قبضتُه يوم القِيَامَةِ، والعرشُ في قبضتِه، فلا تساوي شيء بالنسبة للخالقِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن مسعود قال: (بين السماء الدُّنْيَا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم) أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله.



الشَّرح

هذا الحَدِيْث في الحقيقة صَحِيحٌ من حيث المعنىٰ، تصورُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لهذه المسافةِ الكبيرة التي بين السَّماوَاتِ، أي: الإِنْسَان العادي قد لا يستطيعُ أن يتصور هذه الصورةَ، ولكن عندما جاء العصر الحاضر وتقدم علمُ الفلك، ورأىٰ العُلَمَاء المساحاتِ الشاسعةَ في الكون فهذا الحَدِيْث يُؤكِّد هذا المعنىٰ، ولكن الحَدِيْث فيه ضعف من حيث السند، ولكن من حيث المعنىٰ لا شك أن المسافات كبيرة بين السَّماوَاتِ، ولهذا عندما قالَ - تَعَالَى -: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦] أقسمَ بمواقع النجومِ، والنجومُ مبثوثةٌ في أعماقِ السماء، ومواقعها بعيدةٌ جداً، وعندما أقسم بها أقسم اللُه بمواقعها، وأخبرنا أنذَ هذا القسمَ عظيم؛ لأن مواقعَها بعيدةً جداً، ولكنَّ الإِنْسَانَ لا يستطيعُ أن يتصوَّر إلا إذا أصبحَ لديه قدرةَ علىٰ أن ينظر في مخلوقاتِ الله، فعلماءُ الفلك ذكروا أن مواقعَ النجوم في السماءِ في أبعادِ سحيقةٍ جداً، وحتىٰ إنهم جعلوا وسيلةَ المقياس بالسُّنَّةِ الضوئية، وليس بالسُّنَّةِ الحركيةِ والانتقالِ من مكانٍ إلىٰ مكان، لشدةِ بُعدِّها للكواكبِ والنجومِ في الفضاء.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

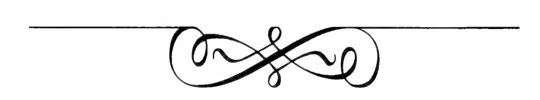
ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي -رحمه الله تَعَالَى- قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (قال رَسُوْل الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورَسُوْله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلىٰ سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله - تَعَالَى - فوق ذلك، وليس يخفىٰ عليه شيء من أعمال بني آدم) أخرجه أبو داود وغيره.



الشَّرح

هذا الحَدِيْث كسابقِه من حيث ضعف السند، ولكن - والله أعلم - ربما أنه مع كثرةِ الطُرقِ يرقىٰ إلىٰ درجة القبولِ، ولكن العُلَمَاء ذكروا أن في سنده عبد الله بن عميرة، وفيه جهالةٌ ولا يعرف له سماعٌ من أحنفِ بن قيس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي روىٰ عنه الحَدِيْث.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير قَولِه - تَعَالَى -: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧]

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ، لم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه، ونزل القُرْآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رَسُوْل الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السموات في اليد اليمنىٰ، والأرضين في الأخرىٰ.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال، وفيه نظر، وقد بينا ذلك.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: (كخردلة في كف أحدكم).

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلىٰ السماء.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلىٰ الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلىٰ سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

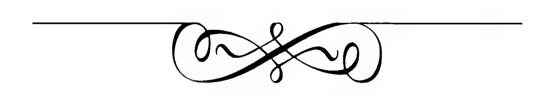
السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء مائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السموات أسفله وأعلاه خمسمائة سنة والله أعلم.



هكذا منهجُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر بعد أن يوردَ النصوصَ المَسَائِل التي استنبطَ مما تقدم من النصوص.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (بَابُ قول الله - تَعَالَى -: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، أي: من الأَحَادِيث والآثار في معنىٰ هذه الآية الكريمة.



الشَّرْح

هذا عنوان البَابُ، وهو ختامٌ جميلٌ من المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد ختمَ الكتابَ بهذه الآية الكريمةِ، وهو يدلُّ علىٰ أن الإِيمَان والتَّوْحِيد يقومان علىٰ تعظيمِ الله جَلَّ وَعَلَا، فالذي لا يُعظِّمُ الله ولا يقدرُ الله فإنه يقع في محارمِه، ولا يقوم بحقوقِ الله.

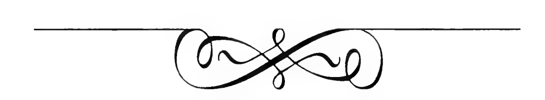
فالتَّوْحِيد قاعدتُه تعظيمُ الله، واليهودُ والنَّصَارَىٰ أهلُ الكتاب وكذلك قريش عندما لم يُعظِّموا الله أشركوا مع اللهِ غيره، وهذا سببُ انحرافِهم، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، ثم يذكر من صفةِ كمالِه وعظمتِه جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ [الزمر:٦٧].

فنحن نتعامل مع ربٍّ قادرٍ عظيم هو الله جَلَّ وَعَلَا، السَّماوَاتِ بما فيها من كواكبَ ونجومٍ مطويات بيمينه يوم القِيَامَةِ، ولكن كم من النَّاس من يثقُ في وعدِ الله ووعيدِه، كم من النَّاس مَن يتعامل مع الله بهذه القاعدة، الإِنْسَانُ لا يتحرَّك بحيلته وبقدرته، الكون كلُّه بيدِ الخَالِقِ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [البقرة:٢٨٤]، فينبغي أن ترتبط وأن تتعلقَ بالله صاحب المُلك -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -

الكونُ كلُّه ملكُه، والخلقُ كلُّهم عبيدُه، والله قادرٌ علىٰ ما يريد. فالتَّوْحِيدُ مُرتبطٌ بتعظيمِ الله وبتقديرِه، ولا يحدث انحرافُ إلا إذا لم نُقَدِّر اللهَ حقَّ قدرِه، يقع الإِنْسَان في ترك الطاعةِ إذا لم يعظم الله، ولا يقع في المعصية إلا إذا لم يُعظِّم اللهَ، ولا يقع في فجور إلا إذا لم يُعظِّم الله، وهكذا كلُّ عملٍ من أعمال المعاصي سببُه عدمُ تعظيمِ لله ﷻ، فهذه القاعدةُ هي القاعدةُ التي يقوم عليها بناءُ التَّوْحِيد، ولهذا قال ابن عباس ﵄: (العلمُ علمان: علم بالله، وعلمٌ بشرعه) فقال: العلمُ بالله ذلك الذي ينتفع به العبدُ، أما العلمُ بالشرعِ يأتي تبعًا، فكم من النَّاس يعرف الأحكامَ الشرعيةَ ولكن لا يُقدِّر الله، فيقعَ في الحرام، ونسمعُ أحيانًا وإن كان نادراً عن بعض من يُكلَّفون بالقضاءِ، -والقضاءُ يمثل ربَّ العَالَمِينَ في حكمِه -، ولكنه مع ذلك يتجرأ لأن يحكمَ بالباطل مقابلَ مالٍ يبيعُ به آخرتَه، هو يعرف أنه باطلٌ وحرامٌ؛ لأنه لا يعرف الله، لو عرف الله ما فعل هذا. فالتَّوْحِيدُ يعرفك بخالِقك من خلال أسمائه وصفاته، ومن خلالِ مخلوقاته، هذا الكونُ كلُّه ملكُه، فالله يريد أن يعرفَك بعظمتِه، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

علماءُ الفلك يقولون: السَّماوَاتِ مملوءةٌ بالكواكب والنجومُ التي لا تُحصىٰ ولا تعدُّ، حتىٰ إن بعضَ النجومِ مثل الشمسِ مائة مرة، يقولون: نجمُ الشِّعرىٰ مثلُ الشمسِ مائةَ مرةٍ، ولكن لبعدها نراها صغيرةً، يقولون: لو عددنا ما علىٰ سواحل البحارِ من الرمل نستطيع أن نعد الكواكبَ والنجوم!. أي: أن عددَ الكواكب والنجوم تُقدر بعدد ما علىٰ سواحل البحار من الرمال!، ما تستطيع أن تعدَّ. هذه كلها تكون يوم القِيَامَةِ مطوياتٌ بيدِ الخَالِقِ ﷻ، فأنت تتعاملُ مع عظيم، ما تتعامل مع مخلوقٍ، المخلوقُ مهمَّا بلغت مكانتُه يمرضُ ويعجزُ ويجبن ويموت ويجوعُ ويفتقر، فلا تتوكل إلا علىٰ الخَالِقِ، ﴿وَتَوَكَّلْ

عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]. فالتَّوْحِيد يغرسُ في قلوبنا هذه المعاني، ما لم نصل إلىٰ درجةِ اليقين يكون في توحيدنا نقصٌ وشائبة، فهذه الآية تعلِّمنا عظمةَ الله وكمالِ قدرتِه ﷻ، هذه قضيةٌ غيبيةٌ، فإن لم تتعامل معها من منطلقِ الثقةِ والإيمَان لا تستفيد في هذا الجانبِ شيئـًا، وحياةُ الماضين من القصص العجيب في كمال التَّوْحِيد واليقين تدلُّنا علىٰ أنه هناك من استطاع أن يصلَ إلىٰ هذه المرتبة أو قريبـًا منها من عبادِ اللهِ الصَّالِحِينَ.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال العماد ابن كثير -رحمه الله تعالى-: يقول تعالى: ما قدر المُشْرِكُونَ الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق عظمته.

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

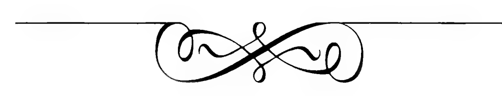


الشَّرح

هذا تفسيرٌ للآيةِ أنه من آمن بالله وعظَّمه فقد قدَّر اللهَ حقَّ قدرِه، والذي لم يؤمن بالله لم يُقدِّر اللهَ حقَّ قدرِه؛ لأنَّ هذا المسكينَ الذي لم يؤمن بالله جاهلٌ بخالقِه، وجاهلٌ بحقيقةِ الأمرِ، يظنُّ إنما هي أرحامٌ تدفعُ، وأرضٌ تبلعُ، والحقُّ أن هذا الخلقَ العجيبَ المتقنَ من خلقِ الإِنْسَان يدلُّ على الوحدانية، كيف حافظ الإِنْسَانُ على استمراريتِه، الإِنْسَان يُخلقُ من خليةٍ واحدةٍ، ثم إذا نشأ واستقر تكوَّنت في داخله خلايا أخرى لتستمرَ الحياةُ، مثل البذرةِ تكون حبوباً وثماراً، داخل كلِّ بذرةٍ سرُ الحياةِ، سرُّ الاستمرار، الحبوبُ يزرعُها الزارع، ويأتي بدلَ الحبةِ سنابلُ، وفي كلِّ سنبلةٍ مئاتُ الحبَّات، وكلُّ حبةٍ مرشحةٌ لأن تأتي بمثلها، والذي أودعَ فيها هذا السرَّ هو الله عَجَّلَ، الآن الإِنْسَان يصنع الأرزَ من موادٍ مُعينَةٍ، ولكن لو غرسَ عشرات الأكياس في الطينِ ما تنبت؛ لأنَّ هذه فيها سرُّ حياةٍ، هذا الاستمرارُ في الحياةِ والتنوعِ في المخلوقات،

والتصويرُ المحكَمُ والكونُ المتقنُ دليلٌ علىٰ الوحدانية، وكذا حاجات الإِنْسَانِ كلِّها موفرةٌ: ليلٌ يسكنُ فيه، نهارٌ يتحرَّك فيه، مطرٌ ينزل عليه، بحارٌ عن طريقها تتبخر المياه لتُحمل إلىٰ كل مكان، ولكن تتبخرَ ولا ينزل المطرُ؛ لأن نزول المطر ليس من أجل البخارِ، بل لقدرةِ الله.

بعض النَّاس يأتي وينكبُّ علىٰ شهوته أعوامـًا ثم يرحل، وهو لا يدري لماذا جاء ولماذا رحلَ؟، هذا يشبه الحيوانَ!، فالكونُ المُتقنُ العجيبُ خلقُ الله وملكُه ﷻ، والله علىٰ كل شيء قدير لا يعجزِه شيءٌ، هو الذي يعطي النَّاس ويجيبُ دعواتهم ويقضي حاجاتِهم، فهذا الإدراكُ يجعل الإِنْسَان يثقِ في الله ﷻ، ولكن الذي لا يُقدِّرُه حقَّ قدرِه يجهلُ حقيقةَ اللهِ وعظمتِه، فيقع إمَّا في الشِّرْكِ بالله ﷻ، وإما في تركِ أوامرِه والوقوعِ في نواهِيه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السَّلَف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا البَابُ، قال: ورواه البُخَارِيُّ في غير موضع من صَحِيحه والإمام أحمد ومُسْلِم والترمذي والنسائي كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه.

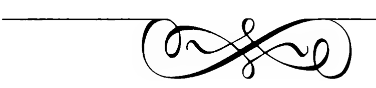
قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله قال: (جاء رجل من أهل الكتاب إلىٰ النَّبِيّ ﷺ، فقال: يا أبا القاسم،أبلغك أن الله - تَعَالَىٰ - يجعل الخلائق علىٰ إصبع،والسموات علىٰ إصبع،والأرضين علىٰ إصبع،والشجر علىٰ إصبع،والثرىٰ علىٰ إصبع،وسائر الخلائق علىٰ إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك رَسُوْل الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر) قال: وأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية. وهكذا رواه البُخَارِيُّ ومُسْلِم والنسائي من طرق عن الأعمش به.



الشَّرْح

الحبرُ وصفٌ لعلماءِ اليهودِ، يُطلق علىٰ العالِم: الحَبرُ، وقد يُطلق في الإِسْلَام؛ لأنَّ معناه واحدٌ، فجاء هذا الحَبرُ فذكر للنبيِّ ﷺ هذا الكلام، معنىٰ الكلامِ صَحِيحلإ، ولكنَّ مفرداتِ الكلامِ فيها إشكالٌ، أنزل اللهُ الآيةَ إما أن تكون رداً علىٰ هذه التفصيلاتِ، وإمَّا أن تكون بيانـًا للحقيقةِ كما هي: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ

بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر:٦٧] وستأتي أحاديث بهذه المعنىٰ، واعتقادُنا ليس هذا التفصيلَ، بل أنَّ الله يجعل الأرض قبضتَه يومَ القِيَامَةِ، والسَّماوَاتِ تُطوىٰ بيمينه ﷻ، أما هذه التفريعات لا نردُّها ولا نجعلُها هي المعتقدَ، نأخذ العقيدةَ من القُرْآنِ والسُّنَّةِ مباشرةً، فالنَّبِيُّ ﷺ أقرَّه علىٰ الحقيقة العامةِ، وهي إثباتَ صفاتٍ لله ﷻ، أما التفصيلُ فالقُرْآن الكَرِيمُ والأَحَادِيثُ تذكر القبضةَ واليدَ، وأما تفصيل هذا الحبرِ فالأَحَادِيث مختلفةٌ فيه، وأمَّا جعلُ الشجرِ علىٰ إصبعٍ، وجعلُ الأرضينِ علىٰ إصبعٍ، والثرىٰ علىٰ إصبعٍ، فهذه كلُّها الأرض، فبالبحث في ثنايا الحَدِيْث نجد هناك شيئًا من التفصيلات التي الأولىٰ منها قبولُ الآيةِ القُرْآنية، أو الأَحَادِيث النبويةِ في هذا المجال كما سيأتي من أحاديثَ في الصَحِيحِين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر حدثنا أبو كدينة عن عطاء عن أبي الضحىٰ عن ابن عباس قال: (مر يهودي برَسُوْل الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات علىٰ ذه وأشار بالسبَابُة، والأرض علىٰ ذه والجبال علىٰ ذه وسائر الخلق علىٰ ذه كل ذلك يشير بأصابعه، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]. وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحىٰ مُسْلِم بن صبيح به، وقال: حسن صَحِيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البُخَارِيُّ: حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد ابن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (سمعت رَسُوْل الله ﷺ يقول: يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟) تفرد به من هذا الوجه. ورواه مُسْلِم من وجه آخر.



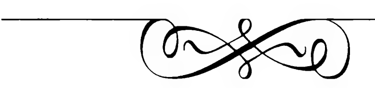
الشَّرح

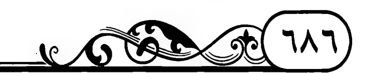
هذا هو لفظُ النَّبِيِّ ﷺ: (يقبضُ الله الأرضَ ويطوي السماء بيمينه)[1]، ونحن نعتقدُ اللفظَ النبويَّ، أما ما قاله الحبر فإنه من حيث المعنىٰ صَحِيح، ولكن التفصيلات هي التي لم يرِدُ فيها، الأَحَادِيثُ أجملت ما فصلَّه اليهودي،

(١) أخرجه الشيخان في صَحِيحيهما ـ البُخَارِيُّ، في كتاب الرقاق، بَابُ يقبض الله الأرض، برقم: (٦٥١٩)، ومُسْلِم في صَحِيحه، كتاب صفة القِيَامَةِ والجنة والنار، برقم: (٢٧٨٧)، (٤/ ٢١٤٨).

فنحن نعتقدُ ـ والله أعلمُ ـ أنَّ الآيةَ جاءت رداً عليه في التفصيلِ، لا في حقيقِته.

قولُ ابنِ مسعود رضي الله عنه: "أن الضحكَ كان تصديقـًا للحبرِ"،نقول: وردَت طرقٌ كثيرةٌ فبعض الرُّواةِ ذكر هذه اللفظةَ، وبعضُهم لم يذكرها، لا نقول: إنها شاذةٌ؛ لأنها إذا جاءت من أكثرِ من طريقِ، وكلُّهم حفَّاظٌ وثقاتٌ، فنحن نقبلُها، ولكن تكون من ظَنَّه رضي الله عنه،لا نكذِّبُه؛ لأنه ما نُقل خبراً، وإنما قال كما اعتقد هو، يظَنُّ أنَّ الرَسُوْلَ صلى الله عليه وسلم ضحكَ تصديقـًا له، فنحن نقول نعم، صدَّقه في القضيةِ عمومـًا، أما التفصيلاتُ فالآيةُ تردَّ عليه، ولو كانت هذه القضيةُ صَحِيحةٌ ما قرأ الرَسُوْلصلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] فهذه ردٌ عليه بلا شك؛ لأنه لو لم يكن هناك شيءٌ يحتاجُ إلى الردِّ ما قرأ هذه الآية.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال البُخَارِيُّ في موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمي القاسم بن يحيىٰ عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (إن رَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إن الله - تَعَالَى - يقبض يوم القِيَامَةِ الأرض، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك) تفرد به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مُسْلِم من وجه آخر، وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول، فقال: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر: (أن رَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧]، ورَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر، يمجد الرب تعالىٰ نفسه، أنا الجبار المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز أنا الكريم، فرجف برَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنبر حتىٰ قلنا ليخرن به) انتهىٰ.

قوله: (ولمُسْلِم عن ابن عمر) الحَدِيْث كذا في رواية مُسْلِم، قال الحميدي: وهي أتم، وهي عند مُسْلِم من حديث سالم عن أبيه، وأخرجه البُخَارِيُّ من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (إن الله يقبض يوم القِيَامَةِ الأرضين وتكون السماء بيمينه)، وأخرجه مُسْلِم من حديث عبيد الله بن مقسم.



الشَّرح

هذه كلُّها طرقٌ لهذا الحَدِيْثِ، وهي تتحدث عما سيحدُث يوم القِيَامَةِ: أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سيقبض السَّماوَاتِ بيده، والأرض بيدِه عَزَّ وَجَلَّ، ثم يقول: (أنا الملكُ،

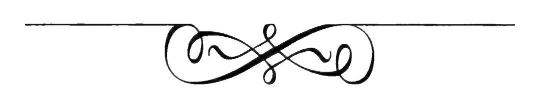
أنا الجبارُ، أين الملوكُ، أين الجبارون) وقد ورد في كتاب الله قولُه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] فلا يجيبُ أحدٌ فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر:١٦]، فهذا الحَدِيْثُ جاء لبيان ما سيحدثُ بعد انتهاء الخلقِ، بعد أن يموت النَّاسُ كلُّهم، ويأتي بعد الموتِ الحسابُ في الآخرةِ، ثم قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٧﴾ [غافر: ١٦-١٧]، فالله هو الذي سيحاسبُ النَّاسَ، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، كلُّ حركةٍ وكلُّ فعلٍ وكلُّ قولٍ عند الله محفوظٌ، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩﴾ [الكهف:٤٩]، نسيَ الإِنْسَانُ ولكن الله لا يَنسىٰ كما قالَ - تَعَالَى -: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ [المجادلة:٦]، يومُ القِيَامَةِ يُفاجأ الإِنْسَان بعملِه، يقول بعضُ العُلَمَاءِ: لو فَتَّ إنسانٌ بعرة بيمينِه لجاء يومَ القِيَامَةِ ليُسأل عنها، لماذا فَتَتَ البعرةَ؟، من أمرَك؟، ماذا تريدُ؟ أي: كلُّ حركةٍ تعملها تحاسبُ عليها يومَ القِيَامَةِ، أردت خيراً أو أردت شراً، وهذا لكمالِ قدرةِ الله ﷻ، واللهُ يومَ القِيَامَةِ سريعُ الحساب، يُحاسب النَّاسَ كلَّهم في وقتٍ واحدٍ قصيرٍ جداً، فكما يرزقُهم في وقتٍ واحدٍ ويسمع دعاءهم في وقتٍ واحدٍ كذلك الحسابُ يومَ القِيَامَةِ.

فكلَّما أردت أن تعملَ عملاً أو تقول قولاً في أمرٍ ما حاسِب نفسك: أنا سأقول وسأنساه ولكن سيُحفظُ عند الله، ففي قولِه - تَعَالَى -: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، لو حاسبَ اللهُ بهذا لهلك النَّاسُ، ولكن جاءت الأَحَادِيث تدلُّ علىٰ أنَّ الله قد عفا لهذه الأُمَّةِ عما حدَّثت

بها أنفسها ما لم تتكلَّم به أو تعمل به، فإن خرج الكلامُ من الصدر علىٰ اللسانِ حاسبَك، وإن بقي في صدرِك ما تحاسبُ. فالحسابُ يومَ القِيَامَةِ دقيقٌ، والمحاسِبُ هو الله، معك رقيبٌ من الملائكة، والله لا يحتاجُ إلىٰ أن يجعلَ رقباءَ، ولكن لقيام الحجَّةِ عليك من خلال هذه الملائكةِ، من خلال ما يكتبون عليك من أعمالٍ.

فالقِيَامَةِ أمرُها عظيم، وشأنُها كبيرٌ، والنَّاس كلُّهم إليها قادمون، والذين ماتوا قد قدَّموا الأعمالَ، ونحن لا ندري متىٰ نموت، يأتي شخصٌ يدعو بأسمائنا في هذه البلدةِ لا يجدُ من يقول: نعم؛ لأن الذين قبلنا ماتوا، ونحن سنموتُ. فالإِنْسَان لا ينبغي أن يوسوس بالبقاءِ، ليس أحدٌ يبقىٰ، الأنبِيَاءُ أشرفُ النَّاس ماتوا، وأنت لابدَّ ولا محالةَ ميتٌ، فقدِّم لنفسِك وحاسبها الآن، لا تتكلَّم إلا كلمةً ترجو بها ما عند الله، لا تتحرك إلا حركةً ترجو بها ما عند الله، سوف تحاسبُ علىٰ حركتك بيدك وحركتِك بعينك وحركتِك بأذنك وهكذا.

فينبغي للإنسان أنه دائمـًا يستشعرُ رقابةَ الله عليه، ويتصوَّر الوقوفَ يوم القِيَامَةِ بين يدي الله ﷻ، ويتصوَّرُ الحسابَ، والكتابُ عندما يُنشر يومَ القِيَامَةِ من ينفعُك؟، كلُّ إنسانٍ يتخلَّىٰ، الأنبِيَاءُ يتخلُّون آدمُ عليه السلام يتخلَّىٰ، يقول: وهل أخرجكم من الجنةِ إلا أبوكم. ونوحٌ عليه السلام يعتذر، كلُّ أمةٍ جاثيةٍ، وكلُّ نبيٍ يجثو مع أُمَّته، وكلُّ نبيٍ يخاف علىٰ نفسِه من عملٍ واحدٍ عملَه، فكيف بالإِنْسَان الذي لا يدري ماذا عملَ من أعمالٍ، نسأل الله المغفرةَ واللطفَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: وهذه الأَحَادِيث وما في معناها تدل علىٰ عظمة الله وعظيم قدرته، وعظم مخلوقاته، وقد تعرف -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - إلىٰ عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تدل علىٰ كماله، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل علىٰ إثبات الصفات له علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسُّنَّةِ، وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان واقتفىٰ أثرهم علىٰ الإِسْلَام والإِيمَان.



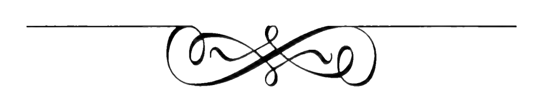
الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مُحصَّلُ ما في الآياتِ والأَحَادِيث إثباتُ صفات الله علىٰ ما يليقُ بجلالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا ينبغي للإنسان أن يتخيل لله شيئًا، هذا فوق طاقةِ العقلِ البشري، نحن في حياتنا أشياءٌ كثيرة نرىٰ نتائجها وآثارَها، ولا نستطيع أن نتصوَّرها، هذا العقلُ الذي به نفكِّر ليس له وزنٌ وليس له صورةٌ وليس له شكلٌ، أي: ليس له شيء يدلُّ عليه، الإِنْسَان يوزنُ اليومَ فيصبح كذا كيلوا، وفي اليوم الثاني لو فقد عقلَه فوزنَ؛ ما نقص منه شيءٌ، فأين العقلُ؟ لا ندري.

وكذلك ما حولنا من الجاذبيةِ، أين الجاذبية؟ الشخص إذا رمىٰ شيئًا في الفضاءِ يرجع إلىٰ الأرض، والأرضُ كرويةٌ، أيُّ جهةٍ قذفت شيئًا إلىٰ السماء يرجعُ إلىٰ الأرض، ولكنَّ الأشجارَ تنمو مخالفةً للجاذبية؛ لماذا؟ لماذا الجاذبيةُ لا تعيدُها لأسفلَ، لا تدري، هذا نظامُ الله، الذي خلق الجاذبيةَ هو الذي خلق الأشجارَ، وكذلك الكهرباءَ، ما هو الذي يجري في الأسلاك ما تدري، النَّاس إنما يرون فقط الأثرَ فقط، فالأشياءُ في حياة النَّاس كثيرٌ منها لا

تُعرف، ولكنا نُصدِّق منها لما نرىٰ من آثارها، ولله المثل الأعلىٰ، فنحن نُعظِّم الله ونثبت له صفاتِه، ولكن لا ينبغي أن نتخيل صورةً أو كيفيةً لها؛ لأنها خارجة عن قدرةِ الإنْسَان، والعقل البشري ما أُعطي قدرةً علىٰ أن يُدرك الغيبياتِ.

والدِّين علىٰ قسمين: قضايا غيبيةٌ وقضايا تشريعيةٌ. التشريعيةُ تفكر فيها وتستنبطُ لتعملَ بها، والقضايا الغيبيةُ تسلِّم فقط، ولهذا جاء في سورة البقرة في أول صفاتِ المُؤْمِنين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] أي التصديقُ والتسليمُ، أما العقلُ إذا دخلَ في قضايا الغيبِ فسدَ وأفسدَ؛ لأنه ليس هذا مجالُه، أرأيتم لو جاء إنسان نجَّارٌ أو سباكٌ يعالجُ إنساناً مريضاً مكان الطبيب، وهو بشرٌ وهذا بشر، ماذا يحدث؟ يفسدُه، وقد يقتلُه؛ لأن هذا ليس تخصُّصُه، وكذلك العقلُ ليس تخصصه أن يخوضَ في قضايا الغيب، تخصصُه قضايا الشهادة بحدودِ، أما الغيبُ فإنما مجاله التسليمُ وعدم الخوضِ فيه، وكل من خاضَ فيه فقد يُفتَن في دينِه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتأمل ما في هذه الأَحَادِيث الصَحِيحة من تعظيم النَّبِيّ ﷺ ربه بذكر صفات كماله علىٰ ما يليق بعظمته وجلاله، وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل علىٰ عظمته، وتأمل ما فيها من إثبات علو الله - تَعَالَى - علىٰ عرشه، ولم يقل النَّبِيّ ﷺ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنها تدل علىٰ تشبيه صفات الله بصفات خلقه. فلو كان هذا حقاً بلغه أمينه أمته، فإن الله أكمل به الدِّين، وأتم به النعمة، فبلغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم إلىٰ يوم الدِّين. وتلقىٰ الصَّحَابَة رضي الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله، فآمنوا به وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جَلَّ وَعَلَا كما قالَ - تَعَالَى -: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ [آل عمران:٧]، وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم والأئمة من المحدثين والفُقَهَاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رَسُوْله ﷺ، ولم يجحدوا شيئًا من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد. ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه. بل أنكروا علىٰ من قال ذلك غاية الإنكار، فصنفوا في رد هذه الشبهات المُصَنَّفَات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السُّنَّةِ والجماعة.



الشَّرح

يشيرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ ما حدث في الأُمَّةِ من افتراق بسبب علمِ الكلامِ، فإن قومـًا من العُلَمَاءِ لم يُصيبوا فيما اتخذوه من مناهجَ في الدِّين، فقام فهمُهم للعقيدةِ علىٰ منهجٍ خاطئٍ، والمنهجُ الخاطئُ ينتج عنه نتائجَ خاطئةً، فهناك فئة تُسمىٰ

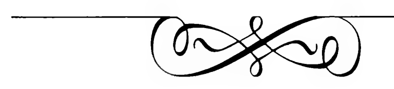
بأهلِ الكلام، وأهلُ الكلام وصفٌ يُطلق علىٰ فئتين كبيرتين من الفرقِ الإسْلَامية: المُعتزلةُ والأشاعرةُ، وأما الماتوردية فطائفة أخرىٰ علىٰ نفس نمط الأشاعرةِ ليس بينهما إلا فرقٌ بسيط، فإذا قيل: أهلُ الكلامِ أُطلِق علىٰ هاتين الطائفتِين، هما قد اتخذا لهما منهجاً يخالفُ ما ورد عن سلَفِ الأُمَّةِ في معرفة قضايا العقيدةِ، فأَدخلوا في العقيدةِ مناهجَ وافدةً من خارج الدِّين، فعندما يُجمَع بين دينِ الله وبين ما وضعه البشرُ ينتج عنه فسادٌ؛ لأنَّ الدِّينَ لا يُفسر إلا بالدِّين، ولا يُعرف إلا من خلال الدِّينِ، فلما أدخلوا منهجاً خارجاً عن الدِّين وجعلوه جزءًا من الدِّين أفسدُوه، بل جعلوه قاعدةً يُقبل من خلالِها بعض قضايا الدِّين أو ترد. فالدِّين أصبحَ محكوماً عليه، والحاكمُ هو الفلسفة اليونانية والمنطقُ اليوناني،وهو علمٌ قد سبق وجودُه الإسْلَامَ بأكثرَ من ثمانمائة سنةٍ، هذا العلمُ اليوناني ادخلوه في الإسْلَام؛ لأنَّ هذه قضايا عقليةٌ، وأكثر الذين تأثروا بهذه المناهج ليس عندهم تأصيلٌ علمي في الكتابِ والسُّنَّةِ، لا يعرفون السننَ أصلاً، لا يعرفون الصَحِيحين، لا تجد في كتبِهم أحاديثَ صَحِيحةً إلا نادراً، يردُّون ما صحَّ من الأَحَادِيثِ إذا كان آحاداً، ويقبَلون أحاديثَ موضوعةً ليس لها أصل، -حتىٰ إن بعضَها ليس له سندٌ - إذا وافق ما يريدون، فمثلاً: قال بعضُهم في بعض كتبِ علم الكلام: إن القُرْآنَ كلامُ الله؛ لأن النَّبِيّ ﷺ قال: (**القُرْآن كلام الله، ومن قال مخلوق فقد كفر**)، لا يوجد هذا القولُ حتىٰ في كتب الموضوعات التي وضعوها علىٰ رَسُوْل اللهِ، تلك التي صنَّف العُلَمَاءُ لها مصنفاتٍ هذا الحَدِيْث ليس فيها، ويردُّون الحَدِيْث الذي في الصَحِيحين؛ لأنه يخالفُ عقولَهَم، فجعلوا عقولَهم هي المقياس.

وفي العصر الحاضر توجد مدرسةٌ حديثة تسمىٰ بالمدرسة العقليةِ، هذه امتدادٌ للمعتزلةِ، وهذه نشأت في مصر علىٰ يدِ جمال الدِّين الأفغاني، ومن طلابه محمد عبده، هذا الإمام المشهور الذي كان في مصر، وكانت له حسناتٌ

في تصَحِيح الأزهر ومسارِه، ولكنه كان عقلانيـاً كشيخِه، بل أقلُّ من شيخه الأفغاني، والشيخ/ محمد رضا، الذي ألفَ: (تفسيرَ المنارِ) هو تتلمَّذ على يد محمد عبده، ولكن تأثر كثيراً بمنهج السَّلَف. وممن تأثر من هؤلاء الشيخ/ محمد الغزالي المشهور صاحبِ الكتبِ المشهورة، يقول في كتابه في السيرةِ: إذا جاء الحَدِيْثُ الصَحِيحُ يخالِف عقلِي ردَدتُه، وإذا جاء الحَدِيْث الضعيفُ يتفق مع عقلي قبِلته. ردَّ عليهم سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الخصائص يقول: أيُّ عقلٍ نجعلُه ميزاناً، فالبشر عندهم عقولٌ كثيرةٌ، اتفِقوا على عقل مثالي حتى نتحاكَمَ إليه، الآن أنتم أنفسكم مختلِفون، واحدٌ يقرِّر قضيةً والثاني يردها، فما عندنا عقل مثالي نتحاكم إليه، العقولُ البشريةُ تختلف، ولكن الوحيَ واحدٌ، فنتحاكم إلى واحدٍ، ما نتحاكم إلى عقولٍ كثيرةٍ، ولهذا علماءُ المعتزلة بعضُهم يُكفِّر بعضاً، بل أحياناً الابن يُكفِّر الأبَ من العُلَمَاءِ، فلو كان العقلُ عاصماً من الزللِ ما كفَّر بعضُهم بعضاً، والغزالي القديم أبو حامد الغزالي قال في مقدمة كتابِه: (المستصفى في علم الأصول): كل من لا يعرفُ المنطقَ لا يُوثقُ بعلمه!. هذا المنطقُ علمٌ بشري، علمٌ جاهلي ليس شرفاً معرفتُه،لم يعرفه حتى الرَسُوْلُ ﷺ ولا الصَّحَابَةُ ولا التابعون ولا الأئمةُ الربعة، فكلُّهم لا يوثق بعلمهم!، وهذه قضيةٌ خطيرةٌ جداً.

فالشاهد أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردُّ على المتكلمين الذين فهموا قضايا الدِّين على ضوءِ عقولِهم، فانحرفوا وأَضلُّوا، وكثير منهم عند موته تابَ وندمَ، ولكن بعد أن ألف الكتبَ الكثيرةَ لإفساد النَّاس، هم لا شك لم يريدوا إفسادَ الدِّين، لا بد أن يكون طالبُ العلمِ إنساناً منصفاً، ليس في نيتهم إفسادُ الدِّين، بل في نيتهم تَنزيهُ الله، ولكنهم أخطئوا، لم يسلكوا الطريقَ الصَحِيح. والمقصدُ سليمٌ، بل اعتمدوا على الوسيلةِ الخاطئة. فالتصَحِيحُ للوسائل لا للمقاصدِ، لا نعتقد

أنهم أرادوا هدمَ الدِّين؛ لأنهم مُسْلِمون، وفيهم أناس كثيرون صالحون. وليس كلُّ من أراد الحقَّ يصيبُه، فلابد أن تحتاط في أن تتبع المنهج الصَحِيح للوصول للحقِ، وهو الوحيُ الذي أنزله الله يعصمُ البشريةَ من الخطأ، هم قالوا في المنطق: آلةٌ تعصمُ الذهنَ من الخطأ. لماذا ما عصمكم أنتم؟ الفلاسفةُ القدماء أرسطو وجماعته لماذا اختلفوا لو كان يعصِم الذهنَ من الخطأ؟ الفلاسفة الإسْلَاميون ـ كما يسمونهم ـ لماذا اختلفوا؟، المُعتزلةُ لماذا اختلفوا؟، فلو كان هذا يعصم الذهن من الخطأ ما اختلفوا، فهذه مناهجُ كلُّها خاطئةٌ، والصَحِيحُ هو إتباع سلفَ الأُمَّة، والوقوف مع النصوصِ، ولكن لا ينبغي لك أن تقفَ مع النصوصِ لتشبه الله بخلقِه. ليس كمثلِه شيءٌ ﷻ. فلتنزِّه اللهَ، وتثبتَ ما جاء في كتابِه أو علىٰ لسانِ رَسُوْله ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال شيخ الإسْلَام أحمد بن تَيْمِيَةَ -رحمه الله تَعَالَى-: وهذا كتاب الله من أوله إلىٰ آخره وسنة رَسُوْل الله ﷺ وكلام الصَّحابَة والتَّابِعينَ وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أنِ الله - تَعَالَى - فوق كل شيء، وأنه فوق العرش، فوق السموات مستو علىٰ عرشه، مثل قَولِه - تَعَالَى -: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ ﴿المعارج: ٣-٤﴾، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥]، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠]، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البقرة:٢٩]، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس:٣] الآية، فذكر التَّوحِيد في هذه الآية، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الرعد:٢]، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٤-٥]، وقَولِه - تَعَالَى -: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا

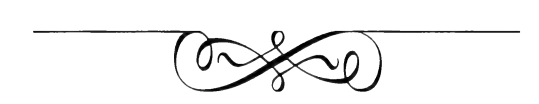
بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٨-٥٩] وقوله - تَعَالَى -: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة: ٤-٥]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤]، فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته، وقوله - تَعَالَى -: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ ﴿الملك: ١٦-١٧﴾، وقوله - تَعَالَى -: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت:٤٢]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الزمر:١]، وقوله - تَعَالَى -: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشَّرح

هذه ثماني عشرةَ آيةٍ أوردها رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبيِّن أن القُرْآنَ الكَرِيم كلَّه يصف الله بأنه فوقَ عرشِه، وأنه في السماء، وهذا علىٰ خلافِ مُعتقدِ المُتكلِّمين، فإن معتقدَهم اعتقادٌ ينتهي به إلىٰ جحدِ ربِّ العَالَمِينَ، كل من قرأ القُرْآن وقلبُه سليمٌ يخرج باعتقادٍ أنَ الله فوق عرشِه كما ورد في كتابه -تعالىٰ-، فهذا مفهومُ الآيات، وختمها بقصة فرعونَ عندما جاءه مُوْسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فدعاه إلىٰ الإيمَان، وكانت دعوةُ مُوْسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حديثَ النَّاس وحديثَ المجتمعِ والبيوتِ والأُسرِ،

فأراد فرعون بخبثِه ومكرِه أن يصرف النَّاس عن قضيةِ مُوْسَىٰ، فأعلن إنني سأُنشِئ وأبني صرحاً كبيراً أي حصناً طويلاً، أطَّلع إلىٰ إلهِ مُوْسَىٰ في السماء حتىٰ أرىٰ هل هو في السماءِ أو ليس في السماءِ؟، فجاء بالبنَّائين من كل مكان وبأنواع الحجارةِ وأسوارِ الحجارة والسلالم، وقال: هيا ابنوا الصرحَ لعلي أطَّلع إلىٰ إله مُوْسَىٰ وإني لأظَنَّه كاذباً، وفرعون شخصٌ غير عاقل، وعوامُّ النَّاس جهلةٌ، أراد به إشغال النَّاس عن قضية مُوْسَىٰ، وهذه تحدثُ كثيراً في المجتمعات تأتي قضيةٌ مهمةٌ، فتُعملُ قضيةٌ أخرىٰ لإشغال النَّاسِ بها عن القضيةِ المهمةِ، هذه بدأت من ذلك التاريخ، ففرعون يدري أين السماءُ، وهل يلحقُ بالسماء، ولكن أراد هو أن يشغلَ النَّاس بهذه الأطروحات الكاذبةِ.

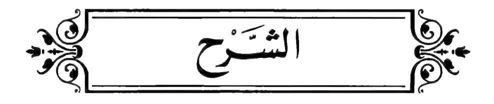
فالشاهد يقولُ العُلَمَاءُ: هذا فرعونُ الطاغيةُ اعتقد أن ربَّ مُوْسَىٰ في السماءِ، هكذا مفهوم النَّاسِ في خالقِهم أنه في السماءِ، ولكن ليس معنىٰ أنه في السماء أنه في سماءِ المخلوقات، بل تنتهي المخلوقاتُ بالعرش، وليس فوق العرشِ إلا الخَالِقُ ﷻ، أمَّا المخلوقات فإنها العرشُ فما دونه، وأما ما فوق العرشِ فليس هناك إلا الله ﷻ.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: وقد ذكر الأئمة -رحمهم الله تَعَالَى- فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصَّحَابَة والتَّابِعِينَ، فمن ذلك: ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصَحِيحة: (عن أم سلمة زوج النَّبِيّ ﷺ أنها قالت في قَولِه - تَعَالَى -: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، قالت: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر) رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح، قال: وثبت عن سفيان بن عيينة -رحمه الله تَعَالَى- أنه قال: (لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرَسُوْل البلاغ وعلينا التصديق)، وقال ابن وهب: (كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأطرق مالك رَحِمَهُ اللَّهُ وأخذته الرحضاء، وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه) رواه البيهقي بإسناد صَحِيح عن ابن وهب، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضـًا ولفظه قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمَان به واجب، والسؤال عنه بدعة).



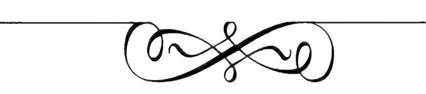
الشَّرح

هذا الأثر عُزِي إلى ثلاثةِ أشخاص: عُزي إلى أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وعُزِي إلى ربيعة بن عبد الرحمن، وعُزي إلى الإمام مالكٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

أمّا العَزوُ إلىٰ أم سلمة فقال ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يصح عنها لا موقوفاً ولا مرفوعاً. فلم يصح عن أمِّ سلمةَ، وقول الشَّارِحِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بأسانيدَ صحاحٍ)؛ لأنه أراد المجموعَ.

والعَزوُ إلىٰ ربيعةَ بن عبد الرحمن ورد عنه إسنادان، ولهذا قال ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه ثبت عن ربيعةَ. وكذلك الإمامُ مالكٍ، قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أحد الطرق الثلاثةِ: إن إسنادَه جيدٌ. وإن كانت لا ترقىٰ إلىٰ الصحةِ تكون في درجةِ الحسنِ، فالعزو إليهم في درجةِ الحَسنِ.

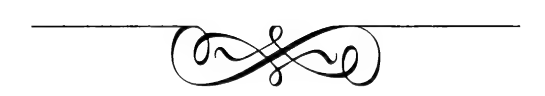
واشتهر هذا الأثرُ عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظ غير هذا، وهو أنه قال: (الاستواءُ معلومٌ، والكيف مجهول، والإيمَان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ) أصبحَ هذا الأثرُ قاعدةً لمذهبِ أهل السُّنَّةِ والجماعةِ، (الاستواءُ معلوم) أي: معنىٰ الاستواءِ في اللغة معلومٌ، هذا هو المراد، ليس المرادُ أن معنىٰ الاستواءِ الواردِ في القُرْآن معلومٌ معروفٌ، ومعنىٰ: (والكيفُ مجهول): أي كيفيةُ استواءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مجهولةٌ، الإيمَانُ به واجب، والسؤال عنه بدعةٌ؛ لأنَّ العقل البشريَ لا يدركُه ولا يستطيع أن يُفتيك فيه، فلهذا لا ينبغي أن يُسأل أسئلةً ليس للعقل فيها قدرةٌ، أي ليس ذلك من مجال العقلِ، ولا يسأله إلا أصحابُ البدع، أمَّا العقلاء فلا يسألون في قضايا فوقَ طاقة العقل وقدرته، وخارجة عن نطاقِه. فهذا معنىٰ: (السؤال عنه بدعةٌ)، وكلُّ قضيةٍ لا تخضع لقدرةِ العقل وفهمه وإدراكه الأسئلةُ فيها من بَابِ الابتداعِ في الدِّينِ، فهذا مرادُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم، لا يحتاج لفظه إلىٰ تفسير ونفوا عنه الكيفية. قال البُخَارِيُّ في صَحِيحه: قال مجاهد: استوىٰ: علا علىٰ العرش. وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] أي: ارتفع. وقال محمد بن جرير الطبري في قَولِه - تَعَالَى -: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] أي: علا وارتفع.



الشَّرح

هذا التفسيرُ من السَّلَف، تفسيرُ مجاهدَ أوردَه البُخَارِيُّ معلَّقًا، ولم يذكره مسنداً، ولكنَّ ابنَ حجرٍ قال: إنه قد وُصِلَ في كتابٍ آخر، فذكره عند الفريابي، فمذهب السَّلَفِ أن الاستواءَ من معناه الارتفاعُ والعُلوُّ، ولهذا يفسرون الاستواءَ في القُرْآن بالعُلوِّ والارتفاعِ -*رحمهم الله جميعاً*-.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وشواهده في أقوال الصَّحَابَة والتَّابِعينَ وأتباعهم، فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

شـــهدت بـــأن وعـــد الله حـــق ... وأنَّ النـــار مثـــوىٰ الكـــافرين

وأنَّ العـــرش فـــوق المـــاء طـــاف ... وفـــوقَ العـــرشِ ربُّ العَـــالَمِينَ

وتحمـــله ملائكـــة شـــدادٌ ... ملائكـــةُ الإلـــه مســـومين

وروىٰ الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناده إلىٰ علي بن الحسين بن شقيق قال: (سمعت عبد الله بن المبارك يقول: نعرف ربنا بأنه فوق سبعِ سمواته علىٰ العرشِ استوىٰ بائنٌ من خلقِه، ولا نقول كما قالت الجهمية). قال الدارمي: (حدثنا حسن بن الصباح البزار حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك، قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوقَ السماء السابعةش علىٰ العرشِ بائنٌ من خلقِه)، وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا والتَّابعون متوافرون نقول إن الله - تَعَالَىٰ ذِكرُه - بائنٌ من خلقِه، ونؤمن بما وردَت به السُّنَّةِ.

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأصول: أجمع المُسْلِمون من أهلِّ السُّنَّةِ علىٰ أن اللهَ استوىٰ علىٰ عرشِه بذاته، وقال في هذا الكتاب أيضًا: أجمع أهل السُّنَّةِ علىٰ أنَّ الله - تَعَالَى - استوىٰ علىٰ عرشه علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز. ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماءِ وعلمُه في كلذِ مكان، ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المُسْلِمون من أهل السُّنَّةِ أن معنىٰ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، ونحو ذلك من القُرْآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السمواتِ بذاته مُستوٍ علىٰ عرشِه كيف شاء. وهذا لفظه في كتابِه. وهذا كثير في كلامِ الصَّحَابَة والتَّابِعينَ والأئمة أثبتوا ما أثبته الله في كتابِه علىٰ لسانِ رَسُوْله علىٰ الحقيقةِ علىٰ

ما يليق بجلال الله وعظمته ونفوا عنه مشابهةَ المخلوقين، ولم يُمَثِّلوا ولم يُكيفوا كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا البَابُ.

وقال الحافظ الذهبي: أول من أنكر أن الله فوق عرشِه هـو الجعدُ بـن درهـم وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبدالله القسري، وقصـته مشـهورة، فأخذ هذه المقالـةَ عنـه الجهـمُ بـن صـفوان إمـامُ الجهميـة فأظهرهـا، واحـتجَّ لهـا بالشبهاتِ، وكان ذلك في آخر عصرِ التَّابِعينَ، فأنكرَ مقالتَه أئمةُ ذلك العصر مثل: الأوزاعي وأبي حنيفة ومالك والليث ابن سعد والثـوري وحمـاد بـن زيـد وحمـاد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم مـن أئمـة الهـدىٰ، فقـال الأوزاعـي إمـامُ أهـل الشام علىٰ رأس الخمسين ومائة عند ظهورِ هـذه المقالـة مـا أخبرنـا عبـد الواسـع الأبهري بسنده إلىٰ أبي بكر البيهقي أنبأنا أبو عبـد الله الحـافظ أخبـرني محمـد بـن علي الجوهري ببغداد حدثنا إبراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثيـر المصيصـي سمعت الأوزاعي يقول: كنَّا والتابعون مُتوافرون نقول: إنَّ اللهَ فوق عرشِه ونؤمنُ بما وردَت به السُّنَّةُ من صفاتِه. أخرجه البيهقي في الصفات ورواته أئمة ثقات.

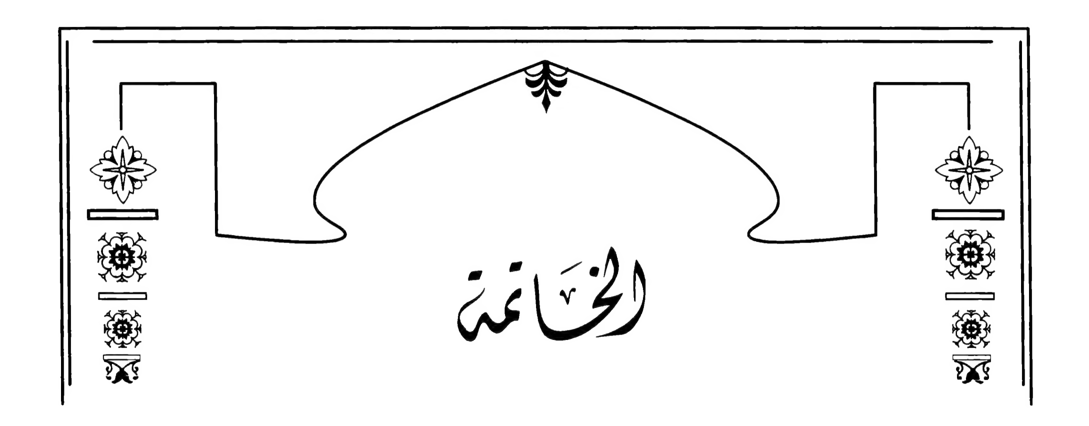
وقال الإمامُ الشافعي -رحمه الله تَعَالَى-: لله أسماءٌ وصفاتٌ لا يسعُ أحداً ردَّها، ومن خالفَ بعد ثبوتِ الحجةِ عليه كفرَ، وأما قبل قيامِ الحُجةِ فإنه يعذرُ بالجهلِ، ونُثبتُ هذه الصفات وننفي عنه التشبيهَ كما نفىٰ عن نفسِه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١] من فتح الباري.

قوله: (عن العباس بن عبد المطلب) ساقَه المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ مختصـراً، والـذي في سنن أبي داود: عن العباس بن عبد المطلب قال: (كنت في البطحـاء في عصـابة فيهم رَسُوْل الله ﷺ فمرَّت بهم سحابةٌ فنظر إليها فقال: مـا تسـمُّون هـذه؟ قـالوا: السحابَ، قال: والمُزن؟ قالوا: المُـزن. قـال: والعنَـان؟ قـالوا: والعنَـان) قـال أبـو داود: لم أتقن العنانَ جيداً، قال: (هل تدرون ما بـين السـماء والأرضِ؟ قـالوا: لا

ندري. قال: إن بُعدَ ما بينهما إمَّا واحدةٌ أو اثنتان أو ثلاثةٌ وسبعون سنةٍ، ثم السماءُ التي فوقها كذلك، حتىٰ عدَّ سبعَ سموات، ثم فوق السابعةِ بحرٌ بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماءٍ إلىٰ سماءٍ، ثم فوق ذلك ثمانيةَ أوعالٍ بين أظلافهم وركبِهم مثلُ ما بين سماءٍ إلىٰ سماءٍ، ثم علىٰ ظهورِهم العرشُ بين أسفله وأعلاه كما بين سماءٍ إلىٰ سماءٍ، ثم الله - تَعَالَى - فوق ذلك) وأخرجه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن، وروىٰ الترمذي نحوه من حديث أبي هُرَيْرَةَ وفيه: (ما بين سماء إلىٰ سماء خمسمائة عام) ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائةِ عام هو علىٰ سيرِ القافلة مثلاً ونيف وسبعون سنة علىٰ سيرِ البريدِ؛ لأنه يصحُّ أن يقال بينا وبين مصر عشرون يوماً باعتبارِ سيرِ العادة وثلاثة أيام باعتبارِ سيرِ البريدِ، وروىٰ شريك بعض هذا الحَدِيْث عن سماك فوقَفَه، هذا آخرُ كلامِه.

قلتُ: فيه التصريحُ بأنَّ الله فوق عرشِه كما تقدم في الآيات المُحكماتِ والأَحَادِيثِ الصَحِيحةِ وفي كلامِ السَّلَفِ من الصَّحَابَةِ والتَّابِعينَ وتابعِيهم، وهذا الحَدِيْثِ له شواهدُ في الصَحِيحين وغيرهما، ولا عبرةَ بقول من ضعَّفه لكثرةِ شواهدِه التي يستحيلُ دفعُها وصرفُها عن ظواهرِها، وهذا الحَدِيْث كأمثاله يدلُّ علىٰ عظمةِ الله وكمالِه وعِظَمِ مخلوقاتِه، وأنه المتصفُ بصفاتِ الكمالِ التي وصف بها نفسَه في كتابِه ووصفَه بها رَسُوْلُ الله ﷺ، ويدلُّ علىٰ كمالِ قدرته، وأنه هو المعبودُ وحدَه لا شريك له دون كلِّ ما سواه. وبالله التوفيق والحمدُ لله ربِّ العَالَمِينَ وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم علىٰ سيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبِه أجمعين.





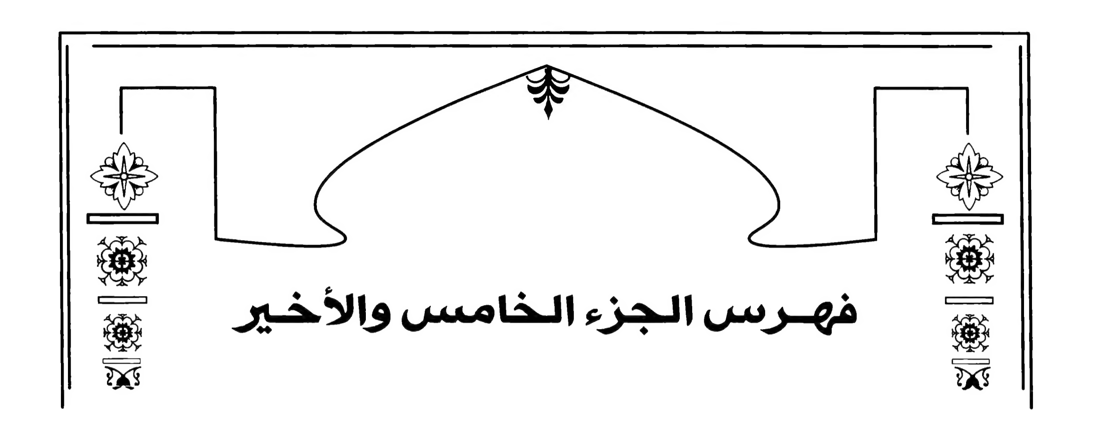
الخَاتمة

انتهىٰ هذا التعليقُ المُباركُ علىٰ كتابِ: (**تيسيرُ العزيزِ الحميدِ**) في الثاني من شهر شعبان عام واحدٍ وعشرين وأربعمائةٍ وألفٍ من الهجرةِ.

فجزىٰ الله شيخنا / **د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي** خيراً، وجزاه عن المُسْلِمين خير الجزاء، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبيِّنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبِه وسلَّم تسليماً مزيداً، والحمدُ لله الذي بنعمتِه تتم الصالحات، كما نسأل الله التوفيقَ والسداد.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العَالَمِينَ.





فهرس الجزء الخامس والأخير

المحتويات **الصفحة**


تم بحمد الله